فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

الأحاديث القدسية

إعداد وتقديم

عادل أبو المعاطى

دار الروضة
للنشر والتوزيع

دار الروضة

للنشر والتوزيع

٢ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
سوق الكتاب الجديد - الأزبكية

ص.ب: ٢٢٢٧ رمز بريدي: ١١٥١١

تليفون: ٥٩١٣٤٢٤ - فاكس: ٥٩٢٧٣٦٤

موبايل: ٠١٢٣٦٠٨٩٩٥

الطبعة الأولى: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

حقوق الطبع محفوظة

DAR El-RAWDAH.
2DARB El-ATRRAK. El-AZHAR

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد . . فإن الحديث القدسى هو ما رواه النبى ﷺ عن ربه تبارك وتعالى على غير النسق القرآنى ونظمه وإعجازه، ولكنه أشبه فى نظمه وأسلوبه بسائر الحديث النبوى.

ويُعدُّ الحديث القدسى فى جملة السنة النبوية لكون راويه هو النبى ﷺ، وله صيغ كثيرة يُعرف بها الحديث القدسى، وأشهرها ما كان صريحًا فى بيان هذه النسبة مثل قول النبى ﷺ: «قال الله..» أو «يقول الله..» أو «قال ربكم..» أو «يقول ربكم» أو «أوحى الله.. أن ..»، أو ما أشبه ذلك من الصيغ التى تثبت القول للرب تبارك وتعالى عن طريق إسناد فعل القول ـ أو ما يؤدى معناه ـ إسنادًا صريحًا إليه.

والحديث القدسى مبثوث فى مدونات السنة ومصنفاتها المختلفة من صحاح ومسانيد وسنن ومعاجم وجوامع وغيرها، لا يتميز دون سائر أحاديثها فى باب مستقل أو موضع محدد.

وهو منقول بطريقة الآحاد كعامة الأحاديث النبوية ولذا فإنه يخضع

لقواعد علم الحديث وعلل الرجال وما يطرأ على الأسانيد والمتون من صحة وحسن وضعف ووضع، بل إنه لإقبال العامة عليه كان مجالاً لاختراع الكذابين واختلاق الوضاعين، مما يستلزم ضرورة النظر فى أسانيده وفحص متونه، ليعرف صحيحه من سقيمه.

وليس للحديث القدسى قوة إعجاز خاصة كالقرآن الكريم، ولكنه لجلالة نسبته، ولُطْف موضوعه كان له موقع خاص فى السمع واستقبال متميز فى النفس، وأثر ظاهر فى الشعور والوجدان.

وهو لا يتعرض لتفصيل الأحكام الفقهية، ولا لبيان الشرائع التعبدية كالحديث النبوى، ولكنه يركز على بناء النفس الإنسانية وتقويمها وتربيتها على الأغراض الشرعية، والمقاصد الربانية.

فالحديث القدسى يحض النفس على الطاعات، ويحذر من المعاصى والمنكرات، ويدعو إلى الخير والفضيلة ومكارم الأخلاق، ويوجه النفس إلى حب الله وطلب رضاه، ويُرغِّب فى الجنة ويُخوِّف من النار.

وهو فى جملة القول يدور فى فلك الوعظ والتوجيه والتربية.

قال ابن حجر الهيتمى فى شرح الأربعين النووية فى شرح الحديث الرابع والعشرين، وهو حديث أبى ذر الغفارى عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى أنه قال:

«يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم مُحرَّمًا فلا تظالموا..» الحديث.

قال: «اعلم أن الكلام المضاف إليه سبحانه ثلاثة أقسام:

أولها: وهو أشرفها «القرآن» لتميزه عن البقية بإعجازه من أوجه كثيرة، وكونه معجزة باقية على ممرّ الدهر، محفوظة من التغيير والتبديل.

ثانيها: كتب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قبل تغييرها وتبديلها.

ثالثها: الأحاديث القدسية، وهى ما نُقل إلينا آحادًا عنه ﷺ، مع إسناده لها عن ربه، فهى من كلامه تعالى، فتضاف إليه، وهو الأغلب، ونسبتها إليه حينئذ نسبة إنشاء، لأنه المتكلم بها أولاً، وقد تضاف إلى النبى ﷺ؛ لأنه المخبر بها عن الله تعالى، بخلاف القرآن فإنه لا يُضاف إلا إليه تعالى».

ويقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى:

«اختلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية ليسا من عند رسول الله ﷺ؛ لأن الشخصية الأسلوبية لأى إنسان هى شخصية مميزة، ولا يمكن أن ينفعل أحد بأحداث الحياة، فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تمامًا عن الأسلوب الآخر، أو يكتب اليوم بأسلوب، وغدًا بأسلوب، وبعد غد بأسلوب، ثم يعود بعد ذلك إلى الأسلوب الأول.

إنه إذا قرأ أحدهم القرآن نقول: هذا قرآن، وإن تلا أحدهم حديثًا قدسياً نقول: هذا حديث قدسى.

وإذا قال أحدهم حديثًا نبويًا قلنا: هذا حديث نبوى.

ولكل إنسان منا شخصية أسلوبية واحدة، إذا حاول أن يخرج منها فإنها تغلبه.

والفروق الهائلة فى الأساليب بين القرآن والأحاديث القدسية، والأحاديث النبوية أكبر دليل على صدق رسالة محمد ﷺ.

فرسول الله الذى لم يقرأ ولم يكتب، هل يمكن أن تكون له ثلاثة أساليب متميزة ؟ تختلف بعضها عن بعض تمامًا، فلا توجد عبقرية فى الدنيا من يوم أن خلقت إلى يومنا هذا لها ثلاثة أساليب، لكل منها طابع مميز لا يتشابه مع الآخر.

كيف يمكن أن يفرق رسول الله ﷺ وهو يتكلم بين القرآن والحديث القدسى، والحديث النبوى. بحيث يعطى كلاً منها طابعًا وأسلوبًا يميزه عن الآخر».

تلك كانت كلمات فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى، أفاضها الله على قلبه وعقله ولسانه، فقد منحه الله سبحانه القدرة على النفاذ فيما وراء الأشياء، بالبحث وراء الألفاظ والمعانى الظاهرية للوصول إلى المفهوم العام والشامل الذى ينظم آيات القرآن في عقد واحد.

وهى القضايا الأساسية التى أنزل الحق سبحانه القرآن من أجلها، وهى:

- ألوهية الله الواحد الأحد.

- صدق رسالة محمد بن عبد الله ﷺ.

- اليوم الآخر.

إننى منذ استمعت لفضيلة الشيخ متولى الشعراوى فى السبعينيات، تلك البدايات الأولى لكثيرين ممن تتلمذوا على علمه ونهلوا من إشاراته البديعة، ولفتاته العميقة فى فهم القرآن وتفسيره.

منذ هذا الحين وأنا أوقن أن تفسير فضيلته كنز لا ينفد من العلم، بل إنه موسوعة إسلامية تتضمن كل أبواب العلم، فتجد فيه القصص، والفقه، والحكمة، والبلاغة، والبيان والبديع القرآنى، والحديث النبوى، والقدسى.

لقد بدأت منذ مدة طويلة فى إعداد هذه السلسلة من الأحاديث القدسية من خواطر فضيلة الشيخ، وها هو الجزء الأول يرى النور، عسى أن ينفع الله بها كل مُهْتَدٍ فى ظلمات ألـمَّتْ بالبشرية، وأرجو أن يمنحنا الله القدرة على متابعة الأجزاء، وأن يجعلنا من خدمة العلم الشريف.

أرجو أن يجعل الله هذه السلسلة فى ميزان حسناتنا، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وتُنشَر الصحف، وتُوزن الأعمال.

إنه نعْم المولى ونعم النصير.

عادل أبو المعاطي

القاهرة فى ٢٠ نوفمبر ١٩٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

صلة الرحم

قال رب العزة فى الحديث القدسى:

١ **« أنا الرحمن ،خلقت الرحم، وشققتُ لها اسماً من اسمى،مَنْ يصلها أصله،ومن يقطعها أقطعه فأُبتُّه»** (١).

الحق سبحانه يريد أن نتذكر دائماً أنه يحنو علينا ويرزقنا، ويفتح لنا أبواب التوبة باباً بعد آخر، فهو الرحمن ذو الرحمة الواسعة.

والرحمة والرحمن والرحيم . مشتق منها الرحم الذى هو مكان الجنين فى بطن أمه . . هذا المكان الذى يأتيه فيه الرزق . بلا حول ولا قوة . . ويجد فيه كل ما يحتاج إليه نموه ميسَّراً . رزقًا من الله سبحانه وتعالى . . بلا تعب ولا مقابل.

انظر إلى حُنُوِّ الأم على ابنها وحنانها عليه . . وتجاوزها عن سيئاته وفرحته بعودته إليها.

فهو سبحانه لا يأخذنا بذنوبنا ،ولا يحرمنا من نعمه، ولا يهلكنا بما فعلنا،ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم ، لنتذكر دائماً أبواب الرحمة المفتوحة لنا،نرفع أيدينا إلى السماء ونقول : يارب رحمتك، تجاوز عن ذنوبنا وسيئاتنا.

وبذلك يظل قارئ القرآن متصلاً بأبواب الرحمة ،كلما ابتعد عن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٩١ -١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث صحيح. وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبد الرحمن بن عوف.

الرحيـم أسرع ليعـود إليه ، فـما دام الله رحـمانًا رحيـمًا لا تغلق أبواب الرحمة أبدًا.

وحين تبدأ العمل الحلال باسم الله ، فأنت تعرف أن الحق معبود ، وله أوامر بـ « افعل» ،وله نَواهٍ بـ « لا تفعل».

وإياك أن تستحى إن كنت عـاصيًا أن تستفـتح أعمالك باسم الله ، لأن الله لا يحقد على خَلْقه، ولا يتغـير على خلقه، ولا ينفض يده من أمور خلقه.

فإن كنت قـد عصيت الله فى شىء فأقـبل على عملك باسم الله ؛لأنه رحمن؛ ولأنه رحيم، فهو سبحانه وتعـالى حين شرع عقوبة على معصية من المعاصى، فمعنى ذلك أنه أَذِنَ بأن تقع تلك المعصية.

فـإن كنت قـد عصـيت الله، وتخـجل من أن تبـدأ عـملك باسم الله الرحمن الرحـيم، فتذكّر أن الحق تـبارك وتعالى « رحـمن» و «رحيم» ، ونعرف أن الاشتقاق فى « رحمن» و « رحيم» من الرحم.

والرحم هو مكان الجنين فى بطن أمه،وهو منتهى الحنان.

ولذلك جـاء هنا فى الحـديث القدسى حـديث الله سـبحـانه عن صِلَة الرحم، والحق حَنَّان على عباده ،وعَطُوف عليهم.

كلنا نعـيش برحـمات الله،حـتى الكافـر يعيـش على الأرض برحمـة الله،ويأخذ أسباب حـياته برحمة الله،والنعم والخيرات التى يعـيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله.

والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان، والاطمئنان نعمـة كبرى، فمن يَعِشْ فى هذه الحيـاة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لونَ عظيم من الاطمئنان.

يقول الحق سبحانه:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾.

(البقرة: ١٥٦)

هؤلاء يقول عنهم:

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾..

(البقرة: ١٥٧)

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة.

والصلاة من الملائكة استغفار.

والصلاة من المؤمنين دعاء.

ويقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨)﴾. (البقرة: ٢١٨)

إن الدنيا كلها مسخرة تحت قهر الرحمن ومشيئته وتسخيره، وله تمام التصرف فى كل الكائنات، وهو الخالق البديع ،ولكن ما هى الرحمة؟

الرحمة : ألا تُبتلى بالألم من أول الأمر، أما الشفاء: فهو أن تكون مصاباً بداء ويُبرئك الله منه ، لكن الرحمة هو ألا يأتى الداء أصلاً.

والله سبحانه وتعالى يعلم عن عباده أن أحدًا منهم قد لا يبرأ من أن يكون له ذنب ، فلو حاسبنا بالمعايير المضبوطة تمامًا فلسوف يتعب الإنسان منا.

ولذلك أحب أن أقول -دائماً - مع إخوانى هذا الدعاء:

«اللهم بالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان، وبالجبر لا بالحساب».

أى : عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبإحسانك لا بالميزان، لأن الميزان يُتعبنا.

ولقد علَّمنا رسول الله ﷺ أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته، فيقول ﷺ : « **لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . فقالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا حتى يتغمدنى الله برحمته**»(١) .

إذن: فالمؤمن برجو الله ، ولا يشترط على الله ، إن المؤمن يتجه بعمله خالصاً لله ،يرجو التقبل والمغفرة والرحمة ، وكل ذلك من فضل الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٥٤) ﴾. (الأنعام: ٥٤)

والكتابة تدل على التسجيل ، ولا أحد يُوجب على الله شيئاً ؛ لأنه خالق الكون ، وله فى الكون طلاقة المشيئة، فلا أحد يكتب عليه شيئاً ليلزمه به ، ولكنه سبحانه هو الذى أوجب على نفسه الرحمة.

ومن ظواهر رحمة الله سبحانه:

﴿ **أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾.

(الأنعام : ٥٤)

وتشريع التوبة هو رحمة من الله تعالى بعباده الذين يرتكبون الذنب فى حالة الحماقة والطيش ، ويُقبلون على التوبة فوراً، هؤلاء يقبل الحق سبحانه توبتهم.

أما الذين لا يندمون على فعل السوء ، ولا يُقبلون على التوبة من فَوْر

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٨) من حديث عائشة -رضى الله عنها.

ارتكاب الذنب ، وينتظر الإنسان منهم مجيء الموت ليتوب قبله . أى : وهو فى حالة الغرغرة- وهى تردد الروح فى الحلق عند الموت.

هؤلاء لا تُقبل لهم توبة.

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

(النساء : ١٨)

والحق سبحانه وتعالى تواب ورحيم، وكلمة تواب صيغة مبالغة، وكلمة رحيم صيغة مبالغة، وهذا لا يعنى بالنسبة لله أن هناك صفة لله تكون مرة ضعيفة ومرة قوية،فكل صفات الله واحدة فى الكمال المطلق.

وصيغة المبالغة فى الخلق إما أن تنشأ فى قوة الحدث الواحد، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد.

إن قولك « الله تواب» معناه ، أنه عندما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر . فالتوبة تتكرر.

وإذا تاب الحق فى الكبائر ، أليست هذه توبة عظيمة؟

هو تواب ورحيم ؛ لأنه سبحانه وتعالى يتصف بعظمة الحكمة والقدرة على الخلق والإبداع ،وهو الذى خلق النفس البشرية ، ثم قنن لها قوانين.

وهو سبحانه حين تاب على العاصى رحم من لم يَعْصِ، إنه القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾. (النساء:١٦)

ولو قال الحق: إنه تواب فقط ، لأذنب كل واحد منا لكى يكون الوصف معه، وقائم به لا محالة، ولكنه قال أيضاً: ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾. (النساء:١٦)

أى : أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أى معصية من البداية ، فالرحمة ألا تقع فى المعصية.

حسن الظن بالله

قال سبحانه في الحديث القدسي:

٢ « أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسي ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإن اقترب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعًا ، وإن اقترب إلىّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» (١).

إن الحق سبحانه يريد أن ينبهنا إلى أن المفتاح فى يدنا نحن، فإذا بدأنا بالطاعة ، فإن عطاء الله بلا حدود، وإذا تقربنا إلى الله تقرب إلينا ، وإذا بعدنا عنه نادانا ، هذا هو إيمان الفطرة.

فالله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع فى يدنا مفتاح الجنة ، ففى يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذى يقوده إلى الجنة أو إلى النار ، ولذلك إذا وفيت بالعهد أوفى الله ،وإذا ذكرت الله ذكرك، وإذا نصرت الله نصرك.

فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾. (البقرة: ٤٠)

وفى آية أخرى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾. (البقرة: ١٥٢)

وفى آية ثالثة يقول الحق:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ⑦ ﴾. (محمد : ٧)

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥، ٧٥٠٥، ٧٥٣٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة. قال الترمذى : حديث حسن صحيح.

إذن : فبمجرد إيمانك ملكك الله الزمام، فإن أردت أن يتقرب الله إليك ذراعًا ، فتقرب أنت إليه شبرًا ، فالزمام فى يدك. وإن شئت أن يتقرب الله منك باعًا، فتقرب أنت ذراعًا ، وإن شئت أنت أن يأتى ربك إليك مهرولاً-جريًا- فأت إليه مشيًا ، فبمجرد أن يراك الله وأنت تقبل وتتجه إليه ، كأنه يقول لك: لا . استرح أنت ، أنا الذى آتى إليك.

لقد طلب الله منك أن تحضر بين يديه خمس مرات فى اليوم ، ولكن هل منعك أن تقف بين يديه فى أية لحظة ؟ لا . بل ترك الباب مفتوحاً لك تأتيه وقتما تشاء، فإن الله لا يمل حتى يمل العبد.

وأنت فى حياتك العادية - ولله المثل الأعلى- إذا أردت أن تقابل عظيماً من العظماء فإنك تطلب منه تحديد ميعاد ، فإما أن يقبل العظيم من البشر لقاء من يطلب الميعاد أو يرفض ، فإذا قبل فإنه يحدد الزمان ويحدد المكان، وربما طلب ذلك العظيم معرفة سبب وموضوع المقابلة.

أما الله سبحانه وتعالى - وله المثل الأعلى فى السموات والأرض- فإنه يترك الباب مفتوحاً أمام عبده المؤمن، ليلقاه العبد فى أى شىء ، وفى أى وقت ، وفى أى مكان ،وفى أى زمان.

حَسْب نفسى عِزاً بأنى عَبْدٌ   يَحْتَفِى بِى بلا مَواعِيد رَبٌّ
هُوَ فى قُدْسِه الأعزّ ولكِنْ   أنا أَلْقى مَتَى وأين أُحبُّ

الزمام إذن فى يد من؟ إن الزمام فى يد العبد المؤمن.

فسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية الأوقات كلها فى يدك، وتستطيع أن تقف بين يدى الله فى أى لحظة.

وهو جل وعلا يوضح لك: استرح أنت وسأمشى لك أنا ؛ لأن الجرى قد يتعبك لكنى لا يعترينى تعب ولا عِىٌّ ولا عجز.

وكأن الحق سبحانه لا يطلب من العبد **إلا** أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه.

إذن: فالمسألة كلها فى يدك، بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به، ولذلك يقول سبحانه:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** .. ﴾. (المائدة: ٥٤)

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد، وهم يردون على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد ، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات، حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له.

ولنا أن نلحظ أن حب الله قد سبق حبهم فى هذا القول الكريم : ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾؛ لأن هذه هى صفة الانكشاف للعلم، لقد علم الحق سبحانه أنهم سيتجهون إليه فأحبهم، وعندما جاءوا فعلوا ما جعلهم محبوبين لله.

وساعة تقرأ القرآن تجد أن الله يحب أصنافًا من الخلق ، قد أتوا بما يحبه الله من الأفعال والسلوك فى الحياة.

فيقول الحق سبحانه:

﴿ **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٩٥) ﴾. (البقرة: ١٩٥)

ويقول : ﴿ .. **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** (٢٢٢) ﴾ .

(البقرة: ٢٢٣)

ويقول: ﴿ .. **فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** (٧٦) ﴾. (آل عمران: ٧٦)

ويقول: ﴿ .. **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** (١٤٦) ﴾. (آل عمران: ١٤٦)

ويقول: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** (١٥٩) ﴾. (آل عمران: ١٥٩)

ويقول: ﴿ . . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾. (المائدة: ٤٢)

هؤلاء جميعاً استحقوا حب الله لهم واستحقوا رحمة الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾. (الأعراف : ٥٦)

فالذى يحدد قرب الرحمة منه هو الإنسان نفسه ، فإذا أحسن قربت منه رحمة الله ، فالزمام فى يد الإنسان، فإذا كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فعليك بالإحسان.

هذه هى رغبة الكريم سبحانه فى أن يعطى بشرط أن نكون أهلاً للعطاء؛ لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر.

واقرأ قول الحق: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾. (إبراهيم: ٧)

فالشكر هنا موجه من العبد للرب،والزيادة من الرب إلى العبد .

والإنسان حين يضع كل المسائل فى ضوء منهج الله،فالله شاكر عليم؛ لأن الله يرضى عن العبد الذى يسير على منهجه، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطى له زيادة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾. (يونس: ٢٦)

والحسنى : هى الجنة. أما الزيادة فقد قال المفسرون: إنها رؤية المحسن. فحب الله لعباده هو دوام فيوضاته على من يحب. هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالحق يلقاه فى أحضان نعمه ، ويتجلى عليه برؤيته.

والزيادة هنا زيادة تليق بمن زادها سبحانه وتعالى،وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾. (النساء: ٣١)

فأنت عندما تجتنب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط، بل يدخلك الله مدخلاً كريماً، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك فى مدخله ، فانظر إلى المدخل الكريم من الله وما شكله؟

ورسول الله ﷺ يقول: « **إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟. فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»[1] .

وبعض العلماء يرى فى قول الحق سبحانه:

﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾. (البقرة: ٢٨٤)

أن الله قد جعل المغفرة أمراً متعلقاً بالعابد لله ، فإن شئت أن يغفر الله لك فأكثر من الحسنات حتى يبدل الله سيئاتك إلى حسنات، وإن شئت أن تُعذَّب- وهذا أمر لا يشاؤه أحد- فلا تصنع الحسنات.

وهذا يعرفنا أن الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا الإيمان به فإنه يُملكنا الزمام، وبمجرد إيماننا به فنحن نتلقى منه زمام الاختيار.

وهذا من مظاهر لطف الله سبحانه بعباده، فهو الذى إذا ناديته لبَّاك، وإذا قصدته آواك، وإذا أحببته أدناك، وإذا أطعته كافاك، وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذى منحك عافاك، وإذا أعرضت عنه دعاك، وإذا قربت من الله هداك.

ولكن ما هو الذكر المقصود فى هذا الحديث القدسى؟

إن عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذى أوجد بينهم خلافاً كبيراً، فالإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨١) ، وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢،٣٣٣) والترمذى فى سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب بن سنان الرومى.

أكنت ناسياً أم عامداً ، فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تُسمِّ ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل.

أما الإمام الشافعي فيرى : ما دُمْتَ مؤمناً ومُقْبِلاً على الذبح وأنت مؤمن فكُلْ مما لم تذكر اسم الله عليه ناسياً أو عامداً ؛ لأن إيمانك ذكر لله.

فهل الذكر أن تقول باللسان؟ أو الذكر أن يمر الشئ بالخاطر؟

إن كنتم تقولون: إن الذكر باللسان. فلنبحث عن معناه في هذا الحديث القدسي: « أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى،وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم».

إذن: فقد سمى ربنا الخاطر فى النفس ذكراً، وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعى أن يقول ما قال.

لذلك أقول: يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهى الخلاف حول هذه المسألة، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى الذكر؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال،وقد يظل خطوراً على البال فقط.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ .

(البقرة: ١٥٢)

أى: اذكروا الله فى كل شىء: فى نعمه ، فى عطائه، فى ستره ، فى رحمته، فى توبته.

فلتذكروا نعم الله عليكم وفضله ، فلا تنسوه، فلتعيشوا دائماً فى ذكر

مَنْ أنعم عليكم ، فالله سبحانه وتعـالى يريد من عباده الذكر، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم.

ورسول الله ﷺ يقول:

« إن لله ملائكـة يطوفون في الطرق يلتمسـون أهل الذكر،فـإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلمّوا إلى حـاجتكم. فـيحفونهم بأجنحـتهم إلى السماء الدنيا . قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادى ؟

فيقولون: يسـبحونك ويُكبِّرونك ويَحمدونك ويُمجِّدونك. فيقول: هل رأونى ؟ فيقولون: لا ، والله ما رأوك.

فيقول سبحانه: وكيف لو رأونى؟

قال: لو رأوك كـانوا أشدَّ لك عبادة ، وأشـدَّ لك تمجيداً ،وأكـثر لك تسبيحاً.

فيقول: فما يسألونى؟

قالوا: يسألونك الجنة.

فيقول: وهل رَأَوْها ؟

قالوا: لا والله يارب ما رأوها.

فيقول سبحانه :فكيف لو أنهم رَأَوْهَا ؟

يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشـدَّ عليها حرصاً ، وأشـد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة.

يقول تعالى: فمِمَّ يتعوَّذون؟

يقولون: من النار.

فيقول: وهل رَأَوْها؟

يقولون : لا والله ما رأوها.

فيقول: فكيف لو رأَوْها؟

يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة.

يقول: أُشهدكم أنِّى قد غفرتُ لهم.

فيقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجته.

فيقول سبحانه: « **هم الجلساء لا يَشْقَى بهم جليسهم**»(١).

والحق سبحانه يُعطينا مثالاً من حـياتنا على حُسْن ظنٍّ العبد به، فالحق سبحانه يهب لمن يشاء إناثاً ، ويـهب لمن يشاء الذكور، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً.

وتجـد أن الأزواج المفتـقدين للإنجـاب يعيـشون فى ضـيق ؛ لأنهم فى حياتهم ساخطون على قدر الله ، فيجعل الله حياتهم سخطاً.

فمن وهبه الله الإناث تجده سعيداً، وكذلك عندما يهبه الله الذكور.

وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط ، فالزوجة تَحِنُّ أن يكون لهـا ابنة، وإن وهب الحق لأسرة ذرية مـن الإناث فقط ، فـالمرأة والرجل يتمنيـان الابن، وإن أعطاهما الله الذكـور والإناث نجدهما قـد وصلا إلى الحالة التى تقر بها العيون.

وأخيراً يأتى سبحـانه بالقدر الرابع الذى يجريه على بعض خَلْقه ،وهو : ﴿ **وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا** ﴾. (الشورى: ٥٠)

لماذا يُسر الإنسان بـقدر الله حينما يهبـه الله الإناث أو الذكور، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه سبحانه الذكور والإناث ؟

ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقـدر الله حينما يجعلك عقيمـاً؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذى تهواه ، وترد القدر الذى ليس على هواك؟

---

(١) أخرجـه البخارى فى صحيحه (٦٤٠٨) وأحمـد فى مسنده (٢/ ٢٥٢،٣٥٩،٣٨٣) والترمذى فى سننه (٣٦٠٠) من حديث أبى هريرة.

إن المواقف الأربعة هى قدر من الله.

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضى بها.

إنه سبحانه يخلق ما يشاء، ويجعل من يشـاء عقيماً، إن قالها الإنسان باستقـبال مطمئن لقـدر الله ، فالله قد يقر عـينه كما أقر عـيون الآخرين بالإناث أو الذكور، أو بالذكور والإناث معاً.

ولو أن إنســاناً - أو زوجين- أخذا قـدر الله فى العقم كـما أخـذاه فى غيره من المواقف السابقة بـرضا، وحُسن ظنهما فى الله إلا رزقهم الله ،لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم فى الحمل والتربية وغيرها، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد ربَّاهم غيرهم.

أغنى الشركاء

يقول الله فى الحديث القدسى:

٣ « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشِركه»[١].

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

(البقرة: ١٦٣)

تلك هى قضية الحق الأساسية ، و﴿إلهكم﴾ يعنى أن المعبود إله واحد.

و « لا إله إلا هو» قضية ثانية ، لأن غفلة الناس هى التى جعلت بعضاً من نفوس الناس تلتفت إلى آلهة أخرى.

والقرآن لا ينفى ،ويقول « لا إله إلا هو» إلا حين توجد غفلة تعطى الألوهية لغير الله ، أو تعطى الألوهية لله ولشركاء معه.

إن القرآن ينفى ذلك ويقول « لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» وليس هناك شىء غير الله إلا نعمة منه سبحانه أو مُنْعَم عليه.

إن ما دون الله إما نعمة ، وإما منعم عليه بالنعمة، وهذه كلها نفح الرحمن، ونفح الرحيم، وما دام كل شىء ما عدا الله إما نعمة وإما مُنْعَم عليه، فلا تُوصف النعمة بأنها إله ، ولا يُقال فى المنعم عليه : إنه إله.

إنك حين تعتقد أن لله شركاء تكون قد أتعبت نفسك تعب الأغبياء ، وتكون قد ظلمت نفسك ظلماً عظيماً.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) واللفظ لمسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

واقرأ قول الله :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ .

(الزمر : ٢٩)

فعبد مملوك لعشرة أسياد، وياليت العشرة الأسياد متفقون ، بل هذا يقول له: اذهب ،وهذا يقول له: تعال.

فالعبد المملوك لشركاء تعيس ؛ لأن الشركاء غير متفقين ، إنهم شركاء متشاكسون ، فإذا رآه سيد يفعل أمراً لسيد آخر ، أمره بالعكس ، وبذلك يتبدد جهد هذا العبد ويكثر تعبه.

فكأن الله يريد أن يوضح لنا الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد ، وبين الخاضع لسادة كثيرين ، بينهم نزاع وشقاق ، فالآخر منهما يكون مشتتاً مُوزَّع النفس ، كذلك الذين كفروا أشركوا مع الله آلهة أخرى ، تصاب ملكاتهم بالاضطراب.

فذلك العبد لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التى تتضارب ، فإن أرضى هذا أغضب ذاك، فهو عبد مُبدَّد الطاقة ، موزع الجهد ، مقسم الالتفافات.

أما العبد المملوك لواحد ،فإنه لا يتلقى أمرًا إلا من سيد واحد ، ونهياً من السيد نفسه.

فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن تكون قد ارتحت فى الوجود ، وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد ونهى واحد ،هنا تصبح سيداً فى الكون، فلا تجد فى الكون من يأخذ منك عبوديتك للمكوِّن.

تلك هى راحتنا فى تنفيذ قول الله سبحانه:

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾. (النساء: ٣٦)

ويا ليت المشركين حين يشركون يأخذون عون الله ، ولا يأخذون عون الشركاء ، لكن الله يتخلى عن العبد المشرك ؛ لأنه سبحانه يقول فى هذا الحديث القدسى:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»

الحق سبحانه يتخلى عن العبد المشرك، وليت العبد المشرك يأخذ حظه من الله كشريك، وإنما ينعدم عنه حظ الله ؛ لأن الله غنى أن يُشرك معه أحداً آخر، وهكذا يكون المشرك بلا رصيد إيمانى، ويحيا فى كدٍّ وتعب.

فأصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له، وحين تعترف بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له ، فأنت تدخل حصن الأمان.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف:

« أشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة»[1].

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾. (النساء: ٤٨)

هذه المسألة ليست لصالحه سبحانه، إنما لصالحكم أنتم، حتى لا تتعدد آلهة البشر فى البشر ، ويرهق الإنسان ، ويشقى من كثرة الخضوع لكل مَنْ كان قوياً عنه ، فأعفاك الله من هذا وأوضح لك:

لا، اخضع لواحد فقط يكْفِكَ كل الخضوع لغيره ، واعمل لوجه واحد يكْفِكَ كل الأوجه ، وفى ذلك راحة للمؤمن.

إن الإيمان إذن يُعلِّمنا العزة والكرامة ، وبدلاً من أن تنحنى لكل مخلوق اسجد للذى خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧) كتاب الإيمان.

فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة، هل أنتم زِدْتم له صفة؟

لا ، فهو بصفات الكمال أوجدكم، وبصفات الكمال كان قيوماً عليكم، فأنتم لم تضيفوا له شيئاً ، فكونك تشهد أن لا إله إلا الله ، ما مصلحتها بالنسبة لله؟

إن مصلحتها وفائدتها تكون للعبد فحسب.

إذن : فالمسألة فى مصلحة العبد : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾(النساء : ٤٨)؛ لأنه لو غفر أن يشرك به لتعدد الشركاء في الأرض، وحين يتعدد الشركاء فى الأرض يكون لكل واحد إله ،وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة.

لكن الخضوع لإله واحد نأتمر جميعاً بأوامره يعزنا جميعاً، فلا سيادة لأحد ،ولا عبودية لأحد عند أحد، فقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾. (النساء:٤٨)

هذا لمصلحتنا.

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. إما أن تكون هذه الكلمة صادقة فننتهى،وإما ألا تكون صادقة -والعياذ بالله- أى أن هناك أحداً آخر معه،وهذا الآخر سمع أن هناك واحداً يقول: لا إله إلا أنا.

أسكتَ أم لم يسمع؟ إن لم يكن قد سمع فيكون إلهاً غافلاً ،وإن كان قد سمع فلماذا لم يعارض ويقول: لا . لا إله إلا أنا ،ويأتى بمعجزة أشد من معجزة الآخر،ولم يحدث من ذلك شىء.

إذن: فهذه لا تنفع ،وتلك لا تنفع. فـ « لا إله إلا الله» حين يطلقها الله ويأتى بها رسول الله ويقول الله : أنا وحدى فى الكون ،ولا شريك لى،ولم ينازعه فى ذلك أحد، فالمسألة صادقة لله بالبداهة، ولا جدال.

والحق سبحانه يقول: ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)** ﴾ (الأعراف: ١٩١)

أيشركون فى عبادة الله من لا يخلقون شيئاً ،وهم أنفسهم مخلوقون لله، إن من أشركوا بالله الأصنام فعلوا دلك بالوهم وتنازلوا عن العقل،وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

والخلق- كما نعلم- أول مرتبة من مراتب القدرة ، فإذا كانت الأصنام التى اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم، فكيف يعبدونها؟

إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل ، بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم.

لذلك كان الشرك ظلماً عظيماً ، والظلم -كما نعرف- هو أخذ الحق من ذى الحق وإعطاؤه لغيره، وقمة الظلم هو إضفاء صفة الألوهية على غير الله،وهو الشرك.

ولذلك يقول الحق:

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ .

(لقمان: ١٣)

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق،ومن لم يرزق شريكاً لمن خلق ورزق . . وذلك الذى جعلته إلهاً كيف يعبد؟

وظلم الناس يعود على أنفسهم، لأنه لا أحد من خلق الله يستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى.

وقد يكون الشرك رياء وطلباً للسمعة بين الناس ، فقد يجعل بعض الخلق شريكاً لله فى العبادة، فيجعل صلاته ظاهرية رياء ،ومناسكه ظاهرية رياء،وحياته يجعلها لغير واهب الحياة، ويعمل حركاته كلها لغير واهب الحركات.

لذلك عليك أن تتذكر أن الله لا شريك له.

﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ . (الأنعام: ١٦٣)

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته ﷺ ، والأوامر التى صدرت عن الرب هى لصالحك أنت ، فسبحانه أهلٌ لأن يُحب، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا.

ويُجمل الحق سبحانه هذا فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ .

(الأنعام: ١٦١ - ١٦٣)

والحق سبحانه يقول فى حديثه القدسى:

« أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى ، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم لله عز وجل، فإن الله لا يقبل إلا ما أُخْلصَ له ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم ، فإنها للرحم وليس لله منها شىء ، ولاَ تقولوا: هذا لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس لله منها شىء»[1].

فأنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيرًا، ولكن إن عملت معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله.

ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل ،وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإن أطعمت فقيرًا فلتطعمه لوجه الله.

وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك: إنك صاحب مروءة، ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير ،وألا يأتى منهم خبر هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال: تلك اللافتات التى تُوضع على المساجد بأسماء من

---

(١) سنن الدارقطنى (١/ ٥١) عن الضحاك بن قيس الفهرى.

قامـوا بتأسيسـهـا ، فمن بُنِى من أجله المسجـد وهو الله عليم بكل شىء ،ويعلم اسم من أقام البناء، وعليك أن تسـميه بأى اسم لا يمت لك بصلة حتى لا تدخل فى دائرة « عملت ليقال وقد قيل».

وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله ، لا أن يقـاتل من أجل أن يقال: إنه شـجاع: لأنه إن فـعل ، حبط عـمله وكان من الخاسرين ؛ لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ويبين الرسول ﷺ جزاء المرائين فى حديثه الشريف الذى يقول فيه ﷺ :

« أول الناس يُقـضى لهم يوم القيـامة ثلاثة: رجل اسـتشـهد فـأتى به فعـرَّفه نعـمه فـعرفـها، قـال: فمـا عملت فـيهـا؟ قال: قـاتلت فيك حتـى استشهدت. قال: كذبت ، ولكنك قاتـلت ليقال فلان جرىء ،فقد قيل ،ثم أمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقى في النار».

«ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقـرأ القرآن فأتى به ، فعرّفـه نعمه فعـرفها . قال: فما عـملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمتـه، وقرأت فيك القرآن . قال: كـذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم ، وقـرأت القرآن ليـقال قارىء، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى ألقي فى النار».

«ورجل وسَّع الله عليـه، وأعطاه من أصناف المـال كله، فأتـى به فعـرَّفـه نعمه فعـرفها ، فقال: فمـا عملت فيها؟ قال: مـا تركت من سبيل تحب أن يـنفق فيها إلا أنفقتْ فـيها لك. قال: كذبت ، ولكن ليقال : إنه جـواد فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ، فأُلقى فى النار» (١).

وعلى ذلك فالإنسـان إن لم يضع الله فى باله وهو يعمل فسـوف يجد الله يحاسبه على أساس أن عمله غير مقبول.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٢) والترمذى فى سننه (٢٣٨٢) عن أبى هريرة. قال الترمذى : حديث حسن غريب.

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية ثانية:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ . (إبراهيم: ١٨)

ولك أن تتصور ماذا تفعل العاصفة فى الرماد ؟

إنها لا تُبقى منه شيئاً ،والمشـرك الذى كان يدخل المسجد ويسقى الناس من عصير العنب غير المخمَّر، ويقـوم بعمارة المسجد الحرام قبل تحريم الله لدخول أمثاله إلى هذا المكان.

هذا المشرك لم يكن ليأخذ ثواباً ؛ لأنـه ارتكب خيانة عظمى بأن أشرك بالله، بينما يأخـذ المؤمن الثواب؛ لأنه يدخل المسجـد ويعمره فهـو مؤمن بالله ، ولا يشرك به شيئاً.

﴿ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) ﴾ . (التوبة: ١٧)

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَالَّذِيـنَ يُـنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ الـنَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِالـلَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) ﴾ . (النساء : ٣٨)

تحدثنا هذه الآية الكريمة عن الذى ينفق لكن الغاية غير واضحة عنده ، الغاية ضعيفة لأنه ينفق رئاء الناس ، إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس.

ولذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر مَنْ يُثمِّن عطاءك .

فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسـان فهو يُثمِّن هذا الشىء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثمِّنه سبحانه؟

لابد أن يكون الثمن غالياً.

إذن : فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمـة ، ولنا الأسوة فى سيدنا عثمان

-رضى الله عنه- عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ، ثم يبيعوها ليربحوا ، وقال لهم : جاءنى أكثر من ثمنكم ،وفى النهاية قال لهم: أنا بِعْتُها لله.

إذن: فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، فالذى يعطى رئاء الناس نقول له: أنت خائب ، لأنك ما ثمنت نعمتك، بل ألقيتها تافهة الثمن.

ماذا سيفعل لك الناس؟

هم قد يحسدونك على نعمتك ، ويتمنون أن يأخذوها منك ، فلماذا ترائيهم؟

إذن : فهذه صفقة فاشلة خاسرة.

ولذلك قال الحق:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ .

(التوبة: ١١١)

وما دام سبحانه هو الذى اشترى فلابد أن الثمن كبير ، لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها.

والذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة، لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله ،ولذلك شبَّه عمله فى آية أخرى بقوله:

﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ .

(البقرة: ٢٦٤)

والذى ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان ، ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد.

فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة ، وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أغلى ، فلماذا تعطيها للأقل ثمناً؟

إنك إن فعلت فقد خبت وخسرت فأوضح لك الحق: ما دُمْتَ تريد رئاء الناس ، إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشترى بأغلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء ، فالعطاء يستقبله الله بحسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يُضيق مجال الإعطاء ، فقال:

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾. (البقرة : ٢٧١)

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة.

فالحق سبحانه يوضح: إياك أن تنفق وفيك رئاء، أما مَنْ يُخرج الصدقة،وفى قلبه رياء ، فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْط ؛ لأنه سبحانه يؤكد :خذوا منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع.

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) ﴾. (النساء : ١٤٢)

إن المنافق يؤدى الصلاة ليستتر بها عن أعين الناس، ولذلك يقوم إليها بتكاسل.

هم يقيمون الصلاة ظاهرياً أمام الناس ؛ ليخدعوا المسلمين وليشاهدهم

غيرهم وهم يصلون ، وفى الصلاة التى يراءون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها يقولون فقط المطلوب قوله جهراً ، كأن يقرأوا الفاتحة وبعض القرآن ، ولكنهم فى أثناء الركوع لا يسبحون باسم الله العظيم ، وكذلك فى السجود لا يسبحون باسم الله الأعلى.

ففى داخل كل منافق تياران متعارضان . تيار يظهر به مع المؤمنين ، وآخر مع الكافرين . والتيار الذى مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ويذكر الله قليلاً ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك، ولا يذكر الله كثيراً.

ونجد المنافق لا يفعل فعلاً إلا إذا كان مرئياً ومسموعاً من غيره ، هذا هو معنى المراءاة ، أما الأعمال والأقوال التى لا تُرى من الناس ولا تُسمع فلا يؤديها.

ولا يهز المجتمعات ، ولا يزلزلها ، ولايهدُّها إلا هذه المراءاة ؛لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدى المسلم كل عمل جاعلاً الله فى باله ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية.

ويلفتنا إلى هذه القضية سيدنا محمد ﷺ حيث يقول عن الإحسان :

« **أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »(1) .

وإذا كان الإنسان يخجل من أن يغش واحداً مثله من البشر غشاً ظاهرياً، فما بالنا بالذى يحاول غش الله وهو يعلم أن الله يراه؟ ولماذا يجعل ذلك العبد ربه أهون الناظرين إليه؟

وينقل لنا رسول الله ﷺ حال المرائى للناس فيقول:

«**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك**

---

(1) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٧) ومسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة.

الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟ » .

وقال ﷺ:

« إن المرائى يُنادَى عليه يوم القيامة : يا فاجر . يا غادر. يا مرائى . ضَلَّ عملك ، وحبط أجرك ، فخذ أجرك ممن كنت تعمل له».

إذن : فالمنافق إنما يخدع نفسه ،وهو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس ، ويُزكّى ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ،وهو يعمل ما أمر الله به ، ولكنه لا يعمل لله.

الصلاة المقسومة

يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى:

٤ «قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل.

فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين. قال الله عز وجل: حمدنى عبدى.

فإذا قال : الرحمن الرحيم .قال الله عز وجل: أثنى علىَّ عبدى.

فإذا قال: مالك يوم الدين.قال الله: مجدنى عبدى.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين . قال الله: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل.

وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال الله عز وجل :« هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»[١] .

فاتحة الكتاب هى أم الكتاب ، لا تصلح الصلاة بدونها ، فأنت فى كل ركعة تستطيع أن تقرأ آيات من القرآن الكريم ، تختلف عن الآيات التى قرأتها فى الركعة السابقة، وتختلف عن الآيات التى قرأتها فى باقى صلواتك.

ولكن إذا لم تقرأ الفاتحة فسدت الصلاة ،ولذلك قال رسول الله ﷺ : **«من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج -ثلاثاً -غير تمام »**[٢] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤١،٢٨٥،٤٦٠)، وابن ماجه فى سننه (٣٧٨٤) وغيرهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) هذا بداية الحديث القدسى الذى معنا، وقد سبق تخريجه.

أى : غير صالحة.

فالفاتحة أم الكتاب التى لا تصلح الصلاة بدونها.

والحق سبحانه لم يقل فى الحديث القدسى : قسمت الفاتحة بينى وبين عبدى ،ففاتحة الكتاب هى أساس الصلاة ،وهى أم الكتاب.

والصلاة هى إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى ،وهى أيضاً استحضار العبد وقفته بين يدى ربه، وحينما يقف العبد بين يدى الله ، لابد أن يزول كل ما فى نفسه من كبرياء، ويدخل بدلاً منه الخشوع والخضوع والذلة لله، والمتكبر غافل عن رؤية ربه الذى يقف أمامه.

الخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ، ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون ، ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة.

ذلك أننا نعيش فى عالم الأغيار، ولذلك فلنخضع للذى لا يتغير ؛ لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من الله ،وليس من ذاته.

والذى يغترون بالأسباب نقول لهم: اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها ؛ لأن الأسباب لا تعمل بذاتها.

ولذلك لابد أن نفهم أن الإنسان الذى يستعلى بالأسباب سيأتى وقت لا تعطيه الأسباب ، فالإنسان إذا بلغ فى عينه وأعين الناس مرتبة الكمال اغتر بنفسه.

نقول له: لا تغتر بكمالات نفسك ، فإن كانت موجودة الآن فستتغير غداً، فالخشوع لا يكون إلا لله.

والخاشع هو الطائع لله، الممتنع عن الحرام ، الصابر على الأقدار ، الذى يعلم يقيناً داخل نفسه أن الأمر لله وحده، وليس لأى قوة أخرى ، فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له.

والصلاة تهب المؤمنين الاطمئنان، فالمؤمن يذهب إلى الخالق ليسأله أن يخفف عنه الهمَّ والحزن، وقد كان رسول الله ﷺ أول من يفعل ذلك، فكان إذا ما حزبه أمر قام إلى الصلاة.

وما معنى حزبه أمر ؟

أي : إن جاءه شيء أو أمر ، وكان فوق طاقته وفوق أسبابه، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاهه، وتضيق عليه الأمور.

فلماذا لا يتبع الواحد منا رسول الله ﷺ كأسوة حسنة ؛ فإن قابل أمراً مكروها وشاقًا يقول: إن لى ربًا أذهب إلى بيته وأصلى فأقف فى حضرته، فتُحلّ أصعب وأعقد المشكلات.

إذن : فساعة يأتينا أمر شديد ، لابد أن نتجه إلى الله عز وجل ، وأفضل مكان يلتجئ فيه إلى الله تعالى هو بيته.

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقول: ماذا سيفعل الله لى، أو لذلك الذى يعانى من شيء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو.

ونقول: هذا الظاهر من الأمر ، ولكنك لا تعرف ماذا حدث في داخله، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية، ولكن الله سبحانه وتعالى يعالج داخل النفس دون أن تحس أنت؛ لأن المساجد هى مطالع أنوار الله تعالى،وهى التى يتنزل فيها النور على النور الذى يُصلح الحياة الدنيا ويرتقى بها ؛ لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن ، وتدخل النفوس فتجعلها تحس بالرضا والأمن.

نحن فى المساجد نعيش فى حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منه التجليات والفيوضات التى تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم.

أنت فى بيت الله تكون فى ضيافة الله ، وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد

فى بيتك على غير دعوة فأنت تُكرمه ، فإذا كان المجىء على موعد فكرمك يكون كبيراً ، فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته، فأنت فى صلاة منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعداداً للصلاة فى المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمة أن تكون فى حضرته.

فالصلاة إذن خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أن تفيق إلى نهجه الذى يصلح بالك، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب ، ولا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد الله سبحانه.

إذن : فالله سبحانه وتعالى يريد منا الولاء دائماً ، فإذا كنت تعتز بالله فأنت تديم الولاء له باستمرار الصلاة ، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له، فإنه سبحانه يزيدك عزة ، ويكون معك دائماً ،ويقيك ذل الدنيا.

إن الإنسان إذا ما أراد أن يقابل عظيماً من العظماء فهو يطلب المقابلة ، وقد يقبل هذا العظيم مبدأ اللقاء وقد لا يقبل ، فإن قبل حدد اليوم والساعة والمكان ووقت الزيارة، فإن أردت أن تطيل فهو يقوم واقفاً إعلاناً بأن الزيارة قد انتهت.

ولكن الحق سبحانه وتعالى بمطلق الكرم لا يعامل خلقه هكذا ، فبيته مفتوح دائماً حين يدعوك للصلوات الخمس، فهذا أمر ضرورى ، ولكن بين الصلوات الخمس إن أردت لقاء الله فسبحانه يلقاك فى أى وقت ، وتدعوه بما تشاء ، وتطيل فى حضرته كما تريد ، ولا يقول لك أحد: إن الزيارة قد انتهت.

يقول الشاعر:

حَسْبُ نَفْسي عِزاً بأنِّي عبدٌ
يَحْتفي بي بِلا مواعيدَ ربٌّ
هُوَ في قُدْسِهِ الأعزِّ ولكِنْ
أنا أَلْقى مَتى وأينَ أُحِبُّ

❊ ❊ ❊

والحق سبحانه يقول في هذا الحديث القدسي : « **ولعبدي ما سأل** » .

فالله سبحانه وتعالى في عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان ، وأن يدعوه ويستعين به، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا الذل في الدنيا ، فأنت إن طلبت شيئاً من صاحب نفوذ، فلابد أن يحدد لك موعداً أو وقت الحديث ومدة المقابلة، وقد يضيق بك فيقف لِيُنهي اللقاء.

ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائماً، فأنت بين يديه عندما تريد، وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب، وتسأل الله ما تشاء، فيعطيك ما تريده إن كان خيراً لك ، ويمنع عنك ما تريده إن كان شراً لك.

والله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله ، فيقول:

﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)** ﴾ . (غافر : ٦٠)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)** ﴾ . (البقرة: ١٨٦)

الدعاء بالفطرة يتجه إلى الله ،والدعاء هو طلب الشيء، والطلب

يقتضى طالباً ، ومطلوباً ، ومطلوباً منه ، والطالب هو مَنْ يدعو ، والمطلوب منه: هو من ندعوه ونسأله، والمطلوب : هو الشىء الذى نتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث.

وقد دعا زكريا ربه فقال:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴾.

(آل عمران: ١٣٨)

هذا كان دعاء زكريا ، فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ؟ أم أن الله يجيب الدعاء؟

إنه يضع كل أمله فى الله ، وكأنه يقول : إنك يا رب من فور أن تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك؛ لأنك يارب تعلم صدق نيتى فى أننى أريد الغلام، لا لشىء من أمور كقُرَّة العين، والذكر، والعز، وغيرها.

إنما أريد الولد ليكون وارثاً لى فى حمل منهجك فى الأرض.

«حمدنى عبدى»

فالله محمود لذاته، ومحمود لصفاته، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه.

الله محمود قبل أن يخلق مَنْ يحمده ، ومن رحمة الله سبحانه أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما: الحمد لله .

والعجيب أنك حين تشكر بشرًا على جميل فعله تظل ساعات وساعات تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس ، حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب ملىء بالثناء والشكر.

ولكن الله سبحانه وتعالى جَلَّتْ قدرته وعظمته ، نعمه لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، علَّمنا أن نشكره فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله.

ومن رحمة الله سبحانه أنه علَّمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركه دون أن يحددها بكلمتين لكان من الصعب علىٰ البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهى.

فمهما أوتِى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير، فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم.

فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته؟

والحقُ تبارك وتعالى شاء عَدْله أن يُسوِّى بين عباده جميعاً فى صيغة الحمد له، فيعلمنا فى أول كلماته فى القرآن الكريم أن نقول : ﴿ الحمد لله ﴾ ؛ ليعطى الفرصة المتساوية لكل عبيده ، بحيث يستوى المتعلم وغير المتعلم في عطاء الحمد، ومَنْ أُوتِى البلاغة ، ومَنْ لا يحسن الكلام.

ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علَّمنا كيف نحمده ، وليظل العبد دائماً حامداً . . ويظل الله دائماً محموداً . . فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم.

خلق لنا السموات والأرض ، وأوجد لنا الماء والهواء ، ووضع فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة.

وهذه نعمة يستحق سبحانه الحمد عليها ؛ لأنه جَلَّ جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الإنسانى ، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله.

بل إن الله عز وجل قبل أن يخلق آدم أبا البشر جميعاً سبقته الجنة التى عاش فيها لا يتعب ولا يشقى ، فقد خُلِق فوجد ما يأكله وما يشربه ، وما يقيم حياته، وما يتمتع به موجودًا وجاهزًا ومُعداً قبل الخلق.

وحينما نزل آدم وحواء إلى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما ، فوجدا

ما يأكلانه وما يشربانه،وما يقيم حياتهما ،ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنسانى ، وخُلقت بعده لهلك الإنسان وهو ينتظر مجىء النعمة.

بل إن العطاء الإلهى للإنسـان يعطيه النعـمة بمجـرد أن يُخلق فى رحم أمه، فيجد رحماً مستعداً لاستقباله ، وغذاء يكفيه طول مدة الحمل ، فإذا خرج إلى الدنيا يضع الله فى صـدر أمه لبناً ينزل وقت أن يجوع ، ويمتنع وقت أن يشبع.

وينتهى تمامـاً عندما تتوقف فتـرة الرضاعة ، ويجد أباً وأمـاً يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع أن يعول نفسه.

وكل هذا يحدث قبل أن يصل الإنسـان إلى مرحلة التكليف، وقبل أن يستطيع أن ينطق : (الحمد لله).

وهكذا نرى أن النعمـة تسبق المُنْعَم عليه دائماً ، فـالإنسان حين يقول: «الحمد لله» فلأن موجـبات الحمد -وهى النعمة- موجودة فى الكون قبل الوجود الإنسانى.

وآيات الله سبحانه وتعالى فى كونه تستوجب الحمد، فالحياة التى وهبها الله لنا ، والآيات التى أودعهـا فى كونه تدلنا على أن لهذا الكون خـالقاً عظيماً ، فالكون بشمسه وقمـره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الإنسان ، ولا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه.

فلا أحد مـهما بلغ علمه يستطيع أن يـدعى أنه خلق الشمس أو أوجد النجـوم، أو وضع الأرض ، أو وضع قـوانـين الكون، أو أعطى الأرض غلافها الجوى ، أو خلق نفسه أو خلق غيره.

ونستطيع أن نمضى فى ذلك بلا نهاية ، فنعم الله لا تُعدُّ ولا تُحصى ، وكل واحدة منها تدلُّنا على وجود الحق سـبحانه وتعالى ، وتعطينا الدليل الإيمانى على أن لهـذا الكون خالقـاً مبـدعاً . . وأنه لا أحد يسـتطيع أن يدَّعى أنه خلق الكون أو خلق ما فيه . . فالقضية محسومة لله.

و « الحمد لله » لأنه وضع فـى نفوسنا الإيمان الفطرى، ثم أيده بإيمان عقلى بآياته فى كونه.

بل إن كل شيء فى هذا الكون يقتضى الحـمد ، ومع ذلك فإن الإنسان يمتـدح الوجود وينسى الموجود. وكل شيء فى هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه ، وإنما الذى وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق . . بل قل الحمد لله الذى أوجد فى الكون ما يُذكِّرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق.

ومنهج الله سبـحانه وتعالى يقـتضى منا الحمد ؛ لأن الله أنزل منهـجه ليرينا طريق الخير، ويبـعدنا عن طريق الشر ،وبيَّن لنا ماذا يريد الحق منا، وكيف نعـبده . . وهذا يسـتوجب الحـمد، وأعطانا الطريق، وشـرع لنا أسلوب حياتنا تشريعاً حقاً.

فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائماً من نعم الله، فكأن العبودية لله تعطيك ، ولا تأخذ منك، وهذا يستوجب الحمد.

وعندما نقول : «الحمد لله» فنحن نعبـر عن انفعالات متعددة، هى فى مجـموعها تحـمل العبودية والحب والثناء والشـكر والعرفان ، وكثـير من الانفعـالات التي تملأ النفس عندمـا تقول « الحمـد لله» كلها تحـمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه.

هذه الانفـعالات تأتى من النفس وتـستـقر فى القلب، ثم تفـيض من الجوارح على الكون كله.

فالحـمد ليس ألفاظاً تُردَّد باللسـان ، ولكنها تمر أولاً على العـقل ليعى معنى النعم . . ثم بعد ذلك تستـقر في القلب فينفـعل بها . . وتنتقل إلى الجوارح فأقوم وأصلى لله شاكراً ويهتـز جسدى كله ، وتفيض الدمعة من عينى . . وينتقل هذا الانفعال كله إلى من حولى.

« أثنى عليَّ عبدى »

إذا قال العبد في صلاته « الرحمن الرحيم» قال سبحانه: « أثنى عليَّ عبدى».

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ (البقرة: ٢١٨)

ما هى الرحمة؟

الرحمة : هى ألا تُبتلى بالألم من أول الأمر، أما الشفاء : فهو أن تكون مصاباً بداء ويُبرئك الله منه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾. (الإسراء: ٨٢)

وقد قدَّم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة؛ لأن الرحمة تقى الناس من أى شر قادم ، ولكن لابُدَّ من الشفاء أولاً.

وعندما نزل القرآن كانت الأمراض والداءات تملأ المجتمعات، الظلم وأكل حقوق الناس واستعباد الإنسان للإنسان،وغير ذلك من أمراض المجتمع . فجاء الإسلام أولاً ليشفى هذه الأمراض إذا اتبع منهجه.

ثم بعد ذلك تأتى الرحمة ،وتمنع عودة هذه الداءات، فإذا حدثت غفلة عن منهج الله ، جاءت الداءات والأمراض، فإذا عُدْتَ إلى صيدلية القرآن تأخذ منها الدواء يتم الشفاء.

والحق سبحانه يُطمئن خلقه فيقول:

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾. (الأنعام: ١٢)

وهو قول ليُطمئن به الحق عباده حتى لا يظن الناس أن الله يعاقبهم دون

حساب ؛ لأنه الحليم ذو الفضل وهو القائل:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾. (يونس : ٥٨)

ولولا رحمة الله التى سبقت عدله ما بقى للناس نعمة، وما عاش أحد على ظهر الأرض ، فالله جل جلاله يقول:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ .

(النحل: ٦١)

فذنوب الإنسان فى الدنيا كثيرة .. إذا حكم فقد يظلم، وإذا ظن فقد يُسيء، وإذا تحدث فقد يكذب ، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق، وإذا تكلم فقد يغتاب.

هذه ذنوب قد نرتكبها بدرجات متفاوتة ، ولا يمكن لأحد منا أن ينسب الكمال لنفسه،حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الطاعة لا يصلون إلى الكمال ، فالكمال لله وحده.

ورسول الله ﷺ يقول: « **كل ابن دم خطّاء ،وخير الخطائين التوابون**»(١).

والحق سبحانه وتعالى تواب برحمته؛ لأن هناك من يعفو ويظل يمُنُّ عليك بالعفو، حتى أن المعفو عنه يقول: ليتك عاقبتنى، ولم تمن علىَّ بالعفو كل ساعة.

لكن الحق سبحانه وتعالى تواب رحيم ، يتوب على العبد ويرحمه، فيمحو عنه ذنوبه.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩٨) والترمذى فى سننه (٢٤٩٩) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥١) قال الترمذى : «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث على بن مسعدة عن قتادة».

وأنت حين تسقط فى معصية تستعيذ برحمة الله من عدله ؛ لأن عدل الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية.

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية عن أن ندخل إلى كل عمل باسم الله . . فعلَّمنا أن نقول: « بسم الله الرحمن الرحيم» لكى نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله ، وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة فى كل عمل باسم الله؛ لأنه رحمن رحيم ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية فى الاستعانة به سبحانه وتعالى.

ولكن الرحمن الرحيم فى الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذى أوجدك من عدم، وأمدَّك بنعم لا تُعدُّ ولا تُحْصَى.

أنت تحمده على هذه النعم التى أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى فى ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من رحمة.

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر ، فهو الذى استدعاهم جميعاً إلى الوجود؛ ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته ، وليس بما يستحقون ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط، والمطر ينزل على من يعبدون الله ، ومن لا يعبدون أوثاناً من دون الله ، والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومَنْ لم يَقُلْها.

وكل النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخلقه جميعاً ، وهذه رحمة ، فالله رب الجميع من أطاعه ومَنْ عصاه، وهذه رحمة ، والله قابل للتوبة ، وهذه رحمة.

إذن: ففى الفاتحة تأتى « الرحمن الرحيم» بمعنى رحمة الله فى ربوبيته

لخلقه، فهو يمهل العاصى ، ويفتح أبواب التوبة لكل مَنْ يلجأ إليه.

وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه ، وهذه رحمة تستوجب الشكر والثناء على ربه.

« مجَّدنى عبدى»

فإذا قال العبد « مالك يوم الدين» قال سبحانه : مجدنى عبدى.

إن « مالك يوم الدين» تستحق منا الحمد وتمجيد الله سبحانه ، والثناء عليه ووصفه بكل صفات الكمال.

لو لم يوجد يوم للحساب ، لنجا الذى ملأ الدنيا شروراً، دون أن يُجازى على ما فعل ،ولكان الذى التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من مُتَع دنيوية كثيرة إرضاء لله قد شقى فى الحياة الدنيا .

ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو مالك يوم الدين، أعطى الاتزان للوجود كله، هذه الملكية ليوم الدين هى التى حَمتْ الضعيف والمظلوم، وأبقت الحق فى كون الله.

إن الذى منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوى بالضعيف ، والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحساباً ، وأن الله سبحانه هو الذى سيحاسب خلقه.

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره؛ لأنه يخشى الله ويُعطى كل ذى حق حقه، ويعفو ويسامح.

إذن: كل من حوله قد استفاد من خُلقه الكريم ، ومن وقوفه مع الحق والعدل.

أما الإنسان العاصى فيشقى به المجتمع ؛ لأنه لا أحد يَسْلَم من شرِّه ، ولا أحد إلا يصيبه ظلمه، ولذلك فإن « مالك يوم الدين» هى الميزان.

وصف الله تبارك وتعالى نفسه في القرآن الكريم بأنه : «مالك يوم

الدين» ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده، ليس هناك دخل لأى فرد آخر . . أنا أملك عباءتى . . وأملك متاعى . . وأملك منزلى . . وأنا المتصرف فى هذا كله أحكم فيه بما أراه.

فمالك يوم الدين . . معناها أن الله سبحانه وتعالى سيُصرِّف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب، فهو الذى يملك هذا اليوم وحده، يتصرف فيه كما يشاء.

إن الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة ، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ؛ ليحاسب المخطىء ويثيب الطائع.

هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الإيمان ، فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه . . فلماذا نصلى؟ ولماذا نصوم؟ ولماذا نتصدق؟

إن كل حركة من حركات منهج الله قائمة على أساس ذلك اليوم الذى لن يفلت منه أحد، والذى يجب أن نستعد له.

إن الله سبحانه وتعالى سمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم، والذى يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد، وننفق أموالنا لنعين الفقراء والمساكين.

كل هذا أساسه أن هناك يومًا سنقف فيه بين يدى الله ،والله تبارك وتعالى سماه يوم الدين ؛ لأنه اليوم الذى سيحاسب فيه كل إنسان على دينه عمل به أم ضيَّعه ، فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود في الجنة، ومن أنكر الدين، وأنكر منهج الله سيجازى بالخلود فى النار.

ومن عدل الله سبحانه وتعالى أن هناك يوماً للحساب ؛ لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا فى الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا.

هل هؤلاء الذين أفلتوا في الدنيا من العقاب هل يُفلتون من عدل الله؟

أبدًا لن يفلتــوا ، بل إنهم انتقلوا من عـقاب محـدود إلى عقـاب خالد، وأفلتوا مـن العقاب بقـدرة البشـر فى الدنيا إلى عـقاب بقـدرة الله تبارك وتعالى فى الآخرة.

ولذلك لابد من وجود يوم يعيد الميزان ، فيُعاقب فيه كل من أفسد في الأرض وأفلت من العقاب ، بل إن الله سـبحانه وتعالى قـد يجعل إنساناً يفلت من عقــاب الدنيا ، فلا تعـتقد أن هذا خيـر له بل إنه شر له؛ لأنه أفلت من عقاب محدود إلى عقاب أبدى.

إذن : فالأمـر كله مردود إلى الله ، صحيح أنــه فى هذه الدنيا يخلق الله الأسبـاب ، فالكافر تحكمه الأسـباب، وكذلك المؤمن ، فإذا مـا أخذ الكافر بالأسباب فـإنه يأخذ النتيجة ، ولكن فى الآخـرة فالأمر يختلف ، فلن يملك أحد أسباباً.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن اليوم الآخر:

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾. (غافر : ١٦)

فالظالمون يسـتطيعون التصـرف فى الأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فالله يقول : أنا ملكـتكم وأنتم عصاة لى فى كثيـر من الأسباب، لكن هناك وقت تزول فيه ملكيتكم للأسباب.

إذن : فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل ؛ لأن الله أوجد لنا جميعاً إرادات ومرادات اختـيارية ، لكن فى يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾. (غافر : ١٦)

« هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ».

أنت فى حضرة الله سبحانه وتعالى الذى غمرك بالنعم ، وهذه تراها وتحيط بك لأنه « رب العالمين» ، وجعلك تطمئن إلى قضائه لأنه « الرحمن الرحيم» ، أى أن ربوبيته سبحانه ليست ربوبية جبروت بل هى ربوبية «الرحمن الرحيم» .

فإذا لم تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التى تحسها وتعيش فيها ، فاحذر من مخالفة منهجه ؛لأنه « مالك يوم الدين».

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات التى فيها فضائل الألوهية ونِعَم الربوبية ، والرحمة التى تمحو الذنوب والرهبة من لقائه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب إلى محضر الشهود.. استحضرت جلال الألوهية لله ، وفيوضات رحمته، ونعمه التى لا تُعَدُّ ، وقيوميته يوم القيامة.

وهكذا فإننا عندما نقول « الحمد لله» فإننا نستحضر موجبات الحمد ، وهى نعم الله ظاهرة وباطنة.

وحين نقول : « رب العالمين» نستحضر نعم الربوبية فى خلقه وإخضاع كونه.

وحين نستحضر « الرحمن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة ومقابلة الإساءة بالإحسان وفتح باب التوبة.

وحين نستحضر « مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب، وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجازيك على أعمالك .

فإذا استحضرنا هذا كله نقول: « إياك نعبد» أى : أننا نعبد الله وحده.

إذن : عرفنا المطلوب منها ، وهو العبادة.

فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده ، ولكن علة الخلق ليست ؛ لأن هذه

العبادة ستزيد شيئاً فى مُلْكه، وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير فى الدنيا والآخرة، فالمأمور بالعبادة هو الذى سينتفع بها.

ورب العزة سبحانه يقول فى حديثه القدسى:

« يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[1].

فعبادتك له لن تنفعه سبحانه بشىء ولن يزيد فى ملكه شيئاً ، ومعصيتك وعدم عبادتك له لن تضره بشىء ولن تنقص من مُلْكه شيئاً ، فسبحانه لا يلحقه ضرر بذنبك ، وإنما الذنب يلحقك أنت.

والله سبحانه وتعالى خلقنا فى الحياة لنعبده .. مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦) ﴾. (الذاريات: ٥٦)

إذن : فعِلَّة الخالق هى العبادة، ولقد تم الخلق لتتحقق العبادة وتصبح واقعاً.

والعبادة هى إطاعة العابد لأمر المعبود، وهكذا يجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية فى الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

إن هذه هى أركان الإسلام ، ولا يستقيم أن ينفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/ ٩٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

إن الأركان التعبدية لازمة ؛ لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة فى الدنيا هى كل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون.

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هى تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه كباب العبادات وباب المعاملات.

لكن علينا أن نعرف أن كل شئ يأمر به الله اسمه « عبادة».

إذن : فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه، خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون.

ولذلك قلنا : إنك حينما تتقبل من الله أمراً بعبادة ما ، فأنت تتلقاه وأنت موصول بأسباب الله بحثاً عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة.

فالعبادة منهج يشمل الحياة كلها .. فى بيتك ، وفى عملك، وفى السعى في الأرض؟

ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين ، بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الإنس والجن، فهو سبحانه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية .. ولذلك خلقنا ولنا اختيار فى أن نأتيه أو لا نأتيه.. فى أن نطيعه أو نعصيه .. فى أن نؤمن به أو لا نؤمن.

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار ، تتنازل عما يغضبه حباً فيه، وتفعل ما يطلبه حباً فيه ، وليس قهراً، فإذا تخليت عن اختيارك إلى مرادات الله فى منهجه تكون قد حققت عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى ، وتكون قد أصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله ، فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيما يُقهرون عليه، ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله فى التكاليف.

ولذلك فإن الله جل جلاله يُفرق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد.

يقول تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾. (البقرة: ١٨٦)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) ﴾. (الفرقان: ٦٣ - ٦٥)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادًا، ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعاً يقول عبيد . . مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾.

(آل عمران: ١٨٢)

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان اختياره فى الحياة الدنيا فى العبودية، فلم يقهره فى شىء ، ولا يلزم غير المؤمن به بأى تكليف.

الله ينتظرك عند المريض

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى:

٥ **«يا ابن آدم مرضت فلم تَعُدْنى قال: يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تَعُدْه. أما علمت أنك لو عُدتَّه لوجدتنى عنده»**(١).

إن الصحة هى من أثمن النعم، أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان، لأن الصحة هى التى تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة، أما المرض فيحرمه هذه النعمة.

ولذلك فعندما يمرض الإنسان يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون فى معية النعمة، يكون فى معية المنعم، وهو الله سبحانه.

فلو فقد المؤمن نعمة العافية فلا ييأس، فإن الله تعالى يريده أن يعيش مع المنعم، لا مع النعمة التى فقدت منه.

والمرض ضر وشدة تنزل بالإنسان، ولكنه يجعله أحسن ما يكون ذكرًا لله وتسبيحًا له.

ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه فى مرضه وشدته، لا أقول: إنه يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة، بل عليه فقط ألا يضجر، وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه.

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ ذلك حينما قال: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب**

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبو هريرة -رضى الله عنه.

المستضعفين وأنت ربى.. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملَّكته أمرى.

إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزِل بي غضبك أو يحل علىَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

إن الإنسان عندما يمرض تسلب منه العافية فلا يستطيع أن يسير أو أن يتحرك، بل يرقد فى فراشه ليتألم.

ويوضح الحق سبحانه أنه إن سلب منه العافية، فهو سبحانه عنده، ولذلك إياك أن تفزع إذا تركتك النعمة ما دام المنعم معك ،والمريض المؤمن يستشعر أن الله معه.

وحين يكون المسلم فى معية الله ، فإن مقاييس المادة والبشريات لا تجىء أبداً.

ومثال هذا ما كان من أمر رسول الله ﷺ وأبي بكر -رضى الله عنه- فى الغار، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم أبو بكر -رضى الله عنه- فقال: يا رسول الله لو نظرٌ أحدهم تحت قدميه لرآنا.

هذا كلام منطقى مع النظرة المادية ، فلو انحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول الله ﷺ وأبا بكر.

ولكن رسول الله ﷺ أراد أن يطمئن أبا بكر وينفى عنه ما جاء فى باله من خوف أن يراهما الكفار، فقال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وما دام الله ثالثهما تكون المعية موجودة، وإذا كنت فى معية من لا تدركه الأبصار، أتدركك الأبصار؟

طبعًا لاتدركك أبصار الأعداء والخصوم.. اللهم اجعلنا فى معيتك دائمًا. وهناك فرق بين أن يكون الإنسان مع النـعمة وأن يكون مع المنعم، الماديون يحبون النعمة.

أما غير الماديين فيحبون المنعم ويعيشون فى معيته.

ولذلك عندمـا خاطب الحق سبـحانه المسلمين قـال: ﴿**اذكـروا الله**﴾ [البقرة: ٢٠٣].

بينما خطابه سبحانه لبنى إسرائيل: ﴿ **اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ** ﴾ [البقرة: ٤٠]

والحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى:

«أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله، فمن اتقى أن يجعل معى إلهًا كان أهلاً أن أغفر له».

فالله سبحانه وتعالى واجب العبادة، ولو لم يخلق الجنة والنار، ولذلك فإن المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله، لماذا؟ لأن الابتلاء منه نعمة.

والله سبـحانه يبـاهى بعبـاده ملائكته، ويـقول إنهم يعبـدوننى لذاتى، فتـقول الملائكة : بل يعبـدونك لنعمـتك عليهم، فيـقول سبـحانه لهم: سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبوننى.

ومن عبـادى من أحب دعاءهم، فأنا أبتليهم حـتى يقولوا يا رب. لأن أصواتهم يحبها الله سبحانه وتعالى.

ولذلك إذا ابتلى الله عبدًا فى صـحته مثلاً، وسلب منه نعمـة العافية، ترى الجاهل هو الذى ينظر إلى هذا نظرة عدم الرضا.

وأما المتعمق فلا ييأس، فإن الله تعالى يريده أن يعيش مع المنعم، وأنه طوال فترة مرضه يكون فى معية الله.

والحق سبحانه يطلب منك أن تواجه الحياة وأنت فى معية الله دائمًا، فأنت لو واجهت المشكلات فى معية من تثق فى قوته فإنك تواجه الأمور بشجاعة، فما بالك إذا كنت فى معية الله، وكل شىء فى الوجود خاضع لله، أيجرؤ شئ أن يقف أمامك وأنت مع الله؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم، وأما من يعيش فى حضانة ربه فإنه لا يجرؤ عليه الشيطان، فهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى فى معركة، وإنما يدخل مع خلق الله سبحانه الذين ينسون الله ويخرجون من معيته.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]

وما دام الله سبحانه مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر، وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا؟

يقول بعض الصالحين:

اللهم إنى أستحى أن أسألك الشفاء، والعافية، حتى لا يكون ذلك زهدًا فى معيتى لك.

إذن لابد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائمًا فى معية الله، فلا نيأس مهما لقينا فى حركة الحياة من مشقة.

من إذن يجرؤ على الزهد فى معية الله؟ عندما يعرف المريض أنه فى مرضه الذى يتأوه منه هو فى معية الله لاستحى أن يقول: آه.

ولكننا لا نطلب من المـريض ألا يقول: آه. ولكن نطلب منه أن يتـوجه إلى الله ويقول: «**ولكن عافيتك أوسع لى**».

ومعية الله سبحانه للمـريض تقر فى نفسه أنه لا كاشف للضر إلا الله، فالمريض لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبـيب، لكن الطبيب يعالج بالمهارة الموهوبة له من الله، والذى يشفى هو الله.

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾. [الشعراء: ٨٠]

لأن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الداء، وخلق الدواء، وجعل الأطباء مجرد جسور من الداء إلى الدواء ، ثم إلى الشفاء.

والله يوجد الأسباب ليُسرَّ ويُفْرح بها عباده، فيجعل المواهب كأسباب، وإلا فالأمر فى الحقيقة بيده سبحانه وتعالى.

قال رسول الله ﷺ: «**تداووا عـباد الله، فـإن الله تعـالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم**» (١).

ونحن نرى أن الطبيب المتـميز يعلن دائمًا أن الشفاء جـاء معه، لا به، ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل الشفاء يأتى على ميعاد من علاجه.

إذن فـالحق سبـحانـه هو كاشف الضـر، وهو القـدير على أن يمنحك ويمسَّك بالخير، وقدرته لا حدود له.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾. [الأنعام: ١٧]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٧٨) ، وأبو داود فى سننه (٣٨٥٥) ، والترمذى (٢٠٣٨) وابن ماجه (٣٤٣٦) من حديث أسامة بن شريك.

وقد ينسب الإنسان كشف الضر لغير الله فينسب انكشاف الضر إلى مهارة الطبيب الذى لجأ إليه، ناسيًا أن مهارة الطبيب هى من نعم الله، أو ينسب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه الله من علم أو مال، ناسيًا أن الله هو واهب كل شىء، كما فعل قارون الذى ظن أن ماله قد جاءه من تعبه وكدِّه وعلمه ومهارته، ناسيًا أن الحق هو مسبب كل الأسباب ضرًا أو نفعًا، فسبحانه هو الذى يسبب الضر كما يسبب النفع.

ويلفت الضر الإنسان إلى نعم الحق سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا، وإذا ما رضى الإنسان وصبر فإن الله يرفع عنه الضر، لأن الضر لا يستمر على الإنسان إلا إذا قابله بالسخط وعدم الرضا بقدر الله، ولا يرفع الحق قضاء فى الخلق إلا أن يرضى خلق الله بما أنزل الله، والذى لا يقبل المصائب هو من تستمر معه المصائب، أما الذى يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء.

فنحن البشر نطيل على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له، لكن لو سقط على الإنسان أمر بدون أن يكون له سبب فيه واستقبله الإنسان من مُجريه وهو ربه بمقام الرضا، فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء.

فإذا رأيت إنسانًا طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا.

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر، فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديد القسوة، فقد كان على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه، وهذا ارتقاء فى الابتلاء.

ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذرًا ليهرب من ابتلاء الله له، ولم يقل إنها مجرد رؤيا وليست وحيًا، ولكنها حق.

وقد جاءه الأمـر بأهون تكليف، وهو الرؤيا، وبأشق تكليف وهو ذبح الابن، ونرى عظمة النبوة فى استقبال أوامر الحق.

ويلهمه الحق سبحانه أن يشرك ابنه إسماعيل فى استقبال الثواب بالرضا بالقضاء.

يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات: ١٠٢]

لقد بلغ إسماعيل عمر السَّعْى فى مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر فى المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله، ولم ينشغل بالحقد على أبيه، ولم يقاوم، ولم يدخل فى معركة، بل قال:

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾. [الصافات: ١٠٢]

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبول ورضا؛ لذلك يقول الحق عنهما معًا:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾. [الصافات: ١٠٣ - ١٠٧]

لقد اشترك الاثنان فى قبول قضاء الله، وأسلم كل منهما للأمر، أسلم إبراهيم كفاعل، وأسلم إسماعيل كمنفعل، وعلم الله صدقهما فى استقبال أمر الله.

وهنا نادى الحق إبراهيم عليه السلام: لقد استجبت أنت وإسماعيل للقضاء، وحسبكما هذا الامتثال، ولذلك يجىء إليك وإلى ابنك اللطف،

وذلك برفع البلاء، وجاء الفداء بذبح عظيم القدر؛ لأنه ذبح جاء بأمر الله.

ولم يكتف الحق سبحانه بذلك، ولكن بشّر إبراهيم بميلاد ابن آخر:

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾. [الصافات: ١١٢]

لقد رفع الله عن إبراهيم القدر، وأعطاه الخير وهو ولد آخر، هو إسحاق، فالله زيادة على افتداء إسماعيل بذبح عظيم، يسوق المولى سبحانه البشرى بمزيد من العطاء.

وهو سبحانه لم يرزقه بولد ثان فقط، بل بولد يكون نبيًا وصالحًا.

وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾. [الأنبياء: ٧٢]

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فلا يعطيه الولد الذى يحفظ ذكره فقط، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضًا، وكل ذلك نافلة من الله، أى عطاء كريم زائد، وفضل كبير لأبى الأنبياء إبراهيم.

فالرضا بقضاء الله يجعل العبد فى معية الله وفى كنفه، ومن هذا القضاء المرض، أيضيق أى مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته، ولكن المرض جعله مع المنعم، وهو الله سبحانه وتعالى؟

لا، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض، ويجعله يشعر أن الأُنس بالله يخفف عنه الآلام، لكن للأسف تجد الإنسان غير منطقى مع نفسه، فالعالم خُلق من أجل الإنسان، والإنسان خلق ليعبد الله.

ولكنك تجـده لا يلتـفت لما خُلق من أجله، بل يلتـفت للأشـيـاء التى خُلقت له، وقد كان من المنطقى أن ينشغل بما خُلق من أجله.

فتـجد من يظن أن الطبيب هو الذى يشـفى، وينسى أن الله وحده هو الشافى، أمـا الطبيب فهـو معالج فـقط ولذلك تجد أننا قد نأخـذ إنساناً لطبيب فيموت بين يدى الطبيب.

فقد يعطى الطبـيب دواء للمريض، فيموت بسبـبه هذا المريض، وجاء سيدنا إبراهيم عليـه السلام بالقصر فى الشفـاء لله، حتى لا يظن أحد أن الشفاء فى يد أخرى غير يد الله سبحانه.

والصحة نعـمة من نعم الله يسبغهـا سبحانه على عبـاده، والنعمة حين يشاء الحق سبـحانه أن تصيب الإنسان، ثم تنزع منه، هـنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع أو اليأس.

واليـأس: هو قطع الأمل من حدوث شىء والمؤمن لا ييـأس أبدًا، ولا يقطع الأمل من رحمة الله.

يقول الحق سبحانه:

﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ . [يوسف: ٨٧]

اليأس ـ إذن ـ هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك، ولا تملك الوسائل لتحقيقه.

والذى ييأس هو الذى ليس له إله يركن إليـه؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد، فالمؤمن إن فقد شيئًا يقول: إن الله سيعوضنى خيرًا منه.

أما الذى لا إيمان له بإله فـهو يقول: إن هذه الصدفة قـد لا تتكرر مرة أخرى.

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقـينه بمصدر يرد عليه ما يريده، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه مايريده فلا تجده يائسًا قانطًا.

والمؤمن يعلم أن النعـمة لـها واهب، إن جـاءت شكر لله عليهـا، وإن سُلبت منه فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة.

وهذا شـأن المؤمن، وقد قـال رسول الله ﷺ: «**عجـبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خيـر، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابتـه سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[1].

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى.

نعيم الجنة لا حدود له

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى:

٦ « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[١].

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾ . [البقرة: ٢٥]

فالحق سبحانه يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار.. والجنات جمع جنة، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة، وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا.

اقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ .

[الإسراء: ٢١]

فالجنات نفسها متنوعة، فهناك جنات الفردوس، وجنات عدن، وجنات نعيم، وهناك دار الخلد، ودار السلام، وجنة المأوى، وهناك عليون الذى هو أعلى وأفضل الجنات.

وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى، وهو نعيم يعلو كثيراً عن أى نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبونعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه.

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ، وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع، والله جل جلاله فى هذه الآية يعد بأمر غيبى، ولذلك فإنه لكى يقرب المعنى إلى ذهن البشر، لابد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة، أى عن واقع نشهده.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

[السجدة: ١٧]

إذن: ما هو موجود فى الجنة لا تعلمه نفس فى الدنيا، ولا يوجد لفظ فى اللغة يعبر عنه، ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رأته.

ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التى تتناسب مع عقولنا وإدراكنا.

والحق هنا يقول عن أهل الجنة أنهم:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾

[البقرة: ٢٥]

فيعتقدون أن هناك تشابهًا بين ثمر الدنيا وثمر الجنة، ولكن الثمر فى الجنة ليس كثمر الدنيا، لا فى طعمه ولا فى رائحته.

وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون ويقولون: ربما تكون هذه الثمرة هى ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه فى الدنيا، ولكنها تختلف تمامًا فى الحقيقة، قد يكون الشكل متشابهًا، ولكن الطعم وكل شىء مختلف.

فى الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الإنسان، ولكن فى الآخرة لا يوجد لطعام فضلات، بل إن الإنسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة فى التكوين.

إذن: ففى الجنة الأنهار مختلفة والثمار مختلفة، والجنة يكون الرزق فيها من الله سبحانه وتعالى الذى يقول للشىء «كن فيكون» ولا أحد يقوم بعمل.

فالحق سبحانه يعطينا صورة عن شىء هو الآن غيب عنا، وسيصير بإذن الله وبمشيئته مشهداً، ونحن نعرف أن الجنة بها كل ما تتمناه النفس.

ونحن نعلم أن الكائنات الوجودية يعرفها الإنسان بما يناسب إدراكه، فقال رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى:

«ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت».

والعين حين ترى تكون محدودة، لكن السمع دائرته أوسع من الرؤية، لأنه سيسمع ممن رأى، إنه سمع فوق ما رأى.

إذن: فدائرة الإدراكات تأتى أولاً: بأن يرى الإنسان، ثم بأن يسمع، وهو يسمع بأكثر مما يرى.

ثم يقول: **«ولا خطر على قلب بشر»**.

أى: أن ما فى الجنة أكبر من التخيلات، إذن: فكم صفة هنا للجنة؟

الأولى: قوله «ما لا عين رأت» ،والعين مهما رأت فدائرتها محدودة.

والثانية: قوله: «ولا أذن سمعت»، والأذن إن سمعت فدائرتها أوسع قليلاً.

والثالثة: قوله: «ولا خطر على قلب بشر». وهذا أوسع من التخيلات.

فإذا كنت يا حق سبحانك ستعطينا فى الجنة «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فبأى الألفاظ يا ربى تؤدى لنا هذه الأشياء، وألفاظ اللغة إنما وضعت

لمعانٍ معروفة، وما دمت ستأتى بشىء لم تره عين، ولم تسمعه أذن، ولا يخطر على قلب بشر، فأى الألفاظ ستؤدى هذه المعانى؟

لقد أوضح ﷺ أنه لا توجد ألفاظ؛ لأن المعنى يُعرف أولاً، ثم يوضع له اللفظ، فكل لفظ وُضِع فى اللغة معروف أن له معنى.

لكن ما دامت الجنة هذه لم ترها عين، ولم تسمعها أذن، ولم تخطر على قلب بشر، فلا توجد كلمات تعبر عنها.

لذلك لم يقل: إن الجنة هكذا، بل قال: «مثل الجنة»، أما الجنة نفسها فليس فى لغتنا ألفاظ تؤدى هذه المعانى.

وحيث إن هذه المعانى لا رأتها عين، ولا سمعتها أذن، ولا خطرت على قلب بشر، لذلك فليس فى لغة البشر ما يعطينا صورة عن الجنة.

وأوضح الحق سبحانه: سأختار أمرًا هو أحسن ما عندكم، وأعطيكم به مثلاً.

قال سبحانه:

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ . [محمد: ١٥]

ونحن نرى الأنهار، والحق يطمئننا هنا بأن أنهار الجنة ستختلف فهو سبحانه سينزع منها الصفة التى قد تعكر نهريتها، فقد تقف مياه النهر وتصبح آسنة متغيرة، فيقول: «أنهار من ماء غير آسن».

إذن: فهو يعطى اسمًا موجودًا وهو النهر، وكلنا نعرفه، لكنه يوضح: أنا سأنزع منه الأكدار التي تراها فى النهر الحادث فى الحياة الدنيا.

وأيضًا: فأنهار الدنيا تسير وتجرى فى شق بين شاطئين، لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزة بالقدرة.

وستجد أيضًا أنهارًا من لبن لم يتغير طعمه، فالعربى كائن يأخذ اللبن من الإبل، ويخزنه فى القرب، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيدًا إلى المراعى وإلى حيث تسافر، وعندما كان الأعرابى يحتاج إلى اللبن فلم يكن أمامه غير اللبن المخزون فى القرب، ويجده متغير الطعم لكنه لا يجد غيره.

لذلك يوضح الحق: سأعطيكم أنهارًا من لبن فى الجنة لم يتغير طعمه.

ثم يقول: «وأنهار من خمر» وهم يعرفون الخمر ولنفهم أنها ليست كخمر الدنيا، لأنه يقول: «مثل» ولم يقل الحقيقة فقال: «أنهار من خمر» لكنها خمر «لذة للشاربين».

وخمر الدنيا لا يشربها الناس بلذة، بدليل أنك عندما ترى من يشرب كأس خمر، فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة، ليس كما تشرب أنت كوبًا من مانجو وتتلذذ به، إنه يأخذه دفعة واحدة ليقلل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمض، وتغتال العقول وتفسدها، لكن خمر الآخرة لا اغتيال فيها للعقول.

إذن: فحين يعطينى الحق مثلاً للجنة، فهو ينفى عن المثل الشوائب، ولذلك نجد الأمثال تتنوع فى هذا المجال، فالعربى عندما كان يمشى فى الهاجرة، ويجد شجرة «نبق» ويقال لها «سدر» كان يعتبرها واحة يستريح عندها، ويجد عليها النبق الجميل، فهو يمد يده ليأكل منها، لكنه قد يجد شوكًا فيتفادى الشوك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ . [محمد: ١٥]

كان العرب يأخذون العسل من الجبال، فالنحل يصنع خلاياه داخل

شقوق الجبال، وعندما كانوا يخرجـون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى، فأوضح الحق سـبحانه: ما يعكر عليك العسل هنا فى الدنيا أنا أصفيه لك هناك، ومع أنه مثل لكنه يصـفيه أيضًا، ولماذا مثَّل؟ لأنه ما دام نعيم الجنـة «لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علـى قلب بشر»، فتكون لغة البشر كلها لا تؤدى ما فيها، لكنه سبحانه يعطينا صورة مقربة.

ويضرب الله المثل بالصورة المقربة للأشياء التى تتعالى عن الفهم ليقربها من العقل.

ومثـال ذلك: عندما أراد سـبحانه أن يعطينا صـورة لتنوير الله الكون، وليس لنور الله الذاتى، بل لتنوير الله للكون، فيقول:

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ ﴾. [النور: ٣٥]

فـالحق سـبحـانه يضـرب مـثلاً لـنوره، هذا النور الذى يضىء الدنيـا والآخرة، فيضىء القلوب المؤمنة.

إنه يريد أن يضرب لنا مثلاً لهذا النور بشىء مادى محس.

فالحق سبحانه يضـرب مثلاً للمعنويات ليتعرف إليـها الناس، فهو يقدم لها بأمر مادى يتفق عليه الكل، لـيقرب الأمر المعنوى أو الغيبى إلى أذهان الناس؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد.

فلذلك فهو سبحانه وتعالى يقـرب هذا الأمر ويبينه بأن يضرب لنا مثلاً من الأمور المادية المحسَّة، حـتى تقترب الصورة من الأذهان، لأننا جـميعًا نرى الماديات.

وبهذا يلحق سبحـانه الأمر المعنوى، وهو غيـر معلوم لنا بالأمر المادى الذى نعرفه، فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم.

والنور الحسى المادى نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذى يعطى النعم لجميع خلقه فى الدنيا، سواء من آمنوا أم لم يؤمنوا؟

وأكبر ما فيه نور الشمس الذى يستفيد منه كل الخلق، المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك، والمسخر من حيوان أو نبات أو جماد.

فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء فى حيز محدود وعلى قدر إمكاناته، فواحد يوقد شمعة، وواحد يأتى بمصباح «جاز» صغير، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباح «نيون»، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور، كل على قدر إمكاناته.

فإذا طلعت شمس الله، فهل يُبقى أحد على مصباحه مضاء؟

إن الجميع يطفئون مصابيحهم؛ لأن شمس الله قد سطعت تنير للجميع، ذلك هو النور الحسى.

وفى المعنويات نور أيضًا، فالنور المعنوى يهديك إلى القيم حتى لا ترتطم بالمعنويات السافلة التى قد تقابلك فى مسيرة الحياة.

إذن: فكل ما يهدى إلى طريق الله يسمى نورًا.

يقول الحق سبحانه:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ . [المائدة: ١٥]

إنه نور المنهج الذى ينير لنا المعنويات، وينير لنا القيم، فلا يحقد أحدنا

على الآخر، ولا يحسد أحدنا الآخر، ولا يرتشى أحد، ويرعى كل منا حقوق غيره.

ويقرب لنا الحق سبحانه وتعالى الأمر فى مثل مادى عن معنى نور الله، فيقول سبحانه:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾. [النور: ٣٥]

أى: أن نوره سبحانه وتعالى يملأ السماوات والأرض، وأنه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض، فلا يترك جانبًا منها مظلمًا، فنور الله سبحانه فى السموات والأرض نور شامل لا يدع مكانًا مظلمًا ولا مكانًا يختفى فيه شىء بسبب الظلام.

تمامًا كمثل تلك الدائرة الصغيرة التى يشع منها نور المصباح، فلا تجد فيها ملليمترًا واحدًا من الظلام.

ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبيًا، حتى نستطيع أن نفهمه، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾. [محمد: ١٥]

أى: أنها ليست هى، ولكنه مثل فقط، يُقرِّب المعنى إلى ذهنك، خذ صورة من المجتمع الذى تعيش فيه، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة. وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة.

ثم بعد ذلك يزداد الرقى، فيبحث عن شقة واسعة، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص «فيلا»، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة، وهكذا يزداد الرقى.

إذن: فالمسألة لم تَعُدْ مكانًا تأوى إليـه فقط، بل ترتقى فى الإيواء كلما ارتقيت فى الحياة، فتتحقق لك المتعة فى الإيواء.

ولهذا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ . [التوبة: ٧٢]

أى: هناك جنات وهناك مساكن؛ لأن الإنسان يحب فى بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصه، وفى أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس فى مكان جميل، مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين، ونجلس معًا.

فكأن الجنات هى للرفاهية الزائدة، عندما تحب أن تجتمع مع الناس، أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا، أما المساكن فهى للخصوصية، فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله.

إذن: فالجنات صورة من البساتين، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب، بل هى من صناعة المسبب جل وعلا.

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثرى. قد نجد أن للبيت حديقة: يشرف عليها بستانى متمكن من عمله، ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك.

ويكون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقة إعجابًا كبيرًا بحيث نجلس فيها، ونكره أن نغادرها.

فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر، فكيف بهذه الحدائق التى صنعت بقدرة الله سبحانه وتعالى؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها؟

إن الذى وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى، وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وجعل سبحانه هذه الجنات واسعة شاسعة، فيها زروع وأزهار وأشكال، تسر العين بجمالها، وتمتع اللمس بنعومتها، وتملأ الأنوف برائحتها الزكية.

ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجرى من خلالها، ولكنها لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها، ومنابعها من مكان آخر،أو تحتها ومنابعها ذاتية. أى: ينبع من نفس المكان، وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به.

وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار، فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى.

وإذا كنا فى حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين، فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطىء، وإنما يمسكها الذى أمسك السماء أن تقع على الأرض، ثم تجد الأنهار قد تشترك فى المجرى، نهر اللبن، ونهر العسل، ونهر الماء، ونهر الخمر.

وكلها تجرى فى مجرى واحد، ولكنها لا تختلط ببعضها البعض، فكل منها منفصل، لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع، وتبارك من صنع.

ويعطينا سبحانه وتعالى بعد كل ذلك، ميزة الخلود فى هذه الجنات فيقول: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾. [التوبة: ٧٢]

ونحن نعلم أن المتعة فى الدنيا قد توجد للإنسان، ولكنها لا توجد خالدة أبدًا، فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة، كأن تصاب بكارثة مالية

أو تخسر خسارة كبيرة فى تجارتك، أو غير ذلك، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت.

ولكنك فى جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال، ويزيدك الله فيها بأن يعطيك الخلود، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك؛ لأنه ليس هناك أغيار، وليس هناك موت.

وكل إنسان فى الدنيا يتمتع على قدر قدراته، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها، ومقاماتها، فقد تكون من الفلاحين، وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك، وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير، والثالث له بيت فيه عدة صالونات.

فكل واحد على قدر إمكاناته فى الدنيا، ولكننا فى الآخرة نتمتع كلنا على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة، ويكون الجزاء بقدر ما فعلت من خير فى الدنيا، واتبعت منهج الله.

إذن: فأنت الذى تحدد المساحة التى لك فى الجنة، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك.

ثم: ما الذى يهددك فى نعيم الدنيا؟

الذى يهدد الناس فى الدنيا أحد شيئين:

- إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا.

- وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت.

ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد، إنها النعمة الخالدة، وأهل الجنة فيها خالدون؛ ولذلك يقال: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، ونعيم بلا بؤس.

قال رسول الله ﷺ: «ينادى مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا»[1].

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى فى وصف الخلود فقال ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٠]

والخلود بقاء طويل جدًا، والأبدية لا تنتهى.

إذن: فالخلود فى جنات عدن خلود دائم، وهى جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبدًا، لأنها أعلى مراتب الجنة ،ولا يوجد أحسن منها.

والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لا ينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه، فلو كان ما فى جنات عدن مما يُزْهَد فيه بعد فترة ما وصفها الله بهذا الوصف.

ولكى يصل الإنسان إلى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم، وهو الله سبحانه وتعالى، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة، والمنعم عليهم بالنعمة، وهم المؤمنون والمؤمنات.

فمن أطاع الله طمعًا فى الحصول على نعيم الله فى الآخرة، يأخذ هذا النعيم، والذى أطاع الله لذات الله؛ ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع، يكون فى الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمنعم سبحانه.

إذن: فكل إنسان لما عمل له، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك، وأحببت أن تكون دائمًا فى لقاء مع الله، بأن تقوم الليل وتتهجد،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣١٩) (٣/ ٣٨، ٩٥) والترمذى فى سننه (٣٢٤٦).

وتقرأ القرآن وتصلى والناس نيام، وتتقن العمل الذى ترتقى به حياتك وحياة غيرك، وتفعل ذلك محبة فى الله الذى يستحق التعظيم، فأنت تستحق المنزلة الأعلى، وهى أن تكون فى معية الله.

يقول سبحانه:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾. [القيامة: ٢٢، ٢٣]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائمًا.

وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة يقول:

« يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ».

فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟

فيقولون: يا رب وأى شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» [1].

وقد قال الحق سبحانه:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾. [يونس: ٢٦]

والحسنى هى الجنة، أما الزيادة فقد قال المفسرون: إنها رؤية المحسن. فمن أحسن يلقاه الحق سبحانه فى أحضان نعمه ويتجلى عليه برؤيته.

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩)، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) عن أبى سعيد الخدرى.

والحسنى: هى عطاء زائد فى الحسنات، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة، ويصل إلى سبعمائة ضعف، وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه فى أن الشىء يساوى الشىء، وفضل الله تعالى فى أن يجزى على الشىء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور.

وقال قوم من العارفين بالله: إن الزيادة المقصودة هى فى العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف، والفضل هو ما فوق ذلك.

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء: فهناك العشرة الأمثال، والسبعمائة ضعف، والحسنى والزيادة عن الحسنى.

« أعددت»

يقول الحق سبحانه فى قرآنه:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

[آل عمران: ١٣٣]

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أعدت للمتقين، ومعنى «أعدت» أى: هُيئت وصنعت وانتهت المسألة.

يؤكد ذلك رسول الله ﷺ فيقول:

«عُرِضَتْ علىَّ الجنة ، ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت».

فعندما يقول الحق سبحانه «أعدت»، فمعناها: أنه أمر قد انتهى الحق من إعداده، وأعد سبحانه الجنة كلها بكلمة «كن» أى: أنها مسألة مفروغ منها.

وما دامت مسألة مفروغًا منها، إذن: فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه.

لقد أوضح المولى سبحانه بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين، وأعد ناراً للكافرين.

وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب، بما يقنعنا أن فيها نعيمًا مثل الذى نعرفه، فإذا كان هذا النعيم روحيًا، ونحن لا نعرف النعيم الروحى، ولا نعلم شيئًا عنه، فكيف يُغرينا الله عز وجل بشىء لا نعلمه؟

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف، وليس من جنس ما لا نعرف.

أما أن يقال: إن نعيم الجنة هو النعيم الروحى أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك، فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث، فكل هذا غير حقيقى.

هم يقولون هذا الكلام، لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضًا لنعيم الجنة، أى: سيكون عذاب الخواطر، وفى هذا تصور لعذاب سهل، لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذابًا روحيًا.

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لابد أن يكون له واقع يشبهه فى الدنيا، وإلا ما وُجد فى أنفسنا ما يجعلنا نرغب فى نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار.

لذلك فإن نعيم الجنة حق، وعذاب النار حق.

وهنا يبرز سؤال هو: لأى عمل هم صالحون؟

والإجابة تقتضى قليلاً من التأمل، إننا نقول فى حياتنا: إن فلانًا رجل صالح، ومقابله «رجل طالح» والإنسان صالح للخلافة، فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء فى الأرض، والرجل الصالح يرى الشىء الصالح فى ذاته، فيترك هذا الشىء على ما هو عليه أو يزيده صلاحًا.

أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشىء الصالح فيفسده ولا يفعل صلاحًا.

إن الرجل ـ على سبيل المثال ـ قد يجد بئرًا يأخذ منه الناس الماء، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله، وإن كان طالحًا فقد يردم البئر بالتراب.

أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع فى خدمة الناس التى تستقى من البئر فيفكر ليبنى خزانًا عاليًا ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة، ويُخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت، فيأخذ الناس المياه وهم فى المنازل.

إن هذا الرجل قد استخدم فكره فى زيادة صلاح البئر.

إذن: فكلمة «رجل صالح» تعنى أنه صالح لأن يكون خليفة فى الأرض، وصالح لاستعمار الأرض، أى: أن يجعلها عامرة، فيترك الصالح فى ذاته، أو يزيده صلاحًا ويحاول أن يصلح أى أمر غير صالح.

الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عمق علم، فلا يُقْدِم على العمل الذى يعطى سطحية نفع، ثم يسبب الضرر من بعد ذلك.

فالحق سبحانه هو الذى استخلف الإنسان فى الكون ليعمر هذا الكون.

يقول تعالى: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. [هود: ٦١]

وعمارة الكون تنشأ بالتفكير فى الارتقاء والصالح فى الكون، فالصالح نتركه صالحًا، وإن استطعنا أن نزيد فى صلاحه فلنفعل.

فالإسلام هو كل حركة فى الحياة تناسب خلافة الإنسان فى الأرض، فكل حركة تؤدى إلى عمار الأرض فهى من العبادة، فلا تأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هى الأركان التى ستقوم عليها حركة الحياة التى سيُبْنَى عليها الإسلام.

فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط جعلت الإسلام أساسًا بدون مبنى، فهذه هى الأركان التى يُبنى عليها الإسلام.

إذن: فالإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان فى الأرض لنقيم الأركان والبنيان معًا، ونكون قد أدينا مسئولية الإيمان.

أولياء الله

قال الله تعالى فى الحديث القدسى:

٧ «مَنْ عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورِجْله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه»(1).

يقول الحق سبحانه:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ . [يونس: ٦٢]

جاءت هذه الآية بعد كلام الحق سبحانه عن نفسه بأنه عالم الغيب، وأنه لا يخفى عليه شىء، فقال:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس: ٦١]

فالحق سبحانه يخبرنا أن كل شىء مهما صَغُر واختفى فهو معلوم محسوب، فكل أمورك يا محمد وأمور الخلق، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى، ومكتوبة فى كتاب مبين واضح.

فالحق سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا، ولكنه يسجل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات، لنعلم عن أنفسنا ماذا نفعل، لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب.

---

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة. وأخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) من حديث عائشة.

ولكن الحق سبحانه يريد أن يُعْلمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قدر رياضات المرتاضين، فهَبْ أن الله قد امتنَّ عليك بنفحة، فإياك أن تقول: إنها من عندك، بل هى من عند عالم الغيب سبحانه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

وعلى ذلك فلا يقال: إن فلانًا قد عَلِم غيبًا لأنه ولىٌّ لله، بل لنقُلْ: «إن فلانًا مُعلَّم غيب»؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيبًا مطلقًا، فهو غيب بالنسبة لك وحدك.

ومثال ذلك: الرجل الذى سُرق منه شىء، هو لا يعرف أين يوجد الشىء الذى سُرِق منه، ولكن اللص يعرف، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات، كل هؤلاء يعلمون، وأيضًا الجن الذين كانوا فى نفس مكان السرقة يعلمون، وهذا ليس غيبًا مطلقًا.

وأيضًا أسرار الكون التى كانت غيبًا موقوتًا، مثل جاذبية الأرض، والسالب والموجب فى الكهرباء، وتلقيح الرياح للسحاب لينزل الماء، كل ذلك كان غيبًا فى زمن ما، ثم شاء الحق سبحانه فحدد لكل أمر منها ميعاد كشف، فصارت أمورًا مشهودة.

إذن: ففى الكون غيب قد يصير مشهدًا، إما بمقدمات يتابعها خلق الله بالبحث، وإما أن تأتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شىء آخر.

فقد تجد باحثًا يعمل من أجل كشف معين، فيصادف كشفًا آخر؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيبًا أن يُولد، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض.

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة، لنفهم أن عطاء الله بميلادها ـ

دون مقدمات من الخلق ـ أكثر مما وصل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق.

ولذلك تجد التعبير الأدائى فى القرآن عن لونى الغيب، تعبيرًا دقيقًا، لنفهم أن هناك غيبًا عن الخلق جميعًا، وليست له مقدمات، ولا يشاء الله سبحانه له ميلادًا، واستأثر الله بعلمه، فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

وهذا الغيب قال الحق سبحانه فيه:

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾. [الأنعام: ٥٩]

أى: أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد، بل هو عند الله وحده، فالحق سبحانه يعلم مطلق العلم.

أما الغيب الذى يكشفه الله سبحانه لهم فيقول سبحانه:

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

وقد نسب المشيئة له سبحانه، وهذا هو غيب الابتكارات.

فقول الله: ﴿ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ هو إذن منه سبحانه بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئًا من معلومه، فقد كان هذا المعلوم خفيًا عنهم ومستورًا فى أسرار الكون، ثم يأذن الله للسر أن ينكشف.

فكل شيء اكتشفه العقل البشرى كان مطمورًا فى علم الغيب، وكان سرًا من أسرار الله، وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف فعرفناه بمشيئته سبحانه.

ويقول تعالى:

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾

[الجن: ٢٦، ٢٧]

فالله هو عالم الغيب فلا يطلع أحدًا من خلقه على غيبه إلا من ارتضاه واصطفاه من البشر، فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خلقه.

وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضًا من الهبات، وهو ليس للحصر، فالرسول أسوة وقدوة لغيره، فمن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدى به، يهبه الله تعالى هبة يراها الناس، فيعرفون أن من يتبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النورانية.

ولكن هذه الهبة ليست وظيفة، وليست دكانًا للغيب، بل هى من عطاءات الله.

والحق سبحانه عندما يُظهِر غيبه لأحد رسله الذين يختارهم ليعلموا بعضًا من غيبه، فإنه يحميه ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يُبلِّغ ما أوحى به إليه خالصًا من تخليط الجن وعبثهم.

وأولياء الله هم من يفيض الله عليهم من غيبه الذاتى بفيوضات وعطاءات وهبات نورانية.

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ . [يونس: ٦٢]

نجد أن كلمة «ولى» من وليه، يليه، أى: قريب منه، وهو أول مَفْزَع

يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره، وخيره يفيض على مَنْ والاه.

فمن يقرب عالمًا يأخذ بعضًا من العلم، ومن يقرب قويًا يأخذ بعضًا من القوة، ومن يقرب غنيًا، إن احتاج، فالغنى يعطيه ولو قَرْضًا.

إذن: فالوليّ هو القريب الناصر المعين الموالى. وتطلق الولى مرة لله سبحانه، فقال: ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾. [الشورى: ٩]

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه، عكس الخلق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم، أما الله سبحانه وتعالى فهو الولى المطلق، فقربه من خلق لا يبعده عن خلق، ولا يشغله شىء عن شىء، فهو الولى الحق.

وهو سبحانه يقول:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾. [الكهف: ٤٤]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقة فليلجأ إلى الله، وهو سبحانه يفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية ، فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين، والمؤمنون يقربون من الله تعالى، فالولاية المطلقة لله، وإن قيِّدت بشىء مضاف ومضاف إليه، فهى مرة تكون من المؤمنين لله، ومرة تكون من الله للمؤمنين.

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين؛ فبطلاقة قدرته سبحانه إذا رأى فى إنسان ما خصلة من خير، فيكرمه أولاً، فيصير هذا العبد طائعًا من بعد ذلك.

وتسمع مَنْ يقول: إن فلانًا قد خُطف من المعصية أى: أنه كان عاصيًا، ثم أحب الله تعالى خصلة خير فيه، فهداه.

ومثال ذلك: الرجل الذى سقى كلبًا، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خفّه بالماء من البئر ليروى ظمأ الكلب، فغفر الله سبحانه وتعالى له سيئاته.

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقًا للكلب، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذى كبد رطبة.

فمن يتبع المنهج يأخذ النور، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يقربه قربًا أكثر، فيعطيه هبة اصطفائية يراها الذين حوله، وقد يقتدون به.

والحق سبحانه يقول فى حديث قدسى آخر:

«يابن آدم أنا لك محب، فبحقى عليك كن لى محبًا».

ويقول الله سبحانه:

«أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم»(١).

إن الحق سبحانه يضع مسئولية القرب من الله فى يد الخلق، ويسلم المؤمن مفتاح القرب من الله، فمن يكن من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يقربه الله منه أكثر فأكثر.

إذن: فمن الناس من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله، ويدق على باب الحق، فينفتح له الباب، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانيًا.

ولله المثل الأعلى: أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسان يحتاج

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥، ٧٥٠٥، ٧٥٣٧) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة . قال الترمذى :حديث حسن صحيح.

إلى لقمة أو صدقة فتعطيه، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه، فما بالنا بعطاء الحق لعباده؟

إذن: فمنهم من يصل بكرامة الله إلى طاعة الله، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله، ويقرب الله من العبد، هنا يكون العبد فى معية الله، وتفيض عليه هذه المعية كثيراً.

فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحسنوا الأدب مع الله، وألا يتبجح واحد منهم متفاخراً بعطاء الله سبحانه له.

فالمباهاة: بالكرامات تضيعها، ويسلبها الحق سبحانه من الذى يتبجَّح بها ويتفاخر ويتباهى، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة.

إذن: فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائمًا فى معيته، وهو سبحانه الذى بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه ولىّ المؤمنين، ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور، فقال:

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ . [البقرة: ٢٥٧]

فأول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسى، فعالم القيم أقوى من عالم الحس؛ لأن الجبر فى عالم الحس يمكن أن يحدث، أما فى عالم القيم فهو أمر شاق.

ويبين الحق سبحانه لنا شروط الولاية، فيقول:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾ . [يونس: ٦٣]

والإيمان هو الأمر الاعتقادى الأول الذى يُبنى عليه كل عمل، ويقتضى تنفيذ منهج الله.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) ﴾ [البقرة: ٣]

وقمة الغيب هى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله والإيمان باليوم الآخر، كل هذه أمور غيبية، وحينما يخبرنا الله تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم، وما دام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم، وما دام الله قد أخبرنا باليوم الآخر فنحن نؤمن به، لأن الذى أخبرنا به هو الله جل جلاله، الذى آمنت أنه الإله الحق سبحانه.

وإقامة الصلاة هى الصفة الغالبة فى وصف الذين يؤمنون بالله؛ لأن الصلاة هى الصلة المتجددة بإعلان الولاء لله خمس مرات فى كل يوم.

والنبى ﷺ قال: «**بُنِى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**» (١).

وهذه الأركان الخمسة هى الدعائم والأسس التى تقام عليها عمارة الإسلام، وأى بيت لا يقوم بالأسس وحدها، ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة وعشرات الفضائل، والمطلوبات غير الأسس.

وإذا ما راجع كل واحد منا علاقته بأسس الإسلام فلسوف يجد أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرة واحدة فى العمر.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر -رضى الله عنهما.

ومن بعد ذلك يقيم الصلاة، ثم يؤتى الزكاة، لكن إن كان فقيراً فهو مُعْفىً من أداء الزكاة، وحتى الذى يؤدى الزكاة فهو يؤديها فى وقت واحد فى السنة.

ومن بعد ذلك يصوم رمضان، لكن المريض أو المسافر، أو الذى له عذر فهو يفطر ويقضى الصوم، ويفدى عن الصيام المريض الذى لا يُرْجَى شفاؤه، والعجوز الذى تصيبه بالصوم مشقة شديدة.

ومن يحج البيت يفعل ذلك مرة واحدة فى العمر إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، هذه هى أركان الإسلام، وفيها إعفاءات كثيرة للمسلم، اللهم إلا الصلاة فهى أساس يتكرر.

ولذلك يقول ﷺ: **«رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة»** (١).

وما دامت الولاية لله الحق، فلابد أن نستديم فى ولائنا له سبحانه وتعالى، واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة.

والحق سبحانه يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضًا خمس مرات فى اليوم، وترك سبحانه الباب مفتوحًا لتطوعك، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى الله إلا فعلت.

والحق سبحانه يقول فى وصف أوليائه:

﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾. [يونس: ٦٣]

والتقوى هى اتقاء صفات الجلال فى الله تعالى، وأيضًا اتقاء النار، وزاد رسول الله ﷺ فى صفات من تصدر عنه التقوى؛ لأنها مراحل، فقال ﷺ يصف أولياء الله المتقين:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣١) والترمذى فى سننه (٢٦١٦) عن معاذ بن جبل.

«إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى».

قالوا: يا رسول الله تخبرنا: من هم؟

قال: **«هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»** (١).

ثم قرأ ﷺ هذه الآية:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ . [يونس: ٦٢]

وقد سُئِل عمر ـ رضى الله عنه ـ عن المتقين فقال:

«الواحد منهم يزيدك النظر إليه قربًا من الله».

وكأنه ـ رضى الله عنه ـ يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ . [الفتح: ٢٩]

فساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله.

وهذا السرور يُلْفِتك إلى أن تقلده؛ لأن رؤياه تُذكِّرك بالخشوع، والخضوع والسكينة ورقة السَّمْت وانبساط الأسارير.

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد فى هذا الكون أى خلل، بل يرى كل شىء فى موضعه تمامًا، ولا يرى أى قبح فى الوجود، وحتى حين يصادف القبح فهو يقول: إن هذا القبح يبيّن لنا الحسن، ولولا

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب-رضى الله عنه .

وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناس الحق، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق.

إن وجود الشر يدفع الناس إلى الخير، ولذلك يقال: كُنْ جميلاً في دينك تر الوجود جميلاً؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى، وكلما تقربت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق.

ومثال ذلك: العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة، وعلَّمه من لدنه علمًا، هذا العبد يعلّم موسى ـ عليه السلام ـ فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة، ولم يكن يعلم أن هناك حاكمًا ظالمًا يأخذ كل سفينة غَصْبًا، ولذلك ناقش موسى العبد الصالح. وتساءل: كيف تخرق سفينة سليمة؟

وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها، وهى سفينة يملكها مساكين.

وذلك هو قوله تعالى:

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾. [الكهف: ٧٩]

وحين قتل العبد الصالح غلامًا، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى جريمة، ولم يعلم سيدنا موسى ما يعلمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسىء إلى أهله، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله، وسوف يدخل هذا الولد الجنة، ويصير من دعاميص الجنة.

وذلك هو قوله تعالى: **﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا**

طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١]

وأيضًا حين دخل سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما، وطلب الطعام هو أصدق ألوان السؤال، فأبى أهل القرية أن يطعموهما، وهذا دليل الخسة واللؤم، فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط فى تلك القرية.

ولم يكن سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ قد علم ما علمه العبد الصالح من أن رجلاً صالحًا قد مات وترك لأولاده كنزًا تحت هذا الجدار، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد، فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه.

وذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾. [الكهف: ٨٢]

إذن: هذه هبات من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين، وهو سبحانه وتعالى يجعل مثل هؤلاء العباد كالصوارى المنصوبة التى تهدى الناس، أو كالفنار الذى يهدى السفن فى الظلمة.

إذن: فهؤلاء الأولياء يتلقون من فيوضات الله عليهم بواسطة الملائكة، ويتميزون عن غيرهم؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض؛ لأن الفرض هى أقل القليل فى التكاليف.

وقد يرى الواحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله

تعالى، فيزيد من جنسها على ما فرض الله، ويصلى ـ بدلاً من خمسة فروض ـ عشرة أخرى نوافل، أو يصوم مع رمضان شهرًا أو اثنين، أو يصوم يَوْمى الاثنين والخميس من كل أسبوع.

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى، وأن الله يستحق أكثر من ذلك، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الود مع الله تعالى.

وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء، وينال من رضوان الله ما جاء فى هذا الحديث القدسى:

«فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورِجْله التى يمشى بها».

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدى فوق ما عليه، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها.

وعندما يزيد الإنسان على ما كلفه الله أن يصلى الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة، ويصوم شهر رمضان ثم يصوم يومى الاثنين والخميس، أو كذا من الشهور ويزكى حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف فى المائة، وقد يزيد الزكاة إلى عشرة فى المائة، ويحج ثم يزيد الحج مرتين.

إذن: فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله، فيكون قد أدخلك الله فى مقام الإحسان؛ لأنك حين جربت أداء الفرائض ذُقْتَ حلاوتها، وعلمت مما أفاضه الله عليك من معين التقوى ومن رصيد قوله:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ . [البقرة: ٢٨٢]

علمت أن الله يستحق أكثر مما كلفك به.

ولذلك فبعض الصالحين فى أحد سبحاته يقول: «اللهم إنى أخشى ألا تثيبنى على الطاعة لأننى أصبحت أشتهيها».

أى: صارت شهوة نفس، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة فيقول: يا رب إنى أصبحت أحبها، ومفروض منا أننا نمنع شهوات أنفسنا لكنها أصبحت شهوة، فماذا أفعل؟

إذن: فهذا الرجل قد دخل فى مقام الإحسان، واطمأنت نفسه ورضيت، وأصبح هواه تبعًا لما أمر به الله ورضيه.

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه حينما تكلم عن المتقين قال:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾. [الذاريات: ١٥، ١٦]

لماذا هم محسنون يا رب؟

يقول الحق سبحانه:

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾. [الذاريات: ١٧]

وهل كلفنا الله ألا نهجع إلا قليلاً من الليل؟ إن الإنسان يصلى العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر، هذا هو التكليف، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة، ويزداد الإيمان فى القلب والجوارح، ويأنس العبد بالقرب من الله، فالحق لا يرد مثال هذا العبد، بل إنه يستقبله ويدخله فى مقام الإحسان.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾. [الذاريات: ١٦ ـ ١٨]

وربنا لم يكلفهم بذلك، إنما كلفهم فقط بخمسة فروض، ونعرف قصة الأعرابى الذى قال للرسول ﷺ: هل علىَّ غيرها؟ قال له: لا، إلا أن

تطوَّع وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوَّع. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق»[1].

وبذلك دخل هذا الأعرابى فى نطاق المفلحين، أما الذى يزيد على هذا فيدخله الله فى نطاق المحسنين.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ . [الأنعام: ١٢٥]

أى: يجعل الأمور التى يظن بعض من الناس أنها متعبة، فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ،ويقبل عليها بشوق وخشوع.

والزيادة على ما فرضه الله، ومن جنس ما فرض يكون لها ملحظان:

الأول: أن العبد يشهد لربه بالرحمة، لأنه كُلِّف دون ما يستحق.

الثانى: أن عمل الطاعة قد خفف على المؤمن فاستراح بها.

إذن: فالمطوِّع هو الذى يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله، وهؤلاء هم المحسنون.

وهذه الزيادة هى النافلة، أى: زيادة عن الفريضة الواجبة، وفى هذا المعنى يقول ربنا عز وجل:

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩]

لذلك نقول: إن النفل هو العبادة الزائدة، وشرطها أن تكون من جنس ما فُرض عليك؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصى، بل يعبد العبد ربه بأى لون من ألوان العبادة التى شرعها الله.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦) ومسلم فى صحيحه (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله.

وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض الله، حتى لا يبتدع العبد عبادات ليست مشروعة.

ثم يقول رب العزة فى هذا الحديث القدسى:

«وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه».

يقول الحق سبحانه فى قرآنه:

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾. [الأعراف: ٥٥]

الدعاء إنما يكون من عاجز، يدعو قادرًا على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه، أو يعينه عليه، وعندما تشعر أنك عاجز فأنت تركن إلى من له مطلق القدرة؛ لأن قدرتك محدودة.

إذن: فإن كنت ممن يطغى أو يتكبر فاعرف مكانتك ومنزلتك جيدًا وتراجع عن ذلك؛ لأنك عرض زائل.

والدعاء: هو تضرع وذلة وخشوع وإقرار منك بأنك عاجز، وتطلب من ربك المدد والعون، واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيمانى.

وإياك أن تدعو وفى بالك أن تقضى حاجتك بالدعاء، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قدر لها.

فاجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه، لا إجابتك إلى ما تدعو إليه، إنك تدعو لتطلب الخير، فدع الحق بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير.

واجعل دعاءك دعاء مستورًا مختبئًا، خفية بينك وبين ربك، فلا تجهر

بالدعاء، فالدعـاء إلى الله خفية يبتعـد بك عن الرياء، وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك.

ادعنى فى سرّك لأننى سميع عليـم، أعلم كل ما ظهر منك وما بطن، ادع بالخضـوع والخشوع والتـذلل، لتنكسر فيك شـهوة الكبرياء، وشـهوة الغطرسة، وشهوة الجبروت.

وينبـهنا الحق سبـحانه وتعالـى أن ندعوه بالأسـماء الحسنى فـى قوله:
﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ . [الأعراف: ١٨٠]

لأنه يريد من خـلقـه دائمًا أن يذكـروه، لأنه هو الـرب الذى خلق من عدَم، وأمدَّ من عُدْم، وصان الخلق بقيوميته، وحين تأتى لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادى الله بها.

والله سبـحانه فى عطائه يحب أن يطلب منه الإنسـان، وأن يدعوه وأن يسـتعين به، وهذا يوجـب الحمـد؛ لأنه يقينـا الذل فى الدنيا، فـأنت إن طلبت شيئًا من صاحب نفوذ، فلابد أن يحدد لك موعدًا أو وقت الحديث ومدة المقابلة، وقد يضيق بك فيقف لينهى اللقاء.

ولكن الحق سـبحانه بابـه مفتـوح دائمًا، فأنت بين يديه عندمـا تريد، وترفع يديك إلى السماء، وتدعو وقتما تحب، وتسأل الله ما تشاء فيعطيك ما تريده أن كان خيرًا لك، ويمنع عنك ما تريده إن.كان شرًا لك.

والله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله فيقول:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِيـنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾. [غافر: ٦٠]

فالله سبحانه يعرف ما فى نفسك، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل.

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

فالله سبحانه عطاؤه لا ينفد، وخزائنه لا تفرغ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد، ومهما سألته فإنه لا شىء عزيز على الله سبحانه وتعالى، إذا أراد أن يحققه لك.

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

أهل التقوى وأهل المغفرة

قال الله عز وجل فى حديثه القدسى:

٨ «أَنَا أَهْلٌ أنْ أُتَّقَى فمَنْ اتَّقَانى فَلَمْ يجعَلْ مَعِى إلهًا فأنَا أهْلٌ أنْ أَغْفِرَ لَهُ».

يقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ (١).

[النساء: ١]

ومعنى قوله سبحانه: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ أى: اجعلوا بينكم وبينه وقاية، وأول التقوى أن تؤمن به إلهًا ،وتؤمن أنه إله بعقلك.

إنه سبحانه يعرض القضية للناس فيقول ﴿اتَّقُوا رَبَّكُم﴾ ولم يقل: اتقوا الله، لأن الله مفهومه العبادة، فالإله معبود له أوامر وله نواه.

والحق سبحانه لم يصل بالناس لهذه بعد، إنما هم لا يزالون فى مرتبة الربوبية، والرب هو المتولى تربية الشىء خلقًا من عدم وإمداداً من عدم، لكن أليس من حق المتولى خلق الشىء، وتربيته أن يجعل له قانون صيانة؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ١٤٢ ، ٢٤٣) وابن ماجه فى سننه (٤٢٩٩) والترمذى فى سننه (٣٣٢٨) وقال: هذا حديث غريب، وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٩٦٩)، ومداره على سهيل بن أبى حزم القطيعى ضعيف ليس بالقوى، وقد حسَّن الألبانى الحديث لغيره.

إن من حقه سبحانه أن يضع للمخلوق قانون صيانته، ونحن نرى أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشىء الذى صنعه قانون صيانة.

أيخلق الحق سبحانه البشر من عدم، وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون؟ أم يقول لهم: اعملوا كذا وكذا، ولا تعملوا كذا وكذا، لكى تؤدوا مهمتكم فى الحياة؟

إن رب العزة سبحانه يضع دستور الدعوة للإيمان فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)﴾ . [النساء: ١]

إذن: فالمطلوب منهم أن يتقوا، ومعنى يتقوا أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم، فأراد سبحانه أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشىء الذى نؤمن به جميعًا- وهو أنه سبحانه خلقنا- إلى الشىء الذى يريده، وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله.

لقد قدم سبحانه الدليل أولاً على أنه إله قادر، وأنه خلق من عدم وأمدكم وسخر العالم لخدمتكم، وقدم دليل البث [١] فى الكون المنشور الذى يوضح أنه إله، فلابد أن تتلقوا تعليماته، ويكون معبودًا منكم، أى مطاعًا، والطاعة تتطلب منهجًا: افعل ولا تفعل.

ولذلك يختم الحق سبحانه الآية بقوله:

---

(١) البث: النشر. يقول تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾** [الشورى: ٢٩]. أى: نشر فيها كل ما يدب على الأرض.

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ . [النساء : ١]

لأن كلمة اتقوا تعنى: اجعل بينك بين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر الطاعة، واجتناب ما نهى الله عنه.

والرقيب من رقب إذا نظر ويقال: «مرقب»، ونجد مثل هذا المرقب فى المنطقة التى تحتاج إلى حراسة، حيث يوجد كشك مبنى فوق السور ليجلس فيه الحارس كى يراقب، ومكان الحراسة يكون أعلى دائمًا من المنطقة المحروسة.

وكلمة «رقيب» تعنى ناظراً عن قصد أن ينظر، ويقولون: فلان يراقب فلانًا أى: ينظره، صحيح أن هناك من يراه ذاهبًا وآتيًا من غير قصد منهم أن يروه، لكن إن كان مُرَاقَبًا، فمعنى ذلك أن هناك مَنْ يرصده.

وسبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)﴾ . [النساء : ١]

فليس الله بصيرًا فقط ،ولكنه رقيب أيضًا، ولله المثل الأعلى.

ولعظم تقوى الله قال الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً (١٣١) ﴾. [النساء : ١٣١]

يبين الحق سبحانه: لقد وصينا الذين أنزلنا إليهم المنهج من قبلكم، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهى، لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا منسجمين

كالكون الذى تعيشون فيه، ويصبح كل شىء يسير منتظمًا فى حياتكم.

والحق سبحانه لم يقل هذه القضية للمسلمين فقط، لكنها قضية كونية عامة جاء بها كل رسول.

ولم يقل: شرعنا للذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ولم يقل: فرضنا، إنما قال ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا﴾ . [النساء: ١٣١]

وكلمة وصية تشعر المتلقى لها بحب الموصِى للموصَى.

وتقوى الله تعنى أن نفعل أوامر الله وأن نتجنب نواهيه، لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير.

فمعنى التقوى هو أن تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها، بأن تلتزم منهج الله، وساعة ترى منهج الله وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات.

أما من يُعرض عن تقوى الله سبحانه، فإن الحق يقول عن مصيره:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ .

[طه: ١٢٤]

أى: أن حياته تمتلىء بالهموم والمشاكل؛ لأنه يخالف منهج الله، فالذى يجعل الحياة مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسنها لأنفسنا ونعمل بها، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل.

وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس: خالفنا منهج الله وفلحنا، لذلك كان لابد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أن يسيطر.

وحين يتمسك الناس بمنهج الله، فلن تأتى لهم المشاكل بإذن الله،

فالذى يتعب العالم هو الحركة المتعاندة، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم ليجعل حركة حياتنا متساندة، فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إله واحد، وصار كل منا مكلفًا بالتعاون مع غيره.

وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا الله إليه تشريعًا والرسول بلاغًا وبهذا تتساند الحياة، وتصبح حياة لها طعم، وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾

[النحل: ٩٧]

أى: يعيشون حياة طيبة لا حقد فيها، ولا استغلال، ولا ضغن، ولا حسد، ولا سيطرة، ولا جبروت، فيصبح الناس جميعًا فى أمان.

فالحياة الطيبة فى الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى.

فلا يقل أحد: إن الدين ثمرته فى الآخرة، بل قولوا: ليست مهمة الدين هى الآخرة فحسب، بل مهمة الدين هى الدنيا أيضًا، والآخرة إنما هى ثواب على النجاح فى هذه المهمة؛ لأن الله إنما يجازى فى الآخرة من أحسن العمل فى الدنيا.

وعلى هذا، فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلهى لا يتأخر إلى يوم القيامة، ولكن الحياة فى الدنيا تكون مرهقة، والمعيشة ضنكًا.

إذن: إياكم أن تفهموا أن المنهج الدينى لله غايته الآخرة فقط، لا بل إن اتباع المنهج الدينى لله جزاؤه فى الآخرة، وأما ثمرته ففى الدنيا، فمن

يوفق فى هذه الدنيا وحـركته متـساندة مع غيـره، يعطى له الله الجزاء فى الحياة المستريحة فى الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة.

وهكذا نفهم أن مـوضوع الدين هو الدنيا، أما الآخرة فـهى جزاء على هذا الاختبار الدنيوى.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾.

[الأنفال: ٢٤]

أى: أن الله يعطيكم منهجًا من إله واحد، لا يعود بالخير عليه ولا على المبلغ عنه وهو الرسول، وإنما يعود بالخير عليكم أنتم، فالخير يأتى من أمر إله واحد، فلا يجعل كل منا إلهه هواه حتى لا تتعدد الأهواء.

والحق سبحـانه حينما دعانا إلى الحياة الـطيبة سمى المعيشـة فى منهجه حياة، لأنها حـياة سعيدة، وتسلم إلى حياة خالدة؛ لأن الذى قـيَّد حركته بمنهج الله يأخـذ اطمئنانًا فى الدنيـا ونعيمًا مـقيمًا لا يزول ولا يـنتهى فى الآخرة.

ومثال هذا فى دنيـانا: الطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهو، وهو قد أعطى نفسه ما تريد، ولكنه أخذ متعة محدودة، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاء بقية عمره.

أما الـذى قيَّد حركـته بالمذاكـرة، فقـد منع شهـوات نفسـه فى اللعب واللهو، وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلاً مريحًا ومرموقًا بقية عمره.

إذن: فكل من الطالب الذى يـجتـهـد وذلك الذى يلهـو ويلعب، كل منهمـا أخذ لونًا من المتعـة، ولكن أحدهما أخـذ متعـة قصيـرة جدًا، ثم

أصبح من صعاليك الحياة، أما الثانى فقد قيَّد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح.

كذلك أنت فى الدنيا، إن قيَّدت نفسك بالتكاليف «افعل» و «لا تفعل»، فظاهر الأمر أنك قيَّدت حريتك، وإن فعلت ذلك برضا فالله يعطيك راحة واطمئنانًا ومتعة فى النفس.

ولذلك نجد الصلاة، وهى التى يؤديها المسلم خمس مرات فى اليوم على الأقل، هذه الصلاة فى ظاهرها أنها تأخذ بعضًا من الوقت كل يوم، ولكنها تعطى راحة نفسية، كما أنها تعطى اقتناعًا يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأداها بحقها.

وكان ﷺ يقول: «يا بلال أرحنا بالصلاة» (١)، كما قال ﷺ ضمن حديث رواه أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ: «وجُعِلَتْ قُرة عينى فى الصلاة» (٢).

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة، ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ.

وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) ﴾ .

[التوبة: ٢١]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥ / ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم، قاله أحمد واللفظ له.

(٢) حديث أنس أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والنسائى فى سننه (٧ / ٦١) والحاكم فى مستدركه (٢ / ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى، وتمام الحديث: «حبب إلىَّ من الدنيا النساء والطيب...».

تجد البشارة هنا آتية من رب خالق، والرب هو المالك والمدبر الذى يرتب لك أمورك، وهو سبحانه مأمون عليك.

والرحمة والرضوان من صفات الله، وهى صفات ذات له سبحانه، ومتعلقات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء.

ثم يترقى الحق سبحانه مع عباده فى النعيم، فيقول: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١)﴾ . [التوبة: ٢١]

فقد بشَّرهم الله سبحانه أولاً بالرحمة، ثم بنعمة دائمة فى الحياة، فمن عبد الله ليدخل الجنة أعطاها له فكان مع النعمة، ومن عبده سبحانه ـ لأنه يستحق أن يُعبد ـ فيكون مع المنعم، فيرتقى فى الجنة ليرى وجه الله فى كل وقت، وأما الآخرون فيرونه لمحات.

ولذلك يكون الجزاء فى الآخرة على قدر العمق الإيمانى للعبد، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ .

[الكهف: ١١٠]

وقال أحد الصالحين: «إنى لا أشرك بك أحدًا حتى الجنة لأن الجنة أحد».

والحق سبحانه يذكر لنا ثواب من يتقونه، فيقول عز وجل:

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾ .

[آل عمران: ١٥]

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾. [آل عمران: ١٤]

عندما نمعن النظر فى الشهوات التى تقدمت من نساء وبنين وقناطير مقنطرة من ذهب وفضة وخيل مُسومَّة وأنعام وحرث، ألا يكون من المناسب فيها أن يتقى الإنسان ربه فى مجالها؟

إن التقوى لله فى هذه الأشياء واجبة، ولذلك قمنا من قبل قضية نرد بها على الذين يريدون أن يجعلوا الحياة زهدًا وانحسارًا عن الحركة، وأن يُوقفوا الحياة على العبادة فى أمور الصلاة والصوم، وأن نترك كل شىء.

لهؤلاء نقول: إن حركتك فى الحياة تعينك على التقوى؛ لأننا عرفنا أن معنى التقوى هو أن يجعل الإنسان بينه وبين النار حجابًا، أو أن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية، فإذا ما أخذت نعم الله لتصرفها فى ضوء منهج الله، فهذا هو حسن استخدام النعم.

وقد أوضحت من قبل أن التقوى حين تأتى مرة فى قول الحق: **﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾** [البقرة: ١٨٩] وتأتى مرة أخرى **﴿ وَاتَّقُوا النار ﴾** [آل عمران: ١٣١] فهما ملتقيان، فاتقاء النار حتى لا يصاب الإنسان بأذى، وعندما يتقى الإنسان الله فهو يتقى غضب الله، لأن غضب الله يورد العذاب، والعذاب من جنود النار.

إذن: فالذين يتقون الله لا يظنون أنهم زهدوا فى هذه الحياة لذات الزهد فيها، ولكن للطمع فيما هو أعلى منها، إنه الطمع فى النعيم الأخروى الدائم.

فإياكم أن تُغضبوا ربكم فى أى عمل من هذه الأعمال، وكن أيها المسلم فى هذه التقوى على يقين من أنك ملاقى الله، ولا تشك فى هذا اللقاء أبدًا، وما دمت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يَبْقَ لك إلا أن تُبشَّر بالجنة.

والحق سبحانه يقول:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) ﴾ . [المائدة: ٩٦]

إنكم لستم بقادرين على تحمُّل عذاب النار، فالحق له صفات جمال، وهى التى تأتى بما ييسر وينفع كالبسط، والمغفرة والرحمة، وله سبحانه وتعالى صفات القهر مثل: الجبار وشديد العقاب وغيرها من صفات الجلال.

وكل صفة من صفات الحق لها مطلوب، فعندما يذنب الإنسان فالتجلى فى صفات الله يكون لصفات الجلال، ومن جنود صفات الجلال النار.

فإياكم أن تظنوا أنكم انفلتم من الله، فمساحة الحرية الممنوحة لكل إنسان تقع فى المسافة بين قوسين: قوس الميلاد، وقوس الموت، فلا أحد يتحكم فى ميلاده أو وفاته.

إياك إذن أيها الإنسان أن تقع أسير الغرور؛ لأنك مختار فيما بين القوسين، ومحكوم بقهرين، قهر أنه قد خلقك بدءًا، وقهر أنك ستعود إليه سبحانه وتعالى نهاية.

والحق عز وجل يقول هنا فى الحديث القدسى:

«فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهًا فأنا أهل أن أغفر له».

وتلك هى قضية الحق الأساسية، فالله سبحانه متفرد بالوحدانية، لا إله غيره، فأصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له، وحين تعترف بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له، فأنت تدخل حصن الأمان.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاك فيهما إلا دخل الجنة» (١).

وقد قال رسول الله ﷺ لأبى ذر: ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق «ثلاثًا» ثم قال فى الرابعة: «على رغم أنف أبى ذر» (٢).

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود الله، فهل ساعة قال رسول الله: «على رغم أنف أبى ذر»، هل هذه أحزنت أبا ذر؟ لا، لم تحزنه، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن رغم أنف أبى ذر وهو مسرور، لماذا؟

لأنها فتحت باب رحمة الحق، لأنه إذا لم يكن هذا فما الفارق بين من اعتقدها وقالها وبين من لم يقلها؟ لابد أن يكون لها تمييز، وكل جريمة موجودة فى الإسلام ،والحق سبحانه قد جرَّمها، فهذا يعنى أنها قد تحدث.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧) الإيمان من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٨٢٧) ومسلم فى صحيحه (٩٤) الإيمان، من حديث أبى ذر- رضى الله عنه.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾. [المائدة: ٣٨]

وهذا يعنى أنه من الجائز أن يسرق المؤمن، وكذلك قد يزنى فى غفلة من الغفلات، وفى أسس الاستغفار يأتى البيان الواضح: من الصلاة للصلاة كفارة ما بينهما، الجمعة للجمعة كفارة، الحج كفارة، الصوم كفارة.

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر» (1).

أى: أن ربنا قد جعل أبوابًا متعددة للمغفرة وللرحمة، وهو سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾. [النساء: ٤٨]

وهذه المسألة ليست لصالحه، إنما لصالحكم أنتم، حتى لا تتعدد آلهة البشر فى البشر، ويرهق الإنسان، ويشقى من كثرة الخضوع لكل من كان قويًا عنه، فأعفاك الله من هذا.

وأوضح لك: لا، اخضع لواحد فقط يكفك كل الخضوع لغيره، واعمل لوجه واحد يكفك كل الأوجه، وفى ذلك راحة للمؤمن.

إن الإيمان إذن يُعلِّمنا العزة والكرامة، وبدلاً من أن تنحنى لكل

---

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٣) الطهارة، والترمذى فى سننه (٢١٤) وكذا ابن ماجه (١٠٨٦) من حديث أبى هريرة. قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

مخلوق اسجد للذى خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله، فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة.

هل أنتم زدتم له صفة؟

لا، فهو بصفات الكمال أوجدكم، وبصفات الكمال كان قيومًا عليكم، فأنتم لم تضيفوا له شيئًا، فكونك تشهد أن لا إله إلا الله، ما منفعتها بالنسبة لله؟

إن منفعتها تكون للعبد فحسب.

والحق سبحانه لا يغفر أن يُشْرك به؛ لأنه لو غفر أن يُشرك به لتعدد الشركاء فى الأرض، وحين تتعدد الشركاء فى الأرض يكون لكل واحد إله، وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة، لكن الخضوع لإله واحد نأتمر جميعًا بأوامره يعزنا جميعاً.

لا سيادة لأحد، ولا عبودية لأحد عند أحد، فقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٤٨]. لمصلحتنا.

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: أتى وحشىٌّ ـ وهو قاتل حمزة عم النبى ﷺ فى غزوة أحد ـ على النبى ﷺ فقال: يا محمد أتيتك مستجيرًا فأجرنى حتى أسمع كلام الله، فقال رسول الله ﷺ: «قد كنت أحب أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتنى مستجيرًا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله». قال: فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت، هل يقبل الله منى توبة؟

فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت:

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾.

[الفرقان: ٦٨ - ٧٠]

فتلاها عليه فقال: أرى شرطًا فعلىَّ لا أعمل صالحًا، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾. [النساء: ٤٨]

فدعا به فتلا عليه، فقال: فلعلىَّ ممن لا يشاء، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾. [الزمر: ٥٣]

فقال: نعم، الآن لا أرى شرطًا، فأسلم [١].

إذن: فالمسألة كلها تلطف من الخالق بخلقه واعتبار عمليات الغفلة

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١٤٨٠)، وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص١٤٨) وعزاه للطبرانى عن ابن عباس بسند فيه ضعف وليس فيه ذكر دخول ومشى فى جوار النبى. ولعلها رواية أخرى.

عمليات طارئة على البشر، وما دام الحق يقنن تقنينات فمن الجائز أنها تحدث، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها، إياك أن تأتى بسيرتها عنده مرة أخرى، وتُذكِّره بها.

إياك أن تفعل هذا، فهو قد استغفر من يملك المغفرة، فلا تجعله مذنبًا عندك، لأن الذى يملكها انتهت عنده المسألة.

لماذا؟ لكيلا يذل الناس بمعصية فعلت، بل العكس، إن أصحاب المعاصى الذين أسرفوا على أنفسهم يكونون فى نظر بعض الناس هينين مُحقَّرين.

ولذلك نقول: إن الواحد منهم كلما لذعته التوبة وندم على ما فعل كتبت له حسنة، فعلى رغم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها، وهذا هو السبب فى أن الله يبدل سيئاتهم حسنات.

وعندما نعلم أن ربنا يبدل سيئاتهم حسنات فليس لنا أن نحتقر المسرفين على أنفسهم، بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا، ولا نجعل لهم أثراً رجعيًا فى الزلة والمعصية.

أما الشرك بالله واتخاذ إله آخر معه سبحانه فهو قمة الخيانة العظمى، وهو قمة الظلم، وهو ظلم خائب للنفس، والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار.

فالظلم حينما يحقق للظالم نفعًا فهو ظلم هيِّن، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ولا يأخذ إلا العقاب الصارم.

فالتقاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القمة، وهى أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن تشهد أن محمدًا رسول الله، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، أو لا أمر لأحد فى خلق الله إلا الله، ولا فعل لأحد من خلق الله

إلا من الله، ولا استمداد لأحد قدرة، وعلمًا وحكمة وقبضًا وبسطًا إلا من الله، تلك هى دائرة الإيمان العقدية.

فقمة العقيدة التى يحكم فيها القرآن هى: لا إله إلا الله، ومن يفعل عكس ذلك فهو الظالم.

فأعلى درجات الظلم حين يظلم أحد حق الإله الأعلى فى أن يكون إلهًا واحدًا، وأن ينقل ذلك لغيره، تلك هى قمة الظلم.

وياليت غير الله كان صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى، لا، فليس ذلك المنقول له الألوهية بصاحب دعوة، بل تطوع الظالم من نفسه بذلك، واتخذ من دون الله شريكًا لله، وفى هذا تطوع بالظلم غير مُدَّعٍ.

وهَبْ أن الله تعالى قال: لا إله إلا أنا، فإما أن القضية صحيحة، وإما أنها غير ذلك، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها، فالإله الثانى كان يجب أن يعلن عن نفسه، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه، وإلا كان إلهًا أصمَّ غافلاً، ولكن أحدًا لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه، لذلك تثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه تعالى.

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه: لا إله إلا أنا، أنا الخالق، أنا الرازق، ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال.

إذن: فقد صَحَّتْ الدعوى فى أنه لا إله إلا الله.

والله سيظل هو القوى القادر العزيز، لن ينقص إيمانك أو عدم إيمانك من مُلْكه شيئًا.

فإيمانك بقضية الإيمان الأولى يجعلك تتقى الله سبحانه، وتجعل بينك وبين عذاب الله وعقابه وقاية.

واعلم أن التقـوى لا تنشأ من الأفـعال المحسـة المدركة فقـط، بل تنشأ أيضًا فى الأحوال الـدخيلة المضمـرة، فالحـقد والحسـد، والمكر، كل هذه صفات سيئة، فإياكم أن تقولوا إن التقوى للمدركات فقط، بل للمحسَّات أيضًا، وعمل القلوب له دخل فى تقوى الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢)** ﴾.

[الحج: ٣٢]

الجنة حرام على قاتل نفسه

قال رب العزة سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى:

٩ «بَادَرنى عَبْدِى بنفْسِهِ، حَرَّمْتُ عليـهِ الجنَّةَ»[1].

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) ﴾.

[النساء: ٢٩]

إن الله تبارك وتعالى لم يرغمك على الإيمان، ولم يكرهك على الدخول تحت نطاق التكليف، فأنت باختيارك للإيمان ألزمت نفسك بالدخول إلى هذا التكليف باختيارك وطواعيتك.

وما دُمْتَ قد دخلت على الإيمان باختيارك وطواعيتك فاجعل إيمانك بالله حيثية كل حكم يحكم به الله عليك من: افعل كذا ولا تفعل كذا، ولا تقل: لماذا أفعل كذا يا رب، ولماذا لا أفعل كذا يا رب؟

فالذى آمنت به إلهًا حكيم قادر مأمون على أن يأمرك وينهاك، ولذلك

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٦٤، ٣٤٦٣) من حديث جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فَحزَّ بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، قال الله تعالى:... » الحديث. وأخرج نحوه من حديث جندب أحمد فى مسنده (٤/ ٣١٢) ومسلم فى صحيحه (١١٣).

يجيء الحق دائمًا قبل آيات التكليف بقوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾.

فهو سبحانه لم يكلف مطلق الناس، وإنما كلف من آمن به، إذن، فهو سبحانه حين يكلف من آمن به لا يكون قد اشتط وجار عليه؛ لأنه آمن به بمحض اختياره.

فأصل التدين والإيمان بالله ألا يكرهك أحد عليه، بل ادخل إلى الإيمان بالله باختيارك، لكن إذا دخلت إلى الإيمان بالله فالتزم بالسماع من الله فى «افعل» و«لا تفعل».

فحين يقول الحق سبحانه:

﴿يأيها الذين آمنوا﴾ فهو يعطينا حيثيات التكليف، أى: علة الحكم، فعلة الحكم أنك آمنت بالله إلهًا حكيماً قادرًا، وما دمت قد آمنت بالله إلهًا حكيمًا قادراً فسلِّم زمام الأوامر والنواهى له سبحانه، فإن وقفتَ فى أمر بشىء أو نهى عن شىء فراجع إيمانك بالله.

إذن: فقول الحق سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾. [البقرة: ٢٥٦]

أى: أنك حر فى أن تدخل فى الإيمان بالله أو لا تدخل، لكن إذا ما دخلت فإياك أن تكسر حكمًا من أحكام الله الذى آمنت به، وإن كسرت حكمًا من أحكام الله تدخل معنا فى إشكال، ارتكاب السيئات أو الذنوب.

ومن هذه السيئات أو الذنوب أن يقتل الإنسان نفسه، ولا يقتل إنسان نفسه إلا إذا وجد نفسه فى ظرف لا يستطيع فى حدود أسبابه أن يخرج منه.

ومثل هذا الإنسان نقول له: أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن

خالق أعلى، لكـن المؤمن لا يعزل نفسـه عن خالقه، فـساعـة يأتيه ظرف فوق أسبابه ولا يقوى عليـه، فعليه أن يفكر: وهل أنا فى الكون وحدى؟ لا، إن لى ربًا، وما دام لى رب فأنا لا أقدر، وهو سبحانه يقدر.

وهنا يطرد الإنسان فكرة الانتحار؛ لأن المنتحـر هو إنسان تضيق أسبابه عن مواجهة ظروفه، فيقتل نفسه.

فائدة الإيمان هنا أنه ساعة يأتى ظرف عليك وتنتهى أسبابك تقول: إن الله لن يخذلنى وهو يرزقنى من حيث لا أحتسب، ويفتح لى أبوابًا ليست فى بالى.

ونضرب هنا مـثلاً كى نقـرب المعنى. فَهَبْ أن إنسانًا يسيـر فى الطريق ومعـه «جنيه واحد» فى جـيبه، ثم ضـاع الجنيه، وليس فى بيته إلا هو، لذلك يحزن جدًا على ذلك الجنيـه، لكن من يضيع منه «جنيه» وعنده فى البيت خمسة جنيهات، فالمصيبة تكون خفيفة.

كذلك مَنْ فقد أسبابه فعليه أن يخفف الأمر على نفسه فلا ييأس، فَلِم يقتل نفسه؟

واليـأس: هو قطع الأمل من حـدوث شىء، حـيث لا يملك الإنسـان الفـعل، ولو كـان يقـدر عليـه لما يئس، والمؤمن لا ييـأس أبدًا، لأن الله سبحانه هو القائل: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيـهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾.

[يوسف: ٨٧]

اليأس ـ إذن ـ هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك، ولا تملك الوسائل لتحقيقه.

والذى ييأس هو الذى ليس له إله يركن إليـه؛ لأن الله تعالى هو الركن

الرشيد الشديد، فالمؤمن إن فقد شيئًا يقول: « إن الله سيُعوِّضنى خيراً منه».

أما الذى لا إيمان له بإله فهو يقول: إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى.

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريده فلا تجده يائسًا قانطًا [1].

أما المؤمن فهو يعلم أن النعمة لها واهب، إن جاءت شكر الله عليها، وإن سلبت منه فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة.

ولذلك فواهب الحياة هو الذى يأخذها، ومن ينتحر لا يدخل الجنة؛ لأنه لم يتذكر أن له إلهًا.

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** (٢٩) ﴾. [النساء: ٢٩]

أى: ولا يقتل كل واحد منكم نفسه؛ لأنك لا تقتل نفسك .

إلا إذا ضاقت أسبابك عن مواجهة ما تعانيه، وهذا يدل على أنك عزلت نفسك عن ربك، ولو ظللت على الإيمان بأن لك خالقًا لانفرجت عنك الكروب.

إن الإيمان يعطيك صلابة استقبال الصعاب والابتلاءات التى يتعرض لها فى حياته.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ**

---

(١) القنوط: اليأس الشديد.

وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾. [البقرة: ١٥٥]

ونحن نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شرًا، ولكن الشر هو أن تسقط فى الابتلاء، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان.

والحق سبحانه قد ذكر لنا قمة الابتلاءات، وهى أن يفقد الإنسان حياته فى الدنيا بالاستشهاد فى سبيل الله، فقمة الابتلاء - فى حدود إدراكنا - هى فَقْد الحياة.

وأراد الله تعالى أن يعطى المؤمنين مناعة فيما دون فقد الحياة، أراد أن يعطيهم مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال، والأنفس والثمرات.

وكل هذه أشياء يحبها الإنسان.

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شىء ضار، فالنفس لها ملكات متعددة، وعندما يصيبها الخوف فهى تعانى من عدم الانسجام.

والخوف خَوَرٌ [1] لا ضرورة له؛ لأنك إذا كنت تريد أن تُؤمِّن نفسك من أمر يخيفك، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذى يخيفك.

أما إن استسلمت للانزعاج، فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل ملكاتك، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة، بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف، حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف.

أما إن زاد انزعاجك عن الحد، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك، ولا بجميع تفكيرك.

---

(١) الخور: الضعف الشديد.

إذن: فالذى يخاف من الخوف، نقول له: أنت مُعين لمصدر الخوف على نفسك، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف.

ولذلك لابد لك من أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف.

ودع الأمر المخوف إلى أن يقع، فلا تعشْ فى فزعه قبل أن يأتيك، فآفة الناس أنهم يعيشون فى المصائب قبل وقوعها، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب.

إن المصيبة قد تأتى - مثلاً بعد شهر - فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها؟

إنك لو تركتها إلى أن تقع، تكون قد قصرت مسافتها، ولك أن تعرف أن الحق سبحانه وتعالى ساعة تأتى المصيبة فهو برحمته يُنزل معها اللطف، فكأنك إن عشت فى المصيبة قبل أن تقع، فأنت تعيش فى المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها.

لكن لو ظللت صابراً محتسباً قادراً على مواجهة أى أمر صعب، فأنت لن تعيش فى المصيبة بدون اللطف.

أما الجوع فهو شهوة غالبة إلى الطعام، وهو ضرورى لاستبقاء الحياة، ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالإنسان أن ضمن له فى ذاته غذاء يدخره من وقت رخائه لينفعه وقت شدته، فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضرورى من الطعام الذى يقيم لك الحياة، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة، ولا تأكله التذاذاً وحين يقتات الإنسان ليضمن لنفسه وقود الحياة فأى طعام يكفيه.

ولذلك شرع الله الصوم لنصبر على أذى الجوع؛ لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام، فإن لم يكونوا مُدرَّبين على تحملُّ قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يُعَدَّ المؤمن إعدادًا كافيًا كاملاً، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورى.

والحق سبحانه وتعالى حين يعدنا هذا الإعداد، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات: صبر على الخوف، وصبر على الجوع، وصبر على نقص الأموال، وصبر على نقص الأنفس، وصبر على نقص الثمرات.

إذن: فالمهم أن ينجح المؤمن فى كل هذه الابتلاءات، حتى يواجه الحياة صلبًا، ويواجه الحياة قويًا، ويعلم أن الحياة معبر، ولا يشغله المعْبَر عن الغاية.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾.

[البقرة: ١٥٦]

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم، وهى مأخوذة من إصابة الهدف، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقًا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها.

وأىُّ أمر يصيب الإنسان، إما أن يكون له دخل فيه، وعند ذلك لا يصح أن يجزع لأنه هو الذى جاء بالأمر المؤلم لنفسه، وإما أن تكون مصيبة لا دخل له بها، وحدثت له من غيره مثلاً، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها: أعدلاً أم ظلمًا؟

إن كانت عدلاً فهى قد جبرت الذنب، وإن كانت ظلمًا فسوف يقتص الله له ممن ظلمه، وعلى هذا فالمؤمن فى كلتا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعًا أن يأتى له منها خير، فالمؤمن يعلم بإيمانه أن كل ما يصيبه من الله هو الخير، وأن هناك أحداثًا تتم للتأديب والتهذيب والتربية، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به، إما أدبًا وإما ثوابًا وإما ارتقاء فى الحياة، ولذلك فهو خير.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[التوبة: ٥١]

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى يتولى أمور المؤمنين، وهو ناصرهم، فالمولى الأعلى لا يسىء إلى من والاه، ثم يأتى الإيضاح كاملاً فى قوله تعالى: **﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾**، لأن الله الذى آمنت به هو إله قادر حكيم، فإذا جرت عليك أمور فابحثها، إن كانت من فعل نفسك، هنا عليك أن تلوم نفسك، أما إن كانت من مجريات الله عليك، فلابد أن تفهم أنها تحدث لحكمة.

وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شىء نكرهه، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقًا.

والحق سبحانه وتعالى حين يخطىء المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه، وفى هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يتركه، لذلك لا يقولن أحد: إن الله تخلى عنا، فهذا ضعف فى الإيمان، وبالتالى فإنه ضعف فى التوكل.

ولكن قل: إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك، فساعة تأتى المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك، وما دام مولاك يحاسبك على أى خطأ ويُصوِّبه لك، فثِقْ به سبحانه وتوكل عليه.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) ﴾. [الفرقان: ٥٨]

فالإنسان لو اتخذ وليًا من البشر فهذا البشر عُرْضة للموت، فتحس أيها الإنسان أنك وحيد فى هذا الكون، ولكنك عندما تتوكل على الله فهو حىٌّ لا يموت أبدًا، فإذا أردت فعلاً أن تتوكل، فتوكل على من هو موجود دائمًا، قوى دائمًا.

فالحق سبحانه يبعث الطمأنينة الإيمانية فى نفوس المؤمنين، فيوضح لهم: إن كنتم تريدون بالآباء والأبناء والعشيرة والأقربين والمال قوة، فاعلموا أن قوة المؤمن من ربه.

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾. [التوبة: ٢٤]

فإياك أن تنظر إلى ولى آخر غير الله؛ لأن ولاية البشر عُرْضة للتغير والتبدل، فالغنى فيها قد يصبح فقيرًا، والسليم قد يصبح مريضًا، والقوى قد يصير ضعيفًا، ولكن الولاية الدائمة إنما تكون من قادر قاهر لا يتغير.

إذا كان الله وليك فهو القادر دائمًا، والقاهر دائمًا، والغالب دائمًا، والموجود دائمًا، والناصر دائمًا.

ولكن إذا كانت الولاية من إنسان لإنسان، فالأغيار فى الدنيا تجعل الصديق ينقلب عدواً، والمعين يصبح ضعيفًا لا يملك شيئًا، والموجود يصبح لا وجود له بالموت.

إذن: فلابد أن تجعل ولايتك مع الله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الدائم الباقى.

ولهذا يُعلِّم المولى عز وجل عبده المؤمن أن يكون دائماً يقظًا، فَطِناً، لبيباً، فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾. [الفرقان: ٥٨]

أى: لا تتوكل على مَنْ قد تصبح غداً فتجده ميتًا، ولكن توكل على الحى الموجود دائمًا، العزيز الذى لا يُقهر ،القوى الذى لا يُغلب.

فمن فوائد الإيمان تحمُّل الشدائد ثقة فى أن لك رصيداً بإيمانك بالله عز وجل، فيصبح الانتحار قنوطًا من قدر الله عليك، وهو يأس من رحمة الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]

والاطمئنان يجىء من إشراقات وحنان صفات الجمال، فإن كان الإنسان يراعى حق الله فى كل عمل قدر الاستطاعة، فلابد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله، لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فإننا نجد القلوب مضطربة قلقة بغير ذكر الله، ولكن عندما يذكر الإنسان أن له ربًا يطمئن قلبه إلى أنه لا يواجه الأحداث وحده، ولا

يواجهها بقوته، ولكنه يواجه الحياة والأحداث بقوة ربه ومدده فيطمئن قلبه.

ولقد قال رسول الله ﷺ:

«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (١).

وقد قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدًا فيها أبدًا، ومن تحسى سمًا فقتل نفسه فسمُّه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالدًا فيها أبدًا» (٢).

فمن قتل نفسه بأية وسيلة كانت، فقد قتل نفسًا حرم الله قتلها إلا بالحق.

إذن فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾. [النساء: ٢٩]

أى: ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن ينتحر، هذه واحدة، ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن يلقى بها إلى التهلكة، أو لا يقتل واحد منكم نفسه بأن يقتل غيره فيقتل قصاصًا.

أو: لا تقتلوا أنفسكم يعنى: لا يقتل أحدكم منكم نفس غيره؛ لأنكم

---

(١) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢) والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٥٤) من حديث صهيب الرومى.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى في صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم فى صحيحه (١٠٩).

وحدة إيمانية وليس واحد بعينه هو المأمور، بل الكل مأمور، فلا يقتل واحد منكم نفس غيره.

يقول تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ .

[المائدة: ٣٢]

وهذه هى الوحدة الإيمانية، فمن يعتدى على نفس واحدة بريئة، فهو كمن يعتدى على كل الناس، والذى يسعف إنسانًا فى مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً.

فإن قتل إنسان إنسانًا آخر ووقف المجتمع الإيمانى موقف العاجز، فهذا إفساد فى الأرض، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفسًا واحدة، بل كأنه قتل الناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد فى الأرض.

الرياء محبط للعمل

قال رب العزة فى الحديث القدسى:

١٠ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أوَّلَ النّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القيامة عليه رَجُلٌ استُشْهِدَ فأُتى به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهِدْتُ. قال: كذَبتَ، ولكنكَ قاتلتَ لأنْ يُقَال جَرِيء فقد قيل» ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِى فى النار.**

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القُرآن فأُتىَ به فعرَّفه نعَمه فعرفها، قال: فما علمتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلمَ وعلَّمتُه وقرأتُ فيكَ القُرآن ، قال: كذبت، ولكنك تعلَمت العلمَ ليقال : عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل. ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقِى فى النار.

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلتَ ليُقالَ: هو جواد فقد قيل. ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه ثم أُلقِىَ فى النار»[١].

بعض البشر توجد عنده صفات الأريحية والإنسانية، ويأمر بالمعروف

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٢) والنسائى في سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وينهى عن المنكر، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات، ويقيم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين، سواء كانت صحية أو اقتصادية.

لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية، لا من زاوية منهج الله، فيكون كل ما فعله حابطاً، ولا يُعترَف له بشيء، لأنه لم يفعل ذلك فى إطار الإيمان بالله.

ولذلك فلا تظن أنَّ الذى يصنع الخير دون إيمان بالله له أجر عند الله ، فالله سبحانه يجازى مَن كان على الإيمان به، وأن يكون الله فى بال العبد ساعة يصنع الخير.

من صنع خيرا من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه ممن عمل له، وما دام قد صنع ذلك من أجل أن يُقال عنه ذلك فقد قيل.

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس، لكن الله يجازى فى الآخرة مَنْ كان الله فى باله ساعة أن عمل.

فمن فعل عملاً من أعمال الخير وليس فى باله الذى يعطى الثواب وهو الله ، بل كان فى باله الخلق حبط عمله.

يقول الحق سبحانه عن الكافرين:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

[آل عمران :٢٢]

ومعنى « حبطت» أى: لا ثمرة مرجوة من العمل، إن كل عمل يعمله العاقل لابد أن يكون لهدف يقصده.

فأىُّ عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون ،ليس لها هدف.

إن العاقل قبل أن يفعل أى عمل ينبغى أن يعرف الغاية منه، وما الذى يحققه من النفع؟ وهل هذا النفع الذى سوف يحققه هو خير النفع وأدومه، أو هو أقل من ذلك ؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله، وحينما يقول الحق سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

[آل عمران: ٢٢]

فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أنّ إنساناً قد يفعل عملاً هو فى ظاهره خير، فإياك أن تغتر أيها المؤمن بأنه عمل خيراً، لماذا ؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمن يجازى.

فالإنسان إن عمل عملاً قد تصلح به دنياه فهو عمل حسن، فلماذا يكون عمل هؤلاء الكافرين حابطاً فى الدنيا وفى الآخرة؟ إنه حابط بموازين الإيمان ويكون العمل حابطاً لأنه لم يصدر من مؤمن ، لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقة بنتيجة العمل، لا ثقة بالآمر الأعلى.

إن الإنسان المؤمن حين يقوم بالعمل يقوم به ثقة فى الآمر الأعلى.

وبعض من الناس في عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازى الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية.

يقول الواحد منهم: هل يعقل أحد أنَّ باستير الذى اكتشف الميكروبات، والعالم الآخر الذى اكتشف الأشعة وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار.

ولهؤلاء نقول : نعم. إن الحق بعدالته أراد ذلك ولنتقاض نحن وأنتم

إلى أعراف الناس، إن الذى يطلب أجراً على عـمل يطلبه ممن؟ إنه يطلب الأجر ممن عمل له.

فهل كان الله فى بال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال؟

إنَّ بالهم كان مشغولاً بالإنسانية وقد أعطـتهم الإنسانية التخليد، وغير ذلك من مكاسب الدنيا.

إذن: فإذا كان الجزاء من الله، فلنا أن نسأل.

هل كان الله فى بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم؟

لم يكن فى بالهم الله، والذى يطلب أجراً فهو يطلبه ممن عمل له، ولم يُضع الله ثمرة عملهم ، بـل دَرَّتْ عليهم أعمالهم الذكر والجـاه والرفعة، ولم يُضع الله أجر مَنْ أحسن عملاً.

يقول الحق سبحانه:

﴿مَن كَانَ يُرِيـدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيـدُ حَرْثَ الـدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾. [الشورى: ٢٠]

فالله سبـحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمـالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم فى الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم.

إنهم فى ظاهر الأمر يبـدو لهم أنهم عملوا أعمالاً حـسنة، ولكنها فى الواقع أعـمال باطلة وفـاسدة، وقـد يوجد مَنْ عـمل عملاً حـسناً نافـعاً للناس، ولكن ليس في باله أنه يفعل ذلك إرضاء لله ، بل للشـهرة لينتشر ذكره ويذيع صيته، ويثنى الناس عليه، أو للجاه والمركز والنفوذ.

ولذلك حين سُئل رسـول الله ﷺ : مَنْ الشهـيـد؟ قال : « من قـاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» (١).

لأن الرجل قد يقاتل حمـية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجـاع، فقتال الرجل دائماً بحسب نيـته ، فالقتال مرة يكون فى سـبيل الله، ومرة يكون فى سبيل النفس، ومرة يكون فى سبيل الشيطان.

فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتماء آخر، وكل هذه الانتماءات فى عرف الدين لا قيمـة لها إلا إذا نبعت من الانتماء إلى منهج الله، لتكون كلمة الله هى العليا.

والحق سبحانه يقول:

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) ﴾.

[التوبة: ٥٣]

قد يطرأ سؤال على خاطر المـؤمن : ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير؟ وألا يأتى إليهم أدنى خير؟ ونحن نعلم أنّ الحق سبحانه يجزى دائماً على أدنى خير.

فنقـول: شرط تقبُّل الله لأى عـمل إنما يأتى بعد الإيمـان بالله، أما أن تعمل وليس في بالك الله فخذ أجرك ممن كان فى بالك وأنت تعمل.

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيـعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾.

[النور: ٣٩]

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) وكذا مسلم (١٩٠٤).

فمن فعل شيئاً وليس فى باله الله، فسيفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذى لم يكن فى باله موجود، وأنه جل جلاله هو الذى سيحاسبه.

فصاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ويطمئن إلى جزائه، أما الذى لا يؤمن بالآخرة فإنه يأخذ من الله الحياة فيفنيها فيما لا ينفع ، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار.

وقد صوَّر الحق سبحانه موقفهم التصوير الرائع في هذه الآية.

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء فى الصحراء ، يتوهمه السائر العطشان في الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء ، فيظل السائر متجهاً إلى وهم الماء، إنه يصنع الأمل لنفسه ، فإذا جاءه لم يجده شيئاً ، ويفاجأ بوجود الله ، فيندم ويتلقى العذاب.

وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهباً لو أنفقه فى أى خير فى الدنيا ، وبعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه فى الآخرة، إن كان سيجد ملء الأرض ذهباً ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهباً، فهل يجد من يقبل ذلك منه؟

لا ، إنه فى الحقيقة لن يجد الذهب، لأنه فى الآخرة لم يعد يملك شيئاً.

فمن فعل وليس فى باله الله ، بل كان في باله المجد وتخليد الذكر، فقد أعطتهم الإنسانية ما يريدون ، فخلدت ذكراهم وأقامت لهم التماثيل، ومنحتهم الأوسمة ،ووضعت فيهم المؤلفات لتمدحهم.

هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس.

أنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيراً، ولكن إن عملت معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله.

ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإذا أطعمت فقيراً فلتطعمه لوجه الله، وعليك ألا تفعل المرءوة من أجل أن يقال عنك: إنك صاحب مروءة.

ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتى منهم هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التى توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها ، والله عليم بكل شىء ، يعلم اسم من أقام البناء.

وعليك إذا بنيت مسجداً أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة حتى لا تدخل فى دائرة « عملت ليقال وقد قيل».

وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع، لأنه إن فعل حبط عمله وكان من الخاسرين ، لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ولا يهز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدُّها إلا هذه المراءاة ، لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدى المسلم كل عمل جاعلاً الله فى باله، وهو الذى لا تخفى عليه خافية.

ولذلك تجد الرسول ﷺ ينقل لنا حال المرائى للناس فيقول: « إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال: الرياء».

يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟

وقال ﷺ : « إن المرائى يُنَادَى عليه يوم القيامة : يا فاجر يا غادر ، يا مرائى . ضَلَّ عملك وحبط أجرك، فخذ أجرك ممن كنت تعمل له».

فالمرائى إنما يخدع نفسه ، فهو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس، ويُزكِّى ليراه الناس، ويحج ليراه الناس ، هو يعمل ما أمر الله به، لكنه لا يعمل لله.

والحق سبحانه يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

[البقرة: ٢٦٤]

فالذى يتصدق ويُتبع صدقته بالمنِّ والأذى إنما يُبطل صدقته، وخسارته تكون خسارتين:

الخسارة الأولى: أنه أنقص ماله بالفعل ، لأن الله لن يعوض عليه، لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المن والأذى.

والخسارة الأخرى: هى الحرمان من الثواب، فالذى ينفق ليقول الناس عنه إنه ينفق، عليه أن يعرف أن الحق يوضح لنا : أنه يعطى الأجر على قاعدة أن الذى يدفع الأجر هو مَنْ عملتَ له العمل.

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطى الأجر لمن عمل له عملاً، والذى يعمل من أجل أن يقول الناس : أنه عمل فليأخذ أجره من القدرة

المحدودة للبشر، فالذى يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه: إنه فعل ، فإنه يأتى يوم القيامة ولا يجد أجرًا له.

وإياك أن تقول: أنا أنفقت ولم يوسع الله رزقى ، لأن الله قد يبتليك ويمتحنك ، فلا تفعل الصدقة من أجل توسيع الرزق، فعطاء الله ليس فى الدنيا فقط ، ولكن الله يريد ألا يعطيك فى الفانية ، وأبقى لك العطاء فى الباقية وهى الآخرة ، وهو خير وأبقى.

والحق سبحانه يقول عن هؤلاء الذين ينفقون مثلاً رئاء الناس:

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) ﴾. [النساء : ٣٨]

إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس.

ولذلك يقول العارفون بفضل الله: اختر من يُثَمِّن عطاءك ، فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يُثمِّن هذا الشىء بإمكاناته وقدراته ،سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثمِّنه سبحانه؟

لابد أن يكون الثمن غالياً.

إذن: فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمة ، ولنا الأسوة فى سيدنا عثمان رضى الله عنه- عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا، وقال لهم: جاءنى مَنْ يعطينى أكثر من ثمنكم . وفى النهاية قال لهم : أنا بعتها لله.

إذن: فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته.

فالذى يعطى رئاء الناس نقول له: أنت خائب ، لأنك ما ثمَّنت

نعمتك، بل ألقيتها تافهة الثمن، ماذا سيفعل لك الناس؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك، فلماذا ترائيهم؟

إذن: فهذه صفقة فاشلة خاسرة ، ولذلك قال الحق:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾.

[التوبة: ١١١]

وما دام سبحانه هو الذى اشترى فلابد أن الثمن كبير ، لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها ، فالذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ، لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله.

ولذلك شبه عمله فى آية أخرى بقوله:

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾. [البقرة: ٢٦٤]

والصفوان هو المروة، وجمعه مرو، وهى حجارة بيض براقة، والمروة ناعمة وليست خشنة، لكن بها بعض الثنايا يدخل فيها التراب، ولأن المروة ناعمة جداً ، فقليل من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب.

والذى ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان، ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد.

فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة، وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أغلى ، فلماذا تعطيها للأقل ثمناً ؟

إنك إن فعلت فقد خبْتَ وخسرت ، فأوضح لك الحق : مادمت تريد رئاء الناس إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشترى بأغلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء، فالعطاء يستقبله الله بحسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه.

ولذلك قال النبى ﷺ ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

« رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» (١).

إن العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا، ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال الإعطاء فقال:

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾. [البقرة: ٢٧١]

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة، فالحق يوضح: إياك أن تنفق وفيك رئاء، أما من يخرج الصدقة وفى قلبه رياء، فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْطٍ، لأنه سبحانه يؤكد: خذوا منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً، لكن المجتمع ينتفع.

إن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم من الذين لا يؤمنون بالله؛ لأنه سبحانه هو المعطى ، وهو يحب أن يضع المسلم عطاءه فى يده ، ولا

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٠) ومسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه .

يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لرأوا الجزاء الباقى.

فأنت إذا كنت تحب نعمتك فخذ النعمة وحاول أن تجعلها مثمرة ، أى كثيرة الثمار.

أما الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله. فيقرب الله لهم مثلاً ، فيقول سبحانه:

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾. [البقرة: ٢٦٥]

إن ابتغاء مرضاة الله في الإنفاق تعنى خروج الرياء من دائرة الإنفاق فيكون خالصاً لوجهه سبحانه ، وأما التثبيت من أنفسهم فهو لأنفسهم أيضاً ، فكأن النفس الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية ، فعندما تطلب النفس الإيمانية أى شيء فإن النفس الشهوانية تحاول أن تمنعها ، وتتغلب النفس الإيمانية على النفس الشهوانية وتنتصر لله.

والمراد بـ (**تثبيتاً من أنفسهم**) هو أن يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حُباً أعمق لا حباً أحمق.

إذن : فعملية الإنفاق يجب أن تكون أولاً إنفاقاً فى سبيل الله، وتكون بتثبيت النفس بأن وهب المؤمن أولاً دمه ، وثبَّت نفسه ثانياً بأن وهبه المال.

وهكذا يتأكد التثبيت ، فيكون كما تصوره الآية الكريمة:

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾. [البقرة: ٢٦٥]

والجنة كما عرفنا تُطلق فى اللغة على المكان الذى يوجد به زرع كثيف أخضر لدرجة أنه يستر مَنْ يدخله ، ومنها « جن» أى «ستر». ومن يدخل هذه الجنة يكون مستوراً.

إن الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل الذى يوضح الصنف الثانى من المنفقين في سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم الإيمانية ضد النفس الشهوانية ، فيكون الواحد منهم كمن دخل جنة كثيفة الزرع ، وهذه الجنة توجد بربوة عالية.

وعندما تكون الجنة بربوة عالية فمعنى ذلك أنها محاطة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنها، فماذا يفعل المطر بهذه الجنة التى توجد على ربوة؟

إن الحق يخبرنا أن مَنْ ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل هذه الجنة التى تُرْوَى بأسلوب ربانى ، فإن نزل عليها وابل من المطر أخذت منه حاجتها وانصرف باقى المطر عنها.

﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌ ﴾ . [البقرة: ٢٦٥]

والطل وهو المطر والرذاذ الخفيف يكفيها لتؤتى ضعفين من نتاجها ، وإذا كان الضِّعف هو ما يساوى الشىء مرتين، فالضعفان يساويان الشىء أربع مرات.

والحق سبحانه يقول عن القتال في سبيل الله :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾. [النساء : ٧٤]

فالقتال إنما جاء ليسيطر منهج الله سبحانه ، وحينما يقول تعالى ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأن يقاتل الرجل حمية ، أو ليعلم مكانه من الشجاعة، فقتال الرجل دائماً حسب نيته.

ولذلك تساءل بعض الناس : مَن الشهيد؟ فقيل : هو من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيداً.

إذن: فالقتال مرة يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس، ومرة يكون في سبيل الشيطان.

والحق سبحانه يؤكد على أن القتال يجب أن يكون فى سبيل الله ، لأنه سبحانه يريد أن يضع حداً لجبروت البشر، فلابد أن تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أن يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان، فلا قتال من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ،وإنما القتال لإعلاء كلمة الله، ونصرة دين الله، هذا هو غرض القتال فى الإسلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾. [البقرة: ١٩٠]

والحق ينهى عن الاعتداء، أى لا يقاتل مسلم من لم يقاتله ، ولا يعتدى ، ففى قتال النساء والصبيان والعجزة اعتداء ، وهو سبحانه لا يحب المعتدين.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

[التوبة: ١١١]

وما دام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألا تهمه نفسه، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهمته نفسه يبدأ القلق والبلبلة والاضطراب وتوهم الأشياء.

وما دام سبحانه هو الذى اشتراه فلابد أن الثمن كبير ، فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ومنزلة الشهداء.

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة ، فكل منا فى حياته يجب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ، ويأخذ شيئاً أكبر منه.

ولذلك يقول سبحانه في آية أخرى:

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾. [فاطر : ٢٩]

إذن : فالحق يُنمِّى فينا قيمة الصفقة الإيمانية ، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلا يظنن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية أو ليستذله، فالدين إنما جاء ليربب للمؤمن النفعية وينميها له.

وكلمة (اشترى) تدل على أن هناك صفقة، عملية بيع وشراء ، وإذا كان هذا مِلكًا لله، فالله هو المشترى والله هو البائع.

وما الثمن؟

يأتى التحديد من الحق سبحانه ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾. [التوبة: ١١١]

هذا هو الثمن الذى لا يفنى ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التى لا نهاية لها ، أما نعيمك فى حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت فى أسباب الله، وهكذا يكون الثمن غالياً.

والثمن هو الجنة ، وهو وعد بشىء يأتى من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه ، فالوعد الحق هو ممن يملك ويقدر، وحيّ لا يموت.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ . [التوبة : ١١١]

والمؤمن يستقبل هذا بأنه سوف يحدث حتماً ، وما دام الحق قد أعطى الوعد فلن يوجد من هو أوفى منه، فالعهد الحقيقى إنما يؤخذ من الله، فلا أحد أوفى من الله بالعهد. وما دام الوعد بالجنة فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ، ووعده حق.

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾ . [التوبة : ١١١]

فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع، وأن الأموال سوف تنفق، وهذا يُقبض النفس ، فهذا فيه الموت وخسارة للمال، وكان من الطبيعى أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف.

ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ ﴾ [التوبة : ١١١] تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبشر، ويحدث له تهلل وإشراق، مع أنه

هنا سيـأخذ نفسه، ولكن المؤمن يعـرف أنه سبحانه سـيأخذ نفسه ليـعطيه الحياة الخالدة.

إذن: قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف، بل علينا أن نستـقبلهـا بالاستـبشار، فـليظهر أثر ذلك على بشـرتكم إشراقـاً وسروراً وانبساطاً.

ولذلك فقضية الإيمان بالله واليـوم الآخر هى مطلوب الحق سبحانه من أن يكون العمل خـالصاً لله ابتغاء مرضـاته لا ابتغاء السمـعة والصيت بين الناس ، ولا رياء ونفاقاً.

فالرياء محبط للعمل وماحق لـلثواب، ودليل على ضعف إيمان صاحبه ، وحين يرجع إلى ربه لن يجد له شـيئاً من ثواب الآخرة ، لأنـه أخذ ما أراده فى الدنيا من المجد والصيت والذكر بين الناس، فليس له فى الآخرة من نصيب.

الحسنة والسيئة

١١ **قال رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى:**

« إذَا هَمَّ عَبْدِى بحسَنَة فاكْتُبوهَا لَهُ حَسَنَة ، فإنْ عَمِلها فاكْتبوهَا لَهُ بعشْر أمثَالِها.

وإذَا هَمَّ بسيئة فَلا تكتبُوها، فإنْ عَمِلها فاكتبُوها بمثلها ، فإنْ لم يعملْ بها فَاكتبُوهَا لَهُ حَسَنَةً» (١) .

هذا هو مطلق الرحمة والفضل، فالحق سبحانه يجزى الحسنة بعشر أمثالها، ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف؛ لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص فى نفاذه، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ . [الأنعام: ١٦٠]

ويقول فى آية أخرى:

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾. [البقرة: ٢٦١]

وقد وضع الحق هذا النظام؛ لأنه جلَّ وعلا يريد للحسنة أن تُفعل، وينتفع الغير بها، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٥٠١) وكذا مسلم (١٢٨) الإيمان ، والترمذى فى سننه (٣٠٧٣) وقال: حديث حسن صحيح، وهو من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

بنية مخلصة ، فنية معطى الحسنة هى التى يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد.

والحق سبحانه وتعالى يعطى مثلاً لذلك فى قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾. [البقرة: ٢٦١]

فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة، فماذا يعطى خالق الأرض؟

إن عطاءه غير محدود ولا ينفد.

فالحق سبحانه يلفتنا أن ننظر جيداً إلى بعض خلقه وهى الأرض، الأرض التى نضع فيها البذرة الواحدة- أى الحبة الواحدة- فإنها تعطى سبع سنابل، فى كل سنبلة مائة حبة.

فلو نظر الإنسان أول الأمر إلى أن ما يضعه فى الأرض حين يحرث ويزرع يقلل من مخازنه لما زرع ولما غرس، ولكنه عندما نظر لما تعطيه الأرض من سبعمائة ضعف أقبل على البذر، وأقبل على الحرث غير هيَّاب؛ لأنها ستعوضه أضعاف أضعاف ما أعطى.

إذن: فهو سبحانه قادر أن يضاعف لمن يشاء بغير حساب، فإرادة الخالق تعطى كما تريد.

فإذا كنا نحن- كبشر- عندما نوظف واحداً نقول: أنت تدخل السلم الوظيفى ، وتبدأ السلم الوظيفى من أول درجاته. ثم تترقى درجة بعد درجة ، ثم يأتى رئيس الدولة ليعينك فى درجة أعلى من ذلك بكثير ، فما بالنا بحساب الرب الأعلى؟

إنه يعطى بعملية حسابية فيها زيادة فضل.

إذن: لابد أن يطمئن المؤمن إلى أن حركة حياته لها ثواب وأجر عند الله تبارك وتعالى، فإذا صلى فله أجر، وإذا زكى فله أجر، وإذا تصدق فله أجر ، وإذا صام فله أجر، وإذا حج فله أجر.

كل ما يفعله من منهج الله له أجر، وليس أجراً بقدر العمل ، بل أضعاف العمل.

وهكذا نعرف أن كل حركة فى منهج الله ليس فقط لها أجر عند الله سبحانه وتعالى ، ولكنه أجر مضاعف أضعافاً مضاعفة، وهو أجر ليس بقدرات البشر ، ولكنه بقدرة الله سبحانه.

ولذلك فهو ليس مُضاعفاً فقط فى عدد المرات ، ولكنه مضاعف في القدرة أيضاً، فكأن كل إنسان غير مؤمن لا أجر له فى الآخرة، وإذا أعطى في الدنيا يُعطى عطاء المثل ، ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافاً مضاعفة، وهو عطاء ليس زائلاً كعطاء الدنيا، ولكنه باقٍ وخالد.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

[البقرة: ١١٠]

فالخير الذى تفعله لن تدخره عندك أو عند من قد ينكره ويقول: لا شيء لك عندى ، ولكن الله سيدخره لك، فانظر إلى الاطمئنان والعمل فى يد الله الأمينة، وفى مشيئته التى لا يغفل عنها شيء، وفى قدرته التى تضاعف أضعافاً مضاعفة ، وتجده فى الوقت الذى تكون فى أحوج اللحظات إليه، وهو وقت الحساب.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾. [البقرة: ١١٠]

أى: لا تعتقد أن هناك شيئاً يخفى على الله ، أو أن أحداً يستطيع أن يخدع الله، فالله سبحانه وتعالى بصير بكل شىء ، ليس بالظاهر منك فقط، ولكن بما تخفيه فى نفسك ولا تطلع عليه أحداً من خلق الله ، إنه سبحانه يعلم كل شىء.

ويقول سبحانه:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾. [يونس: ٢٦]

والمقصود بقوله سبحانه ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ﴾ أى: بالغوا فى أداء الحسنات ، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها ، فما هى الزيادة؟

نقول : هى عطاء زائد فى الحسنات، فالجزاء بالحسنات يبدأ بعشرة أمثال الحسنة، ويصل إلى سبعمائة ضعف، أما السيئة فبواحدة ، كما يقول الحديث القدسى الذى نحن بصدده.

وهذا ليس تحديداً لفضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

ولذلك يجب ألا نفرقّ بين عدل الله سبحانه فى أن الشىء يساوى الشىء ، وفضل الله تعالى فى أنه سبحانه يجزى على الشىء الحسن بأضعاف أضعاف ما نتصور.

والحق سبحانه يقول:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾. [يونس: ٥٨]

وقال قوم من العارفين بالله:

إن الزيادة المقصودة هى فى العشرة الأمثال والسبعمائة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك.

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء: فهناك العشرة الأمثال، والسبعمائة ضعف، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى.

وقد قال رسول الله ﷺ فى ذلك:

« إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعْطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»[1] .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾.

[البقرة:١٠٥]

أى أنه سبحانه ذو الفضل الهائل، فالفضل الحقيقى هو الذى من عند الله ؛ لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم ؛ لأنه غير محتاج إلى أحد من خلقه ؛ لأنه سبحانه كان قبل أن يوجد شىء ، وسيكون بعد ألا يوجد شىء.

وحين يوصف الفضل بأنه عظيم ، فمعنى ذلك أن هناك فضلاً أقل من

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨١) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٣٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه.

عظيم، كما أن هناك فضلاً يعلوه تميزاً ،ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر.

هذا يتفضل على هذا بطعام ، أو يتفضل عليه بملبس، أو يتفضل عليه بشراب ، أو يتفضل عليه بمسكن.

أى : أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل ، لكنها لا توصف بالعظمة؛ لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط؛ لأنه سيؤول إليه كل فضل ممن دونه.

إذن: كل فضل هو من الله ، ومآله مردود إلى الله عز وجل، وهذا هو الفضل العظيم.

وأيضاً نجد أن الذى يتفضل على واحد لابد أنه يبغى من وراء هذا الفضل شيئاً ، مثل تحقيق كمال الذات، أو ابتغاء الحمد والثناء ، أو راحة النفس.

ونرى أناساً يؤدون الفضل لغيرهم ليقللوا من آلامهم؛ لا لأنهم يطبقون منهج الله ؛ بل يرغبون فى مجرد راحة النفس ، مثل الكفار الذين يصنعون أشياء تفيد الناس ، فهم يفعلونها وليس فى بالهم الله، بل فى بالهم راحة النفس وانسجامها.

إذن: فالذى يتفضل إنما يريد شيئاً، إما كمال مال أو ثناء وإطراء، وراحة نفس من مناظر الإيلام التى يراها، وهذا دليل على أنه يعانى من نقص ما ويريد أن يكمله، فإذا كان الله عز وجل هو صاحب الفضل أالله نقص فى كمال؟ لا.

إذن: فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضلاً منه، دون رغبة فى

كمال أو ثناء ، وأيضًا فكل فضل من دون الله يتضمن المنّ ، لكن فضل الله تعالى ليس فيه منّ ، وليس فيه ذلة لأحد .

وقد يستنكف إنسان أن يأخذ شيئًا من إنسان آخر ، لكن من الذى يستنكف[1] على فضل الله ؟

فهم لن يفرحوا بعملهم مثل فرحهم بفضل الله وكرمه عليهم ، لأنه أعطاهم فى الآخرة نعمًا لم يكونوا يحلمون بها ، وهى تفوق عملهم بكثير .

ورسول الله ﷺ يقول :

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[2] .

فإذا تساءلت : كيف يتم هذا ؟ وكيف أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله ؟

نقول : نعم ؛ لأن عمل الدنيا كله لا يساوى نعمة من نعم الله على خلقه، فأنت تذكرت العمل ولم تتذكر الفضل ، وكل من يدخل الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى ، حتى الشهداء الذين أعطوْا حياتهم ، وهى كل ما يملكون فى هذه الدنيا ، يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

---

(١) الاستنكاف : الاستكبار والأنفة، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ (النساء)

(٢) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه . والتغمد هو إدخاله فى رحمة الله ، وغمره بها ، كما يدخل الفارس سيفه فى غمده فلا يظهر منه شيء .

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ (آل عمران)

فإذا كان هؤلاء الشهداء وهم فى أعلى مراتب الجنة قد دخلوا الجنة بفضل الله ، فما بالك بمن هم أقل منهم أجراً ، والله سبحانه وتعالى له فضل على عباده جميعًا.

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾

(البقرة)

والله سبحانه وتعالى يعلم عن عباده أن أحدًا منهم قد لا يبرأ من أن يكون له ذنب ، فلو حاسبنا بالمعايير المضبوطة تماماً فلسوف يتعب الإنسان منا .

ولذلك أحب أن أقول دائماً مع إخوانى هذا الدعاء: «اللهم بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر[1] لا بالحساب »

أى : عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبإحسانك لا بالميزان ؛ لأن الميزان يتعبنا .

إذن: المسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله شرطه العمل الصالح ، فأنت تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربنا أضعافه ، وبطبيعة الحال فعملك لن ينفع جلاله أو جماله ، أو كماله ، أو يزيده صفة ، أو يزيده مُلْكاً ، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعك ولنفع بنى جنسك .

والحق سبحانه يقول هنا فى الحديث القدسى :

---

(١) جبر الكسر : أصلحه فهو جابر. والجبار : من أسماء الله الحسنى، وهو إما مشتق من الجبر بمعنى القهر، فالله تعالى قهار على العصاة والمتمردين، وإما مشتق من الجبر ، بمعنى إصلاح الكسر، وإصلاح الأمور ، فالله تعالى جابر عثرات الكرام ومصلح أمور العباد .

« إذا هَمَّ عبدى بحسنة ...إذا هَمَّ بسيئة »

ما معنى الهَمِّ هنا ؟

إن الهم هو تحريك الخاطر نحو عملية ما ، وهذا الخاطر يصير فى مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن : فالذى حدث هو مجرد هم بفعل الحسنة أو بفعل السيئة .

فالهَمُّ هو حديث النفس ، فإذا ما خرج إلى النزوع فذلك هو القصد .

ونحن نعلم أن كل شعور فى الإنسان له ثلاث مراحل :

مرحلة أن يدرك ، ومرحلة أن يجد فى نفسه ، ومرحلة أن ينزع ، أى يحول الأمر إلى سلوك .

ونضرب المثل بالوردة ، وأنت تسير ترى وردة فى بستان ، وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك ، فإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان ، وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية .

فهذه ثلاث مراحل : إدراك ، فوجدان ، فنزوع .

متى يتدخل الشرع ؟

يتدخل الشرع فى عملية النزوع دائمًا .يقول لك :أنت نظرت إلى الوردة ولم نعترض على ذلك ، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئًا ، لكن ساعة جئت لتمد يدك لتأخذها قلنا لك : لا ، الوردة ليست لك .

إذن : فأنت حر فى أن تدرك ، وحر فى أن تجد فى نفسك ، إنما ساعة تنزع نقول لك : لا ، هى ليست لك .

إذن : فالتشريع يتدخل فى منطقة النزوع ، إلا فى أمر المرأة ، فالتشريع

يتدخل من أول الإدراك ؛لأن الذى خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً نظرنا له ، وستتولد عندنا مواجيد[1] بالنسبة للأشياء التى نراها ونشتهيها .

وساعة يوجد إدراك واشتهاء ، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع ؛لأنك ـ كرجل ـ مُركَّب تركيباً كيمائياً بحيث إذا أدركت جمالاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء ،فالاشتهاء لايهدأ إلا بنزوع ، فبيَّن لك الشرع : أنا رحمتك من أول الأمر ، وتدخلت من أول المسألة .

وكل شىء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة ، فقد تدخلت فيها من أول الإدراك ؛ لذلك أمر الحق سبحانه الرجل أن يغض البصر ، وكذلك أمر المرأة .

لماذا ؟ لأنك إن أدركت فستجد ، وإن وجدت فستحاول أن تنزع ، ونزوعك سيكون عربدة فى أعراض الناس ، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت ؛ لذلك حسم الحق سبحانه المسألة من أولها، وقال :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ[2] لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ (٣١) ﴾ (النور)

وحين يأمرك الحق سبحانه بغضِّ بصرك عن محارم جارك فهو يحمى محارمك أن ينظر إليها غيرك .

---

(١) المواجيد : المشاعر القلبية والوجدانية التى توجد فى القلب.

(٢) قال الإمام ابن تيمية فى تفسيره سورة النور (ص ١٠٢) طبعة دار الوعى ـ حلب : « الغض من البصر وحفظ الفرج يتضمن البعد عن نجاسة الذنوب، ويتضمن الأعمال الصالحة التى يزكو بها الإنسان وهو أزكى ، والزكاة تتضمن الطهارة، فإن فيها معنى ترك السيئات ، ومعنى فعل الحسنات ، ولهذا تفسر تارة بالطهارة ، وتارة بالزيادة والنماء ، ومعناها يتضمن الأمرين » .

فمن رحمة ربنا بخلقه أنه منع الإدراك من أوله فى هذه المسألة حرصًا على سلامتنا وراحتنا ، وسلامة المجتمع وطهارته ، ومن هنا أمرنا بغضِّ البصر ، وأمر المؤمنات بالحشمة .

والغضُّ : هو خفض البصر بعيدًا عن محارم الله ، كما أمرنا بحفظ الفروج ، وهذا أطهر للمؤمن وأفضل ؛ لأن الإنسان لا يملك أن يفصل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، وإن كان هذا ممكنًا فى الأمور الأخرى فإنه غير ممكن فى هذه المسألة .

فالحق سبحانه اختصر لنا الطريق ، وأمرنا بغضِّ البصر من البداية حتى لا نقع فى هذه المشكلة ، ونمنع حدوثها ، وحتى نحمى أعراض الناس ونرحم نفوس الشباب من أن تكتم وتكبت وتمرض وتتألم .

بعض المتحللين يدَّعُون أن النظرة لا تحدث شيئًا ، وأن كل واحد فى حاله .

ونحن نقول لهم : هذا كلام الله الذى خلقنا ، ويعلم دخائل نفوسنا وطبيعتنا البشرية ، وهو الذى أمرنا بذلك ، بأن نغض أبصارنا حتى لا نجد ؛ لأننا إن وجدنا فسننزع ، فإن أطعنا النزوع أفسدنا الأعراض ، وإن عففنا وكتمنا أفسدنا نفوسنا كبتًا وحسرة وألمًا وحقدًا على من يملكها .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً[1] وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾

[الإسراء]

---

(١) الفاحشة : الفعْلة القبيحة . قال تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ... (١٣٥) ﴾ (آل عمران) ، وجمع الفاحشة فواحش . قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش .. (١٥١) ﴾ (الأنعام) ، أى الأمور القبيحة المنكرة .

لم يقل : لا تزنوا . ولكن أمرنا بعدم الاقتراب منه ، والاقتراب يكون بالنظر وبالمخالطة والمعاشرة والحديث بحجة أن هذا ابن خالتها ، وهذا ابن عمتها ، وهذا ابن عمها ، وهذا تربى معها ، وهذا زميلها .

وهذا كله فساد فى فساد ؛ لأنه طالما يحل له أن يتزوجها فلا عذر لاختلاطه بها ، وعليه أن يبتعد ما دام ليس مَحْرَمًا لها ، وكفى المجتمعات مشاكل ومتاعب.

ومعنى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ .. (٣٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تأتوا إلى دوافعه من رؤية واختلاط وغيره .

فالزنا يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط ، والعلاقة الأَوْلَى التى أرادها الله حينما أوجد حواء لآدم هى أن تكون المرأة سكنًا ، وليست أداة استمتاع فقط .

والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه فى النفس البشرية ، لأن آثار هذا الاستمتاع تبعتها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طفولتهم ويحتاجون لرعاية ، ولو لم يربطها بهذا الاستمتاع لزهد كثير من الناس فى الأولاد.

والحق سبحانه يخبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ويكتبون السيئات فيقول تعالى:

***

﴿ مَا يَلْفِظُ(١) مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ(٢) عَتِيدٌ (١٨) ﴾ (ق)

---

(١) لفظ الكلمة : قالها . ولفظ النواة : رماها . ومعنى لفظ القول أن كل كلمة يتكلمها الإنسان تُسجَّل عليه بواسطة ملك عتيد .

(٢) عتيد : حاضر مهيأ مستعد لإثبات هذا القول فى كتاب الحسنات والسيئات .

وحين ننظر إلى البشر نجدهم يتفاوتون ، ويرتفع بعض منهم على بعض فى صفات وقدرات ، وكلما تقدم الزمن عرف الإنسان سراً من أسرار الله يترقى به.

وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً ، ثم تقدم العلم حتى صغر حجم المسجل ، إذن : كلما تقدمت الصنعة صغرت الآلة ، لدرجة أنهم صنعوا مسجلاً فى حجم الساعة ، ثم صنعوا آخر فى حجم « فص الخاتم » ، وصنعوا مسجلاً يشبه الحبوب ، وينثرونها فى أى مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس.

إذن : كلما قويتْ قدرة الصانع دقَّتْ الصنعة ، فإذا نسبتها لله ، فأين دقة الذى صنعته أنت بجانب صنعة الله؟

فإذا كان واحد من البشر قد استطاع أن يأتى بمسجلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة ، وحكمته فى الصنعة محدودة.

فإذا قال ربك : إن هناك ملائكة لن تراهم ، وسيحصون عليك أعمالك ، وهم غَيْبٌ فقُلْ : على العين والرأس.

وسبحانه القائل:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا[1] كَاتِبِينَ ⑪ ﴾

(الانفطار)

---

(١) كرام : جمع كريم ، ووصف الملائكة بأنهم كرام، وذلك فى قوله تعالى : ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ⑮ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ⑯﴾ (عبس) ، وفى وصف عباد الرحمن قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ⑫ ﴾ (الفرقان) أى : شرفاء يترفعون عن اللغو .

والحافظون والحفظة هم الملائكة الذين يحفظون ويُحْصون أعمالكم ويسجلونها ، وهم الكرام الكاتبون ، وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هى بالأمر من الله.

***

خمس صلوات

١٢ عن عَبادةَ بن الصَّامتِ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «أتانِى جبريلُ عليه السلامُ مِنْ عنْدِ الله تباركَ وتعالى فقال : يَا مُحمَّدُ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ لك : إنِّى قَدْ فرضْتُ على أُمتك خَمْسَ صلَوَاتٍ ، مَنْ وَفَّاهُنَّ على وُضوئهِنَّ ومواقِيتهِنَّ وسُجُودِهِنَّ، فإنَّ له عندك بهِنَّ عَهْداً أنْ أُدخِلَه بهنَّ الجنةَ، ومَنْ لقيني قَدْ أنقصَ من ذلكَ شيئاً فليسَ له عندك عَهْد ، إنْ شِئْتُ عذَّبْتُه، وإنْ شِئتُ رَحِمتُه»(١) .

الصلاة هى إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى ، فهى رزق عبودى يحررك من كل خوف ، وفضلها لا حدود له ، لأن فارضها هو الخالق المربى ، فكيف يبخل الإنسان على نفسه أن يكون موصولاً بربه.

فالصلاة هى استحضار العبد وقفته بين يدى ربه ، وحينما يقف العبد بين يدى الله لا بد أن يزول كل ما فى نفسه من كبرياء ، ويدخل بدلاً منه الخشوع والخضوع والذلة لله ، فالمتكبر غافل عن رؤية ربه الذى يقف أمامه.

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (حديث ٥٧٣) وفيه زمعة بن صالح عن الزهرى . قال النسائى: «ليس بالقوى ، كثير الغلط عن الزهرى» وقد أخرج ابن ماجه فى سننه (١٤٠١) وأحمد فى مسنده (٥/٣١٧, ٣٢٢) وأبو داود السجستانى فى سننه (٤٢٥) من حديث عبادة بن الصامت أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : «خمس صلوات افترضهن الله تعالى : من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن وأتم ركوعهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له ، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد ، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه»

والخشـوع يجعل الإنسان يستـحضر عظمـة الحق سبحانه وتعـالى ، ويعرف ضآلة قـيمتـه أمام الحق سبـحانه وتعالى ومـدى عجزه أمـام خالق هذا الكون ، ويعلم أن كل مـا عنده يمكن أن يذهب به الله تعـالى فى لحظة ، ذلك أننا نعـيش فى عالم الأغيار.

ولذلك فلنخضع للذى لا يتغير ، لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من الله وليس من ذاته.

والذين يغـتـرون بوجود الأسـبـاب نقول لهـم: اعبـدوا واخـشعـوا لواهب الأسباب وخالقها، لأن الأسباب لا تعمل بذاتها.

ولذلك لابد أن نفـهم أن الإنسان الذى يستعلى بالأسـباب سيـأتى وقت لا تعطيـه الأسباب ، فـالإنسان إذا بلغ فى عـينه وأعين الناس مرتبـة الكمال اغـتـر بنفسه ، نقول له : لا تغتـر بكمالات نفسك ، فإن كانت موجودة الآن فسـتتغير غداً ، فالخشوع لا يكون إلا لله.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ[1] (٤٥) ﴾ (البقرة)

من هم الخاشعون؟

الخاشع هو الـطائع لله ، الممتنع عن المحـرمات ، الصابر عـلى الأقدار ، الذى يعلم يقيناً داخل نفسـه أن الأمر لله وحده ، وليس لأى قوة أخرى ، فـيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له.

---

(١) الخشـوع : السكون والخضوع والهـدوء والاستكانة . قـال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ.. (١٠٨) ﴾ (طـه).أى : خفتت وهـدأت كناية عن شـدة الـرهبة والخـوف يـوم القيامة ، وقال تعالى : ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ .. (٣٥) ﴾ (الأحـزاب)، أى : الخاضـعين والمستكـينين لله حبًـا وإيمانًا من الرجال والنساء.

ولذلك يأمر الله المؤمنين أن يثبتوا ويتمسكوا بالإيمان ، وأن يقبلوا على التكليف.

والتكاليف التى جاء بها الإسلام منها تكليفات لا تتطلب إلا وقتاً من الزمن وقليلاً من الفعل كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

إن شهادة لا إله إلا الله تقال مرة فى العمر ، والزكاة والصوم مرة كل عام ، والحج للمستطيع مرة فى العمر ، ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطى المؤمن شحنة اليقين والإيمان ، ويأخذه من دنياه بالله أكبر خمس مرات فى اليوم.

وهذه هى العبادة التى لا تسقط أبداً ، سواء كان الإنسان سليماً أو مريضاً، فالمؤمن يستطيع أن يصلى واقفاً ، وأن يصلى جالساً ، وأن يصلى راقداً [(١)].

لذلك كانت هذه أول عبادة تذكر فى قوله تعالى :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. (١١٠) ﴾ (البقرة)

أى : والتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة ، وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله «الله أكبر» فهذه دعوة للإقبال على الله ، إقبال فى ساعة معلومة ، لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى ، وتكونوا فى حضرته ليعطيكم الله المدد.

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى [(٢)] .

(١) عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : كانت بى بواسير ، فسألت النبى ﷺ عن الصلاة فقال : «صَلِّ قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب» أخرجه البخارى فى صحيحه (١١١٧)، وأحمد فى مسنده (٤/ ٤٢٦) ، وابن ماجه فى سننه (١٢٢٣) .

(٢) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

ومعنى « حزبه أمر » أى : ضاقت به أسبابه ، فلم يجد مخرجاً ولا طريقاً إلا أن يلجأ إلى الله ، إذا حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصلى ركعتين غير الفريضة ، ثم يدعو ما يشاء فيفرج الله كربه.

فإقامة الصلاة هى التكليف المقرر لإعلان الولاء الإيمانى لله كل يوم خمس مرات ، نترك كل ما فى الدنيا ونتجه إلى الله بالصلاة ، إنها عماد الدين وأساسه.

طلبها الله فى اليوم خمس مرات ، وحتَّم الجماعة فيها فى يوم الجمعة فى الأسبوع ، لماذا؟ حتى يرانا كل العبيد لله عبيداً لله ، فلا يعبد واحد ربنا سراً ، وبعد ذلك لا يرى أحد منا أحداً ، فكلنا نسجد لله ، ولا بد من إعلان الولاء لله ، فيوم تُترك الصلاة ينعدم إعلان الولاء له سبحانه.

ومن العجيب أن الصلاة فرضها الله عليك بأن تذهب له خمس مرات فى اليوم ، هذا بالأمر والتكليف ، وإن لم تذهب تأثم ، إنه ما أغلق الباب ، اذهب له فى أى وقت تجده فى استقبالك ، فى أى مكان تقف وتقول : الله أكبر تكون فى حضرة ربنا.

فَمَنْ له السيادة فى الدنيا حين تطلب لقاءه تقدم طلباً حتى تلقاه ، ويحدد لك الميعاد ، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله: ستتكلم فى ماذا؟ وقد يقف المسئول أو السيد فى الدنيا ، ويُنهى المحادثة.

لكن ربنا سبحانه ليس كذلك ، أنت تذهب له فى أى وقت ، وفى أى زمن ، وتطيل كما تحب ، ولن ينهى المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت.

ولذلك يقولون:

حَسبُ نفسى عِزاً بأنِّى عَبْدٌ　　　يَحْتَفى[1] بى بِلاَ مواعيدَ ربٌّ

---

(١) حفى به حفاوة فهو حَفىّ ، أى : بالغ فى إكرامه وإلطافه والعناية بأمره . (مختار الصحاح) .

هُو فى قُدْسِــه الأعـزِّ ولكـــنْ　　　أنَا ألْقَـــى متــى وأين أحِبُّ

صحيح هو يأمرنى أن ألقاه خمس مرات فى اليوم ، لكن الباب مفتوح للقائه فى أى وقت ، فـهبْ أن صنعة تُعـرض على صـانعهـا خمس مـرات كل يوم ، أيوجد فيها عطب؟

لا . وأنت تُعْرَض على خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات.

ورسول الله ﷺ يُوصِى أمته بـأن يقيموا الصلوات الخمس فى مواقـيتها ، ولذلك يقول النبى ﷺ عندمـا سأله عبد الله بن مسـعود رضى الله عنه قائلاً : أي الأعمال أفضل ؟ قال : «الصلاة على وقتها »(١) .

إنك لا تضـمن من عمرك أن تـعيش إلى آخر الوقـت ، فعندما يُـؤذَّن لصلاة الظهر ولم تُصلِّه ، قد تقول : إن وقته ممتد ، ولكن هل تضمن أنك ستعيش إلى أن ينتهى وقت الظهر ؟

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

(النساء)

كـأن المؤمن مُطَالب بألا يُسوِّف ويـؤخِّر الصـلاة عن وقتـها ، وأن يذكـر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه ، وذلك لتكون الصلاة دائماً فى بؤرة شعور الإنسان.

إن المؤمن مطالب بأن يصلى الصـلاة على وقتهـا ، وصحـيح أن الإنسان إذا عاش حتى يصـلى الظهر قبيل العصـر فإنها تسقط عنه ، ولكـن ماذا يحدث لو مات العبد وقد فات عليه وقت يسعها ؟

---

(١) أخرجه أحـمد فى مسنده (١/٤١٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤) ومسلـم فى صحيحه (٨٥) كـتاب الإيمان من حديث ابن مسعود.

إذن : فـقد أثم العـبد ، ومَنْ يضـمن حيـاته حـتى يؤدى الصلاة مُـؤجَّلة عن موعد أدائها؟

وقد يقـول قائل : أحياناً أسـمع أذان الصلاة وأكون فى عـمل لا أستطيع أن أتركه ، فقد أكون فى إجراء جراحة ، أو راكباً طائرة.

ونقول : أسألك بالله إذا كنت فى هذا العمل الذى تتخيل أنك غير قادر على تَرْكه وأردت أن تقضى حاجتك ، فماذا تصنع؟

إنك تذهب لقضاء حاجتك ، فلماذا استقطعت جزءاً من وقتك من أجل أن تقضى حـاجتك ، وقـد تجد قومـاً كافـرين يسهلون لك سـؤالك عن دورة المياه لتقضى حاجتك.

وساعة يراك هؤلاء وأنت تصلى فأنت ترى على وجوههم سـمة الاستبشار، لأن فيـهم العبودية الفطرية لله ، وتجـد منهم من يسهل ذلك ويحضـر لك ملاءة لتصلى فوقها ، ويقف فى ارتعاش سـببه العبودية الفطرية لله ، فلا تقل أبداً : إن الوقت لا يتـسع للصلاة ؛ لأن الله لا يكلـف أبدًا عبـده شيـئًا ليس فى سـعتـه ، والحق سبحانه كلَّف العبد بالصلاة ومعها الوقت الذى يسعها.

ولله المثل الأعلى ، فنحن نرى رئيس العـمال فى مـوقع ما يوزع العـمل على عماله بما يسع وقت كل منهم ، فما بالنا بالرب الخالق؟

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ[١] .. (٣) ﴾ (الطلاق)

(١) احتسب الأمر : ظنَّه وقدَّره .

ولذلك نجد الصلاة وهى التى يؤديها المسلم خمس مرات فى اليوم على الأقل، هذه الصلاة فى ظاهرها أنها تأخذ بعضاً من الوقت كل يوم ، ولكنها تعطى راحة نفسية ، كما أنها تعطى اقتناعاً يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأدّاها بحقها.

وكان ﷺ يقول : « **يابلال أرحنا بالصلاة**»(١) .

كما قال ﷺ: « **وجُعِلَتْ قُرَّة عينى في الصلاة**»(٢) .

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة ، ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ.

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها ، لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحى ، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل الله لجبريل: « قل للنبى التكليف بالصلاة » بل استدعى الله النبى ﷺ إليه ، وكلّفه بالصلاة.

فحين يريد الإنسان أن يقدم أمراً لمرءوسيه – ولله المثل الأعلى – فالموضوع قد يأخذ دوره فى الأوراق اليومية التى تنزل منه إليهم.

أما إذا كان الموضوع مهماً فهو يتصل بالقائد التنفيذى للمرءوسين ، ويوضح مدى أهمية الموضوع.

أما إذا كان الموضوع غاية فى الأهمية ، فالرئيس يستدعى القائد التنفيذى للمرءوسين ، ويبلغه أهمية الموضوع.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من أسلم ، قاله أحمد واللفظ له .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٢٨) والنسائى فى سننه (٧/ ٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/ ١٦٠) وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

إذن : فكيفية إنزال التكليف تكون على قدر أهمية الموضوعات ، فما بالنا ـ إذن ـ بركن استدعى الله فيه محمداً إلى السماء لتكليفه بها؟

وقد رأينا أن بعض التكليفات تجيء إلى رسول الله بالإلهام أن يفعله ، وبعضها جاء بالوحي من جبريل أن يفعله.

أما الصلاة فقد فرضها الله عندما استدعى محمداً إلى السماء إلى الرفيق الأعلى[1] ، وفرض الله عليه الصلاة بالمباشرة .

وعلى أمة محمد ﷺ أن تؤدي هذا الفرض خمس مرات في اليوم ، ولا تسقط أبداً ، ولذلك جعلها الحق فارقة بين المسلم والكافر.

إن المسلم ساعة أذان الصلاة يقوم إلى الصلاة ، وهي استدعاء من الخالق لمن خلقه ليحضر في حضرته كل يوم خمس مرات ، وأنت حر بعد ذلك ألا تبرح لقاء ربك ، ولا يمل الله حتى يملَّ العبد.

والحق سبحانه يقول:

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ[2] (٢٣٨) ﴾ (البقرة)

معنى حافظوا ـ عندنا ـ يقتضي أن نفهم أن عندنا «حفظاً» يقابل النسيان،

(١) كان هذا عندما أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، قال ﷺ : « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة . قال: فرجعت بذلك حتى أمُر بموسى فقال موسى عليه السلام : ماذا فرض ربك على أمتك ؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة . قال لي موسى عليه السلام : فراجع ربك » وأخذ موسى يراجع رسول الله ﷺ حتى كانت خمسًا في الفريضة ، وهي خمسون في الأجر . حديث الإسراء أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٣) كتاب الإيمان من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) قنت في صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا ، وأطال الدعاء . وقوله تعالى : ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦)﴾ (الروم) ، أي : خاضعون معترفون بألوهيته مطيعون .

و«حفظًا» يقابله التضييع ، والاثنان يلتقيان ، فالذى حفظ شيئاً ونسيه فإنه قد ضيَّعه ، والذى حفظ مالاً ثم بدده ، يكون قد ضيَّعه أيضاً.

إذن: كلها معان تلتقى فى فقد الشيء ، فالحفظ معناه أن تضمن بقاء شيء كان عندك ، فإذا ما حفظت آية فى القرآن فلا بد أن تحفظها فى نفسك ، ولو أنعم الله عليك بمال فلا بد أن تحافظ عليه.

فقول الحق سبحانه:

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ... (٢٣٨) ﴾ (البقرة)

معناه : ألا تضيعوها. ويحتمل أيضاً معنى آخر ، هو أنكم قد ذقتم حلاوة الصلاة فى القرب من معية ربكم ، وذلك أجدر وأَوْلَى أن تتمسكوا بها أكثر ، وذلك القول يسرى على الصلوات الخمس التى نعرفها.

ويريد الحق سبحانه أن نقوم لكل صلاة ونحن قانتون ، وأصل القنوت فى اللغة هو المداومة على الشئ ، وقد حضَّ وحثَّ القرآن الكريم على ديمومة طاعة الله ، ولزوم الخشوع والخضوع.

والسجود هو علامة ودليل الخشوع والخضوع للحق سبحانه ، وهو كما يقول الحق سبحانه عن أصحاب محمد ﷺ :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ[1] فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ... (٢٩) ﴾. (الفتح)

(١) السُّومة (بالضم) : العلامة . والسيمة والسيما والسيماء والسيمياء (بكسر السين فيهن) : العلامة . وقوله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم .. (٢٩) ﴾ (الفتح) أى : علامة إيمانهم نور فى وجوههم .

وهؤلاء هم المتـقـون الذين قـال عنـهم عـمـر بن الخطـاب رضى الله عنه : «الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من الله ».

فأنت ساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يُقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله.

هذا السـرور يلفتك إلى أن تقلبه ؛ لأن رؤياه تُـذكِّرك بالخـشوع والخـضوع والسكينة ورقة السَّمْت وانبساط الأسارير .

***

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

١٣ **يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :**

« مُروا بالمعْروفِ وانْهَوْا عَن المنكرِ ، من قَبْل أنْ تَدْعُونِى فَلا أُجِيبكُمْ، وتَسْألونِى فَلاَ أُعطِيكم ، وتَسْتَنْصِرُونِى فَلاَ أنْصرْكُم»[١] .

قال عز وجل فى قرآنه الكريم :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾ (آل عمران)

إن الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أى أن هذه الآية تطالب كل أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمنْ يعرف حكماً من الأحكام عليه أن يأمر به.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ[٢] (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ (العصر)

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١٥٩) وابن حبان (١٨٤١ ـ موارد الظمآن) من حديث عائشة زوج النبى قالت : دخل علىَّ رسول الله فعرفت فى وجهه أن قد حفزه شىء فتوضأ ثم خرج فلم يكلم أحداً فدنوت من الحجرات فسمعته يقول : « يأيها الناس إن الله عز وجل يقول : مروا بالمعروف » الحديث.

(٢) العصر : الدهر أو أى زمن . أو : هو وقت العصر المعروف .

فالسورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، وبعد ذلك قال الحق (وتواصوا) ولم يقل « ووصوا».

ما معنى « تواصوا » ؟

معناه : أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحدهما أمام معصية فيصنعها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية.

لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضاً ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره ، فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية.

يجب أن نفهم أن كلنا موصٍ حينما نجد من يضعف أمام معصية ، وكلنا مُوصَىً حين يكون ضعيفاً أمام المعصية ، فالتواصى يقتضى التفاعل بين جانبين، فمرة تكون مُوصياً ، ومرة تكون مَوصىً ، وكذلك التواصى بالصبر.

فالتوصية أمر متبادل بين الجميع ، فساعة يوجد إنسان فى لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه.

وهكذا ترى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا ، وآخرون مهمتهم تلقِّى التوصية ، إنما الأمر متبادل بينهم ، وهذا هو التكافل الإيمانى ، فالإنسان قد يضعف فى مسألة من المسائل فيأتى أخ مؤمن يقول له: ابتعد عن هذا الضعف.

إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار فى النفس البشرية ، لأن لحظات الأغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال ، فإذا ما رأينا إنساناً قد ضعف أمام التزام ما فعلينا أن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر ، وأنت أيضاً حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية مَنْ يوصيك.

وهذا يتناوب الناس جميعاً ، فأنت فى فترة ضعفى رقيب علىَّ فتوصينى، وأنا فى فترة ضعفك رقيب عليك ، فأوصيك.

وهذا هو معنى قوله تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (٧١) ﴾ (التوبة)

فالمؤمن عقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير ، فإن وُجِد فى مؤمن شر ، فولىُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير ، ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله فى كل شىء ، بل هناك خصلة ضعف فى كل نفس بشرية.

فإن وُجِد فى المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيِّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد فى نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً ينبه غيره ويُبصِّره.

وهكذا نجد أنه فى المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر فى نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل إيمان الجميع ، ومن يقصر فى شىء يجد القريب منه ، وهو يسد الثغرة الطارئة فى سلوكه.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (٧١) ﴾ (التوبة)

لم يبين الحق سبحانه لنا مَنْ المولَى ومَنْ الموالى ، فكل مؤمن هو ولى وهو مُوال ، لأن الولاية مأخوذة من «يليه» أى صار قريباً ، وضدها عاداه ، أى بَعُدَ عنه وتركه.

إذن : فالموالاة ضدها العداوة ، وفائدة القرب أن يكون الولى نصير أخيه المؤمن فى الأمر الذى هو ضعيف فيه.

فإذا كنت ضعيفاً فى أمر ما فأخى المؤمن ينصرنى فيه ، وما دام أخى المؤمن ينصرنى فى أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً فى شىء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ، ويصبح كل منا ولياً ومُوَالى.

والولاية تكون أيضاً فى الحق ، فقد أميل إلى الباطل فى نقطة فيقول لى أخى المؤمن : اعدل. وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له : اعدل.

وهكذا يتكامل الإيمان.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قد قال: ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة)

ولم يُعيِّن البعض، فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً.

لذلك قال الحق سبحانه عن أمة محمد ﷺ:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾. (آل عمران)

أى : أنكم يا أمة محمد أفضل أمة أُخْرِجَتْ للناس لا حسباً ولا نسباً ، ولكن اتباعاً لمنهج «افعل» و«لا تفعل» ، تأمرون بالطاعات ، وتنهوْن عن كل ما نهى عنه الدين، وبذلك تكونون قد طبقتم المنهج الدال على صدق إيمانكم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً.

إذن : فالأمة التى تتبع منهج الإسلام ، وهو منهج الاعتدال ، هى الأمة المهتدية التى تسير إلى العمل الصالح الصحيح وتعمل به وتُطبِّقه ، لأنه المنهج الذى ينسخ ما قبله ويصححه.

والله سبحانه وضع فـى أمة محمد ﷺ مناعة من الحق والخير ضد الباطل والشر، فـإذا فسدت المناعـة فى فرد يُعدِّله غـيره ممن ينهَـوْنَ عن المنكر ويأمرون بالمعروف.

ولذلك يصـف ربنا فى سـورة العـصـر كل الـناس بأنهم فى خُـسْـر ، أى خاسرون إلا الذين آمنوا، لكن هل آمنوا وسكتوا ؟

لا ، وإنما قال سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ (العصر)

فالمناعـة ليست فى الذات ؛ لأن الذات غفلت ، ولكن المناعة فـى المجتمع إذا أحد اعوجَّ أو انحرف يعدله.

لكن إذا فـسـدت المـناعـة فى الذات ، وأصـبـحت النفس أمَّـارة بالسـوء ، وفسدت المناعة فى المجتـمع فلم يَعُدْ هناك منْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، كما حدث فى بنى إسرائيل.

قال تعالى :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ[1] عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٧٩ ﴾ (المائدة)

وهذا يجعلنا فى حـالة انتباه وفـراسة إيمانية ويقظة ، وأن يـلتفت كل منا إلى نفسه ويرقبها ويراقبها ، وإلى أى اتجاه تسـير ، فلا يترك الإنسان نفسه تتجه إلى أى مكان موبوء أو فعل غير مستقيم.

(١) تناهوا عن المنكر : نهى بعضهم بعضًا . وقال تعالى : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ..۝٧٩ ﴾ (المائدة) ، أى : كان بنو إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر فعلوه فاستحقوا اللعنة .

وكذلك ينتبه الإنسان إلى أصدقائه وأخلائه حتى نتناهى عن أى منكر، فلا نقع أبداً فى دائرة هذا الحكم ، فكأننا جميعاً علينا أن نحيا فى يقظة إيمانية ، وأن نقول : لا . لكل بادرة ولأى حركة من حركات المنكر.

قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ رأى منكم منكراً فلْيُغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1] .

انظر إلى غير المتدينين ، تجدهم ساكنين فى بعض الأمور ، ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها ، فالواحد منهم لا يصلى ولا يزكى ، ولا يقول كلمة معروف.

وهو فى ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله.

ونجد أيضاً من غير المتدينين من يشرب الخمر أو يزنى أو يسرق أو يرتشى ، وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصده عن مثل هذه الحركة.

ولذلك نقول : إن الإنسان فى أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين:

الأول : إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير.

الثانى : وإن كان متحركاً إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه.

وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيمانى فى «افعل» و «لا تفعل» ، فمَنْ يتراخى عن الصلاة ويسكن عنها نقول له: صَلِّ ، ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٩) الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٢) من حديث أبى سعيد الخدرى ، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

إذن : فالقوة الشرعية تكون فى المنهج بـ «افعل» ليحرك الساكن ، و «لا تفعل» ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة فى ضوء المنهج.

وقد نقل رسول الله ﷺ المسألة من الأمر وهو قول ، والنهى وهو قول أيضاً إلى أن نباشرها فعلاً .

فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فلينكره بقلبه ، ونجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً ، والرسول جاء بها فعلاً.

إذن: فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهى عن المنكر ، ومرة يكون بالفعل.

أما الأمر باللسان فيعنى أن الإنسان إن كان عنده حُسْن تأدّ واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح ، فله أن يُقبل على عظة الناس.

وليس كل إنسان صالحاً لأن ينصح ، لأن المنصوح يخالف المنهج ، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج ، إنه يُخرِجه عما أَلِفَ وأحب ، لذلك يجب أن يتلطف الناصح فى النصح.

لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً ، ولا نجمع على المنصوح بين أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب .

ولذلك نقول : إن النصح ثقيل ، لأنك حين تنصح إنساناً . فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه ، وأنه أقل منك فى ذلك.

وهذا هو أول مطبٍّ ، وينظر لك المنصوح على أنك تفهم أحسن منه.

ولهذا قالوا فى الأثر : النصح ثقيل ، فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً.

وقيل أيضاً : الحقائق مُرّة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان.

هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول ، لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر ، كأن يكون أباه أو أمه ، والأب والأم يقومان برعاية الابن وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً ، وكل منهما هو المتولى لمصالح الابن.

أما إذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح ، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب ، فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه ، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه ، إنك قد قدمت له شيئاً من المعروف فيتحمل منك النصح.

« فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ».

ولكن كيف يكون التغيير بالقلب؟

أى : أن يكون تصرف الإنسان المؤمن هو المقاطعة لمن يخرج على منهج الله ، فإن قاطع كل المؤمنين أىَّ خارج على منهج الله . فلا بد أنه سيرتدع.

على المؤمن ألا يقابل منحرفاً أو منحرفة بترحيب أو تعظيم.

فالتغيير بالقلب أن يكون التصرف السلوكى الظاهرى مطابقاً لما فى القلب، فيحس فاعل المنكر أنه مُسْتهجن من غيره.

وقد يستسهل الناس أمور الشر أولاً إذا ما صادفهم مَنْ ينافقهم بمجاملات فى غير محلها ، لكن لو استشعر فاعل المنكر أنه مُقَاطَع من جماعة المسلمين ، وإن لم تضربه على يده فلابد أن يرتدع.

ومن هنا كانت خيرية أمة محمد ﷺ ، وقد جعل الله فيها الخير إلى يوم القيامة ، ففى هذه الأمة المسلم عنده مناعة ذاتية تبعده عن المعصية ، وحتى لو

تغلبت عليه شهوة من شهواته ووقع فى المعصية تجده سرعان ما يرجع إلى الله بالتوبة والندم .

والإنسان الذى تضعف عنده هذه المقاومة ويزداد فساده ، لا يتركه المجتمع بل سرعان ما يأخذ على يده ويعيده إلى صوابه.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ :

« **الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة** »(١)

فالخير كله فى الرسول ﷺ حَصْراً ، وفى أمته من بعده نثراً ، هذه الأمة فيها كثير من الناس الذين أخذوا صفة أو جزءاً من صفات الرسول ﷺ .

ولكن لا يوجد إنسان يجمع صفات الكمال التى كان عليها الرسول ، ولكن هذا يأخذ جزءاً من تقواه ، وهذا من حلمه ، وهذا من كرمه ، وهذا من عفوه ، وهذا من سماحته ، وهذا من صبره.

***

والحق سبحانه يضع فى يدنا مفتاح الجنة، ففى يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذى يقوده إلى الجنة أو إلى النار ، فإذا وفَّيْتَ بالعهد أوفى الله ، وإذا ذكرت الله ذكرك ، وإذا نصرت الله نصرك.

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ... (٤٠) ﴾ (البقرة)

وفى آية آخرى :

(١) أورده السيوطى فى الدرر المنتثرة (ص ٢٢٣) وقال : قال الحافظ ابن حجر العسقلانى: « لا أعرفه » ، وقال ابن حجر الهيتمى فى الفتاوى الحديثية (ص ١٨٤) : « لم يرد بهذا اللفظ ، وإنما يدل على معناه الخبر المشهور : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق » .

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (البقرة)

وفى آية ثالثة :

﴿ إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ... ﴿٧﴾ ﴾ (محمد)

فالنصر منا لله بأن نطبق دينه ، وهذا مراد الله ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج ، ونحن نعرف مقومات النصرة لله ، إنه الإيمان ، وما الإيمان؟

إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان فى عمومه ، فلو لم أكن مؤمناً بأن الطريق الذى أسير فيه موصل إلى غاية مطلوبة لى لما سِرْت فيه.

فما دُمْت آمنت بأنه « لا إله إلا هو » فليكُنْ اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلهاً ، فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يغلب على أمره.

وفى هذا يقول ﷺ :

« **إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رُفِعت الأقلام وجفَّتْ الصحف** »[1].

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله فى جدال ، إنما يدخل خلق الله مع خلق الله فى خلاف أو نضال ، لكن لا أحد يجرؤ على الدخول فى نضال مع الله ، لأنه عزيز لا يُغلب.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٣) ، والترمذى فى سننه (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح . والحديث عن ابن عباس.

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ[1] قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الأنفال)

فهم لا يتوكلون على غيره، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى، والتوكل : أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك.

واعلم أن اتخاذ الله كوليٍّ هو أمر ضروري ، لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار ، وساعة ضعف الإنسان لابد أن يأوي إلى مَنْ هو أشدُّ منه قوة ولا يتغير.

إن الولي - وهو الله - قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً ، وغناَه لا يمكن أن ينقلب فقراً ، وعلمه لا يمكن أن يئول إلى جهل ، إنه مُغيِّر ولا يتغير ، ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه ولياً لهم ، فهو صاحب الأغيار.

***

---

(١) وجل يوجل : فزع وخاف. قال تعالى : ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ.. ﴿٥٣﴾ ﴾ (الحجر) أي : لا تفزع ولا تخاف، وهو وجل أي خائف.

الصبر
عند الصدمة الأولى

١٤ يقول الحق سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى :

« ابْنَ آدم . إنْ صَبَرْتَ واحْتَسبْتَ عندَ الصَّدْمَةِ الأولىَ لَمْ أرْضَ ثَوابًا دُونَ الجنةِ »(١)

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً(٢) وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ (الأنبياء)

كلمة « نبلو » أى : نختبر ، فالابتلاء هو الاختبار ، والابتلاء ليس مذموماً فى ذاته ، ولكن المذموم هو غاية الابتلاء أو نتيجته ، فإن نجح فيه الإنسان وصبر فهو محمود ، وإن رسب وفشل فهو مذموم .

فالبلاء هو الاختبار بأية صورة من الصور ، فالطالب الذى استذكر دروسه يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً حسنًا ، ومن لم يستذكر يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً سيئاً .

إذن : فالابتلاء غير مذموم على إطلاقه ، ولا ممدوح على إطلاقه ، ولكن نتيجة الإنسان فيه :هل ينجح أم لا ؟

والحق سبحانه ليس فى حاجة إلى أن يعلم ليختبر ، ولكنه يختبرنا ليكون

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٥٩٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، قال البوصيرى فى الزوائد: « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

(٢) فتن الذهب : أذابه ليختبر معدنه ودرجة نقائه ليميز الجيد من الردىء، فالفتنة : الاختبار بالنار، واستعيرت لكل اختبار شديد أو تعذيب بقصد صرف المؤمن عن دينه.

ذلك حجة علينا ، فهو يعلم ما سيحدث منا حتى قبل أن يخلقنا ، ولكنه يريد أن يقيم علينا الحجة .

وكلمة «نبلوكم »المخاطب فيها كل الخلائق :

الغنى والفقير ، والصحيح والمريض ، والحاكم والمحكوم ، والذكر والأنثى ، والإنس والجن ..وهكذا .

إذن : كلنا فتنة لبعضنا البعض ، فالغنى والفقير مثلاً كلاهما فتنة للآخر ، فالغنى إذا لم يساعد الفقير ويعطف عليه سيرسب فى اختبار الله له بسبب هذا الفقير .

وكذلك الفقير ، إذا رأى ما عند الغنى من نعم الله عليه فلا يجب أن يحسده أو يحقد عليه ، ولكن يجب عليه أن يقول : ما شاء الله كان .

والصحيح ابتلاء للمريض ، فهل هذا المريض الملقى على فراشه يئن من الألم حينما يرى إنساناً سليمًا صحيحاً ، تتغير نفسه، ويسخط على قدر الله الذى جعله فى هذه الحالة ، ويحقد على الإنسان الذى عنده صحة ؟ أم أنه يصبر على ابتلاء الله ويرضى بقضائه ، ويدعو لنفسه بالشفاء ولغيره بعدم المرض.

وكذلك الصحيح ، يكون المريض له فتنة ، لأنه هل استخدم صحته فى خدمة المريض والتخفيف عنه ، وشعر بأن صحته نعمة عظيمة من الله وشكره عليها ، أم أنه لم يفعل ؟

واعلم أن الخير بلاء ، كما أن الشر بلاء ، وحين تستخدم الخير فى خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به ، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله ، فهذا كله اختبار من الله عز وجل .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ(١) فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ ﴾

(الفجر)

وهذا هو الابتلاء بالخير .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ(٢) عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦ ﴾ (الفجر)

وهذا هو الابتلاء بالشر .

وموضع الابتلاء هنا أن هناك أناساً كثيرين عندما يعطيهم الله نعمة يقولون :«ربنا أكرمنا »، وعندما يسلبهم النعمة يقولون :«ربنا أهاننا» .

وكلاهما مخطىء ، مخطئ مَنْ اعتبر النعمة إكراماً من الله ، ومخطىء أيضاً من اعتبر سلب النعمة إهانة من الله .

إن النعمة لا تكون إكرامًا من الله ، إلا إذا وفَّقك الله فى حسن التصرف فى هذه النعمة ، ولا يكون سلب النعـمة إهانة إلا إذا لم يوفقك الله فى أداء حق النعمة ، وحق النعمة فى كل حال يكون بشكر المنعم ، وعدم الانشغال بها عمَّنْ رزقك إياها .

إذن : فالذى نظر إلى المال ، وظن أن الغنى إكرام ، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانة ، هذا الإنسان لايفطن إلى الحقيقة .

(١) نعَّمه : جعله فى سعة من العيش وفى ترف ورفاهية. قال تعالى :﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ ﴾ (الفجر) افتخار بالنعم كأنه مستحق لها بذاته.

(٢) قدر الله الرزق : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ، ومنه قوله ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ۝١٦ ﴾ (الفجر) أى : ضيَّقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها.

والحقيقة يقولها الحق سبحانه : ﴿ كَلاَّ ﴾ (الفجر : ١٧)

أى :أن هذا الظن غير صادق ، فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة.

فالابتلاء قد يكون فى الأموال ، وقد يكون فى الأنفس .

فمتى يكون المال دليل كرامة ؟

يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت مُوفَّقاً فى أن تؤدى مطلوب المال عندك للمحتاج إليه ، وإنْ لم تُؤدِّ حق الله فالمال مذلة لك وإهانة .

فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل ، ولذلك قال سبحانه للاثنين ﴿ كَلاَّ ﴾ (الفجر : ١٧)

وذلك يعنى : لا إعطاء المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) ﴾ (الأعراف)

فلله سبحانه مطلق الحرية فى الاختبار ، فهو سبحانه يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك ؛ لأنه سبحانه عالم به ، من قبل أن تعمل ، وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى ،أتغرُنا الأسباب فى الدنيا عن المسبِّب الأعلى الذى وهبها .

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها فى مَظَانِّ الخير لها ، فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار.

إذن : فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم ، والابتلاء بالنقم ليرى الحق : هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أى : ليراه ويعلمه واقعًا حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً (١).

---

(١) الأزل : القدم.

فمجرد الابتلاء ليس شراً ، ولكن الشر هو أن تسقط فى الابتلاء ، والمهم أن ينجح المؤمن فى كل ابتلاء يُبتلى به ، حتى يواجه الحياة صلباً ، ويواجه الحياة قوياً ، ويعلم أن الحياة مَعْبر ، ولا يشغله المعبر عن الغاية .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ (البقرة)

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقًا أنها على قَدْر إيلامها يكون الثواب عليها .

ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين فى بعض المعارك ، أنزل الله ذلك القول الحق للمؤمنين:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ (التوبة)

أى : قولوا أيها المؤمنون : إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله .

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه : ﴿ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ (التوبة)

أى : أن المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حُسْن الثواب من الله ، ولم يقل الحق : كتب الله علينا ، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله.

وأىُّ أمر يصيب الإنسان ، إمَّا أن يكون له دخل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن يجزع [1] لأنه هو الذى جاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإمَّا أن تكون مصيبة لا دخل له بها ، وحدثت له من غيره مثلاً.

---

(١) الجزع : ضد الصبر. وقد جزع من الشيء، وأجزعه غيره.

وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها : أعدلاً أم ظلماً ؟

إن كانت عدلاً فهى قد جبرت الذنب ، وإن كانت ظلماً فسوف يقتص الله له ممن ظلمه ، وعلى هذا فالمؤمن فى كلتا الحالتين رابح .

إذن : فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعاً أن يأتى له منها خير ، وعلى كل مؤمن أن يُقيِّم نفسه تقييماً حقيقيًا : هل لى على الله حق ؟

أنا مملوك لله وليس لى حق عنده ، فما يُجريه علىَّ فهو يُجريه فى مُلْكه هو . ومَنْ لا يعجبه ذلك فليتأبَّ على أى مصيبة ، ويقول لها « لا تصيبينى» ولن تستطيع دَرْء أى مصيبة .

وما دُمْنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلنتقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يُعزَّنا ويكرمنا .

إنه يدعونا أن نقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة)

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا ، ولابد لنا هنا أن نأتى بمثال ـ ولله المثل الأعلى ـ هل رأيت إنساناً يفسد مُلْكه ؟ أبداً .

إن صاحب المْلك يعمل كل ما يؤدى إلى الصلاح فى ملكه ، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر أنه فساد ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن مِلْك له ، وهو سبحانه لا يُعرِّض ملكه أبداً للضرر ، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة)

أى : نحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إن كان فى مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان ، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلِمْنا فيه عند الرجوع إلى الله.

إذن : فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية فى المرجع ، وهو سبحانه ملك القوسين ، الابتداء والانتهاء.

ولذلك علَّمنا رسول الله عند أى مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع ، أى أن يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة)

وزادنا أيضاً أن نقول : « اللهم أجُرنى فى مصيبتى، واخلُفْ لى خيراً منها»(١).

إنك إذا ما قلتها عند أى مصيبة تصيبك فلابد أن تجد فيما يأتي بعدها خيرًا منها ، وحتى إن نسى الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة ثم تذكرها وقالها فله جزاؤه ، كأنه قالها ساعة المصيبة .

فكل ما كتبه الله فهو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثوابًا ،وإما ارتقاء فى الحياة ، ولذلك فهو خير .

ومن هنا كانت الآية الكريمة ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ .

وما كتب الله للمؤمن إنما هو فى صالحهم .

---

(١) عن أم سلمة قالت : قال أبو سلمة قال رسول الله ﷺ : « إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل : إنا لله وإنا إليه راجعون عندك احتسبت مصيبتى وأجرنى فيها وأبدلنى ما هو خير منها. فلما احتضر أبو سلمة قال : اللهم اخلفنى فى أهلى بخير فلما قبض قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتى فأجرنى فيها. قالت : وأردت أن أقول : وأبدلنى خيراً منها، فقلت : ومن خير من أبى سلمة ؟ فما زلت حتى قلتها، فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردَّته، ثم خطبها عمر فردَّته فبعث إليها رسول الله فقالت : مرحباً برسول الله ﷺ وبرسوله، أخبر رسول الله ﷺ أنّى امرأة غَيْرى، وأنى مُصْبية (أى : عندها صبيان) ، وإنه ليس أحد من أوليائى شاهداً، فبعث إليها رسول الله ﷺ : أما قولك : إنى مصبية فإن الله سيكفيك صبيانك، وأما قولك : إنى غَيْرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضانى » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٣١٣).

والمؤمن يعلم أن كل مصيبة فى الدنيا إنما يجزيه الله عليها حُسْن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ، لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ، وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو مَنْ حُرِم من الثواب .

ونحن نجد فى القرآن [1] قصة العبد الصالح الذي قتل غلامًا كان أبواه مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغيانًا [2] وكفرًا . فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم . ويأتى لهما بالشقاء .

إذن : فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومنا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق، فأصيبت رِجْله بجرح و تلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى اصطلاح الطب « غرغرينة ».

---

(١) وذلك يحكيه القرآن فى قوله تعالى عن موسى عليه السلام وقصته مع العبد الصالح ـ الذى يقال إنه الخضر عليه السلام ـ : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ (الكهف)

(٢) الطغيان : الظلم وتجاوز الحد فى العصيان ، وأصله من طغيان الماء، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ (الحاقة) أى : زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد.

وقرر الأطباء أن تُقطع رِجْله ، وحاولوا أن يعطوه مُرقِّداً ، أي : مادة تخدره ، وتغيب به عن الوعى ، ليتحمل ألم بَتْر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال : إنى لا أحب أن أغفل عن ربى طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده في معية الله ، ومُفَاضٌ عليه من قدرة الله وقوته سبحانه.

وحينما قطع الأطباء رِجْله ، وأرادوا أن يُكفِّنوها وأن يدفنوها ، طلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول : اللهم إن كنتُ قد ابتليت فى عضو فإنى قد عُوفِيتُ فى أعضاء .

إذن: فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها إنما يحيا في متعة ؛ ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة قد تأتى للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته .

فكل مؤمن يعيش فى منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر فى كل أمر مؤلم وفى كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ، ثواباً عظيمًا خالداً من الله سبحانه وتعالى .

فالمصائب تأتى للمؤمن لإفادته ، ولكنها لا تأتى للمنافق لإفادته ، فالمؤمن حين يُصاب إما أن يُكفِّر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة .

ورسول الله ﷺ يقول : « ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حَطَّ عنه بها خطيئة »(١).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٤٢) والترمذى فى سننه (٩٦٥) وصححه. وهو من حديث عائشة رضى الله عنها.

لكن المصائب حين تصيب المنافق فهى مَغْرَم فقط ، لأن المنافق لا يرجو الآخرة ؛ ولذلك يُقال : إن المصاب ليس مَنْ أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو مَنْ حُرِم الثواب .

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا ، وعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه ، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف ، أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحْرَم من الثواب .

ولذلك يقول الحق سبحانه يوجه المؤمنين إلى ما يجب أن يفعلوه عندما تواجههم مصائب الدنيا وصعابها :

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا(١) وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ (٢) الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (التوبة)

فالحديث هنا عمَّا يصيب الإنسان أو ما يحدث له ، فإن حدث للإنسان شىء يأتى منه خير ، يكون بالنسبة له حسنة ، وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة.

إذن : فالإصابة هى التقاء هدف بغاية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة ، وإن جاء بشرٍّ فهو سيئة .

والمصائب نوعان : مصيبة للنفس فيها غريم ، ومصيبة ليس فيها غريم ،

---

(١) المولى : المالك والسيد والمُنْعِم المعين الناصر ، والوليّ الموالى بالمحبة، ومثله : ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ (آل عمران)، ومثله : ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا .. ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة) أى : أنت سيدنا وناصرنا ووليُّنا.

(٢) توكل على الله : استسلم إليه وفوَّض إليه أمره واعتمد عليه.

فإن اعتدى علىَّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمى ، وتتولد فى قلبى حفيظة[1] وغضب وضغينة [2] عليه ، وغيظ منه ، وأرغب فى أن أردَّ عليه وأثأر لنفسى منه ، ولكن إن مرضت مثلاً ، فمن هو غريمى فى المرض ؟ لا أحد.

فهذا من المصائب التى ليس للإنسان فيها غريم ، فهى لا تحتاج إلى جهد كبير من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط ، إذ لا حيلة للإنسان فيها .

ونجد الحق سبحانه يقول فى هذا اللون من المصائب :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ[3] الْأُمُورِ (١٧) ﴾ (لقمان)

ونحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه ، فالإنسان لا يُربِّى إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بحب الخالق لنا ؟

وفى حديث رسول الله ﷺ :

«إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم »[4]

---

(١) الحفيظة : الغضب. والمحفظات : الأمور التى تُحفظ الرجل أى تغضبه إذا وُتر فى حميمه أو فى جيرانه.

(٢) الضِّغن : الحقد والعداوة والبغضاء . ضغن عليه : حقد عليه وأضمر له العداوة. والضغن : شدة الحقد، وجمعه أضغان.

(٣) العزم : عقد نية القلب على أمر أنت فاعله والاجتهاد فى الأخذ بأسبابه لفعله أو إتمامه. وقال تعالى : ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾ (آل عمران) أى : من الأمور الجادّة الرشيدة التى لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التى يفعلها أصحاب العزم القوى. وقال تعالى فى شأن آدم عليه السلام : ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ (طه) أى : صبراً وإرادة قوية وقوة على تنفيذ العهد الذى عهد الله به إليه، وهو عدم الأكل من الشجرة.

(٤) عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩) وأخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٠٣١) والترمذى فى سننه (٢٣٩٦) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط».

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (آل عمران)

أى : وكفى جزاءً عن الصبر أن تكون محبوبًا لله ، فنحن قد نحب الله لنعمه التى أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست فى أن تحب الله أنت ، وإنما فى أن تصير بتطبيق منهجه فيك محبوباً لله .

إذن : فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (آل عمران) لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن نكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم .

صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهناً [(١)] أو ضعفاً أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مسكة اليقين بالله ، ومسكة [(٢)] اليقين بالله تجعلهم أهلاً لإمداد الله ، فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك .

ومدد الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ [(٣)] نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ

---

(١) وهن : ضَعُفَ. قال تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾ ﴾ (مريم) أى : ضعف كناية عن العجز وكبر السن وإظهار الشكوى من الضعف للاسترحام. وقال تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. ﴿٤﴾ ﴾ (لقمان) أى : ضَعْفاً على ضَعْف ، فالضعف يتزايد كلما ثقل الحمل.

(٢) رجل ذو مُسْكة ومُسك أى : رأى وعقل يرجع إليه، وفلان لا مُسْكَة له، أى لا عقل له. ويقال : ما بفلان مسكة أى ما به قوة ولا عقل. ويقال : فيه مُسْكة من خير، أى : بقية (لسان العرب ـ مادة : مسك).

(٣) خوَّله كذا : مَلَّكه إيَّاه مُتفضِّلاً عليه بغير عوض، قال تعالى : ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ (الأنعام).

عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) ﴾ (الزمر)

لأن الذى يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضر ، فإذا ما أنجاه الله ادعى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم زاد فى الادعاء ، وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده ، ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقى وهو الله تعالى ، إنه نسى أن كل نعمة هى مجرد اختبار من الله .

هؤلاء الصابرون على ابتلاءات الله لهم قال عنهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ (١) مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

(البقرة)

كلنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ، ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنعم والخيرات التى يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان.

والاطمئنان نعمة كبرى ، فمن يَعِشْ في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لون عظيم من الاطمئنان .

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة .

***

(١) الصلاة تأتى بمعنى الدعاء والرحمة والتكريم والتعظيم، ويقول العلماء : الصلاة من الله رحمة وإحسان ومغفرة ونعمة وقبول. والصلاة من الملائكة : استغفار.

غفرتُ لَهُ ولاَ أُبَالى

يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

١٥ « مَنْ عَلِمَ منْكُمْ أنِّى ذُو قُدْرَةٍ عَلَى مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ غَفَرْتُ لَهُ وَلاَ أُبَالِى ، مَا لَمْ يُشْرِك بِى شَيْئاً »[1]

الحق سبحانه وتعالى غفور رحيم قبل أن يُوجد مغفور له أو مرحوم ، فالله ليس من أهل الأغيار ، والصفات ثابتة له سبحانه ؛ لأن الزمن فى الأحداث يتغير بالنسبة للأغيار فقط .

وعلى سبيل المثال : نجد الواحد من البشر صحيحاً فى زمن ، ومريضاً فى زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضى إلا فى أصحاب الأغيار ، وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا فى أصحاب الأغيار .

وما دام الله هو الذى يُغيِّر ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان فى الأزل غفوراً رحيماً ، ولا يزال أيضاً غفوراً رحيماً .

والحق سبحانه يقول فى آيات كثيرة من قرآنه :

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ (النساء)

ليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها ، ولكن لِنقُلْ :

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٦٢) من حديث ابن عباس وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه». قال الذهبى : حفص بن عمر العدنى واهٍ.

كان الله غفوراً رحيماً ، ولا يزال غفوراً رحيمًا ، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أَوْلَى يكون غفوراً رحيماً بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة .

وسبحانه وتعالى مُنزَّه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير ، لأن الزمن مخلوق من الله ، فلا تَقُلْ متى أو أين ؛ لأنهما به وُجِدا .

والحق سبحانه يأتى بالماضى ، لأنه متحقق الوقوع ، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد ، ذلك لأن الله إذا قال عن شيء : إنه سيحدث فلا بد أن يحدث .

والحق سبحانه يقول عن ذاته العلية :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾ (طـه)

أعلمنا الحق سبحانه أنه تعالى غفار ، وكلمة « غفار » هذه حَمَتْ المجتمعات من شرارها ؛ لأن الشرير إذا ارتكب جريمة ثم حكم بأن الله لن يغفر له يتمادى فى إجرامه ويفقد صوابه .

لكن حينما يفتح الله له باب التوبة من الممكن أن يتوب ويرجع عن طريق الإجرام ، وبذلك يرحم المجتمع من شراسة أصحاب السوء .

والحق سبحانه سمَّى نفسه « الغفار » ليدل على كثرة مغفرته ، ولكن المهم أنك حين تقع فى الذنوب وتتوب إلى الله لا يكون فى نيتك العودة إلى الذنب مرة أخرى .

إنك لا تملك أن تعيش حتى تستغفر وتتوب مرة أخرى ، فقد تموت وقت ارتكاب الذنب ،كما أن التائب من الذنب وهو يُصِرُّ عليه كالمستهزيء بربه .

ولننتبه إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً (١) أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) ﴾ (آل عمران)

فالاستغفار ليس أن تردف (٢) الذنب بقولك : أستغفر الله . لا ، إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله : أستغفر الله ، وأن لا يُصِر على فعل الذنب .

وليس معنى هذا أن لا يقع الذنب منك مرة أخرى ، إن الذنب قد يقع منك ، ولكن ساعة أن تستغفر تصر على عدم العودة .

إن الذنب قد يقع ، ولكن بشرط أن لا يكون بنية مسبقة ، وتقول لنفسك : سأرتكب الذنب ، وأستغفر لنفسى بعد ذلك.

إنك بهذا تكون كالمستهزىء بربك ، فضلاً على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك الله لتستغفر .

وغِفَاريته سبحانه مشروطة بالتوبة والإيمان والعمل الصالح والاهتداء إلى الحق ، ولكن الذى يتوب ويؤمن ويعمل العمل الصالح ، هل يحتاج إلى هداية فوق ذلك؟

نقول : إن المقصود من الهداية هنا أن يستمر على هذا الطريق ، وكلما اهتدى زاده الله هدىً.

---

(١) كل خصلة قبيحة هى فاحشة سواء كانت فعلاً أو قولاً، ورجل فاحش : ذو فحش، وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصى. قال ابن الأثير : وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا. (لسان العرب ـ مادة فحش).

(٢) الرِّدف : ما تبع الشيء. وكل شيء تبع شيئاً ، فهو ردفه. وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف. وترادف الشيء : تبع بعضه بعضاً. (لسان العرب ـ مادة : ردف).

قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ (محمد)

أى : أن كل مَنْ يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه ، ويزيده تقوى وحباً فى الدين ، وهذه هى دلالة المعونة ، وهى لا تحق إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه ، وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها .

فالحق سبحانه يعطيهم حلاوة الهداية وهى التقوى ، كأن الحق سبحانه يقول للعبد المؤمن : ما دُمْت قد أقبلت علىَّ بالإيمان فَلَكَ حلاوة الإيمان .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (المائدة)

فصفة المغفرة وصفة الرحمة ، كُلٌّ فى مُطْلقها تكون لله وحده ، وهى توبة للجانى ، ورحمة للمجنى عليه .

فقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (المائدة)

يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يغفر وأن يرحم ، فإياك أن تقول : إن فلاناً لا يستحق المغفرة والرحمة ، لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى البشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه ، وله طلاقة القدرة فى الكون.

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (المائدة)

وهذا استفهام مُوجَّه للخلق ، ليديروا الجواب على هذا ، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا : « لله ملك السموات والأرض » .

وهذا أسلوب لإثبات الحجة والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق.

وقد يقول إنسان: إن هناك أجزاء من الأرض مِلْكاً للبشر ، ونقول : صحيح أن فى الأرض أجزاء هى مِلْك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لايقدر على الاحتفاظ به ، كمِلْك البيت والأرض .

والحق تعالى يقول :

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ (المائدة)

والقارئ بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين : أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ويأتى الأمر فى أحيان أخرى بالعكس ، ولكن هذا القول هو الوحيد في القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء فى القرآن يكون الغفران مُقدَّماً على العذاب .

فالحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« إن رحمتى سبقت غضبى » (١)

فلماذا جاء العذاب فى هذه الآية مُقدّمًا على الغفران :

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (المائدة)

هل السبب هو التفنن فى الأساليب ؟

(١) متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٤) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥١) من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى ».

لا ؛ لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه ، ولننظر إلى السياق .

جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عمَّنْ تاب ، فالسرقة إذن تقتضى العذاب ، والتوبة تقتضى المغفرة .

إذن : فالترتيب هنا منطقى .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ[1] إِثْمًا عَظِيمًا (48) ﴾ (النساء)

هذه من أرجى الآيات في كتاب الله ؛ ولذلك فحينما سُئل رسول الله ﷺ : ما موجبات الإيمان ؟ أى : ما الذى يعطينا الإيمان ؟

فقال ﷺ : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة »[2]

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »[3]

وإن مَنْ يشرك بالله فهو يرتكب الخيانة العقدية العظمى ، وقد أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعية ، وإن كانت القوانين الوضعية ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية ، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضاً .

(١) افتراه : اختلقه. والفرية : الكذب. افترى الكذب يفتريه : اختلقه. (لسان العرب ـ مادة : فرى).

(٢) عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « أبشروا وبشـروا الناس، من قال لا إله إلا الله صادقاً بها دخل الجنة ، فخـرجوا يبشرون الناس فلقيهم عمر فبشـروه فردهم فقال رسول الله ﷺ : مَنْ ردكم ؟ قالوا : عمر. قال : لم رددتهم يا عمر؟ قال : إذاً يتكل الناس يا رسول الله ». أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٤١١).

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٦٥، ٦٩) ومسلم فى صحيحه (٢٦) وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ١٧٤).

هَبْ أن جماعة قاموا بحركـة ، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة فى نفع خاص له ، وواحـد آخر اسـتغل الحـركة فى أن تكون له لا للآخـر ، أى ينقلب عليه ، فالأول القائم على النظام يسميها خيانة عظمى .

أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم ، ولكنه يظلم الناس ، فقد يعاقبه الحاكم على ما حدث منه ، وليس على الخيانة العظمى .

إذن : فـفى قانون البـشر أيضـاً خيـانة عظمى ، وفـيه انحـراف وهو الذى لا يتعرض للسيادة ، لكن أى حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب ، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه .

فالحق سبحانه وتعالى يوضح : أصل القضـية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعـترفوا بأنه الإله الواحـد الذي لا شريك له ، وحين تعـترف بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له ، فأنت تدخل حصن الأمان .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّى رسـول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غـير شَاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة » (١)

وأبو ذر عندما قال للنبى ﷺ فى محاورة بينهما حول هذه الآية ، قال له : « ما من عـبد قال لا إله إلا الله ، ثم مـات على ذلك إلا دخل الجنة .قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قـال :وإن زنى وإن سرق .قلت : وإن زنى وإن سـرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق (ثلاثاً) . ثم قال في الرابعة : على رغم أنف أبى ذر »(٢).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) متفق علـيه. أخرجه البخـارى فى صحيحـه (٥٨٢٧) ومسلم فى صحيحـه (٩٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه. ومعنى قوله « على رغم أنف أبى ذر » مأخوذ من الرَّغام وهو التراب، أى على كراهة منه. وإنما قال له ﷺ ذلك لاستبعـاده العفو عن الزانى السارق المنتهك للحرمـة، واستعظامه ذلك، وتصور أبـى ذر بصورة الكاره الممـانع، و إن لم يكن ممانعاً، وكـان ذلك من أبى ذر لشدة نفـرته من معصية الله تعالى وأهلها.

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود الله ، فهل ساعة قال رسول الله : على رغم أنف أبى ذر .هل هذه أحزنت أبا ذر ؟

لا ، لم تحزنـه ، ولذلك عندما كـان يحكيهـا ويقولها : مـن قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن رغم أنف أبى ذر ، وهو مسرور ، لماذا ؟

لأنها فـتحت باب رحـمة الحق ؛ لأنه إذا لم يكـن هذا ، فما الفـارق بين من اعتقدها وقالها ، وبين مَنْ لم يَقُلْها ؟

فلابد أن يكون لها تمييز ، وكل جريمة مـوجودة فى الإسلام ـ و الحق سبحانه قد جرَّمها ـ فهذا يعنى أنها قد تحدث .

فمثال ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا . . (٣٨) ﴾ (المائدة)

وهذا يعنى أنه من الجـائز أن يسـرق المؤمن ، وكذلك قـد يزنى فى غـفلة من الغفلات.

والحق سبحانه يضع أسس الاستغفار ، من :

الصلاة للصـلاة كفارة ما بـينهما ، الجمـعة للجمـعة كفارة ، الحج كـفارة ، الصوم كفارة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجـمعة كفارة [1] لما بينهن ، ما لم تُغْشَ الكبائر »[2]

---

(١) سميّت الكفارات كـفارات لأنها تُكفِّر الذنوب أى : تمحوها وتسترها مثل : كـفارة الأيمان . وكفارة الظهار ، والقتل الخطأ، والكَفارة عبارة عن الفعلة والخصلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة. (لسان العرب ـ مادة : كفر).

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٢٩، ٢٥٩) ومسلم فى صحيحه (٢٣٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أى : أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة والرحمة ، وهو سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ (٤٨) ﴾ (النساء)

وهذه المسألة ليست لصالحه ، إنما لصالحكم أنتم ، حتى لا تتعدد آلهة البشر فى البشر ، ويرهق الإنسان ، ويشقى من كثرة الخضوع لكل مَنْ كان قوياً عنه ، فأعفاك الله من هذا وأوضح لك : لا ، اخضع لواحد فقط يكفكَ كل الخضوع لغيره ، واعمل لوجه واحد يَكْفِك كل الأوجه ، وفى ذلك راحة للمؤمن[1] .

فالمسألة فى مصلحة العبد ، والله سبحانه لو غفر أن يُشرَك به لتعدد الشركاء في الأرض ، وحين تتعدد الشركاء فى الأرض يكون لكل واحد إله ، وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة ، لكن الخضوع لإله واحد نأتمر جميعاً بأوامره يُعزّنا جميعًا ، فلا سيادة لأحد ، ولا عبودية لأحد عند أحد .

فقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ .. (٤٨) ﴾ (النساء)

هذا لمصلحتنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ (النساء)

روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشىٌّ ، وهو قاتل سيدنا حمزة فى غزوة أحد ، أتى على النبى ﷺ فقال : يا محمد أتيتك

---

(١) ولذلك أعطانا الله سبحانه مثلاً ، فقال سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ (الزمر) .

(رجلا فيه شركاء) أى : عبداً مملوكاً لعدد من الشركاء

(متشاكسون) أى : متشاجرون متنازعون دائماً لشراسة طباعهم.

(ورجلاً سلماً لرجل) أى : خالصاً لرجل واحد ، لا ينازعه فيه أحد.

مستجيرًا ، فأجرنى حتى أسمع كلام الله ، فقال رسول الله ﷺ :

« قد كنت أحب أن أراك على غير جوار ، فأما إذ أتيتنى مستجيرًا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله »

قال : فإنى أشركت بالله ، وقتلت النفس التى حرم الله ، وزنيت ، هل يقبل الله منى توبة ؟

فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ (الفرقان)

فتلاها عليه ، فقال : أرى شرطاً فلعلّى لا أعمل صالحاً ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله . فنزلت :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾ (النساء)

فدعا به فتلا عليه ، قال : فلعلّى ممن لا يشاء ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا [1] عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا [2] مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ

---

(١) أسرف : جاوز القصد والاعتدال فهو سرف، ويكون فى المال وفى غيره ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ (الفرقان) أى : معتدلاً فى إنفاق المال. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ(٥٣) ﴾ (الزمر) أى : جاوزوا القصد والاعتدال فى أمور كثيرة فأكثروا الذنوب على أنفسهم. (القاموس القويم ١/ ٣١١).

(٢) قنط يقنط : انقطع أمله فى الخير أو يئس منه فهو قانط . وقنوط : صيغة مبالغة، قال تعالى: =

اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الزمر)

فقال : نعم ، الآن لا أرى شرطاً ، فأسلم .

إذن : فالمسألة كلها تلطُّف من الخالق بخلقه ، واعتبار عمليات الغفلة عمليات طارئة على البشر ، وما دام الحق يقنن تقنينات فمن الجائز أنها تحدث ، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها ، إياك أن تأتى بسيرتها عنده مرة أخرى وتُذكِّره بها .

فلو أن واحداً شهد زوراً (١) ، أو ارتكب ذنباً ، ثم استغفر الله منه وتاب ، إياك أن تقول له : يا شاهد الزور ، لأنه استغفر من يملك المغفرة ، فلا تجعله مذنباً عندك ؛ لأن الذى يملكها انتهت عنده المسألة .

لماذا ؟ لكى لا يذل الناس بمعصية فُعِلَتْ ، بل العكس ، إن أصحاب المعاصى الذين أسرفوا على أنفسهم يكونون فى نظر بعض الناس هَيِّنين مُحقَّرين .

ولذلك نقول : إن الواحد منهم كلما لذعته التوبة ، وندم على ما فعل كُتِبت له حسنة ، فعلى رغم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها .

وهذا هو السبب فى أن الله يُبدِّل سيئاتهم حسنات ، وعندما نعلم أن ربنا يُبدِّل سيئاتهم حسنات فليس لنا أن نحتقر المسرفين على أنفسهم ، بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا ، ولا نجعل لهم أثراً رجعياً فى الزلة والمعصية .

فما دام الإنسان قد استغفر من ذنبه وقال : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو

= ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (فصلت) أى : شديد اليأس معدوم الأمان.

(١) الزور : الباطل . قال تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الحج) قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : زور] « الزور : الكذب والباطل . وقيل : شهادة الباطل ».

الحى القيوم وأتوب إليه [1] . فلايجب أن يحرجه أحد بعد ذلك ، ولا أن يعايره أحد فقد استغفر عند من يملك الملك كله ، وهو وحده سبحانه الذى يملك العفو والمغفرة .

فلا يُدْخِلَنَّ أحدكم نفسه فى هذه المسألة ، ولا يجب أن يحرج إنسانٌ مذنباً ما دام قد استغفر مَنْ يملك العفو .

ومَنْ يسمع مستغفراً عليه أن يقول : عفا الله عنك ، ولا أحد يعرف إن كان الله قد عفا عنه أم لا ، فَلْتُعِنْه بالدعاء له .

ومن يعاير مذنباً نقول له : تأدب ، لأنه لم يرتكب الذنب عندك ، ولكنه ارتكبه عند ربه ، وإذا كان مَنْ يستغفر من ذنبه لا يُحرج به بين الناس ، فما بالنا بعفو الله سبحانه القادر وحده على العفو ؟

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ (الزمر)

فالذين أسرفوا على أنفسهم هم من عباد الله الذين آمنوا ولم يشركوا بربهم أحداً ، ولكنهم زلُّوا وغووا ووقعوا في المعاصى ، فهؤلاء يُقَال عنهم : إنهم مذنبون لأنهم مؤمنون بالله ، ومعترفون بالذى أنزله.

أما المشرك فلم يعترف بالله ، ولا بما شرع وقنَّن من أحكام ، فما هو عليه لا يُسمّى ذنباً ، وإنما هو كفر وشرك .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١١٨) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه، وصححه على شرط مسلم، وأقرّه الذهبى.

وكل معصية تكون تجاوزاً عمَّا أحلَّه الله لك ، وزيادة غير مشروعة ، وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها زيادة عن مُقَوِّمات حياتك .

فالله شرع لنا الزواج لنأتى بالأولاد ، وعندما نأخذ أكثر من هذا من غير زواج نكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالاً بقدر حركتنا ، فإن طمعنا فى مال غيرنا فقد أسرفنا .

إنه سبحانه يوضح : أنا حللت لك كذا من النساء ، فما الذى جعل عينيك تزوغ وتميل إلى غير ما أحله الله لك ؟

أنا أحللت لك كسب يدك ، وإن كنت فقيراً فستأخذ صدقة ، لماذا أسرفت ؟

إذن : فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه « إسراف »

والحق سبحانه عندما يغفر الذنب ، ويغفر الإسراف فى الأمر نكون أهلاً للمدد[1] ، وأهلاً لتثبيت الله لنا .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) ﴾ (النساء)

قد يقول واحد: ما دام الحق قد شرع التوبة ، فلأفعل ما أريد من المعاصى، وبعد ذلك أتوب . نقول له: إنك لم تلتفت إلى الحكمة فى إبهام ساعة الموت ،

(١) المدد : ما مدَّهم به أو أمدهم ، والجمع : أمداد. والإمداد: أن يرسل الرجل للرجل مدداً. فالمدد : ما أمددت به قومك فى حرب أو غير ذلك من طعام أو أعوان. (لسان العرب : مادة مدد)

فما الذى أوحى لك أنك ستحيا إلى أن تتوب ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية.

وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآنى :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ .. ﴿١٧﴾﴾ (النساء)

وفِعْل السوء بجهالة[١] ، أى بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب ، فلو استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية ، بل هو يتجاهل العقوبة .

لذلك قال رسول الله ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[٢]

فلو كان إيمانه صحيحاً ، ويتذكر دائماً أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا ، وأن عقوبة الزنا هى الجَلْد أو الرجم ، لما قام بذلك الفعل .

والحق سبحانه قال :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. ﴿١٧﴾﴾ (النساء)

فهناك مَنْ يفعل المعصية ويخطط لها ويفرح بها ، ويزهى بما ارتكب ، ويفخر

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣/ ٢٠٥٢) فى معنى كلمة « بجهالة »: « أى خطيئة من غير قصد. قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل » وقال (٤/ ١٧٥٨) : « كل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته . قال قتادة : أجمع أصحاب النبى ﷺ على أن كل معصية فهى بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً » .

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

بزمن المعصية ، وهناك من تقع عليه المعصية ، وبمجرد أن تنتهى يظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها ، ويتساءل : لماذا فعلت ذلك ؟

الأول يبحث عن أماكن اللهو والخلاعة [1] ، ويظل يفاخر بما فعل من المعاصى ، أما الثانى فهو إنسان وقعت عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أن تهدأ شِرَّة[2] الشهوة يغرق فى الندم .

والله سبحانه حين قدَّر أمر التوبة على خلقه رحم الخلق جميعاً بتقنين هذه التوبة ، وإلا لغرق العالم فى شرور لا نهاية لها ، والمهم فى التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب .

والرسول ﷺ حين حدَّد معنى ﴿ مِن قَرِيبٍ ... ﴿١٧﴾ ﴾ (النساء) قال : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[3] »[4]

فالله سبحانه قد شرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، أى : ما لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد ، فإذا ما قدَّم العبد التوبة لحظة الغرغرة ، فماذا يستفيد المجتمع ؟

لن يستفيد المجتمع شيئًا من مثل هذه التوبة ، لأنه تاب وقت ألا شر له ؛ لذلك فعلى العبد أن يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصى .

---

(١) الخليع : المستهتر بالشرب واللهو ، يقال : خُلِع من الدين والحياء ، وقوم خلعاء بيِّنو الخلاعة .

(٢) الشرة : النشاط والرغبة، وشرة الشباب : حرصه ونشاطه. (لسان العرب ـ مادة : شرر).

(٣) غرغر : جاد بنفسه عند الموت. والغرغرة : تردد الروح فى الحلق ، وهى لحظات الموت الأخيرة التى قال عنها رب العزة : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (الواقعة).

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢ ، ١٥٣) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٣) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنه وقال : « هذا حديث حسن غريب ».

والحق سبحانه يُذَيِّلُ الآية بقوله:

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (النساء)

أى : عليماً بالتقنينات ، فشرّع التوبة لعلمه جَلَّ شأنه بأنه لو لم يُشرّع التوبة لكان المذنب لمرة واحدة سببًا فى شقاء العالم ، لأنه حينئذ يكون يائساً من رحمة الله.

إذن : فرحمةً منه سبحانه بالعالم شرَّع الله التوبة ، وهو حكيم فإياك أن يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة .

إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضًا ؛ لذلك بيَّن الحق سبحانه أن مَنْ وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه .

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى .

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألاَّ يقع فى ذنب جديد .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿٣﴾ ﴾ (هود)

هكذا يُبيِّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التى وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه .

المطلوب ـ إذن ـ من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه ، هذا هو مطلوب الله من العاصى ؛ لأن « دَرْء [١] المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ».

وحين يُعجِّل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنبًا قد وقع وتحقق منه وعليه ألاَّ يؤجل التوبة إلى زمن قادم ، لأنه لا يعلم إن كان سيبقى حياً أم لا .

وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى ، فهذا إعلان منك بالإيمان ، واعتراف بأن تكليف الحق لك هو تكليف حق.

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أن يغفر له الذى مضى من الذنوب ، فعليه ألاَّ يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أن يحرص على تجنُّب المعاصى .

فإن استغفر الإنسان ، فالحق سبحانه قريب من كل عبد يستغفر من ذنوب لا تمثل حقوقاً للناس ، والله سبحانه يجيب لطالب المغفرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾ (هود)

ويقول رب العزة فى الحديث القدسى :

« يا بن آدم ، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

يا بن آدم ، لو بلغت ذنوبك عَنَان [٢] السماء ، ثم استغفرتنى غفرتُ لك ولا أبالى .

---

(١) الدرء : الدفع . درأه : دفعه وكل مَنْ دفعته عنك فقد درأته. وفى الحديث : « ادرءوا الحدود بالشبهات »، أى : ادفعوا. (لسان العرب ـ مادة : درأ) بتصرف .

(٢) عَنَّ الشىء : ظهر أمامك، وعَنَّ :اعترض وعرض. والعَانُّ من السحاب : الذى يعترض فى الأفق. والعنان: السحاب. وقيل: عنان السماء، ما عَنَّ لك منها إذا نظرت إليها، أى ما بدا لك منها.

يا بن آدم ، إنك لو أتيتنى بقراب[1] الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة »[2].

***

(١) قِرَاب الشيء وقرابه : ماقارب قدره. وفى الحديث:« إن لقيتنى بقراب الأرض خطيئة » أى : بما يقارب ملأها (لسان العرب ـ مادة : قرب).

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٤٠) وقال : « حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » ، وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) من حديث أبى ذر.

اليوم أنساك كما نسيتنى

١٦عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى قالا :
قال رسول الله ﷺ :
« يُؤتَى بالعبدِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فيقول الله له :
أَلَمْ أجعل لكَ سَمْعاً وبَصَراً و وَلَداً ؟
وسخَّرْتُ لك الأنعامَ والحَرثَ ؟
وتركتُكَ ترأسُ وتَرْبَعُ ؟
فكنتَ تظنُّ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ يَوْمَكَ هذَا ؟
فَيقُول : لاَ. فيقُول لَهُ سُبْحانَهُ :
اليْوَمَ أنسَاكَ كمَاَ نَسِيتَنِى » [1].

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٢٨) وقال : « هذا حديث صحيح غريب »، وقد أخرج مسلم فى صحيحه (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « فيلقى العبد فيقول : أى فُلْ، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى. قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى. ثم يلقى الثانى فيقول :أى فُلْ ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول: أى رب. فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا. فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك. فيقول : يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصُمْت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع. فيقول : ها هنا إذن ثم يُقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد عليَّ ؟ فيُختم على فيه. ويُقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذر من نفسه. وذلك المنافق، وذلك الذى يسخط الله عليه».

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾

(البقرة)

لا يحسب واحد من البشر أنه سيُفلت من الله ، فليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى ، فهو يعرف أماكنكم جميعاً واحداً واحداً ، وسيأتى بكم جميعاً ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ[(١)] الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً[(٢)] وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ (الكهف)

أى : أن الحق جَلَّ جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أننا لا نستطيع أن نفر من علمه ، ولا من قدره ، ولا من عذابه.. وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله ، وأنه لا منجاة من الله إلا إليه.

ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله ، ولا يظن أنه لن يكون موجوداً يوم القيامة ، أو أنه لن يُحَاسب ، أو أنه يستطيع أن يختفى.

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس ، فيظنون أنهم فى مَنَعَةٍ[(٣)] من الله،

---

(١) يوم نُسَيِّر الجبال : أى تذهب من أماكنها وتزول وذلك يوم القيامة. سار : ذهب ومضى مختاراً أو مرغماً أو سيراً اضطرارياً لا إرادة فيه. فقوله ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ (القصص : ٢٩). مضى بهم مختاراً. وقوله ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ (الطور : ١٠). أى : تمضى خاضعة لأمر الله سيراً اضطرارياً لا إرادة فيه ولا اختيار. (بتصرف من تفسير ابن كثير ٣/ ٨٧ و القاموس القويم).

(٢) أى : بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يوارى أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة : لا حجر فيها ولا غيابة. قال قتادة : ولا بناء ولا شجر. نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٨٧).

(٣) المنعة : الحماية والقوة. ومنه قوله تعالى ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ (الحشر : ٢) أى : ظنوا أن حصونهم حامية وواقية من الهزيمة.

وأنهم لن يلاقوه.

نقول لهم : إنكم ستفاجأون فى الآخرة حين تعرفون أن : الحساب حق ، والجنة حق ، والنار حق. ستُفَاجأون بما سيحدث لكم ، ومَنْ لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزى[1] والعذاب الأليم.

إن الله ينصحنا أن نؤمن ، وأن نسارع فى الخيرات ؛ لننجو من عذابه ، ويقول لنا : لن يفلت واحد منكم ، ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدى الله للحساب.

ولذلك قال سبحانه فى ختام هذه الآية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) ﴾ (البقرة)

أى : أن الله سبحانه وتعالى لا يُعجزه شىء ، ولا يخرج عن طاعته شىء ، إنه سبحانه على كل شىء قدير.

وذلك مصداق لقول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ[2] وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا[3] (٩٥) ﴾ (مريم)

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) خزى خزْياً : هان وافتضح وخجل واستحيا. قال تعالى : ﴿ لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) ﴾ (طه) أى : نهون ونفتضح.

(٢) الإحصاء : العَدّ والحفظ. وأحصى الشىء : أحاط به. ومن أسماء الله تعالى : المحصى، هو الذى أحصى كل شىء بعلمه فلا يفوته دقيق منها ولا جليل. (لسان العرب ـ مادة : حصى).

(٣) الفرد : ما كان وحده. وجاءوا فرادى، أى : واحداً بعد واحد. وقوله تعالى ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) ﴾ (مريم) أى : لا أحد معه من الأبناء أو الأعوان. ومثله : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ .. (٩٤) ﴾ (الأنعام) أى : ليس معكم مال ولا أهل ولا صديق (بتصرف من القاموس القويم).

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ [1] وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾ (الأنعام)

فقول الحق : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ... (٩٤) ﴾ (الأنعام)

أي : أن كلاً منكم يأتي إلى الله فرداً عما كان له في دنياه من مال أو ولد أو أتباع ، بدليل قوله تعالى :

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ... (٩٤) ﴾ (الأنعام)

وخوَّله : أي جعل له خَدَماً من الأتباع ومن المريدين ، ومن المقدَّر والمضيَّق عليهم في الرزق ، ومن العائشين في نعمته.

جاء كل منهم منفرداً عمَّا له في الدنيا ، كما خلقكم الله أول مرة ، أي : كما دخلتم في الدنيا.

وقول الحق سبحانه : ﴿جِئْتُمُونَا ... (٩٤) ﴾ (الأنعام)

أي : كأن الإنسان الذي أذنب يكاد يقدم نفسه للعذاب ، معترفاً أنه يستحق هذا العذاب ، إقراراً منه بالذنب ، فكأن الإنسان يبلغ منه الحزن على ما فعله ، والتوبيخ لنفسه التي انصرفتْ عن الحق فيقول لنفسه : أنت تستحقين العذاب.

فالذي يرجو لقاء الله يُعدُّ نفسه لهذا اللقاء ، ليستقبل ثواب الله ، لكن الذي لم يفعل أشياء تؤهله لثواب الله ، بل إنه عمل أشياء تؤهله لعقاب الله ، فكيف له أن يرجو لقاء الله ، إنه لا يرجو ذلك ولا يطلبه ولا يريده.

فالذي يرجو لقاء الله هو الذي يُعدّ نفسه لهذا اللقاء ، بأن يتقي الله في أوامره ، ويتقي الله في نواهيه ، ولذلك تمر على الإنسان أحداث شتى.

---

(١) خوَّله الله نعمة : ملَّكه إياها. وخوَّله المال : أعطاه إياه (لسان العرب ـ مادة : خ و ل).

وهى فى مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات. وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يغش أحد نفسه ، فإذا ما كان حيّا فقد يجعله الأمل يُكذِّب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المغريات.

أما إذا جاءته لحظة الغرغرة (١) فى الموت ، فهو يستعرض كل صفحته ، فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهر (٢) وجهه ، ولذلك يُقال : «فلان كانت خاتمته سيئة ، وفلان كانت خاتمته متهللة».

وهذا كلام صحيح ، لأن الروح ساعة أن تُقبض فهى تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإنْ كان ضاحكاً ومُستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير.

والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل فى العافية ، فإذا انتهى وقت انتهاء الحياة تُعرضُ عليه أعماله عَرْضاً سريعاً، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره ، لأنه يستشرف (٣) ما سوف يلقاه من جزاء.

كذلك الذين يرجون لقاء الله ، عملوا استعداداً لهذا اللقاء ، وينتظرون الجزاء من الله.

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) وقال : حسن غريب. والغرغرة هى تردد الروح فى الحلق.

(٢) اكفهر : عبس وتجهَّم وجهه ، ورأى الناس فى وجهه انقباضاً لا أثر فيه من بشر ولا فرح (لسان العرب).

(٣) التشرف والاستشراف للشيء : التطلع و النظر إليه وحديث النفس وتوقعه. وأصل الاستشراف : أن تضع يدك على حاجبك وتنظر ، وأصله من الشرف العلو كأنه ينظر إليه من موضع مرتفع، فيكون أكثر لإدراكه. (لسان العرب ـ مادة : شرف).

أما مَنْ لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه ، وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ۝٧ ﴾ (يونس)

وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا فى الآخرة.

وقد سَمَّى الله هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن نسمعه ننصرف عنها ، فقال ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ۝٧ ﴾ (يونس)

ولا يوجد اسم أقل من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هى الحياة العليا[1].

ولكن الإنسان تأخذه الغفلة ، فيغفل عن الدار الآخرة ويرضى بالحياة الدنيا[2] ويطمئن قلبه بها ، ويضعف فى قلبه إيمانه بلقاء الله يوم القيامة.

ولكنه يصحو من غفلته وسَكْرته[3] على حقيقة واقعة ، وهى أن وعد الله حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ ﴾ (يونس)

فالحق سبحانه إذا قال ووعد، فلا رادَّ لما وعد به سبحانه ، لأنه مُنزَّه عن أن يُخلف الميعاد ، لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبَّى

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم، فلينظر بم يرجع ؟ » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٨) ، وأحمد فى مسنده (٤ / ٢٢٩ ، ٢٣٠) ، والترمذى فى سننه (٢٣٢٣) من حديث المستورد بن شداد ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح.

(٢) سُمِّيت الدنيا لدنوها ولأنها دَنَتْ وتأخرت الآخرة ، وكذلك السماء الدنيا هى القُرْبَى إلينا بالنسبة للسموات الأخرى. (بتصرف من لسان العرب ـ مادة : دنو).

(٣) السَّكْرة : الغفلة وذهاب العقل بسبب الانغماس فى الشهوات كالخمر والنساء وجمع المال من حلال ومن حرام والسعى إلى الجاه والسلطان . وهناك سكرة الموت : شدته وغلبته . وكذلك سكرة الهم والنوم ونحوهما (لسان العرب ـ مادة : سكر).

عليـه ، ووَعْده حق وثابت ، فـهو حين يعـد يصيـر وعده مُـحتَّم النفـاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك.

إن الدين كله بكـل طاعـاته ، وكل منهـجـه قـائم على أن هناك حـسـاباً فى الآخرة ، وأن هناك يومـاً نقف فيه جمـيعاً أمام الله سبحانه وتعالى ، ليـحاسب المخطئ ويثيب الطائع ، هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الإيمانية.

وبما أننا جميـعاً سنلقى الله ، فلابد أن نعمل لهـذا اليوم ، ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئاً فى حياته إلا وفى باله الله ، وأنه سيـحاسبه يوم القيامة ، ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس فى باله الله.

وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ (١) بِقِيعَةٍ (٢) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾

(النور)

وهكذا مَنْ يفعل شيئاً وليس فى باله الله ، فسيُـفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذى لم يكن فى باله موجود ، وأنه جَلَّ جلاله هو الذى سيحاسبه.

فصاحب الالتزام بالمنهج يطمـئن إلى لقاء ربه ، ويطمئن إلى جزائه ، والذى لا يؤمن بالآخرة أخـذ من الله الحياة فأفناها فـيما لا ينفع ، ثم بعـد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار.

---

(١) السراب : مـا يرى فى نصف النهار من اشتداد الحـر كالماء فى الصحـراء يلتصق بالأرض، وهو من خداع البـصر، وقد سُمِّى السـراب سراباً لأنه يسرب سروباً أى يجـرى جرياً. أى : يتحرك حـركة تخدع الرائى من بعيد، فـيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحـالة النفسية للشخص عند شدة عـطشه ووجوده فى صحراء قـاحلة، فأى حركة من بعيـد يظـنها مـاء ، ويجرى إليها ، ليفاجأ بعدم وجود شىء.

(٢) القيعة : أرض واسعة مـستوية لا تنبت الشجر. قال الفراء : القيعة جـمع قاع . والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) ﴾ (طه).

فالكافرون مَثَلَهُم مَثَلُ الظمآن الذى يسير فى صحراء ، ويُخَيَّل له أن أمامه ماء ، ويمشى ويمشى فلا يجد ماء ، أما غير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظمآن ساعة يرى السراب يُمنِّى نفسه بأن المياه قادمة ، وأنه سيحصل عليها.

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ... (٣٩) ﴾

(النور)

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً ، بل يُفَاجأ :

﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ... (٣٩) ﴾ (النور)

إنه يُفَاجأ بأن الإله الذى كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة، فيُوفِّيه حسابه ، ويجزيه على عمله القبيح.

إذن : فإن عَمِل الإنسان عملاً فلينتظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس فى باله الله فعليه ألا يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطى الله لهؤلاء الأجر فى قانون نواميس[1] الحياة الكونية ، لأن مَنْ يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه.

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ[2] أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾ (الأعراف)

(١) جاء فى لسان العرب أن الناموس « هو : وعاء العلم. والناموس : السر ». فنواميس الكون هى أسراره المودعة فيه.

(٢) حبطت : فسدت . قال الجوهرى : بطل ثوابه وأحبطه الله. وقال ابن الأثير : هو من قولهم حبطت الدابة حَبَطاً ، إذا أصابت مرعى طيباً فأفرطت فى الأكل حتى تنتفخ فتموت. (انظر : لسان العرب ـ مادة : حبط).

فالخير الذى يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه فى الآخرة ، لأنه عمل وليس فى باله الله ، فكيف ينتظر ممن لم يؤمن به ؟

إن الله سبحانه يجزى مَنْ آمن به وعمل من أجله ، ولكن مَنْ كفر بالله حبط كل عمله ، وهذا أمر طبيعى لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس فى بالك الله ، فلا تنتظر جزاءً منه.

إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسانية ، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع ، وصنعوا لك التماثيل ، وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود فى الدنيا ، وهذا هو جزاؤك.

ولكن إن كنت مؤمنًا بالله ، راجيًا ثوابه تجىء يوم القيامة لتجدَ يدَ الله ممدودة لك بالخير الذى قدَّمته.

أما الذين لا يرجون لقاء الله فهم يقولون :

﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ[1] .. (٢٤) ﴾

(الجاثية)

(١) الدهر : الأمد الممدود. وقيل : الدهر : ألف سنة. والدهر : الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا. والهلاك : الموت والفناء وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : يؤذينى ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر أقلب ليله ونهاره » وفى رواية : « لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر » . قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٥١) : « قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ﷺ : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » : كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبُّونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم إنما سبُّوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة. فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد والله أعلم، وقد غلط ابن حزم ومَنْ نحا نحوه من الظاهرية فى عدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث » أ هـ.

ويقولون :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (المؤمنون)

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ، فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ، لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم.

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله، وهو ممن جاء فيهم القول:

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا(١) فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (السجدة)

وعلينا أن نعرف أن « الضلال » يأتى على معانٍ متعددة ، فقد يأتى الضلال مرة بمعنى الذهاب والفناء فى الشىء .

وهنا يتساءل المشركون : أبعد أن نذوب فى الأرض ، وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية، ونبعث من جديد ؟

وقد يأتى الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق ، كما قال الحق وصفاً لرسوله ﷺ عندما رفض عبادة الأصنام ، وظل يبحث عن المنهج الحق :

---

(١) ضللنا فى الأرض : خفينا وغبْنا. وضلّ الماء فى اللبن إذا غاب. فالضلال فى الأرض : الذهاب فيها، أى : إذا متْنا وصرنا تراباً وعظاماً فضللنا فى الأرض، فلم يتبين شىء من خلقنا. (من لسان العرب ـ بتصرف).

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (الضحى)

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه ، لأن النظر فى الكون وتأمُّل أحواله يُوجب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ... ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الأنبياء)

وعند الإعادة ، وفى يوم البعث يُفاجأ بمن كان ينكر البعث ونسى الله ، يقف بين يدى الله ، يُذكِّره ربُّه بما أنعم به عليه من السمع والبصر والولد.

ولذلك يقول ربُّ العزة هنا فى الحديث القدسى :

« ألم أجعل لك سمعاً وبصراً وولداً »

والسمع والبصر هما السيدان لملَكات[1] الإدراك ، لأن إدراك المعلومات له وسائل متعددة :

إن أردت أن تدرك رائحة فبأنفك .

وإنَ أردتَ أن تدرك نعومةً فبلمْسِك وببشرتك.

وإنْ أردتَ أن تدرك مَذَاقَ شيء فبلسانك.

وإنْ أردتَ أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعُمدتها اللسان.

وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك.

(١) الملكات : جمع ملكة ، وهى المِلْك ، أى ما يملكه الإنسان من حواس ، ويُقال : فلان حسن الملكة إذا كان حسن الصنع إلى مماليكه . (راجع لسان العرب ـ مادة : ملك).

وكذلك تتجلّى لك المرائى بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس، لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة.

فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إنْ يلمسها حتى تلسعه فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ، لأنه اختبرها بحواسه ، فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار مُحرقة ، واستقرّ هذا لديْه يقيناً.

وحينما أراد الحق سبحانه أن يقُصَّ علينا مراحل الإدراك فى النفس الإنسانية، ليربى الإنسان معلوماته قال سبحانه :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ(١) لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل)

لذلك يقال « كما ولدته أمه » أى : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواسَّ ، ويجعله قادراً على استخدامها.

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ، لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين فى البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع بالأذن البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب (٢) رضى الله عنه إلى العجائب فقال :

---

(١) الأفئدة : جمع فؤاد ، وهو القلب ، سُمِّى بهذا لتوقُّده. والتفود : التوقد ، وقيل : الفؤاد غشاء القلب. والمفؤود الذى أصيب فؤاده بوجع . ورجل مفؤود : جبان ضعيف القلب. (لسان العرب مادة : فأد)

(٢) على بن أبى طالب : وهو أمير المؤمنين ، رابع الخلفاء الراشدين ، وابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته فاطمة ، ولد بمكة (٢٣ ق هـ) ، من أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء ، توفى عام (٤٠ هـ) عن ٦٣ سنة .

« اعـجبـوا لهـذا الإنسـان ، ينظر بشحـم ، ويتكلم بلحم ، ويسـمع بعظم ، ويتنفس من خَرْم »[1].

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ عن طبلتـها ، ونرى بشحمة[2] العين ، وننطق بلحمة اللسان.

وأضاف بعض العارفـين : « ونشمُّ بغضروف[3] ، ونلمس بجـلد ، ونفكر بعجين ».

فـالإنسـان يُولد وكأن مُـخَّـه قطعـة من العـجين التى تعـمل فى اسـتقبـال المعلومات من الكون وتخـزينها فيه ، وهـى التى ستكون ركيزة لتـشكيل الفؤاد من بعد ذلك.

ونلحظ هنا مَـلْحظاً يجب الانتبـاه إليـه ، يدلنا عـلى الفـارق بين « الخَلْق » و«الجَعْل» ، و « المِلْك ».

فالحق سبحانه يقول هنا : « ألم أجعل لك سمعاً وبصراً » ، وذلك مثلما قال فى قرآنه :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ (السجده)

ويقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ... (٣١) ﴾ (يونس)

---

(١) أورده الشريف الرضى فى كتابه « نهج البلاغة » (٤ / ٤) .

(٢) شحمـة العين : مُقلتها ، وقيل : حدقتهـا أو ما تحت الحدقة . أمـا شحمة الأذن فـهو ما لان من أسفلها ، وهو ما يُعلَّق فيه القُرْط.

(٣) الغضروف ، والغرضوف بمعنى واحـد ، وهو كل عَظْم ليِّن رخص فى أى موضع كان ، وغرضوف الأنف : ما صَلُب من مارنه فكان أشد من اللحم وألين من العظم . (لسان العرب).

فـالخلق قد عـرفنا أمره ، ومِلْكيـة كل شيء لله تعـالى أمر مُلْزِمٌ فى العـقيـدة ومعروف ، أما « الجعل » فهو توجيه ما خلق إلى مهمته.

فأنت تجعل الطين إبريقاً [1] ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشرى ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً . فالخالق هو الله تعالى ، ومَنْ جعل هو الله تعالى ، ومَنْ مَلَك هو الله تعالى.

وهو سبحانه يُنبِّهنا إلى ذلك ، فالأشيـاء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه، ويجعلها ، ثم يُملِّكها له.

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصـر وغيرهما ، وإن كانت قد خُلقت فى الإنسان ، وجُـعلت له للانتفـاع بها ، ولكنهـا ستظل مِلْكاً لله ، يبـقيـها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يُعطِّلها.

إذن : فهى خُلقت لله ، وجُـعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيِّـرها كيف يشاء ، فدقّـاتُ القلب والحب والكراهية والأمور اللا إرادية التى تعـمل لصالح الإنسان هى مملكة الله.

فتدبير الأمر بيد الله ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ [2] الأَمْرَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ (يونس)

---

(١) الإبريق : إناء ، وجـمعه أباريـق ، فارسى معـرب ، وقال كـراع : هو الكوز ومنه قوله تـعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ (الواقعـة) ، (راجع اللسـان مادة : برق) ، وقال فى الـقاموس القـويم (١ / ٣) : « إبريق : إناء له خـرطوم ، وقد تكون له عروة ».

(٢) دبَّر الأمر : نظر فى عواقـبه وأدباره ليقع على ما يرى فيه الخيـر له ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ .. ﴿٣﴾﴾ (يونس) أى : يقضيه ويقدره وينفذه على حسب حكمته وإرادته ، وقوله ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ (النازعات) هم الملائكة يدبرون أمور الخلق بإذن الله وبمقتضى حكمته وإرادته (القاموس القويم ١ / ٢٢١).

والتدبير هو عملية الإدارة لأى شىء ، حتى يؤدى مهمته ، وبالله ، مَنْ يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك.

إياك أن تقول : إننى أنا الذى أدير ذلك .

وتقول : كنت طفلاً فى مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومَنْ الذى يدير حركة رئتيك ؟

إن الذى يديرها هو خالقها ، لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التى لا دَخْل لكم فيها ، لأن الذى خلقها فيكم قيُّوم (١) لا تأخذه سِنَة(٢) ولا نوم ، ولا يؤوده (٣) حفظ ذلك.

إذن : أما كان يجب أن نُرْهِف الآذان ، ونُعْمِل الأبصار ، لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق وسمع وبصر وإحياء وإماتة وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ورزق ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

---

(١) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى : القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم، قال مجاهد : القيوم القائم على كل شىء . وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم . (لسان العرب ـ مادة : قوم).

(٢) قال تعالى : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ (٢٥٥)﴾ (البقرة) أى : لا يأخذه نعاس ولا نوم ، وتأويله أنه سبحانه لا يغفل عن تدبير أمر الخلق تعالى وتقدس . والسنة : نعاس من غير نوم . والسنة : نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم . (لسان العرب ـ مادة : وسن).

(٣) آده الأمر أوْداً وأووداً : بلغ منه المجهود والمشقة. وفى التنزيل العزيز ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا (٢٥٥) ﴾ (البقرة) قال أهل التفسير وأهل اللغة معاً : معناه ولا يكرثه ولا يثقله ولا يشق عليه من آده يؤوده أوْداً . (لسان العرب ـ مادة : أود)

فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتى منها ثمرة ، هى المعلومات وتمحيصها ، فالحق سبحانه يستحق الشكر عليها.

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه بأذنك ، أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك ، هى من نعم الله التى يجب أن نشكره عليها ، لأنها أعطتْنَا العلم الحسى بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

ومن العجيب أن الحق سبحانه رتَّب الحواس حسب ترتيب أداء وظيفتها ، لأن الإنسان منا إذا كان له وليد ، ثم جاء أحد بعد ميلاده ، ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف [1] ، لأن عينه لم تُؤَدِّ بَعْدُ مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت فى أذنه وصرخت انفعل.

إن هذا دليل على أن أذنه أدَّتْ مهمتها من فَوْر ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ، ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية.

وهناك شىء آخر ، وهو أن السمع كما أنه يؤدى أول مهمة ، فهو الإدراك الوحيد فى النفس الإنسانية الذى يصاحب الإنسان فى كل أطواره ، لكن العين إذا نام الإنسان تنام معه وتغمض جفونه ، ولا يرى ، بعكس الأذن التى لا تغفل أبداً.

وذلك لأن الأذن بها الاستدعاء ، وما دام بها الاستدعاء لا بد أن تظل جاهزة لمهمتها.

---

(١) طرف بصره يطرف طرْفاً إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر . والطرف : إصابتك عيناً بثوب أو غيره . يُقال : طُرِفَتْ عينه وأصابتها طرفة ، وطرفها الحزن بالبكاء . (لسان العرب ـ مادة : طرف).

ومن إعجاز البيان فى القرآن أنه حينما ذكر قصة أهل الكهف ، الذين كانوا فى كهف فى الصحراء ، والصحراء فيها أصواتُ وحوش وعواصف ورياح ورَعْد وبرق (١) .

فلو أن سمعهم بقى معهم مثل غيرهم من الخلق لفزعوا فى نومهم ، ولكن الحق سبحانه ضرب (٢) على آذانهم طوال هذه المدة التى مكثوها فى الكهف ، حتى لا يشعروا بما حولهم من أصوات مزعجة.

قال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ (الكهف)

لأنهم ناموا أكثر من ثلاثمائة سنة ، بينما الواحد منا لو زاد فى ساعات نومه، فإن أقلَّ صوت يوقظه ، لأن الجسم يكون قد أخذ حاجته من النوم ، ولم يَعُدْ الإنسان مستغرقاً فى نوم عميق ، فأقل صوت يُوقِظه ، فما بالك بمن ينام ثلاثمائة سنة .

---

(١) الرعد : هو صوت يُحدثه احتراق أجزاء من الهواء بسبب انفجار كهربائى بين السحب المحملة بالتيارات الكهربية ، منها السالب ومنها الموجب ، فيتخلل الهواء ويصطفق بعضه ببعض فجأة، وبمقدار قوة الاحتراق يكون امتداد البرق واشتداد الرعد ، والرعد والبرق متلازمان يحدثان فى لحظة واحدة، ولكننا نرى البرق أولاً بسرعة الضوء ثم نسمع الرعد بسرعة الصوت ، فيتأخر الرعد بمقدار الفرق بين السرعتين وتساعد الرياح التى تحرك مياه السحب على توليد التيارات الكهربية التى تحدث البرق والرعد. قال تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ (الرعد) لأنه دليل على قدرته ومبشر بنعمته فهو يُسبح بلسان الحال. (قاله الأستاذ إبراهيم أحمد عبد الفتاح فى القاموس القويم ١/ ٢٦٨).

(٢) قال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ (الكهف) قال الزجاج : منعناهم السمع أن يسمعوا ، والمعنى : أنمناهم ومنعناهم أن يسمعوا لأن النائم إذا سمع انتبه . أى أنه حُجِب الصوت والحس أن يلجا آذانهم فينتبهوا ، فكأنه قد ضُرِب عليها حجاب . (لسان العرب ـ مادة : ضرب).

لذلك كله ضرب الحق سبحانه على آذانهم فى الكهف طوال هذه السنين حتى لا يسمعوا.

هو سبحانه واهب الولد

« ألم أجعل لك سمعاً وبصراً وولداً »

فالله سبحانه هو الوهَّاب ، مالك السماوات والأرض ، خالق ما يشاء .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا[1] إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الشورى)

الأصل فى الذرية أنها تأتى من اجتماع الذكر والأنثى ، هذا هو القانون ولكن القوانين لا تعمل إلا بأمر الله ، لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتى الذرية لأنه ليس القانون هو الذى يخلق ، ولكنها إرادة خالق القانون : إنْ شاء جعله يعمل ، وإنْ شاء يُبطل عمله .

الله سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين ، ولكنه هو الذى يحكمها.

---

(١) العُقْم : اليُبس ، عقمت المرأة : لم تلد . فهى عقيم . قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الذاريات) ، وعقيم يوصف به المذكر والمؤنث . قال تعالى : ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا... ﴿٥٠﴾ ﴾ (الشورى) أى : لا يلد . وعلى المجاز وُصِفَتْ الريح التى لا خير فيها ، بل هى تهلك وتدمر - بأنها عقيم. قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ (الذاريات) : (القاموس القويم ٣١/٢).

وكما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أن يجعل القوانين تفعل أو لا تفعل ، فهو قادر على أن يخرق القوانين .

خذ مثلاً قصة زكريا ـ عليه السلام ـ فقد كان زكريا يكفل(1) مريم ويأتيها بكل ما تحتاج إليه ، ودخل عليها ليجد عندها ما لم يُحضره لها(2) .

وسألها ، وهى القديسة(3) العابدة الملازمة لمحرابها(4) .

﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴿٣٧﴾ ﴾ (آل عمران)

فبماذا ردَّتْ مريم ـ عليها السلام ؟

---

(1) كفله يكفله كفلاً ، وكفالة : آواه ورعاه وربَّاه . قال ـ تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران) أى : يرعاها ويربيها . والكفيل : الكافل والضامن ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴿٩١﴾ ﴾ (النحل) أى : ضامنًا ورقيبًا وكافلاً يضمن ما تعهدتم به وما حلفتم عليه . (القاموس القويم ٢/ ١٦٧) .

(٢) قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعى والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي والسدى : يعنى وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، قاله ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٦٠) ثم قال : « وفيه دلالة على كرامات الأولياء ، وفى السنة لهذا نظائر كثيرة » .

(٣) التقديس : التطهير والتبريك ، وتقدَّس أى تطهَّر . فالقديسة : التى تطهرت من الإثم ومن الدنس . وقد وصفها الله ـ عز وجل ـ فى قرآنه بأنها صدِّيقة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ (المائدة) ، والصديقة: صفة مبالغة ، أى: أنها كثيرة الصدق عظيمة التصديق .

(٤) المحراب : صدر البيت ، وأكرم موضع فيه ، والجمع : المحاريب ، وهو أيضًا الغرفة . وسُمِّى المحراب محرابًا لانفراد الإمام فيه ، وبُعْده من الناس . (لسان العرب مادة : حرب) بتصرف .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

(آل عمران)

إذن : فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون .

لقد لفتت مريم زكريا ـ عليهما السلام ـ إلى طلاقة القدرة ، فدعا زكريا ربه فى قضية لا تنفع فيها إلا طلاقة القدرة ، فهو رجل عجوز وامرأته عجوز وعاقر ، ويريد ولداً .

هذه قضية ضد قوانين الكون ، لأن الإنجاب لا يتم إلا وقت الشباب ، فإذا كَبِر الرجل وكَبِرتْ المرأة لا ينجبان ، فما بالك إذا كانت الزوجة أساساً عاقراً . لم تنجب ، وهى شابة وزوجها شاب ، فكيف تنجب وهى عجوز وزوجها عجوز ؟

هذه مسألة ضد القوانين التى تحكم البشر ، ولكن الله وحده القادر على أن يأتى بالقانون وضده ؛ ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد .. وكان ، ورُزِق زكريا بابنه يحيى .

فالحق ـ سبحانه ـ هو الذى يحكم السبب ، وهو ـ سبحانه ـ الذى يخلق الأسباب ، ومتى قال: « كن » كان، بصرف النظر عن المادية المألوفة فى الكون .

وفى قضية الخلق أراد الله ـ جلَّ جلاله ـ للعقول أن تفهم أن مشيئته هى السبب ، وهى الفاعلة .

فالحق ـ سبحانه ـ جعل الذكورة والأنوثة هما السبب فى الإنجاب ، ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة[1] على الأسباب ، فيأتى رجل وامرأة يتزوجان ،

---

(١) المهيمن على الشيء : الرقيب عليه . هيمن عليه هيمنة : كان رقيبًا عليه، حافظًا له مسيطراً =

ولكنهما لا ينجبان ، فكأن الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئًا إلا بإرادة المسبِّب ـ سبحانه .

إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلق دون ذكورة أو أنوثة ، كخَلْقه لآدم ـ عليه السلام ـ ويخلق الحق ـ سبحانه ـ بواحد منهما ، كخَلْقه ـ سبحانه ـ لحواء، وخلق عيسى ـ عليه السلام ـ ويخلق الخالق الأعلى بالذكورة والأنوثة ، وهذه تنضم فى خَلْق جمهرة الناس .

وقد تجتمع الذكورة والأنوثة ، ولا يوجد إنجاب .

هذه هى إرادة الحق، فلا تَقُلْ : إن اكتمال عنصرى الذكورة والأنوثة هو الذى يحدث الخلق ؛ لأن الخلْق يحدث بإرادة الحق .

إننا كثيرًا ما نجد رجلاً يتزوج امرأة ولا تلد ، ويُشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب الاثنان إلى معامل التحاليل ، ويقال أحيانًا : المرأة هى السبب فى عدم النسل ، أو : الرجل هو السبب فى عدم النسل .

ويفترق الاثنان، ويتزوج كل منهما بآخر ، فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويُولد للرجل من الزوجة الجديدة ؛ لأن المسألة كلها مردات الله ، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تُفرض على الله ، بل هو المسبِّب دائمًا .

فهو ـ سبحانه ـ القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن

= عليه . قال تعالى : ﴿ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ (٢٣) ﴾ (الحشر) أى : الرقيب المسيطر ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة : أى رقيب عليها وحافظ لما فيها من الحق ومسيطر عليها يبين ما فيها من الحق وما أدخله الناس عليها من الباطل .

يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ (الشورى)

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف ؟

ـ يهب لمن يشاء إناثًا .

ـ ويهب لمن يشاء الذكور .

ـ أو يُزوِّجهم ذكرانًا وإناثًا .

ـ ويجعل من يشاء عقيمًا .

هى أربعة مقادير تجرى على الرجل والمرأة ، وعندما يَهَبُ اللهُ المؤمن الإناث يكون سعيدًا ، وكذلك عندما يهبه الذكور .

وعندما يهَبُ الله لأسرة أبناء من الذكور فقط ، فالزوجة تحِنُّ أن يكون لها ابنة ، وإن وهب الحق ـ سبحانه ـ لأسرة ذرية من الإناث فقط ، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن .

وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التى تَقَرُّ[1] بها العيون عادة ، وهى الحالة التى يكون العطاء فيها فى القمة .

---

(١) قرَّت عينها : رأت ما كانت متشوقة إليه فقرَّتْ ونامت . وقيل : أقرَّ الله عينك ، أى : بلَّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك ، وتسكن عينك ، فلا تستشرف إلى غيره . (لسان العرب ـ مادة قرر) ومنه قوله ـ تعالى ـ عن أم موسى ـ عليه السلام : ﴿ **فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤٠﴾** ﴾ (طه) ، وقوله ـ تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ... ﴿٩﴾** ﴾ (القصص) .

وأخيرًا يأتي بالقَدَر الرابع الذى يُجريه على بعض خَلْقه ، وهو :

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ... ۝٥٠ ﴾ (الشورى)

لماذا يُسَرُّ الإنسان بقدر الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه ـ سبحانه ـ الذكور والإناث ؟

ولماذا لا تُسَرُّ إذن ـ أيها الإنسان ـ بقدر الله حينما يجعلك عقيمًا ؟!

أتعتقد أنك تأخذ القدَر الذى تهواه ، وترد القدر الذى ليس على هواك ؟

إن المواقف الأربعة هى من قدر الله .

والحق ـ سبحانه ـ يعطينا مثالاً من قصة زكريا ـ عليه السلام ـ على رغبة الإنسان فى أن يكون له ولد .

لقد أخبرته مريم ـ عليها السلام ـ أن الرزق الذى عندها هو من عند الله ، الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله القادر على أن يقول : كُنْ . فيكون .

هنا ذكر زكريا نفسه ، وكأن نفسه قد حدثته :

إذا كانت للقدرة طلاقة فى أن تفعل بلا أسباب ، وتعطى من غير حساب ، فأنا أريد ولدًا يخلفنى ، رغم أننى على كبر، ورغم بلوغى من السن عتيّا[1] ، وامرأتى عاقر .

---

(١) وذلك في قول زكريا ـ عليه السلام ـ بعد أن أتته البشرى بغلام اسمه يحيى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ ﴾ (مريم) ، ومعنى عتا : أى أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته .

إن مسألة الرزق الذى وجده زكريا كلما دخل على مريم هى التى نبَّهتْ زكريا إلى ما يتمنى ويرغب .

ونحن نعلم أن المعلومات التى تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة ، ولكن لا يستقر فى بؤرة الشعور إلا الذى يصر عليه الإنسان .

وهناك فرْق بين معلومات توجد فى بؤرة الشعور ، ومعلومات فى حاشية الشعور، يتم استدعاؤها عند اللزوم .

فلما وجد زكريا الرزق(١) المنوَّع عند مريم وقالت له عن مصدره(٢) :

---

(١) أورد السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ١٨٦) عن مجاهد أن هذا الرزق كان عنبًا فى غير زمانه . وفى رواية كان فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف . وفى رواية عن ابن عباس أنها كانت الفاكهة الغضة حين لا توجد الفاكهة عند أحد .

(٢) عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ أقام أيامًا لم يُطعم طعامًا حتى شق ذلك عليه ، فطاف فى منازل أزواجه، فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا ، فأتى فاطمة فقال : يا بنية، هل عندك شىء آكله فإنى جائع ؟ . فقالت : لا والله . فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعته فى جفنة لها وقالت : والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسى ومن عندى ، وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسنًا أو حسينًا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت له : بأبى أنت وأمى، قد أتى الله بشىء قد خبأته لك . فقال ﷺ : هلمى يا بنية بالجفنة . فكشفت عن الجفنة فإذا هى مملوءة خبزًا ولحمًا فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله . فحمدت الله ـ تعالى ـ وقدمته إلى النبى ﷺ ، فلما رآه حمد الله وقال : من أين لك هذا يا بنية ؟ قالت : يا أبت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد الله ثم قال : الحمد لله الذى جعلك شبيهة سيدة نساء بنى إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله رزقًا فسُئلت عنه: ﴿ قالت **هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** (٣٧) ﴾ (آل عمران) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٦٠) ، والسيوطى فى الدر المنثور (٣/ ١٨٦) وعزواه لأبى يعلى الموصلى عن جابر ، وفيه ابن لهيعة .

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (آل عمران)

هنا[1] تساءل زكريا : كيف فَاتَنى هذا الأمر ؟

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن زكريا :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً[2] طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (آل عمران)

إنها ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وأنه الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا[3] .

---

(١) أخرج ابن جرير الطبرى عن ابن عباس قال : لما رأى زكريا فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف عند مريم قال : إن الذى يأتى بهذا مريم فى غير زمانه قادر أن يرزقنى ولدًا، فذلك حين دعا ربه . أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٣/ ١٨٧) .

(٢) ذَرَّ الله الخلق فى الأرض : نشرهم ، وذرية الرجل : ولده . والجمع الذرارى والذريات . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر أو أنثى . (لسان العرب ـ مادة : ذرر) .

(٣) أخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن الحسن قال : لما وجد زكريا عند مريم ثمر الشتاء فى الصيف وثمر الصيف فى الشتاء يأتيها به جبريل قال لها : أنى لك هذا فى غير حينه ؟ فقالت: هذا رزق من عند الله يأتى به الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (آل عمران) فطمع زكريا فى الولد فقال : إن الذى أتى مريم بهذه الفاكهة فى غير حينها لقادر أن يصلح لى زوجتى، ويهب لى منها ولدًا ، فعند ذلك ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ (آل عمران) وذلك لثلاث ليال بقين من المحرم. قام زكريا فاغتسل ثم ابتهل فى الدعاء إلى الله قال : يا رازق مريم ثمار الصيف فى الشتاء ، وثمار الشتاء فى الصيف، هب لى من لدنك ـ يعنى من عندك ـ ذرية طيبة يعنى تقيًا . (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٣/ ١٨٧) .

وما دام قد قال هذا القول فلابُدَّ أنه قد صدَّق مريم فى قضيتها ، بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله .

ودليل آخر فى التصديق ، هو أنه لا بد ، قد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التى توجد عند مريم ، ليست فى بيئتها ، أو ليست فى أوانها ، وكل ذلك فى المحراب .

هنا دعا زكريا ربه أثناء وجوده فى المحراب :

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً[1] إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)﴾(آل عمران)

إنه هنا يطلب الولد ، ولكن لا بُدَّ لنا أن نلاحظ ما يلى :

ـ هل كان طلبه للولد كما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة الدنيا ، أو « عزوة »[2] ، أو ذِكْرًا ؟

---

(١) الطيب : خلاف الخبيث . أرض طيبة للتى تصلح للنبات ، وريح طيبة إذا كانت لينة، ليست بشديدة وطُعْمة طيبة: إذا كانت حلالاً ، وامرأة طيبة: إذا كانت حَصَانًا عفيفة ، وكلمة طيبة : إذا لم يكن فيها مكروه ، وبلدة طيبة: أى آمنة كثيرة الخير ، ونكهة طيبة، إذا لم يكن فيها نتن ، ونفس طيبة بما قُدِّر لها: أى راضية ، وطعام طيب للذى يستلذ الآكل طعمه . (لسان العرب مادة طيب) .

(٢) العزوة : الانتماء إلى قوم أو عشيرة . والعزوة : اسم لدعوى المستغيث ، وهو أن يقول : يا لفلان، أو يا للأنصار ، أو يا للمهاجرين . (لسان العرب ـ مادة عزو) .

لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذِكْـر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة .

وأورد الحق ـ سبحانه ـ قول زكريا :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ[1] الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ[2] الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ[3] مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ (مريم)

---

(١) الوهن : الضعف فى العمل والأمر، قال تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴿٤﴾ ﴾ (مريم) أى: ضعف ، كناية عن العجز وكبر السن ، وإظهار الشكوى من الضعف للاسترحام.

(٢) اشتعل الرأس شيبًا : أى كثُر شيب رأسه ، ودخل فى قوله الرأس شعر الرأس واللحية، لأنه كله من الرأس (لسان العرب ـ مادة شعل) وشعل النار : أشعلها وألهبها . واشتعلت النار : انتشر لهبها . قال تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴿٤﴾ ﴾ (مريم) استعارة مكنية ، والمعنى : انتشر فيه الشيب كالنار فى الحطب . (القاموس القويم ١/ ٣٥٠) .

(٣) الموالى : ورثة الرجل وبنو عمه . قال أبو الهيثم : المولى على ستة أوجه :

ـ المولى : ابن العم والعم والأخ والابن والعصبات كلهم .

ـ المولى : الناصر .

ـ المولى : الولى الذى يلى عليك أمرك .

ـ الولى : مولى الموالاة ، وهو الذى يُسلم على يدك ويواليك .

ـ المولى : مولى النعمة ، وهو المعتق أنعم على عبده بعتقه .

ـ المولى : المعْتق لأنه ينزل منزلة ابن العم يجب عليه أن تنصره وترثه إن مات ولا وارث له . (لسان العرب ـ مادة : ولى) .

أي : أن يكون دعاء لإرث النبوة ، وإرث المنهـج ، وإرث القيم ، لهذا طلب زكريا الولد ، لقد طلبه لمهام كبيرة .

لقـد طلب زكـريـا ـ عليـه السـلام ـ وليًـا يرثه ، والأنبـيـاء لا تُورث منهم أموال[1]، إنما يُورِّثون العلم والحكمة .

إذن : فقد طلب زكريا ـ عليـه السلام ـ أن يرث ابنه الحكمة منه ، ويرث من آل يعقوب ، وأن يجعله الله رضيًا[2] .

فلو كان الأنبـياء يُورِّثون المال ، لكان البـعض قد فهم أن طـلـب زكريا للابن كى يرثه فى المـال ، لكن الحق ـ سبـحـانه ـ أراد لأنبـيـائـه ألاّ يُورِّثوا المال ، بل يُورِّثون العلم بمنهج الله ، وقد طلب زكريا الابن لتثبيت منهج الله فى الأرض .

---

(١) أخرج البخـارى فى صحيحه (٣٠٩٤) وكـذا مسلم فى صحيـحه (١٧٥٧) من حديث أبى بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورث ، ما تركناه صدقة » .

(٢) قال ـ تعـالى ـ عن زكريا ـ عليـه السلام ـ أنه دعا فـقال : ﴿ ... فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ (مريم) وقد أورد السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٤٨١) أن ابن أبى حاتم أخرج عن محمد بن كعب القرظى قال : قال داود ـ عليه السلام ـ « يا رب هب لى ابنًا » فولد له ابن خرج عليـه ، فبعث إليه داود جيشًـا فقال : « إن أخذتموه سليمًا فابعثوا إلىّ رجلاً أعرف السرور فى وجهـه ، وإن قتلتموه فابعثوا إلىّ رجلاً أعرف الشر فى وجهـه » فقتلوه فبـعثوا إليـه رجلاً أسود ، فلمـا رآه عرف أنه قتل ، فقـال : ربِّ سألت أن تهب لى ابنًا ، فخـرج علىّ ؟ فـقال : إنك لم تستثن . قال محـمد بن كعب: لم يقل كـما قال زكريا ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ (مريم) .

لقد أراد الله للأتقياء والأنبياء أن يكون لهم من الذرية أبناء ، ليرثوا المنهج السلوكى ، ويكونوا مُثُلاً طيبة للناس يقتدون بهم .

إذن : فالمؤمن يجب أن تكون ذريته قدوة سلوكية .

***

نعمة التسخير :

« وسخرت لك الأنعام والحرث »

فخَلْق الأنعام فى ذاته نعمة ، وتمليكها لنا من الله نعمة أخرى ؛ لأن فى الكون مخلوقات كثيرة لا نستطيع أن نملكها لأنها متوحشة ، لكن هذه الأنعام مستأنسة ومسالمة ومُسخَّرة .

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا[1] لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ[2] وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٨٠) : « أى جعلهم يقهرونها وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير » .

(٢) الرَّكوب (بفتح الراء) : ما يُركَبُ . وقال الفراء : اجتمع القراء على فتح الراء ، لأن المعنى: فمنها يركبون. قال الأصمعى : الرَّكوبة : ما يركبون . والرَّكوب ، والرَّكوبة من الإبل : التى تُركب ، وقيل : الرَّكوب كل دابة تُركب . (لسان العرب ـ مادة ركب) .

أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ (يس)

والأنعام هى النعمة البارزة فى أشياء متعددة ؛ لأننا نأخذ منها أشياء كثيرة لحياتنا ، فنشرب لبنها ، ونأكل لحمها ، ونستفيد بصوفها وجلودها ، كما تحمل أثقالنا[1] من مكان إلى مكان .

والتسخير معناه التذليل ، ولا تتمرد ظواهر الكون على الإنسان ، وإذا كانت هناك ظواهر فى الكون تتمرد بقدر الله ، مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية .

نقول : إن ذلك يحدث ليلفتنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أن كل ما فى الكون لا يخدمنا بذاته ، ولا بسيطرتنا عليه ، وإنما يخدمنا بأمر الله له ، وإلا لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك ، فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك .

وكل ما فى الكون خاضع لطلاقة قدرة الله ، حتى الأسباب والمسببات خاضعة لطلاقة القدرة الإلهية ، فالأسباب والمسبّبات فى الكون لا تخرج عن إرادة الله .

---

(١) الأثقال : الأحمال . جمع حِمْل ، وقد قال ـ تعالى ـ عن الأنعام : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (النحل) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٢/ ٥٦٢) : « هى الأحمال الثقيلة التى تعجزون عن نقلها وحملها ، وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها فى أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل » .

لذلك إذا تمرَّد الماء بالطوفان ، وتمردت الرياح بالعاصفة ، وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين ، فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أن يسيطر على الكون الذى يعيش فيه .

واقرأ قوله ـ سبحانه :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (يس)

فالإنسان عاجز عن أن يُخضِع حيواناً إلا بتذليل الله له ، ومن العجيب أنك ترى الحيوانات تدرك ما لا يدركه الإنسان فى الكون ، فهى تحس بالزلزال قبل أن يقع، وتخرج من مكان الزلزال هاربة ، بينما الإنسان لا يستطيع بعقله أن يفهم ما سيحدث .

وعملية التذليل مهمة جدًا ؛ لأن أشياء كثيرة خلقها الله ، وقد تملكها ، لكنها غير مذللة لك فتتعبك .

ولنضرب لهذا مثل الجمل والثعبان ، فالجمل الضخم القوى يمكن أن يقوده طفل صغير ، وهو يحمل الأحمال ، ويسير خلفه طائعًا .

لكن الثعبان لو ظهر يفزع كل الموجودين ، حتى لو كان الثعبان صغيراً ، وذلك لأنه غير مُذلّل للإنسان .

كذلك البرغوث الضعيف لو وُجِد فى فراشك يحرمك من النوم ، مع أنه ضعيف حقير ، وأنت قوى لأنه غير مُذلَّل لك .

إذن : خَلْق الأنعام ليس هو النعمة ، ولكن فيها خلق ومِلْك وتذليل ، فالله خلقها ومَلَّكها لنا ، وذلَّلها لخدمتنا ومنفعتنا .

ولولا هذا التذليل ما استطعنا أن نستفيد منها .

ولذلك حينما تحدَّث الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن دواب الركوب من الخيل والبغال[1] والحمير ذكر مهمتها الأساسية فى الركوب ونقل الأثقال .

ثم أضاف إلى ذلك أن فى هذه الدواب جمالاً يسُرُّ الناظرين ممَّن لا يملكون هذه النعم .

قال تعالى :

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ[2] وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ (النحل)

فهو ـ سبحانه ـ لا يعطينا ضروريات الحياة فقط ، ولكن أيضًا يعطينا الكماليات .

---

(١) البغال : جمع بغل ، وهو ابن الفرس من الحمار ، وهو لا يلد ، فالشأن فى البغل العقم ، قال تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۝٨ ﴾ (النحل) ، وذكرها القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولُّدها منهما . (القاموس القويم ١/ ٧٦) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٧٩٥) : « وذلك فى المواشى حين تروح إلى المراعى وتسرح عليه . والرواح : رجوعها بالعشى من المرعى ، والسراح بالغداة » .

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا[1] .. (١٤٢) ﴾ (الأنعام)

فبعد أن تكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن نعمه علينا فى الزراعة ، ونعمه علينا فى الماشية قال :

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ .. (١٤٢) ﴾ (الأنعام) .

وهى الإبل والبقر والغنم (حمولة) والحَمُولة هى التى تحمل ، فيقال : « فلان حَمُول » أى : يتحمل كثيرًا .

والذى تحمله فوق ظهرها يسمى « حمُولة » .

والإبل نحمل عليها الرِّحال وكل متطلباتنا .

وفى الحديث عن الأنعام ، جاء بالحمولة والفَرْش ، ويأتى أيضًا بحديث عن الرزق والطعام ؛ لأننا نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهى تحملنا ، ونأخذ من أصوافها وأوبارها[2] وشعورها الفرش ، والوبر هو شعر الجمال ، والصوف هو شعر الغنم :

---

(١) قال ابن عباس : الحمُولة كل ما حمل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، والفرش : الغنم . وقال ابن زيد : الحمولة : ما يُركب ، والفرش : ما يؤكل لحمه ويُحلب مثل الغنم والفصلان والعجاجيل ، سميت فرشًا للطافة أجسامها وقربها من الفرش ، وهى الأرض المستوية التى يتوطأها الناس . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيهما أن الحمولة المسخرة المذللة للحمل . والفرش : ما خلقه الله من الجلود والصوف مما يجلس عليه ويتمهد . (نقل القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره ٣/ ٢٦٣٢) .

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) ﴾ (النحل) والأوبار : جمع وبر ، وهو صوف الإبل والأرانب ونحوها وكذلك وبر الثعالب . والأثاث : أنواع المتاع من متاع البيت ونحوه .

« وسخرت لك الأنعام والحرث »

حين تسمع كلمة « الحرث » فافهم أن المراد بها هنا الزرع ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد منك أن تعلم أن الله حين ينبت لك الأشياء بدون معالجتك ، فإنه يريد منك أيضًا أن تستنبت أشياء بمعالجتك ، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث .

والحَرْثُ هو إهاجة الأرض ، فالتربة تكون جامدة ، فلابُدَّ أن يُهيجها الإنسان بالحرث ، أي : أن تَفُكَّ يبوستها[1] وتلاصق ذراتها ، لأن تلاصق ذرات التربة لا يصلح أن يكون بيئة للنبات ؛ لأن النبات يحتاج إلى الماء ، ويحتاج إلى الهواء ، ويحتاج من الإنسان أن يُمهِّد للشعيرات البسيطة أن تخرج ، وتجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن تقوى .

إذن : فالحرث يثير الأرض ، ويجعلها لينة متفتتة حتى تستطيع البذرة أن تنمو ؛ لأن الله قد أودع فى فلقتى كل بذرة مقومات الحياة إلى أن يوجد لها جذر يأخذ مقومات الحياة من الأرض ، وكلما قوى الجذر فى النبات فإن الفلقتين تضمحلان وتصيران مجرد ورقتين ، فأين ذهب حجم الفلقتين ؟

لقد قامت الفلْقتان بتغذية النبتة إلى أن استطاعت النبتة أن تتغذى بنفسها من الأرض ، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض محروثة .

---

(١) يبست الأرض : ذهب ماؤها ونداها ، وأرض يَبَسٌ : صلبة شديدة . واليَبَس : المكان يكون رطبًا ثم ييبس ، ومنه قوله ـ تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (طه) . أى : طريقًا جافًا صُلبًا بعد رطوبته . (لسان العرب ـ مادة : يبس) .

لذلك يقولون : إن الأرض الطينية السوداء تكون صعبة وغير خصبة .

ويُقال : إن الأرض الرملية أيضًا غير خصبة ، لماذا ؟

لأننا نريد صفتين اثنتين فى الأرض :

الصفة الأولى : أن تكون الأرض صالحة أن يتخللها الماء ليشرب الزرع.

والصفة الأخرى : ألا تُسرب الماء بعيدًا .

فإذا كانت الأرض طينية فإن جذور الزرع تختنق وتتعطن[1]، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب بعيدًا .

لذلك نحتاج فى الزراعة إلى أرض بين سوداء ورملية ، أى : أرض صفراء.

والحق ـ سبحانه ـ يتكلم عن الزرع فإنه يقول « الحرث » ، وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد أن يأخذ زرعًا لابد أن يجدَّ ويحرث الأرض .

وهو ـ سبحانه ـ القائل :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾

(الواقعة)

فصحيح أن الإنسان يقوم بحرث الأرض ورمى البذرة ، وربما تعهد الزرع بالعناية والرى ، ولكن ليس فى كل ما يفعله مهمة خَلْق ، بل إن الله ـ سبحانه

(١) العطن : الفساد وإنتان الرائحة ، ورجل عطِن : مُنتن البشرة ، ويقال : إنما هو عطينة إذا ذُمَّ فى أمر . أى : منتن كالإهاب المعطون .

وتعالى ـ هو خالق كل شىء ، ولو كنت تزرع بقدرتك فأْتِ ببذرة من غير خلق الله ، وأرض لم يخلقها الله ، وماء لم يُنزِله الله من السماء .

فعملك أيها الإنسان أن تهيج الأرض وتثيرها . وتأتى بالبذر الذى خلقه الله فى الأرض التى خلقها الله ، وتسقيها بالماء الذى خلقه الله ، وتكبر فى الهواء الذى خلقه الله .

ثم يقول رب العزة فى الحديث القدسى الذى نحن بصدده :

« **وتركتُك ترْأَسُ[1] وتَرْبَعَ[2]** »

إن الله ـ سبحانه ـ هو الذى يعطى الملْك ، فلو دقَّق كل منَّا النظر إلى مُجْريات الأمور ، لوجد أن الله هو الذى يُؤتى ، والله هو الذى ينزع ، والله هو الذى يُعِزّ ، والله هو الذى يُذِلّ .

إن إيتاء الملْك عملية تحتاج إلى تحضير بشرى وبأسباب بشرية ، وأحيانًا يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية أو السياسية .

وكذلك نَزْعُ الملْك يحتاج إلى نفس الجَهْد .

---

(١) رأس القوم يرأسهم ، وهو رئيسهم . والرئيس : سيد القوم . ورأس كل شىء : أعلاه . (لسان العرب ـ مادة : رأس) .

(٢) ربعهم يربعهم ربعًا : أخذ رُبع أموالهم . وربعهم : أخذ ربع الغنيمة ، فمعنى تربع فى الحديث : ألم أجعلك رئيسًا مطاعًا ؟ (لسان العرب ـ مادة : ربع) .

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يوضح لنا أن هذا ليس أمراً صعباً على قدرته اللانهائية ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يتناول الأفعال بعلاج أو بعمل ، إنما هو سبحانه يقول « كُنْ » فتنفعل الأشياء لإرادته .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ (١) :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾

(آل عمران)

فإياك أيها المؤمن ـ أن تظن أن أحداً قد أخذ الملك غَصْباً من الله ، إنما المُلْك يريده الله لمن يُؤدِّب به العباد ، وإن ظلم الملِك فى التأديب فإن الله يبعث له منْ يظلمه .

---

(١) من بركات هذه الآية الكريمة مما أرشد إليه رسول الله ﷺ ، ما رواه الطبرانى عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ افتقده يوم الجمعة ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى معاذاً فقال : «يا معاذ ما لى لم أرك ؟ » فقال : ليهودى علىَّ وقية من تبر ، فخرجت إليه فحبسنى عنك ، فقال ﷺ : « ألا أعلمك دعاء تدعو به فلو كان عليك من الدين مثل صبير أداه الله عنك ، فادع الله يا معاذ : **﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾** (آل عمران) ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطيهما من تشاء ، وتمنع منهما منْ تشاء، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك » أورده السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٢/ ١٧٢) .

فلا يظن أحد أن هناك إنسانًا قد ملك شيئًا ، أو جاهًا فى هذه الدنيا بغير مراد الله فيه ، فكل إنسان يملك بما يريده الله له من رسالة ، فإذا انحرف العباد فلا بد أو يُولِّى الله عليهم مَلِكًا ظالمًا ، لماذا ؟

لأن الأخيار قد لا يُحسنون تربية الناس ، فإن رأيتَ واحدًا قد أخذ المُلك وهو ظالم ، فاعلم أن الله قد جاء به ليُربِّى به المملوكين ، وسبحانه لا يربى الأشرار بالأخيار ، لأن الأخيار لا يعرفون كيف يُربُّون ، وقلوبهم تمتلئ بالرحمة[1] .

ولذلك يُعلِّمنا الحق ـ سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي[2] بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾

(الأنعام)

---

(١) فالله ـ سبحانه ـ يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرأفة والرقة والعفو والصفح ، ولذلك عند تطبيق حد الزنا مثلاً قال ـ سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ (النور) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٢/ ١٧٧) : « نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم » .

وقد أورد السيوطى آثاراً فى تفسير هذه الآية منها :

ـ قال الأعمش : إذا فسد الناس أُمِّر عليهم شرارهم ، عزاه لأبى الشيخ .

ـ قال كعب الأحبار : إن لكل زمان ملكًا يبعثه الله على نحو قلوب أهله ، فإذا أراد صلاحهم بعث عليهم مصلحًا ، وإذا أراد هلكتهم بعث عليهم مترفهم . عزاه للبيهقى . =

والخيِّر لا يدخل المعركة ، بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجرى كل شىء بعلم الله ؛ لأنه ـ سبحانه ـ له مُلْك السماوات والأرض ، وهو الذى يُحيى ويُميت ، فإياك أن تُفتن فى غير خالقك أبدًا ؛ لأن الخَلْق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمى نفسه من أغيار الله فى كونه ؛ ولذلك فليأخذ المؤمنُ الله وليًا له ونصيرًا .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ (البقرة)

أى : إياكم أن تُغضبوا ربكم فى أىِّ عمل من هذه الأعمال ، وكُنْ أيها المسلم فى هذه التقوى على يقين من أنك ملاقى الله ، ولا تشك فى هذا اللقاء أبدًا ، وما دُمْتَ ستتقى الله ، وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تُبشَّر بالجنة .

والحق ـ سبحانه ـ حينما تحدث عن الصبر والصلاة قال :

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) ﴾ (البقرة)

فَمَنْ خشع بقلبه لله فهو يُقبل على الصلاة بحب وإيمان ورغبة ، وهؤلاء هم الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم .

= ـ قال الحسن : إن الله قال لموسى : يا موسى أنبئهم أن رضاى عنهم أن أستعمل عليهم خيارهم ، وأن سخطى عليهم أن أستعمل عليهم شرارهم . عزاه للبيهقى .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لم يقُلْ : الذين تيقَّنوا أنهم مُلاَقُو ربهم . لماذا لم يستخدم الحق ـ تعالى ـ لفظ اليقين ، وأبدله بالظن ؟

لأن مجرد الظن أنك مُلاق الله ـ سبحانه وتعالى ـ كافٍ أن يجعلك تلتزم بالمنهج ، فما بالك إذا كنت مُتيقِّنًا ، فمجرد الظن يكفى لتقى نفسك من عذاب عظيم .

ويقول المعرى[1] فى آخر حياته :

زَعَم المنجِّمُ والطَّبِيبُ كِلاَهُما   لا تُحْشَرُ الأجسادُ قُلْتُ إليكُما
إنْ صَحَّ قَوْلُكُما فَلسْتُ بخاسرٍ   أو صَحَّ قَوْلى فَالخَسَارُ عَليكُما

فكل مُكذبٍ بالآخرة خاسر ، والنفس البشرية لا بُد أن تحتاط للقاء الله ، وأن تعترف أن هناك حَشْرًا ، وتعمل لذلك .

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (البقرة)

والرجوع إلى الله ـ سبحانه ـ أمر يقينى ، فما دُمْتَ قد جئت إلى الدنيا قد

---

(١) هو : أبو العلاء أحمد بن عبد الله ، شاعر فيلسوف ، ولد فى معرة النعمان عام ٣٦٣ هـ ، كان نحيف الجسم ، عَمِىَ فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة، كان يحرم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة ، توفى عام ٤٤٩ هـ. راجع ترجمته فى كتاب (الأعلام لخير الدين الزركلى ١/ ١٥٧) .

خلقك الله ، فأنت - لا محالة - سترجع إليه ، وهذا اليوم يجب أن نحتاط له حَيْطة كبرى ، وأن نترقبه ، لأنه يوم عظيم .

والحق - سبحانه - يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ(١) السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ(٢) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ(٣) وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ (الحج)

ويقول - جل جلاله :

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ ﴾ (المزمل)

إذا كان هذا حالنا يوم القيامة(٤) ، فكيف لا يكفى مجرد الظن لأن نتمسك

---

(١) الزلزلة والزَّلزال : تحريك الشيء . قال أبو اسحق فى قوله - عز وجل : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾ (الزلزلة) ؛ والمعنى : إذا حُرِّكت حركة شديدة ، والزلازل أيضًا : الشدائد والأهوال . وفى الحديث : اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم ، كناية عن التخويف والتحذير ، أي : اجعل أمرهم مضطرِّبًا متقلقلاً ؛ غير ثابت . (لسان العرب - مادة " زلل) .

(٢) الذَّهْل : تركك الشيء تناساه على عمد أو يشغلك عنه شُغْل. (لسان العرب - مادة :ذهل) .

(٣) أي : سكارى من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع ، وقال أهل المعانى : وترى الناس كأنهم سكارى . (تفسير القرطبى ٦/ ٤٥٣٧) .

(٤) عن أبى سعيد الخدرى قال . قال النبى ﷺ : « يقول الله يوم القيامة : يا آدم - ابعث بعث النار . فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون . فعند ذلك يشيب الوليد ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ (الحج) قال : فشق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله =

بمنهج الله ، ونحن نحتاط لأحداث دنيوية لا تساوى شيئًا بالنسبة لأهوال يوم القيامة .

إن الظن هنا بأننا سنلاقى الله ـ تعالى ـ يكفى لأن نعمل له ألف حساب .

والحق ـ سبحانه ـ يقول عن خسارة الذين لا يؤمنون بلقاء الله :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا[1] فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ[2] عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الأنعام)

قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر ، والعاقل لا يحب الخسارة ؛ لذلك نجده يوازن دائمًا ، ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذى سيأتى إليه.

أما الذين كفروا بلقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين : حياة مظنونة ، وحياة متيقنة ؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة .

= من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ويبقى الواحد ! فأينا ذلك الواحد ؟ فقال : من يأجوج ومأجوج ألف . ومنكم واحد ، وهل أنتم فى الأمم إلا كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض ؟ أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٣٠) ومسلم فى صحيحه (٢٢٢) كتاب الإيمان .

(١) فرطنا : معناه ضيَّعنا ، وأصله التقدم ، يُقَال : فرط فلان أى : تقدم وسبق إلى الماء ، ومنه الفارط أى : المتقدم للماء ، وقيل « فرطنا » أى : جعلنا غيرنا الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلفنا . (تفسير القرطبى ٣/ ٢٤٩٨) .

(٢) الأوزار : الذنوب ، جمع وزر . قال أبو عبيد : ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع احمل وزرك ، أى : ثقلك ، ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية ، والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها . (تفسير القرطبى ٣/ ٢٤٩٨) .

إننا لا نعرف كم سنحيا فيها ، فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عامًا على سبيل المثال ، ولكن أحدًا لا يعرف كم عمره فى الدنيا بالضبط ، وله أجل محدود ، إنه فانٍ وذاهب وميت .

لكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها ، إنها دائمة ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدْر الأسباب الموجودة لديه .

أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبِّب ـ سبحانه ـ وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة ، وفادحة ، ودامية ؛ لأنهم لم يتاجروا مع الله .

والذين كفروا ، كان كفرهم وتكذيبهم مُوصِّلاً إلى الخسران ، فمجىء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف ، ولكنه وصولٍ إلى أول الخسران ؛ لأن خسرانهم لا ينتهى من فور مجىء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم.

فهم يُفاجأون بوقوع ما كانوا يُكذِّبون به ، ويعلمون جيدًا أن ما صنعوه فى الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

وأيضًا فإن من عمل أعمالاً نافعة وليس فى باله الله ، فالله ـ سبحانه ـ لا يمنعه ثواب ما عمل ، بل يعطيه فى الدنيا ، لأنه لا يؤمن بالآخرة .

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ[2] الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(النور)

فالذين كانوا يؤمنون به ـ سبحانه ـ يطمئنون على أن جزاءه قد جاء، والذين لم يكونوا يؤمنون به يُفاجأون بوجوده ـ سبحانه ـ وبالجزاء والحساب ، فَفُوجئوا بأمر لم يكن فى بالهم ، ولم يعملوا له أى حساب .

فالكافر يُفاجأ بوجود الله ـ سبحانه ـ لأن هذا شىء لم يكن فى حُسبانه .

---

(١) القيعة : جمع قاع . والقاع : ما انبسط من الأرض واتسع ، ولم يكن فيه بنت ، وفيه يكون السراب . وأصل القاع : الموضع المنخفض الذى يستقر فيه الماء . (تفسير القرطبى ٦/ ٤٨١٩) .

(٢) ورد وصف الله تعالى بأنه سريع الحساب فى عشر آيات :
(البقرة : ٢٠٢) ، (آل عمران : ١٩ ، ١٩٩) ، (المائدة : ٤) ، (الأنعام : ١٦٥) ، (الأعراف : ١٦٧) ، (الرعد : ٤١) ، (إبراهيم : ٥١) ، (النور : ٣٩) ، (غافر : ١٧) .
قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٩١٤ , ٩١٥) : « المعنى فى الآية أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سريع الحساب ، لا يحتاج إلى عَد ، ولا إلى عقد ، ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحُسَّاب، فالله عز وجل عالم بما للعباد وما عليهم ، فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل ، إذ قد علم للمُحاسب وعليه ؛ لأن الفائدة فى الحساب علم حقيقته .
وقيل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم .
وقيل : المعنى : لا يشغله شأن عن شأن ، فيحاسبهم فى حالة واحدة ، كما قال ـ وقوله الحق:
﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ (لقمان) .
قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر . =

والحق ـ سبحانه ـ يقول عن الكافرين :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا(١) عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأعراف)

ويقول فى آية أخرى عن المنافقين :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ(٢) أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (التوبة)

= وقيل : هو أنه إذا حاسب واحدًا فقد حاسب جميع الخلق ، وقيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله العباد فى يوم ؟ قال : كما يرزقهم فى يوم .ومعنى الحساب ؛ تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم ، وتذكيره إياهم بما قد نسوه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴿٦﴾ ﴾ (المجادلة) .

وقيل : معنى الآية : سريع بمجىء يوم الحساب ، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة .

قلت : والكل محتمل ، فليأخذ العبد لنفسه فى تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة ، وإنما يخفُّ الحساب فى الآخرة على من حاسب نفسه فى الدنيا » أ . هـ .

(١) الإفاضة : التوسعة ، يقال : أفاض عليه نعمه ، قال القرطبى فى تفسيره (٣/ ٢٧٣٢) : «تبين الآية أن ابن آدم لا يستغنى عن الطعام والشراب وإن كان فى العذاب » .

(٢) قبض الطائرجناحه : جمعه . وتقبضت الجلدة فى النار : انزوت ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ (التوبة) ، أى : عن النفقة . وقيل : لا يؤتون الزكاة . (لسان =

وعن هؤلاء وأولئك يقول ـ تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ (ص)

لذلك يُوجِّه الحق ـ سبحانه ـ نداءه لعباده المؤمنين ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) ﴾ (الحشر)

***

= العرب ـ مادة : قبض) ، وفى تفسير القرطبى (٤/ ٣١٢٤) « قبض أيديهم عبارة عن ترك الجهاد ، وفيما يجب عليهم من حق » .

الظَّلُومُ الجَهُول

١٧ **قال الله ـ عز وجل ـ فى حديثه القدسى :**

« يَا آدَمُ ، إنِّى عَرَضْتُ الأمَانَةَ علَى السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ، فَلَمْ تُطِقْهَا ، فَهَلْ أنتَ حَامِلهَا بِمَا فِيهَا ؟

قال آدم : وَمَالِى فِيهَا ؟

قال تعالى : إنْ حملْتَهَا أُجِرْتَ ، وإنْ ضيَّعتَهَا عُذِّبْتَ .

فقال آدم : قَدْ حَملتُهَا بِمَا فيها .

فَلَمْ يلْبثْ فى الجنة إلاَّ مَا بيْنَ الصَّلاةِ الأُولى إلى العَصْرِ ، حتَّى أخرجَهُ الشَّيطانُ مِنْهَا »(١) .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ (الأحزاب)

---

(١) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٦/ حديث ١٥١٤٢) وعزاه لأبى الشيخ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، وأورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس، وساقه ، ثم قال : « وقد روى الضحاك عن ابن عباس قريبًا من هذا وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه والله أعلم » .
ولفظه عن ابن عباس من طريق ابن جبير الذى أورده ابن كثير وعزاه لابن جرير الطبرى : «عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال: قبلت فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة » .
وأورد طريق الضحاك عن ابن عباس القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٥٢٢) وعزاه للترمذى الحكيم.

إن الكون ـ كما نعلم ـ فيه أجناس ، أدناها الجماد ، وأوسطها النبات ، وأعلى من الأوسط الحيوان ثم الإنسان ، والإنسان هو سيد هذه الأجناس ، لأنها تخدمه جميعها ، لكن الجماد والنبات والحيوان لا اختيار لأى منها فى أن يفعل أو لا يفعل ، وإنما كل جنس منها قد خُلق لشىء يؤديه ، ولا اختيار له فى أن يمتنع عن الأداء .

الأرض والسموات والجبال لم تقبل أن تكون مختارة ، أو أن تحمل أمانة ، وتكون المسألة فيها راجعة إلى اختيارها ، إنْ شاءت فعلت ، وإنْ شاءت لم تفعل .

وأشفقتْ الأرض والسماوات والجبال من حمل الأمانة لعدم الثقة بحالة النفس وقت أداء الأمانة .

فيجوز أن يعقد الكائن العزم عند تحمُّل الأمانة أن يؤديها ، ولكن عند أدائها لا يملك نفسه ، فربما خانته نفسه وجعلته لا يقر بها .

لقد احتاطت السماوات والأرض والجبال وقالوا : لا نريد هذه الأمانة ، ولا نريد أن نكون مختارين بين أن نفعل أو نترك ، نطيع أو نعصى ، وإنما يارب نريد أن نكون مُسخَّرين[1] لما تحب دون اختيار لنا .

---

(١) أورد ابن جرير الطبرى فيما نقله عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٣) من قول ابن زيد فى هذه الآية : « إن الله تعالى عرض عليهم الأمانة أن يفترض عليهم الدين ، ويجعل لهن ثوابًا وعقابًا ويستأمنهن على الدين . فقلن: لا، نحن مُسخَّرات لأمرك لانريد ثوابًا ولا عقابًا ».=

سلَّمتْ الأرض والسماوات والجبال الأمر لخالقها ، وأبَيْنَ أن يحملْنَ الأمانة وأشفقْنَ منها ، لكن الإنسان بما فيه من فكر يُرجِّح الاختيار بين البديلات قال :

أنا أقبلها ، وإن فكرى سيخطط لأدائها ، ولم يلتفت الإنسان ساعة تحمُّله الأمانة إلى حالة أدائه لها ، ومثال ذلك : من الجائز أن يعرض عليك إنسان مبلغًا من المال كأمانة عندك ، فأخذته وأنت واثق أنك ستؤديه حين يطلبه منك ، ولكنك ساعة الأداء قد لا تملك نفسك ، فقد تمرُّ بك ظروف فتصرف شيئًا من المال ، أو أن تكون ـ والعياذ بالله ـ قد خربتْ ذمتك .

إذن : فالإنسان لا يملك نفسه وقت الأداء ، وإنْ ملكَ نفسه وقت الأخذ ، فالذين يحتاطون يقولون : أبْعد عنّا تحمُّل الأمانة ، فلا نريد أن نحمل لك شيئًا .

ولكن الإنسان قَبِلَ تحمُّل الأمانة ؛ لأنه ﴿ **كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** (٧٢) ﴾ (الأحزاب) .

ظلم نفسه وجهل بحالته وقت الأداء .

إذن : فالأمانة التى عُرِضتْ على السماوات والأرض والجبال فأبين أن

= وعن مجاهد أنه قال : عرضها على السماوات فقالت : يا رب حملتنى الكواكب وسكان السماء وما ذكر وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض فقالت : يا رب غرست فىَّ الأشجار ، وأجريت فىَّ الأنهار وسكان الأرض وما ذكر ، وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة . وقالت الجبال مثل ذلك ، قال الله تعالى ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** (٧٢)﴾ (الأحزاب) فى عاقبة أمره » .

يحملنها ، وحملها الإنسان هى أمانة الاختيار التى يترتب عليها التكليف من الله .

إن التكليف محصور فى « افعل » و « لا تفعل » ، فإن شئت فعلت فى «افعل » ، وإنْ شئتَ لم تفعل فى « لا تفعل » ، وإنْ شئت العكس .

ومعنى ذلك أن الأمانة فى هذا المعنى مقصورة على ما طلبه الله من الإنسان وقت العرض ، لكنها لم تتعرض للأمانات التى توجد بيننا .

والأمانة كذلك هى ما يتعلق بذمتك بحقٍّ غيرك ؛ لذلك فحين يعطى إنسان إنسانًا شيئًا يصير الآخذ مُؤْتمنًا ، فإن شاء أدى ، وإن شاء لم يُؤَدِّ .

لكن هناك أمانات أخرى لم يُعطها إنسانٌ لإنسان ، وإنما أعطاها ربٌّ الإنسان لكل إنسان ، فالعلم الذى أعطاه الله للناس أمانة .

فهل الذى علَّمك علمًا وأعطاه لك ، وبعد ذلك قال لك : أدّه لى كمثل منْ يكون مأمونًا على مال ؟

نقول للعالم : العلم ليس من عندك حتى تعطيه لغيرك ، وبعد ذلك يرده لك، ولكن الله يجازيك عليه ثوابًا ، وكذلك فى الحِلْم والشجاعة .

ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا فى المال ، ولكن فى بقية الأشياء نقول لك : أنت أمينٌ عليها أمام خالقك ، وقد أمَّنك ربك على هذه الأشياء كى تؤديها إلى منْ لا يعلم .

فأمَّنك على قدرة ، وأمرك : أعْطِها لمن لا يقدر .

وأمَّنك على علم ، وأوضح لك : أعْطِه لمن لا عِلْم له .

إذن : فمن الذى أعطاك هذه الأمانة ؟ الله .

فليس ضروريًا أن تكون الأمانة من صاحبها الذى أعطاها لك لتردها إليه ، فالأمانة ما تصير مأمونًا عليه ممن خلق أو من مخلوق ، فأدِّها .

والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع[1] ، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك ، أهليتُك للتكليف من الله حين كلَّفك أمانة عندك ، وأهليتُك فى المواهب المختلفة أمانة عندك .

فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ، ولا بُدَّ أن يُؤدِّيها ، وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة .

فالحق ـ سبحانه ـ أعطى هذا الإنسان قوة عضل ، وأعطى ذلك قوة فِكْر ، وأعطى ثالثًا قوة حلم ، وأعطى رابعًا علمًا .

كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله ـ سبحانه ـ فى خلقه ليتكامل الخلق ، فحين يؤدى كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين.

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٥٢٢) من قول عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفًا عليه : أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال : هذه أمانة استودعتكها ، فلا تلبسها إلا بحق ، فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرِّجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يقول

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ... ﴿٥٨﴾ ﴾ (النساء)

نتذكر على الفور قمة الأمانة أن تعبده ولا تشرك به أحدًا ، والأمانة فى التكاليف التى كلَّفك الله بها ؛ لأنها أمانة لغيرك عندك ، وأمانة عندك لغيرك، فحين يُكلِّفك الله بألا تسرق ، يكون قد كلَّف الناس كلهم ألا يسرقوا .

إن كل أمانة عند غيرك تقابلها أمانة عندك ، فإن أدَّيْتَ مطلوبات الأمانة عندك أدَّى المجتمع الذى يحيط بك الأمانة التى عنده ، وهكذا تكون الأمانة هى: أداء حَق فى ذِمَّتك لغيرك .

هذه الأمانة بمعناها الواسع جعل الكون كله يشفق على نفسه من تحمُّل الأمانة ، وهذا يعنى أن الأمانة سوف تكون عُرْضة للتصرف والاختيار ، ولا كائن فى الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء .

لقد أعلنت الكائنات قولها ، فأبَيْنَ تحمُّل الأمانة ، وكأنها قالت : إنّا يا ربنا نريد أن نكون مُسخَّرين مَقْهورين لا اختيار لنا(١) .

---

(١) قال مقاتل بن حيان :

إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسماوات والأرض والجبال .

فبدأ بالسماوات ، فعرض عليهن الأمانة وهى الطاعة ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ، ولَكُنَّ علىَّ الفضل والكرامة والثواب فى الجنة ؟ فَقُلْنَ : يا رب إنّا لا نستطيع هذا الأمر ، وليس بنا قوة ، ولكنّا لك مطيعين .

ثم عرض الأمانة على الأرضين ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ، وتقبلنها منى ، =

ولذلك نجد الكون كله يُؤدِّى مهمتـه كما أرادها الله ، ما عدا الإنسان ، أى : أنه الذي قَبِل ـ بما له من عقل وتفكير ـ أن يتحمَّل أمـانة الاختيار، وبلسان حاله أو بلسان مقـاله قال : إننى قادر على تحمُّل الأمانة ؛ لأنى أستطيع الاخـتيار بين البدائل .

ولتقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ[1] لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾ (الحج)

= وأعطيكن الفضل والكرامة فى الدنيا ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ، ولا نطيق ، ولكنَّا لك سامعين مطيعين ، لا نعصيك فى شىء أمرتنا به .

ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانة ، وترعاها حق رعايتها ؟

فقال عند ذلك آدم : ما لى عندك ؟

قال : يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندى الكرامة والفضل وحسن الثواب فى الجنة ، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإنى مُعذِّبك ومعذبك وأنزلك النار .

قال : رضيت يا رب .

وتحملها ، فقال الله عز وجل عند ذلك : قد حَمَّلْتُكها .

(قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٣) : رواه ابن أبى حاتم) .

(١) يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) ﴾ (النحل) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٨٣٦) « فدوران الظلال وميلانها من موضع إلى موضع سجـودها .. وقال الزجاج : يعنى سجود الجسم ، وسجـوده انقياده وما يُرى فيه من أثر الصنعة ، وهذا عام فى كل جسم » .

إنها الأجناس كلها ساجدة[1] ، الشمس ساجدة ، والقمر ساجد ، والنجوم[2]، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر[3] والنبات ساجد لله ، والحيوان والدواب ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود .

لكن فى مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد ، لذلك حَقَّ عليه العذاب ، ولو أن الإنسان قد أخذ منهج الله فنفَّذه لصار كبقية الأجناس ، لكن الإنسان اختلف ، وقال :

« أنا سوف آخذ اختيار تحمُّل الأمانة ؛ لأنى عالم وعاقل » فلو أخذ الإنسان منهج الله فى « افعل » و « لا تفعل » لانسجم الإنسان مع الوجود كله ، وحين

---

(١) عن أبى ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣١٩٩) وكذا أحمد فى مسنده (٥/ ١٦٥) .

(٢) قال أبو العالية : ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢١١) .

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدتُ ، فسجدتْ الشجرة لسجودى ، فسمعتها وهى تقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجراً ، وضَعْ عنِّى بها وزراً ، واجعلها لى عندك ذُخْراً ، وتقبَّلها منى كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سجدة ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة . أخرجه الترمذى فى سننه (٥٧٩ ، ٣٤٢٤) ، وابن ماجة فى سننه (١٠٥٣) ، وابن حبان (٦٩١ ـ موارد الظمآن) .

ينسجم الإنسان مع الوجود كله فلن تأتى منه مخالـفة أبدًا ، كما لا تأتى مخالفة فى الوجود من غير الإنسان .

إذن : فالانقسام جاء عند مَنْ ؟

لقد جاء الانقسام عند الإنسان ، لماذا ؟

لأن الله خلق الإنسان مختاراً .

ألم يَكُنْ من الممكن أن يخلق الله الإنسان مُسخَّرًا كبقية الكائنات ؟

أليس التسخـير دليلاً على قدرة المسـخِّر ، وأن شيئًا من خلـقه لن يخرج من قدرته ؟

هذا صـحيح ، لـكن الحق ـ سبـحـانه ـ كمـا أراد أن يثبت القـدرة والقهـر بالتسـخير ، أراد أن يثبت المحبوبيـة بالاختيار ، فـمن كان مخـتاراً أن يؤمن أو يعصى ثم اخـتار أن يؤمن ، فـهذا الاخـتيار إنما يثبت بـه الإنسان المحبـوبية لله ، فتطيع حبًا فى الله وطاعة لأوامره .

وضربنا لذلك مثلاً ، ولله المثل الأعلى ، وقلنا :

لو أن إنسانًا عنده عبدان :

أحدهمـا : مربوط بحبل فجـذبه من الحبل وقال له : تعـال ، هل يستطيع أن يعصى ؟ لا يستطيع ؛ لأنه مُقَيَّد ومربوط .

الثانى : طليق ، ومع ذلك حينمـا يناديه سيده يُسرع إلى طاعته وتـلبية أمره ،

مع أنه يستطيع أن يعصى أو يتأخر عن الاستجابة ، لكنه يُلبى نداء سيده ويأتيه عن حُب وطاعة .

أما العبد المقيد فإنه لا يملك أن يعصى ؛ لأنه ليس مُطلق السَّراح .

أما الذى يأتى لله ويطيعه ويُنفِّذ أوامره رغم قدرته على المعصية لأنه مختار فهذا يثبت محبته لله وطاعته له ، فالأشياء المقهورة تثبت لله القدرة ، أما الطاعة عن حُب واختيار فتثبت لله المحبوبية والطاعة .

والله لا يحب منَّا أن نأتيه قَهْراً ، ولكن يريد أن نأتيه عن حُب ورغبة وطاعة(١) .

هكذا صنف الله الخلق بين قسم قهرى يثبت القدرة ، وقسم اختيارى يثبت المحبوبية

ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختاراً أن يفعل أو لا يفعل ، فلماذا - إذن - لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهى منسجمة مع الإيمان ؟

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ (يونس) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) ﴾ (الأنعام) . وقال تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ... (٢٩) ﴾ (الكهف) .

ويقول تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (٨) ﴾ (الشورى).

فلو شاء الله - سبحانه وتعالى - لأكره الناس جميعًا على الهدى ، ولكنه - سبحانه - وضع أساسًا من أسس الإسلام ، وهو : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... (٢٥٦) ﴾ (البقرة)

نقول : لأن للشهوة بريقاً سطحياً ، وهذا البريق السطحى يجذب الإنسان كما تجذب النار الفراش [1] .

عندما يُوقد الإنسان ناراً ما فى الخلاء ، فضوؤها يجذب الفراش ، ويحترق الفراش بنيران الضوء ، فقد جذبه النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه فى تلك النار .

والحكمة العربية تقول :« رُبَّ نفسٍ عشقتْ مصرعها ».

كذلك فى الشهوات ، تتزين الشهوة للإنسان فتجذبه إليها ، فيكون فيها مصرع الإنسان[2].

لكن ... ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هى فى منهج الله « افعل » و « لا تفعل » ، فمن يُرِدْ أنْ ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس ، فعليه أن يخضع لمنهج الله فى « افعل » و « لا تفعل » .

---

(١) الفراش : دواب مثل البعوض تطير ، واحدتها فراشة . والفراشة : التى تطير وتهافت فى السراج ، والجمع فراش . وفى المثل : أطيش من فراشة . والفراش : الخفيف الطيَّاشة من الرجال . (لسان العرب مادة: فرش) .

وقد ورد ذكر الفراش فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾ (القارعة) .

المبثوث : الكثير المنتشر على غير نظام كالفراش .

(٢) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) والترمذى فى سننه (٢٥٥٩)

إنه من الحمْق أن يصنع صانعٌ صَنْعة ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة، والإنسان فى حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق ـ سبحانه ـ بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق ـ سبحانه ـ قد صنع الإنسان ، ووضع الحق ـ سبحانه ـ قانون صيانة صَنْعته فى الإنسان فقال ـ جَلَّ وعلا : افعل كذا ، ولاتفعل كذا .

فمَنْ أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتى له نزغ[1] شيطان أو كيد عدو ، ولا هوى شيطان ، فليعتصم بمنهج الله ، لأن الله هو الذى خلقه ، وهو الذى وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو القانون الموجز فى « افعل » و « ولا تفعل » .

---

(١) النزغ : أن تنزغ بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفساد بينهم .

والنزغ : الكلام الذى يُغرى بين الناس . نزغ الشيطان : وساوسه ونَخْسه فى القلب بما يُسَوِّل للإنسان من المعاصى ، (لسان العرب ـ مادة : نزغ) وقد جاء معنى التحريش بين الناس وإيقاع العداوة بينهم فى حديث يوسف عليه السلام مع أبيه : ﴿ **وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ..** ﴿١٠٠﴾ ﴾ (يوسف)

ولذلك وجّه الحق سبحانه المؤمنين إلى الاستعاذة بالله من نزغ الشيطان . وذلك فى آيتين :

﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (الأعراف)

﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴿٣٦﴾ ﴾ (فصلت)

وكلاهما فى العفو عن الناس والتجاوز عن إساءاتهم .

ومن حكمة الخالق ـ سبحانه ـ أنْ مَيَّزَ الإنسان على سائر الأجناس ، مَيَّزه بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

إذن : فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات ، وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار ، أم نُقيِّد حرية الاختيار لديه ؟

إنك إنْ قيَّدتَ حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التى أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مُسخّراً مُكْرهاً ، ولذلك فالمكْره لا يكون له حكم على الأشياء، بل هو مُجْبر ومُسَخَّر .

وما دُمْتَ تقول : إن العقل هو الذى يختار بين البديلات ، فلا بُدَّ أن يكون حَقُّ الاختيار موجوداً ، فإن كان فى الإنسان عطب[1] كأن يكون مجنونًا ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجوداً لكنه لم ينضج بعد[2] نقول أيضاً : لا اختيار .

إذن : فلابد أن يكون العقل موجوداً وناضجاً للاختيار بين البديلات ،

(١) العطب : أصله فى اللغة الهلاك . وعطب الفرس والبعير : انكسارهما أو هلاكهما ، وقد يعبر به عن آفة تعتريه ، تمنعه عن السير . فيُنحْر . والعطب : الفساد (راجع لسان العرب ـ مادة : عطب).

(٢) أى : الذى لم يبلغ الحلم ، أى كل من بلغ سِنَّ الحلم وجرى عليه حكم الرجال ، احتلم أو لم يحتلم . وهو مناط التكاليف .

ومن حديث رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبى حتى يحتلم » .

ويكون للإنسان حرية أن يختار ، فإن لم يكن العقل موجودا فهو مجنون فلا تكليف له .

والمجنون قد سلبه الله أعزَّ ما أعطى للإنسان وهو العقل ، لكن أعفاه الله أن يسأله أحدٌ عن شئ ، فيفعل ما يفعل دون سؤال ، فلا تكليف لمجنون ، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ .

لقد اغترَّ الإنسان بعقله وقال : أنا لى عقل يختار بين البديلات ، وأقبل تحمُّل الأمانة ، وسوف أؤدى كل مطلوبات الأمانة ، لأنى أقدر على الاختيار .

لقد ادَّعى الإنسان لنفسه القدرة على أداء الأمانة ، وكأنه قد وثق من نفسه أنه سيؤديها ، وهو لا يعلم بأى شئ حكَم ذلك الحُكْم على أمر غيبىٍّ مُستقبلى .

صحيح ، أنه ساعة التحمُّل كان فى نيته أن يؤدى الأمانة ، لكن ماذا عن ساعة الأداء ؟

وأنت لا تعرف ماذا تجيء به الأحداث والأغيار معك ، فقد يأتى لك ظرف تُضطر أن تُبدِّد فيه الأمانة ؛ لذلك تجد العاقل هو مَنْ يقول : ابعد عنِّى أمانة الاختيار ؛ لأنِّى لا أعلم ماذا ستفعل بى الأغيار لحظة الأداء .

مثلما يأتى لك إنسان ليُودع عندك ألفاً من الجنيهات كأمانات ، ولكن أتظل على الأمانة ؟ أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمرُّ بك أزمة مالية ، فتتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الذكى هو مَنْ يقول لمودع هـذا المال « احفظ عليك مالك ، لأنى من الأغيار » .

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة فى الكون كله ، لأن الحق ـ سبحانه ـ هو القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ(١) مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً(٢) (٧٢) ﴾ (الأحزاب)

والأمانة هى ما يكون فى ذمة المؤتمن ، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته ، ولا شهـود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمـانة ، بل هى وديعة لا توثيق فيـها إلا ذمة المؤتمن قد يُقرُّ بها ، وقد يُنكرها .

---

(١) أشفقت من الشىء : حَـذِرْته . والإشفاق : الخوف . والشفقـة : رقة من نُصح أو حب يؤدى إلى خوف .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦)** ﴾ (الطور) أى : كنا فى أهلنـا خائفين لهـذا اليوم. (لسان العرب ـ مادة : شفق) .

(٢) الجهل : نقيض العلم . والجهـالة : أن تفعل فعلاً بغير العلم . وجهل فـلان على غيره : تعدّى عليه وتسـافه وقسا . والجهل : الطيـش والسفه والتعدى بغيـر حق . ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام ، قال تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)** ﴾ (الأنعام) يحتمل المعنيين : الخلو من المعرفة أو الطيش والسَّفه . وقوله تعالى : ﴿ **يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ (٢٧٣)** ﴾ (البقرة) أى: الخالى من المـعرفة بأحـوالهم وبمقدار حـاجتـهم ،وقوله : ﴿ **يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ.. (١٧)** ﴾ (النسـاء) أى : بطيْش وسَفَه وعدم تبصُّر .

وقوله : ﴿ **وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣)** ﴾ (الفرقان).

وكل ما دون الإنسـان أعلن عدم تحمُّل الأمانة وقَبِل التسخيـر ، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة وأنه سيؤديها .

ولذلك وصفه القرآن الكريم بقوله :

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ (الأحزاب)

ظلوماً : لنفسه ؛ لأنه حمّل نفسه شيئاً ليس فى يده .

جهـولاً : لأنه قاس وقت التـحمُّل ، ولـم يذكـر وقت الأداء ، فلم يضع فى الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقـوده ، فلا نجـد حـيواناً يأكل فـوق طاقـته ، لكننـا نجد إنسـاناً يصـيب نفسـه بالتخمة[1] .

ولا نجد حمـاراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليـها ، بل نراه وهو يتراجع عنها ، ولكننا نجد إنساناً يُشمِّر عن ساعديه ، ليقفز فوق قناة مياه ، فيقع فيها .

فـمَنْ أعطاه الله ـ سبـحـانه ـ البدائل هو الذى يُـفسـد الاختـيار ، مـا دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار فى ضوء منهج الله ـ تعالى .

إذن : فنحن بأهوائنا التى تسيطر على غرائزنا نُوقع أنفسنا فيما يضُرّنا ، مالم نحرس أنفسنا بمنهج الله ـ سبحانه وتعالى ـ فما دُمْت قد حملتَ الأمانة فعليك

(١) التخمة : الذى يصيب الإنسان من الطعام إذا استوخمـه . أى : استثقله . وقد تطلق التخمة على كثرة الطعام والمبـالغة فى الأكل والشرب حـتى يثقل على الجسم هضم الطعـام ، فيصـاب الإنسان بالوخم والثقل وعدم القدرة على الحركة . (اللسان ـ مادة : وخم) .

أنْ تُؤدِّيها ، وإلا كنت خائناً لعهد الله ، والأمانة هى ما استُؤْمِنْت عليه ، وأول شئ استُؤمنت عليه هو عهد الإيمان بالله ، فأنت آمنتَ بالله ، وما دُمْتَ آمنتَ به فعليك أن تنفذ أمره ، وأن تلتزم بمنهجه .

والحق ـ سبحانه ـ ينادى عباده المؤمنين فيقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا**[1] **أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** (٢٧) ﴾ (الأنفال)

فإذا كان الله يقول لنا : ﴿ **لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ..** (٢٧) ﴾ (الأنفال)

فعلينا أن نلتزم ؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة الرسول ، ومَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله ؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة ، بل خاطب رسولاً اصطفاه[2] مَنْ خلقه ، وأيَّده بمعجزة ، وكلُّ بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول .

---

(١) خانه يخونه : غدر به . وخان الحق : نقصه . وخان العهد : لم يَفِ به ، فهو خائن . وخان الأمانة : لم يؤدِّها كاملة . وخوَّان : صيغة مبالغة . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا** (١٠٧) ﴾ (النساء) . واختانه يختانه : خانه وبالغ فى خيانته أو تعوَّد عليها وكررها ، فزيادة المبْنى تدل على زيادة المعنى . قال تعالى : ﴿ **وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ..** (١٠٧) ﴾ (النساء) أى : تعودوا على الخيانة مراراً ، يخون بعضهم بعضاً فكأنهم يخونون أنفسهم ، ومن خان الناس فقد خان نفسه وأوقعها فى العذاب .

(٢) استصفى الشىء واصطفاه : اختاره . والاصطفاء : الاختيار .
واصطفاه : اختاره وآثره وفضّله . قال تعالى : ﴿ **يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** (٤٢) ﴾ (آل عمران) اختارك وفضَّلك . وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ..** (٧٥) ﴾ (الحج)

فلا تَخُن الله فيما جاء فى القرآن ، وجاء من الرسول المفوّض من الله بأن يُشرِّع .

فلله أمانة فيما نصَّ عليها القرآن ، وللرسول أمانة فيما لم ينص عليه القرآن إلا بتفويض قائل القرآن للرسول ﷺ بأن يُشرِّع ، فإنْ أطعْتَ هذا الرسول فقد أطعتَ الله .

والإنسان حين آمن يصبح للإيمان فى النفس أمانة ، فأنت قد آمنتَ أنه لا إله إلا الله ، وأمانة هذا الإيمان تقتضيك ألاَّ تجعل لمخلوق ولاية عليك ، ولا ولاء له ، إلا أن يكون هذا الولاءُ نابعاً من اتباع منهج الله ـ تعالى ـ وهذه هى أمانة الشهادة .

أما أمانة الرسالة فى الحرص على تطبيق كل ما بلَّغه الرسول ﷺ عن ربه قَدْرَ الاستطاعة .

إذن : فالأمانة مع الله ـ تعالى ـ أن تلتزم بكلمة الإيمان فى أنه لا إله إلا الله ، وإياك أن تعتقد فى أن أحدًا يمكنه أن يتصرف فيك ، أو يملك لك ضراً أو نفعاً ، أو أن مصالحك ممكن أن تُقْضى بعيداً عن الله ، فكل شىء بيد الله ـ سبحانه ـ صاحب الحول[1] والطول[2] ، لا إله إلا هو .

---

(١) الحول : الحيلة والقوة . قال ابن سيده : الحَوْل والحَيْل والحِوْل والحيلة والحويل والمحالة والاحتيال والتحوُّل والتحيُّل ، كل ذلك : الحِذْق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف . (لسان العرب ـ مادة : حول)

(٢) الطول : الغنى والفضل والقدرة والسَّعة والعُلُوّ .

يقول تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③ ﴾=

وإياك أن تفهم أن حكماً يجيء لك عن غير طريق رسول الله ﷺ ؛ لأنك إنْ خرجت عن هذا الإطار تكون إنساناً لم يؤدِّ أمانة الله ولا أمانة الرسول .

والقمة فى الأمانة هى الإيمان بالله والإيمان بالرسول ﷺ ، والله قد أمر بأحكام ، وحين تقبلها فلها أمانة ، وأمانتها هى أداؤها من غير نقص فى شىء ، سواء كان عاماً أو خاصاً ، ولو فى الحديث يجرى أمامك .

وتمتد أمانة الإيمان إلى كل شىء ، مثل أمانة أى مجلس توجد فيه ، فلا يحقُّ لك أن تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين .

ونعرف رجلاً من قادة العرب هو زياد بن أبيه[1] ، وكان شديد الحزم ، فوشى واشٍ[2] بهمام بن عبدالله السلولى إلى زياد ، وتوقع القوم عقاباً صارماً

= (غافر) (لسان العرب ـ مادة : طول) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٧٠): قال عكرمة: (ذى الطول) ذى المنّ . وقال قتادة :ذى النعم والفواضل . والمعنى أنه المتفضل على عباده المتطوِّل عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ».

(١) زياد بن أبيه ، أمير من الدهاة القادة الفاتحين الولاة، من أهل الطائف، ولد عام الهجرة، أدرك النبى ﷺ ولم يره، أسلم فى عهد أبى بكر ، ألحقه معاوية بنسبه عام ٤٤هـ توفى عام ٥٣ هـ (الأعلام للزركلى ٣/ ٥٣)

(٢) وشى به وشاية : نَمَّ به . ووشى به إلى السلطان وشاية أى سعى . وهو واشٍ ، وجمعه وشاة . (لسان العرب ـ مادة : وشى)

بهمـام ؛ لأن زياداً كان يأخـذ بالظن[1] ، لكن الله ألهم هـمامـاً كلمـة ، ظلت دستوراً يطبق .

واستدعى زيادٌ همّاماً .

قال زياد : بلغنى أنك هجوتنى[2] .

قال همام : كلا ، أصلحك الله ، ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل .

فقال زياد : إن هذا الرجل ـ وأخرج الرجل من الخباء[3] ـ أخبرنى .

فنظر همام إليـه فوجده جليـساً له وصديقاً ومـؤنساً ، فلما رآه كـذلك أقبل عليه ، وقال :

---

(١) الظنون : الرجل السيء الظن . وقـيل : السيء الظَّنِّ بكل أحد . والظنين : المتـهم الذى تُظَنُّ به التـهمـة . والظن : ما يحـصل فى النفس عن أمـارة ، فهـو شكٌ راجح ، وفـعله من أفعـال الرجحان . والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس ، قال تعالى: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴿٢٨﴾ ﴾ (النجم) وجمعه ظنون .

ويستـعمل الظن بمـعنى اليقين مـجازاً للدلالة على أنه كـافٍ فى الهداية لو كـان ظناً فكيف لا يهدى وهو يقين ، وكثير من الناس يدَّعون اليقين ولا يفعلون ما يقتضيه ، فقوله تعالى : ﴿ **إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ** ﴿٢٠﴾﴾ (الحاقة) .

(٢) هجاه يهجوه هَجْـواً ، وهجاء : شتمه بالشعر ، وهو خلاف المدح. والمرأة تهـجو زوجها : تذم صحبته .. (لسان العرب ـ مادة هجا) .

(٣) الخبـاء من الأبنية : هو ما كان من وبر أو صـوف ولا يكون من شعر ، وهو على عـمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت (اللسان ـ مادة خبا).

أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فَخُنْـ . . . تَ ، وإما قلت قولاً بلا علم

فَأُبْتَ[1] من الأمر الذى كان بيننا . . . بمنـزلـة الخيـانـة والإثـم

أى : إما أنك خائن أو آثم ، فإن كنت قد ائتمنتُك على كلمة نفَّسْتُ[2] بها عن نفسى ، فأنت خائن ، وإن كنت اختلقتها[3] علىَّ فأنت كاذب .

فأعجب زياداً هذا المنطق ، وأقْصَى[4] الواشى ولم يتقبل منه .

ويُقال : إنه خلع على همام الصلة والعطايا ، فكان همام حين يرى الواشى يقول له : هل لك فى وشاية أخرى تغنينى .

والحق ـ سبحانه ـ يحمى حُمْق الاختيار الذى وُجِد فى الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنسان كان مُسَيَّراً ومُكْرهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار .

---

(١) آب إلى الشئ : رجع . وآب الغائب يؤوب مآباً : إذا رجع . ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الغاشية) أى : رجوعهم . والمآب : المرجع ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الرعد)

وقال أهل اللغة : الأوَّاب الرجَّاع الذى يرجع إلى التوبة والطاعة . قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (ص) . (لسان العرب ـ مادة : أوب)

(٢) نفَّسْتُ : رفَّهت . يُقَال : اللهم نفِّس عنى : أى فرِّج عنى ووسِّع علىَّ . ونفست عنه تنفيساً أى رفَّهت . يقال : نفَّس الله عنه كربته أى فرَّجها . (لسان العرب ـ مادة نفس).

(٣) خلق الكذب والإفك يخلقه وتخلَّقه واختلقه وافتراه : ابتدعه . والاختلاق : الكذب ، وهو افتعال من الخلق والإبداع، كأن الكاذب تخلَّق قوله . (لسان العرب ـ مادة : خلق) .

(٤) قصا عنه : بعد . والقصىّ والقاصى : البعيد . والجمع أقصاء . وقصوت عن القوم : تباعدت. وأقصيته أنا فهو مُقْصىّ ، ولا تقل مَقْصىّ . (اللسان ـ مادة : قصا)

وتَعَبُ الإنسان جاء من ناحية أنه اغترَّ بميزته على سائر خلق الله، والميزة التى ميَّز الله بها الإنسان هى العقل الذى يختار به بين البديلات ، بينما سائر الأجناس كلها رضيتْ من الله أن تكون مسخرة مقهورة على ما جعلها له بدون اختيار .

وتتجلى حماية الحق ـ سبحانه ـ للإنسان من حُمْق اختياره فى قوله تعالى :

﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا**[1] **كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ**[2] **عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا** (٣١) ﴾ (النساء)

فهذه الآية هى إحدى ثمانى آيات قال عنها ابن عباس رضي الله عنهما[3] :

« ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خَيْر لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت :

---

(١) جنَّب الشىء وتجنَّبه وجانبه وتجانبه واجتنبه : بَعُد عنه . واجتنب الشىء : تباعد عنه . قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ ..** (٣٧) ﴾ (الشورى) . وتجنب الشىء : تباعد عنه . قال تعالى : ﴿ **وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى** (١١) ﴾ (الأعلى) يبعُد ويُعرض عن الذكرى .

(٢) تكفير الخطايا والذنوب : محوها وسترها . وكفر الشىء : ستره وغطَّاه ، وهو أصل المادة ، فكأن الكافر يستر النعمة ويستر الحق ويُخفيه . كفَّر الله السيئات : سترها ومحاها ولم يعاقب عليها . قال تعالى : ﴿ **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ** (١٩٣) ﴾ (آل عمران).

(٣) حديث ابن عباس أورده ابن كثيرفى تفسيره (١/ ٤٤٨) وعزاه لابن جرير الطبرى من طريق صالح المرى عن قتادة عن ابن عباس . وأورده السيوطى فى تفسيره (الدر المنثور) (٢/ ٤٥٣) وعزاه لابن جرير وابن أبى الدنيا فى التوبة والبيهقى فى الشعب .

أولهن : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ[1] الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (النساء)

الثانية: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (النساء)

الثالثة : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النساء)

الرابعة : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ (النساء)

الخامسة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (النساء)

السادسة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ[2] إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (النساء)

السابعة : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (النساء)

---

(١) السنة فى الأصل سنة الطريق ، وهو طريق سَنَّه أوائل الناس فصار مسلكاً لمن بعدهم . وسَنَّ فلان طريقاً من الخير يسُنُّه إذا ابتدأ أمراً من البِرِّ لم يعرفه قومه فاستَنُّوا به وسلكوه . والسنة : الطريقة . والسَّنَن أيضاً . (لسان العرب ـ مادة : سنن) .

(٢) افترى القول : اختلقه واخترعه . والفرية والفَرِيُّ : الكذب الواضح والأمر العظيم المنكر . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ (مريم) أى : منكراً عظيماً مُفترى مُخْترعاً . وافترى عليه الكذب اخترعه. قال تعالى : ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ (آل عمران) أى : اختلقه .

الثامنة : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (النساء)

هذه الآيات الكريمات كانت خَيْراً لهذه الأمة مما طلعتْ عليه الشمس أو غربتْ ، فهى طمأنت الإنسان على أنه إنْ حَمُقَ(١) اختياره فى شىء :

فالله يريد أن يُبصِّره .

والله يريد أن يتوبَ عليه .

والله يريد أن يُخفف عنه .

والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويُكفِّرها .

كل هذه مُطَمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حُمْق الاختيار .

فيُطمئن الحق ـ سبحانه ـ الإنسان :

أنا خالقك ، وأعرف أنك ضعيف لأن عندك مسلكين . كل مسلك منهما يُغريك :

ـ تكليف الله بما فيه من الخير لك ، وما تنتظره من ثواب الله فى الآخرة يُغرى .

---

(١) الحمق : ضد العقل . والحمق : قلة العقل . واستحمق الرجل إذا فعل فِعْل الحمقى . وحقيقة الحمق : وضع الشىء فى غير موضعه مع العلم بقُبحه . (لسان العرب ـ مادة حمق).

وشهوة النفس العاجلة تُغرى .

وما دامت المسألة قد تخلخلتْ بين اختيار واختيار ؛ فالضعف ينشأ ؛ لذلك يوضح الحق ـ سبحانه ـ أنه يحترم هذا فى الإنسان لأنه وليد الاختيار ، وأنه ـ سبحانه ـ الذى وَهَب له هذا الاختيار .

والحق ـ سبحانه ـ حين وهب هذا الاختيار لهذا الجنس الذى هو سيد الأجناس كلها ، فإنه ـ تعالى ـ يحب أن يأتى ربه راغباً مُحِباً .

وتحقيقُ الأمر أن كَوْن الله كله مُخْتار ، لكن بعض الخلق كالسماوات والأرض والجبال اختار ألاّ يكون مختاراً ، بل اختاروا أن يكونوا مُسخَّرين طائعين لمراد الله .

يقول الحق ـ سبحانه :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ(١) فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا(٢) طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ (فصلت)

---

(١) يطلق الدخان على ما يرتفع فوق النار من غازات لم يتمَّ احتراقها . وقد يطلق على البخار وما يشبهه من الغازات المتصاعدة ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. (١١) ﴾ (فصلت) ، أى : أن مواد النجوم كانت فى حالة غازية كالدخان، ثم خلق منها السماوات والأرض

(٢) أى : استجيبا لأمرى وانفعلا لفعلى . طائعتين أوْ مكرهتين . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/٩٣) .

فالسماء والأرض والجبال طلبت أن تكون مُسخَّرة لإرادة الله، ليس لها هَوَىً أو اختيار أو إرادة ، فالحق ـ سبحانه ـ لم يقهر كل الوجود ، ولكنه كما خيَّر الإنسان خيَّر بقية الأجناس ، فخيَّر السماوات والأرض والجبال فى حمل الأمانة ، فأبتْ واختارت أن تكون مقهورة لا اختيار لها .

فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أنْ يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مُسخَّرة؛ ولذلك تجد النواميس الكونية التى لا دَخْل للإنسان فيها ولا لاختياراته دَخْلُ فى أمورها تسير بنظام دقيق ، ففى الوقت الفلانى ستأتى الأرض بين الشمس والقمر، وفى الوقت الفلانى سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس كسوف(١) ، وسيحدث للقمر خسوف(٢) ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

---

(١) كسف القمر وكذلك الشمس : ذهب ضوؤها واسودَّت . قال أبو زيد : كسفت الشمس إذا اسودَّت بالنهار ، وكسفت الشمس النجوم إذا غلب ضوؤها على النجوم فلا يبدُ منها شيء . (لسان العرب ـ مادة : كسف) وقال فى القاموس القويم (١/ ١٩٤) :« خسوف الشمس أو كسوفها يقع فى أواخر الشهر العربى فى أيام المحاق، وسببه توسط القمر بين الأرض وبين الشمس فيحجب القمر الشمس ، ويقع ظل القمر على الأرض فلا يصل إليها ضوء الشمس، وقد يحجب جزءاً من الشمس ويُسمَّى كسوفاً أو خسوفاً جزئياً ».

(٢) خسوف القمر فى الدنيا هو ظاهرة فلكية يحسب مواعيدها علماء الفلك بكل دقة، وهى مسجلة فى جداول ثابتة لا تتغير ، ويحدث الخسوف دائماً فى وسط الشهر العربى والقمر بدر وسبب الخسوف وقوع ظل الأرض على القمر حين تتوسط الأرض على القمر بين الشمس وبين القمر ، وبما أن القمر يكتسب نوره من الشمس فإنه يخسف إذا وقع عليه ظل الأرض فتحجب الأرض نور الشمس عنه ، ويظل ينكشف الظل شيئاً فشيئاً حتى يعود القمر إلى كماله كما كان قبل الخسوف ».

وقد عقد الحق ـ سبحانه ـ مقارنة بين قوم اتصفوا بالأمانة مع الخَلْق ، وآخرين كانوا على النقيض من ذلك ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ**[1] **يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ**[2] **لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً**[3] ... (٧٥) ﴾ (آل عمران)

إنه مُطْلق الإنصاف الإلهى ، فإذا كان الحق ـ سبحانه ـ قد كشف للرسول ﷺ بعضاً من مكْر أهل الكتاب ، فذلك لا يعنى أن هناك حملة على أهل الكتاب ، وكأنهم كلهم أهل سوء .

لا ، بل منهم مَنْ يتميز بالأمانة ، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف العدل .

فساعة يقول الله : إن بعضاً من أهل الكتاب يتميزون بالأمانة فإن مَنْ تراوده

---

(١) اختلف المفسرون فى مقدار القنطار على أقوال وحاصلها أنه المال الجزيل . فقيل : ألف دينار. وقيل : اثنا عشر ألفاً . وقيل : أربعون ألفاً . وقيل : ستون ألفاً . وقيل غير ذلك . قاله ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٥١) فالقنطار : المقدار الكبير من المال . وجمعه قناطير . قال تعالى : ﴿ **وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ** .. (١٤) ﴾ (آل عمران) والمقنطرة : المتمَّمة ، كما قالوا: ألف مؤلَّفة مُتَمَّمة . (لسان العرب ـ مادة : قنطر) .

(٢) الدينار : فارسى معرب ، وأصله دِنَّار . قال أبو منصور : دينار وقيراط ودبياج أصلها أعجمية، غير أن العرب تكلمت بها قديماً فصارت عربية . (لسان العرب ـ مادة : دنر)

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٧٤) : « أى ما دمت عليه قائماً بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص حقك ، وإذا كان هذا صنيعه فى الدينار فما فوقه أوْلى أن لا يؤدِّه إليك » .

فكرة الإسلام يقولون : إن محمداً ﷺ لايتكلم إلا عن نور من ربه .

لكن لو عمَّم القرآن الحكم على الكل، لتساءل الذين يشعرون بالرغبة فى الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ : « لماذا يعم الحكم الجميع ، ونحن نسير فى الطريق إلى الإيمان » .

ولهذا يضع الحق ـ سبحانه ـ القول الفَصْل فى أن منهم أناساً يتجهون إلى الإيمان:

﴿ لَيْسُوا[1] سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ[2] اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) ﴾ (آل عمران)

وفى هذا ما يُطمئن الذين شغلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين، والتفكير فى أن يؤمنوا برسول الله ﷺ .

---

(١) قال ابن مسعود فى تفسير هذه الآية : لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ .

قال ابن كثير (١/ ٣٩٧) : « يؤيد هذا القول الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ابن مسعود قال : أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : « أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم » .. والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام . أى : لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ».

(٢) قال أهل اللغة : آناء الليل ساعاته ، واحدها (مفردها) إِنْى وإِنىٌ . (لسان العرب ـ مادة: أنى) .

لو كان القرآن قد نزل بلغتهم جميعاً لَقَالَ الذين يفكرون منهم فى الإيمان «نحن لسنا كذلك، ولا نستحق اللعنة، فلماذا يأتى محمد بلعنتنا ؟»

وقد قال بعض المفسرين : إن القرآن يقصد هنا من أهل الكتاب النصارى ، لأن منهم أصحاب ضمير حى ، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى .

وفى هذا التفسير إنصاف للنصارى ، فصفة الخير لهم لا ينكرها الله[١] ، بل يشيعها[٢] فى قرآنه الذى يتلى إلى يوم الدين ، وذلك ليصدق أيضاً أهل الكتاب أى أمر سيء تنزل فيه آيات من القرآن .

فالقرآن منصف مطلق الإنصاف ، فما دام قد قال خصلة الخير فيهم ، فلا بد أن يكون صادقاً عندما يقول الأمور السيئة التى اتصفوا بها .

والذين يسلكون مسلك خيانة الأمانة من أهل الكتاب إنما اتخذوه منهجاً بدافع عقدىٍّ فى أذهانهم ، ولذلك قال الحق ـ سبحانه ـ عنهم :

---

(١) يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ .. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) ﴾ (المائدة) .

(٢) شاع الخبر فى الناس : انتشرو تفرق وذاع وظهر . وأشاع ذكر الشىء : أطاره وأظهره . وأشعت السر شعْتُ به إذا أذعت به. (لسان العرب ـ مادة شيع) ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) ﴾ (النور).

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ.. (٧٥) ﴾ (آل عمران)

وقد قام بعض بنى إسرائيل على عهد رسول الله ﷺ بخديعة الأمين من العرب المؤمنين ، فأنكروا حقوقهم .

والمقصود بالأمين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب ، أو أن يكون المقصود بالأميين أهل مكة(١) ولكن من أين جاء أهل الكتاب بهذا الأسلوب المزدوج فى معاملة الناس ؟

ومن الذى وضع هذا المنهج الذى يقضى بخديعة المؤمنين الأمين؟

وهل الفضائل ومنازل الخلق تختلف فى المعاملة من إنسان إلى آخر ؟

وهل يقضى الخُلق القويم أن يأخذ إنسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أمى ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت ليهودى ؟

هل يصح أن يُقرض إنسان أمواله بالربا لغير اليهود ، ويقرض اليهود دون ربا ؟

إذن : تكون هذه المعاملات مُجْحفة(٢) ، هنا فضيلة ، وهناك لا فضيلة ، لا ،

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٧٤) : « إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا فى ديننا حرج فى أكل أموال الأميين وهم العرب فإن الله قد أحلها لنا ، قال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ (آل عمران) أى : وقد اختلقوا هذه المقالة ، وائتفكوها بهذه الضلالة . فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت » .

(٢) الجحف والمجاحفة : أخذ الشىء واجترافه . وأجحف به : أى ذهب به . وأجحف بهم الدهر: استأصلهم . (لسان العرب ـ مادة : جحف).

إن القضية يجب أن تكون مُسْتوية ومكتملة فى كل وقت وكل زمان ولكل إنسان ، ولا ينبغى أن تتنوع .

من أين إذن جاءوا بهذا القول ، وهم أهل كتاب ؟

إن هذا ضد منهج الكتاب الذى أنزله الله عليهم ، بل هو من التحريف والتحوير[1] ، لقد خدعوا أنفسهم وألصقوا بالتشريع ماليس فيه ، فالكتاب السماوى الذى نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين :

صنف هم أهل الكتاب ، ولهم معاملة خاصة .

وصنف هم الأميون ، ولهم معاملة أخرى .

وكان عليهم أن يتعلموا من عدالة رسول الله ﷺ فى معاملتهم .

والذين[2] استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب ، إنما عميت بصيرتهم عن أن رسول الله ﷺ قد نال الشهرة بالأمانة، سواء قبل الرسالة أو بعدها ، وعميت أبصارهم .

---

(١) ولذلك قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (آل عمران)

(٢) أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى الآية قال : بايع اليهود رجال من المسلمين فى الجاهلية . فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بيوعهم فقالوا : ليس علينا أمانة ، ولا قضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم ، فقال الله : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (آل عمران) . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٢٤٤)

إن الدين الحقَّ لا يُفرِّق فى أداء الأمانة بين صنف من البشر ، وصنف آخر ، فالدين الحق يضم تشريعاً من إله خلق الجميع ، وهكذا نجد أن تشريعهم بالتفرقة فى أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم ، وليس من الرب المتولى شئون خلقه جميعاً .

وهم فى هذا ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾

(آل عمران)

يعلمون ماذا ؟

يعلمون أن قولهم كذب ، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه ، ويا ليتهم قالوا: إن ذلك الحكم من عند أنفسهم ، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم ، وتعاليم الدين ـ كما قلنا ـ مأخوذة من الله .

وهم بذلك ـ والعياذ بالله ـ يفترون على الله كذباً بأنه خلق خلقاً ، ثم صنفهم صنفين :

ـ صنفاً تؤدى الأمانة له .

ـ وصنفاً لا تؤدى الأمانة له .

وهكذا كذبوا على الله ويعلمون أنهم كاذبون ،وهذا هو الافتراء ، وهم أيضاً يعلمون العقوبة التى تلحق من يكذب على الله ، ورغم ذلك كذبوا [1].

---

(١) أوضح الحق تعالى هذه العقوبة فى قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾ (آل عمران).

ثم يقول رسول الله ﷺ تعقيباً على هذا الحديث القدسي:

« فلم يلبث - أي آدم - في الجنة إلا ما بين الصلاة الأولى إلى العصر[1] ، حتى أخرجه الشيطان منها » .

يقول الحق - سبحانه :

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا[2] حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (البقرة)

بعد أن خلق الله - سبحانه وتعالى - آدم ، وأمر الملائكة أن تسجد له ، وحدث كفر إبليس ومعصيته ، أراد الله - جل جلاله - أن يمارس آدم مهمته على الأرض ، وليقوم بحمل الأمانة التي حملها، والتي أبت السماوات والأرض أن يحملنها .

ولكن الحق - سبحانه - قبل أن يمارس مهمته أدخله الله في تجربة عملية عن المنهج الذي سيتبعه الإنسان في الأرض ، وعن الغواية التي سيتعرض لها من إبليس .

---

(١) أخرج الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٤٢) عن ابن عباس أنه قال : « ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وقال عبد بن حميد في تفسيره : عن الحسن قال : لبث آدم في الجنة ساعة من نهار ، تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا . نقله ابن كثير في تفسيره (١/ ٨٠).

(٢) عيش رغد : كثير مخصب رفيه غزير. عيشة رغْد ورغَد: أي واسعة طيبة، والرغد: الكثير الواسع الذي لا يصيبك من مال أو ماء أو عيش أو كلأ (لسان العرب - مادة رغد) قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (النحل) وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٨٩) : « رغد : أي هنيئاً سهلاً».

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته فى الوجود على أساس نظرى ؛ لأن هناك فارقاً بين الكلام النظرى والتجربة .

قد يقال لك شيء وتوافق عليه من الناحية النظرية ، ولكن عندما يأتى الفعل فإنك لا تفعل شيئاً .

إذن :فالفترة التى عاش فيها آدم فى الجنة كانت تطبيقاً عملياً لمنهج العبودية ، حتى إذا ما خرج إلى مهمته لم يخرج بمبدأ نظرى ، بل خرج بمنهج عملى تعرض فيه لافعل ولا تفعل . والحلال والحرام ، وإغواء الشيطان والمعصية .

ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود إلى الله ، وليعرف بنو آدم أن الله لا يغلق بابه فى وجه العاصى ، وإنما يفتح له باب التوبة[1] .

والحق ـ سبحانه ـ أسكن آدم الجنة ، وبعض الناس يقول : إنها جنة الخلد التى سيدخل فها المؤمنون فى الآخرة .. وبعضهم قال : لولا أن آدم عصى لكنّا نعيش فى الجنة .

نقول لهم : لا ، جنة الآخرة هى للآخرة ، ولا يعيش فيها إنسان فترة من الوقت ، ثم بعد ذلك يطرد منها ، بل هى كما أخبرنا الله ـ تعالى ـ جنة الخلد[2] كل من دخلها عاش فى نعيم أبدى .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ (البقرة) .
ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ (٤٨) ﴾ (النساء) .
ويقول أيضًا : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ (الزمر) .

(٢) وصف تعالى جنة الآخرة بأنها جنة الخلد فى قوله تعالى : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً (١٦) ﴾ =

إذن : فما هى الجنة التى عاش فيها آدم وحواء ؟

هذه الجنة هى جنة التجربة ، أو المكان الذى تمت فيه تجربة تطبيق المنهج .

والحق – سبحانه ـ يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة فى الأرض أن تؤدى مهمتها أداء يسعد الإنسان فيها فى الدنيا وينعم فى الآخرة .

لذلك كان لابد أن يدرّب الحق ـ سبحانه ـ خليفته فى الأرض على المنهج ، حتى لا يتلقى المنهج تلقيًا نظرياً ، لذلك شاء الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألا يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة فى « افعل » و « لا تفعل » وحذره من العقبات التى تعترض « افعل » حتى لا تجىء فى منطقة « لا تفعل » .

وحذره كذلك من العقبات فى منطقة « لا تفعل » حتى لا تجىء فى منطقة «افعل » .

واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها[1] حتى لا يتعب فى أى شىء أبداً فى أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هى الجنة ، وهى بستان جميل ، فيه كل مقومات الحياة وترفها .

= (الفرقان) والخلق : دوام البقاء فى دار لا يخرج منها . وخلد بالمكان : أطال الإقامة به . (لسان العرب ـ مادة : خلد)

(١) الترف : التنعم . والمترف : الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش . والمترف : المتنعم المتوسع فى ملاذ الدنيا وشهواتها . (لسان العرب ـ مادة : ترف) .

ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد أطلق لفظ الجنة على جنات الأرض ، والجنة تأتى من لفظ « جن » وهو الستر ، ذلك أن فيها أشجاراً كثيفة تستر من يعيش فيها ، فلا يراه أحد ، وفيها ثمرات تعطيه لاستمرار الحياة ، فلا يحتاج إلى أن يخرج منها.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لآدم بصنع الله ـ سبحانه ـ وإعداده ، وأعطى له منها القدر الذى يعطى المقوم بلا فضلات تتعبه ، ولا ينتفخ ولا يعانى من متاعب فى الصحة .. الخ .

والحق ـ سبحانه ـ قادر على كل شىء ، بدليل أنه يرعى الجنين فى بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ، لأن الغذاء الذى يدخله الله له على قدر النمو فقط .

وحين يكون ربنا هو الذى يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن : فالجنة التى وجد فيها آدم بداية ليست هى جنة الجزاء ، لأن جنة الجزاء لا بد أن تأتى بعد التكليف ، ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها[1].

---

(١) نقل ابن القيم اختلاف المفسرين والعلماء فى الجنة التى أسكنها آدم وزوجه ، هل هى جنة الخلد فى السماء ، أم جنة فى الأرض على ربوة عالية من روابى الأرض ، فقال : « قال منذر ابن سعيد فى تفسيره : وأما قوله تعالى لآدم : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ (البقرة) فقالت طائفة : أسكن الله آدم جنة الخلد التى يدخلها المؤمنون يوم القيامة . وقال آخرون : =

وآدم ـ كما علمنا ـ مخلوق للأرض ، إذن : وجود الجنة هنا يعنى أنها مكان التدريب على المهمة فى الخلافة .

إذن : فهذه الجنة ليست جنة الخلد ، وإنما هى جنة سيمارس فيها تجربة تطبيق المنهج .

ولذلك لا يقال : كيف دخل إبليس الجنة بعد أن عصى وكفر ، لأن هذه ليست جنة الخلد.

والحق ـ سبحانه ـ جعل هذه الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف(١) فى الأرض . إنها كانت تدريباً على المهمة التى سيقوم بها فى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (البقرة : ٣٥)

= هى جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه إياها ليست جنة الخلد . قال : وهذا قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به .

وقال أبو الحسن الماوردى فى تفسيره : واختلف الناس فى الجنة التى أسكناها على قولين :

أحدهما : أنها جنة الخلد .

الثانى : أنها جنة أعدها الله تعالى لهما وجعلها دار ابتلاء . وليست هى جنة الخلد التى جعلها دار جزاء ، ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين :

أحدهما : أنها فى السماء ، لأنه أهبطهما منها .

الثانى : أنها فى الأرض ، لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار .

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (البقرة)

والخلافة والاستخلاف هنا عن الله ـ سبحانه ـ لا كما قال البعض أنه خلافة بشر لبشر. أو =

هو استكمال للمنهج ، فهناك أمر ونهى ، افعل ولا تفعل . ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة : ٣٥) هذا أمر .

﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ (البقرة : ٣٥)

هذا أمر آخر .

أما قوله ـ تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (البقرة :٣٥) فهو نهى.

وهذا أول منهج يعلم الإنسان الطاعة لله ـ سبحانه وتعالى ـ والامتناع عما نهي عنه ، وكل رسائل السماء[1] ومناهج الله فى الأرض أمر ونهى ، افعل كذا، ولا تفعل كذا .

= خلافة عن الجن فى الأرض وقد كانوا فيها ، أو خلافة عن الملائكة .

يقول البهى الخولى فى كتابه القيم « آدم ـ فلسفة تقويم الإنسان وخلافته » : « أما أنها خلافة عن الله ، فذلك ما نجد له وجوهًا من الاستدلال يطمئن إليها العقل منها : تنويه الله به ، فإنه سبحانه قد أعلنها ، ومهد لها فى الملأ الأعلى قبل إظهارها بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ (البقرة) أى : سأجعل فى الأرض خليفة ، وإنما يكون ذلك حين الحفاوة بالأمور الجليلة والأقدار ذات الشأن .

وليس من ذلك فى شىء أن بشراً سيخلف بشراً فى هذه الأرض أو خلقاً سواه ، جناً أو غيره ، فإن العقل ـ على فرض جواز ذلك ـ لا يرى فى شىء منه أى ميزة تدعو للحفاوة بها ، والتمهيد لها قبل ظهورها على النحو الذى بينا .

ومنها ما نلحظه فى دعوة الملائكة إلى مودة ذلك الخليفة ، والحفاوة به ، والسجود له سجود تحية وتكرمة ، وهو أمر خطير لا نجد له حكمة ، إذا كان قد أريد لهذا الخليفة أن يكون خليفة لجن أو بشر أو نحوهما .. إنما تبدو الحكمة وتستقيم الدعوة حين نلحظ أن المحتفى به خليفة عن الله جل شأنه » . (طبعة دار التراث القاهرة ـ صـ ١٢١، ١٢٢).

(١) فكل الأنبياء والرسل جاءوا بالأمر والنهى ، حتى أولئك الرسل الذين لم تنزل عليهم كتب سماوية جاءوا بالأمر والنهى فدعوتهم إلى عبادة الله وحده أمر ، ونهيهم عن عبادة غير الله =

وهكذا فإن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ضمن لآدم الحياة ، وليست الحياة فقط ولكن رغداً ، أي مباحاً وبلا تعب وعن سعة ، وبدون مشقة ، كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كثير والممنوع قليل .

فكل ما فى الجنة من الطعام والشراب مباح لآدم ، ولا قيد إلا على شىء واحد ، شجرة واحدة[1] من بين ألوف الأشجار التى كانت موجودة فى الجنة ، شجرة واحدة فقط هى الممنوعة .

وإذا نظرت إلى منهج السماء إلى الأرض ، تجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أباح فيه نعماً لا تحصى ولا تعد ، وقيَّد فيه أقل القليل ، فالذى نهانا الله عنه بالنسبة لنعم الأرض هو أقل القليل ، كما كان فى جنة آدم شجرة واحدة ، والمباح بعد ذلك كثير .

= نهى ، وبدهى أن الرسل مثل موسى وداود وإبراهيم ومحمد ﷺ جاءوا بكتب بها تكاليف ونواه وأحكام شرعية ، أما عيسى عليه السلام فلم يأت بشريعة جديدة ، بل جاء بالدعوة إلى الالتزام بشريعة موسى عليه السلام ، فهو رسول من بنى إسرائيل أرسل لبنى إسرائيل ، ولذلك جاء فى الإنجيل « ما جئت لأنقض الناموس » ولذلك قالت الجن عندما سمعت تلاوة رسول الله ﷺ للقرآن : ﴿ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ** (٣٠) ﴾ (الأحقاف). فلم يذكروا كتباً أو شريعة لعيسى عليه السلام . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٧٠) : « لم يذكروا عيسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا ﴿ **أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ** (٣٠) ﴾ (الأحقاف).

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (١ / ٧٩) ستة أقوال فى تعيين وتحديد هذه الشجرة : الكرم ، الحنطة، السنبلة ، البر ، النخلة ، التينة . ثم قال : « قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير =

وفى آية أخرى يقول الحق ـ سبحانه :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ[١] (١١٩) ﴾

(طه)

هذه عناصر الحياة التى وفرها الله لآدم وزوجه فى جنة التجربة الإيمانية العملية على التكليف .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ أباح لآدم وحواء أن يأكلا كما يشاءان من الجنة ، والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة ولذلك قال: ﴿حيث شئتما .. (٣٥)﴾ (البقرة)

وأنت لا تستطيع أن تقدم لإنسان صنفاً أو صنفين ، وتقول له : كل ما شئت، لأنه لا يوجد أمامه إلا مجال ضيق للاختيار ، كما أن قلة عدد الأصناف تجعل النفس تملُّ ، ولذلك لا بد أن تكون هناك أصناف متعددة وكثيرة .

= رحمه الله : « والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجه عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل : كانت شجرة البر . وقيل : كانت شجرة العنب . وقيل: كانت شجرة التين . وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم . وكذلك رجح الإبهام الرازى فى تفسيره وغيره وهو الصواب » .

(١) ضحى الرجل يَضْحَى ضحاً إذا أصابه حر الشمس . قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) ﴾ (طه) قال : لا يؤذيك حر الشمس . وقال الفراء : لا تضحى . لاتصيبك شمس مؤذية . (لسان العرب ـ مادة : ضحا) .

ثم جاء النهى فى قوله ـ تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (البقرة)

أى : لا تقتربا من مكانها .

ولكن : لماذا لم يقل الحق ـ سبحانه وتعالى : ولا تأكلا من هذه الشجرة؟

نقول : لأن الله ـ جل جلاله ـ رحمة بآدم وزوجه كان لا يريدهما أن يقعا فى غواية المعصية ، فلو أنه ـ سبحانه ـ قال : ولا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحاً لهما أن يقتربا منها فتجذبهما بجمال منظرها ، ويقتربا من ثمارها فتفتنهما برائحتها العذبة ، ولونها الجذاب .

حينئذ يحدث الإغواء ، وتمتد أيديهما تحت هذا الإغراء إلى الشجرة ليأكلا منها .

ولكن الله ـ تعالى ـ يعلم أن النفس البشرية إذا حرم عليها شىء ولم تحُم حوله كان ذلك أدعى ألا تفعله ، فالله ـ تعالى ـ حين حرم الخمر لم يقل : حُرِّمت عليكم الخمر، وإلا كنا جلسنا فى مجالس الخمر ومع الذين يشربونها ، أو نتاجر فيها ، وهذا كله إغراء بشرب الخمر .

والحق ـ سبحانه ـ قال فى تحريم الخمر :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ(١) وَالْأَزْلَامُ(٢) رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

---

(١) الأنصاب : الأوثان ، جمع نصب . قال القتيبى : النصب صنم أو حجر ، وكانت الجاهلية تنصبه ، تذبح عنده فيحمر للدم . وأصل المادة : نصب الشىءَ : وضعه ورفعه . وقال ابن سيده : الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب فيُهَلُّ عليها ويذبح لغير الله تعالى . (لسان العرب ـ مادة : نصب) .

(٢) الأزلام : جمع زلم ، وهى القداح التى كانت فى الجاهلية ، كان الرجل منهم يضعها فى=

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ (المائدة)

واجتنابه يكون بألا توجد معه فى مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك ، فعندما تكون مثلاً فى منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق (اجتنبها).

أى : لا تذهب إليها[١]، لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون ، فقد تشربها .

لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع فى براثنها[٢] وإغرائها .

ولذلك قلنا : إن الاجتناب أبلغ من التحريم .

فإذا رأيت مكاناً فيه خمر فابتعد عنه فى الحال ،حتى لا يغريك منظرالخمر وشاربها بأن تفعل مثله ، أما إذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها .

= وعاء له ، فإذا أراد سفراً أو رواحاً أو أمراً مهماً أدخل يده فأخرج منها زُلَمًا ، فإن خرج الأمر مضى لشأنه ، وإن خرج النهى كفَّ عنه ولم يفعله (لسان العرب ـ مادة : زلم) .

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « لعن الله الخمر ولعن شاربها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٩٧) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٢).

(٢) البراثن فى أصل اللغة : جمع بُرثُن ، وهو مخلب الأسد . وقيل : البرثن الكف بكمالها مع الأصابع . (لسان العرب ـ مادة : برثن) والمقصود هنا أن للخمر والأنصاب والأزلام ضراوة واعتياداً إذا اعتادها الإنسان كأنه وقع بين مخالب أسد ، فكيف النجاة منه ؟

ثم يقول ـ سبحانه :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا(١) الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ (البقرة)

فالحق ـ سبحانه ـ بعد أن أسكن آدم وزوجه فى الجنة ، وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام ، بدأ الشيطان مهمته ، مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته .

والحق ـ سبحانه ـ يقول : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ (البقرة)

أى: أن الشيطان باشر مهمته ، فأوقعهما فى الزَّلة ، وهى العثرة(٢) أو الكبوة(٣).

كيف حدث هذا ، والله ـ تعالى ـ قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعا الشيطان ، وأبلغه أنه عدو لهما فى قوله ـ تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾ (طه)

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٣٥٤) : « قرأ الجماعة : فأزلهما بغير ألف ، من الزلة وهى الخطيئة أى : استزلهما وأوقعهما فيها ، وقرأ حمزة : فأزالهما بألف، من التنحية أى نحاهما . قال ابن كيسان : فأزالهما من الزوال أى : صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية » .

(٢) عثر وتعثر : كبا . والعثرة : الكبوة والزلة .ويقال : عثر به فرسه فسقط وتعثر لسانه :تلعثم . وفى الحديث : « لا حليم إلا ذو عثرة » . أى : لا يحصل له الحلم ويوصف به حتى يركب الأمور وتنخرق عليه ويعثر فيها فيعتبر بها ويستبين مواضع الخطأ فيجتنبها ، ويدل عليه قوله بعده : « ولا حليم إلا ذو تجربة » (لسان العرب ـ مادة : عثر)

(٣) الكبوة مثل الوقفة تكون عن الشىء يكرهه الإنسان يُدعى إليه أو يراد منه كوقفة العاثر . والكبوة أيضاً : السقوط للوجه . وكبا يكبو كبوة إذا عثر . (لسان العرب ـ مادة : كبو) .

إذن : فالعداوة مُعلنة ومُسبقة ، ولنفرض أنها غير مُعْلنة ، ألم يشهد آدم الموقف الذى عصى فيه إبليس أمر الله ولم يسجد لآدم ؟ ألم يعرف مدى تكبُّر إبليس عليه فى قوله : أنا خير منه[1] . وقوله : أأسجد لمن خلقت طيناً[2] .

كل هذا كان ينبغى أن ينبه آدم إلى أن إبليس لن يأتى له بخير أبداً .

والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التى نشأت عن موقف إبليس فى رفضه السجود ، بل أخبر آدم أن الشيطان عدو له ولزوجه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ... (٣٦) ﴾ (البقرة)

من ماذا أخرجهما ؟

أخرجهما من العيش الرغيد[3] ، من واسع النعمة فى الجنة ، من الهدوء والاطمئنان فى أن رزقهما يأتيهما بلا تعب .

---

(١) يقص الحق سبحانه لنا هذا فى سورة الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ (الأعراف)

وجاءت أيضاً فى سورة ص : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾ (ص)

(٢) وذلك فى قوله تعالى عنه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ (الإسراء)

(٣) عيش رغد : كثير رفيه غزير . الرغد : الكثير الواسع الذى لا يعييك من مال أو ماء أو =

فكان يجب على آدم أن يتنبه إلى أن إبليس يعتبره السبب فى طرده من رحمة الله ، فلا يقبل منه نصيحة ولا كلاماً ويحتاط . ولكن :

كيف أزل الشيطان آدم وزوجه وأخرجهما من الجنة ؟

قال تعالى :

﴿فَوَسْوَسَ[1] لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا[2] وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾

(الأعراف)

أخرجهما بالوسوسة والكذب والمخادعة ، فكلمة « وسوس » تدل على الهمس فى الإغواء ، ونحن نعرف أن الذى يتكلم فى خير لا يهمه أن يسمعه الناس ، لكن من يتكلم فى شر فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكأن كل شر لا بد أن يأتى همساً ، و صاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحى منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشىء .

و(وسوس) مأخوذة من الصوت المغرى ، لأن الوسوسة هى صوت رنين الذهب والحلى .

= عيش أو كلأ . (لسان العرب : مادة رغد).

(١) الوسوسة والوسواس : الصوت الخفى . وهو أيضاً حديث النفس . والوسواس : الشيطان ، وقد وسوس فى صدره ووسوس إليه . (لسان العرب ـ مادة : وسوس)

(٢) السوءات جمع سوأة ، وهى : العورة والفاحشة . والسوأة : الفرج . قال الليث : السوأة : فرج الرجل والمرأة . قال ابن الأثير : السوأة فى الأصل الفرج ثم نقل إلى كل ما يستحيا منه من قول أو فعل . (لسان العرب ـ مادة : سوأ)

إذن : فما قاله الشيطان لآدم وزوجه هو كلام مُغْرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم .

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ... (٢٠) ﴾ (الأعراف)

يعطينا حيثيات البراءة لحواء ، لأن الشائع أن حواء هى التى ألحت على آدم ليأكلا من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لآدم وحواء معاً .

وهل وسوس الشيطان ليبدى لهما ما ورى من سوءاتهما ، أو وسوس ليعصيا الله ؟

لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشىء الذى حرمه ربنا ستظهر سوءاتهما .

والسوءة هى ما يسوء النظر إليه ، ونطلقها على العورة ، والفطرة تستنكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة ، وكأنهما فى البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه ، لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ[1] عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ... (٢٠) ﴾ (الأعراف)

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها ، وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا ـ كما قلنا ـ فى حاجة إلى إخراج فضلات ، لأن إعداد الله يعطى

(١) وريت الشىء وواريته : أخفيته . وتوارى هو استتر . ووُرى : سُتِر (لسان العرب ـ مادة : ورى)

كلاً منهما على القدر الكافى للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها .

لكن حينما يخرجان عن مرادات الله فى الطعام ، ويأكلان غير ما أمر الله به ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات فى الخروج بما لها من رائحة غير مقبولة .

فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمنهج الله ، سواء أكان ذلك فى القيم والمعنويات ، أم فى الأمور المادية ؟

نعم ، لأن كل شىء يخالف فيه منهج الله لا بد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيتَ أى عورة فى المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل .

وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة : ﴿ **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** (٢٠) ﴾ (الأعراف)

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق أراد أن لا تقربا هذه الشجرة ، لأن من يأكل منها يصير ملكاً أو خالدًا ، ولم يمحص[١] أى منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيده كان ضعيفاً واهياً وغبياً .

---

(١) المحص فى اللغة : التخليص والتنقية . والتمحيص : الاختبار والابتلاء .

ويقال : محصت الذهب بالنار إذا خلعته مما يشوبه .

(لسان العرب ـ مادة : محص) والتمحيص المطلوب من آدم هو وزن كلام الشيطان وتدبره والتفكر فيه لئلا يقع فى المحظور الذى نهاه عنه ربه .

لأنه ما دام يعرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين ، فلماذا لم يخطف منها ما يجعله ملكاً أو خالداً ؟

وفى هذا درس يبين لنا أن من يزين له ، ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحص إلى أى غواية يسير ، وأن يدقق فى نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي[1] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الأعراف)

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهى المسألة ؟

إذن : كان ما يقوله الشيطان كذباً .

وفى إغواء آخر قال إبليس :

﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ[2] ﴿١٢٠﴾ ﴾ (طه)

وهكذا نعرف أن إبليس يأتى للإنسان من أكثر من زاوية ؛ لذلك كانت الزاوية الأولى هى أن هذه الشجرة من يأكل منها يكون ملكاً ، أو يكون خالداً .

وكان الإغواء الثانى أن هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود مُلكاً لا ينتهى .

---

(١) الإنظار : التأخير والإمهال . وأنظره : أخره . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . (لسان العرب ـ مادة : نظر)

(٢) بلى الثوب بلى وبلاء : رث وصار عرضة للفناء . قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (طه) ، أى : لا يفنى ولا يزول ولا ينتهى .

إذن : فإبليس يُصوِّر للإنسان أن ما منعه الله عنه هو الخير ، وأنه لو عصى فسيحصل على المال والنفوذ .

لقد أكل آدم وحواء من الشجرة فلم يخلدا ولم يأت لهما ملك لا ينتهى ، بل ظهرت عوراتهما ، وعرفا أن إبليس كان كاذباً ، وأن الله سبحانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه إنما كان يريد لهما الخير .

ولكن الشيطان يأتى ويُزيِّن للإنسان طريق الباطل ، ولو أن آدم كان قد حكَّم عقله لعرف كذب وسوسة إبليس ، فإبليس كما يدعى كان يدل آدم على شجرة الخلد ، ولو أن هذه الشجرة كانت تعطى الخلد فعلاً لما طلب إبليس من الله تبارك وتعالى أن يُبقِي على حياته إلى يوم القيامة ، بل لأكل من الشجرة ونال الخلد .

ولكن إبليس دخل من ناحية الغفلة فى النفس البشرية ليوقع آدم فى المعصية.

وهو يدخل إلى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضاً ، ولو أن أبناء آدم حكَّموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مسبقة بين آدم وإبليس ، وأن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة لينتقم من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية ، لو تنبهنا إلى ذلك لأخذنا حذرنا ، وعندما تنكشف وسوسة الشيطان فإنه يهرب .

إبليس دخل إلى ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله ، وأن الله عزيز لا يحتاج

لخلقه ، ولا يضره سبحانه وتعالى من كفر ، ولا يزيد شيئاً فى مُلْكه من آمن .

قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ (ص)

دخل إبليس إلى غواية بنى آدم بعـزة الله سبحانه وتعـالى عن خلقه ، فلو أن الله سبحـانه أراد خلقه جميعاً مـهديين ما استطاع إبليس أن يتقدم نـاحية واحد منهم .

ومعنى عزة الله أنه غنى عن خلقـه جميعاً ، لا يحتاج لأحـد منهم ، فهو الله بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد ، آمن به الناس جميعاً ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ، ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً .

وقسم إبليس بعـزة الله إقرار منه بها ، وقد أقسم بعـزة الله أن يطلب الغواية للإنسان ، لأن الله سبحانـه وتعالى ما دام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه ، لذلك أعطاهم حرية الاختيار .

ولو أراد الله الناس مـؤمنين مـا استطـاع إبليس أن يقتـرب من أحـد منهم ، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان .

ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن ؟

لا ، ولذلك فهناك استثناء :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ (ص)

أى : أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص فى إيمانه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَدَلاَّهُمَا[1] بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا[2] يَخْصِفَانِ[3] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) ﴾ (الأعراف)

أى : أنزلهما من رتبة الطاعة إلى دَرَك[4] المعصية والذنب ، مما غرَّهما به وخدعهما من القسم . والدل مأخوذ من دَلَّى رِجْلَيه فى البئر كى يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أو دَلَّى حبل الدلو لينزله فى البئر . ومعناها : أنه يفعل الشىء مرة فمرة.

---

(١) أدليت الدلو ودليتها إذا أرسلتها فى البئر لتستقى بها . وقوله تعالى : ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ .. (٢٢) ﴾ (الأعراف) قال أبو إسحاق : دلاهما فى المعصية بأن غرهما .. وقال غيره : فدلاهما فأطمعهما . وقال الجوهرى : دلاه بغرور أى أوقعه فيما أراد من تغريره وهو من إدلاء الدلو . (لسان العرب ـ مادة : دلا)

(٢) طفق يفعل كذا : جعل يفعل وأخذ . قال الليث : طفق بمعنى علق يفعل كذا، وهو يجمع: ظل وبات . (لسان العرب ـ مادة : طفق)

(٣) خصف العريان على نفسه الشىء يخصفه : وصله وألزقه . وقوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢) ﴾ (الأعراف)
أى : يلزقان بعضه على بعض ليسترا به عورتيهما . (لسان العرب ـ مادة : خصف).

(٤) الدَّرْك والدرَك: أقصى قعر الشىء. والدرك: الأسفل فى جهنم أقصى قعرها، والجمع: أدراك. ودركات النار: منازل أهلها، والنار دركات، والجنة دركات والدرك إلى أسفل والدرج إلى فوق . (لسان العرب : مادة ـ درك).

و ﴿ بِغُرُورٍ .. (٢٢) ﴾ (الأعراف)

أى : بإغراء لكى يُوقعهما فى المخالفة ، فأظهر لهما النصح ، وأبطن لهما الغش .

ولذلك يسمى الله الشيطان « الغَرُور » فى قوله تعالى:

﴿ .. وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ (فاطر)

إنه الشيطان الذى يُزين للناس بعض الأمور ويحث الخلق ليطمعوا فى حدوثها ، وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صواب فيها ، فهى مما زيَّنه الشيطان، ولذلك فحصيلتها لا تتناسب مع الطمع فيها .

ويقال عن الرجل الذى ليس له تجربة : إنه « غِرٌّ » فيأتى بأشياء بدون تجربة ، فلا ينتفع منها ، ولا تصح .

إذن : فكل مادة « الغرور » مأخوذة من إطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، لذلك سَمَّى الله الشيطان « الغرور » ؛ لأنه يُطمِعنا نحن البشر بأشياء لا تصح ولا تحدث .

ولهذا سوف يأتى الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ويتهمهم بالبلاهة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ (إبراهيم)

والشيطان بذلك يتملص من الذين اتبعوه ، لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر ، فقط نادى بعضاً من الخلق ، فزاغت أبصارهم واتبعوه من فرط غبائهم ، فإرادة الشيطان هى إرادة تزيين ، لا إرادة قدرة على القهر أو الإقناع .

فقول الشيطان هذا هو(١) سخرية ممن صدقوه ، لأن السلطان إما سلطان القهر بأن تأتى لإنسان بما هو أكبر منه وتقهره على فعل شىء بالقوة ، وإما سلطان الإقناع بأن تقنع إنساناً بأن يفعل شيئاً ، والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة.

لذلك يوجهنا الحق سبحانه إلى الاعتبار بما كان بين آدم وإبليس ، فيقول تعالى :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٩) فى تأويل الآية ٢٢ من سورة إبراهيم : « يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ، ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وغبناً إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ** ﴾ أى : على ألسنة رسله ، ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ، كما قال تعالى : ﴿ **يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** (١٢٠) ﴾ (النساء) . ثم قال : ﴿ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ** ﴾ أى : ما كان لى دليل فيما دعوتكم إليه ﴿ **إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي** ﴾ بمجرد ذلك هذا ، وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ **فَلَا تَلُومُونِي** ﴾ اليوم ﴿ **وَلُومُوا أَنفُسَكُم** ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتمونى بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ **مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ** ﴾ أى : بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ **وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ** ﴾ أى : بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ **إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ** ﴾ قال قتادة : أى بسبب ما أشركتمون من قبل . وقال ابن جرير : يقول إنى جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل وهذا الذى قاله هو الراجح » .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[١] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ (الأعراف)

إياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ، لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم ، فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة.

إن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يُخرجنا من جنة التكليف ،كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة .

ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربه عز عليه ذلك ، فبعد أن كان فى قمة الطاعة صار عاصياً لأمر الله معصية أدته وأوصلته إلى الكفر ، لأنه رد الحكم على الله .

إن ذلك قد أوغر[٢] صدره وأحنقه[٣] ، وجعله يوغل ويسرف فى عداوته للإنسان ، لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته .

***

---

(١) القبيل : الجماعة من الناس يكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى ، كالزنج والروم والعرب، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة . ويقال لكل جمع من شئ واحد قبيل . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ.. ﴾ (الأعراف). أى : هو ومن كان من نسله . (لسان العرب ـ مادة : قبل).

(٢) الوغر : احتراق الغيظ . ومنه قيل : فى صدره علىَّ وَغْر ، أى : ضغن وعداوة وتوقد من الغيظ . ويقال : وَغِر صدره عليه إذا امتلأ غيظاً وحقداً . وقيل : هو أن يحترق من شدة الغيظ (لسان العرب ـ مادة : وغر)

(٣) الحنق : شدة الاغتياظ . (اللسان).

فضل التجاوز عن المدين المعْسِر

١٨ عن أبى مسعود الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ :

« حُوسِبَ رجلٌ ممنْ كانَ قبلكُمْ ، فلم يُوجَدْ له مِنَ الخيْرِ شَىءٌ إلا أنه كانَ يُخالط[١] الناس ، وكانَ مُوسِراً[٢] ، فكَان يأمرُ غِلْمانه أنْ يَتجاوزوا عن المعْسِرِ »

قال: قال الله عز وجل :

« نحنُ أحقُّ بذلِكَ مِنْه ، تَجاوزوا عَنْه »[٣].

---

(١) خلط القوم وخالطهم : داخلهم . وخليط الرجل : مخالطه . وخليط القوم : مخالطهم كالنديم المنادم ، والجليس المجالس . والخلطة : الشركة . وقوله عز وجل ﴿**وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴿٢٤﴾﴾ (ص) .

فالخلطاء ههنا الشركاء الذين لا يتميز ملك كل واحد من ملك صاحبه إلا بالقسمة . (لسان العرب ـ مادة : خلط)

(٢) اليسر واليسار والميسرة : السهولة والغنى والسعة . وأيسر الرجل إيساراً ويسراً : صار ذا يسار . أى : استغنى : يوسر . ويقال : أيسر أخاك أى: نفِّس عليه فى الطلب ولا تعسره أى : لا تشدد عليه ولا تضيق . (لسان العرب ـ مادة : يسر) .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١١٨) ومسلم فى صحيحه (١٥٦١) والترمذى فى سننه (١٣٠٧) وقال : هذا حديث حسن صحيح . من حديث أبى مسعود الأنصارى .

وقد ورد هذا الحديث عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم . فقالوا : أعملت من الخير شيئاً ؟ قال : لا . قالوا : تذكر . قال : كنت أداين الناس ، فآمر فتيانى : أن يُنظروا المعسر ، ويتجوزوا عن الموسر ، قال قال الله عز وجل : تجوزوا عنه » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٥٦٠) .

وفى رواية عنه أيضاً عند مسلم : « أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالاً ، فقال له :=

إن الإسلام قد بنى العملية الاقتصادية على الرِّفْد[1] والعطاء ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ (البقرة)

هذا قانون يريد به الله تعالى أن يحارب الشح فى نفوس المخلوقين ، إنه يقول لكل منا : انظر النظرة الواعية ، فالأرض لا تنقص من مخزنك حين تعطيها كيلة من القمح ، صحيح أنك أنقصت كيلة من مخزنك لتزرعها ، ولكنك تتوقع أن تأخذ من الأرض أضعافها.

= ماذا عملت فى الدنيا ؟ قال : يا رب آتيتنى مالك ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خُلقى الجواز ، فكنت أتيسر على الموسر ، وأُنظِر المعسر . فقال الله : أنا أحق بذا منك ، تجاوزوا عن عبدى ».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط ، وكان يداين الناس ، فيقول لرسوله : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله تعالى أن يتجاوز عنا ، فلما هلك ، قال الله عز وجل له : هل عملت خيراً قط ؟ قال : لا . إلا أنه كان لى غلام ، وكنت أداين الناس ، فإذا بعثته ليتقاضى . قلت له : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا . قال الله : قد تجاوزت عنك » أخرجه النسائى فى سننه (٧/ ٣١٨).

(١) الرفد : العطاء والصلة . رفده يرفده : أعطاه . وأرفده : أعانه . وترافدوا : أعان بعضهم بعضاً . والرفادة : شىء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية ، فيُخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجُزر والطعام والزبيب للنبيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام موسم الحج .

والإرفاد : الإعطاء والإعانة . والمرافدة : المعاونة . والترافد : التعاون . والاسترفاد : الاستعانة. والارتفاد : الكسب (لسان العرب ـ مادة : رفد) .

وإياك أن تظن أن ما تعطيه الأرض يكون لك فيه ثقة ، وما يعطيه الله لا ثقة لك فيه .

فالحق سبحانه يطمئننا أن الصدقة والنفقة لا تنقص المال بل تزيده ، وضرب لنا المثل بالأرض التى تؤتينا بدل الحبة الواحدة سبعمائة حبة .

ورسول الله ﷺ يؤكد لنا هذه الحقيقة ، فيقول :

« ما نقص مال من صدقة» (١)

فالصدقة هى التى تكثر المال ، وتضع فيه البركة ، فيزداد وينمو ، والمال هو مال الله ينتقل من يد إلى يد فى الدنيا ، ثم يموت الإنسان ويتركه .

فلا تعتقد أن الصدقة وإيتاء الزكاة ينقصان مالك ، فقد يكون هذا صحيحاً فى ظاهر الأمر ، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا المال فيزيده لك وينميه .

فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مِثْل ، ثم تضاعف إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الحكم الذى يأخذ منك الآن وأنت غنى هو بذاته الذى سوف يعطيك إن افتقرت ولجأت إلى الناس .

فإذا كان الحكم الذى سيأخذ هو الذى سيعطى ، تكون هذه عدالة وتأميناً

---

(١) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٨٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٥ ، ٣٨٦) والترمذى فى سننه (٢٠٢٩) . قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

ضد الأغيار ، وعليك أن تقارن الصفقة النفعية بمقابلها .

وساعة تعطى أنت الذى لا يملك ، لا بد أن تتذكر أنه قد يأتى عليك يوم لا تملك فيه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) ﴾ (البقرة)

فالشيطان يوسوس لكم بأن الإنفاق إفقار لكم ، ويحاول أن يصرفكم الإنفاق فى وجوه الخير ، ويغريكم بالمعاصى والفحشاء ، فالغنىُّ حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدخل فى قلب المحتاج الحقد ، وأىُّ مجتمع يدخل فى قلبه الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه.

والحق سبحانه لا يسألك أن ترد عطاءه لك من المال ، إنما يطلب تعالى تطهير المال بالإنفاق منه فى سبيل الله ليزيد وينمو ، وليخرج الضِّغْن [1] من المجتمع ، لأن الضغن حين يدخل مجتمعاً فعلى هذا المجتمع السلام.

ولا يفيق المجتمع من هذا الضغن إلا بأن تأتيه ضربة قوية تزلزله ، فيتنبه إلى ضرورة إخراج الضغن منه ، لذلك يحذرنا سبحانه أن نسمع للشيطان.

---

(١) الضِّغْن والضِّغَن : الحقد والجمع أضغان، وكذلك الضغينة، وجمعها الضغائن. والضغن : الحقد والعداوة والبغضاء . وتضاغن القوم واضطغنوا : انطووا على الأحقاد . (لسان العرب - مادة : ضغن).

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ (البقرة)

فالذى يسمع لقول الشيطان ووعده ، ولا يستمع إلى وعد الله يصبح كمن رحَّج عدو الله على الله - أعاذنا الله وإياكم من مثل هذا الموقف - إن الشيطان قد وسوس لكم بالفقر إذا أنفقتم.

وخبرة الإنسان مع الشيطان تؤكد للإنسان أن الشيطان كاذب مُضَلّل ، وخبرة الإنسان مع الإيمان بالله تؤكد للإنسان أن الله واسع المغفرة ، كثير العطاء لعباده.

والحكمة تقتضى أن نعرف إلى أىِّ الطرق نهتدى ونسير .

ومن الإنفاق فى سبيل الله إقراض المحتاجين المقترضين قرضاً حسناً لا يدخله رِباً ولا مَنٌّ (١) ولا أذىً.

يقول تعالى :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ (البقرة)

---

(١) مَنّ عليه منة : امتن عليه ، يقال : المنة تهدم الصنيعة. وقوله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ... ﴿٢٦٤﴾ ﴾ (البقرة) المنُّ هنا : أن تَمُنَّ بما أعطيت وتعتد به كأنك إنما تقصد به الاعتداد ، والأذى : أن تُوبِّخ المعطى ، فأعلم الله أن المن والأذى يبطلان الصدقة. (لسان العرب – مادة : منن).

ساعة تسمع ﴿ يُقْرِضُ اللَّهَ ... ﴿٢٤٥﴾ ﴾ (البقرة) فذلك أمر عظيم لأنك عندما تقرض إنساناً فكأنك تقرض الله ، وتعاملك يكون مع الله.

والحق سبحانه يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية ، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس.

والقرض فى اللغة (١) معناه : قَضْم الشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هى مسألة صعبة ، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله «يقرض».

إنه سبحانه المقدِّر لصعوبتها ، ويُقدِّر الجزاء على قَدْر الصعوبة.

ولكن ما هو القرض الحسن ؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد الله لا يكون القرض حسناً ؟

إنك إذا أقرضتَ عبداً من عباد الله فكأنك أقرضتَ الله ، صحيح أنت تعطى الإنسان ما ييسر له الفرج فى موقف متأزم ، وهو سبحانه يبلغنا : أن مَنْ يقرض عبادى فكأنه أقرضنى ، كيف ؟

لأن الله هو الذى استدعى كل عبد له للوجود ، فإذا احتاج العبد فإن حاجته

---

(١) القرض : القطع. قرضه يقرضه : قطعه. والقراضة : ما سقط بالقرض ومنه قراضة الذهب. والقراضة : فُضالة ما يقرض الفأر من خبز أو ثوب أو غيرهما ، وكذلك قُراضات الثوب التى يقطعها الخياط. قال الجوهرى : القرض ، ما يعطيه من المال ليُقضاه . (لسان العرب ـ مادة: قرض).

مطلوبة لرزقه في الدنيا ، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يُقرض الله المتكفِّل برزق ذلك المحتاج.

وقوله تعالى ﴿ يُقْرِضُ اللَّهَ ... (٢٤٥) ﴾ (البقرة) يدلنا على أن القرض لا يضيع، لأن القرض شيء تُخرجه من مالك على أمل أن تستعيده ، وهو سبحانه وتعالى يُطمئنك على أنه هو الذى سيقترض منك ، وأنه سيردُّ ما اقترضه ، لكن ليس في صورة ما قدمت ، وإنما في صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة.

إن الأصل محفوظ مستثمر ، ولذلك يقول :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ (البقرة)

إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله عز وجل ، لا بمقاييسنا كبشر .

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدلنا على أن مصدر المال الذى تُقرض منه لابُدَّ أن يكون من حلال (١)، ولذلك قيل للمرأة التى تتصدق من مال الزنا : «ليتها لم تَزْنِ ولم تتصدق ».

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ (المؤمنون) وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ... (١٧٢) ﴾ (البقرة) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يارب ، يارب، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّي بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك » أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الزكاة - حديث ٦٥.

وقيل : إن القرض ثوابه أعظم من الصدقة ، مع أن الصدقة يجود فيها الإنسان بالشيء كله ، في حين أن القرض هو دَيْن يسترجعه صاحبه ؛ لأن الألم في إخراج الصدقة يكون لمرة واحدة ، فأنت تُخرجها وتفقد الأمل فيها.

أما القرض فتتعلق نفسك به ، فكلما صبرتَ مرة أتتْك حسنة ، كما أن المتصدَّق عليه قد يكون غير محتاج ، ولكن المقترض لا يكون إلا مُحتاجاً.

والقرض من المال الذي لديك يجعل المال يتناقص ، لذلك فالله يعطيك أضعافاً مُضاعفة نتيجة هذا القرض ، وذلك مناسب تماماً لقوله تعالى : ﴿ **يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ** ... (٢٤٥) ﴾ (البقرة)

أي : أن المال الذى تقرض منه ينقص فى ظاهر الأمر ، ولكن الله سبحانه يزيده ويبسطه أضعافاً مُضَاعفة ، وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلاً.

وإذا احتاج أخ مسلم فالحق سبحانه لا يقول لك « أعطه من عندك ، أو أقرضه من عندك » إنما يقول لك : « أقرضنى أنا ، لأنِّى أنا الذى أوجدتُه فى الكون ، ورِزْقه مطلوب مِنِّى ».

فكأنك حين تعطيه تقرض الله.

إنه سبحانه مُتفضِّل بالنعمة ، ثم يسألك أن تقرضه هو.

والحق سبحانه بذلك قد أغنى عباده عن أن يذلوا أنفسهم لغيره تعالى ، فسبحانه أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأىِّ مصدر من مصادر القوة ،

أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح.

إنْ أردت أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز ، فاذهب إلى الله ، لأنه سبحانه أعزَّنا فنحن خَلْقه ، وهذا يتمثل فى أن الحق سبحانه لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال سبحانه :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ... (٢٤٥) ﴾ (البقرة)

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة ، العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله.

ومع أن المال مال الله ، فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذى يأتيه بالمال ، وطلب منه أن يعطى بعضاً منه أخاه المحتاج ، ابتغاءَ مرضاةِ الله ، واعتبر سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جَلَّ جلاله ، وكأن الذى يعطى المال للمحتاج يُقرِض الله .

وفى هذا مَيْزة للغنى والفقير ، فالغنى يأخذ مَيْزة وشرف أنه أعطى لله ، والفقير أخذ مَيْزة ، لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

والمال ليس غاية فى حَدِّ ذاته ، ولكنه وسيلة ، وعندما يمنع الغنىُّ ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غايةً فلا ينفعه.

أما إذا أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير ، فهو قد أعاد إلى المال وظيفته فى

أنه وسيلة من وسائل الحياة ، وأنت تشترى بالمال ما تعتقد أنه ينفعك ، فعليك أن تُوظِّفه فى أكمل ما ينفعك ، وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

والحق سبحانه يصف القرض بأنه حسن ، حتى لا يكون فيه مَنٌّ ، أو منفعة تعود على المقرض ، وإلا صار فى القرض رِباً.

ولنا الأُسْوة الحسنة فى أبى حنيفة عندما كان يجلس فى ظل بيت صاحب له، واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال ، وجاء اليوم التالى للقرض، وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت : لماذا تجلس بعيداً ؟

أجاب أبو حنيفة : خِفْتُ أن يكون ذلك لوناً من الربا.

قال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تُقرضنى ؟ !

فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل علىَّ بظلِّ بيتك ، فأخاف أن أقعد وأنا المتفضِّل عليك بالمال .

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذىً أو منفعة ، ولأن القرض دَيْن وضع الحق سبحانه له القواعد :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ . . (٢٨٢) ﴾

(البقرة)

فالحق سبحانه يحمى المقترض من نفسه ، لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسُدَّ هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

وعندما يُكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحاثٌّ عليه ، لكن إن لم يُكتَب القرض فقد يأتي ظرف من الظروف ويتناسى القرض.

ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة في أيٍّ أزمة ، فيريد سبحانه أن يُديم الأسباب التي تُتداول فيها الحركة .

ولذلك يُقال في الأمثلة العامية : مَنْ يأخذ ويعطي يصير المال له ، ويكون مال الدنيا كلها معه.

ولذلك يقول الحقُّ سبحانه :

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ[1] عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا .... (٢٨٢) ﴾ (البقرة)

وفي ذلك حمايةٌ للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية[2] الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ... (٢٨٣) ﴾ (البقرة)

وهكذا يحمي الله الحركة الاقتصادية.

ونجد رسول الله ﷺ وهوالرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات

---

(١) القِسْط: العدل. ويقال : أقسط وقسط إذا عدل، وأقسط في حكمه: عدل ، فهو مُقسِط ، والإقساط: العدل في القسمة والحكم. (لسان العرب ـ مادة : قسط).

(٢) الأرْيح : الواسع من كل شيء . والأريحي : الواسع الخلق المنبسط إلى المعروف . والاسم الأريحية . (لسان العرب ـ مادة : ريح).

وعليه دين ، فقال للصحابة : صَلُّوا على أخيكم[1]. لكنه لم يُصلِّ على الميت.

وتساءل الناس : لماذا لم يُصَلِّ رسول الله على هذا الميت ؟ وما ذنبه ؟

كـأن رسـول الله ﷺ أراد أن يُعلِم المؤمنين عن دَيْن المدين ، فلم يمنع الصلاة، ولكنه لم يُصَلِّ عليه حَفْزاً للناس ودَفْعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين .

ورسول الله ﷺ قال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه .. ومن أخـذها يريد إتلافها أتلفه الله »[2]

وفى فلسفة هـذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قَدَّم القرض ألاَّ يمر على المقترض حتى لا يحرجه ، ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض ، لأن المقترض يريد أن يسدد القرض.

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كـان يُؤْتَى بالرجل الميت عليه الدين ، فيسأل : هل ترك لدينه من قضاء ، فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه ، وإلا قال : « صلوا على صاحبكم». فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. فمن تُوفى وعليه دين فعليَّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته. أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦١٩) كتاب الفرائض.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٦١، ٤١٧) والبخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٤١١) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

أما إنْ تحرَّك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيـمة الدَّيْن ، فَلْيُفهم أن عند الذى اقترض بعضَ مَا يسدد به الدَّيْن . أى : أن المدين عنده القدرة على الوفاء بـالدَّيْن أو ببعـضه ، ذلك أن الله لا يُحـرج مَنْ يَجِدّ ويجـتهد فى الـسعى لسداد دينه.

والحق سـبحـانـه يُوجِّـه المدين إلى أداء دَيْنه ، ويُوجِّـه المؤتمن إلى أن يؤدى أمانته، فيقول سبحانه :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ . .(٢٨٣) ﴾ (البقرة)

إنه الطمـوح الإيمانى ، لم يَسُـدّ الله مسـألة المروءة والإيثار فى التعـامل ، إن كتابة الدين والإشهاد والرَّهْن ليس إلزاماً . وقد يفهم البعض أن الذى أؤتمن هو المدين، وهنا نقـول : لا . إن الأمـر مخـتلف ، فهنـا رِهان ، وذلك معناه وجـود مسألتين :

المسألة الأولى : هى «الدَّيْن» .

والمسألة الثانية : هى « الرهان المقبوضة» .

وهى مقابل الدين ، فواحد مـأمون على الرَّهْن فى يده ، والآخر مأمون على الدَّيْن.

ولهـذا يكون القول الحكيم مـقصـوداً به مَنْ بيده الرَّهن ، ومن بيـده الدَّيْن ، ومعنى ذلك أن يؤدى مَنْ معه الرهن أمانته ، وأن يؤدى الآخر دينه.

وحين نرتقى إلى هذا المستوى فى التعامل فإن وازع الإنسان ليس فى التوثيق الخارج عن ذات النفس ، ولكنه التوثيق الإيمانى بالنفس.

ولكن ، أنضمن أن يوجد التوثيق الإيمانى عند كل الناس ؟

أنضمن الظروف؟

نحن لا نضمن الظروف ، فقد توجد الأمانة الإيمانية وقت التحمُّل والأخذ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء ، فقد يأتى واحد ويقول لك : إن عندى مائة جنيه ، وخُذها أمانة عندك.

ومعنى « أمانة » أنه لا يوجد صَكّ[1] ، ولا شهود ، وتكون الذمة هى الحكم ، فإن شئتَ أقررتَ بهذه الجنيهات المائة ، وإن شئتَ أنكرتها.

إن الرجل الذى يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جنيه فى الذمة الإيمانية . ومن الجائز أن تقول له لحظة أن يفعل معك ذلك : نعم سأحتفظ لك بالمائة جنيه بمنتهى الأمانة. وتكون نيتك أن تؤديها له ساعة أن يطلبها ، ولكنك لا تضمن ظروف الحياة بالنسبة لك ، وأنت كإنسان من الأغيار.

ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة ضَغْطاً يجعلك تماطل معه فى أداء الأمانة ، أو يجعلك تنكرها ، فتقول لمن ائتمنك :

---

(١) الصك : الكتاب . فارسى معرب ، وجمعه صكوك وصكاك ، وأصله چك . وكانت الأرزاق تسمى صكوكاً لأنها كانت تُخرج مكتوبة . (لسان العرب ـ مادة : صك).

ابعد عنى ، أنا لا أملك نفسى فى وقت الأداء ، وإن ملكت نفسى وقت التحمُّل.

إذن : فالإنسان وإن كان واثقاً أنه سيؤدى الأمانة إلا أنه عُرْضة للأغيار ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٢٨٢) ﴾ (البقرة)

فالكتابة فرصة ليحمى الإنسان نفسه من الضعف وقت الأداء ، فالله سبحانه يريد أن يُوثِّق الأمر توثيقاً ، لا يجعلك أيها العبد خاضعاً لذمَّتك الإيمانية فقط، ولكنك تكون خاضعاً للتوثيق الخارج عن إيمانيتك أيضاً ، وذلك يكون بكتابة الدَّيْن صغيراً أو كبيراً إلى أجله.

ولكن إنْ كان المدين راغباً فى سداد ما عليه ، ولكنه مُعْسِرٌ ، أى : ليست عنده قدرة على السداد ، حين يوجه الحق سبحانه عباده المؤمنين فى قوله تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ (البقرة)

فقوله : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ... (٢٨٠) ﴾ (البقرة)

أى : فإن وُجِد ذو عُسْرة (فنظرة) من الدائن (إلى ميسرة) أى : إلى أن يتيسر ، ويكون رأس المال فى هذه الحالة «قَرْضاً حسناً».

وكلما صبر عليه لحظةً أعطاه الله عليها ثواباً.

ولنا أن نعرف، أن ثوابَ القرض الحسن أكثر من ثواب الصدقة ، لأن الصدقة حين تعطيها فقد قطعت أمل نفسك منها ، ولا تشغل بها ، وتأخذ ثواباً على ذلك دفعة واحدة .

لكن القرض حين تُعطيه فقلبك يكون مُتعلِّقاً به ، فكلما يكون التعلق به شديداً ، ويهب عليك حب المال ، وتصبر فأنت تأخذ ثواباً .

ويجب أن تلحظ أن هناك فارقاً بين معذور بحق ، ومعذور بباطل .

المعذور بحق هو الذى يحاول جاهداً أن يُسدِّد دَيْنه ، ولكن الظروف تقف أمامه وتحول دون ذلك ، أما المعذور بباطل فيجد عنده ما يسُدُّ دَيْنه ، ولكنه يماطل فى السداد ، ويبقى المال ينتفع به ، وهو بهذا ظالم .

ولذلك جَرِّب نفسك ، ستجد أن كل دَيْن يشتغل به قلبك فاعلم أن صاحبه قادر على السداد ولم يسدد ، وكل دين كان بَرْداً وسلاماً على قلبك فاعلم أن صاحبه معذور بحق ولا يقدر أن يسدد ، وربما استحييتَ أنت أن تمرَّ عليه مخافة أن تحرجه بمجرد رؤيتك .

وهؤلاء لا يطول بهم الدَّيْن طويلاً ، لأن الرسول ﷺ حكم فى هذه القضية حكْماً فقال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » .

فمـا دام ساعة أخـذها كان فى نيـته أن يؤدى فإن الله ييـسر له سـبيل الأداء ، ومن أخذها يريد إتلافـها فالله لا ييسر له أن يسـدد ، لأنه لا يقدر على ترك المال يسدد به دينه.

وفى حياة الرسول ﷺ واقعة تفسر لنا هذا الحديث ، فقد مات رجل عليه دين ، فلما علم رسول الله ﷺ أنه مدين ، قال لأصحابه :

« صَلُّوا على أخيكم»

إذنْ : فـهو لم يُـصَلِّ ، ولكنه طلب من أصـحابـه أن يُصَلُّوا، لماذا لم يُصَلِّ ؟ لأنه قال قضية سابقة « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه».

ما دام قـد مات ولـم يُؤدِّ ، إذن : فـقد كـان فى نيته أن يماطل ، لـكن الرسول ﷺ لم يمنع أصحابه من الصلاة عليه.

والرسول ﷺ يأتى للمعسر ويعامله معاملة الأريحية الإيمانية ، فيقول :

« مَنْ أنظر مُعْسِراً ـ أو وضع عنه ـ أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله»(١).

ومعنى « أنظر » أى : أمهل وأخَّـر أخْذ الدَّيْن منه ، فلا يلاحقه ، فلا يـحبسه فى دينه ، فلا يطارده .

وإن تسامى فى اليـقين الإيمانى يقول له «اذهب ، الله يعـوض علىّ وعليك » وتنتهى المسألة.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٠٠٦) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٤٢٧) من حديث أبى اليسر ، وهو كعب بن عمرو ، شهد العقبة ، وبدراً ، توفى بالمدينة سنة ٥٥ هـ .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ (البقرة)

والثمرة هى حُسْن الجزاء من الله ، فإما أن تُنظر وتؤخر ، وإما أن تتصدق ببعض الدَّيْن أو بكل الدَّيْن ، وأنت حُرٌّ فى أن تفعل ما تشاء ، فانظروا دِقَّة الحق سبحانه عند تصفية هذه القضية الاقتصادية التى هى الشغل الشاغل لحركة المجتمع بين الدائنين والمدينين.

وعفوك عن المدين المعسر يقابله الله بالعفو عنك ، وبالتجاوز عن ما اقترفته من ذنوب يوم القيامة.

ولا يمكن أن يكون للعفو مزية إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لما قال : عفوت ، وسبحانه يعفو مع القدرة ، فإن أردتَ أن تعفو فلتتخلق بأخلاق منهج الله ، فيكون لك العفو مع القدرة .

ولنا أن نعلم أن الحق سبحانه لا يريد منا أن نستخزى أو نستذل ، ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، وما دُمْنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة ، وهذه هى المزية الإيمانية ، لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والناس تنظر إلى العاجز الذى يقول : إنه عفا ـ وهو على غير قدرة ـ تراه أنه استخزى ، أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج الله فليأخذ من عطاءات الله فى الكون ، ليكون قادراً وعزيزاً ، بحيث إنْ ناله سوء فهو يعفو عن قدرة .

وخلق العـفو أمر يـركزه الحق سبـحانه فى قـلوب المؤمنين به ، لتكون هناك الأريحية الإيمانية النابعة من أخوة إيمانية ، تربط قلوب المؤمنين برباط وثيق.

والعفو هو كما نقـول : فلان عفَّى علىَّ آثارى. أى : أن آثارك تكون واضحة على الأرض ، وتأتى الريح لتمسحها فتعفى على الأثر.

والأمـر بالعـفـو أى : امسح الأثر لـذنب فعلوه ، والخـطيئـة التى ارتكبـوها عليك ، أن تعتبرها كأنها لم تحدث.

وهذا مقام الإحسان ، والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ (المائدة)

والإحسان أن تفـعل شيئاً فـوق ما افـترضه الله ، ولكن من جنس ما افـترضه الله ، والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان هو مَنْ يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فهو سبحانه يرى كل خَلْقه.

ومثـال هذا : فإن الله قـد كلَّفَ المسلم بالصلاة ، وأعلمـه بأنه حُرٌّ بعـد صلاة العشـاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجـر ، فإن سمع أذان الفـجر فَلْيـقُمْ إلى صلاة الفجر.

لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه ؛ فيزيد من صلواته فى الليل.

وهناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحث المؤمنين على العفو .

واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور)

فإذا كنتَ تحب أن يغفر الله لك ، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة ؟

وما دُمْتَ تريد أن يغفر الله لك فاغفر للناس خطأهم ، واعْفُ عنهم يعْفُ الله عنك ويتجاوز.

وفى هذا يرتقى المؤمن بمنهج الله سبحانه ، وحين تريد أن تفسر حُبَّ الله سبحانه للمحسنين فلسفياً أو منطقياً أو اقتصادياً ستجد القضية صحيحة.

فإنْ أساء أخوك إليك سيئة ، فإما أن تردَّ بالمثل ، أو تكظم الغيظ ، أو ترْقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟

إذن : فما دُمْتَ تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك فى حقِّك ؟

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ [1] .... ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور)

---

(١) نزلت هذه الآية فى شأن أبى بكر الصديق الذى حلف أن لا يعطى ابن خالته مسطح بن أثاثة ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به فى حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بحادثة الإفك ، فأنزل سبحانه الآية . فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله =

وقد جـاء الحق سبحانـه هنا من ناحية النفس ، فـجعل عفو الـعبد عن سيـئة العبـد بحسنة ، فلعفـو العبد ثمن عند الله تعـالى ، لأن العبد سـيأخذ مغـفرة الله تعالى، وفـوق ذلك فأنت تترك دَيْنك أو تُنظر وتُؤخِّـر المدين ، وعند ذلك تكون الراحة.

وهكذا ينال العافى عن المسىء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله سبحانه وتعالى فى جانبه.

***

= لى ، فرجع إلى مسطح النفقـة التى كانت عليـه وقال : لا أنزعهـا منه أبدًا . وتمام الآية: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ (النور) .

أين ملوك الأرض ؟

١٩ عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال :

« يَقْبِضُ[١] الله الأرضَ ، ويَطْوى[٢] السَّماءَ بِيَمينِه.

ثُمَّ يقولُ : أنَا المِلكُ ، أَيْنَ مُلوكُ الأرْضِ ؟ »[٣]

يقول الحق سبحانه :

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ (غافر)

---

(١) يقبض الله الأرض : يجمعها . وقبضت الشىء تقبيضًا : جمعته وزويته . وقبضت الشىء : أخذته . (لسان العرب ـ مادة : قبض).

(٢)الطيُّ : إدراج بعض الشىء فى بعضه ، ضد النشر . وطوى الشىء : ثناه ولَمَّ أجزاءه . (القاموس القويم ١/ ٤١١).

(٣) وعن عبد الله بن عمر قال . قال رسول الله ﷺ : « يطوى الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ».

أخرجه مسلم فى صحيحه (٤/ ٢١٤٨) وأبو داود فى سننه (٤/ ٤٧٣٢) وابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١/ ٥٤٧).

وفى رواية عن ابن عمر موقوفاً عليه : « إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة جمع السماوات السبع والأرضين فى قبضة ، ثم يقول : أنا الله ، أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا القدوس ، أنا =

لا بُدَّ أن نعرف أنه سيأتى يوم لا تكون فيه أيُّ ملكيـة لأيٍّ أحد إلا الله، وهو المالك الوحيد.

والحق سبحانه يقول :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ... (٢٦) ﴾ (آل عمران)

إن قول الحق « مالك الملك » يُوضِّح لنا أن ملكية الله ـ وهى الدائمة والقادرة ـ واضحة وجلية ومُؤكَّدة.

ولو قـال الله فى وصف ذاته «ملك الملـوك» لكان معنى ذلك أن هناك بشـراً يملكون بجانب الله.

لا ، إنه الحق وحده ، مالك الملك.

وما دام الله هو مالك الملك ، فإنه يهبه لمن يشاء ، وينزعه مِمَّنْ يشاء.

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١١٦) ﴾ (التوبة)

ومادة الـ (م.ل.ك) يأتى منها «مالك» و«ملْك» . ومنها «ملكوت».

= السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنـا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تَكُ شيئًا ، أنا الذى أعيدها . أين الملوك ؟ أين الجبابرة ؟ ».

أخرجه أبو الشيخ فى العظمـة وابن مردويه والبيهقى فى كتاب الأسـماء والصفات والخطيب وابن النجار ، انظر جامع الأحاديث القدسية (٥٥١).

و «المِلْك» هو ما تملكه أنت فى حيِّزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومَنْ معك ويملك غيرك ، فهذا هو « المَلِك».

أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان ، أى الذى يدخل فى سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له مُلْك ، وعمدة القرية له مُلْك ، وحاكم الأمة له مُلْك ، ويكون فى الأمور الظاهرة .

أما الملكوت فهو ما لله فى كونه من أسرار خفية.

والحق سبحانه يُبيِّن لنا أنه سبحانه وحده الذى بيده الملك ، فيقول :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ (آل عمران)

فهو سبحانه مالك الملوك ، وإنْ كان هناك فى الدنيا ملوك قد ملَّكهم الله بعض الأمور فى الدنيا ، فإنه لا ملك ولا سلطان ولا حاكم فى الآخرة إلا الله.

قال تعالى :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ (غافر)

فالخَلْق كلهم مقهورون يوم القيامة ، ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً فى الدُّنيا لم يَعُدْ مالكاً لشىء .

فربُّنا سبحانه وتعالى ـ فى دنيا الأسباب ـ جعل لكل واحد منَّا مِلْكاً ، وجعل لبعض علينا مُلْكاً ، فأصبحوا ملوكاً ، لكن فى الآخرة لا يوجد شىء من هذا.

ففى الدنيا قد تملك مثلاً أن تُوظِّفنى عندك وتعطينى أجراً ، وقد تملك أنْ تطبخ لى طعامى أو تعطينى طعاماً ، أو تملك أنْ تخيط جلبابى.

لكن فى الآخرة لا يملك أحد لأحد سبباً ، لأننا نحيا فى الدنيا بالأسباب التى منحنا الله إياها ، وفى الآخرة بالمسبِّب وحده دون أسباب.

وحين تتسلسل الأسباب التى نحيا بها سنرجع للحق سبحانه وتعالى ، فحين تنتهى يد المخلوق وأسبابه تضيق به ، فإن يَدَ الخالق جَلَّتْ قدرته مبسوطة إليه دائماً ، وإياك أن تغرَّك الأسباب ، ولكن سَلْسِلِ الأسباب إلى أن تنتهى إلى الله.

وسبحانه قد وضع دنيانا موضعها ، وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلْك. ولكن نقول لكل ملك : إن هذا الملك ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا الملك أبداً.

وسبحانه القائل :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ... (٢٦) ﴾ (آل عمران)

إذن : فليس هناك مَنْ له الملْك بذاته إلا الله.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) ﴾

(آل عمران)

فالحق سبحانه جاء بالقوسين ـ السماوات والأرض ـ لأن السماء تظل، والأرض تُقِلُّ[١]، فكل منا محصور بين مملوكين لله ، وما دام كل منا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟

---

(١) والأرض تُقِلُّ : أى تحمل وترفع ما عليها . يُقال : أقل الشىء يُقله واستقله يستقله ، إذا رفعه وحمله . (لسان العرب ـ مادة : قلل).

وقد يكون هناك الملك الذى لا قدرة له أن يحكم ، فيوضح سبحانه : لا ، إن لله الملك ، وله القدرة .

فالسماء والأرض هما طرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج [1] وكواكب وشمس وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان.

فالأرض وهى المُلْك الأسفل الذى نراه ، وما فيه من أقوات[2] وحيوان وإنسان.

والسماء وما تحتوى وتضُمُّ من الملكوت الأعلى ، هما جميعاً لله مِلْكاً ومُلْكاً، فهو ـ سبحانه ـ الذى يملك كل شىء ، ويملك كذلك المالك للشىء .

فليس كل مالك مَلِكاً ، لأن الملك هو الذى يملك المالك ، وهذه سنن الكون ، وفى الآخرة هناك مالك واحد ، هو مالك يوم الدين.

فالله تبارك وتعالى وصف نفسه فى القرآن الكريم بأنه :

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة)

ومالك الشىء هو المتصرف فيه وحده ، ليس هناك دَخْل لأىٍّ فرد آخر ، أنا أملك عباءتى ، وأملك متاعى ، وأملك منزلى ، وأنا المتصرف فى هذا كله ، أحكم فيه بما أراه .

---

(١) الأبراج : جمع بُرج ، وهو واحد من بروج الفلك ، وهى اثنا عشر برجًا ، والجمع أبراج وبروج ، وقال أبو إسحاق فى قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ ﴾ (البروج) قيل : ذات الكواكب . وقيل : ذات القصور فى السماء . (لسان العرب ـ مادة : برج).

(٢) الأقوات : جمع قوت ، وهو ما يقوم به الإنسان من طعام .

فمالك يوم الدين [١]، معناها أن الله سبحانه وتعالى سيُصرِّف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب ، وأن كل شىء سيأتى من الله مباشرة ، دون أن يستطيع أحد أن يتدخل ، ولو ظاهراً.

ففى الدنيا يعطى الله الملْك ظاهراً لبعض الناس ، ولكن فى يوم القيامة ليس هناك ظاهر ، فالأمر مباشر من الله سبحانه وتعالى .

ولذلك يقول الله تعالى فى وصف يوم الدين :

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ ﴾ (الانفطار)

فكأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان فى الدنيا لتمضى به الحياة ، ولكن فى الآخرة لا توجد أسباب.

وهنا نتساءل : هل الملْك فى الدنيا والآخرة ليس لله ؟

نقول : الأمر فى كل وقت لله ، ولكن الله تبارك وتعالى استخلف بعض خَلْقه أو مَكَّنهم من الملْك فى الأرض.

ولذلك نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

---

(١) الدين : الجزاء والحساب . ومنه قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ ﴾ (الفاتحة) ، معناه : مالك يوم الجزاء . والدين أيضًا : الطاعة. والدين : الجزاء والمكافأة . ودنْته بفعله دينًا : جزيته. وفى المثل : كما تدين تُدان. أى : كما تُجازِى تُجازَى. أى : تُجازى بفعلك وبحسب ما عملت . (لسان العرب ـ مادة : دين) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ (١) إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ(٢) الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ (البقرة)

والذى حاجَّ إبراهيم فى ربه كافر منكر للألوهية ، ومع ذلك فإنه لم يأخذ المُلك بذاته ، بل الله جَلَّ جلالُه هو الذى آتاه المُلك .

إذن : الله تبارك وتعالى هو الذى استخلف بعض خَلْقه ، ومكَّنهم من مُلْك ظاهريّ فى الأرض ، ومعنى ذلك أنه مُلْك ظاهر للناس فقط ، ولكنه مُلْك ليس نابعاً من ذاتية مَنْ يملك ، ولكنه نابع من أمر الله ، ولو كان نابعاً من ذاتية مَنْ يملك لبقى له ولم يُنْزع منه .

والملك الظاهر يُمتحنُ فيه العباد ، فيحاسبهم الله يوم القيامة :

كيف تصرَّفوا ؟ وماذا فعلوا ؟

هل سكتوا على الحاكم الظالم ؟ أو أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم؟

---

(١) التحاج : التخاصم. وحاجَّه محاجَّة وحجاجًا : نازعه الحجة. والحجة : الدليل والبرهان ، (لسان العرب ـ مادة : حجج)، وكان الذى حاجّ إبراهيم فى ربه هو ملك بابل « نمروذ بن كنعان » وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار ، ولم يكن قد اجتمع بالملك إلا فى ذلك اليوم . (انظر : تفسير ابن كثير ١/ ٣١٣).

(٢) البَهْت : الانقطاع والحيرة . رأى شيئًا فبهت : ينظر نظر المتعجب. وبهت الخصم : استولت عليه الحجة فانقطع وسكت متحيراً . (لسان العرب ـ مادة : بهت) .

والله سبحانه وتعالى لا يمتحن الناس ليعلم المصْلح من المفسد ، ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم ، حتى لا يأتى واحد منهم يوم القيامة ويقول : ياربِّ ، لو أنك أعطيتنى الملك لاتبعتُ طريق الحق وطبَّقتُ منهجك.

إذا قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة)

أى : الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء .

وإذا قيل : « **مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ** » فتصرُّفه أعلى من المالك ، لأن المالك لا يتصرف إلا فى مُلْكه ، ولكن الملِك يتصرف فى مُلْكه ومُلْك غيره ، فيستطيع أن يُصدر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره.

الذين يقرأون ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ أثبتوا لله عز وجل أنه مالك هذا اليوم ، يتصرف فيه كما يشاء دون تدخُّل من أحد ولو ظاهراً.

والذين يقرأون «ملك» يقولون : إن الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم يقضى فى أمر خَلْقه حتى الذين ملَّكهم فى الدنيا ظاهراً ، ونحن نقول : عندما يأتى يوم القيامة لا مالك ولا مَلِك إلا الله.

الله تبارك وتعالى يريد أن يُطمئن عباده أنهم إذا كانوا قد ابتلوا بمالك أو ملك يطغى عليهم ، فيوم القيامة لا مالك ولا ملك إلا الله جل جلاله .

فالحقُّ سبحانه يُطمئن عباده ، أنهم إذا أصابهم ظلم فى الدنيا ، فإن هناك

يوماً لا ظلم فيـه ، وهذا اليوم الأمر فيه لله وحده بدون أسـباب ، فكل إنسان لو لم يدركه العدل والقصاص فى الدنيا فإن الآخرة تنتظره.

أما الذى اتبع منهج الله وقيّد حركته فى الحياة يخبره الله سبحانه وتعالى أن هناك يوماً سيأخذ فيه أجره ، وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة .. نعيم لا يفوتك ولا تفوته.

فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة)

قضية ضخمة من قضايا العقائد ، لأنها تعطينا أن البداية من الله ، والنهاية إلى الله جل جلاله ، وبما أننا جميعاً سنلقى الله ، فلا بُدَّ أن نعمل لهذا اليوم ، ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئاً فى حياته إلا وفى باله الله ، وأنه سيحاسبه يوم القيامة ، ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل ، وليس فى باله الله.

وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ[1] بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا

---

(١) السراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء ، وأما قوله تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (النبأ) أى : صارت لا حقيقة لها ، أى : تشبه السراب فى أنها لا حقيقة لها ، أو كالأرض المسطوحة التى يظهر فيها السراب .

(٢) القيعة : جمع القاع . والقاع ما انبسط من الأرض وفيه يكون السراب نصف النهار . والقاع الأرض الحرة الطين التى لا يخالطها رمل فيشرب ماءها ، والقاع : المكان المستوى الواسع فى وطاءة من الأرض يعلوه . (لسان العرب ـ مادة : قوع).

﴿ جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(النور)

وهكذا مَنْ يفعل شيئاً وليس فى باله الله فَسَيُفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذى لم يكن فى باله موجود ، وأنه جَلَّ جلاله هو الذى سيحاسبه.

وقوله تعالى :

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة)

هو أساس الدين، لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء ، فما دام يعتقد أنه ليس هناك آخرة وليس هناك حساب ، فَمِمَّ يخاف ؟ ومن أجل مَنْ يقيد حركته فى الحياة ؟

إن الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ، ليحاسب المخطىء ويُثيب الطائع.

هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الإيمانية ، فلو لم يكن هناك يوم نُحاسَب فيه .. فلماذا نصلى ؟ ولماذا نصوم ؟ ولماذا نتصدَّق؟

إن كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على أساس ذلك اليوم الذى لن يُفلتَ منه أحد ، والذى يجب علينا جميعاً أن نستعد له.

إن الله سبحانه وتعالى سَمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز

العظيم[1]، والذى يجعلنا نتحمَّل كل ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد ، ونُنفق أموالنا لنُعين الفقراء والمساكين.

كل هذا أساس أن هناك يوماً سنقف فيه بين يدى الله ، والله تبارك وتعالى سمَّاه يوم الدين ، لأنه اليوم الذى سيحاسب فيه كل إنسان على دينه ، عمل به أم ضيَّعه؟

فمَنْ آمن واتبع الدين سيُكافأ بالخلود فى الجنة.

ومَنْ أنكر الدين وأنكر منهج الله سيُجازَى بالخلود فى النار.

ومن عدل الله سبحانه وتعالى أن هناك يوماً للحساب ؛ لأن بعض الناس الذين ظلموا وبَغَوْا فى الأرض ربَّما يُفلتون من عقاب الدنيا .

هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب سيفلتون من عدل الله فى الآخرة ؟

أبداً ، لن يُفلتوا ، بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود إلى عقاب خالد ، وأفلتُوا من العقاب بقدرة البشر فى الدنيا إلى عقاب بقدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ فى الآخرة.

ولذلك لا بُدَّ من وجود يوم يعيد الميزان ، فيُعاقَبُ فيه كل مَنْ أفسد فى

---

(١) يقول تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) ﴾ (المائدة).

الأرض وأفلت من العقاب ، بل إن الله سبحانه وتعالى قد يجعل إنساناً يُفلت من عقاب الدنيا ، فلا تعتقد أن هذا خَيْرٌ له ، إنه شَرٌّ له ؛ لأنه أفلت من عقاب محدود إلى عقاب أبدى .

والحمد الكبير لله بأنه «مالك يوم الدين» ، وهو وحده الذى سيقضى بين خَلْقه ، فالله سبحانه وتعالى يعامل خَلْقه جميعاً معاملة متساوية ، وأساس التقوى هو يوم الدين.

والحق سبحانه يعطينا مثالاً لملوك الأرض من الذين طَغَوْا وعَلَوْا ، وكانوا من المسرفين ، فيقول عن فرعون :

﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ[1] فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ[2] (٨٣) ﴾ (يونس)

فرعون كان جبَّاراً فى الأرض ، مُدَّعياً للألوهية ، وقد علا فى الأرض عُلوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

حتى أن الحق سبحانه قال عنه :

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) ﴾ (الزخرف)

---

(١) العلو : التجبر والتكبر فى الأرض. ويُقَال : علا فلان فى الأرض إذا استكبر وطغى . ويُقال لكل متجبِّر : قد علا وتعظم . (لسان العرب ـ مادة : علو).

(٢) السرف والإسراف : مجاوزة القصد . وأسرف فى الكلام وفى القتل : أفرط . قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٩٧) : « ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ (يونس) أى : المجاوزين الحدّ فى الكفر ؛ لأنه كان عبداً فادّعى الربوبية ».

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يُسخِّرون الناس فى كل الأعمال حتى استخراج الذهب ، سواء من المناجم ، أو من غَرْبلة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها.

ولذلك قال موسى ـ عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . (٨٨) ﴾ (يونس)

والزينة هى الأمور الزائدة عن ضروريات الحياة ومُقوِّماتها الأولى ، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأيِّ غذاء يسدُّ الجوع ، وبالمشرب الذى يروى العطش.

فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتى من الأموال ، والرصيد الأصيل فى الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية.

وأنت إنْ نظرتَ إلى زينة الفراعنة تجد قناع «توت عنخ آمون» آية فى الجمال، وكذلك كانت قصورهم فى قمة الرفاهية.

ويكفى أن ترى الألوان التى صُنِعتْ منها دهانات الحوائط فى تلك الأيام، لتعرف دِقَّة الصنعة ومدى الترف ، الذى هو أكثر بكثير من الضرورات.

هذه الزينة ، وهذه الأموال ، وهذا الترف جعل فرعون عالياً فى الأرض ، مُفسِداً ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا(١) يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي(٢) نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (القصص)

فرعون استعلى على رعيته ، وعلى مَنْ هم فوق الرعية من وزراء ومسئولين، ليس هذا فقط ، بل إنه علا حتى على ربه ، وأراد أن يكون إلهاً.

فانظر كيف وصل به طغيانه إلى هذا الحدِّ ؟

وما دام عنده هذه الصفات وهو بشر ، وله هوى فسيستخدمها فى إذلال رعيته ، فهو لم يَسْتعْلِ فى الأرض فقط ، بل إنه جعل أهلها شيعاً ، مع أن المفروض فى شرع الله أن الرعية كلها سواء ، فلا تستأثر طبقة بحظوة(٣) عن طبقة أخرى ، لكن فرعون جعل أهلها شيعاً.

والشيعة طائفة لها استقلالها الخاص ، فهو جعلهم شِيَعاً ، وسلَّط بعضهم على بعض ، ومصر فى ذلك العصر كانت مسكونة بالجنس الأساسى فيها ،

---

(١) الشيع : جمع شيعة ، والشيعة : الفرقة . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴿٤﴾ ﴾ (القصص) أى : أصنافًا قد صرَّف كل صنف فيما يريد من أمور دولته. (انظر : لسان العرب ـ وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٩).

(٢) استحياه : استبقاه حيًا ولم يقتله ، أو أحب حياته وطلب له أن يعيش حياً . قال تعالى : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴿٤٩﴾ ﴾ (البقرة) أى : أنهم يقتلون الذكور فقط ، ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة .

(٣) الحُظْوة والحِظْوة والحظَة : المكانة والمنزلة للرجل من ذى سلطان ونحوه . ويقال : حظيت المرأة عند زوجها تحظى حَظْوة وحُظْوة ، أى: سعدت ودنت من قلبه وأحبها . (لسان العرب ـ مادة : حظى).

وهم القبط ، وبعد ذلك فى أيام يوسف عليه السلام دخلها بنو إسرائيل وسكنوا فيها وتناسلوا ، وكان المفروض أنهم سيذوبون فى المجتمع القبطى .

الناس يفهمون أن كلمة قبطى معناها نصرانى ، وهذا خطأ لأن القبطى معناه المصرى القديم ، لكن عندما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية ، فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس أن القبطى هو المسيحى[1] .

ولكن ما هو السبب فى أن فرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى؟

قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة المستعمر الذى أزاح حكم الفراعنة وتولى الملك ، وهم ملوك الرعاة ، فالذى كان يخدم هؤلاء الملوك هم بنو إسرائيل ، فلما انقرض ملوك الرعاة نظر مَنْ جاء بعدهم إلى أنصارهم فاضطهدوهم ، لذلك اضطهد فرعون مصر بنى إسرائيل .

فمعنى هذا أن فرعون استعلى على الناس وجعلهم شيعاً ، تستبد شيعة من شيعه بشيعة أخرى ، فشيعة الأقباط استبدوا ببنى إسرائيل انتقاماً لما فعلوه من مساعدة للمستعمر الذى احتل مصر ، واستولى على الحكم فيها.

وساعة يُفرِّق فرعون بين الناس ويُقسِّمهم إلى شِيَعٍ متنافرة ، فهذا العمل منه ينفى أن يكون إلهاً ، لأن الإله يكون المخلوقون كلهم بالنسبة له سواء ، لكن الذى يحرض طائفة على أخرى ليس بإله.

---

(١) قال ابن منظور فى (لسان العرب ـ مادة : قبط) فى معنى كلمة قبط : « القبط . جيل بمصر. وقيل : هم أهل مصر وبنكها (أى : أصلها) والقُبطية : ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر»

ففرعون كان يستضعف[1] طائفة من رعيته وهم اليهود ؛ لتعاونهم مع ملوك الرعاة الذين غَزَوْا مصر.

وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل فى تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وهو بهذا العمل وغيره كان من المفسدين.

والإفساد أن تأتى إلى صالح فى ذاته فتفسده ، فكَوْنُ فرعون يقتل الذكور من أطفال بنى إسرائيل ويستحى النساء ، فهذا فساد كبير، لماذا؟

لأن هناك شيئاً اسمه استبقاء الحياة ، وآخر اسمه استبقاء النوع ، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع ، وهو يقتل الأولاد خشية أن يناله منهم شر ، لكن النساء يستبقيهن للخدمة والإذلال ، لأنهن ليس لهن شوكة ، ولا خطر منهن على مُلْكه.

إذن : فرعون كان مستعلياً ومفسداً فى الأرض ، وفرّق أهلها شيعاً، ويستضعف طائفة منهم ويُنكِّل[2] بهم ، والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولاً

---

(١) الضَّعْف والضُّعْف : خلاف القوة . واستضعفه وتضعَّفه : وجده ضعيفًا فركبه بسوء . (لسان العرب ـ مادة : ضعف) ، قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٧٩) : « كان يستعملهم فى أخسِّ الأعمال ، ويكدهم ليلاً ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحى نساءهم إهانة لهم واحتقاراً وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوَّف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه ».

(٢) نكَّل به تنكيلاً إذا جعله نكالاً وعبرة لغيره ، فعاقبه عقابًا أليمًا . والنكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة . (لسان العرب ـ مادة : نكل).

ليعدل سلوكه ، ويُحسِّن الأمور ، ويأخذ بيد المستضعفين ، ولو أن المسلط على المستضعفين لم يَسْتعْلِ ، ولم يتأبَّ على طاعة الرسول ، وانقاد للحق ، كانوا يعيشون كرعية مع بعضهم البعض ، دون تفرقة.

وعندما يقولون : إن الثوريين حين يأتون للانتقام من مفسد وأعوانه ، هم جاءوا لينتقموا من هؤلاء المفسدين وينصفوا المظلومين ، فكان يجب أن تمنع المفسد من الإفساد ، لأن مَنْعَك له من الفساد فيه اعتدال الكون.

وبعد أن تقضى على الفساد لا تفضل فئة على فئة فى المعاملة والقُرْب ، ولكن اعدل بين الجميع ، وبذلك تأمن غضبهم أو حقدهم عليك.

لأن الحقد يأتى من تقريبك لجماعة أو طائفة وإبعادك لأخرى ، لكن المفروض أنك بعد أن أبطلت الفساد ، بأن منعت المفسد أن يفسد فهذا إصلاح ، ثم تأخذهم جميعاً فى كنفك[1] ورعايتك وتحتضنهم ، حتى تأمن حدوث الثورة المضادة.

ففرعون جعل الأمة الواحدة طوائف ، لأنه لا يريد أن تستقر بينهم الأمور ، لأنه إن استقرت بينهم الأمور ربما تفرغوا إلى شىء ضده ، فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مطلوباً من كل واحد منهم.

---

(١) كنف الرجل يكنفه واكتنفه : جعله فى كنفه ، أى : جعله فى ناحيته وجانبه وحفظه وكلاءته . (لسان العرب ـ مادة : كلأ).

والله سبحانه وتعالى شاء ألا تدوم هذه الحال ، لأنه لن يُفلح ظَلُوم ، ولا يموت ظَلُوم فى الكون حتى ينتقم منه ، ويرى من ظلمه آثار هذا الظلم الذى كان منه أولاً.

قال الحق سبحانه :

﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ**[1] **وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)** ﴾ (الأعراف)

فالحق سبحانه أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينفض أيديهم من أسبابها ، فإذا نفضت اليد من الأسباب لم يَبْقَ إلا أن يلتفتوا إلى المسبب ، ويقولون «يارب» .

إذن : فالإنسان يذكر المسبِّب حين تمتنع عنه الأسباب ، لأنها مقدمات الحياة ، فإذا امتنعتْ مقوِّماتُ الحياة يقول الإنسان : يارب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ؛ ليذكروا خالقهم.

ويتتابع العذاب عليهم بكفرهم :

---

(١) السنون : جمع سنة . وقد يقصد بها : الجدب والقحط والشدة . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٣٩) : « هى سنى الجوع بسبب قلة الزروع ». ونقل السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥١٨) أن عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبا الشيخ أخرجوا عن قتادة فى قوله ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ... (١٣٠)** ﴾ (الأعراف) .قال : أخذهم الله بالسنين بالجوع عامًا فعامًا ﴿ **وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ.. (١٣٠)** ﴾ (الأعراف) فأما السنون فكان ذلك فى باديتهم وأهل مواشيهم ، وأما نقص من الثمرات فكان فى أمصارهم وقراهم .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ[1] وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ[2] لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[3] (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ[4] بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ (الأعراف)

ثم يأتى بعد ذلك القول الذى يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ (الأعراف)

ويقول الحق سبحانه تأكيداً لذلك :

---

(١) القمل : صغار الذر والدَّبى ، وقيل : هو الدَّبى الذى لا أجنحة له . وقال ابن الأنبارى : قال عكرمة فى هذه الآية : القُمَّل الجنادب وهى الصغار من الجراد . وقال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضَّة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سُنبل له . (لسان العرب ـ مادة : قمل).

(٢) الرجز فى القرآن هو العذاب المقَلْقِل لشدته . وله قلقلة شديدة متتابعة . والرِّجز : القذر مثل الرجس ، والرُّجز : عبادة الأوثان والشرك . (لسان العرب ـ مادة : رجز).

(٣) النَّكْث : نقْض ما تعقده وتصلحه من بيعة وغيرها . وتناكث القوم عهودهم : نقضوها . والنكْث : نقْض العهد بعد إحكامه كما تُنكث خيوط الصوف المغزول بعد إبرامه . (لسان العرب ـ مادة : نكث).

(٤) يقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملْحًا زُعَاقًا ، وعلى النهر الكبير العَذْب الماء ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ (القصص) . (انظر لسان العرب ـ مادة : يمم).

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ (الأعراف)

فَتَمَّ وَعْدُ الله الصادق بالتمكين لبنى إسرائيل فى الأرض ، ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملتْ النعمة ، لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض.

فأهلك الله آل فرعون ، وأغرقهم فى اليمِّ ، ذلك فى الدنيا ، أما عذابه فى البرزخ ويوم القيامة ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ ... وَحَاقَ (١) بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ (غافر)

ويقول فى آية أخرى عن فرعون أنه :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ (٢) النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾

(هود)

---

(١) حاق به الشيء يحيق حَيْقًا : نزل به وأحاط به ، وقيل : حاق بهم العذاب أى : أحاط بهم ونزل كأنه وجب عليهم . وقال الزجاج فى قوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) ﴾ (النحل) أى : أحاط بهم العذاب الذى هو جزاء ما كانوا يستهزئون . (لسان العرب ـ مادة : حيق).

(٢) أوردهم النار : أدخلهم النار . وأصل الورود : حضور المكان والإشراف عليه ، دخله أو لم يدخله . يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ (مريم) أى : بالغ النار وواصل إليها، فمنهم من يردها ليدخلها ، ومنهم من لا يدخلها ويكون وصوله إليها ورؤيتها ليدرك مقدار نعمة الله عليه بالنجاة منها .

فهم جميعاً يتقدمون فى اتجاه واحد ، فى اتجاه النار ، ومَنْ يقودهم يتقدمهم ، ويُفهم من هذا أن فرعون اتبعه الملأ ، والقوم اتبعوا الملأ وفرعون ، وماداموا قد اتبعوه فى الأولى ، فلا بد أن يتبعوه فى الآخرة .

فالكفار ومعبوداتهم سيردُون النار يوم القيامة ورُود إذاقة وعذاب فيها ، وليس ورُوداً كورُودِ المؤمنين لها ، الذين سيرونْها دون أن تمسَّهم بسوء.

إذن : الكفار سيدخلون النارَ مع آلهتهم التى عبدوها من دون الله ، وحينئذ سيتأكدون أن هؤلاء ليسوا آلهة ؛ لأنهم لو كانوا آلهة بحق لما دخلوا جهنم.

قال تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) ﴾ (الأنبياء)

فالحقُّ سبحانه يُدخِلُ آلهتهم النارَ معهم حتى يكونوا عبرة لمن عبدوهم، ولذلك يقول ربنا عن فرعون الذى ادَّعَى الألوهية ، وأمر الناس أن يعبدوه :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) ﴾ (هود)

فهو الذى يتقدمهم ، ويقودهم إلى النار يوم القيامة ، والحكمة من ذلك أن الكفار لو دخلوا النار وحدهم لكان عندهم أمل أن آلهتهم ستأتى لِتُخلِّصهم من العذاب.

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُدخِل معهم آلهتهم حتى ينقطع أملهم فى النجاة ، وتكون حسرتهم أشد ، ويعلمون أن هؤلاء ليسوا آلهة ، فلو كانوا آلهة ما دخلوا النار وخُلدوا فيها.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] (٨٣) ﴾

(النمل)

الفوج هو الدفعة ، ولكن هذا الفوج هل يأخذه من العامة ، أم من عتاولة المكذبين؟

هذا الفوج يكون من عتاولة المكذبين والكافرين ، من كل أمة يُحشر أكابر مُجرميها فى فوج واحد ، حتى يُرى زعماء الضلال وفتوات الكفر فى هذا الهوان والعذاب.

لذلك حَقَّ لله سبحانه أن ينادى يوم القيامة :

« أنا الملك .. أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

« افتخرت الجنة والنار ، فقالت النار : يارب يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف[2]. وقالت الجنة :أى ربِّ ، يدخُلنى الضعفاء والفقراء

---

(١) يوزعون : أى يُحبس أولهم على آخرهم . وقيل : يُكفُّون . قال ابن عباس : يُدفعون . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يُساقون . (ابن كثير ٣/ ٣٧٦ ، ولسان العرب ـ مادة : وزع).

(٢) المقصود بهم أعيان القوم والكبار فيهم الذين لهم من الحسب والمجد ما يجعلهم يتعالون على الناس بآبائهم وأحسابهم وأنسابهم .

والمساكين ، فيقول الله تبارك وتعالى للنار: أنتِ عذابى أصيب بك مَنْ أشاء. وقال للجنة : أنت رحمتى وسعتْ كل شيء ، ولكل واحدة منكما مِلْؤُها»[1] .

***

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ١٣ ، ٧٨) ، وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٢٣٣).
قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ١١٢) : « رجال أحمد ثقات لأن حماد بن سلمة روى عن عطاء بن السائب قبل الاختلاط » .

النظر إلى وجه الله الكريم

٢٠ عن صُهيب الرُّومى[١] عن النبى ﷺ قال :

« إذَا دَخَلَ أهْلُ الجنةِ الجنةَ ، يقولُ الله تَبارَكَ وتعالى : تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدكُمْ ؟

فَيقُولونَ : أَلَمْ تُبيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدخِلْنَا الجنةَ ، وتُنجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟

قال ﷺ :

« فَيُكشَفُ الحجابُ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أحبَّ إليهم مِنَ النَّظرِ إلى ربِّهِمْ عَزَّ وجَلَّ »[٢] .

يقول الحق سبحانه فى كتابه العزيز :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ[٣] ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القيامة)

---

(١) هو : صهيب بن سنان بن مالك ، صحابى ، أحد السابقين إلى الإسلام ، كان أبوه من أشراف العرب ، ولد صهيب بالموصل عام (٣٢ ق هـ) ، سباه الروم صغيرًا ، وأقام بمكة يحترف التجارة ، توفى بالمدينة عام (٣٨ هـ) عن ٧٠ عامًا . (الأعلام ٣/ ٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨١) ، والإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٢).

(٣) قال الفراء فى قوله ـ عز وجل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (القيامة) قال : مُشْرِقة بالنعيم . والنضرة : نعيم الوجه . والنضرة : النَّعْمة والحُسْن والرَّوْنق. (لسان العرب ـ مادة : نضر).

لا بُدَّ أن نعرف أنٍ قضية رؤية الله فى الدنيا محسومة ، وأنه لا سبيل إلى ذلك والإنسان فى جسده البشرى ، لأن هذا الجسد له قوانين فى إدراكاته ، ولكن يوم القيامة نكون خَلْقاً بقوانين تختلف ، ففى الدنيا لا بُدَّ أن تخرج مخلفات الطعام من أجسادنا ، وفى الآخرة لا مخلفات.

وفى الدنيا يحكمنا الزمن ، وفى الآخرة لا زمن ، إذ يظل الإنسان شباباً دائماً ، إذن : فهناك تغيير.

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة ، ففى الدنيا بإعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى الله ، وفى الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى.

هذا قِمَّة النعيم فى الآخرة ، فأنت الآن تعيش فى آثار قدرة الله سبحانه ، وفى الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى.

والإنسان فى الدنيا قد اخترع آلاتٍ مَكَّنَتْهُ من أنْ يرى مَا لا يراه بعينه المجرَّدة ، يرى الأشياء الدقيقة بواسطة الميكروسكوب ، والأشياء البعيدة بواسطة التلسكوب.

فإذا كان عمل الإنسان فى الدنيا جعله يبصر ما لم يكُنْ يبصره ، فما بالُكَ بقدرة الله فى الآخرة ؟

وإذا كان الإنسان عندما يضعف نظره يطلب منه الطبيب استعمال نظارة ،

فإذا ذهب إلى طبيب أمهر أجرى له عملية جراحية فى عينه ، يستغنى بها عن النظارة ويرى بدونها .

فما بالكم بإعداد الحق سبحانه للخلق ، وبقدرة الله التى لا حدود لها فى أن يُعيد خَلق العين ، بحيث تستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم.

فإذا كان البشر قد استطاعوا أن يُعدُّوا بمقدوراتهم فى الكون المادى أشياء، لتؤهلهم إلى استعادة حاسة ما ، فما بالنا بالخالق الأكرم ، الإله المربِّى ؟

ألاَ يستطيع الخالق سبحانه أن يُعيدَ خَلْقنا فى الآخرة بطريقة تتيح لنا أن نرى ذاته ووجهه ؟

إنه القادر على كل شىء .

أما أن يراه الخَلْق فى الدنيا ، فلا ، لأن تكويننا غير مُؤهَّل لأن نرى الحق سبحانه ، بدليل أن الأصْلب والأقوى منَّا ، وهو الجبل حينما تجلى ربُّه عليه اندكَّ[1]، فلما اندكَّ الجبل خَرَّ موسى صعقاً[2]، فإذا كان موسى قد خَرَّ صعقاً لرؤية المتجلَّى عليه ـ وهو الجبل ـ فكيف لو رآه ؟

إذن : هو غير مُعَدّ له.

---

(١) الدَّكُّ : الهدم والدَّقّ . ودك الأرض : سَوَّى صعودها وهبوطها، ودك التراب : كبسه وسوَّاه. (لسان العرب ـ مادة : دكك).

(٢) الصعق : الغَشْى ، وهو أن يغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه وربما مات منه . (لسان العرب ـ مادة : صعق).

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا[1] وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

فخَلْقكم ليس على هيئة تسمح لكم أن تَرَوْهُ الآن ، ولكن حين تبرزون فى الآخرة ، وتُعَدُّون إعداداً آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته.

ولا يستوى الناس فى ذلك ، لأن المؤمن هو مَنْ ينال شرف النظر إلى الله ، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق.

يقول تعالى فى شأن الكفار:

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ (المطففين)

فلا يستوى المؤمن والكافر فى هذه الحالة ، فما دام الكافر محجوباً ، فالمؤمن غير محجوب ، ويرى ربه.

قال موسى : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ..... (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾ (الأعراف) وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا .. (١٥٥) ﴾ (الأعراف).

قال الحق : ﴿ لَن تَرَانِي ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأعراف)

وفى اللغة نجد أن «لن» تأتى تأبيدية ، أى : تؤبِّد المستقبل ، أى : لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها .

فهل معنى ذلك أن قول الحق سبحانه : ﴿ لَن تَرَانِي ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأعراف) أن موسى لن يرى الله فى الدنيا ولا فى الآخرة؟

نقول : ومَنْ قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا ؟

إن هذه لها زمن ، وتلك لها زمن آخر .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ[1] الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (ابراهيم)

إذن : فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفى أن أهل الجنة سيأكلون ، ولن تكون لهم فضلات ، إنه خَلْق جديد.

إن مجئ (لن) فى قول الحق : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ تأبيدها إضافى ، أى : بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية.

ويضيف الحق سبحانه :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٤٣) : « تكون على غير الصفة المألوفة المعروفة . وقال عمرو بن ميمون : أرض كالفضة البيضاء نقية ، لم يُسفك فيها دم ، ولم يُعمل عليها خطيئة ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعى حُفاة عُراة كما خُلِقوا ، قياماً حتى يلجمهم العرق » .

﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى[1] رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية ، فأوضح : لن ترانى ، ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتى ، انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، والثبات ، والتماسك ، فإن استقر مكانه يمكنك أن ترانى.

إن الجبل بحكم الواقع ، وبحكم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من الإنسان ، وأصلب منه وأشدّ ، ولما تجلى ربه للجبل اندكّ ، والدكُّ هو الضغط على شيء من أعلى ليسوى بشيء أسفل منه.

فالحق سبحانه تجلَّى على خَلْق من خَلْقه ، ولكن أيقدر المتجلَّى عليه على هذا التجلى ، أم لا يقدر؟

إنْ أقدره الله فهو يقدر ، أما إنْ لم يُقدِره الله فلن يقدر.

والجبل هو الأصلب ، فلما تجلَّى له ربه اندكّ.

---

(١) قال الزجاج : أى : ظهر وبان ، وهذا قول أهل السنةوالجماعة . وقال الحسن : تجلىَّ: بدا للجبل نور العرش (لسان العرب ـ مادة : جلو) . ونقل ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٤٤) أخباراً مرفوعة للرسول ﷺ أنه لم يَبْدُ منه سبحانه أكثر من طرف الإصبع الخنصر . والله تعالى أعلى وأعلم .

إذن : فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خَلْقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلى أو لا يقوى ؟

ولم تَقْوَ طبيعة موسى على التجلى لله ، بدليل أن الأقوى منه لم يَقْوَ ، وهو الجبل .

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام ، بأن أراه العجز البشرى ؛ لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمالَ نور الله فجعله دَكاً .

وكأن الله يريد أن يفهم موسى أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته رحمة منه ، لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل ، فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى؟

إذا كان موسى قد صُعق برؤية المتجلَّى عليه ، فكيف لو رأى المتجلِّى سبحانه؟

وهذه هى عظمته سبحانه ، فلو أحسَّه الناس بأىِّ حاسة ما استحق أن يكون إلهاً ؛ لأن مَنْ خلقه خلق مَا لا يُحَسّ مثل الروح التى إذا خرجتْ من الجسد يموت ويتعفَّن ، فهل علمتَ أين كانت الروح فيه ؟

هل شممتها ، أو أبصرتها ، أو سمعتها ، أو لمستها ؟

لا .. إذن : الروح وهى مخلوقة لله لم تستطع أن تدركها بأىِّ حاسة من حواسك ، فإذا كانت الروح المخلوقة فيك لم تستطع أن تدركها ، فكيف تدرك خالقها ؟

فمن عظمته تعالى أنه لا يُرى ولا يُحس.

فإذا كانت هناك مخلوقات لله لا يمكن للعقل أن يدركها ولا للحواس، فكيف ندرك خالقها ؟

إذن : من عظمته سبحانه وتعالى أنه لا يُدرك.

قال الحق سبحانه :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ[1] الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ (الأنعام)

ولماذا لا تدركه الأبصار؟

لأن البصر آلةُ إدراك لها قانونها ، بأن ينعكس الشعاع من المرئى إلى الرائى ويحدده ، فلو أن الأبصار تدركه لحددته ، وأصبح مَنْ يراه قادراً عليه ، ولَصارَ مَقْدوراً لكم ، لأنه دخل فى إدراككم.

فلو أنك أدركتَ الله لكان الله مقدوراً لبصرك ، والقادر لا ينقلب مَقْدوراً أبداً.

إذن : فمن عظمته أنه لا يُدرَك.

---

(١) اللطيف : صفة من صفات الله واسم من أسمائه . قال أبو عمرو : اللطيف : الذى يوصل إليك أربك (حاجتك) فى رفق. واللطف من الله تعالى : التوفيق والعصمة . وقال ابن الأثير : اللطيف هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى مَنْ قدَّرها له من خلقه . (لسان العرب ـ مادة : لطف).

أنت قد ترى الشمس ، ولكن أتدَّعى أنك، أدركتها ؟

لا ... لأن الإدراك معناه الإحاطة.

لقد اختلف العلماء عند هذه الآية إلى أبعد حَدّ ، فمنهم مجيز للرؤية ، ومنهم مُنكِر لها ، وأرى أن خلافهم فى غير مَحلٍّ نزاع ؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية.

والكلام هنا عن نَفْى الإدراك، والإدراك إحاطة ، والرؤية تكون إجمالاً ، إنما الإحاطة ليست ممكنة.

وعلى تقدير أن الرؤية والإدراك مُتحدان فى المفهوم نقول : لماذا يكون الخلاف في أمر الآخرة ؟

لو أن الخلاف فى أمر الرؤية فى الدنيا لكان هذا كلاماً جميلاً ، ولكن الخلاف جعلتموه في الآخرة.

إن آيات القرآن صريحة فى أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نِعَم الله على المؤمنين ، وهى زيادة فى الحُسْنى عليهم ، وحَجْبه سبحانه عن الكفار لَوْنٌ من العقوبة لهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (المطففين)

فالله يعاقب من كفر به بأن يحتجب عنه ، فالكافرون محجوبون عن رؤية الله عقاباً لهم ، ولو اشتركنا معهم ، وحُجِبنا كما حُجِبوا ، فما ميّزتنا كمؤمنين ؟

فمَنْ أطاع الله طمعاً فى الحصول على نعيم الله فى الآخرة ، يأخذ هذا النعيم. والذى أطاع الله لذات الله ، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يُعبد لذاته ويُطاع ، يكون في الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمنعم.

إذن : فكلُّ إنسان لما عَمِل له ، فإذا زادتْ عبادتك عما فرض الله عليك ، وأحببت أن تكون دائماً فى لقاء مع الله ، بأن تقوم الليل وتتهجد ، وتقرأ القرآن ، وتصلى والناس نيام ، وتتقن العمل الذى ترتقى به حياتك وحياة غيرك، وتفعل ذلك محبة فى الله الذى يستحق التعظيم ، فأنت تستحق المنزلة الأعلى ، وهى أن تكون فى معية الله.

يقول سبحانه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ (القيامة)

والحق سبحانه يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً ، وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول :

«يا أهل الجنة ».

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك[١] والخير فى يديك.

فيقول سبحانه : هل رضيتم ؟

---

(١) حكى عن ابن السكيت فى قوله : « لبيك وسعديك » تأويله : إلبابًا بك بعد إلباب ، أى : لزومًا لطاعتك بعد لزوم ، وإسعادًا بعد إسعاد . وأصل الإسعاد والمساعدة متابعة العبد أمر ربه ورضاه . (لسان العرب ـ مادة : سعد).

فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب، وقد أعطيتنا ما لم تُعْط أحداً من خلقك .

فيقول : ألاَ أعطيكم أفضل من ذلك ؟

فيقولون : يا ربّ ، وأيُّ شيء أفضل من ذلك ؟

فيقول : أُحلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط[1] عليكم بعده أبداً»[2].

والحق سبحانه تحدث فى كتابه عن المتعة والنعيم والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة التى فى جنات عدن ، فقال :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ[3] ... (٧٢) ﴾ (التوبة)

إذن : فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تُطلق على البستان والأماكن الجميلة ، تملؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً .

ثم يأتى قوله تعالى :

---

(١) السَّخَط والسُّخْط : الكراهية للشيء وعدم الرضا به . وأسخطه : أغضبه . ومنه حديث : إن الله يسخط لكم كذا ، أي : يكرهه لكم ويمنعكم منه ويعاقبكم عليه . (لسان العرب ـ مادة : سخط).

(٢) متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) عدن فلان بالمكان : أقام . وجنات عدن منه ، أي : جنات إقامة لمكان الخُلْد . ومنه المعْدن : وهو المكان الذى يثبت فيه الناس لأن أهله يقيمون فيه ولا يتحولون عنه شتاء ولا صيفًا . (لسان العرب ـ مادة : عدن).

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ . . ﴿٧٢﴾ ﴾ (التوبة)

وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهنا وَعْد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده ، يكون له فيها مسكن طيب.

إذن : فعندنا جنات ، وهى لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة. أى : مسكن طيِّب لكل مؤمن ، وما هو الطيب فى هذه المساكن؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يُخصِّص فى هذا المكان مأوىً طيباً خاصاً به.

خُذْ صورة من المجتمع الذى تعيش فيه ، فأنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة ، وهناك مَنْ عنده مسكن من حجرة واحدة ، فإذا ترقَّى يكون المسكن من حجرة وصالة ، أو حجرتين وصالة.

ثم بعد ذلك يزداد الرُّقى ، فيبحث عن شقة واسعة ، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص ، فإذا ارتقى جعل حَول مسكنه حديقة ، وهكذا يزداد الرُّقى.

إذن : فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوى إليه فقط ، بل ترتقى فى الإيواء كلما ارتقيتَ فى الحياة ، فتتحقق لك المتعة فى الإيواء ، ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً . . . ﴿٧٢﴾ ﴾ (التوبة)

أى : هناك جنات ، وهناك مساكن ، لأن الإنسان يحب فى بعض الأوقات

أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصه ، وفى أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس فى مكان جميل ، مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات ، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ونجلس معاً.

فكأن الجنات للرفاهية الزائدة ، عندما تحب أن تجتمع مع الناس ، أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا.

أما المساكن فهى للخصوصية ، فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ، ويتمتع بما حوله.

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثرى ، قد نجد أن للبيت حديقة ، يشرف عليها بستانىّ مُتمكِّن من عمله ، ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك.

ويكون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً ، بحيث نجلس فيها ، ونكره أن نغادرها ، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر ، فكيف بهذه الحدائق التى صُنِعت بقدرة الله سبحانه وتعالى ؟

وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إن الذى وَعَدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى ، وهو قادر على أن يُنفِّذ ما وعدنا به ، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية ما لا عين رأَتْ ، ولا

أذن سمعتْ ، ولا خَطَر على قلبِ بشر[(١)]

وجعل الحق سبحانه هذه الجنات واسعة شاسعة ، فيها زروع وازهار وأشكال ، تسرُّ العين بجمالها ، وتُمتِع اللمس بنعومتها ، وتملأ الأنوف برائحتها الزكية.

وكل إنسان فى الدنيا يتمتع على قَدْر قدراته ، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها ومقاماتها ، فقد تكون من الفلاحين ، وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك .

وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير ، والثالث له بيت فيه عدة صالونات .

فكل واحد يتمتع على قَدْر إمكاناته فى الدنيا ، ولكننا فى الآخرة نتمتع كلنا على قَدْر قدرات الحق سبحانه وتعالى ، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة، ويكون الجزاء بقدر ما فعلْتَ من خير فى الدنيا ، واتبعت منهج الله .

إذن : فأنت الذى تحدد المساحة التى لك فى الجنة ، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك.

---

(١) عن سهل بن سعد الساعدى قال : « شهدت من رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى . ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ (السجدة) » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥)، وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٣٤) .

ثم أوضح الحق سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله ، وهو رضوان الله في قوله تعالى :

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ (التوبة)

فالذى عمل للجنة يعطيه الله الجنة ، والذى عمل لذات الله يعيش فى معية الله سبحانه.

إن رضواناً من الله أكبر من كل شيء ، ولقد نبَّأنا الله بما فى الجنات ، ونبأنا بالخير من كل ذلك ، لقد نبأنا الله بأن رضوانه الأكبر هو أن يضمن المؤمنُ أن يظفر برؤية ربِّه ، وهذا ما يقول الله فيه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القيامة)

إذن : فهناك فى الجنة مراتب ارتقائية[1] ، فالحق سبحانه سيعطى كل إنسان على قدر موقفه من منهج ربه ، فمن أطاع الله رغبة فى النعيم بالجنة يأخذ جنة الله.

---

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٢٣٧) آثاراً مرفوعة وموقوفة عن درجات الجنة فقال :
أخرج ابن أبى حاتم (أى : فى تفسيره) عن سليم بن عامر عن رسول الله ﷺ قال : « الجنة مائة درجة : فأولها : من فضة أرضها فضة ، ومساكنها فضة ، وآنيتها فضة ، وترابها مسك . والثانية : من ذهب أرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ، وآنيتها ذهب ، وترابها مسك . والثالثة : لؤلؤ ، أرضها لؤلؤ ، وآنيتها لؤلؤ ، وترابها مسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .
وأخرج ابن أبى شيبة (أى فى مُصنَّفه) عن ابن عمر قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل له ألف قصر ، ما بين كل قصرين مسيرة سنة ، يُرى أقصاها كما يُرى أدناها ، فى كل قصر من الحور العين والرياحين والولدان ما يدعو شيئًا إلا أُتى به » ا. هـ .

ومن أطاع الله لأن ذات الله أهلٌ لأن تُطاع ؛ فإن الله يعطيه متعة ولذة النظر إليه ـ سبحانه :

تقول رابعة العدوية[1] فى هذا المعنى :

كُلُّهم يَعبدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ وَيرونَ النجاةَ حَظًّا جَزِيلا
إنَّنى لَسْتُ مِثْلَهم ولهذَا لَسْتُ أبْغِى بمَنْ أُحِبُّ بَدِيلا

وقالت أيضاً :

«اللهم إنْ كنت تعلم أنِّى أعْبدك خَوْفاً من نارك فأدْخلْنى فيها ، وإنْ كنتَ تعلَمُ أننى أعبُدك طَمَعاً فى جَنَّتِك فَاحْرِمنى منها ، إنما أعبدُكَ ؛ لأنك تستحق أن تُعبد ».

فالحق سبحانه سيعطى كل عبد على قدر حركته ونيته فى الحركة ، فالذى أحبَّ ما عند الله من النعمة ، فليأخذ النعمة ويفيضها الله عليه ، أما الذى أحبَّ الله وإنْ سلب منه النعمة ، فإن الله يعطيه العطاء الأوْفى.

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً فى التكريم ، والمؤمنون حين يرتقون فى درجة الإيمان يعيشون دائماً مع النعمة والمنعم ، فإذا جاء الطعام قالوا «بسم الله » ، وإذا أكلوا قالوا «الحمد لله» .

---

(١) رابعة بنت إسماعيل العدوية ، أم الخير ، مولاة آل عتيك ، البصرية ، صالحة مشهورة ، من أهل البصرة ، مولدها بها ، لها أخبار فى العبادة والنسك . توفيت بالقدس عام ١٣٥ هـ (الأعلام لخير الدين الزركلى ٣/ ١٠).

ولكنهم إذا ارتقَوْا أكثر فى الإيمان عاشوا مع المنعم وحده ، ولذلك يباهى الله بعباده الملائكة[1] ، يباهى بعبادتهم وطاعتهم التى يلتزمون بها على أى حالة يكونون عليها ، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم.

وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية ، ولذلك «فأشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل »[2] ، ليرى الحق سبحانه وتعالى مَنْ يحبه لذاته وإن سلب منه نعمته ، وهذه منزله عالية.

فمَنْ عبد الله ليدخل الجنة أعطاها له ، ومَنْ عبده سبحانه لأنه يستحق أن يُعبد فسوف يرتقى فى الجنة ليرى وجه الله فى كل وقت ، وأما الآخرون فيرونه لمحاتٍ ، ولذلك يكون الجزاء فى الآخرة على قَدْر العُمْق الإيمانى للعبد.

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب . فرجع من رجع وعقَّب من عقَّب . فجاء رسول الله ﷺ مسرعًا ، قد حفزه النفس ، وقد حسر عن ركبتيه فقال : « أبشروا . هذا ربكم قد فتح بابًا من أبواب السماء ، يباهى بكم الملائكة . فيقول : «انظروا إلى عبادي قد قضوا فريضة ، وهم ينتظرون أخرى » أخرجه أحمد فى مسنده ٢/ ١٨٦ ، ٢٠٨) وابن ماجه فى سننه (٨٠١) قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ، ورجاله ثقات .

(٢) عن سعد بن أبى وقاص قال : قلت يا رسول الله ، أىّ الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهرْ الأرض ليس عليه خطيئة » أخرجه أجمد فى مسنده (١/ ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٠٢٣) ، والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) وقال : « حديث حسن صحيح » .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ (الكهف)

وقال أحد الصالحين :

«إنى لا أشرك بك أحداً حتى الجنة ؛ لأن الجنة أحد »

فلا يجب أن تشغلنا النعمة ـ الجنة ـ عن المنعم ، وهو الله سبحانه وتعالى، والذى عمل للجنة سيأخذها ، والذى عمل لما هو فوق الجنة يأخذه .

أما إنْ كنت تعمل للذات وليس للعطاءات ، فإنك تكون فى معية الله يوم القيامة.

***

أصحاب الأعراف

٢١ - عن حذيفة رضى الله عنه قال :

أصحابُ الأعْرافِ قَوْمٌ تجاوزتْ بهم حسناتُهم النارَ ، وقَصُرَتْ بهم سيِّئاتُهم عن الجنة ، فإذا صُرِفَتْ أبْصَارُهم تلقاءَ أصحابِ النارِ قَالُوا :

رَبَّنا لا تجعلْنَا مع القَوْمِ الظالمين ، فبَيْنما هُمْ كذلك إذِ اطَّلع عَليهم ربُّك.

قال : قُومُوا ادخُلوا الجنةَ ، فإنِّي قَدْ غفرْتُ لَكُمْ »[1]

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ[2] وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٢٠) من قول حذيفة بن اليمان ، وهو فى حكم المرفوع فمثل هذا لا يكون إلا من قبيل المرفوع . وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » وأقره الذهبى .

(٢) السُّومة : العلامة . وقوله ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم .. ﴿٢٩﴾ ﴾ (الفتح) أى : علامة إيمانهم نور فى وجوههم . فالسِّيما : هى العلامة يُعرف بها الخير والشر . (لسان العرب ـ مادة : سوم) .

فأهل الأعراف يعرفون الناس بسيماهم ، فيعرفون أهل النار بسواد وجوههم ، ويعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم ، فإذا مروا بزمرة يذهب بهم إلى الجنة قالوا : سلام عليكم . وإذا مروا بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٤٦٧) وعزاه لابن جرير الطبرى وأبى الشيخ عن السدى .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)﴾ (الأعراف)

«الأعـراف» جمع «عُـرْف» مأخـوذ من عُـرْف الديك وهو أعلى شيء فيـه، وكذلك عُرْف الفرس ، كأن بين الجنة والنار مكاناً مـرتفعاً كالعُرْف ، يقف عليه أناس يعرفـون أصحاب النار بسـيماهـم ، ويعرفون أصـحاب الجنة بسيـماهم، فكأن مِنْ ضمن السِّمات والعلامات ما يُميِّز أهل النار عن أهل الجنة.

وكيف تُوجد هذه السمات ؟

يُقال : إن الإنسان ساعـةَ يؤمن يصير أهلاً لاستقبـال سمات الإيمان ، وكلما دخل فى منهج الله طاعـةً واستجـابةً أعطاه الله سمة جـمالية ، تصـير أصيلة فـيه تُلازمه ولا تفارقه.

فالمؤمنون جمـاعة أشرقتْ وجوههم بسـيماء الإيمان، فكأنها مـشرقة بالنور، ونور الوجـه لا يُقصـد به البشـرة البيـضاء ، ولكن نور الوجـه فى المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس.

ولذلك يصف الحق سبحانه المؤمنين برسالة رسول الله محمد ﷺ :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .... (٢٩) ﴾ (الفتح)

فحتى لو كان المؤمن أسودَ اللون ، فإن له سمة على وجهه.

كيف ؟ ولماذا ؟

لأن الإنسان مُكوَّن من أجهزة ، ومكـوَّن من ذرات ، وكل جهاز فى الإنسان

له مطلوب محدد ، وساعة أن تتجه كل الأجهزة إلى ما أراده الله، فإن الذى يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، وما دامت الأجهزة مُنسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة تكون السِّحْنة مكفهرة[1].

فالنور يشع من وجوه المؤمنين[2] ؛ لأنهم أهل للقيم .

وقد سُئِل عمر رضي الله عنه عن المتقين، فقال :

«الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من الله»

وكأنه رضي الله عنه يشرح لنا قول الحق سبحانه :

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ[3] .... (٢٩) ﴾ (الفتح)

---

(١) السَّحْنة والسِّحْنة : الهيئة واللون والحال . وهى أيضًا : بشرة الوجه . والوجه المكفهر هو الوجه العَبُوس المنقبض الذى لا طلاقة فيه ، لا يُرى فيه أثر بِشْر ولا فرح . (لسان العرب ـ مادة : كفهر) بتصرف .

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الهَدْى الصالح ، والسَّمْت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٩٦) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٦٦) .

(٣) أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم .. (٢٩)﴾ (الفتح) قال : « أما إنه ليس بالذي ترون ، ولكنه سيما الإسلام وسحنته وسمته وخشوعه». أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٥٤١).

أى : أنه ليس بما يكون فى جبهة الإنسان من أثر السجود بما يُعرف بـ «الزبيبة» ، وقد قال حميد بن عبد الرحمن : كنت عند السائب بن يزيد ، إذ جاء رجل فى وجهه أثر السجود ، فقال : لقد أفسد هذا وجهه ، أما والله ما هى السيما (العلامة) التى سمَّى الله ، ولقد صليت =

وساعة ترى المؤمن المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك : إنه ملتزم بتقوى الله.

هذا السرور يلفتك إلى أن تقلده ، لأن رؤياه تذكِّرك بالخشوع ، والخضوع ، والسكينة، ورِقَّة السمت ، وانبساط الأسارير(١).

وبالعكس من ذلك أصحاب النار ، فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال، وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة.

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ (آل عمران)

فالذى يرى مقعده من النار لا بُدَّ أن يكون مُظلم الوجه أسود ، حتى ولو كان فى الدنيا أبيض الوجه ، فالذين كانوا يعرفونهم هكذا فى الدنيا ، يفاجأون بهم يوم القيامة على وجوههم غبرة سوداء ، وترهقهم قترة ، فيقولون لهم :

﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ.... (١٠٦) ﴾ (آل عمران)

وكأن ذلك هو سمة مَنْ يكفر بعد الإيمان.

= على وجهى منذ ثمانين سنة ما أثَّر السجود بين عينىَّ. أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٥٤٢) وعزاه للطبرانى والبيهقى فى سننه.

(١) نقل ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٠٤) أن بعضهم قال : « إن للحسنة نوراً فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الناس».

هذه هى سِمَتهم وعلامتهم فى الآخرة ، أى : ما الذى صَيَّركم إلى هذا اللون؟

إنه الكفر بعد الإيمان .

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (عبس)

وترهقها : أى تغطيها. وقترة تعنى الغبار ، وهى مأخوذه من القُتَار ، وهو الهواء الذى يمتلئ بدخان الدُّهْن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن مَنْ يوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء.

يقول تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (يونس)

هؤلاء لن يجيرهم أحد عند الله تعالى ، ولن يقول أحد لله سبحانه : لا تعذبهم.

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ..... ﴿٢٧﴾ ﴾ (يونس)

أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غَطَّتْ وجوههم .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام ، واتبعوا أهواءهم ، واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

فإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ، لأن الأدْنى منزلة - أصحاب الأعراف - يقول للأعلى - أصحاب الجنة - سلام عليكم.

وجماعة الأعراف هم مَنْ تساوت سيئاتهم مع حسناتهم فى ميزان العدل الإلهى ، الذى لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

والقرآن يقول :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ[1] هَاوِيَةٌ (٩) ﴾ (القارعة)

فهذان فريقان : أحدهما مَنْ ثقلت موازينه ، وثانيهما مَنْ خَفَّت موازينه.

لذلك كان لا بُدَّ أن يوجد فريق ثالث تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة. ولم تَخِفّ موازينهم فيدخلوا النار.

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٥٤٣) : «قيل : معناه ، فهو ساقط هاوٍ بأم رأسه فى نار جهنم، وعبر عنه بأمه، يعنى دماغه. روى نحو هذا عن ابن عباس وعكرمة وأبى صالح وقتادة. وقيل: معناه : فأمه التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها هاوية ، وهى اسم من أسماء النار».

وهؤلاء هم مَنْ تُعرض أعمالهم على «لجنة الرحمة» ، فيجلسون على الأعراف.

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) ﴾ (الأعراف)

فالموازين هى عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دِقَّة موازين اليوم الآخر أنها عَدْلٌ فى ذاتها ، فالميزان فى هذا اليوم حق ودقيق.

والميزان الحق هو الذى قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شىء فيه موزون ، وسبحانه هو الذى يضع المقادير على قَدْر الحكمة والإتقان والدِّقَّة التى يؤدى بها كل كائن المطلوب منه.

فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخِفّ بالسيئات ، ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضى ثلاثة أشياء:

أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، أو أن يتساويا.

فهؤلاء الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم جلسوا على الأعراف ، ينتظرون وينظرون لأهل الجنة قائلين :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ (الأعراف)

فهم يسعدون بعطاء الله لأهل الجنة ، ويطمعون أن يغفر الله ـ سبحانه تعالى ـ لهم.

فمع أنهم فى مأزق بين الجنة والنار ، وينتظرون رحمة الله ومشغولون بأنفسهم ، إلا أنهم يفرحون لأصحاب الجنة ويُحيُّونهم ، ويقولون لهم :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ...... (٤٦) ﴾ (الأعراف)

ولكن ماذا حين ينظرون إلى أهل النار ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ[١] أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ[٢] أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ (الأعراف)

انظر إلى التعبير القرآنى ﴿ صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ ..... (٤٧) ﴾ (الأعراف)

أى : أنهم لم يصرفوا أبصارهم ، لأن المسألة ليست اختيارية ، لأنهم يُكرهون أن ينظروا لهم ، لأن أهل النار ملعونون ، وكأن فى ﴿ صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ ..... (٤٧) ﴾ (الأعراف) لوناً من التوبيخ لأهل النار.

وقول الحق سبحانه :

---

(١) الصرف : رد الشىء من حال إلى حال. وصرف القلوب يصرفها : حَوَّلها من الهدى إلى الضلال ، يقول تعالى ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم... (١٢٧) ﴾ (التوبة). أى : حَوَّلها.

(٢) تلقاء : مصدر «لقى» مثل تبيان ، واستعمل ظرف مكان ، بمعنى جهة أو عند. قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ.. (٢٢) ﴾(القصص) أى : جهة مدين. وقال : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ.... (٤٧) ﴾ (الأعراف) أى : جهتهم. وقال :﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي .. (١٥) ﴾ (يونس) أى : من عند نفسه أو جهتها بغير وحى من الله تعالى (القاموس القويم ٢/ ٢٠٠).

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ.... (٤٧) ﴾ (الأعراف)

أي : جهة أصحاب النار.

يقولون : ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ (الأعراف)

هنا يدعو أهل الأعراف : يا ربِّ جنِّبنا أن نكون معهم.

إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ، ويستعيذون به ألاَّ يُدخلهم معهم.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) ﴾ (الأعراف)

وكأن أصحاب الأعراف قد صُرِفت أنظارهم لأصحاب النار ، ويرون فيهم طبقات من المعذَّبين.

فهذا أبو جهل ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ، ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان.

وكانوا يَسْخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب، وغيرهم ممَّنْ عاشوا للحق ، ومع الحق.

فيقول أهل الأعراف لهؤلاء :

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) ﴾ (الأعراف)

وكأنهم يقولون لهم :

إن اجتماعكم على الضلال فى الدنيا لم ينفعكم بشىء .. شياطينكم ، والأوثان ، والأصنام ، والسلطان لم ينفعوكم ، وكذلك استكبارهم على الدعوة إلى الإيمان : هل أغنى ذلك عنكم شيئاً ؟

لا .. لم يُغْنِ عنكم شيئًا .

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال : بلال ، وخباب ، فيقولون لأهل النار من أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة :

﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ .... (٤٩) ﴾ (الأعراف)

أى : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة الله؟

هم إذن ـ أى : أهل الأعراف ـ قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكأنهم نسوا موقفهم فى انتظار الفرج ، وفرحوا بأصحاب الجنة ، ووبَّخوا أهل النار ، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقف الفعل فى هذه المسألة.

هنا يُدخِل الحق سبحانه أصحاب الأعراف جنَّته لفرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ، ويقول لهم :

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾ (الأعراف)

وهؤلاء ـ كما قلنا ـ الذين تساوتْ حسناتهم وسيئاتهم ، وهم الطائفة التى جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، ولم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار.

هؤلاء ينالون المغفرة من الله ، لأن مغفرة الله وهو الرحمن الرحيم قد سبقتْ غضبه جل وعلا[1] ، ولو لم يجئ أمر أصحاب الأعراف في القرآن لقال واحد :

لقد قال الله لنا خبر الذين ثَقُلَتْ موازينهم ، وأخبار الذين خَفَّت موازين الخير عندهم ، ولم يَقُلْ لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم.

لكن الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر ، وأوضح لنا أن المغفرة تسبق الغضب عنده ، لذلك فالحساب لا يكتفي الحق فيه بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق.

لذلك يُطمئننا الحق سبحانه فيقول :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الفرقان)

إن الحق سبحانه يُطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده في كِفَّة الميزان ، ويُطمئننا أيضاً على أنه سبحانه سيُجازينا على ما أصابنا من شرِّ الأشرار ، وأننا سنأخذ من حسناتهم لتضاف إلى ميزاننا.

إذن : فالطمأنينة جاءت من طرفين :

ـ طمأننا الحق على ما فعلناه من خير ، فلا يُنسى أنه يدخل في حسابنا.

---

(1) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله تعالى الخلق كتب بيده في كتاب عنده : غلبت ـ أو قال : سبقت ـ رحمتي غضبي. فهو عنده فوق العرش» أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٨١)، والبخاري في صحيحه (٣١٩٤)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٥١).

ـ وطمأننا أيضاً على مـا أصابنا من شرِّ الأشرار ، وسيأخذ الحق سبحانه من حسناتهم ليضيفها لنا.

ونحن نجد فى الكون كثيراً من الناس قد يحبهم الله لخصلة من خصال الخير فيهم [1]، وقد تكون هذه الخصلة الخيِّرة خفية فلا يراها أحد ، لكن الله الذى لا تخفى عليه خافية يرى هذه الخصلة فى الإنسان ، ويحبه الله من أجلها.

ويرى الحق سبحانه أن حسنات هذا الرجل قليلة ، فيجعل بعض الخلق يصيبون هذا الرجل بشرورهم وسيئاتهم ، حتى يأخذ من حسنات هؤلاء ، ليزيد فى حسنات هذا الرجل.

---

(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأشجّ عبد القيس : «إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم ، والأناةُ » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧) كتاب الإيمان.

قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١/ ٣٠٣) طبعة دار القلم بيروت :«سبب قول النبى ﷺ ذلك له ما جاء فى حديث الوفد (وفد عبد القيس) أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبى ﷺ وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه ، ثم أقبل إلى النبى ﷺ فقربه النبى ﷺ وأجلسه إلى جانبه ثم قال لهم النبى ﷺ : تبايعون على أنفسكم وقومكم. فقال القوم : نعم . فقال الأشج : يارسول الله إنك لم تزاول الرجل عن شىء أشد عليه من دينه نبايعك على أنفسنا ونرسل من يدعوهم ، فمن اتبعنا كان منا ومن أبى قاتلناه. قال : «صدقت إن فيك خصلتين» الحديث.

قال القاضى عياض : فالأناة تربصه حتى نظر فى مصالحه ولم يعجل ، والحلم هذا القول الذى قاله الدال على صحة عقله وجودة نظره للعواقب.

قلت : ولا يخالف هذا ماجاء فى مسند أبى يعلى وغيره أنه لما قال رسول الله ﷺ للأشج : إن فيك خصلتين. الحديث. قال : يارسول الله كانا فىّ أم حدثا ؟ قال : بل قديم. قال : قلت الحمد لله الذى جبلنى على خُلُقين يحبهما ».

كذَّبَنى ابنُ آدمَ

٢٢ يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى :

«كَذَّبنى ابنُ آدمَ ، ولـم يكُنْ لَهُ ذَلِكَ.

وتَكْذِيبُه إيَّاىَ قَوْلُه : لَنْ يُعيدَنى كما بَدَأنِى

وليسَ أَوَّل الخلْقِ بأهْوَنَ علىَّ مِنْ إعَادتِه». (١)

لقد كـان الشكُّ عند الذين عاصـروا الدعوة المحمـدية فى مسـألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدى إلى ذلك ، بل إنهم تعجَّبوا من حدوث هذا الأمر.

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (المؤمنون)

فـهم لم يتعـقَّلوا أو يتدبَّروا ليـؤمنوا ، ولكنهم قـالوا مثل مَنْ سـبقـوهم من الأوَّلين الذين كذَّبوا بالبعث ، وقالوا : كيف نُبعث بعد أن نصير تراباً وعظاماً؟!

وهم يستشهدون بأن آباءهم وأجدادهم وُعِدوا بذلك من قبل ولم يحدث.

وقد حكى تعالى قولهم فقال :

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(المؤمنون)

---

(١) أخرجه الإمام البخارى في صحيحه (٤٩٧٤) ، والنسائى فى سننه (٤/ ١١٢) من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة، وقد أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣١٧) ضمن صحيفة همام بن منبه ، و(٢/ ٣٥٠) من طريق ابن لهيعة ، والحديث صحيح.

وهذا جَهل منهم، لأنهم ربما ظنُّوا أن معنى البعث أن يموتوا ، ثم يعودوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ، مع أن الله أخبرهم عن طريق رُسله أن البعث سيكون يوم القيامة ، أى بعد أن تنتهى الدنيا كلها ، ويموت الناس جميعاً ، فهذا جهل وسَفْسَطة فى الجدل.

فالبعث بعد الموت شيء لم يَأتِ أوانه بعد ، لأن البعث لا يكون إلا بعد انقضاء الدنيا ، وموت كل الخلائق.

فالكفار هم الذين أخطأوا التوقيت ، لأنهم ظنُّوا أنهم يموتون ، ثم يُبعثون فى الحياة الدنيا ، وهذا جهل وخطأ فى الفهم.

ولذلك فإنهم قالوا :

﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ[1] وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) ﴾ (الجاثية)

(١) الدهر : الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا . (لسان العرب ـ مادة : دهر). وقال ابن كثير فى تفسير الآية (٤/ ١٥٠): «يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ... (٢٤) ﴾ (الجاثية) أى : ما ثَمَّ إلا هذه الدار يموت قوم ، ويعيش آخرون ، وما ثَمَّ معاد ولا قيامة . وهذا يتوله مشركو العرب المنكرون المعاد ، وتقوله الفلاسفة والإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول ، وكذَّبوا المنقول ».

بل إنهم ضربوا لله الأمثال ، فقال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ[1] (٧٨) ﴾

(يس)

هذا الكلام لا يقتصر على أُبىّ بن خلف الذى أنكر البعث ، وهَشَّم العظام أمام رسول الله ﷺ ، ولكن هذا يُقال لكل مُنكرٍ للبعث .

والذى ينكر هذه القضية لو يتذكَّر خِلْقته ونشأته لوجد الدليل على البعث ، لماذا ؟

لأن الله خلقه من عدم ، وبدأ خلقه على غير مثال، ثم يعيدة بعد الموت، وإعادته أهون عليه من ابتدائه . بالنظر إلى مقاييس اعتقاد مَنْ يظن أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه.

فالله له مطلق القدرة فى خَلْقه ، وهو الغالب فى مُلْكه ، وهو الحكيم فى فِعْله وتقديره.

إن الذى يُعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذى بدأ فإنما يبدأ من معدوم ، فالأهونُ هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم ، وكلاهما من قدرة الحق سبحانه وتعالى.

هذا الرجل الكافر حينما ألقى السؤال على أشباهه من الكافرين ، وقال :

(١) الرميم : العظام البالية . والرميم : الخَلَق البالى من كل شيء (لسان العرب – مادة : رمم).

﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ (يس)

لم يجيبوه ، أو قالوا له : لا أحد يستطيع إحياءها.

أمَّا الحق سبحانه فإنه يردُّ على زعمهم عدم إحياء الموتى بقوله سبحانه :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (يس)

فهو سبحانه أنشأها [1] من عدم ، فلئن يُنشئها من وجود فهو أهون.

الفلاسفة المسلمون أرادوا أن يُوضِّحوا هذا المعنى فقالوا :

حينما أراد الله أن يخلق من العدم . فخلق السماء ولم تكن موجودة ، فقال : اخرجى يا سماء. فخرجت.

وخلق الأرض ولم تكن موجودة ، فقال : اخرجى يا أرض فخرجت.

فقادريته سبحانه هى التى أمرتْ ، ومقدورية السماء والأرض هى التى انفعلتْ ، فما الذى انتهى من هذين العنصرين ، هل قادريته انتهت؟ أمر مقدورية الأشياء هى التى انتهت ؟

الاثنان موجودان : مقدورية الأشياء ، وقادرية الفاعل.

وقوله تعالى :

﴿ أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ﴿٧٩﴾ ﴾ (يس)

(١) أنشأ الشيء : أوجده وأحدثه وخلقه. أنشأ الله الخلق : أى ابتدأ خلقهم. وقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ (النجم) أى : البعثة (لسان العرب ـ مادة : نشأ).

يدلُّ هذا على أنه سبحانه سيُنشئها مرة ثانية.

فالكافرون كانوا يستبعدون فكرة البعث والإحياء بعد الموت، وكانوا يقولون :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ[1] بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ (ق)

هؤلاء الناس لماذا يستصعبون إعادة الخلق مرة أخرى يوم القيامة؟

ما هو وجه بُعْده ؟

الفلاسفة شرحوا هذه القضية وقالوا :

هَبْ أن إنساناً مات ودُفِن فى الأرض، وتحلَّل جسمه إلى عناصر، واختلطتْ بالأرض، ثم غُرِسَتْ شجرة فى هذا المكان ستتغذى من عناصره، ثم تنبت ثمرة.

فالذى أكل هذه الثمرة سيتكون عنده فى جسمه جزئيات من هذه الثمرة المأخوذة من عناصر الميت المدفون فى هذا المكان، فحين يبعث الله الناس، يبعث هذا المأخوذ من الأول، أم من الثانى ؟

(١) رجع يرجع رَجْعًا ورُجوعاً : انصرف . ويقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ ﴾ (الطارق) قيل : إنه على رَجْع الماء إلى الإحليل (ذكر الرجل) وقيل : إلى الصلب، وقيل : إلى صُلْب الرجل وتربية المرأة. وقيل : على إعادته حياً بعد موته وبلاه، لأنه المبدئ المعيد سبحانه وتعالى. وقيل: على بَعْث الإنسان يوم القيامة، وهذا يقويه ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ ﴾ (الطارق) أى: قادر على بَعْثه يوم القيامة. والله سبحانه أعلم بما أراد. (لسان العرب - مادة : رجع).

وهذا هو معنى قولهم :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(السجدة)

أى : أنهم تساءلوا : هل بعد الموت والدَّفْن وتحلُّل الجثمان إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بَعْث ونشور ؟

لقد تساءل المشركون : أبعد أن نذوبَ فى الأرض ، وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية ، ونُبعث من جديد؟

فهم يعتقدون أن التشخُّصات مادة فقط ، مع أن التشخصات معانٍ .

فَهَبْ أن واحداً سميناً وزنُه مائة كيلو جرام ، وأصابه مرض ، فحدث له هُزَال ، وأخذ وزنُه فى التناقص حتى صار وزنه خمسين كيلو جرامًا فقط ، فأين ذهب الخمسون كيلو الأخرى ؟

نزلتْ فى الأرض ، واختلطت بعناصرها ، ثم جاء طبيب ماهر واهتدى إلى علاج هذا الرجل ، وزال ما به من مرض ، وأوصاه الطبيب بأنْ يُغذِّى نفسه حتى يستردَّ صحته ، فبدأ يأكل ويتغذى ، وبعد مدة عاد وزنه كما كان قبل المرض .

فهذا الإنسان هل تغيرتْ شخصيته ، أم أنه كما هو ؟ كما هو لم يتغير .

وهل الجزئيات التى دخلتْ فيه بالغذاء هى نفسها التى خرجتْ منه؟

بالطبع لا .

إذن : الإنسان ومُشخصاته جزئيات مختلفة التكوين ، فساعة تكون الجزئيات مضبوطة تظهر شخصيتُك .

ولذلك قال الحق ـ سبحانه وتعالى ـ رَدّاً عليهم عندما قالوا :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ (ق)

قال سبحانه :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝٤ ﴾ (ق)

أى : أن عملية الإعادة ليست بعيدة على الله ؛ لأن هذا مُكوَّن مثلاً من ٢٠٪ أوكسجين ، وكذا فى المائة فوسفور ، وكذا حديد ، وكذا صوديوم .. الخ .

عندما نجمع هذه العناصر بهذه النِّسَب يكون كما هو .

فهذه الإعادة تحتاج إلى علم بتكوين العناصر ، وقدرة على الإبراز .

أما العلم ففى قوله تعالى :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ... ۝٤ ﴾ (ق)

فهذا كان فيه كذا جرام من عنصر كذا ، وكذا جرام من عنصر كذا .. إلخ

والقدرة أنه سبحانه أخبرنا بأننا ما دُمْنا آمنا بأنه قادر أن يخلق من عدم ، والكل يشهد بذلك .

فالذى خلق من لا شيء ، وعنده أنقاص أو بقايا شيء ، فإرجاع هذا الشيء أهون من خَلْقه من العدم .

قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (٢٧) ﴾ (الروم)

وعمليـة أهون هذه لا تناسب مقام الألوهيـة ؛ لأن الأمور عند الله ليس فيـها أَهْون وأصـعب ، ولكن هذا تقريب للمـعنى فى عُـرْف البشـر ، فهو سبحـانه خلقكم من لا شيء ، وأصبحـتم بشـرًا ، وصار لكم مُـخلَّفـات موجـودة فـى الكـون .

فَأَنْ يعيدكم إلى الحياة مرة آخـرى من هذه البقايا فهو أسهل من أن يخلقكم من عدم ، كما حدث فى النشأة الأولى ، وهذا بِعُرْفكم أنتم .

فـإذا كـان الله لم يُعْـجِزه أن يخـلقكم من عـدم ، فحين يـعيـدكم من مـواد موجودة ، هل يصعب ذلك عليه ؟!

فمـثلاً أنا أحضرت الأسـمنت ، وأحضرت الحـجارة والرمل والماء .. إلخ : وبنيت منها حجرة أو بيتًا ، هذا سهل ميسور .

لكن لو أنا سأبنى ابـتداء ، كيف أبنى بدون هذه المواد . أمـا عند وجود المواد فالبناء يكون سهلاً ميسوراً .

إذن : أيهما أهون : الخلق من موجود ، أم الخلق من غير موجود؟

الخلق من موجود أهون .

وكلمة «أهون» أفعل تفضيل ، فأنت تقول : هذا هيِّن ، وهذا أهون . ومعنى هيِّن : أى يسير سَهْل لا يُتعِب ، وليس فيه لُغُوب [(١)] ، وأهون مبالغة فى السهولة ، فهذا سهل ، وهذا أسهل .

وهل الله يُقال فى عمله : سهل وأسهل ؟

لا ، إنما سهل وأسهل يُقال للقُوَى المحدودة التى تعالج الأشياء ، لكن الله لا يعالج الأشياء ، ولكنه يخلق بكلمة «كن» . ولكنه سبحانه يُعطينا مثلاً مما نفعله نحن ، فيُبيِّن لنا أن الواحد منا لو صنع صنعة ثم هدمها ، ثم أراد أن يُعيدها كما كانت من جديد ، فأيُّهما أسهل : أنْ تُعيدها ؟ أم أنْ تبدأها ؟

لا شكَّ أن الإعادة أسهل فى عُرْفنا نحن . فالإعادة أسهل فى عُرْفنا نحن ، لكن بالنسبة لله ليس هناك هيِّن وأهون .

والحق سبحانه يقول :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ (العنكبوت)

والحق سبحانه يفجؤهم بالسؤال :

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ [(٢)] ﴿٣٤﴾﴾ (يونس)

---

(١) اللغوب: التعب والإعياء . لَغَب يلغب : أعيا أشد الإعياء . يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ (ق)[لسان العرب ـ مادة : لغب].

(٢) أفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . [لسان العرب – مادة : أفك] قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤١٧) ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾(يونس) . أى : فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل» .

فالحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أن يسألهم :

﴿ **قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** ..... ﴿٣٤﴾ ﴾ (يونس)

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بُدَّ أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه .

وإن قال قائل : وكيف يأمنُهم على مِثْل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله؟

نقول : إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة . فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول : إن الذى يفعل ذلك هو الله سبحانه ، ولا يمكن أن يقولوا : إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل .

فالإجابة معلومة سلفًا : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج [1] والحق أبلج [2] ، وللحق صَوْلَة [3] .

---

(١) اللجلجة : ثقَل اللسان ، ونقص الكلام ، وأن لا يخرج بعضه فى أثر بعض . وقال الليث : اللجلجة أن يتكلم الرجل بلسان غير بيِّن . [لسان العرب ـ مادة : لجج] .

(٢) أبلج الحق : ظهر ووضح . والبلوج : الإشراق والوضوح . [لسان العرب ـ مادة : بلج] .

(٣) صال عليه: وثب . والمصاولة : المواثبة ..[اللسان ـ مادة : صول] والمواثبة والمصاولة هو معنى القذف بالحق على الباطل . يقول تعالى :﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [**الأنبياء**] .

فأنت ساعةَ تنطق بكلمة الحق فى أمر ما ، تجدها قد فعلت فعلها فيمَنْ هو على الباطل ، ويأخذ وقتًا طويلاً ، إلى أن يجد كلامًا يرد به ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته [1] .

ولذلك لم يقل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل:

﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (يونس)

بل قال سبحانه:

﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (يونس)

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحقُّ ، وغلب ألسنتهم وخواطرهم ، فلم يستطيعوا قَوْل أيِّ شيء .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد وكيل النيابة يضيّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة ، إلى أن يُوجِّه له سؤالاً ينبهر المتهم من فَرْط دِقّته ، وليس له إلا إجابة واحدة ، تتأبى طباعه ألاّ يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفًا .

وحين يُسأل السؤال : مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟

فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ، لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيُبيِّن الحق سبحانه للنبى ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة .

---

(١) وهذا مثل المحاورة التى دارت بين إبراهيم عليه السلام والنمروذ بن كنعان ، يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

فيقول سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ..... (٣٤) ﴾ (يونس)

وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفى أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبلِّغًا عن ربه ، وينال هذا القول شرف العِنْدية :

﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) ﴾ (يونس)

وقد وقف الكافرون عند نقطة البعث واستبعدوها ، فأراد الله أن يُبيِّن لنا هذه المسألة ؛ لأنها تتمة التمسُّك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا : إياكم أن تظنُّوا أنكم أخذتم الحياة ، وأفلتم بها وتمتعْتُم ، ثم ينتهى الأمر ؟

لا ، إن هناك بَعْثًا وحسابًا ، لذلك قال سبحانه :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا .... (٤) ﴾ (يونس)

فإن قال قائل : كيف يكون ذلك ؟

يأتى القول الحق :

﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .... (٤) ﴾ (يونس)

فالذى قَدَر على أن يخلق من عدم ، أيعجزُ أنْ يُعيد من موجود؟

إنه الحق القائل :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾

(مريم)

فإذا شاء أن يُعيدكم ، فلا تتساءلوا : كيف ؟

لأن ذراتكم موجودة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَفَعَيِينَا (١) بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ (٢) مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (ق)

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثانى ، وهو الإعادة ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ، فانظروا إلى الخَلْق الأول ، فقد خلقكم من لا شيء .

أفيعجز أن يُعيدكم من شيء ؟

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ..... ﴿١٥﴾ ﴾ (ق)

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿٥﴾ ﴾

(الرعد)

وهذا من تلبيس الشيطان ، فهو قد أقسم فقال :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ (٣) لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(الأعراف)

---

(١) عَيَّ بالأمر عِياً وعَيِيَ ، وهو عَيِيٌّ : عجز عنه ولم يُطِقْ إحكامه . عيَّ عن الأمر : عجز عن النهوض به . [اللسان ـ مادة : عيا] .

(٢) اللَّبْس واللِّبس : اختلاط الأمر . لَبَس عليه الأمر يلبسه فالتبس : إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته . والتبس عليه الأمر : اختلط واشتبه . [لسان العرب ـ مادة : لبس].

(٣) لأقعدن : لأتربصنَّ بهم على صراطك المستقيم لأصرفهم عنه . وعن سبرة بن أبى فاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ قال : فعصاه وأسلم . وقعد له بطريق الهجرة فقال :=

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ومن خلفهم أى: من الوراء . وعن أيْمانهم أى : من جهة اليمين ، وعن شمائلهم أى : من جهة اليسار .

والشىء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعًا هو «الدار الآخرة» .

وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يُشكّكهم فى الآخرة ، ويُشكّكهم فى البَعْث ، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مُقْبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله .

فيجعلهم الشيطان يَشُكُّون فى وجود دار أخرى ، سيُجازَى فيها المحسنُ بإحسانه ، والمسئُ بإساءته .

وقد حدث ذلك ، ووجدنا مَنْ يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ (الصافات)

ولذلك يعرض الحق سبحانه قضية البعث عَرْضًا لا يجعل للشيطان مَنْفذًا

= أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول ، فعصاه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال ، فقال : أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال . قال : فعصاه وجاهد » قال رسول الله ﷺ : «فمن فعل ذلك منهم كان حقًا على الله أن يُدخله الجنة ، وإن قتل كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإنْ وقَصتْه دابته كان حقًا على الله أن يدخله الجنة » أخرجه أحمد فى مسنده (٣ / ٤٨٣) ، والنسائى فى سننه (٦/ ٢١) وابن حبان (ص٣٨٥ موارد)كلهم من طريق هاشم ابن القاسم شيخ الإمام أحمد بهذا الإسناد . وأشار إليه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٨ / ١٣٤) .

فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خَلْقنا أولاً ، لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أَهْوَنُ من البداية ؛ لأنه سيُعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم .

إنه سبحانه عندما يُبيِّن للناس أن الإعادة أهْون من البداية ، فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره .

ويضرب لهم الحق سبحانه مثلاً يؤكد لهم قضية البعث ، فيقول :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾ (يس)

فانظر إلى الأرض الجدباء المقفرة [١] الميتة بعد أن نزل عليها المطر دَبَّتْ فيها الحياة ، وأخرجت النبات والثمر .

والأرض نفسها نعمة ؛ لأن عليها مَقَرَّنا وغُدُوَّنا ورَوَاحنا ، وسكوننا وحركتنا ، حتى لو كانت صحراء جرداء ، فما بالك لو مَسَّها الله بشيء من النبات ، فتنبت الخضرة والزروع والثمار .

فالأرض نفسها آية ، وإحياؤها على مراتب :

---

(١) القَفْر والقَفْرة : الخلاء من الأرض . وجمعه : قفار وقفور . وقيل : القفر : مفازة لا نبات بها ولا ماء . وقال الليث : القفر المكان الخلاء من الناس . [لسان العرب ـ مادة : قفر] .

- فإما أنْ يكون بإنبات نباتات لا تُغنى فى القوت مثل الحشائش والنجيل ، ولكنها تعطى خُضرة وشكلاً جميلاً .

- وإما أنْ يكون إحياؤها بإنبات الثمار والحبوب التى يأكلها الإنسان ، ويتغذى عليها .

فالأرض الميتة نعمة ، وإحياؤها نعمة أخرى ، وإحياؤها بالقوت والثمار نعمة ثالثة .

ويقول الحق سبحانه فى آية آخرى :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً(1) فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ(2) وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(3) ⑤ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ⑦ ﴾

(الحج)

هذا أمر عيانى ، فأنت ترى الأرض هامدة ساكنة ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزتْ .

---

(١) همود الأرض : أن لا يكون فيها حياة ولا نبْت ولا عود ولم يُصبها مطر . والهامد من الشجر : اليابس . [لسان العرب ـ مادة : همد] .

(٢) ربا الشيء يربو : زاد ونما . وربا السويق رُبواً : صُبَّ عليه الماء فانتفخ . وقوله عز وجل فى صفة الأرض : ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. ⑤ ﴾ (الحج) . معناه : عظمت وانتفخت . [لسان العرب - مادة : ربا] .

(٣) البهجة : حُسْن لون الشيء ونضارته . فالبهيج : هو كل ضرب من النبات حسن ناضر . [اللسان - مادة : بهج] .

ومعنى الاهتزاز : تحرُّك ما كنت تظنُّه ثابتًا ؛ لأن كل كائن له حركة فى ذاته ، حتى ولو كانت قطعة حديد ففى ذراتها حركة ، ولكن أنت ليس عندك المعايير التى تدرك بها هذه الحركة .

بدليل أنهم كانوا حين يعلموننا الكهرباء يأتون ببرادة الحديد ، ويضعونها فى أنبوبة زجاجية ؛ لِيُثْبِتوا لنا أن الإنسان حين يأتى بقضيب فيه مغناطيسية ، ويُحرِّكه على قضيب آخر فى اتجاه واحد .

فالقضيب الذى لم تكُنْ فيه مغناطيسية يشحن وتصبح فيه مغناطيسية ، ويجذب برادة الحديد إذا قَرَّبْته منها .

فهذا الحديد الجامد فيه حركة بين ذراته ، ولكنك لا تراها . فالأرض الهامدة ، أى : فى رأى العين أنها ساكنة ، وبعد ذلك اهتزتْ بعد أن أنزل الله عليها الماء ، فأصبحت فيها حركة ساكنة غير مرئية .

ونحن أدركنا هذه الحركة بعد أن ربَتِ الأرض ، وتحرَّك زَرْعها ، فحين ينزل عليها الماء تأخذ البذور حَظَّها من الرطوبة وتكبر .

فاهتزاز الأرض يأتى من تضخُّم البذور بعد نزول الماء عليها ، فتدفع ذرات التربة التى حولها فتتحرك ، فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت فيها الحياة ، وأنبتت زرعًا أخضر .

فالأرض عندما ينزل عليها المطر تنتفخ قشرتها ، وتطفو تلك القشرة على سطح الأرض .

والعجيب أن المطر حينما ينزل على جبل أو صحراء تجد الصحراء تخضرّ ،

فـمن أين جاء هـذا النبات فى الجـبـال ، دون أن يزرعـه أحد ، أو يبـذر بذوره فلاح ؟

نقول : سـبحان الله الذى سخـر الرياح لتحمل البـذور من المناطق المزروعة إلى المناطق القاحلة (١) ، فيـحمل الهـواء هذه البذور بقـدرة الله ، حتـى تهدأ الرياح ، فتنزل فى الأماكن التى شاء الله لها أن تنزل فيها .

فإذا أنزل الله عليـها الماء تحركتْ فيهـا الحياة ، وأنبتتْ زرعًـا أخضر ، يُغطِّى سفوح الجبال بالخضرة بعد نزول المطر .

فالله تعالى هو الذى يُحى هذه الأرض الميتة ، ويجعلها تهتـزُّ وتموج بالحياة والخُضْرة والنماء.

ومـا دام الله يُحى الموتى ، وهو على كل شىء قـدير ، فـلا تنكروا الساعـة ؛ لأن الذى أحيا الأرض قادر على إحيائكم أنتم.

والحق سبـحانه يضرب المثل الحىّ على قـدرته سبحانه على إحـياء الموتى ، فيقول سبحانه:

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ

---

(١) قحل الشىء : يبس ، فهو قاحل . ومنه : تقحّل الشيخ : إذا يبس جلده على عظْمه من البؤس والكِبـر . وفى الحديث : «قحـل الناس على عهـد رسول الله» أى : ييـسوا من شدة الـقحط. [اللسان - مادة : قحط] .

بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ (١) وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا (٢) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ (البقرة)

عندما تسـمع كلمة «قرية» فـإنها تفيـد تجمُّع جماعـة من الناس يسكنون فى مكان محدود ، ونفهم أن الذى مَرَّ على هذه القرية ليس من سكانها ، إنما هو قد مَرَّ عليها سياحة فى رحلة على هذه القرية الخاوية.

والمقصـود أنها قـرية خاليـة من السكان ، وقد تكون أبنيـتها منصـوبة ، لكن ليس فـيهـا سكان ، والخـاوى : هو الشىء الساقط علـى غيـره ، فبـعد أنْ كـان العرش ، وهـو السقف ، أعلى البـيوت أصبح ساقطًا تحتها ، مِثْلَما نـقول فى العامية : «جاب عاليها واطيها» .

وعندما يمرُّ إنسان على قرية مثل هذه ، فلا بُدَّ أن مشـهدها سيكون شيئًا لافتًا للنظر .

﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ... (٢٥٩)﴾ (البقرة)

(١) سنه الطعـام والشراب سنهـاً وتسنَّه: تغيَّـر . لم يتسنه : لم يتـغيـر بمرور السنين عليـه . [لسان العرب - مادة : سنه].

(٢) نشـز الشىء : ارتفع . وأنشـزت الشىء : إذا رفعـتـه عن مكانه . ومـعنى ننشـزها فى التنزيل العزيز : نرفع بعضها على بعض . [اللسان - مادة : نشز] .

فكأنه يسأل عن القرية ، وعن إماتة وإحياء الناس الذين يسكنون القرية .

وساعةَ تسمع «أنَّى» ، فهى تأتى مرة بمعنى «كيف» ، ومرة تأتى بمعنى «من أين» .

والمناسب لها هنا هو أن يكون السؤال كالتالى : كيف يُحى الله هذه بعد موتها ؟

وقوله هذا يدل على أنه مؤمن ، فهو لا يشك فى أن قضية الإحياء من الله ، وإنما يريد أن يعرف الكيفية ، فكأنه مؤمن بأن الله هو الذى يُحى ويُميت .

والسؤال عن الكيفية معناه التيقُّن من الحدث ، والكيفية ليستْ مَناطَ إيمان ، فالله لم ينْهنا عن التعرُّف على الكيفية ، فهو يعلم أننا نؤمن بأنه قادر على إيجاد هذا الحدَث .

وأضرب هنا مَثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ فمصمم الملابس عندما يقوم بتفصيل أزياء جميلة ، أنت تراها ، فأنت تتيقَّن من أنه صانعها ، ولكنك تتعجب فقط من دِقَّة الصَّنْعة وتقول له : بالله كيف عملت هذه ؟

كأنك قد عشقت الصنعة . فتشوَّقْتَ إلى معرفة كيف صارت ، فما بالنا بِصَنْعة الحق تبارك وتعالى ؟

إنك تندهش وتتعجَّب لتعيش فى ظل السِّرِّ السَّائح من الخالق فى المخلوق ، وتريد أن تنعمَ بهذه النعم .

فسؤاله عن كيفية الإحياء بعد الإماتة ليس معناه أنه غير مؤمن ، بل هو عاشق ومشتاق لأن يعرف الكيفية ، ليعيش فى جو الإبداع الجمالى الذى أنشأ هذه الصَّنْعة .

ونحن نعلم أن إحياء الناس سيترتب عليه إحياء القرية ، فالإنسان هو باعث الحركة التى تَعْمُر الوجود ، والناس لهم حياة ولهم موت ، والقرية بأنقاضها وجدرانها وعروشها (١) لها حياة ، ولها موت .

وعندما سأل العبد هذا السؤال ، أراد الله أن تكون الإجابة تجربة مُعَاشَةً فى ذات السائل ، فجعل الحق سبحانه الأمر والتجربة فى السائل ذاته .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

وكأن الله قال له كلامًا كما كَلَّم موسى عليه السلام . أو أن العبد سمع صوتًا أو مَلَكًا . أو أن أحدًا من الموجودين رأى التجربة . المهم أن هناك سؤالاً وجوابًا .

والحقُّ سبحانه يُخبرنا بحوار دار فى هذا الشأن .

---

(١) العروش : جمع عرش . وعرش البيت : سقفه . يعنى : قد سقط بعضه على بعض ، وأصل ذلك أن تسقط السقوف ثم تسقط الحيطان عليها . ويقول تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ..(٤٥) ﴾ (الحج) أراد : أن حيطانها قائمة ، وقد تهدمت سقوفها، فصارت فى قرارها ، وانقعرت الحيطان من قواعدها ، فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها . [لسان العرب – مادة : عرش] .

السؤال هو : كم لبثْتَ ؟

فأجاب الرجل : لبثتُ يومًا أو بعضَ يوم .

وإجابة الرجل تعنى أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء ، أو انتهى بالفعل ، وذلك لأن اليوم أو بعضه هو أطول مدة يتخيل الإنسان أنه ينامها .

والنائم لا يكون عنده دِقَّة فى تقدير الزمن ، خاصة أنه لم يرَ شيئًا قد تغيَّر فيه ليحكم بمقدار التغيُّر ، فلو كان قد حلق لحيته مثلاً ، وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالتْ ، أو قد نام بشعر أسود ، وقام بعد ذلك بشعر أشيب .

فلو حدثتْ أيَّةُ تغييرات فيه لَكَان قد لمسَها ، لكنه لم يجد تغيُّرًا .

ومع ذلك ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ أثبت له أنه صادق فى قوله :

﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .... (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

وأن الله سبحانه صادق فى قوله :

﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ... (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

فكيف يتأتَّى الصِّدْق من الله فى مائة عام، والصدق فى يوم أو بعض يوم ؟

إننا هنا أمام طرفين ، ويكاد الأمر أن يصبح لغزًا ، ونريد أن نَحُلَّ هذا اللغز .

إن الحق سبحانه صادق ومُنزَّه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله .

ونقـول : إن فى القـصة مـا يؤيد قـول العبـد : ﴿ **لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ... (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

وفيها أيضًا ما يؤيد قول الرب سبحانه : ﴿ **بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ** ... (٢٥٩) ﴾

(البقرة)

فقد كـان مع الرجل حماره ، وكان معـه طعامه وشرابه ، من عـصير وعنب وتين .

وأراد سبحانه أن يُدلِّل على الصدق فى القضيتين معًا ، فقال :

﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ** .... (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

ونظر الرجل إلى طعامه وشـرابه ، فوجدهما لم يتـغيَّرا ، وهذا دليلٌ على أنه لم يمكث إلا يومًا أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق الرجل .

بقيت قضية «مائة عام» ، فقال الحق سبحانه:

﴿ **وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ** ... (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

هذا القول يدل على أن هنا شيئًا عجيبًا . وأراد الحق سبحانه أن يبين له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مـائة عام ، ووجد الرجل حماره ، وقد تحوّل عظامًا مبعثرة .

ولا يمكن أن يحدث ذلك فى زمن قصـير ، فإن مَوْتَ الحمار أمـر قد يحدث فى يـوم ، لكن أن يرمَّ جـسـمـه ، ثم ينتـهى لحـمه إلى رمـاد ، ثم تبـقى العظام مبعثرة ، فتلك قضية تريد زمانًا طويلاً ، لا يتسع له إلا مائة عام .

فكأن النظر إلى الحمار هو دليلٌ على صِدْق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام دليلٌ على صِدْق مرور يوم أو بعض يوم .

فالقضية إذن هى قضية عجيبة!

كيف طُوى الزمن فى مسألة الطعام ؟

وكيف بُسِط الزمن فى مسألة الحمار ؟

إنه سبحانه يُظهر لنا أنه هو القابض الباسط ، فهو الذى يقبض الزمن فى حَقِّ شىء ، ويبسط الزمن فى حَقِّ شىء آخر ، والشيئان مُتعاصران معًا .

وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة طليقة ، لا تملكها النواميس الكونية ، وإنما هى التى تملك النواميس .

وقد أراه الله العظام ، وكيف يُنشِزها ويرفعها ، فتلتحم ، ثم يكسوها لحمًا ، أى : أراه عملية الإحياء مشهديًا (1) .

وفى هذا إجابة للسؤال :

﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

(1) قال السدى وغيره : تفرقت عظام حماره حوله ، يمينًا ويسارًا ، فنظر إليها ، وهى تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحًا فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ، ثم ركب كل عظم فى موضعه ، حتى صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها ، ثم كساها الله لحمًا وعصبًا وعروقًا وجلدًا ، وبعث الله مَلَكًا فنفخ فى منخرى الحمار فنهق بإذن الله عز وجل ، وذلك بمرأى من العزير ، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

و «ننشزها» أي : نرفعها .

وقد رأى «العزير» كل عظمة فى حماره وهى تُرفع من الأرض ، وشاهد كل عظمة تركَّب مكانها ، وبعد تكوين الهيكل العظمى للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحمًا ، وبعد ذلك تأتى الحياة .

لقد وجد «عزير» إجابة فى نفسه ، ووجد إجابة فى الحمار .

ومن بعد ذلك تذكَّر قريته التى خرج منها . وأراد العودة إليها ، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغيَّر بما يتناسب مع مرور مائة عام . وكان فى تلك القرية مولاة لهم ، أى : أَمَة فى أسرته .

وكانت هذه الأَمَة قد عَمِيت ، وأصبحت مُقْعدة ، فلما دخل وقال : أين العزير ؟ . قالت الأمة : ذهب العزير من مائة عام ، ولا ندرى أين ذهب ولم يَعُدْ .

قال : أنا العُزير .

قالت : إن للعزير علامة ، فإن كنتَ العزير فادْعُ الله أن يرد علىَّ بصرى ، وأن يُخرجنى من قُعودى هذا .

وقد كانت علامة العزير أنه مُجَاب الدعوة .

فدعا عزيرٌ الله فبرئت ، فلمـا برئتْ نظرتْ إليه فوجدته هو العزير ، فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد [١] .

وبعد ذلك ذهب العـزير إلى ابنه ، فوجده رجـلاً قد تجاوز مـائة سنة ، وكان العزير لا يزال فى سن الخمسين .

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلْغِزًا : وما ابن رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟

والمقصود بهذا اللغز هو العزير ، الذى أماته الله وهو فى الخمسين ، ثم أحياه الله فى عمره نفسه بعد مائة عام ، والتقى العزير بابنه .

قال الابن: كنت أسمع أن لأبى علامة بين كتفيه «شامة» .

---

(١) ذكـر السيـوطى هذه القصـة فى «الدر المنثور» (٢ / ٢٨) ، وعزاها لإسـحاق بن بشـر وابن عساكر من طرق عن ابن عباس وكعب والحسن ووهب بن منبه يزيد بعضهم على بعض ، فى سياق فـيه طول ، وفيه «أن عزيراً ركـب حمـاره بعد أن أحياه له الله ، حتى أتى مـحلته فأنكره الناس (أى : لم يعـرفـوه) ، وأنكر الـناس ، وأنكر منازله ، فـانطلق علـى وهم منه حـتى أتى منزله، فإذا هو بعـجوز عمـياء مقـعدة ، قد أتى علـيها مائـة وعشرون سنة ، كـانت أمة لهم ، فخرج عنهم عزير ، وهى بنت عـشرين سنة وكانت عرفته وعقلته . فـقال لها عزير : يا هذه ، أهذه منزل عزير ؟ قالت : نعم ، وبكت وقالت : ما رأيت أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس . قال : فإنى أنا عزير قالت: سبحان الله ، فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة . فلم نسمـع له بذكر . قال : فـإنى أنا عزير ، كـان الله أماتنى مـائة سنة ثم بعثنى . قـالت: فإن عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة ، يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافـية والشفاء ، فادع الله أن يرد علىَّ بصرى حتى أراك ، فإن كنت عزيراً عرفتك . فدعا ربه ومسح يده على عينيها فصـحَّتا ، وأخـذ بيدها فقـال : قومى بإذن الله ، فـأطلق الله رِجْلها فـقامت صحيحة كـأنها نشطت من عقال ، فنظرت فقالت : أشهد أنك عزير ».

فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

وهذا تأكيدٌ وتعريفٌ بقدرة الحق سبحانه على أنه يبسط الزمن ويقبضه ، وقدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة .

وعزير كان يعلم هذا علم الاستدلال ، وهو الآن يعلم علم المشهد ، علم الضرورة ، فليس مع العين أيْن ، فصار يعلم حَقَّ اليقين ، بعد أن كان يعلم عِلْمَ اليقين .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً آخر عمليًا فى قصة إبراهيم عليه السلام ، فيقول تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ(١) إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا(٢) وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) أصل الصَّرِّ : الجمع والشد . وكل شيء جمعته فقد صررته . [لسان العرب ـ مادة : صرر] . قال ابن كثير فى تفسيره (١ / ٣١٥) : «قوله : ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ .. (٢٦٠) ﴾ (البقرة). أى : وقطعهنَّ . قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلى ووهب بن منبه ... وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة] . أوثقهن».

(٢) سعى يسعى : مشى سريعًا دون العَدْو . « قال ابن عباس : أخذ رءوسهن بيده ، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمر الله عز وجل ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده (انظر : تفسير ابن كثير ١ / ٣١٥) .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام لا يشك في أن الله يُحى الموتى ، ولكنه يريد أن يعرف الطريقة العجيبة التى يُحى بها الله الموتى .

فالكلام ليس فى الحقيقة وجودًا وعدمًا ، ولكن الكلام فى كيفية وجود الحقيقة .

والكلام فى الكيفية لا علاقة له بالوجود ، فهو مؤمن بأن الله يُحى الموتى ، ولكنه يريد أن يعرف كيفية حدوث هذا الأمر العجيب .

فإبراهيم عليه السلام لا يتكلم فى الإحياء ، ولكنه أراد أن يُريه الله ، ويُطلعه على كَيفية الإحياء ، ليزداد اطمئنانًا ، ليتحقق له العلم والمشاهدة لكيفية مخصوصة تُخرِجه من متاهات كيفيات مُصورَّة ومُتخيّلة .

وما دُمْتَ تريد الكيفية . وهذه الكيفية لا يمكن أن نشرحها لك بالكلام ، بل لابد أن تكون تجربة عملية واقعية

فقال سبحانه :

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

صُرْهُنَّ ، أي : أَمِلْهُنَّ واضْمُمْهُنَّ إليك ؛ لتتأكد من ذوات الطير ، ومن شكل كل طير ، حتى لا تتوهم أنه قد جاء لك طير آخر .

وقال المفسرون [(١)] :

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١ / ٣١٥) وعزاه لابن عباس من قوله ، وقال «اختلف المفسرون فى هذه الأربعة ، ما هى ؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها ، إذ لو كان فى ذلك مهم لنصّ عليه القرآن ».

إن الأربعة من الطير هى : الغراب ، الطاووس ، الديك ، الحمامة .

وهكذا كان كل طائر له شكلية مختلفة .

وقوله :

﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

كان المفروض أن يقول : يأتينك طيرانًا .

فكيف تسعى الطيور ؟

إن الطير يطير فى السماء وفى الجو ، لكن الحقَّ سبحانه أراد بذلك ألا يدعَ أىَّ مجال لاختلاط الأمر ، فقال : (سعيًا) أى : أن الطير سيأتى أمامه سائرًا ، لقد نقل الحق سبحانه الأمر من الطيران إلى السَّعْى ، كى يتأكد منها سيدنا إبراهيم .

إذن : فلكى تتأكد يا إبراهيم ، ويزداد اطمئنانك جئنا بها من طيور مختلفة ، وأنت الذى قطعتها ، وأنت الذى جعلت على كل جبل جُزْءًا ، ثم أنت الذى دعوتَ الطير فجاءتْ سَعْيًا .

وهذا من عظمة الله تعالى فى أنه لا يفعل فقط ، ولكنه يجعل مَنْ لا يفعل - وهو إبراهيم - يفعل ، فبدلاً من أن يأمر الله الطير بأن تحيا ، يجعلها تستجيب لنداء عبد من عباده ، وهو إبراهيم ، فتحيا فى الحال .

وهنا مَلْحظ فى طلاقة القدرة ، وفى الفرق بين القدرة الواجبة لواجب الوجود ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، والقدرة الممنوحة من واجب الوجود ، وهو الله سبحانه ، لمنكر واجب الوجود وهو الإنسان .

هذا له قدرة ، وذاك له قدرة ، إن قدرة الله هى قـدرة واجبة ، وقدرة الإنسان هى قدرة مُـمكنة ، وقدرة الله لا ينزعـها منه أحد ، وقـدرة الإنسان ينزعـها الله منـه .

فالإنسان من البشر ، والبشر تتفاوت قدراتهم ، فحين تكون لأحدهم قدرة . فهناك آخر لا قُدْرةً له ، أى : عاجز .

ويستطيع القادر من البشر أن يُعدِّى أثر قدرته إلى العاجز ، فقد يحمل القادر كُرْسِيًا ليجلس عليه مَنْ لا يقدر على حمله ، لكن قدرة الحق تختلف .

كأن الحقَّ ـ سبحانه وتعـالى ـ يقول : أنا أُعدِّى من قدرتى إلى مَنْ لا يقدر ، فيقدر .

أنا أقول للضعيف : كُنْ قادرًا ، فيكون .

وهذا ما نفهمه من قوله سبحانه لإبراهيم :

﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا .... (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

إن إبراهيم كواحد مـن البشر عاجز عن كـيفية الإحيـاء ، ولكن الحق يُعطيه القدرة على أن يُنادى الطير ، فيأتى الطير ُ سَعْيًا .

إن الحق سبحـانه يعطى القدرة لإبراهيم أن يدعو الطيـر فيأتى الطير سَـعْيًا ، وهذا هو الفرق بين القدرة الواجبة ، وبين القدرة الممكنة .

إن قـدرة الممكن لا يُعـدِّيها أحـدٌ لخـالٍ منها ، ولكـن قدرة واجب الوجـود تُعدِّيها إلى مَنْ لا يقدر فيقدر .

ولتوضيح هذا نقول :

إنك قـد لا تستطيع حَـمْل شيء معين ، فـيأتي مَنْ يحـمله لك ، وتظل أنت ضعيفًا ، لا تقدر .

أما الحق سبحانه القادر فإنه يُقوِّي الضعيف من عباده ، ويُقْدِر منهم مَنْ يشاء على فعل أشياء خاصة به سبحانه .

وهذا مِثْل شأن عيسى بن مريم عليهما السلام ، فقال سبحانه عنه :

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ(١) وَالأَبْرَصَ(٢) وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) ﴾ [آل عمران]

إن خصائص عيسى بن مريم لا تكون إلا بإذن مـن الله ، فقدرة عيسى عليه السـلام أن يصنع من الطين مـا هو على هيـئة الطيـر ، وإذا نَفَخ فـيـه بإذن الله لأصبح طيرًا ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .

---

(١) الأكمه : الذي يُولَد أعمى .

(٢) البرص : مرض جلديّ يُحدث بقعًا بيضاء في الجلد تشوهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة .

إن ذلك كله بإذنِ ممَّن ؟

بإذن من الله .

وكذلك كان الأمر فى تجربة سيدنا إبراهيم ؛ لذلك قال له الحق :

﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

إن الله عـــزيز ، أى : لا يغلبـــه أحـــد ، وهو حكيم أى يضـــع كل شىء فى موقعه.

والحق سبحانه يقول :

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) ﴾ [التغابن]

ولذلك يقول الحق سبحانه لهؤلاء الكافرين الكاذبين المكذِّبين بالإحياء بعد الإماتة :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

أى: ماذا كنتم تفهمون مِنْ خلقنا لكم ؟

فالحـياة مرسـومة لغـاية ، والأحياء مـخلوقون لغاية مُـحدَّدة بمنهج مُـحدَّد ، والذى يُحدِّد الغاية هو الخالق سبحانه .

فنحن نعلم أن الصـانع هو الذى يُحدِّد الغـاية من صنعتـه ، فكل صنعـة لها غاية مُحدَّدة يُحدِّدها الصانع ، ويضع لها قانون الصيانة .

وأنت أيها الإنسان صنعةُ الله ، فَدَعْه ليُحدد الغاية منك ، ودَعْهُ ليحدد منهج صيانتك فى : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

إذن : فساد الدنيا جاء من أن الصنعة تريد أن تأخذ حَقَّ الصانع فى تحديد الغاية ، ووَضْع قانون الصيانة .

فتجد الإنسان يُريد أن يُحدِّد غاية نفسه ، ويضع لنفسه قانون الصيانة . مع أن هذا من حَقِّ الخالق سبحانه ، وليس من حق المخلوق .

فالخالق هو القادر على معرفة ما يُصلِح خَلْقه ، فيضع لهم المنهج الذى يُعينهم على تحقيق الغاية المطلوبة (١) .

فالحقُّ سبحانه لم يخلقنا عبثًا ولا هملاً ، ولا تركنا بدون منهج أو هدف أو غاية .

وأنتَ فى ذاتك تحاول أن تضع جزئية من هذه الغاية ، فأنت تجعل ابنك يتعب فى المذاكرة من عام إلى عام . فيحصل على القبول ، ثم الإعدادية ، حتى إذا وصل إلى الثانوية العامة انقلب حال البيت كله إلى هَمٍّ وقلَق وترقُّب .

كل هذا من أجل أن يدخل الجامعة ، ويأخذ الشهادة العالية ، ثم يتولَّى إحدى الوظائف العامة ، وبعد ذلك يتزوج ، ويُكوِّن أسرة وأولادًا ..

وهكذا ..

هذه كلها ليست غاية حقيقية ؛ لأن الغاية الحقيقية هى التى ليس لها بَعد ، أى : ليس لها مُلْحق أو تكملة .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾ ﴾ [**الملك**] واللطيف : هو المدبر شئون عباده المترفق بهم . والخبير : هو العالم ببواطن الأمور .

فـالإنسان بعـد أن ينجح فى الدنيـا ، ويُحـقِّق النجاح والوظيفـة المرموقـة ، والأسرة والأولاد .. بعد ذلك يموت ويترك كل هذا .

فهـذه ليست غاية ، ولابد أن هناك غاية أخـرى نهائية ، وهى أن العـبد يَلْقَى الله ويُحاسَبُ على عمله ، فيدخل الجنة أو النار فى خلود دائم .

هذه هى الغاية التى ليست بعدها غاية .

إذن : كل شىء لا بُدَّ أن يُقاس بمقياس الجِـدِّية وعدم العَبَث ، فالله لـم يخلق شيئًا عَبَثًـا ، بل كُلُّ شىء مخلوق لغاية مُـرادة ، وموضوع لها أسـباب توصـل إليهـا .

ومعنى «ترجعون» أى : تعودون إلى الله رَغْمًا عنكم .

ويقول تعالى :

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا[1] أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ[2] إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) الرفات : الحطام من كل شىء تكسَّر . رَفَتَ الشىء : كسره ودقَّه .

(٢) نغض : تحرك واضطرب . قال الفـراء : أنغض رأسه إذا حركه إلى فـوق وإلى أسفل . [لسان العرب – مادة : نغض].

ويقول سبحانه أيضًا :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (١) ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (٢) فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ (٣) إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٤) ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يس]

يقولون : متى تأتى هذه القيامة ؟

ويظلون فى جَدَلٍ فى أمر القيامة والبعث ، تأتى أَمْ لا ، حتى تُفاجئه القيامة ، وعندما تُفاجئه تكون الحَسْرة ، فـربما فى اللحظة التى يقول فيها هذا الكلام تأتيه الصيحة ، والمسألة لن تُكلِّفنا إلا صيحة واحدة ، تأخذهم وهم يَخصِّمون .

وإذا كان الإنسـان لا يؤمن بالبعث ، فـهو لا يؤمن بلقـاء الله سبـحانه ؛ لأن الذى يؤمن بالبعـث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفـسه لهذا الـلقاء بالعبـادة والعمل الصالح .

---

(١) خصم الرجل : اشتد فى الخصـام أو جادل بشدة فـهو خصم . قـال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف].

(٢) الصور : الذى يُنفخ فيه ، فيُحدث صوتًا عظيمًا . وهو البوق .

(٣) الأجداث : القبور . ومفرده :جَدَث .

(٤) ينسلون : يخرجون بسرعة . قال الليث : النسلان مشية الذئب إذا أسرع . وقد نسل فى العَدْو ينسل : أسرع . [لسان العرب ـ مادة : نسل] .

أما الكـافرون الذين لا يؤمنون بالبـعث ، فَسـيُفاجـأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .... (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويُخيَّل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد .

وهذه العملية لها علاقة بقضـية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ، ليصور الماء وهو ليس ماء :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .... (٣٩) ﴾ [النور]

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكُنْ فى باله ، فهو واحد من الذين لا يَرْجُون لقاء الله .

والخُسْران الحقيقى أن يُكذِّب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بلقاء الله أيضًا .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ... (٤٥) ﴾ [يونس]

أي : أن الله سبحانه لم يكُنْ في بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمامهم ، فَيُفاجأون بوجوده سبحانه وبالجزاء والحساب ، فَفُوجِئوا بأمر لم يكُنْ في بالهِم ، ولم يعملوا له أيَّ حساب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الذاريات]

أي : أن ما تُوعدون من البعث وَعْدٌ صادق ، والحق سبحانه إذا وعد فلابد أن يتحقق وَعده ، وإذا أوعد فلا بُدَّ أن يأتي وعيده .

فهو سبحانه القادر المسيطر على الأشياء ، ولا يُوجد إله آخر يُناقِضه فيما وعد أو أوعد به ، فلا بُدَّ أن يتحقق الوعد ، أو يأتي الوعيد .

وقد يظنُّ بعضُ الناس أن الله قد يأتي بما وعد به ، لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنُّون ، فالوعد آتٍ وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحدَ بقادرٍ على أن يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد .

ولن تَفِرُّوا من وَعْده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله ، أو تفوتوه وتُعجِزوه ، فالله غالب على أمره .

شتمنى ابن آدم

٢٣ - يقولُ ربُّ العِزَّة سُبْحانه فى الحديثِ القُدسىِّ :

«شَتَمِنى ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يكُنْ لَهُ ذَلِكَ .
وَشَتْمُهُ إيَّاى قَوْلُه:
اتَّخذَ اللهُ وَلَدًا .
وَأنَا الأحَدُ الصَّمَدُ (١) ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ ،
وَلَمْ يَكُنْ لىِ كُفُوًا (٢) أَحدٌ » (٣) .

هذه قضية فى قِمَّة العقيدة ، ولذلك تكررتْ فى القرآن الكريم ، وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يريدنا أن نعرف أن هذا ادعاء خطير مُسْتقبح مُسْتنكر ومَمْقُوت .

---

(١) الصمد : من صفاته تعالى وتقدس ؛ لأنه أصمدت إليه الأمور فلم يقصد فيها غيره . وقيل : الصمد السيد الذى ينتهى إليه السؤدد ، وقيل : الصمد الدائم الباقى بعد فناء خَلْقه . والصمد: السيد المطاع الذى لا يُقضى دونه أمر . وقيل : الذى يُصمد إليه فى الحوائج أى يُقصد . [لسان العرب - مادة : صمد] .

(٢) الكفء : النظير والمساوى . وكفء الرجل : المساوى له فى قوته وقدرته ومنزلته مثل نظيره . فمعنى قوله «ولم يكن لى كفواً أحد» أى : ليس لله نظير ولا مثيل .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٩٧٤) ، والنسائى فى سننه (٤/ ١١٢) من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ، وقد أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣١٧) ضمن صحيفة همام بن منبه ، و (٢/ ٣٥٠) من طريق ابن لهيعة. والحديث صحيح .

ولقد عالجت سورة مريم المسألة علاجًا واسعًا ، علاجًا اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان .

واسمع إلى قول الحق سبحانه ، وهو يقول :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (١) (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ (٢) مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم]

انفعال السماوات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التى تلعن كل مَنْ قال ذلك ، بل وتكاد تشعر شعوراً منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء ، أى : تسقط قطعًا صغيرة ، وتنشق الأرض أى : تتمزق ، وتَخِرّ الجبال ، أى : تسقط كتراب .

كل هذا من هَوْلِ ما قيل ، ومن كَذِب ما قيل ؛ لأن هذا الادعاء افتراء على الله .

وإذا نظرت للذين قالوا إن لله ـ سبحانه وتعالى ـ ولدًا ، ستجد أن هناك أقوالاً متعددة :

---

(١) الإدُّ والإدَّة : العَجَب والأمر الفظيع العظيم والداهية . والجمع : إدَد . وهى الدواهى العظام . [لسان العرب ـ مادة : أدد] .

(٢) فطر الشيء يفطره : شقه ، وتفطر الشيء : تشقق . وأصل الفطر : الشق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) ﴾ [الانفطار] [لسان العرب – مادة : فطر] .

– هناك قول قاله المشركون ، قال الحق سبحانه عنهم :

﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ [1] لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ [2] ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الصافات]

– وهناك قول اليهود ، وهو ما يرويه لنا القرآن :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .... ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة]

– وهناك قول النصارى :

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ [3] قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة]

هذا الادعاء فيه مسَاسٌ بجلال الله تعالى ، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب:

- إما لأنه يريد أن يبقى ذكره في الدنيا بعد أن يرحل .. والله سبحانه دائم الوجود .

---

(١) الإفك : الكذب . ورجل أفَّاك : كذَّاب . وأفك الناس : كَذَبهم وحدَّثهم بالباطل . [اللسان – مادة : أفك] .

(٢) السلطان : الحجة والبرهان . [اللسان – مادة : سلط] .

(٣) المضاهاة : مشاكلة الشيء بالشيء . معنى يضاهون قول الذين كفروا أي يشابهون في قولهم هذا قول من تقدم من الكافرين . أي : إنما قالوه اتباعًا لهم . [اللسان – مادة : ضها] .

ـ وإما لكى يُعينُه ابنه عندما يكبر ويضعُفُ .. والله سبحانه دائم القوة .

ـ إما ليرث ماله ومَا يملك .. والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومَنْ عليها .

ـ وإما ليكون عِزْوةً له .. والله جَلَّ جلاله عزيز دائمًا .

وهكذا تنتفى كُلُّ الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء ، فهو جَلَّ جلاله له كمال الصفات أزلاً ، وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده .

لذلك فهو ليس فى حاجة إلى أحد من خلقه ؛ لأنه ساعةَ خلق كانت له كُلُّ صفات القدرة على الخلق ، بل قبل أن يخلق كانت له كُلُّ صفات الخالق ، وبهذه الصفات خلق .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ كان خالقًا قبل أن يخلق أحدًا من خلقه ، وكان رازقًا قبل أن يوجد مَنْ يرزقه ، وكان قهارًا قبل أن يوجد مَنْ يقهره ، وكان توابًا قبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

وبهذه الصفات أوجد ، وخلق ، ورزق ، وقهر ، وتاب على خَلْقه .

إذن : كل هذا الكون لم يُضِفْ صفة من صفات الكمال إلى الله ، بل إن الله بكمال صفاته هو الذى أوجد .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى :

« **يا عبادى** ، كلكم ضال ـ إلا مَنْ هديتُه ، فَاسْتَهْدُونى أهدكم .

يا عبادى ، كلكم جائع ، إلا مَنْ أطعمتُه ، فَاسْتَطعِمُونى أُطعمكم .

يا عبادى ، كلكم عَارٍ ، إلا مَنْ كسوته ، فاسْتكْسُونى أَكْسُكُم .

يا عبادى ، إنكم تُخطِئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ،

فَاسْتَغْفِرونى أغفر لكم .

يا عبادى ، إنكم لن تبلُغوا ضُرِّى فَتضروُّنى ، ولن تَبْلُغوا نَفْعى فَتَنْفعُونى .

يا عبادى ، لو أن أوَّلكم وآخركُمْ ، وإنْسَكُم وجنَّكم كانوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلكى شيئًا .

يا عبادى ، لو أن أوَّلكم وآخركم ، وإنْسَكم وجِنَّكم ، كانوا على أفجر قَلْب رجل واحد ، ما نقص ذلك من مُلْكى شيئًا .

يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجِنَّكم ، قاموا فى صعيد[1] واحد ، فسألونى ، فأعطيتُ كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِلَ فى البحر »[2] .

فهؤلاء الذين قالوا هذه القَوْلة وغيرها من الأقوال الباطلة قال عنهم رَبُّ العزة:

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحج]

والقرآن كله ناطق بصفات الكمال فى الإيجاد ، والخَلْق ، والإحياء والإماتة ، القيوم على خَلْقه ، السميع ، البصير ، العليم .

---

(١) الصعيد : وجه الأرض . وهو الموضع العريض الواسع . [اللسان – مادة : صعد] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ١٦٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

يقول الحق سبحانه في سورة الأنعام :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ (١) الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) ﴾ [الأنعام]

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا (٢) ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) ﴾ [الأنعام]

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴾ [الأنعام]

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) ﴾ [الأنعام]

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ (٣) دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ (٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ [الأنعام]

---

(١) الفلق : الشق . وفلق الله الحب بالنبات : شقه . وكذلك فلق الأرض بالنبات والسحاب بالمطر . وإذا تأملت الخَلْق تبين لك أن أكثره عن انفلاق . [لسان العرب - مادة : فلق] .

(٢) الحسبان : الحساب . قال الزجاج : بحُسْبان يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات. [اللسان - مادة : حسب] . ويقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... ﴾ [يونس].

قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٠٧) : « فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام » .

(٣) القِنْو : العِذْق ، وهو ذو الشماريخ المكللة بالبلح . ويسمى أيضًا الكِباسة ، وجمعه : أقناء وقنوان .

(٤) ينع الثمر يينع : أدرك ونضج . واليَنْعُ : النضج . واليانع : الناضج . [اللسان - مادة : ينع] .

ومن العجيب أن هناك مَنْ جعلوا لله شركاء !!

إلهٌ له كُلُّ هذه الصفات من أول : فالق الحب والنوى ، وفالق الإصباح ، وجعل الليل سكنًا ، والشمس والقمر حسبانًا ، والنجوم نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وأنزل لنا من السماء ماء ، وأخرج لنا النبات منه خَضِرًا .

كُلُّ هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس ، إلى أن الله وحده هو الخالق المسْتحقُّ للعبادة ، ولا تتجه أبدًا بالعبادة أو بالإيمان لغيره .

ولكن من العجيب أنهم جعلوا لله شركاء ، فقال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ (1) بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام]

والتعجب من أمرين اثنين :

- أن يجعلوا شركاء لله من الجن أو من الملائكة ، مع أن الله هو الذى خلق العابد والمعبود .

- والعجيبة الأخرى أنه خلقهم وخَرَقُوا له بنين وبنات بغير علم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام]

---

(1) خرق الكذب وتخرّقه : اختلقه . والتخرّق : اختلاق الكذب وافتراؤه . ويقال : خلق الكلمة واختلقها وخرقها واخترقها إذا ابتدعها كذبًا . [لسان العرب - مادة : خرق] .

أى : تنزيهًا له عن الشرك فى الذات ، وفى الصفات ، وفى الأفعال ؛ لأن ذاته ليست ككل الذوات ، وأفعاله ليست ككل الأفعال ، وصفاته ليست ككل الصفات .

ثم يقول تعالى :

﴿ بَدِيعُ (١) السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ﴾ [الأنعام]

وما دام سبحانه بديع السماوات والأرض ، وهو بقدرته الذاتية الفائقة خلق السماوات والأرض الأكبر من خَلْق الناس .

إذن : فإنْ أراد ولدًا لَطَرَأ عليه هذا الابن بالميلاد ، ولا يمكن أن يُسمَّى ولدًا إلا إذا وُلِدَ ، وسبحانه مُنَزَّه عن ذلك .

ثم لماذا يريد ولدًا ، وصفاتُ الكمال لن تزيد بالولد ، ولم يَكُنْ الكون ناقصًا قبل ادّعاء البعض أن للحقِّ سبحانه ولدًا .

إن الكونَ مخلوقٌ بذات الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ، والناس تحتاج إلى الولد لامتداد الذكرى ، وسبحانه لا يموت ، مِصْداقًا لقوله تعالى :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .... (٨٨) ﴾ [القصص]

والبشر يحتاجون إلى الإنجاب ليعاونهم أولادهم ، وسبحانه هو القوىُّ الذى خلق ، وهو حَىٌّ لا يموت ؛ لذلك فلا معنى لأن يُدّعى عليه ذلك .

(١) البديع : من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، أى : خالقها ومبدعها فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال سابق . [لسان العرب – مادة : بدع] .

وما كـان يصحُّ أن تُناقش هذه المسـألة عقْـلاً ، ولكن الله ـ لُطفًا بخلـقه ـ وضَّح وبيَّن مِثْل هذه القضايا .

ثم إذا كان لله ـ سبحانه وتعالى ـ زوجة وولد ، فَمَنِ الذى وُجِد أولاً ؟

إذا كان الله سبحانـه وتعالى قد وُجـد أولاً ، ثم بعد ذلك أوجـد الزوجة والولد فهو خالق ، وهما مخلوقان .

وإنْ كان كل منهم قد أوجد نفسه ، فهم ثلاثة آلهة ، وليسوا إلهًا واحدًا .

وهذه يردُّ عليها ربُّ العزة ، فيقول :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء]

فلو أن هناك آلهة غير الله سبحـانه لصنع كلُّ إله شيئًا لا يقدر على صُنعه الإله الآخر ، ولأصبح الأمر صِراعًا بين آلهة متنافرة .

ويقول أيضًا :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

وعلَّة التسبيح والتنزيه عن أن يكون له ولد تأتى فى قوله تعالى :

﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ... (٦٨)﴾ [يونس]

لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجـة : إما استعانة ، وإما اعـتمادًا ، وإما

اعتـدادًا ، وإما امـتدادًا . وكل هذه أمـور باطلة بالنسبـة له سبحـانه ، وهو الحق الأعلى .

وهم ليس عندهم حجة تدل على أن الله تعالى اتخذ ولدًا ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه يسوق قول كل من اليهود والنصارى ، فقال :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾

[التوبة]

وهكذا نجد أنهم لم يُنزِّهوا الله ، وأخلُّوا بالإيمان الحق .

ولا بُدَّ أن نعلم أن مَنْ قالوا : إن عُـزَيْرًا ابن الله . ليسوا هم كل اليـهود ، بل جماعة منهم فقط هـى التى جعلتْ عُزَيرًا ابنًا لله ، لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها [١] الله تعالى عليه .

فقالوا : هذه نعـمة عظيمة جدًا لا يمكن أن يعطيهـا ربنا لشخص عادى ، بل أعطاها لابنه .

ذلك أن اليهود بعـد سيدنا موسى عليـه السلام قتلوا الأنبياء ، وعـاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها ، ولكن طفلاً لم يعـجبه مشهدُ قَتْل

(١) أفاء الله عليه فيئًا : منحه غنيمة فى الحرب بالنصر أو بغير الحرب . والمقصود أنها نعمة أنعم الله بها على عزير .

الأنبياء ، فخرج شاردًا فى الصحراء ، مهاجرًا وهاربًا ، فقابله شخص فى الطريق ، فسأله : لماذا أنت شارد ؟ قال : خرجتُ أطلب العلم .

وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام ، فعلَّمه أن لله توراة ، فحفظها فصار واحدًا من أربعة ، هم فقط مَنْ حفظوا التوراة : موسى ، وعيسى ، وعزير ، واليسع .

ولأن الكتب قديمًا لم تكُنْ تُكتب على ورق رقيق مثل زماننا ، بل كانت تُكتب على الأحجار وسعف النخيل ؛ لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين حِمْل بعير .

وحين رجع عزير حافظًا للتوراة ، اندهش قومه وقالوا : لا بُدَّ أنه ابن الله ؛ لأن الله أعطاه التوراة ، وآثره على القوم جميعًا .

ونشأتْ جماعة من اليهود تؤمن بذلك ، وكان منهم سلاَّم بن مشكم ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف ، ونعمان بن أوفى .

وحينما أنزل الله قوله :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة]

لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولم يُكذِّبوها ، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة مَنْ كان يؤمن بذلك ، وإلا لاعترضوا على هذا القول(1) .

(1) قال ابن كثير فى (قصص الأنبياء ، ص : ٣٨٠) بتحقيقى : «روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبدالله بن سلام عن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ (التوبة) لم=

وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يَصْدُق على بعضهم ، أو هم عالمون بأن قومًا منهم قد قالوا ذلك .

وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام ، فجاء قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .. (٣٠) ﴾ [التوبة]

يُوضِّح لنا سبحانه أن البنوة لله جاءت فيها مشبهة ، كان يجب أنْ يلتفتوا إليها ، وينزِّهوا الله عن ذلك ؛ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يَصِفُ عباده بأنهم عباد الله ، وأنَّ الخَلْق كلهم خَلْقُ الله تعالى .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ (١) الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء]

فمصدر الشرف للإنسان أن يُحِسَّ ويشعر بتجلِّي الله عليه بعبوديته له ، والمسيح عليه السلام لا يجد غضاضة (٢) أنْ كان عَبْدًا لله ، ولا يستكبر على ذلك ، بل هو يشرفُ به .

= قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان من كَتْبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه ، وقول بني إسرائيل لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب ، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب . فرماه طوائف منهم ، وقالوا : عزير ابن الله ».

(١) استنكف : أنفَ وامتنع . وهو أن يقول : لا . أي : لن ينقبض ولن يمتنع من عبودية الله . وقال الزجاجَ في ذلك : أي ليس يستنكف الذين يزعمون أنه إله أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، وهم أكبر من البشر . [لسان العرب ـ مادة : نكف] .

(٢) غضَّ الأمرُ منه : أي وضع ونقص من قدره . يُقَال : ما عليك بهذا غضاضة أي نقص ولا انكسار ولا ذل . [لسان العرب ـ مادة : غضض] .

والملائكة المقرَّبون أيضًا تشرُف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئًا عن هذا العالم ، وليس لهم عمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله .

وهى عبودية ليست لمن يَستذِلّ ، لكنها لمنْ يُعِزّ .

وهى عبودية ليست للذى يأخذ ، ولكنها للذى يُعطى .

والذى يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ، ولا الملائكة المقرَّبون .

والموْلَى ـ سبحانه وتعالى ـ هو الخالق والقادر على كل شىء ، خلق كل الخلق من عدم ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا .

وقد جاءتْ الشُّبهة عند بعض من أتباع المسيح من أنه أُوجِدَ من دون أب .

ونقول لهم : لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق ، فكان من الأوْلَى أن تجىء ذات الشبهة فى خلق آدم ؛ لأن قصارى ما فى المسيح أنه جاء من غير أب ، ولكن آدم جاء من غير أب ، ومن غير أم ، فأيُّهما كان أوْلَى أن يكون ابنَ إله؟

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ [آل عمران]

فالحقُّ سبحانه يخلق الشيء - أيّ شيء - بأسباب ، وكُلُّ الأسباب مخلوقة له .

والولد مِنَّا - فى جمهرة الناس - ينشأ من اجتماع الأب والأم ، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة :

- إما أنْ يوجد بوجود شيئين ، ذكر وأنثى . وهذا لجمهرة الخلق .

- وإمَّا أنْ يُوجد بانعدام الشيئين ، مثل : آدم .

- وإمَّا أنْ يُوجد بوجود واحد من الشيئين ، وهو الذكر ، مثل : حواء .

- وإمَّا بوجود واحد من الشيئين ، وهى الأنثى ، وخَلْق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر .

وليعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعًا أن الأسباب لا دَخْلَ لها فى التكوين ، وأن المسبِّب هو القادر على أن يوْجد من غير أب وأم كما أوجد آدم، وأنْ يُوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس ، وأن يُوجِد من أم دون أب كما أوجد عيسى ، وأن يُوجِد من دون أم كما أوجد حواء .

إذن : فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته ، ولا دَخْل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى ، فالأسباب ليست هى الفاعلة فى ذاتها ، بلِ إرادة الخالق سبحانه هى الفاعلة .

والمعجزة فى آدم أقوى منها فى عيسى عليه السلام ، أنتم فُتِنْتم فى عيسى لأن عنصر الأُبوة ممتنع ، وآدم امتنع فيه عنصرالأبوة والأمومة .

إذن : فالمعجزة أقوى ، وكان الأَوْلَى أن تُفْتَنوا بآدم بدل أن تُفتنوا بعيسى.

ومن العجيب أنكم لم تذكروا الفتنة فى آدم ، وذكرتم الفتنة فيما فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين فى آدم ، وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ، لا إلى عيسى ، ولكنكم لم تفعلوا.

ورسول الله ﷺ قال له الحق سبحانه ؛ إن القضية ليست قضية إنكار ، ولكنها قضية كاذبة .

اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) ﴾ [الزخرف]

أى : لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد ، ولكنه جَلَّ جلاله لم يتخذ ولدًا ، فلا يمكن أن يعبد الناس شيئًا لم يكن لله ، وإنما ابتدعوه واختلقوه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾ [الصافات]

ويقول تعالى :

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾ [الزمر]

فكيف تريدون أن تفرضوا عليه سبحانه ولدًا ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾ [مريم]

متى اتخذ الرحمن الولد؟ وفى أى قرن حدث هذا ؟

هل حدث هذا من ميلاد المسيح ؟ مع أن هذه المقُولة لم تَأْتِ وتظهر إلا بعد ميلاد المسيح بـ ٣٠٠ سنة .

وأيضًا .. ما الذى زاد فى مُلْك الله بعد أن جاءه الولد ؟

واقع الأمر يُؤكِّد أنه لم يَزِدْ شىء ، فالشمس هى الشمس ، والنجوم هى النجوم ، والهواء هو الهواء .

إذن : الذى كان يُدير هذا الكون قبل مجىء الولد هو هو لم يتغير سبحانه.

إذن : مَقُولةُ اتخاذ الولد ما هى إلا عَبث ؛ لأنه لم يزد شىء فى الملك على يد هذا الولد ؛ فلم تكن هناك صفة مُعطَّلة عند الحق سبحانه وتعالى ، وجاء هذا الولد فأكمل الكون بهذه الصفة .

بل إن الصفات الكمالية لله ، قبل أن يخلق أىَّ شىء . هو خالق قبل أن يخلق ، ورازق قبل أنْ يرزق ، ومُحي قبل أن يُحي ، ومُميت قبل أن يُميت .

لأن الحق سبحانه بهذه الصفات أوجد الأشياء .

ونضرب لهذا مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما نقول : فلان شاعر.

وحيثية إطلاقنا هذه الصفة أنه قال قصيدة جيدة ، أخذت بأسماع وقلوب السامعين له .

ولكِنْ هل هو أصبح شاعراً بعد أن قال القصيدة ؟ أم لأنه شاعر ابتداءً قالها ؟

إذن : صفة الكمال تُوجد أولاً قبل مُتعلقها .

ويستنكر الحق سبحانه هذه القَوْلة ، فيقول لهم :

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ [مريم]

والإدُّ هو المتناهى فى النُّكْر والفظاعة ، منْ آدَهُ الأمرُ إذا أثقله ، ولم يَقْوَ عليه .

ولذلك يقول تعالى فى آية الكرسى :

﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة]

لا يؤوده ، أى : لا يثقله .

فكأن هؤلاء القائلين بأن الله اتخذ ولدًا ، قد جاءوا بأمر لا تتحمله الجبال لثقَله وفظاعته وعظيم نكَارته .

ولسنا نحن فقط الذى نتكرَّه هذا الأمر ، بل إن الأشياء التى لم تُكلَّف ترتجُّ له وتهتزُّ له من شِدَّته .

ولذلك يقول تعالى :

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم]

ومعنى تفطُّر السماوات ، أى : تتشقق وتصبح مِزَعًا (١) ممزقًا .

---

(١) المُزْعة : القطعة من القطن والريش واللحم ونحوها . ومَزَّع اللحم فتمزَّع : فرَّقه فتفرق . والتمزيع : التفريق . يقال : مزّع فلان أمره تمزيعًا إذا فرّقه . وتمزَّع غيظًا : تقطَّع . [لسان العرب ـ مادة : مزع] .

هذه السماء يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ[1] ⑥ ﴾ [ق]

هذه السماء ، وهى غير مُكلَّفة ، يكون شأنها أنها توشك أن تتفطَّر .

ولكن ، لماذا لم تنفطر ، وقد قيل هذا القول المستبشع ؟

والحق سبحانه يعطينا سبب هذا فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ④١ ﴾ [فاطر]

ولذلك ففى الحديث القدسى :

«قالت السماء : يا رب ائذن لى أن أسقط كسفًا [2] على ابن آدم ، فقد طَعِم خَيْرَك ومنعَ شُكْرَك . وقالت الأرض : يا رب ائذن لى أن أخسف بابن آدم ، فقد طَعِم خَيْرك ومنعَ شكرك. وقالت الجبال : يارب ائذن لى أن أخِرَّ على

---

(١) الفَرْج : الشَّق . الجمع : فروج . فالسماء متماسكة لا خلل فيها . ولا شقوق . فالفَرْج : الخلل بين الشيئين . [اللسان ـ مادة : فرج] .

(٢) الكِسْف والكِسْفة : القطعة مما قطعْت . قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑨ ﴾ [سبأ]

ابن آدم ، فـقد طَعِم خَـيْرك ومنعَ شُكْرك . وقـالت البحـار : يا رب ائذن لى أنْ أُغرِق ابنَ آدمَ ، فقد طَعِم خَيْرَكَ ومنعَ شُكْرك » . [1]

فماذا قال الحق لهم ؟

قال : «دعونى وخلقى .. لو خلقتموهـم لرحمتموهم .. إن تابوا إلىَّ فأنا حبيبُهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبُهم» .

وحيثية انفطار السماء ، وانشقاق الأرض ، وخرُور الجبال هى :

﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ [مريم]

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم]

فـهناك شىء اسـمـه «نفى الحـدث» ، وشىء آخـر اسـمـه «نفى انبـغـاء الحدث».

والقرآن يقول فى موضع آخر عن رسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٩٦﴾ ﴾ [يس]

(١) مما ورد فى معنى هذا ما أخـرجه أحمـد فى مسنده (١ / ٤٣) من حـديث عمـر بن الخطاب رضى الله عنه : «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيـها ثلاث مرات ، يستأذن الله عز وجل أن ينفضخ عليهم ، فيكفـه الله عز وجل » . قال الشيخ أحمد شاكر فى تحقـيقه للمسند : «إسناده ضعيف ، لجـهالة الشيخ الذى روى عنه العوام بن حـوشب ، وأبو صالح مولى عمر مـجهول أيضًا ».

فلو قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ .. (٦٩) ﴾ [يس] فحسب ، لاقتضى هذا أن محمدًا ليست عنده مُقوِّمات قَول الشعر . مثل : رِقة الإحساس ، والثقافة الواسعة . وهو ليس عنده شيء من هذا .

فيُبيِّن ربُّ العزة أن رسول الله ﷺ عنده الاستعداد ، ولكن لا ينبغى أن يكون شاعرًا ، ولا يليق به [1] ، ولا يتأتَّى له هذا مع كونه حاملَ رسالةٍ ، عِمادُها القرآن ، وهو كلام الله .

هكذا هنا لا ينبغى أن يكون للحق سبحانه ولد ، أما الحَدَثُ نفسه فإنْ أراده الله يكون ، ولكن لا ينبغى له هذا سبحانه .

فعلى فَرْض أن الولد بَارٌّ وطائع ، فهل هناك أحد مُتمَرِّد عليَّ ؟

لا ، فالكُلُّ عبيد للرحمن .

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم]

---

(١) قال السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ٧١) عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) ﴾ [يس] أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه قال : بلغنى أنه قيل لعائشة رضى الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟

قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس ، يجعل آخره أوله ، وأوله آخره ، ويقول :

– ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار –

فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ليس هكذا . فقال رسول الله ﷺ : «إنى والله ما أنا بشاعر ، ولا ينبغى لى ».

حتى الذين كفروا فإنهم عبيد لله ، فالإنسان له منطقة اختيار ، يستطيع أن يفعل أو لا يفعل ، ولكن هناك منطقة قَهْرٍ ليس للإنسان فيها اختيار .

فالكافر بما أعطاه الله من صفة الاختيار والقدرة عليه ، له أن يكون طائعًا أو عاصيًا ، مؤمنًا أو كافرًا .

يقول تعالى :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .... (٢٩) ﴾ [الكهف]

فالكافر تعـوَّد على المخالفة ، متمـرِّد على الإيمان ، ولكِنْ إذا مرض ، هل بِوُسْعه التمرُّد على المرض ، ورفضه ؟

هل إذا جاءه الموتُ يستطيع أنْ يُنجى نفسه منه؟

إذنْ : فالإنسان له اختيار فى شىء ، إنما هو عبد فى كل الأشياء .

ثم إن منطقة الاختـيـار نفسهـا تمتنع فى الآخرة ، فأنت مُـخـتَـار فى الدنيا (تفعل) أو (لا تفعل) . أما فى الآخرة . فلا .

ولذلك لا بُدَّ أن نُفرِّق بين «العبيد» ، و «العباد» .

فكلنا عبيدُ الله ، بدليل الأشيـاء التى تجرى على الجميع ، ولا يستطيع أن يخالفها أحدٌ مثل : المرض ، والموت .

أما العـبـاد فـإنهم يدخلون منطقة الاخـتـيـار بمحْضِ إرادتهم، ودخلوا فى التكليف ، وأصبحت كل تصرفاتهم وِفْقًا لما يريده الله .

ويقول تعالى :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم]

فَهُمْ وإنْ كانوا فى ظاهر الأمر فى الدنيا لهم أمور يخرجون فيها عن مُرَادِ الله ، فهناك أمورٌ أخرى لا يستطيعون أن يخرجوا فيها عن مُرَادِ الله .

ثم يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [مريم]

والإحصَاء : العدُّ . وكانوا يَعُدُّون بالحصَى ، أما نحن فنعُدُّ الآن بالسبحة.

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم]

فَكُلُّ إنسان سيأتى بمفرده ، وستتفرَّق عنه العِزْوة والعشيرة ، وسينصرف عنه الولد والزوجة ، وسيفرُّ منه الأهْلُ.

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ (١) مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ (٢) وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس]

---

(١) قال عكرمة : «يَلْقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أى بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت ، وتثنى بخير ما استطاعت . فيقول لها : فإنى أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لى لعلِّى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئًا ، أتخوف مثل الذى تخاف .

قال : وإن الرجل ليلقى ابنه ، فيتعلق به ، فيقول : يا بنى ، أى والد كنت لك ؟ فيثنى بخير ، فيقول له : يا بنى إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلِّى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده: يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا » . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٤٧٣) .

(٢) صاحبه : عاشره . والصاحب : المعاشر . والمقصود بالصاحبة هنا زوجته ورفيقته فى الحياة.

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر:

﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ (١)حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ (٢) الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المعارج]

ولذلك كان قول الله عز وجل الحاسم لأهل الكتاب:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا (٣) فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ (٤) أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ . لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء]

فالحقُّ سبحانه يُوجِّه أمراً لأهل الكتاب أنْ لا يغلوا في دينهم. والغُلُوُّ هو: الخروج عن حَدِّ الاعتدال فى الحكم؛ لأن كل شيء له وسط وله طرفان، وعندما يُمسك شخص طَرفاً نطلب منه ألاَّ يكون هناك إفراطٌ أو تفريط.

---

(١) الحميم: القريب الذى تودُّه ويودُّك. والحميم: القرابة. قال الفراء فى قوله تعالى: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (المعارج) أي: لا يسأل ذو قرابة عن قرابته، ولكنهم يعرفونهم ساعة ثم لا تعارف بعد تلك الساعة. وقال الجوهرى: حميمك قريبك الذى تهتم لأمره. [لسان العرب ـ مادة: حمم].

(٢) فصيلة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنَوْن. قال ابن الأثير: الفصيلة من أقرب عشيرة الإنسان. وأصل الفصيلة: قطعة من لحم الفخذ. [لسان العرب ـ مادة: فصل].

(٣) غلا فى الدين والأمر يغلو غلواً: جاوز حَدَّه وأفرط فيه. والغلو: التشدد ومجاوزة الحد. [لسان العرب ـ مادة: غلا].

(٤) أطلقت الكلمة على المسيح عيسى بن مريم فى قوله: ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء] هى قوله «كُنْ». فهو مخلوق بغير أب بأمر الله «كُنْ».

وقد وقع أهل الكتاب فى هذا المأزق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفريط .

لقد كفر اليهود بعيسى ، واتهموا مريم بالزنا ، وهذا غُلُو فى الكُرْه .

وغَالَى النصارى فى الحب لعيسى ، فقالوا : إنه إله ، أو ابن إله ، أو ثالث ثلاثة .

وهذا وذاك غُلُوّ ، ويطلب الحق سبحانه منهم أنْ يقفوا من أمر الدين موقفَ الاعتدال .

﴿ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ . . . . ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء]

وقد قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه :

«إن فيك من عيسى مثلاً ، أبغضته اليهود حتى بهتوا[(١)] أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له »[(٢)]

فاليهود اتهموا سيدتنا البَتُول[(٣)] المصطفاة مريم بما ليس فيها ، والنصارى جاءوا بالمغالاة فى الجهة الأخرى ؛ لذلك يأمرهما الحق سبحانه بعدم المغالاة ؛ لأن الحق لا يتعاند ، فهو شيء ثابت لا يتغير أبداً ، ولا يتعارض .

---

(١) بهت الرجل يبهته بُهتانًا فهو بهَّات . أى : قال عليه ما لم يفعله . والبُهْت : الكذب . وباهته : استقبله بأمر يقذفه به ، وهو منه برىء . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١ / ١٦٠) ، وابن أبى عاصم فى السنة (٢ / ٤٨٤) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٣) البتول من النساء : المنقطعة عن الرجال لا أرب لها فيهم ، وبها سُمِّيت مريم أم المسيح. ويقال : البتول هى المنقطعة إلى الله عز وجل فى الدنيا . [لسان العرب ـ مادة : بتل].

والحق سبحانه يؤكد على بشرية عيسى عليه السلام وأمه ، فيقول :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ [(١)] مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ [(٢)] (٧٥) ﴾

[المائدة]

فهما يحتاجان كسائر البشر لما يُقوِّم حياتهما من طعام وشراب وكِسَاء ، والألوهية المدّعاة ، وبُنـوّة عيسى لله سبحـانه يتنافيان مع هذا الاعتـقاد الباطل ، وهذا هو الإفك بعينه الذى يتصادم مع العقل المجرد عن الهوى .

والحق سبحـانه يُطمئننا أنه ليس عنده مراكز قُـوى ، تؤثر عليه أو تضغط عليه فى أى شىء ، كما يحدث لنا نحن البشر . فيقول سبحانه :

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ [(٣)] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن]

فالزوجة والولد هما وسائل الضغط عـلى مرادات الإنسان، فالتأثير يأتى عادة من الصاحبة والولد ، ولكنه سـبحانه مُنزَّه عن ذلك ، فليس هناك مؤثرات على الحق تُؤثِّر عليه كما تؤثر على البشر .

---

(١) خـلا الشئ خلواً : مضى . والقـرون الماضـية : هم المواضى . التى مضت وسـبقت . [لسـان العرب ـ مادة : خلا] .

(٢) الإفك : الإثم والكذب . والأفَّـاك : الذى يأفك الناس أى يصدهم عن الحق بباطله . ورجل أفَّاك وأفيك : كذاب . والمأفوك : المأفون ، وهو ضعيف العقل والرأى . [لسان العرب ـ مادة : أفك] .

(٣) جَدَّ فـلان : عَظُم عِظَمًا . والجد : الـعظمة والمجد .وقـال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣)﴾ (الجن) أى : أنه تعالت عظمة ربنا وتعالى مَجْدُ ربنا .

والحق سبحـانه تنزَّه عن هذه الأمور ، فليس عنده صاحبـة حتى يكون له ولد .

ولهـذا فإن الرحمـن جَلَّ وعلاَ ، يعلمنا أنه ترفَّع عن أن يـتخيل أحـد من البشر أن له ما للبشر من زوجة وولد .

ولأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن البشر يُعَانُون أحيانًا من زَلَل [1] الأبناء والزوجات ، فَيُطمئنهم أنه أعْلَى من أنْ يختار لنفسـه مَا أعطاه للبشر .. الزوجة والولد .

ويُؤكِّد لنا ذلك فى سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا[2] أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

حين يتكلم الحقُّ سبحـانه عن ذاته ونفسـه ، قد يتكلم بضـمير المتكلم ، فيقول :

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا ..... (١٤) ﴾ [طه]

وقد يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

---

(١) الزَّلَل : الخطأ والذنب .

(٢) الكفيء والكُفْءُ والكُفُوءُ : النظير . وتقول : لا كفاء له . أى : لا نظير له . والكُفْء : النظير والمساوى . [لسان العرب ـ مادة : كفأ] .

ومرة يتكلم عن ذاته بما نسميه نحن ضمير الغيبة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ .... (٦١) ﴾ [الأنعام]

لأن ضمير المتكلم معه دليله ، إن المتكلم يقول : أنا ، ويخاطبك فيقول : أنت .

لكن الذى يتكلم بضمير الغيبة لابُدَّ أن يعود الضمير على مرجع لهذا الضمير ، وحين يتكلم الحقُّ سبحانه عن ذاته بما يُسمّى لدينا ضمير الغيبة ، فإنه سبحانه يريد أن يُبين لنا أنه فى أَجْلى مجالى المشاهدة والحضور .

فكأنه إذا قال «هو» لا تنصرف إلا إلى ذاته العُلْيا ، فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو .

ولذلك يقول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

وسبحانه يقول «هو» قبل أن يذكر المرجع ، وهو الله ، مع أن الأصل فى المرجع أن يتقدم .

فكأنه إذا أُطلق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته سبحانه .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾ [البقرة]

وهنا قضيتان :

القضية الأولى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ .... ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

إلهكم : يعنى أن المعبود إله واحد ، فالواقع أن الإله الحقّ موجود قبل أنْ يُوجد الكفر .

والقضية الثانية : ﴿ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .... ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

لأن غفلة الناس هى التى جعلتْ بعضًا من نفوس الناس تلتفت إلى آلهة أخرى .

وقوله الحق سبحانه أنه إله واحد ، أى : ليس له ثانٍ. والفارق بين «واحد» و «أحد» هو أن «واحد» تعنى ليس له ثانٍ ، و «أحدٌ» يعنى ليس مُركَّبًا ولا مُكونًا من أجزاء .

ولذلك فالله لا يمكن أن نصفه بأنه «كُلّ» أو «كُلىّ» ؛ لأن «كل» يقابلها «جزء» ، و«كلى» يقابلها «جزئى» ، و«كل» هو أن يجتمع من أجزاء .

والله مُتفرِّد بالوحدانية ، وسبحانه المنزّه عن كل شىء ، وله المثلُ الأعلى .

وأضرب مثالاً للتقريب ، لا للتشبيه .

إن الكرسى «كل» مُكوّن من خشب ومسامير وغراء وطلاء ، فهل يمكن أن نطلق على الخشب أنه «كرسى» ، أو على المسامير ، أو على الغراء ، أو على الطلاء؟

لا ... إذن : كل جزء لا يطلق على «الكل» ، بل الكل ينشأ من اجتماع الأجزاء .

و «الكلى» يُطلق على أشـياء كـثيـرة ، لكن كل شيء منها يحـقق الكلى ، فكلمة «إنسان» نقول عنها «كلى» ، جزئياتها : محمد وزيد وبكر وعمر وخالد. فنقول : زيد إنسان ، وهو قول صحيح .

ونقول : عمر إنسان ، وذلك قول صحيح .

والله سبحانه وتعالى لا هو «كُلى» لأنه واحد .

ولا هو «كُل» لأنه أحَد .

إن القضية الأساسية فى الدين هى :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

والقـرآن لا يـنفى ويقـول : لا إله إلا هو ، إلا حـين توجـد غـفلـة تعطى الألوهية لغير الله ، أو : تعطى الألوهية لله ولشركاء معه .

إن القرآن ينفى ذلك ويقول :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

وليس هناك شيء غير الله إلا نعمة منه سبحانه ، أو مُنْعَم عليه .

إن مـا دون الله إما نـعمـة، وإما مُـنْعَم عليه بـالنعمـة ، وهذه كلهـا نَفْح الرحمن ، ونَفْـح الرحيم ، وما دام كل شيء مـا عدا الله إمـا نعمـة وإما مُنْعَم عليه ، فلا تُوصف النعمة بأنها إله ، ولا يقال فى المُنْعَم عليه : إنه إله (1) .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة]

لأن المنْعَمَ عليه معناه أن غيره أفاض عليه نعِمَه ، لأن النعمة مَوْهوبة ، والمنْعَم عليه مَوْهوب إليه ، فإذا كانت هِبة أو موهوبة إليه ، فلا يصح أن تكون إلهًا .

والحق سبحانه يقول :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران]

إنه الحقُّ الذي نَصَبَ الأدلة فى الوجود على قيوميته [(١)] ، وعلى أنه إله واحد ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو .

وبالله لو لم يكُنْ قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وليس هناك مَنْ يعارض مُبْتغاه ، أكان يُجازِف فيقولها ؟

إنه الحق الأعلى الذى شهد أن لا إله إلا هو ، فساعةَ أن يقول : «كُنْ» فإنه قد علم أنه لا يوجد إله آخر يقول : «لا تكُنْ».

فهذه شهادة الذات للذات ، وكَفَى بالله شهيدًا ، وشهدت الملائكة أيضًا ، والملائكة هم الغَيْب الخفىّ عنَّا ، وتتلقى الأوامر من الحق .

إن الملائكة لم يَرَوْا أحدًا آخر يعطى لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر ، وهذه هى شهادة المشهد .

---

(١) القيوم : سبحانه أى القائم بأمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بمستقرهم ومستودعهم . وهو سبحانه القائم بنفسه مطلقًا لا بغيره ، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود حتى لا يُتصوَّر وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به .

ويُضاف إلى الملائكة «أولو العلم» ، بشهادة الاستدلال .

فكأن الآية تقول لنا :

إذا ثبتتْ شهادة الذات للذات ، وشهادة المشهد من الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقرارًا نهائيًا لا شَك فيه ، فخذوها مُسَلَّمة : «لا إله إلا هو».

وعظمة الحقِّ سبحانه أنه : واحد ، أحد، فَرْد ، مُتفرِّد ، صَمَد ، وهو عزيز لا يُغلب على أمره ، وهو صاحب كل الحكمة في وضع الأشياء في مواضعها ، بحيث إذا ما عرفتَ حكمة ما يُجريه الله سبحانه وتعالى على خَلْقه ؛ فأنت تتعجَّبُ من عظمة قدرة الله .

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

[يونس]

فلا يوجد في الكون حَقَّانِ ، بل يوجد حَقٌّ واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

إذن : أنتم إن وجَّهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ، تكون قد ضللتم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يُوصِّل إليها ، فإن صُرِفتم من الإله الحق فأنتم تَصِلُون إلى الضلال .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بما يُبيِّن أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه :

﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

أى : أنكم إن انصرفتم عن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فإلى الضلال ، والحق واحد ثابت لا يتغيَّر .

ومَنْ عبد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ، أو بعض رسل الله ـ عليهم السلام ـ أو صَنَمًا من الأصنام ، فقد هَوَى إلى الضلال .

فالحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ؛ لأنه لم يلد ولم يولد ، وهو أحد .

والحمد لله الذى لم يتخذ شريكًا فى الملك ، لأنه واحد .

والحمد لله الذى لم يكن له ولىٌّ من الذُّلِّ ؛ لأنه قاهر (١) .

(١) فهو سبحانه القهار القادر على أن يبطش بمن يقولون هذا القول ، ويفترون هذه الفرية ، ولكن انظر إلى قول رسول الله ﷺ : «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يجعلون له ولدًا ، وهو يرزقهم ويعافيهم». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى .

رزق الشيطان

٢٤ - عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم :

«قَـالَ إبْلِيسُ : يَارَبِّ ، لَيْسَ أَحَـدٌ مِنْ خَلْقِكَ إلاَّ جَعَلْتَ لَهُ رِزْقَـاً ومَعِيشَةً ، فَمَا رِزْقِى ؟

قَالَ ربُّ العِزَّةِ :

«مَـا لَمْ يُذكَـرْ عَلَيْـهِ اسْـمِى» (١)

قد كان إبليس يُسمَّى طاووس الملائكة ، وكان يزهو بخيلاء بينهم ، وهذه الخُيَلاء ، وهذا الكِبْر هو الذى جعله يقع فى المعصية ، ولأن إبليس خُلِق مُخْتارًا ، فقد كان مَزْهُوًا باختياره لطاعة الله ، قبل أنْ يقوده غروره إلى الكفر والمعصية.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٨ / ١٢٦) ، وأبو الشيخ فى العظمة (١١٥١) ، وقد أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣ / ٣٥٠) ط. دار الفكر بيروت وعزاه لابن مردويه .

وقد أخرج الطبرانى فى المعجم الكبير (١١١٨١) عن ابن عباس أيضًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قال إبليس لربه : يا رب أهبطت آدم ، وقد علمت أنه سيكون كتاب ورسل ، فما كتابهم ورسلهم ؟ قال : «رسلهم الملائكة والنبيون منهم ، وكتابهم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . قال : فما كتابى ؟ قال : كتابك الوشم ، وقرآنك الشعر ، ورسلك الكهنة ، وطعامك ما لا يذكر اسم الله عليه ، وشرابك كل مسكر ، وصدقك الكذب ، وبيتك الحمام ، ومصايدك النساء ، ومؤذنك المزمار ، ومسجدك الأسواق » قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١١٤) : «فيه يحى بن صالح الأيلى ضعفه العقيلى » .

ولذلك لم يَكَدْ يصدر الأمر من الله بالسجود لآدم ، حتى امتنع إبليس تكبُّرًا منه ، ولم يجِدْ نفسه على طاعة الله ، فمعصية إبليس هى معصيةٌ فى القمة ؛ لأنه رَدَّ الأمر على الآمرِ ، وظَنَّ أنه خَيْر من آدم .

ولم يلتزم إبليس بطاعة الله ، ومضى غروره يقوده من معصية إلى أخرى ، فطرده الله تعالى من رحمته وجعله رجيمًا [1] .

وإبليس لم يكُنْ من الملائكة ؛ لأنه من الجن بنصٍّ القرآن .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ [2] عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف]

لذلك لا يصِحُّ أن يكون «إبليس» محلَّ خلاف : أهو من الملائكة أم لا ؟

فقوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف]

نَصٌّ صريح يثبت جنسية إبليس ؛ فهو من الجن ، ولذلك كان من المختارين ، له أن يطيع أو أن يعصى ؛ لأن الجن داخلون فى قانون الاختيار .

فإنْ ألزم الجنىّ نفسه بمنهج الله إلزامًا يتساوى به مع الملائكة وجبَ عليه أنْ يقوم بذلك ، ولكنه لم يفعل ، وكان من الواجب أن يطيع إبليسُ الأمرَ .

---

(١) الرجم : الرمى بالحجارة . والرجم : اللعن . ورجيم : ملعون مرجوم باللعنة مُبْعَد مطرود من رحمة الله . [لسان العرب – مادة : رجم] .

(٢) الفسق : العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق . ومعنى فسق عن أمر ربه ، أى : جار ومال عن طاعته . [لسان العرب ـ مادة : فسق] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أنْ يسجد .

فلو كان إبليس أعلى من الملائكة لَكانَ أَوْلَى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى ، ولا يعصى ويتأبَّى ، أمَا وإنه كان أقلَّ من الملائكة فكان لابُدَّ من باب أَوْلَى أنْ ينصاعَ لأمر الله .

ولكنه عصى ، فوصفه الحق سبحانه بالفسق :

﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف]

يعنى : أن هذا الفُسوق أمر يجوز منه ، لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

وإنْ تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟

نقول : هَبْ أن فَرْدًا مُختارًا من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يَعْصِ.

أليستْ منزلته مثل المَلَك ، بل أكثر من المَلَك؛ لأنه يملك الاختيار ؛ ولذلك كانوا يُسمُّون إبليس طاووس الملائكة ، أي : الذى يزهو فى مَحضر الملائكة ؛لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفَّذها .

فصار لا يعصى الله ما أمره ويفعل ما يُؤْمَر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحًا لأنْ يُطيع ، وصالحاً - أيضًا - لأنْ يعصى .

ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة مُتميِّزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميُّزه أنه يحضر حضور الملائكة .

والحق سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أى باب إلى المعصية دخل ، ذلك أنه دخل من باب الاختيار الممنوح للإنس والجن فى الحياة الدنيا وحدها .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مَقْهوراً على الطاعة ما كان يستطيع أنْ يعصى ، ولكن معصيته جاءت من أنه خُلِق مختاراً .

فلما حضر إبليس مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾ [البقرة]

والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ، لأنه سبحانه سخَّر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مُدبِّرات أمر [١] ، ومنهم حَفَظَة [٢] ، ومنهم مَنْ هو بين يَدَى الله .

---

(١) وهم الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه :﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) ﴾ [النازعات] قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٤٦٦) : «قال على ومجاهد وعطاء وأبو صالح والحسن وقتادة والربيع ابن أنس والسدى : هى الملائكة . زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، يعنى بأمر ربها عز وجل» .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .... (٦١) ﴾ [الأنعام] ، ويقول: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (١١) ﴾ [الرعد] . أى : يحفظون بدن الإنسان ، وآخرون يحفظون عمله ويُحْصونه .

فلم يَكُنْ السجود للملائكة خضوعًا من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ؛ ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخَدَمة الإنسان ، لكن الملائكة المقربين لا يدرون شيئًا عن أمر آدم .

ولذلك يقول الحق سبحانه لإبليس :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العَالين عَمَلٌ مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لِمَنْ لهم عمل مع آدم وذريته .

وهؤلاء هم الذين قال الحق سبحانه عنهم :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ (١) مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .... (١١) ﴾ [الرعد]

وسبحانه أيضًا القائل :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (٢) (١٨) ﴾ [ق]

---

(١) المعقبات : الملائكة ، ملائكة الليل تُعقِّب ملائكة النهار ، وملائكة النهار تُعقِّب ملائكة الليل ، فكأن ملائكة النهار تحفظ العباد ، فإذا جاء الليل جاء معه ملائكة الليل ، وصعد ملائكة النهار، فإذا أقبل النهار عاد من صعد ، وصعد ملائكة الليل ، كأنهم جعلوا حفظهم عُقبًا أى نُوبًا . [لسان العرب ـ مادة :عقب] .

(٢) أى : أن ابن آدم ما يتكلم بكلمة إلا ولها من يرقبها معد لذلك ، يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة . [راجع : ابن كثير ٤ / ٢٢٤] .

وهؤلاء هم الملائكة الموكلون بمصالح الإنسان فى الأرض ، المطر مثلاً له مَلَكُه ، الزرع مثلاً له مَلَكُه ، وكل شيء له مَلَكٌ .

فالحق سبحانه يتحدث عن الملائكة الذين لهم صِلَة بالإنسان مثل : جبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وإسرافيل ، ورضوان ، ومالك .

وهناك ملائكة اصطفاهم الله للتفرُّغ لعبادته ، فهم العَالُون لا يدرون بهذا الخَلْق كله .

فالأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحُرَّاس السماء وغيرهم ممن ليستْ لهم مهمة مع الإنسان ، بل لهم رسالة مع عوالم أخرى .

الحق سبحانه هو خالق كل الخلق؛ ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة ، واستبقاء نوع ، فاستبقاء الحياة بالقوت [1] ، واستبقاءالنوع بالزواج والمصاهرة.

إذنْ : فمن ضمن ترتيبات الخَلْق أن يُوفِّر الرزق لكل دابة تدبُّ على الأرض .

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا [2] كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود]

(١) القوت : ما يمسك الرمق من الرزق . وفى الصحاح : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام ، وفى الحديث :اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا . أى : بقدر ما يمسك الرمق من المطعم . [لسان العرب ـ مادة : قوت] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤٣٦) عند تفسير هذه الآية : «أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض ، صغيرها وكبيرها ، بحريها وبريها ، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها ، أى : يعلم أين منتهى سيرها فى الأرض ، وأين تأوى إليه من وكرها ، وهو مستودعها ».

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حَقٌّ لكلٍّ مخلوق خلقه الله ، لكنه لم يفرض هو على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ولأنه سبحانه هو الذى يرزق كل مخلوق ، فهو يعلم مُسْتقره ، وأين يعيش ، ليوصل إليه هذا الرزق .

والمستقرُّ : هو مكان الاستقرار . والمسْتَوْدع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يُعْلِمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شىء آخر، فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك .

فما دام الحق سبحانه هو خالق كل الخَلْق ، فهو رَبُّ الجميع ، والجميع مسئولون منه .

فَعَطاء الربوبية يشمل الجميع ، ولأنه سبحانه ربُّ العالمين ، فالكون كله لا يخرج عن حُكْمه ، فليطمئن خَلْق الله فى الدنيا أن النعم مستمرة لهم بعطاء ربوبيته .

فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول : لن أشرق ، ولا النجوم تستطيع أن تصطدم بعضها ببعض فى الكون ، ولا الأرض تستطيع أن تمنع إنبات الزرع ولا الغلاف الجوى يستطيع أن يبتعد عن الأرض ، فيختنق الناس جميعًا .

إذنْ : فالله سبحانه وتعالى يريد أنْ يُطمئِن عباده أنه رَبٌّ لكل ما فى الكون ؛ لأن الله سبحانه وتعالى مُسَيْطر على كونه ، وعلى كُلِّ مَا خلق .

إنه رَبُّ العالمين ، وهذه تُوجِب الحمد ، فكل مخلوق مُطمئن إلى رزقه ، فهو واثق أن الله سيرزقه ، لأنه رَبُّ العالمين .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يرزقُهَا وإيَّاكُمْ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

والدابة: هى كل ما يدبُّ على الأرض ، والمراد بها كل ذى حركة حَيٍّ ، ومع أن هناك أشياء صغيرة لا نسمع لها دَبِيبًا مثل النملة وغيرها ، ولكن بعض الناس يبالغ ويقول : فلان يسمع دبَّة النملة .

ولكن الأمر مع الخالق سبحانه يختلف ، فهو سبحانه يعلم كل شىء ، ولا تخفَى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فهو يسمع دبيب النمل ويراه أيضًا .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

أى : ليس كل مخلوق يحمل رزقه معه ، فكثير من الدوابِّ لا تحمل رزقها ، ومع ذلك تعيش ولا تموت جوعًا .

ولكن ، هل هى لا تحمل رزقها لأنها لا تقدر على حمله ؟

هذا صحيح .. أو : تقدر على حمله ، ولكنها لا تفعل .

فالحشرات مثلاً، مثل القمل والبرغوث والبعوض وغيرها، هل هى تحمل رزقها ؟

لا .. كذلك الميكروبات التى منها ما يصيب الناس بالأمراض لا تحمل رزقها معها، فأنت لو نظرتَ إلى كثير من الدواب تجدها لا تحمل رزقها معها .

فمثلاً : الحمار يستطيع أن يحمل كمية من البرسيم تكفى أكْله يومين، ولكنه بعد أن يشبع لا يلتفت إلى البرسيم، ولا يفكر فيما سيأكله غداً، وكذلك باقى الحيوانات .

ولذلك قالوا : ليس هناك أحد يدَّخِر رزقه إلا الإنسان والفأر والنمل .

وهذا كلُّه جعله الله لحكمة ؛ لأنه ليس قصوراً من الله تعالى أن يجعل أكثر الدوابِّ لا تحمل رزقها، وذلك حتى يعلم الإنسان أن الخالق الذى خلق هذه العجماوات هو الذى يرزقها أيضًا، دون أن تحمل رزقها معها .

وأنت لو كنت فى الريف مثلاً، وجلستَ تأكل وسقط منك جزء من بلحة أو قطعة صغيرة من اللحم .

انظر إليها بعد قليل تجد أن عدداً قليلاً من النمل دار حولها، ثم تركها وانصرف، وبعد ذلك تعود هذه المجموعة الاستطلاعية إلى قرية النمل، وتخبرهم عن هذا الرزق وحجمه، وكم نملة يحتاجها لنقله .

حينئذ تأتى مجموعة كبيرة من النمل يحملون قطعة اللحم الصغيرة مثلاً، ويجرُّونها إلى قريتهم أو جُحْرهم، حتى تتغذى عليها جماعة النمل.

وإذا أردتَ أن تختبر مدى دِقَّة النمل وذكائه يمكنك أن تُلقِى قطعة سكر صغيرة ، ثم تنظر إلى عدد النمل الذى سيحملها بعد قليل ، وبعد ذلك ألْقِ قطعة أخرى ضِعْف وزن الأولى ، وانتظر حتى يأتى النمل لحملها ، وانظر إلى عدد النمل ستجد أن عدد النمل فى المرة الثانية ضِعْف العدد فى الأولى .

لأنه بمجرد أن ينظر النمل إلى أى غذاء يُقدِّر بالضبط عدد النمل القادر على حَمْله ونَقْله إلى بيوت النمل .

والأعجب من ذلك ما وجده العلماء فى قُرَى النمل ، حيث وجدوا أن أمام أعشاش النمل فتاتًا صغيرًا أبيض اللون ، فأخذوا يبحثون عن حقيقة هذا الشىء ، فوجدوا أنه الزريعة الموجودة فى كل حبة من الحبوب ، وهى التى تنبت منها الحبة حينما تتعرض للرطوبة .

لقد وجد العلماء أن النمل قد اقتلع هذه الزريعة ، وألقى بها خارج عُشِّه ، فلا يُدْخِل الحبة ، وفيها هذه الزريعة ، لماذا ؟

لأن هذه الحبَّة الصالحة للإنبات لو دخلتْ العُشَّ بمجرد أن تصيبها الرطوبة ستنبت وتسُدُّ عُشَّ النمل وتهدمه .

فتجد النمل ينزع هذه الزريعة ، ويُلقى بها خارج العش حتى تظل الحبوب على طبيعتها صالحة للاستعمال ، دون أن تنبت أو تضر العُشَّ ، ولذلك تجده يشقُّ الحبة نصفين حتى لا تنبت .

ولكن العلماء فُوجِئوا فى أعشاش النمل بوجود حبة الكزبرة مشقوقة أربعة أقسام ، دون غيرها من الحبوب ، فبحثوا وراء هذه الظاهرة فوجدوا أن

حَبَّة الكزبرة تتكون من أربع غرف ، كل غـرفة صالحة للإثبات ، فكان لا بُدَّ أن يشقها النمل إلى أربعة أقسام .

فمن الذى علَّم النمل أن يفعل ذلك ؟

إنه الذي خلق فَسوَّى (١) ، والذى قدَّر فهدى .

إذنْ : فقول الله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

أى : كثير من الدواب لا تحمل رزقها معها ، ولكن الله يرزقها وإياكم .

أى : أنه سبحانه يرزق هذه المخلوقات ، ونحن معها ، لم يذكر الإنسان أولاً ، مع أنه سيِّد المخلوقات ، وكلها تتبعه ؛ ليُبيِّن لنا أن مسألة الرزق لا دَخْل لها بالعقل أو الشَّطارة .

فالله يرزق هذه المخلوقات ، كما يرزقك أيها الإنسان ، وربما يرزقها قبلك .

فالرزق مضمون عند الله سبحانه ؛ لأنه الخالق والرازق .

ومن العجيب أن رزقك ليس هو ما تملكه ، ولكن رزقك هو ما تنتفع به .

---

(١) سَوَّى الشيء تسوية : عدَّله وجعله لا عوج فيه . قال تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : جعلك كاملاً . وقال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار]

فقد تملك أشياء ، ولكنها ليستْ من رزقك ، فقد تُسرق أو تضيع منك نقود ، أو حتى يرثها الغير .

حتى فى أقلّ شىء ، وهو الطعام ، فقد تكون فى انتظار الطعام على سُفْرتك فى المنزل ، وبعد ذلك يأتون لك به ، وقد يحدث أن يقع طبق معين على الأرض ، فلا يأكله أحد.

فهذا ليس من رزقك ؛ لأنه لو كان من رزقك لأكلته ، واستفاد به جسمك.

وأحيانًا يكون الأكل فى فَمِك ، وبعد أنْ تمضغ اللقمة أو قطعة اللحم مثلاً ، تُلقِى بها لأىّ سبب من الأسباب دون أن تبلعها ، لأنها ليستْ من رزقك.

وأكثر من ذلك قد تأكل الطعام ويُهضَم ويمتصُّ ويصير دمًا يجرى فى العروق ، وبعد ذلك تُصاب بجُرْح صغير ، فينزل منك بعض الدم ، ويقع على الأرض ، فتأتى ذبابة أو نملة وتمتص هذا الدم ؛ لأنه رزقُها وليس رزقك أنت.

كذلك الحشرات الصغيرة التى تتغذى على دم الإنسان ، كالبعوض وغيره ، هذه الحشرات لا تحمل رزقها معها ، ولكنها تأخذه جاهزاً .

ومن العجيب أن الناس الذين رأوا التماسيح فى أعالى النيل نقلوا لنا ظاهرة عجيبة ، أنهم رأوا التمساح من هؤلاء يقف بعد أن يأكل طعامه ، فيفتح فمه ليأتى الطير ويدخل فَمَه ، ويتغذّى على بقايا الطعام بين أسنان التمساح.

فانظر إلى هذا الطائر الضعيف يتحصَّل على غذائه من فَمِ التمساح ، الذى يخاف منه الناس.

والأعجب من ذلك أن الصياد حينما يأتى ليصطاد التمساح ، وهو فى حالة الاسترخاء هذه على شاطئ النيل تجد هذا الطائر يصرخ صَرْخة يفهم التمساح منها أنه فى خطر ، فيغوص فى الماء.

إذن : الرزق مضمون عند الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾ [الأنعام]

والأمة: طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد، وأفرادها متساوون فى كل شىء ، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة.

فالأمة : هى جماعة وطائفة لها جنسٌ يجمعها ، ولها تميُّزات أفرادية ، وهى تلتقى فى معنى عام.

فهذه المخلوقات التى نراها والتى لا نراها أُمَمٌ أمثالنا ، لها نظامُ حياة ، ولُغة ، ومعيشةٌ ، وتخطيط .. إلخ.

فكُلُّ الدوابِّ دون الإنسان أعطاها الإلهُ الإيمان بالفطرة ، وهداها إلى الرزق بالغريزة .

ويقول تعالى:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ [1] تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التى خلقها الله فى الكون تسبح بحمده ، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم.

وهذا ليس تسبيحَ دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى .

فإن فَقَّهك الله تعالى فى لُغاتهم لعلمتَ تسبيح الكائنات ، بدليل أنه عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير ، وسمع النملة تقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

والهُدْهد قال لسليمان عليه السلام مَا رآه عن بلقيس ملكة سبأ :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

إذن : فكُلُّ ما فى الكون مُسبِّح لله تعالى ، يسير على منهجه سبحانه ، ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان .

---

(١) الفقه : العلم بالشىء والفهم له . وقال ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٤٢) : « ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] أى : لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ، لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات ، وهذا أشهر القولين ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وفى حديث أبى ذر أن النبى ﷺ أخذ فى يده حصيات ، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل ».

والجن خَلْق من خَلْق الله ، فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الإنس مَرْئيًا ، وخلق الجن مَستوراً ، حتى لا نعتقد أن خَلقَ الله لحيٍّ كائن ، يجب أن يتمثَّل فى هذا القالب المادى.

بل سبحانه يخلق ما يشاء كما شاء ، فيخلق أشياء مستورة لا تُرى ، ولها حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها .

كُلُّ ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية ؛ لأن عقولنا قد تقف فى بعض الأشياء التى لا تُدْرَك ولا تُرَى ؛ لأننا لا نعلم وجودًا لشىء إلا إذا أحسسناه.

ولكن الحق سبحانه يوضح أنك لن تستطيع أن تدرك كل ما خلقه الله ، فليس حِسّك هو الوسيلة الوحيدة للإدراك ، لأن حسّك له قوانين تضبطه ، فأنت ترى ، ولكنك ترى بقانون ، بحيث إذا بَعُدَ المرئىّ عنك امتدادًا فوق امتداد بصرك ، فلا تراه.

وكذلك أذنك تسمع ، فإن بَعُدَ الصوت أو مصدر الصوت عنك بحيث لا تصل الذبذبة إليك ، فلا تسمع.

كذلك عقلك ، قد تفهم أشياء ، ولا تفهم أشياء أخرى ، ثم ضرب لنا فى وجودنا المادى أمثالاً تُقرِّب لنا ذلك الخَلْق الخفىّ من الجن ومن الملائكة.

والجن جنس مقابل للإنس ، وما دام فى الإنس طائعون وعاصون ، فكذلك فى الجن طائعون وعاصون .

والحق سبحانه قال:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ[1] مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا[2] ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ②﴾ [الجن]

إذنْ : فمن الجن مَـنْ هو مؤمن ، ومن الجن مَنْ هو عَـاصٍ ، والعَاصِي من الجن يُسَمّى شيطانًا .

وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه ؛ لأن الشيطانَ من المخلوقـات التى ذكرها الله من عـالم الغيب ، وحُـجَّة وجودها هـو تصديقُك لمَنْ قال عنها .

والشيـطان هو عَـاصِي الجـن ، ونحن لم نَرَ الشـيطان ، ولكننا علـمنا به بوساطة إعـلام الحق الذى آمنَّا به فقـال : أنا لى خَلْق مُسـتتر ؛ ولذلـك سمَّيـتُه الجن ، من الاستتار ، والعاصى من هذا الخلق اسمه « شيطان» .

إذن : فإيماننا به لا عَنْ حِسٍّ ، ولكن عن إيمان بغيب أخبرنا به مَنْ آمنا به.

وحـين نجد شيئـاً اسـمه الإيمـان يجب أن نعـرف أنه متـعلق بشىء غيـر مُحسٍّ ؛ لأن المحـسَّ لا يُقَال لك آمِنْ به ، لأنه مشهود لـك ، فأنا لا أقول : أنا أؤمن بأن المصباح مُنِيرٌ الآن ، أنا لا أؤمن بأننا مجتمعون فى المسجد الآن .

لا أقول ذلك ؛ لأن هذا وَاقِعٌ مَشْهود ومُحَسٌ .

إذن : فالأمر الإيمانىّ يتعلق بالغيب ، مثل الإيمان بوجود الملائكة .

(١) النَّفـر : ما دون العـشرة . والجـمع : أنفار . قـال أبو العبـاس : النفر والقـوم والرهط هؤلاء معناهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم [لسان العرب ـ مادة : نفر] .

(٢) العجب : روعة ودهشة تأخذ الإنسان عند استحسان شىء خفى سره أو استعظامه .

فإذا ما كُنَّا قد آمنَّا بالغيب نجد الحقَّ سبحانه وتعالى يُعطِي لنا صورة للشيطان ، ولكنه حين يعطينا صورة للشيطان ، أو لرأس الشيطان المميِّزة له .

يقول جَلَّ شأنه :

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا[1] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات]

وشجرة الزقوم فى الآخرة فى النار ، إذن : فنحن لا نراها ، ورءوس الشياطين لا نراها ، فكيف يُشبِّه الله ما لم نَرَهُ بما لم نَرَهُ ، يُشبِّه شيئاً مجهولاً بشيء مجهول؟

نقول: نعم ، وذلك أمر مقصود للإعجاز القرآنى ؛ لأن للشيطان صورة مُتخيَّلة بَشِعة ، بدليل أنك لو طلبتَ من رسامى العالم فى فَنِّ الكاريكاتير ، وقلت لهم: ارسموا لنا صورة الشيطان ، ولم تُعْطِهِم ملامح صورة محددة ، فكل منهم يرسم وَفْق تخيُّله كيانًا غايةً فى القُبْح .

فهذا يُصوِّره بالقبح من ناحية ، وذاك يُصوِّره بالقبح من ناحية أخرى ، بحيث لو جمعتَ الرسوم لما اتحد رَسْم مع رَسْم .

إذنْ : فكل واحد يستبشع صورة يرسمها .

---

(١) طَلْع النخلة : نَوْرُها الذى هو أصل ثمارها ، ويكون صغير الحجم أبيض منظمًا منضوداً . قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٠) : «أى : أصل منبتها فى قرار النار، طلعها كأنه رءوس الشياطين تبشيع لها ، وتكريه لذكرها ».

وساعة نعطى الجائزة لمن رسم صورة الشيطان ، أنعطى الجائزة لأجملهم صورة ، أم لأقبحهم صورة ؟

إننا نعطى الجائزة لصاحب أشدِّ الصُّوَر قُبْحاً .

إذنْ : فصورة الشيطان المتمثلة صورة بَشِعة قبيحة ، ولو جاء على صورة واحدة من القُبْح لاختلف الناس حول هذه الصورة ، فلعلَّ هذا يكون قُبْحاً عندك ، ولا يكون قُبْحًا عند آخر .

ولكن حين يُطلق الله أَخْيلة الناس فى تصوُّر القُبْح ، يكون القُبْح ماثلاً وواضحًا فى عمل كُلِّ إنسان ، فتكون الصورة أكمَل وأوْفى ، فالأكمل والأَوْفى أن يكون القُبْح شائعًا فيها جميعًا .

فإذا كنا نتخيل الشيطان فى صورة مُسْتقبحة مُسْتبشعة ، فالأبشع مِنها هو رزقه الذى قدّره الله لتمرده وخروجه على طاعة الله ، وردّه الأمر على خالقه فى السجود لآدم ، مما كان سبباً فى عداوته لآدم وذريته ، وكان عداؤه هذا هو سبب طرده ولعنته .

فقد جعل الله رزقه مما لم يُذْكر اسم الله عليه ، والحق سبحانه سمّاه «فِسْق» ، فقال سبحانه :

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

وما لم يُذْكر اسم الله عليه هو ما ذكره الحق سبحانه فى قوله:

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ..(١٧٣)﴾ [البقرة]

والإهْلال هو رفع الصوت ، ولذلك يُقـال: هَلَّلَ أى رفع صوته بـ «لا إله إلا الله» ، ويُسمى الهلال هلالاً ؛ لأننا بساعـة نراه نُهلِّل ونقول «الله أكبر ، ربِّى وربُّك الله» .

وسـاعةَ يُولد الـولد ، ويخرج من بطـن أمه ينتبـه إلى حيـاته وإلى ذاتيـة وجوده ، بعد أن كان مُلْتَـحمًا بذاتية أمه فهو يصرخ ، إنه يبـدأ حياته بالصراخ ؛ ولذلك فالذين ينتظرون مولد الطفل عندما يستمعون لصرخته يطمئنون .

وهكذا نعرف أن الإهلالَ هو رَفْع الصوت .

وقول الحق تعالى:

﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ .. (١٧٣)﴾ [البقرة]

يعنى: رفع الصوت لحظة الذبح . والذبح نوعان:

- ذَبْح لنفعك لتأكل ويأكل غيرك .

- وذَبْح قُرْبى لله.

ومـا أُهِلّ به لله هو ذَبْح قُـرْبى لله ، أما مـا أُهِلَّ به لغـير الـله فهـو الذبح لمنفعة الإنسان فقط ، وتقرُّباً إلى أصنامهم وأوثانهم وما يعبدونه من دون الله.

وما دامَ الله هو الذى أعطى الحيوانات وسخَّرها لنا من أجل أنْ نأكلها ، فعلينا أنْ نذكرَ المنعِم ، وأنْ تكون القُرْبى لله وحده هى القَصْد الأول .

ولذلك فالمـؤمنون يتقرَّبون ويأكلون ، أمـا الكفار فيأكلون ولا يتـقرّبون لله ، وإنما يذبحون ويتقرَّبون إلى آلهتهم .

فما أُهِلَّ لغير الله فيه شِرْك بالله ، فافتقد ذكر الله الذى ذَلَّل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان فى الحِسِّ والحركة وغير ذلك .

لذلك يُسمّى الحق سبحانه ما لم يُذكَر اسم الله عليه بـ «الفسق» .

ويقال : فسقتْ الرُّطَبة. أى: بَعُدَتْ القشرة عن الثمرة ، فعندما تكون الثمرة أو البَلَحة حمراء تكون القِشْرة مُلتصقة بالثمرة ، بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها.

فإذا أصبحت الثمرة أو البَلَحة رُطَباً تسودُّ قشرتها وتبتعد عن الثمرة ، بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة .

هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله ، ينسلخ عنه بسهولة ويُسْر ؛ لأنه غير مُلْتصق به .

وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه ، ولهذا تجد أن الدين سِيَاجٌ [1] يمنع الإنسان من أنْ يخرج على حدود الله ويحفظه من المعصية ، وحين ينفصل الإنسان عن الدين إنما يصبح كالثمرة التى انفصلتْ عن سياجها.

ومعلومٌ أن إبليس فَسَق عن أمر ربِّه ، فتمرَّد واستكبر على الامتثال لأمر ربه بالسجود لآدم ، فقال تعالى :

---

(١) السياج فى اللغة: الحظيرة من الشجر تُجعل حول الكرم والبستان. ويقال: حظر كرمه بالسياج ، وهو أن يُسيِّج حائطه بالشوك لئلا يتسوَّر. (لسان العرب ـ مادة : سيج) هكذا أمر الدين فهو سياج حول الإنسان يحميه من خصومه الشيطان وأتباعه ، وكذلك يمنعه من الخروج على حدود الله .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ.. (٥٠)﴾ [الكهف]

فلم يَكَدْ إبليس يصدر له الأمر من الله بالسجود لآدم، حتى امتنع عن السجود تكبُّرًا منه، ولم يُجاهد نفسه على طاعة الله، فمعصية إبليس هى معصية فى القِمّة؛ لأنه رَدَّ الأمْرَ على الآمِر، وظنَّ أنه خَيْرٌ من آدم، ولم يلتزم بطاعة الله.

ومضى غروره يقوده من معصية إلى أخرى، فطرده الله من رحمته وجعله رجيمًا.

وبعد أنْ أعلن إبليسُ عن تمرده على أمر ربه، وتعاليه على آدم عليه السلام عاقبه الحق سبحانه على ذلك، فقال:

﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)﴾ [ص]

والرجيم: هو الملعون، يلعنه الله، ويلعنه اللاعنون، واللعنة هى الطرد من رحمة الله.

ومادة «اللَّعْن» وردتْ فى القرآن إحدى وأربعين مرة.

فساعةَ تأتى للعذاب تكون للطرد والإبعاد بغضب، وهو الخلود فى النار.

وساعةَ يكون الطردُ إبعادَ تأديبٍ، فلا يوجد بغضب، لأن المؤدب لا يغضب على مَنْ يُؤدِّبه، وإنما يغضب لمن يُؤدِّبه.

وعندما يحدث الطرد من بعد غضب، فذلك دليل على أنه ليس من بعد

ذلك رَجعة ، فالإنسان إذا تُرِك لشيء صامت ليعذب به كالنار يقول لنفسه: « ربما جاء مَنْ يرقّ لحالى ، ويعطف علىَّ فَيُخرِجنى من النار» .

إنه يقول ذلك لنفسه ؛ لأن الذى يُعـذّب به صامت لا عاطفة له ، لكن ما المخرج إذا كانت اللعنة من الله والملائكة والناس ، كما يقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧)﴾ [آل عمران]

والشيطان موصوفٌ بأن الله طرده من رحمته ، فالحق سبحانه يقول:

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ . وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨)﴾ [النساء]

لماذا هذا اللَّعْن ؟

لقد أذنب الشيطان وعصى الله ، وآدم أذنب أيضاً وعصى الله .

فلماذا لعن الله الشيطان؟ ولماذا عفا الله عن آدم ؟

فأما آدم ، فقال عنه الحق سبحانه :

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ[1] فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾

[البقرة]

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (١/ ٨١) قول مجاهد فى تفسير هذه الكلمات أنهما قالا : «اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم».

وبهذا نعـرف أن هناك فَرْقاً بين أنْ يردَّ المخـلوق على الله حُكْمًا ، وبين أن تُفعل المعصية بسبب الغفلة .

فحين أمر الحقُّ سبحانه إبليسَ بالسجود لآدم ، قال إبليس :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

وهذا رَدٌّ للحكْم على الله ، وهذا يختـلف عن معصـية آدم وحواء ، فـقد قالا :

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ [الأعراف]

وهكذا نجد أن آدم ـ عليـه السلام ـ قد اعتـرف بحكم الله ، وأقرَّ بأنه لم يقدر على نفسه.

ولذلك ، فليـحذر كل واحد أنْ يأتـيَ إلى ما حرَّم الله ويـقول: لا ، ليس هذا الأمر حراماً ، لكن إنْ كان لا يقدر على نفسـه فليعترف ويقول: إن ما حرم الله حرام ، لكنى غير قادر على نفسى .

وبذلك يستـبعـد الكفر عن نفسـه ويكون عاصـياً فقط ، ولـعل التوبة أو الاستغـفار يُذهبان عنه سيئـات فِعْله ، أما مَنْ يُحلِّل ما حرّم الله فـهو يُصِرّ على الكفر ، ويكون قد طمس الله بصيرته نتيجة ذلك .

وسبحانه تعالى يصف الشيطان بقوله سبحانه:

﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ ... (١١٨)﴾ [النساء]

أي : طرده من رحمته ، وليتيقظ ابن آدم لحبائل[1] الشيطان وليحذره ، لأنه مطرود من رحمة الله .

لذلك كان رزقه من أخبث شيء ، وهو ما لم يُذْكَر اسم الله عليه .

□□□

(١) الحبالة : التي يُصاد بها . وجمعها حبائل . وفي الحديث: النساء حبائل الشيطان أي مصايده. (لسان العرب ـ مادة حبل).

عَطاءُ الذّاكِرينَ

٢٥ يقول رَبُّ العِزَّة سبحانه:

« مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِى عَنْ مَسْألتِى
أَعْطَيْتُه فَوْقَ ما أُعْطِى السَّائِلِينَ» (١)

الحقُّ سبحانه دائمُ العطاء لخَلْقه، والخَلْق دائمًا يأخذون من نِعَم الله، فعبوديتك لله تعطيك ولا تأخذ منك، وهذا يستوجب الحمد.

والله سبحانه يُحِبّ فى عطائه أنْ يطلب منه الإنسان، وأن يدعوه، وأن يستعينَ به، وهذا يُوجب الحمد؛ لأنه يقينا الذُّلَّ فى الدنيا.

فأنت إنْ طلبتَ شيئاً من صاحب نفوذ، فلا بُدَّ أن يُحدِّد لك موعداً أو وقت الحديث ومُدَّة المقابلة، وقد يضيق بك فيقف لِيُنهِيَ اللقاء.

أما الحق سبحانه فبابه مفتوح دائمًا، فأنت بين يديه عندما تريد، وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب، وتسأل الله ما تشاء، فيعطيك ما تريد إنْ كان خَيْراً لك، ويمنع عنك ما تريده إنْ كان شَرّاً لك.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩٢٦) من حديث أبى سعيد الخدرى، وقال: هذا حديث حسن غريب، وكذا أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ١٠٦)، وكذا الدارمى فى سننه (٢/ ٤٤١) بلفظ: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتى وذكرى أعطيته أفضل ثواب السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».
قال الحافظ ابن حجر فى «فتح البارى» (٩/ ٦٦): «رجاله ثقات إلا عطية العوفى ففيه ضعف».

والله سبحانه وتعالى يطلب منك أنْ تدعوه ، وأن تسأله ، فيقول :

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[1] (٦٠)﴾ [غافر]

ويقول تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ [البقرة]

والله سبحانه وتعالى يعرف مَا فى نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون أنْ تسألَ .

والله سبحانه عطاؤه لا ينفد ، وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألتَه جَلَّ جلاله كان لديه المزيد ، ومهما سألتَه فإنه لا شيءَ عزيزٌ على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أنْ يُحقّقه لك .

والعلماء يقولون : إن الدعاء إنْ قصدتَ به الذِّلة والعبودية يكون جميلاً ، أما الإجابة فهى إرادة الله ، وأنت إنْ قدَّرْتَ حظَّك من الدعاء فى الإجابة عليه ، فأنت لا تُقدِّر الأمر .

إن حظَّك من الدعاء هو العبادة والذِّلة لله ، لأنك لا تدعو إلا إذا اعتقدتَ أن أسبابك كبشرٍ لا تقدر على هذه ، ولذلك سألتَ مَنْ يقدر عليها ، وسألتَ مَنْ يملك.

---

(١) دخر الرجل دخوراً : ذَلَّ وصَغُر صَغَاراً. وهو الذى يفعل ما يُؤمر به ، شاء أو أبى صاغراً قميئًا. والداخر: الذليل المُهان . (لسان العرب ـ مادة : دخر) .

ولنتعلّم ما علّمه رسول الله ﷺ لعائشة أم المؤمنين.

لقد سألتْ رسول الله إذا صادفت ليلة القدر ، فقالت: إن أدركتنى هذه الليلة بماذا أدعو ؟

انظروا إلى رسول الله ﷺ ، لقد علَّم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع ، فقال لها :

« قولى : اللهُمَّ إنكَ تحبُّ العَفْو فَاعْفُ عنِّى »(١).

ولا يوجد جمالٌ أحسن من العفو ، ولا يوجد خَيْر أحسن من العفو ، فلا أقول: اعطنى ، اعطنى. لأن هذا قد ينطبق عليه قول الحق سبحانه:

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً(٢) ﴿١١﴾﴾[الإسراء]

والحقُّ سبحانه يضع شرطًا للاستجابة للدعاء ، وهو أن يستجيب العبد لله سبحانه وتعالى فيما دعاه إليه ، عندئذ سيكون العباد أَهْلاً للدعاء .

ولذلك قال الحق هنا فى هذا الحديث القدسى:

«مَنْ شغله ذكرى عن مَسْألتى أعطيتُه أفضلَ ما أُعطى السَّائلين ».

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٨) والترمذى فى سننه (٣٥١٣) ، وابن ماجه فى سننه (٣٨٥٠) من حديث عائشة ﵂ .

(٢) ذكر سلمان الفارسى وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين هَمَّ بالنهوض قائمًا قبل أن تصل الروح إلى رجليه ، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه ، فلما وصلت إلى دماغه عطس فقال : الحمد لله. فقال الله : يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما ، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه فهمَّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع. وقال: يا رب عجِّل قبل الليل . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٦) .

ومثال ذلك ؛ سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِى فى النار ، قال له جبريل : أَلَكَ حاجة ؟

لم يَنْفِ أنَّ له حاجة ، فلا يوجد استكبار على البَلْوى ، ولكنه قال لجبريل : «أمّا إليك فلا ».

صحيح أن له حاجة ، إنما ليستْ لجبريل ، لأنه يعلم جيداً أن نجاته من النار المطبوعة على أنْ تحرق وقد أُلقِى فيها ، فهى عملية ليست لخَلقْ أنْ يتحكم فيها ، ولكنها قدرة لا يملكها إلا مَنْ خلق النار .

فقال لجبريل : «أما إليك فلا ، وعِلْمه بحالى يُغنى عن سُؤالى » .

لذلك جاء الأمر من الحق سبحانه للنار :

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا[1] وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه يوضح لنا بهذا أنه قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، يقول للأسباب: « اعملى» أو «لا تعملى» ، وبذلك نلتفت إلى أنه المسيطر.

وذلك حتى لا تفتنًا رتابة الأسباب ، ولنذكر الله باستمرار ، وليكون الإنسان على ذِكْر من واهب الأسباب ومن خالقها ، فلا تتولد عندنا بلادة من أن الأسباب مُستمرة دائمًا .

---

(١) البرد: ضد الحر. والبرودة : نقيض الحرارة. وقد برده برداً وبرّده : جعله بارداً. أبرد له: سقاه بارداً (لسان العرب ـ مادة : برد) . وقال الثورى عن الأعمش عن شيخ عن على بن أبى طالب فى تفسير الآية قال: لا تضر به . وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: (وسلاماً) لآذى إبراهيم بَرْدُها. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٨٤).

والحق سبحانه يلفتنا إلى وجوده ، فتختلف الأسباب لِتلفتك إلى أنها ليست فاعلةً بذاتِها ، بل هى فاعلةٌ لأن الله خلقها ، وتركها تفعل ، ولو شاءَ لَعطَّلها .

وها هو إبراهيم عليه السلام ألقاه أهلُه فى النار ، ولم يُحرق ، وكان من الممكن أن يُنجِّى اللهُ إبراهيمَ بأىٍّ طريقة أخرى ، ولكن هل المسألة نجاة إبراهيم؟

إنْ كانت المسألة كذلك فما كان لِيُمكِّنهم منه ، لكنه سبحانه مَكَّنهم منه وأمْسَكوه ، ولم يُفْلت منهم .

وكان من الممكن أنْ يأمرَ السماءَ فتمطر عندما ألقوْهُ فى النار ، وكان المطر كفيلاً بإطفاء النار ، لكن لم تمطر السماء بل وتأجَّجتْ النار .

ولكن الحق سبحانه يُصْدِر الأمر الإلهى للنار :

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

بالله ، أهذا غَيْظ لهم أم لا ؟

هذا غَيْظ لهم ، فقد قدرتُم عليه وألقيتموه فى النار ، وبعد ذلك لم ينزل مطر ليطفئ النار ، والنار موجودة وإبراهيم فى النار ، لكن النار لا تحرقه .

هذه هى عظمة القدرة .

هذه هى النِّكَاية (١) ، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغيبية غير المادية المحسَّة ، لوجد خصوم إبراهيم المخارج لتبرير هزيمتهم .

---

(١) نكيْتُ فى العدو أنْكى نِكاية : أى هزمته وغلبته. (لسان العرب ـ مادة : نكى).

وهذا يدلُّنا أن يَدَ الله مـا زالت فى كونـه ، وأن النواميس والقـوانين التى وضعها الله فى كونه لم تأخذ الكلمة للتصرف فى كَوْن الله .

ولذلك رأينا النار التى تحرق يأتيها الأمر :

﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا .. (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

والماء الذى يُغرق يأتيه الأمر :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ[1] الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

وقال:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا[2] لَّا تَخَافُ دَرَكًا[3] وَلا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) ﴾ [طه]

والعـصا التى خُلِقت من غُـصْن شجـرٍ جَافّ ، تتـحول إلى أَفْـعى ، أى: نقلها كلها إلى جنس آخر ، من نباتية إلى حيوانية .

هذا هو خَرْق النواميس.

---

(١) الطود: الجبل العظيم العالى. والطود: الهَضْبة. والجمع أطواد. [لسان العرب ـ مادة : طود].

(٢) يبس الشيء يبوسة :ذهبت رطوبته وجفَّ فهو يابس. والطريق اليبس: الجاف الصلب بعد رطوبته.

(٣) الدَّرَك : اسم مصدر بمعنى الإدراك واللحاق. قال تعالى : ﴿ لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾ (طه) أى : لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقاً من الموقنين فى كل أدوار حياته ؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملْك ، ما وراء مظاهر الأشياء وعواقبها .

وإبراهيم عليه السلام يعرف أن النار تُحرِق ، ولكن هذا ظاهر الملْك ، وظواهر الأشياء ، وسيدنا إبراهيم يعلم أن الذى خلقها جعلها مُحْرِقة ، ويستطيع ألاّ يجعلها مُحرِقة ، وهو مُتيقِّن به .

لذلك لم يسأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يفعل شيئًا ما لهذه النار ، ولذلك قال: «عِلْمه بحالى يُغنى عن سؤالى».

ولذلك لم يطفئ الله النار بظاهر الأسباب ، ولكنه سبحانه أوضح : يا نار ، أنا خلقتُ فيك قوة الإحراق ، وأنا أقول لك الآن : لا تحرقى.

وتروى كتب التفسير أن قوم إبراهيم عليه السلام بَنَوْا بناءً ، ووضعوا فيه حَطَبًا وأَخْشابًا ووقودًا ، وأشعلوا نارًا ، وظلوا أربعين يومًا يَسْجرون [1] فيها ، ويُلْقُون فيها كل شىء قابل للاشتعال.

وقد بلغ من فظاعة هذه النار أن الطير التى كانت تطير فوقها تقع مُحترقة.

واستدلَّ العلماء على ذلك من أنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا من النار ليُلقوا إبراهيم فيها ، فصنعوا منجنيقًا عاليًا ووضعوه فيه ، وألقوه فى النار وهم بعيدون عنها حتى لا تلفحهم شدة حرارتها.

---

(١) سجر التنور (الفرن) يسجره سَجْرًا : أوقده وأحماه. وقيل : أشبع وقوده. والسَّجور: الحطب. [لسان العرب ـ مادة : سجر].

ولكن الحق سبحانه وتعالى الذى تعهد بنصر رسله وعباده المؤمنين لم يترك نبيه إبراهيم عليه السلام لانتقام الكافرين ، ولكنه سبحانه حماه ، وحفظه من شرِّهم ، حتى يُباشِر مهمته فى الدعوة.

وهكذا أراد الحق سبحانه أن يُذِلّ الكافرين وما يتخذون من آلهة على مَشْهد من الجميع ، فقد كانت عملية إحراق إبراهيم انتقامًا ؛ لأنه حطَّم الأصنام ، وكان إحراقه على مَشْهد من الناس جميعًا.

وكان الفهم الخاطئ أن آلهة هؤلاء الكفار ستنتقم من إبراهيم بالإحراق بالنار ، فإذا بإبراهيم يُلقَى فى النار فلا تمسّه بأذى على مشهد من الجميع(١) .

وهكذا أراد الله أنْ يُبيِّن لهؤلاء الناس أنَّ ما يعبدونه هو إفْكٌ وضلال ، وأنَّ آلهتهم لا تملك حَوْلاً ولا قوة أمام النار وخاصية الإحراق ، ليريهم بالمعجزة الحسية والبرهان أن إلهَ إبراهيم هو الحقُّ ، علَّهم يهتدون ، حتى إذا ظَلُّوا على ضلالهم وشركهم يكون عذابهم فى الآخرة عَدْلاً.

وهناك أيضًا قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق ، وكان لا بُدَّ لإنقاذها أنْ يُلقى واحد إلى البحر ، وجاء القول الحكيم :

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣ / ١٧٩) أن كعب الأحبار قال: لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه. وقال ابن عباس : لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله. قال: فكان أمر الله أسرع من أمره. قال الله : ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الأنبياء : ٦٩] . وقال : لولا أن الله عز وجل قال : (وسلامًا) لآذى إبراهيم بردُها.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ [(١)] إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [(٢)] (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ [(٣)] (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

كان لا بُدَّ أن يُلْقى واحدٌ من تلك السفينة لينجوَ الباقون ، لذلك تَمَّ إجراء قُرْعة بالسهام حتى لا تقومَ معركة بين الموجودين على ظَهْر السفينة، وحتى لا تكون الغَلَبة للأقوياء ، ولكن القُرْعة حَمَتْ الناسَ من ظُلْم بعضهم بعضًا.

قالوا: لِنُجْرِ قُرْعة السِّهام ، فمَنْ يخرج سَهْمه فهو الذى يُلْقَى به.

وكان على يونس عليه السلام أنْ ينزل إلى اليَمِّ [(٤)] فيلتقمه الحوت ، ولأنه من المسبِّحين فإن الله يُنقذه ، لقد قَبِل يونس عليه السلام اختيار الله ، ولم يَنْسَ تسبيحَ الله ، فكان فى ذلك الإنقاذ له.

فيونس عليه السلام كان قد ذهب مُغَاضبًا من قومه ، تأثُّرًا وحُزْنًا من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أنْ رأوا غَيْمًا يملأ السماء وعواصفَ.

---

(١) الإباق: هَرَب العبد من سيده. [لسان العرب ـ مادة: أبق] . وقال إبراهيم أحمد عبدالفتاح فى القاموس القويم (١ / ٤): «جعل ترك يونس عليه السلام قومه إباقًا ؛ لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها».

(٢) دحضه: أزلقه. وقوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) ﴾ [الصافات] أى : من المزلقين عن السفينة إلى الماء ، أى من المغرقين ، فقد أزلقه أصحاب السفينة وألقوه فى اليم بعد أن ساهم أى قارع وخرجت القرعة عليه.

(٣) ألام الرجلُ ، فهو مُليم إذا أتى ذَنْبًا يُلام عليه. [لسان العرب ـ مادة : لوم].

(٤) اليم: البحر الذى لا يُدْرك قعره ولا شطَّاه. ويقع اسم اليم على ما كان ماؤه مِلْحًا زُعَاقًا، وعلى النهر الكبير العذب الماء. [لسان العرب ـ مادة: يمم].

وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم[١] ، فَهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فآمِنُوا به ليكشفَ عنكم الغُمَّة.

وهُرِع الناس إلى الإيمان بالحى الذى لا يموت ، ولكن كان يونس عليه السلام قد ركب سفينة ، فلعبتْ بها الأمواج فاضطربتْ اضطرابًا شديدًا ، وأشرفتْ على الغرق بِرُكّابها ، فألقَوْا الأمتعة فى البحر ، لِتخفَّ بهم السفينة ، فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أنْ يُلْقوا إلى البحر مَنْ تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام [٢] .

مثلما نركب مصعدًا ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذارًا لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلُقًا ؛ لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين.

كذلك كان الأمر مع السفينة التى ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر.

وألقى يونس عليه السلام بنفسه فى البحر ، فالتقمه الحوت وابتلعه.

---

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج: «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان» واختاره القرطبى فى تفسيره (٤ / ٣٣١٢) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٢١): «وقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام ثلاث مرات ، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك».

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات]

فَبطِن الحوت رغم ضيقه وَسِعه مدة من الزمن ، حتى ذهب ولَفَظه على الشاطئ ، فألقاه الحوت إلى الشاطئ .

﴿ فَنَبَذْنَاهُ(١) بِالْعَرَاءِ(٢) وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الصافات]

أي: وهو مُتْعب من الضيق الذى كان فيه ، أو سقيم من التفكير الذى حدث منه ، فالسقم إما مادى أو معنوى أو كلاهما (٣) .

وبعد أن ألقاه الحوت إلى الشاطئ أنبت الله عليه شجرة من يقطين ، قال تعالى:

﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات]

واليقطين : شجر له ورق عريض ويسمى القَرْع ، حتى تُظِله وتحميه من الحرارة والحشرات (٤) .

---

(١) النبذ: طرحك الشىء من يدك أمامك أو وراءك. ونبذت الشىء : إذا رميته وأبعدته . [لسان العرب ـ مادة: نبذ].

(٢) قال ابن عباس وغيره: هى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. وقيل: على جانب دجلة. وقيل : بأرض اليمن. فالله أعلم. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٢١) .

(٣) قال ابن مسعود ﷺ : كهيئة الفَرْخ (أى: ولد الطائر) ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى حين يولد. [انظر ابن كثير ٤ / ٢١] .

(٤) قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٢١): «ذكر بعضهم فى القرع فوائد منها: سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيئًا ومطبوخًا وقشره أيضًا».

ولذلك سُئل رسول الله ﷺ عن سِرِّ حُبِّه لليقطين (القرع)، فقال: «إنها شجرة أخي يونس»(١).

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ (٢) فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

فكونه من المسبِّحين(٣) جعله موضعًا لِلَّوم والعتاب لا للإيذاء والعذاب، فنعاتبه على أمر لا يصح أنْ يفعله لأننا نحبه.

وقد كان دعاء يونس عليه السلام فى بطن الحوت:

﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

---

(١) قال العسقلانى فى الفتح (٩ / ٥٢٥): «للنسائى «كان ﷺ يحب القرع ويقول: إنها شجرة أخي يونس» وقد أخرج ابن ماجه فى سننه من حديث أنس ﷺ قال: كان النبى ﷺ يحب القرع».

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٢١): «اختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت. فقيل: ثلاثة أيام. قاله قتادة. وقيل: سبعة. قاله جعفر الصادق ﷺ. وقيل: أربعين يومًا. قاله أبو مالك: وقال مجاهد عن الشعبى: التقمه ضحى، ولفظه عشية. والله تعالى أعلم بمقدار ذلك».

(٣) أخرج ابن إسحاق والبزار وابن جرير عن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس عليه السلام فى بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش له لحمًا، ولا تكسر له عظمًا، فأخذه ثم أهوى به إلى مسكنه فى البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حسًا فقال فى نفسه: ما هذا!! فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب الأرض، فسبّح وهو فى بطن الحوت، فسمعت الملائكة عليهم السلام تسبيحه، فقالوا: ربنا إنَّا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غربة. قال: ذاك عبدى يونس، عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم عمل صالح؟ قال: نعم. فشفعوا له عند ذلك، فأمره، فقذفه فى الساحل كما قال الله (وهو سقيم). ذكره السيوطى فى الدر المنثور ـ طبعة دار الفكر (٧ / ١٢٣).

فاستـجاب الله تعالى لدعائـه ، وأنجاه من الغَمِّ ، والغَمُّ أعنف جنود الله ، لأن الشيء الذى يضايقك هو الذى لا تستطيع له دَفْعًا.

وقد كان سيدنا جعفر الصادق له بصـر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها، فقال:

«عجبتُ لمن خاف ، ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه:

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

فإني سمعت الله يقول بعقبها :

﴿ فَانقَلَبُوا [١] بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ [آل عمران]

وعجبت لمن اغتمَّ ، ولم يفزع إلى قول الله سبحانه:

﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فإني سمعت الله تعالى يقول عقبها :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

وعجبتُ لمن مُكِر به ، كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) ﴾ [غافر]

لأني سمعت الله تعالى يقول بعقبها :

---

(١) انقلبوا : رجعوا . ويقول تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) ﴾ [الأعراف].

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ(١) بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) ﴾ [غافر]

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ، كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ (٣٩) ﴾ [الكهف]

لأنِّى سمعت الله تعالى يقول بعقبها :

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا(٢) مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا(٣) زَلَقًا (٤٠) ﴾ [الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق ﷺ فى كتاب الله أربعَ آياتٍ لأربع حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم.

ونحن نعرف أن أول ما يُهدِّد حياة الإنسان هو الخوف ، وقد يكون غير معروف سببُه ، ومرة يحدث للإنسان انقباض قد لا يعرف سببه ، فيقول : أنا صدرى منقبض ، ولا أعرف له سببًا ، فهذا غَمٌ لا يُعرف سببه .

وهناك مَنْ يخاف من مكْر الناس به ، وهناك مَنْ يطلب الدنيا ، ويريد أن يكون عنده كذا وكذا من متاعها وزينتها.

فهذه الأحوال التى تعترى الإنسان :

---

(١) حاق به الشيء حيقًا : نزل به وأحاط به. وقيل : الحيْق فى اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكروه فعله. [اللسان ـ مادة: حيق].

(٢) الحسبان: العذاب والبلاء. والحسبان أيضًا: الجراد والعَجاج. قال أبو زياد: الحسبان شر وبلاء. [لسان العرب ـ مادة : حسب].

(٣) صعيدًا زلقًا: أى بلقًا (أرضًا قفراً لا شيء بها) ترابًا أملس لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس : كالجرز الذى لا ينبت شيئًا. [قاله ابن كثير فى تفسيره (٣ / ٨٤)].

إما خوف ، وإما غمّ وكَرْب يلحق به دون أن يعرفَ له سببًا.

وإما أنْ يخاف من مَكْر الناس به وتآمرهم عليه.

ومرَّة يشغل نفسه بطلب الدنيا ويسعى إلى تحقيق أهداف معينة ، ويريد أن يترف حياته ، ويرقى معيشته ، ويجهد نفسه فى سبيل الحصول على هذه الأشياء .

فسيدنا جعفر الصادق عمل (روشتة) للإنسان المؤمن وأخذها من القرآن ؛ لأن الطبيب حينما يكتب روشتة لمريض يكون قد أخذ هذا العلم مِمّا قرأه ودرسه من كتب ومراجع فى كلية الطب وغيرها.

ولكن جعفر الصادق أتى بهذه الروشتة للإنسان من خالق الإنسان ، من قرآنه الكريم .

والقرآن هو الذكر ، ورب العزة يقول فى حديثه القدسى :

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ».

وقد وردتْ معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعانى وقِمّتها أن الذكر حين يُطلق يُراد به القرآن :

﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58) ﴾ **[آل عمران]**

وكذلك فى قوله الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾ **[الحجر]**

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة ، فنأتى بـ «نون العظمة».

لأننا سنُنـزله بقـدرة ، وسنُنزله بحـكمـة ، وننزله بعلم ، ونُنـزله بسـمع ، وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض ، ونُنزله ببسط .

إذن : يُطلق الذكر ، ويُراد به القرآن.

ومرَّة يُطلق الذكر ويُراد به الصيت. أى : الشهرة الإعلامية الواسعة.

وقد قال الحق لرسوله عن القرآن :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]

أى: أن القرآن شرفٌ كبير لك ولأمتك ، وسيجعل لكم به صِيتًا إلى يوم القيامة ؛ لأن الناس سترى فى القران على تعاقب العصور كُلَّ عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يُصدِّق القرآن .

إذن : بفضل القرآن العربىّ سيظل اسمُ العرب مُلتصقًا ومرتبطًا بالقرآن ، وكُل شرفٍ للقرآن ينال معه العرب شَرفًا جديدًا .

أى : أن القرآن شَرَفٌ لكم .

ويقول سبحانه:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

أى: فيه شرفكم ، وفيه صِيتكم ، وفيه تاريخكم ، فشرَفُ القوم يجىء من شَرَف القرآن ، ومن صِيت القرآن .

والحق سبحانه يقول :

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص]

أي : أن شرفه دائم أبداً.

ويُطلق الذِّكْر ، ويُراد به ما نزل على جميع الرسل.

يقول تعالى:

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾ [الأنبياء]

أي : أن كل ما نزل على الرسل ذِكْر .

ويقول أيضًا :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ (١) وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ﴾

[الأنبياء]

ومرّة يُطلق الذكر ، ويُراد به معنى الاعتبار والتذكير ، والتذكُّر ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ (٢) وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١ ﴾

[المائدة]

---

(١) كل ما فُرِق به بين الحق والباطل فهو فرقان ، فسمّى جل ثناؤه الكتاب المنزل على محمد ﷺ فرقانًا ، وسمى الكتاب المنزل على موسى عليه السلام فرقانًا . والمعنى : أنه تعالى فرق بكل واحد منهما بين الحق والباطل. [لسان العرب ـ مادة : فرق].

(٢) الأزلام: جمع زلَم ، وهو قطعة خشبية تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح يكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له ، وهو نوع من الميسر المحرّم شرعًا.
=

والمراد هنا بالذكر: الاعتبار والتَّذكر، وأنْ تعيشَ كمسلم فى منهج الله.

ومرَّة يُراد بالذكر: التسبيح والتحميد.

انظر إلى قول الحقِّ سبحانه وتعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ[1] (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

كأن النورَ على النورِ يأتى من مَطَالع الهدى فى مساجِده ، فهى بيوت الله نُقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق.

والإنسان الصادق لا تُلهيه التجارة عن ذكر الله ، وليكن الله على بال المؤمن دائمًا ، فعندما يكون الإنسان على ذكر لله فالله يعطيه من مدده.

فأنت حين تذهب إلى المسجِد لتَلْقىَ الله ، فذلك النور ، وتصلى له فذلك نور ، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك فى بيته .

وكل هذا نور على نور ، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل فَلْيُكثِر من الذَّهَاب إلى بيت الله.

وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة ، ونعلم أن الصلاة هى الخلوة التى بين العبد وربه ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[2] .

= والأنصاب : جمع نُصُب ، وهو ما يُنصب ليعبد من دون الله ، أو ليذبح عنده الذبائح تقربًا إليه أو إلى الأصنام.

(١) الأصيل: العشىّ. والجمع: آصال. والأصيل: الوقت حين تصفر الشمس بعد العصر إلى المغرب. [لسان العرب ـ مادة : أصل].

(٢) عن حذيفة ﷺ قال: «كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥ / ٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

وأنت إذا ما اتبعتَ حضرة النبى ﷺ وتصلى ركعتين لله إن حَزَبَك(١) أمر ، وعزَّتْ عليك مسألة وكانت فوق أسبابك ، ثم ذهبتَ بها إلى الله ، فلن يُخرجك الله إلاّ راضيًا.

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور]

والغدو والآصال ، أو البُكْرة والأصيل ـ كما عرفنا ـ هى أزمنةُ أولِ النهار ، وأزمنةُ أوّلِ الليل.

ولماذا أزمنة أوّل النهار ، وأزمنة أول الليل ؟

لأن هذه الأزمنة هى التى يُطلب فيها الذكر ، فقبل أنْ تخرج للعمل فى أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة.

وفى نهاية النهار ، أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم.

لذلك إياك أنْ تشغلَك الحياةُ عن واهب الحياة ، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تُؤديه وتقوم به.

وأنْ تقابل كل نتيجة للعمل بكلمة : الحمد لله.

وعندما ترى أىّ جميل من الوهّاب ـ سبحانه وتعالى ـ يجب عليك أن تقول : «ما شاء الله».

---

(١) حزبه الأمر: إذا نزل به واشتد عليه. والأمر الحازب والحزيب: الشديد . [لسان العرب ـ مادة:حزب].

وعندما ترى أيَّ شيء يعجبك تقول : «سبحان الله».

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته ، فأنت فى صلاة وذِكْر منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعدادًا للصلاة فى المسجد ؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أنْ يُطيل عليك نعمة أن تكون فى حضرته(1)

وبيت الله مفتوح لك دائمًا ، فهو سبحانه يَلْقاك فى أيِّ وقت ، وتدعوه بما تشاء ، وتُطيل فى حضرته كما تريد.

وقد يُطلق الذكر ويُراد منه خير الله على عباده ، ويُراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ، فسبحانه يذكرُهم بالخير ، وهم يذكرونه بالطاعة .

اقرأ إنْ شئْتَ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾

[النحل]

وفى آية أخرى:

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

وما دام قد قال جل وعلا: ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « إذا تطهر الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة كتب له كاتباه ـ أو كاتبه ـ بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات ، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت ، ويُكتب من المصلين من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه » أخرجه أحمد فى مسنده (٤ / ١٥٧) وابن حبان (٤٢١ ـ موارد الظمآن).

أى : ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ، فَذِكْره فضل وإحسان ، وهو الكبير المتعال ، فهناك إذن ذكر ثانٍ ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة.

والذكر مرور الشيء إنْ كان بالبال فهو ذكر فى النفس ، وإنْ كان باللسان ولا يُسمِع الغير ويُسمِعك أنت فهذا ذكر السرّ .

وإنْ كان جَهْرًا فهو قسمان :

جَهْر مقبول ، وجَهْر غير مقبول ، والجهر غير المقبول هو أن يتحوّل الذكر إلى ازعاج ، والعياذُ بالله .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الإسراء]

وقول الحق سبحانه:

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ .. ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف]

فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال ، خلقك وربَّاك ، وأعطاك من فيض نعمه ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى ، فاذكُرْ ربك ؛ لأنك إنْ لم تعشقْهُ تكليفًا ، فأنت قد عشِقْته لأنه يُمِدُّك بالنعم ، وسبحانه يتفضَّل علينا ويُوالينا جميعًا بالنعم .

واذكُرْه على حالين: الأول تضرُّعًا ، أى : بذِلَّة. لأنك قد تذكر واحدًا بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذِلَّة عبودية لمقام الربوبية.

واذكر ربك خِيفةً . أى : خائفًا متضرعًا ؛ لأنك كلما ذللتَ له يُعِزك .

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة]

فلتعيشوا دائمًا في ذكر مَنْ أنعم عليكم ، فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر ، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم.

والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي :

«أنا عند ظن عبدي بي [1]، وأنا معه إذا ذكرني ، فإنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خَيْر منه ، وإنْ تقرَّب إليّ بشبر تقرَّبْتُ إليه ذراعًا ، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبْتُ إليه باعًا [2]، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة [3] »[4].

هذه هي رغبة الكريم في أنْ يعطي بشرط أن نكون أهلاً للعطاء ؛ لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر.

فقوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (١٥٢) ﴾ [البقرة]

---

(١) نقل ابن حجر العسقلاني في الفتح (١٣ / ٣٨٦) قول القرطبي في المفهم: «قيل: معنى ظن عبدي بي ظن الإجابة عند الدعاء ، وظن القبول عند التوبة ، وظن المغفرة عند الاستغفار ، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكًا بصادق وعده».

(٢) قال الباجي: الباع طول ذراعي الإنسان وعضديه وعرض صدره ، وذلك قدر أربعة أذرع. [فتح الباري ١٣ / ٥١٤].

(٣) الهرولة: الإسراع. والحديث كناية عن سرعة إجابة الله عز وجل وقبول توبة العبد ولُطفه ورحمته [لسان العرب ـ مادة : هرول].

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) وأحمد في مسنده (٢ / ٢٥١ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) والترمذي في سننه (٣٦٠٣) من حديث أبي هريرة ﷺ . قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

أي: اذكـروا الله فى كل شىء : فى نِعَـمـه ، فى عطائه ، فى سِتْـره ، فى رحمته ، فى توبته .

واعلم أنك إنِ اعتمدتَ على الله وحده إلهًا فأنت قد اعتمدتَ على عزيز لا يُغلب على أمره ، فإنْ آمنتَ به وحده ، فلك الفوز .

فأنت تلجأ إلى خالق أعلى ، بيـده مقاليد كل شىء ، وهو على كل شىء قدير ، وعظمة الحق سبحانه أنه واحد أحد فَرْد متفرد صمد [(١)] .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ فى وصيته لابن عباس:

«إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله»[(٢)] .

والاستعانة بالله سبحانه تُخرِجك عن ذُلِّ الدنيا ، فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغَ نفوذه وقوته ، فكُلُّها فى حدود بشريته.

ولأننا نعيش فى عالم أغيـار ، فإن القـوىَّ يمكن أن يصـبح ضعـيفًـا ، وصاحب النـفوذ يمكن أن يُصبح فـى لحظة واحدة طريدًا شريـدًا لا نفوذَ له ، ولو لم يحدث هذا فقد يموت ذلك الذى تستعين به ، فلا تجد أحدًا يُعينك.

---

(١) الصمد: السـيد المطاع الذى لا يُقْضى دونه أمر . وقيل : الذى يُصْمـد إليه فى الحوائج أى يُقْصد. وقيل : الصمد الدائم الباقى بعد فناء خَلْقه. [لسان العرب ـ مادة : صمد].

(٢) تمـام الحـديث أن رسـول الله ﷺ قـال: « يا غـلام ، إنى أعلمك كلـمـات : احـفظ الله يحفـظك ، احفظ الله تجـده تجاهك ، إذا سـألت فاسأل الـله، وإذا استعنـت فاستـعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتـمعوا عـلى أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بـشىء قد كتـبه الله عليك ، رفـعت الأقلام وجفت الصحف ».

أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١ / ٢٩٣ ، ٣٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٥١٦) ، والحاكم فى مستدركه (٣ / ٥٤١) من حديث ابن عباس.

ويريد الله تبارك وتعـالى أن يُحرِّر المؤمن من ذُلِّ الدنيـا ، فيطلب منه أنْ يستـعـينَ بالحـيِّ الذى لا يموت.. وبالقوى الذى لا يضـعف.. وبالقاهر الذى لا يخرج عن أمره أحد .

وإذا استـعنتَ بالله سبـحانه وتعـالى كان الله جَلَّ جلاله بـجانبك ، وهو وحده الذى يستطيع أنْ يُحوِّل ضعفك إلى قوة ، وذُلَّكَ إلى عِزٍّ.

والاستعانة معناها طَلب المعونة ، أى : أن الإنسانَ استنفد أسبابه ولكنها خـذلتْه ، حـينئذ لا بُدَّ أن يتـذكر أن له ربًا لا يـعبـد سواه ، لن يتـخلى عنه ، بل يستعين به.

وحـين تتخلـى الأسباب فهـناك رَبُّ الأسـباب ، وهـــو موجود دائمًا ، لا يغفل عن شىء ، ولا تفوته هَمْسَة فى الكون ، ولذلك فإن المؤمن يتجه دائمًا إلى السماء ، والله سبحانه وتعالى يكون معه .

أمَّتى .. أمَّتى

٢٦ - يقول رب العزة سبحانه:

«يَا جِبْرِيلُ. اذْهَبْ إلَى مُحَمدٍ فَقُلْ: إنَّا سَنُرضِيكَ فى أُمَّتِكَ ، وَلاَ نَسُوءُكَ(١)»(٢)

يقول الحق سبحانه:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول منكم ، عربى ، ومن قريش ، يُبلِّغكم رسالة الله تعالى ، يحرص عليكم كيلا تقعوا فى مشقّة ، أو تعيشوا فى ضَنْك الكفر ، حريص على أن تكونوا من المهتدين.

---

(١) قال النووى فى شرحه لهذا الحديث: «قال صاحب التحرير: هو تأكيد للمعنى . أى : لا نحزنك ؛ لأن الإرضاء قد يحصل فى حق البعض بالعفو عنهم ، ويدخل الباقى النار. فقال تعالى: نرضيك ولا ندخل عليك حزناً ، بل ننجى الجميع . والله أعلم».

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم] . وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] فرفع يديه وقال: اللهم أمتى أمتى . وبكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله : ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : « إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك » .

فهـو ﷺ مُحِبّ لكم ، يشقُّ عـليه ويُتعِـبه مـا يشقّ عليكم ويُتعـبكم ، ولذلك كان رسول الله ﷺ مشغولاً بأمته .

وقوله سبحانه :

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ .. ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

فالعزة تأتى لامـتناع شىء إمّا لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر أو يسـتحيل . والعزيز هو الأمر الـذى يعزّ على الناس أنْ يتداولوه . فيـقال: عَزَّ علىّ أنْ أصل إلى قمة الجبل .

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

أى: شاقّ عليـه أنْ يُعنتكم بحكم ، فَقلْبه رحـيم بِكُم ، وهو لا يأتى لكم بالأحكام لكىّ تشقّ عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعزّ عليه أنْ يشقَّ عليكم.

ولذلك قال النبى ﷺ :

« مَثَلى كَمَثَلِ رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَاش وهذه الدَّواب التى فـى النار يقـعنَ فـيـهـا ، وجـعل يحـجـزهن ويـغلبْنَهُ فيتقحَّمنَ[(١)] فيها. قال: فذلكم مَـثَلى ومَثلكم أنا أخذٌ بِحَجُزِكم[(٢)] عن النار .

---

(١) التقحم: هو الإقدام والوقوع فى الأمور الشاقة من غير تثبت.

(٢) الحجز : جمع حجزة ، وهى معقد الإزار والسراويل. قال النـووى فى شرحه (١٥/ ٥٥): «شبَّه ﷺ تساقط الجاهلـين والمخالفين بمعاصيهم وشهـواتهم فى نار الآخرة ، وحرصهم على الوقوع فى ذلك مع منعه إيـاهم وقبضه على مواضع المنع منهم بتـساقط الفراش فى نار الدنيا لهواه وضعف تمييزه ، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ، ساعٍ فى ذلك لجهله ».

هَلُمّ عن النار. هَلُمّ عن النار . فتغلبونى تقحّمون فيها »[1].

فـإذا كان الرسـول ﷺ صـفتـه أنه من أنفُسكم ، أو من أنفَسكم ، أو يحبكم حبُاً يعـزٌ عليه أنْ تكونوا فى مشقة. إذن: فخذوا توجيهاته بحُسْن الظن وبحُسْن الرأى فيها .

وذلك هو القانون التربوى الـذى يجب أن يسود الدنيا كلها ، فقـد يقسو والد على ولده بأوامـر ونَوَاهٍ : « افعل كـذا » و« لا تفعل كـذا » ، لا تذهب إلى المكان الفـلانى، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسـهر خـارج المنزل بعد السـاعة كذا.

كل هذه أوامر قد تشقٌ على الولد ، فنقول له :

مشقّة التكليف مِمَّنْ صدرتْ ؟

لقد صدرتْ من أبيك الذى تعرف حُبَّه لك ، والذى يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتـعب لترتاح أنت ، فكيف تسـمح لنفسك أنْ تصادق صـعاليك يُخرِجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشرّ .

وانظر إلى والدك الذى تحمّل المشـقة حتى لا تتحـمل أنت المشـقة ، ويشق عليه أنْ تتعب فهو أَوْلَى بأنْ تسمع كلامه.

ورسول الله ﷺ عزيز عليه مشقتكم .

---

(١) حـديث متـفق عليه. أخـرجه البـخارى فـى صحـيحـه (٦٤٨٣) وكذا مـسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) من حديث أبى هريرة ﷺ .

والمشقات أنواع ، مشقات فى الدنيا تتمثل فى التكاليف التى يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أخلدَ فى الآخرة .

لذلك فالرسول ﷺ يحزن أن ينالكم فى الآخرة تعبٌ ، وتَعَبُ الدنيا موقوت وينتهى ، لكن تعب الآخرة هو الذى يُرهِق حقاً ويُتعِب[1] .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى تصوير هذه المسألة :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا[3] ﴿٦﴾﴾ [الكهف]

لماذا؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله فى الآخرة ، أو أن مشقة الآخرة هى التى يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التى تُورِد ثماراً .

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً : اخرج إلى الحقل ، واحمل السِّباخ فوق الحمار واحْرُثْ وارْو ، كُلٌّ هذه مشقّات ستجد لذّتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله كذا إردب قمحًا أو غير ذلك.

---

(١) قال أبو حامد الغزالى : « التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت فى النار ، ولكن جهل الآدمى أشد من جهل الفراش ، لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها فى الحال ، والآدمى يبقى فى النار مدة طويلة أو أبدًا » . أورده ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (٦/ ٤٦٤).

(٢) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴿٦﴾﴾ [الكهف] قال الفراء : أى : مخرج نفسك وقاتل نفسك. (لسان العرب ـ مادة : بخع).

(٣) أسفاً : حزناً وغضباً على كفرهم . (تفسير القرطبى ٥/ ٤٠٨٢) .

ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هى المشكلة الأكبر ، أما حَثُّ الأب لابنه على العمل فهو دفع لمغبّة الضياع .

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً ، ويرجوه الأب أنْ يُجرى للابن جراحة تُنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها .

ولكن ، ليعلم الابن أن هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك .

وعلى ذلك ، إذا أُمرتَ بتكليفٍ شاقٍّ فانظر مَنْ أمرك ؟

أهو ممَّنْ تعزّ عليه ، وممَّنْ تحبه ، وممَّن يريد لك الخير ؟

إنْ كان الأمر كذلك ، فعليك أنْ تقبل ولا تُسِيء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء ـ مثلاً ـ فهو يرد عنك مصارف الشر ، لأنك إن اجتهدت فى عملك فسوف تحصد النتيجةَ الطيبة .

أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشرد وتجوع ، وسوف تدقُّ باب بيت أبيك ، وعندئذ ستسمع مثلاً عاميًا يلخص الحكمة التى تقول «مَنْ يأكل لُقْمتى فليسمع كلمتى».

والحق سبحانه يُسَرِّى عن رسوله ﷺ ، فيقول :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) ﴾ [آل عمران]

فالرسول ﷺ كان يُحزِنه أن يُسارع البعض إلى الكفر ، فهل رسول الله ﷺ لا يعلم أنه إنما جاء مبلِّغًا فقط؟

إنه يعلم ، ولكنه ﷺ كان يحرص على أنْ يؤمن الناس جميعًا ؛ ليذوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذى يدفع الحزن إلى قلب الرسول ﷺ .

وعندما يرى واحداً لا يذوق حلاوة المنهج ، فالرسول يأمل أن يذوق الناسُ كلهم حلاوة الإيمان ، لأنه ﷺ رءوف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعًا [1] .

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

ودليلُ ذلك أنه ﷺ عندما جاءه التخيير ، وناداه جبريل عليه السلام ، وقال:

«إن الله قد سمع قَوْل قومك لك وما رَدُّوا عليك ، وقد بعث إليك مَلك الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم . قال : فناداني ملك الجبال وسلَّم عليّ ثم قال: يا محمد. إن الله قد بعثني إليك ، وأنا مَلَك الجبال لتأمرني بأمرك فما شئتَ؟

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٤٢) والحاكم فى مستدركه (١ / ٥٣) ، (٤ / ٤٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢ / ١٥٢) عن ابن عباس ﵄ قال قالت قريش للنبى ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا. فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة ، فقال: «بل باب التوبة والرحمة».

إن شئتَ أُطبق عليهم الأخشبين [1].

فقال النبى ﷺ : «**بل أرجو أنْ يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئًا**» .

فالرسول ﷺ لا يُبقى على هؤلاء فقط ، ولكنه يحرص أيضًا على الأجيال القادمة ، وقد كان ، وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء .

فكان رسول الله ﷺ يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان.

فالقرآن يُبيّن حِرْصه ﷺ أنْ يؤمن الناسُ جميعًا ، وأنْ يذوقوا حلاوة اللقاء بربهم ، واتباع منهج الله ، وحلاوة التشريع الذى يُسعدهم ويُسعِد كل مَلَكاتهم .

فإذا ما جاءتْ المسائل على غير ما يحب رسول الله ﷺ ، فها هو ذا قول الله سبحانه:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ .. (١٧٦) ﴾ [آل عمران]

وهذا دليل على أن الله يريد أن يُبلّغ البشر ؛ أيها الناس ، إن من فَرْط حب الرسول لكم أنه يحزن من أجل عصيانكم ، وأنا الذى أقول له : لا تحزن.

والرسول ﷺ رحيم بالأمة كلها ، كما يقول القرآن :

(١) الأخشبان: الجبلان المطيفان بمكة، وهما : أبو قبيس والأحمر. والأخشب : كل جبل خشن غليظ. [لسان العرب ـ مادة : خشب].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

ويكفيه موقفه ﷺ يوم القيامة ، حين تذهب كل أمة إلى رسولها ليردَّها ، فتأتى الأمم إلى رسول الله ﷺ فيُكرمه الله بقبول شفاعته حتى يُعجِّل الله بالفَصْل والحساب.

وهذه رحمة للعالمين ؛ لأنهم من هَول الموقف يتمنّون الانصراف ، ولو إلى النار.

فالرسول ﷺ لم يكن رحمة لمن أُرْسِل إليهم فقط ، ولكنه رحمة للعالمين جميعهم ، وأول هذه الرحمة إعلانه أن البشر كلهم سواء ، وأنه بشر مثلنا يُوحى إليه ، وأن إلهنا إله واحد.

وما دام ليس لنا إلا إله واحد فلن نخشى أحدًا ، أو نعبد قويًا ، أو ذا سلطان ، فالله تعالى أرسل رسوله رحمةً للعالمين ، وحتى ينال الناس هذه الرحمة لابُدَّ أن يؤمنوا بالله ويتبعوا منهجه.

فالحق سبحانه يعلم انشغال سيدنا رسول الله ﷺ بأمته ، وبرحمته بهم ، فقال له الله ـ ليُريح عواطفه ومواجيده ـ ما ورد هنا فى الحديث القدسى الذى نحن بصدده :

«إِنَّا سَنُرْضِيكَ فى أُمتِك ، ولاَ نَسُوؤكَ »

وذلك أن رسول الله ﷺ كان يتلو قول الله عز وجل فى إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ

﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

وكذلك قول الله عز وجل فى عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]

فرفع رسول الله ﷺ يديه ، وقال :«اللهم أمتى أمتى» وبكى ﷺ .

فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فَسَلْهُ : ما يُبكيك؟

فأتاه جبريل - عليه السلام - فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ، وهو أعلم.

فقال الله : «يا جبريل ، اذهب إلى محمد فَقُلْ : «إنَّا سَنُرضِيكَ فى أمتِك ، ولا نَسُوؤكَ ».

والحق سبحانه يقول فى قرآنه:

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

وقد رُوى [١] عن الإمام على رضي الله عنه أنه قال لأهل العراق: إنكم تقولون : إن أَرْجَى [٢] آية فى كتاب الله تعالى :

---

(١) أورد السيوطى هذا الأثر فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٨ / ٥٤٣) ، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه وأبى نعيم فى الحلية.

(٢) الرجاء من الأمل نقيض اليأس. وأرجى: صيغة مبالغة على وزن أفعل بمعنى أكثر رجاء وأملاً وإطماعًا فى رحمة الله . [وانظر : لسان العرب ـ مادة : رجو].

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا[1] مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر]

قالوا: إنَّا نقول ذلك.

قال: ولكنّا - أهل البيت ـ نقول : إن أرْجى آية فى كتاب الله قوله تعالى:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

وهى الشفاعة »[٢]

ولم يَقُلْ سبحانه : يعطيـك ربك. بل قال : (ولسوف يعطيك) لترى عطاء الحق مستمراً.

وقد قال النبى ﷺ عند نزول هذه الآية:

«إذًا ، لا أرضى وواحد من أمتى فى النار». [٣]

---

(١) القنوط : اليأس . وفى التهذيب : اليأس من الخير. [لسان العرب ـ مادة : قنط].

(٢) وقد أخـرج ابن المـنذر وابن مردويه وأبو نعيـم فى الحلية من طريق حـرب بن شريح ﷺ قال : قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين : أرأيت هذه الشفاعة التى يتحدث عنها أهل العراق، أحق هى؟ قال: إى والله ، حدثنى عمى محمد بن الحنفية عن على أن رسول الله ﷺ قـال: «أشفع لأمـتى حـتى ينادينى ربى : أرضـيت يا محـمـد ؟ فأقـول : نعم ، يا رب رضيت » . قاله السيوطى فى الدر المنثور (٨ / ٥٤٣) .

(٣) أخرج الخطيب فى «تلخيص المتشابه» عن ابن عـباس ﷺ قال : لا يرضى محـمد ، واحد من أمته فى النار.

وأخرج البيـهقى فى شعب الإيمان عن ابن عـباس أيضًا أنه قال : رضاه أن تدخـل أمته الجنة كلهم.

وقال ﷺ أيضًا :

«لكُلِّ نبيٍّ دعوة مستجابة ، فتعجَّل كل نبيّ دعوته ، وإنِّى اختبأتُ دعوتى شفاعةً لأمتى يوم القيامة» [1] .

وهكذا نرى شُغل رسول الله ﷺ بأمته كأمر واضح موجود فى بُؤْرة شعوره ﷺ .

إذن : فقول الله :

﴿ وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ .. (١٧٦) ﴾ **[آل عمران]**

هو توضيح من الله لرسوله ﷺ بأنهم لم يسارعوا فى الكفر تقصيرًا منك ، فأنت قد أديتَ واجبك.

ويؤكد الحق سبحانه هذا بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ .. (٤١) ﴾ **[المائدة]**

فإياكَ أنْ تحزنَ ؛ لأنِّى معك ، فلن ينالك شرُّ خُصومك ، ولا يمكن أنْ أختارك رسولاً وأخذلك ، إنهم لن ينالوا منك شيئًا.

وقد يكون حُزْن النبى ﷺ حُزْنًا من لَوْن آخر ، اسمه الحزن المتسامى ، الذى قال فيه الحق سبحانه:

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٩) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه وتمامه: « فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئًا ».

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

فإذا كـان حزنك بسبب الخـوف على المنهج منهم ، فالـحق ينصره ولن يُمكِّنهم منه.

وأما إذا كان خوفـًا عليهم ، فلا ؛ لأنه سبحانه خلق الإنسان مُخْـتاراً غير مقـهور على القـيام بتعـاليم المنهج ، وسبـحانه يحب أنْ يعـرف مَنْ يأتيه حُـبّاً وكرامة.

فإيـاك أنْ تحزن لحـرصك على أنْ يؤمنوا ؛ لأن الحق سبـحانه يـقدر أن يُنزِل عليـهم آية تجعل رقـابهم خـاضعـة ، ولكن الرب لا يريد رقابًا تخـضع ، وإنما يريد قلوبًا تخشع.

ولذلك يقول تعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

فلو أراد الله أن يُخْـضِعهم لمنهـجه قَهْـرًا ، لا يستطيع أحـد أن يشذَّ عن طاعته ، فـهو سبحانه يريـد من الإنس والجن عبادة المحبـوبية ، ولذلك خلقنا ولنا اختيـار فى أنْ نأتيه أو لا نأتيه ، فى أن نطيعه أو نعـصيه ، فى أنْ نؤمن به أو لا نؤمن به.

فإذا كنتَ تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار ، تتنازل عـما يغضبه حبّاً فيه ، فإذا تخليتَ عن اخـتيارك إلى مـرادات الله فى منهجه تكون قـد حققتَ عـبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى.

نحن نريد أن ينبع الإيمان من القلب ، فالله لا يريد أعناقًا ، ولو كان يريد أعناقًا لَمَا استطاع أحـدٌ أنْ يخرج عن قَدَره. وكان باستطاعتـه سبحانه أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية ، كما خلق الملائكة.

والحق سبحانه يُبيِّن لنا شُغل رسول الله ﷺ بأمتـه ، وأنه يحب أن يكونوا جميعًا مؤمنين ملتزمين مطيعين ، فيوضح له سبحانه : أَرِحْ نفسك ، فعليك البلاغ فقط .

وهكذا يُخفف الله مهمة الرسول ﷺ فيقول :

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء]

فلا تُجهِد نفسك ، وتظن أننا أرسلناك إليهم لترغمهم على أن يؤمنوا ، فتكلف نفسك أمرًا ما كلَّفك الله به ، وتقتل نفسك حزنًا وغمًا وهمًا أنهم لم يؤمنوا.

فيقول تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [البقرة]

ويقول سبحانه :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية]

ويقول في آية أخرى :

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق]

أي: ليس لك أنْ تُجبرهم على أنْ يطيعوا ، فالإجبار يتنافى مع التكليف ، ويتنافى مع دخول الإيمان طواعية ، ويتنافى مع الاختيار.

ونجد أغلب عتابات الله لرسول الله ، لا لأنه خالف ، ولكن لأنه حمّل نفسه فوق ما تعرضه عليه الرسالة ، مثل مَنْ يثيرون قصة ابن أم مكتوم [1] ، فيقولون : النبى أخطأ ، ولذلك قرّعه الله ووبّخه.

نقول لهم : كان الرسول ﷺ يرغب أن يؤمن به صناديد قريش العتاة الكافرون ، وجاءه ابن أم مكتوم مؤمنًا ويريد أن يستفهم ، وكان من الأسهل أن يتعرض لابن أم مكتوم ولا يتعرض للصناديد الذين يخالفونه.

لكن النبى ﷺ ترك السهل وذهب للصَّعب ، فكأنه سبحانه يتساءل: لماذا أتعبتَ نفسك؟

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾ [عبس]

أى : ما الذى يجعلك تتعب ؟إذن : فهو يلومه لصالحه لا لأنه خالف.

فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لرسوله ﷺ :

﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠ ﴾ [النساء]

إنما قاله ليخُفِّف عن الرسول ﷺ ، وليأمره أنْ يُشفِق على نفسه ، وألاَّ يقتلها بالحزن عليهم لعنادهم وعدم إيمانهم.

والحزن هو خروج النفْس من سياق انبساطها ، فالإنسان يكون غاية فى الاستقامة والسرور عندما يكون كل جهاز من أجهزته يُؤدِّى مهمته ، فإن حدث

(١)هو : عمرو بن أم مكتوم القرشى، ويقال اسمه عبدالله ، وعمرو أكثر، وهو ابن قيس بن زائدة ابن الأصم. واسم أمه أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله. أسلم قديمًا بمكة وكان من المهاجرين الأولين ، قدم المدينة قبل أن يهاجر النبى ﷺ . استخلفه رسول الله ﷺ ثلاث عشرة مرة. [الإصابة فى تمييز الصحابة ٤ / ٢٨٤].

شيء يُخِلُّ بعمل أحد الأجهزة فذلك يُورِث الحزن ، أو يكون الحزن انفعالاً لمجيء وحصول أمر غير مطلوب للنفس.

لقد كان مطلب الرسول ﷺ أن يؤمن كل الذين استمعوا إلى البلاغ عنه ، لكن البعض قاوم ، والبعض اتهم الرسول بالسحر أو الجنون أو قَوْل الشعر (١) .

وها هو ذا الحق سبحانه يُسلّي (٢) رسوله ﷺ ، فيقول:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ(٣) (٣٣) ﴾ [الأنعام]

أي : إنك يا محمد لا بد لك أن تعلم أن أقوالهم هذه ليست متعلقة بك ، لأنك - بإجماع الآراء عندهم - أنت الصادق الأمين.

وهم إنما يُكذّبون بآياتي التي أرسلتها معك إليهم ، لأن ماضيك معهم هو الصدق والأمانة ، بدليل أن الكافر منهم كان لا يأمن أحداً على شيء من أمواله ونفائسه إلا رسول الله ﷺ ، والإنسان لا يغشُّ نفسه فيما يخصُّه.

فكأن الله يريد أن يتحمل عن رسوله ، لأن مَنْ يُوجِّه إهانة للرسول إنما يُوجِّهها للمرسِل له ، وهو الله جلَّتْ قدرته.

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) ﴾ [ص].
ويقول أيضًا: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) ﴾ [الصافات]
ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) ﴾ [الذاريات]

(٢) يُقال: سَلاَّني من هَمِّي تسلية وأسلاني. أي: كشفه عني . وانسلى عني الهم أي : انكشف. [لسان العرب - مادة : سلا].

(٣) الجحود : الإنكار مع العلم . [اللسان - مادة: جحد].

وسبحانه يُبيِّن لنا أن رسوله ﷺ كان حريصًا أشد ما يكون الحرص على أنْ تستجيب أمته لداعي الحق ، حتى يتأكد لدى المؤمنين قَوْل الحق سبحانه وتعالى في رسوله ﷺ :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

ولا معنى للحرص إلا أن رسول الله ﷺ يحب ألاَّ يُفلت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه ، ومعنى الحرص : أن يحوطكم بالرعاية ، حتى لا تقعوا في المشقة الأكبر.

وهو ﷺ رءوف رحيم.

والرأفة والرحمة قد تلتقيان في المعنى العام ، ولكن هناك أمورًا تسلب مَضَرَّة ، وأمورًا تجلبُ منافِع.

فالرأفة : هي سَلْب ما يَضُر من الابتلاء والمشقة.

والرحمة : تجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء.

وحَسْبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين الوصفين (١) .

وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) أورد القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٢٢٨) ـ طبعة دار الغد ـ قول الحسن بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ ، فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج] .

إذن : فالرسول ﷺ لا يسلك بما عنده ، بل يسلك برأفة مُستمدة من رأفة العلىِّ الأعلى ، وكذلك رحمته ﷺ مُستمدة من رحمة العلىِّ الأعلى .

ورسول الله ﷺ حريص على أنْ يشمل الله أمته بمغفرته ورحمته ، وألاَّ يسوؤه فيها ، لذلك أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يُرضيه فى أمته.

وقد أشفق رسول الله ﷺ على أمته من موقف يشهد فيه عليهم ضمن مَنْ سيشهد عليهم يوم الحشر ، وذلك مصداقًا لقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

[النساء]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :

«اقرأ علىّ القرآن» (١)

فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟

قال : نعم ، إنِّى أُحِب أنْ أسمعه من غيرى.

فقرأتُ سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

[النساء]

فقال ﷺ : «حَسْبك ، فإذا عيناه تَذْرفانِ الدموعَ».

فإذا كان الشهيد بكى من وَقْع الآية ، فكيف يكون حال المشهود عليه؟

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٠٠) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، والترمذى فى سننه (٣٠٢٥) ، وأحمد فى مسنده (١ / ٣٨٠ ، ٤٣٣) .

الشهيد الذى سيشهد بكى من الآية ، نعم ، لأن قلبه ﷺ قد امتلأ رحمةً بأمته ، ولذلك عرض رب العزة سبحانه على رسوله أنْ يتولَّى أمر أمته.

وانظر إلى العظمة المحمدية والفَهْم عن الله والفِطْنة ، فقال ﷺ : لا ، يا رب ، أنت أرحم بهم مِنِّى.

وكأنه ﷺ يقول للخالق سبحانه : أتنقل مسألتهم فى يدى وأنا أخوهم ، إنما أنت ربى وربهم ، فهل أكون أنا أرحم بهم منك؟

لقد كان من المُتصوَّر أن يقول رسول الله : نعم أعطنى أمر أمتى ، لكنه ﷺ قال : يا رب ، أنت أرحم بهم مِنِّى.

فكيف يكون رَدّ الربِّ عليه؟

قال سبحانه : فلا أُخْزيك فيهم أبدًا.

إخلاص الدين لله

٢٧ - يقول ربُّ العِزَّة سبحانه في الحديث القدسى :

«الإخْلاَصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي، اسْتودعتُه قَلْبَ مَنْ أحـبـبْتُ مِنْ عِـبـادِى»(١)

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٢٩) ﴾ [الأعراف]

والدعاء : طلبٌ مِنْ عـاجز يتجه به لـقادر فى فِعْلٍ يحبـه الداعى ، وحين تدعـو ربك ادْعُه مـخلصًا له الدين ، بحـيث لا يكون فى بالك الأسـباب ، لأن الأسباب إن كانت فى بالك فأنت لم تخلص الدين.

فمعنى الإخلاص هو تصفية أى شىء من الشوائب التى فيه ، والشوائب فى العقائد وفى الأعمال تُفسِد الإتقان والإخلاص ، وإياكم أن تفهموا أن أحدًا لا تأتى له هذه المسألة.

---

(١) ذكره الغزالى فى الإحياء (٤ / ٣٧٦) ، وقد قال الحافظ العراقى فى تخريجه: «رويناه فى جزء من «مسلسلات القزوينى» مُسَلسلاً يقول كل واحد من رواته: سألت فلاناً عن الإخلاص؟ وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمى عن عبدالواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبى ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبدالواحد بن زيد كلاهما متروك. ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف». وقد ضعَّف الحديث الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢ / ٦٣٠) .

فرسول الله ﷺ يقول : « **إنِّى لَيُغانّ** (١) **على قلبى ، وإنِّى لأستغفر الله كل يَوْمٍ مائة مرة** »(٢).

إذن : فالإخلاص عملية قلبية.

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢ ﴾ [الزمر]

أى : اجعل الدين خالصًا لوجه الله ، وابتعد عن الرياء ، لأن الذى تُرائيه لن يُعطيك شيئًا ، لكن حين تُخلِص عبادتك لله ، سيُعطيك كل شيء .

فالرياء يُحبط العمل ، ومع ذلك فالذى يتصدّق رياءً ، نحن لا نرفض صدقته ؛ لأنها ستنفعُ المحتاج ، ولكن هو الخائب الذى خسر الأجر.

والمخلص يصل بإخلاصه إلى عطاء الله ، فمن الناس مَنْ يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، وآخر يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، فالله يأخذه من المعصية إلى الطاعة .

مثل القاضى عياض الذى كان قاطعَ طريق ، فخرج ذات مَرَّة ليقطع الطريق على الناس فسمعهم يقولون : ابتعدوا عن هذا المكان ، لأن فيه «عياض» ، وعياض لا ينجو منه أحد .

فلما سمع خوف الناس ورعبهم منه ، راجع نفسه وحاسبها ، وقال :

---

(١) أراد ﷺ ما يغشاه من السهو الذى لا يخلو منه البشر ، لأن قلبه كان مشغولاً بالله تعالى ، فإن عرض له وقتًا ما عارض بشرى يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحهما عَدَّ ذلك ذنباً وتقصيراً ، فيفزع إلى الاستغفار (اللسان ـ مادة : غين) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٠٢) ، وأبو داود فى سننه (١٥١٥) من حديث الأغر المزنى، وقد كانت له صحبة.

يـا رب ، تُبْ عليَ حتى يهدأ هؤلاء ، فاستجاب الله دعوته وتاب عليه.

فلمَّا تاب الله عليه وأصبـح من الأتقياء ، سأله مَنْ كانوا يعرفـون فظاعته وقسوة قلبه ، فسألوه عن هذا التحوُّل فى حياته ، وما سببُ هدايته؟

فـقال : والله ، إنى لأعـرف سببـها ، لقـد مـررتُ فى سـوق البطيخ فى بغـداد ، فـوجدتُ ورقةً من المـصحف فى الطريق يـدوسها الناس ، فـانحنيتُ عليها وأخذتُها ، فوجدتها مُتسِخة ، فمسحتُها وذهبتُ إلى بائع الروائح ، وكان معى درهم واحـد ، فاشـتريت به عِطرًا ، وعطَّرْتُ الورقة ، ووضـعتُـها فى شِقٍّ مرتفع فى جدار .

والذى نفسى بيده ، لقد سمعت مناديًا ينادى :

يا عياض .. لأُطيبنَّ اسمك كما طيَّبْتَ اسمى.

ولذلك أكرمه الله ، وصار بعد شقاوته وَلِياً من أولياء الله.

والرسول ﷺ يقول :

« إن الله أخْفى ثلاثًا فى ثلاث :

- أخفى رِضَاه فى طاعته ، فلا تحتقرنّ طاعة ما.

- وأخفى غضبه فى معصيته ، فلا تحتقرنّ معصية ما.

- وأخفى أسراره فى خَلْقه » .

فالمسلم يجب عليه ألاّ يحتقر طاعة من الطاعات ، فقد تكون فيها الخير كله [1]، كذلك لا تحتقرنّ معصية من المعاصى مهما صَغُرَتْ فى نظرك.

فقد أخبر رسـول اللّـه ﷺ أن امرأة دخـلتْ النار فى هِرَّة ، حبستها ،

(١) عن أبى ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تَلْقى أخاك بوجه طَلْق ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦)، وأحمد فى مسنده (٥/ ٦٣، ٦٤) .

لا هى أطعمتْها ، ولا سَقَتْها ، ولا تركتْها تأكل من خشاش الأرض [1].

كذلك أخفى الحق سبحانه أسراره فى خلقه ، فهذا الرجل احترم ورقة المصحف المُلْقاة على الأرض ، ونظَّفها وعطّرها بالدرهم الذى كان معه ، ووضعها فى الشقِّ ، فسمع مناديًا يناديه :

«يا عياض .. لأطيبنَّ اسمك كما طَيَّبْتَ اسمى»

فاجعل عبادتك له وحده ، ولا تلتفت إلى شىء غيره ، لأنك إذا التفت إلى شىء غير الله فلن يُعطيك عليها أجرًا ، فلا تجعل له شريكًا فى هذا.

ويُعقب الله هذه الآية بقوله :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

الدين الخالص شَرْع مَنْ ؟

إنه شرع الله ، وهو مَنْ يُجازى عليه ، فاحذر أن يكون عملك فى منهج الله مقصودًا به غير الله ؛ لأن هذا لن يُعطِيك أجرًا ، ولن ينفعك شيئًا.

فكأن الله يريد أن يُحصِّن حركة الإنسان فى كل شىء ، فلا يصنع حركاتٍ لا تأتيه بخير ، ويقول له : اعمل هذه ليأتيك الخير ، فربُّنا حريص على أنْ يأتيك الخير من كل عمل.

وقد قال تعالى عن المنافقين :

---

(١) خشاش الأرض: هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها. وحكى النووى أنه روى بالحاء المهملة ، والمراد: نبات الأرض. قال : وهو ضعيف أو غلط . والحديث متفق عليه عن ابن عمر ﷺ. أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣١٨) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٢) .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ[1] الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) ﴾ [النساء]

فقد أكَّد الحق سبحانه هنا على الإخلاص ، لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولاً ، وكل جارحة من جوارح الإنسان لها مجال معصية ، ومجال معصية القلب هنا هو النفاق ، وهو الأمر المستور.

إذن : فقول الحق : ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ .. (١٤٦) ﴾ [النساء]

جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص فى التوبة عن النفاق ، والإخلاص محلُّه القلب ، فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح ، فتوبة الجوارح تكون بأنْ تكفَّ الجوارح عن مجال معاصيها.

أما توبة القلب فهو أن يكفَّ عن مجال نفاقه ، بأن يخلص.

وكُلّ عمل سَيُجازى صاحبه عليه بمدى إخلاصه لله ، والله سبحانه وتعالى لا يُفضِّل أحداً على أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه الله ، ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولاً.

وقد يكون العمل واحداً أمام الناس ، هذا يأخذ به ثوابًا ، وذلك يأخذ به وِزرًا وعذابًا. فالمهم هو أن يكون العمل خالصًا لله.

وقد يقول إنسان : إن الإخلاصَ فى العمل ، والعمل مكانه القلب ، وما دام الإنسان لا يؤذى أحداً ولا يفعل منكراً ، فليس من الضرورى أنْ يُصلِّى ، ما دامت النيةُ خالصةً.

---

(١) الدرك : أقصى قعر الشىء. والجمع أدراك ودركات. وهى بعضها تحت بعض . قال ابن الأعرابى: الدرك: الطبق من أطباق جهنم. [لسان العرب ـ مادة : درك].

نقول: إن المسألة ليست نيّات فقط ، ولكنها أعمال ونيّات .

ورسول الله ﷺ يقول :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» (١) .

فلا بُدَّ من عمل بعد النية ؛ لأن النية تنتفع بها وحدك ، والعمل يعود على الناس ، فإذا كان فى نيتك أنْ تتصدّق وتصدقت انتفع الفقراء بمالك ، ولكن إذا لم يكُنْ فى نيتك فعل الخير ، وفعلته لتحصل على سمعة ، أو لتُرضى بشراً انتفع الفقراء بمالك ، ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال .

والله سبحانه وتعالى يريد أنْ يقترن عملك بنية الإخلاص لله ، والعمل حركة فى الحياة ، والنية هى التى تعطى الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب.

ولذلك يقول الله جل جلاله:

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾ [البقرة]

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق ، والفقير سينتفع بالصدقة ، سواء كانت نيتك أن يقال عنك «رجل الخير المُتصدِّق» أو : أن يقال عنك «رجل البر والتقوى» . أو : أن تُخفى صدقتك. فالعمل يفعل ، فينتفع به الناس، سواء أردْتَ أم لم تُرِدْ.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وتمامه : «فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه» قال ابن حجر فى الفتح (١ / ١١) : «قد تواتر النقل عن الأئمة فى تعظيم قدر هذا الحديث ، قال أبو عبدالله ـ يقصد الإمام أحمد بن حنبل ـ : ليس فى أخبار النبى ﷺ شىء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث».

أنت إذا قررتَ أنْ تبنى عمارة ، فالنية هنا هى التملُّك ، ولكن انتفع ألوف الناس بهذا العمل ، ابتداءً من الذى باع لك قطعة الأرض ، والذى أعدَّ لك الرسم الهندسى ، وعمال الحفر ، والذى وضع الأساس ، ومَنْ قام بالبناء ، وغيرهم وغيرهم .

هؤلاء انتفعوا من عملك برزق لهم ، سواء أكان فى بالك الله أم لم يكُنْ فى بالك الله ، فقد انتفعوا .

إذن : فكلُّ عمل فيه نَفْعٌ للناس أردْتَ أم لم تُرِد ، ولكن الله لا يجزى على الأعمال بإطلاقها ، وإنما يجزى على النيَّات بإخلاصها ، فإنْ كان عملُكَ خالصاً لله جزاكَ الله عليه ، وإنْ كان عملك لهدف آخر فلا جزاءَ لك عند الله ، لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك (١) .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً لإخلاص الدين لله ، حتى مِمَّنْ يشركون بالله ، فيقول تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)﴾ [يونس]

وكلمة « أحيط بهم » معناها لا يوجد مَنْجى ولا مَخْرج لهم ولا مَهْرب ، ولا أسباب الدنيا تنفع فى هذا الموقف ، فهنا لا مَلْجأ لهم إلا الله ، فدعوا الله مخلصين .

وكلمة « مخلصين » معناها يقين اليقين فى الإيمان ، مع أنهم كانوا فرحين حينما كانوا فى أمان واطمئنان ، لماذا ؟

---

(١) يقول رب العزة فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) .

لأن الإنسان لا يخدع نفسه حينما يداهمه(1) الخطر ، فحينما يحيط به الخطر ، وتعجز أسبابه عن دَفْعه يلجأ إلى الله ويترك الشركاء ، فتجده بفطرته يقول : يا ربّ .

فمعنى ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ .. (٢٢)﴾ [يونس]

أى: لم يَعُدْ فى بالهم إلا الله ، فالآلهة التى كانوا يعبدونها والأصنام وغيرها لا تأتى على بالهم ، لأنهم يعلمون أنها كاذبة ، فليس أمامهم إلا الإله الحق ، وهو الله .

إذن : قوله تعالى: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٢٢)﴾ [يونس]

أى: دعوة دين خالص لله ، لا تشوبه شائبةُ شركٍ ظاهر أو شركٍ خفىّ ، لأن الإنسان لا يخدع نفسه ، فيلجأ إلى الله مباشرة ، فهؤلاء لَمّا أحاط بهم الخطر ولم يجدوا مَنَاصاً(2) من الغرق لم يلجأوا إلا إلى الله ، فحين ينجيهم الله من الكَرْب يعودون إلى ما كانوا عليه .

ولذلك نقول : فإن عمل القلوب لا يُسمع ولا يُرى .

فنيّة القلوب خاصة بالله مباشرة ، ولا تدخل فى اختصاص رقيب(3) وعتيد ، وهما الملَكانِ المختصّان برقابة وكتابة سلوك وعمل الإنسان .

ولذلك نجد الحق سبحانه يصف ذاته فى مواقع كثيرة من القرآن بأنه

---

(1) كل ما غشيك فقد دهمك يدهمك أى: يفجؤك ويدخل عليك . (راجع: لسان العرب ـ مادة : دهم).

(2) ناص ينوص مناصاً : نجا. والمناص: المهرب والفرار والملجأ . أى لم يجد مفراً. (لسان العرب ـ مادة : نوص).

(3) يقول تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق] . أى : إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة . (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٤) .

لطيف خبير ، لطيفٌ بعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، وخبيرٌ بكل شىء وقديرٌ على كل شىء .

يقول تعالى:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]

فالله سبحانه لا تدركه عَيْن .

وعَيْنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا تغفل عن أدقِّ شىء وأخفى نِيّة ، فهو سبحانه خبير ، عنده عِلْمٌ بخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه]

فالحق سبحانه يُخبر رسوله ﷺ أنه سيحرس سِرّه ، كما يحرس علانيته ، فالجَهرُ عنده مثل السِّرِّ وأخْفى من السِّرِّ .

وإذا كان الله يقول لرسوله المأمون على الرسالة هذا الكلام ، فماذا نفعل نحن ؟

فإيّاكم أنْ تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة ، ونيتكم غير مُسْتقرة فيه ؛ لأن الله كما يعلم الجهر ، يعلم السِّرَّ وأخْفى من السِّر .

والجهر هو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع ، والسر أنْ تخُصّ واحداً بأن تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس ، ولذلك تهمس فى أذنه ، ومعنى تهمس فى أذنه أنك تأمنُه على هذا الكلام .

فالسرُّ هو ما تقوله لأذن تثق فيها لترتاح أنت نفسياً ، وبعد ذلك تأمن ألاَّ يذيعَ سِرّك .

وهناك أمور كثيرة فى الحياة ، تضيق النفس الإنسانية بها ، ويحب الإنسان أن يُنفِّس عن نفسه ، ولا بُدّ من شكوى إلى ذى مُروءة يُواسِيك ، أو يُسلِّيك ، أو يتوجَّع .

فأنت تريد أذناً تسمع منك لِتُريحَ نفسك وتُنفِّس عنها ، ولكنها لا تفضحك بَعْد ما أسررتَ إليها ، فهذا هو السر .

ولكن ما هو الأخفى من السر ؟

فالأخفى من السر هو ما لم يخرج من فَمِك .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣)﴾ [الملك]

أى : أن الله يعلمه قبل أنْ يصير كلاماً ، فالحق سبحانه يسمعك دون أن تتكلم ، فيعلم مَا تبقيه فى نفسك ولا تخبر به أحداً ، ولا تُسِرُّ به لإنسان .

والحق سبحانه يعلم ما ستفعله قبل أنْ تفعله .

فعِلْم الله تعالى لا ينتظر إلى أنْ يبرز الشيء جهراً ، بل هو بكمال علمه وطلاقة إحاطته يعلمه من أول ما كان سِراً ، ويعلمه ويحيط به بعد أنْ برز وظهر ووُجِد.

يقول تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام]

فالحق سبحانه يعلم بالحبَّة التى تختفى فى باطن الأرض وأحوالها ، فعند الله عِلْمُ جميع الغيب ، ويحيط علمه بكل شيء ، ولا تخفى عليه خافية .

ولذلك يقول تعالى:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء]

فكلمة ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ .. ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء]

تجعل المؤمن مُصدِّقاً أن الله لا تَخْفى عليه خافية ، فمن الممكن أنْ يستترَ الشخص عن الناس ، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يستترَ عن الله ؛ لأن الله مع كل إنسان فى الخلوة والجلوة ، والسر والعلن .

فإن قَدَر واحد على الاستخفاء من الناس ، فهو لن يقدرَ على الاستخفاء من الله .

ومعنى «يُبيِّت» أن يصنع مكيدة فى البيت ليلاً ، وكُلّ تدبير بخفاء اسمه « تبييت » ، حتى ولو كان فى وَضَح النهار ، ولا يُبيِّت إنسان بخفاء إلا رغبة منه فى أنْ ينفض عنه عيونَ الرائين .

فنقول له :

أنت تنفض العيون التى مثلك ، لكن العيون الأزلية ، وهى عيون الحق فلن تَقدِر عليها .

وحين نسمع كلمة « محيط» فلنعلم أن الإحاطة هى تطويق المحيط للمُحاط ، بحيث لا يستطيع أنْ يُفلت منه ، عِلْماً بحاله التى هو عليها ، ولا قدرة على أنْ يفلتَ منه مآلاً وعاقبة .

فهو سبحانه محيط علماً ؛ لأنه هو الذى لا تَخْفى عليه خافية ، ومحيط قدرةً ، فلا يستطيع أنْ يُفلت أحد منه إلى الخارج .

وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفاصيله ، وهو القادر فوق كل شىء .

فإذا سمعنا كلمة «محيط» فمعناها أن الحق سبحانه وتعالى يحيط ما يحيط به علماً بكل جزئياته ، فلا تستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق.

ومَنْ تحقق بهذا ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ(١) أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون]

فهؤلاء يؤتون غيرهم ، فهناك حقوق لله يُؤدِّيها الإنسان للفقراء مثل حقوق الزكاة ، والحقوق المتعلقة بالكفّارة ، والحقوق المتعلقة بالنذور التى فرضها الإنسان على نفسه ولم يفرضها عليه أحد.

وكذلك الحقوق المتعلِّقة بالعباد مثل الودائع والأمانات التى للناس عندك ، ومثل العدالة فى حُكْمك بين الناس.

فكيف يفعل هذا وقلبه يكون وَجلاً ؟

قالوا : نعم ؛ لأنه يخاف ألاَّ تكون نيَّة الإخلاص صاحبتْ العمل ، وما دامتْ نيّة الإخلاص لم تصاحب العمل فهو يخشى ألاَّ يقبل الله هذا العمل .

وسيد الخلق ﷺ يقول:

«اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أريد به وجهك ، فخالطنى فيه ما ليس لك »(٢) .

---

(١) الوجل: الفزع والخوف. (لسان العرب ـ مادة: وجل) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٣/ ٢٤٨): «أى: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا فى القيام بشرط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط ».

(٢) أورده ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم (ص ٢٧) من دعاء مطرف بن عبد الله.

إذن : الإنسان حين يعمل العمل الصالح ، عليه أنْ يحاول مصاحبة هذا العمل بإخلاص ، أى : يكون العمل لله ، فالله لا يرضى لك أن تعمل عملاً لا تأخذ عليه جزاء .

وإنك إنْ رَاءيْتَ الناس فى شىء من أعمالك ، فالذى راءيته لن يعطيك شيئاً من الجزاء ، فيصبح عملك هَدَراً لا فائدة لك فيه .

فالله يَغَارُ عليك ، ويأمرك أنْ تجعل عملك لمن يقدر على إعطائك الجزاء عليه .

فالمؤمن يخشى على عمله من الرياء وعدم الإخلاص ؛ لأنه يثق أنه راجعٌ إلى ربِّه ، وهو الذى سيجازيه على قَدْر إخلاصه فى عمله ، فإنْ شابَ العملَ شىءٌ من عدم الإخلاص يخاف العبد من الفضيحة على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ، وخسران الجزاء من الله.

وهناك أعمال ظاهرها أنها من الدين ، لكن يكون فى طَيِّها شىء من الرياء أو السُّمْعة ، ولذلك تجد إنساناً تظن أنه مُتديِّن يقول لك : أنا أعمل هذا العمل لله ، ثم لك .

هذا الإنسان نقول له : لا تعطف على الله شيئاً ، واجعل عملك خالصاً لله وحده(١) .

---

(١) قال النووى فى كتاب «الأذكار» (ص ٣١٨): «روينا فى سنن أبى داود بالإسناد الصحيح عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: « لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم ما شاء فلان ». قال الخطابى وغيره : هذا إرشاد إلى الأدب ، وذلك أن الواو للجمع والتشريك ، وثم للعطف مع الترتيب والتراخى ، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه. وجاء عن إبراهيم النخعى أنه كان يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك . ويجوز أن يقول: أعوذ بالله وبك . ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك . قالوا: ويقول: لولا الله ثم فلان لفعلت كذا . ولا تقل: لولا الله وفلان » .

ولذلك ، فى يوم القيامة يتجلَّى الله على الخَلْق ، فالذين كانوا يؤمنون به يطمـئنون على أن جَـزَاءهم قـد جـاء ، والذين لم يكونوا يؤمنون به يُفـاجـأون بوجوده سبحانه ، وبالجزاء والحسـاب ، فَفُوجِئوا بأمر لم يكُنْ فى بالهم ، ولم يعملوا له أيَّ حساب .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (١) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور]

فالكافر يُفَاجأ بوجود الله سبحانه ؛ لأن هذا شىءٌ لم يكُنْ فى حُسْبانه .

إذن: مَـا دُمْنَا سَنُفَاجـأ بوجـود الحقِّ ولا شىءَ غيـره ، فـعلينا أن نُخلِص أعمالنا كلها لله ، ولا شىء لغير الله .

ومعنى ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .. (٦٠)﴾ [المؤمنون]

الوَجَل : هو انفعـال قَسْرى(٢) فى العـضو ممـا يطرأ عليـه من خوف أو خشية ، فيضطرب أو يرتعش ، وهذا نتيجة الخوف.

وهناك مـرتبة أَعْلَى مـن الخوف ، وهى الخـشيـة ، فـالخشـية أقـوى من الخوف ؛ لأن الخـوفَ شىء يُخيـفك أنت ، لكن الخشيـة شىء يُخيـفك مِمَّنْ يُوقِع بك أذىً أشدّ من الذى أنت فيه .

وهم قلوبـهم وَجِلة ؛ لأنهم سـيُعـرضـون على ربٍّ يعـلم كل شىء ،

(١) القاع والقاعة والقيع: أرض واسـعة سهلة مطمئنة مستوية حرة لا حُـزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهبـاط ، تنفرج عنها الجبال والآكام ، ولا حصى فـيها ولا حـجارة ولا تنبت الشجر ، وفـيه يكون السراب نصف النهار . (لسان العرب ـ مادة : قوع)

(٢) قَسَره على الأمر قَسْراً : أكرهه عليه . (لسان العرب ـ مادة : قسر).

وسيحاسبهم على كل كبيرة وصغيرة ، فلا بُدَّ أن يخشَوْهُ ويُخلِصوا أعمالهم له.

ويقول تعالى:

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩)﴾ [الأنبياء]

فالمؤمنون دائماً يخشون ربهم بالغيب ، لأنهم لا يرون الله بأبصارهم ولكن يرونه بآثاره فى الكون ، كما أنهم يؤمنون بالغيب ، أى: بالأشياء التى لم يروها ولكن الله أخبرهم بها ، فأصبح غَيْبها بإخبار الله مَشْهداً .

أو : أن معنى ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ.. (٤٩)﴾ [الأنبياء]

أى: فى حين خَلْوتهم بَعيداً عن الناس ، فهم يُراقبون الله ويخافونه حتى فى حالات بُعْدِهم عن الناس واختلائهم بأنفسهم بحيثُ لا يراهم أحد .

بينما بعض المرائين تجده أمام الناس يظهر فى صورة التقىِّ الورِع ، ومن وراء ظهورهم يفعل ما يشاء من المعاصى والفساد .

والله يريدك أنْ تخشاه فى خَلْواتك مثل خشيتك له أمام الناس ؛ لأن هذا هو الإخلاص والتقوى التى يريدها الله منك .

فالله تعالى يريد قلباً سليماً قد خَلاَ من الرياء والشرك الخفىّ ، ومعنى القلب السليم هو الذى لا يَعْمُر إلا بما أراد الله أن يَعْمُرَ به .

وقد قال تعالى فى حديثه القدسى :

« مَا وَسِعتْنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وَسِعنى قَلْبُ عَبْدى المؤمن » .

فلا تزحم قلبك بالكلام الفارغ ، واجعلْه لله ، فهذه سلامة القلب ، قلب ليس فيه شرك ، ولكنه خالص لوجه الله ، وليس فيه نفاق .

لأن المنافق يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله بلسانه

فقط ، ولكن قلبه جاحدٌ بها ، فَقلْبه لم يوافق لسانه ، فقلْبه ليس سليماً فى ذلك الادعاء الذى أعلنه .

والحق سبحانه يقول :

﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء]

فالمال قد ينفع صاحبه ، والبنون كذلك إذا كان قلبه سليماً وعمله خالصاً لله ؛ لأن هذا العمل لو كان رياءً فلا فائدة منه ، وإنْ كان نفاقاً فلا خَيْرَ فيه ، وإنْ كان عملاً ممَّنْ لا يؤمن بالله فلا ثواب له فى الآخرة .

قال تعالى :

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً(١) مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]

لأنك فى هذه الحالة فعلْتَ ليقال وقد قيل ، فعلتَ لِيُقامَ لك حَفْلُ تكريم وقد حدث ، فعلْتَ لتأخذ نيشاناً أو جائزة ، وقد حدث .

بنيْتَ مسجداً وكتبْتَ عليه اسمك ودعوْتَ الناس الكبار والمسئولين لِيُقال : بناه فلان ، فأنت لم تقصد وجه الله ، ولكنك قصدتَ مدْحَ الناس ، فلا ثوابَ لك عليه ، فطهِّر نفسك من هذا الشرك الخفىّ .

إذن : قول الله تعالى : **﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨)﴾** [الشعراء]

ليس نَفْياً لِنفْع المال والبنين فى الآخرة ، ولكن النفع مشروطٌ بأنْ يَلْقى الإنسان ربَّه بقلْبٍ سليم ، فلا يعمل عملاً إلا ويقصد به وَجْه الله تعالى بعيداً عن الرياء والسمعة والفَخْر .

---

(١) الهباء: الشيء المنبث الذى تراه فى البيت من ضوء الشمس شبيهًا بالغبار . وقيل : هو ما تثيره الخيل بحوافرها من دُقاق الغبار . (لسان العرب ـ مادة: هبا).

ومعنى القلب السليم ، السلامة أنْ يظلَّ الشيء بغير عَطَب فى ذاته ليؤدى مُهِمّته ، فكأن السلامة تُوجد أولاً ، وبعد ذلك الإنسان هو الذى يُفسِدها.

ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ⑪﴾ [البقرة]

فالسلامة أنْ يبقى الشيء على صلاحه الذى خلقه الله فيه .

فلو تنبَّه الناس إلى متاعبهم فى الكون من فساد فيه ، لحافظ كل واحد على كل شيء ولم يظلم أحداً ، فلا يظلم نباتاً ولا جماداً ولا حيواناً ؛ لأن كل حركة فى الكون إذا لم يتدخَّل فيها الإنسان على هواه تمشى مُسْتقيمة .

فالفساد يأتى من تدخُّل الإنسان على غير منهج ربه ، ولكنه لو تدخَّل على هُدىً من منهج ربِّه لما حدث فساد ، ولَظلَّتْ الأشياء على استقامتها .

قال تعالى:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (1) ⑤ وَالنَّجْمُ (2) وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦﴾ [الرحمن]

(١) الحُسْبان: الحساب. قال الزجاج: بحُسْبان يدل على عدد الشهور والسنين وجميع الأوقات. (لسان العرب ـ مادة : حسب).

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٧٠): «قال ابن جرير: اختلف المفسرون فى معنى قوله (والنجم) بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق. فقال ابن عباس: النجم ما انبسط على وجه الأرض يعنى من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير والسدى وسفيان الثورى. وقد اختاره ابن جرير. وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. وكذا قال الحسن وقتادة وهذا القول هو الأظهر ».

فربُّنا وضع الميزان فى الكون ، فإذا نظرتَ إلى الشمس نجدها تشرق كل يوم بنظام دقيق لا يتغيَّر أو يتبدَّل ، وكذلك القمر والنجوم والهواء والبحار والأنهار .

كلُّها تعمل بنظام دقيق ، لأن الإنسانَ لا يتدخَّل فيها ، لكن الأشياء التى للإنسان دَخْل فيها بمنهج الله تظل سليمة ، لكن إذا تدخَّل على هواه بعيداً عن منهج الله يحدث الفساد .

ويقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام :

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ(١) لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات]

فأساس العملية كلها أنْ يكونَ القلْبُ سليماً ؛ لأن فطرة الله التى فطر الناس عليها ابتداء كلها مَبْنيّة على الصَّلاح والسلامة ، فإنْ طرأ فساد فهو من الإنسان ، فكُلُّ شىء فى الكون مخلوق على هيئة الصَّلاح والسلام .

فقوله سبحانه : ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات]

أى: أن القلبَ الذى فُطِر عليه أولاً لم يتغيَّر ، فجاء ربّه بهذا القَلْب السَّليم وعاش بهذا القَلْب السليم ، وبعد ذلك يظهر به فى الآخرة فلا ينفع لا مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتَى الله بقلبٍ سليم .

قال تعالى :

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]

(١) الشيعة: الفرقة من الناس يتابع بعضهم بعضاً . وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ، ومَنْ على مذهبه ورأيه . والجمع شيع وأشياع .

فالسلامة الأولى استصحبها باستصحاب منهج الله ، فسَلِم فى الدنيا ، وبعد ذلك وصل إلى الله بقلب سليم .

وهناك « مُخلِصين » ، و« مُخلَصين» .

والمخلِص هو مَنْ جاهد ، فكسبَ طاعة الله.

والمخلَص هو مَنْ كسب ، فجاهد وأخلَصه الله لنفسه .

وهناك أُناسٌ يَصِلُون بطاعة الله إلى كرامة الله ، وهناك أُناس يُكرِمهم الله فيُطِيعون الله.

فأنت قد يطرقُ بابك واحدٌ يسألك من فضل الله عليه ، فتستضيفه وتُكرمه ، ومرة أخرى قد تمشى فى الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من فضل الله عليك .

أى: هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه أنت لتعطيه.

وقد قال تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف]

فالحق سبحانه صرفَ عن يوسف ـ عليه السلام ـ غواية الشيطان ، والشيطان لا يدخلُ أبداً فى معركة مع الله ، ولكنه يدخل مع خَلْق الله .

والحق سبحانه يُورِد على لسان الشيطان قوله : ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴿٨٢﴾ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴿٨٣﴾﴾ [ص]

فالشيطان نفسه يُقِرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز ـ هو كشيطان ـ عن غوايته ، ولا يجرؤ على الاقتراب منه.

فالذى يريده الله مَهْدِياً لا يستطيع الشيطان أن يُغويه ، لأن الشيطان لا يُنَاهِض ربنا ولا يُقاوِمه ، إنما يُناهض خَلْق الله ، ولا يدخل مع ربنا فى معركة ، إنما يدخل مع خَلْقه فى معركة ليس له فيها حُجَّة ولا قوة .

فإبليسُ لا يستطيع أنْ يقربَ من عبدٍ مؤمن مخلص فى إيمانه .

وهذا لأن إبليس يعلم حجمه وقَدْره ، ويعلم أنه إذا أراد استخلاص عَبْد لنفسه لا يستطيع ، ولذلك قال :

﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ(١) ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]

وهذا القليل هم الذين أخلصهم الله لعبادته وطاعته ، فلا يستطيع الشيطان أن يقربهم .

وربُّ العزة سبحانه يقول هنا فى الحديث القدسى :

« الإخلاص سرٌّ من سِرِّى ، استودعتُه قلبَ مَنْ أحببتُ من عبادى » .

فما هو الحبُّ ؟

إنه وَدَادة القلب ، ونعرف أن هناك لَوْناً من الحبٍّ يتحكم فيه العقل ، ولَوْناً آخر من الحب لا يتحكَّم فيه العقل ، ولكن تتحكم فيه العاطفة .

والحبُّ العقلى هو إيثارُ النافع .

ومثال ذلك : نجد الوالد لابن غبى يحبُّ ابناً ذكياً لإنسان غيره .

---

(١) احتنك فلاناً : استولى عليه واستماله إليه ، فلا يخرج عن طوعه على المجاز ، كأنه وضعه فى حنكه فلا يُفلت منه . قال تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء] أى: لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى .

فالوالد هنا يحبُّ ابنه الغبى بعاطفته ، ولكنه يحب ابنَ جاره ، لأنه يمتلكُ رصيداً من الذكاء.

إذن : هناك حُبٌّ عقلىّ ، وحُبٌّ عاطفىّ ، وهذا ما يحدث فى المجال البشرىّ ، لكن بالنسبة لله فلا .

فحبُّ الله تعالى لا تَقُلْ فيه أيها المؤمن : هل هو حُبٌّ عقلىّ ، أو حُبٌّ عاطفىّ ؟

لأن المراد بحبِّ الإله هو دوام فُيوضاته على مَنْ يحب ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالحقُّ يلْقاه فى أحضان نعِمه ، ويتجلّى عليه برؤيته .

والحب بين الله وعباده المؤمنين حبٌّ مُتبادَل ، ويقول سبحانه فى هذا :

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.. (٥٤)﴾ [المائدة]

فحين يحبون الله يَردُّ سبحانه على تحية الحبِّ بحبٍّ زائد ، وهُمْ يردُّون على تحية الحب منه سبحانه بحبٍّ زائد ، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات ، حتى نصل إلى قمة الحب .

وقد يحبون الله بعقولهم ، ثم يتسامى الحب إلى أن يصير بعاطفتهم ، وقد يُجرب ذلك حين يُجرِى الله على أناس أشياء هى شرٌّ فى ظاهرها ، ولكنهم يظلُّون على عِشْق لله .

ومعنى ذلك أن حُبهم لله انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم .

والحب عند الله لا نهايةَ له ، وسبحانه يرسل إمداداته فى كل لحظة ، ولا تنتهى إمداداته على الخَلْق أبداً ، وسبحانه يَصِف نفسه بأنه القيوم فاطمئِنُوا أنتم ، فإنْ كنتم تريدون أنْ تناموا فناموا ، فربكُم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم .

والحق سبحانه يصف نفسه :

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦٤)﴾ [المائدة]

أى : أنه سبحانه يُطمئِنُ الخلْقَ أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمداداتُ الله وفُيوضاته المعنوية والمادية ، فصحِّح جهاز استقبالك ، بألاَّ توجدَ فيه نجاسة حسِّية أو نجاسة معنوية .

ولذلك إذا رأيتَ إنساناً عنده فُيوضاتٌ من الحق فاعلم أن ذراتِ جسمه مبنيّة من حلال ، ولا توجد به قذارة معنوية ، ولا قذارة حسِّية .

ويتضح ذلك كُلُّه على ملامح وجهه ، وفى كلماته ، وحُسْن استقباله ، وإنْ كان أسمر اللون فتجده يأسِرُك ويخطف قلبك بِنُورانيته ، وقد تجد إنساناً أبيضَ اللون ، لكن ليس فى وجهه نُور ، لأن فيوضاتِ ربنا غير مُتجلِّية عليه .

وكيف تأتى الفُيوضَاتُ ؟

إنها تأتى بتنقية النفس ؛ لأن الإنسان إنِ افتقر إلى الفُيوضات الربَّانية فعليه أنْ يبحثَ فى جهازه الاستقبالى .

وأضرب هنا مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ بالإرسال الإذاعى ، فمحطات الإذاعة تُرسِل ، ومَنْ يملك جهازَ استقبالٍ سليمٍ فهو يلتقط البثَّ الإذاعىَّ ، أما إن كان جهازُ الاستقبال فاسداً فهذا لا يعنى أن محطات الإذاعة لا تبثُّ برامجها .

ولذلك قال سبحانه :

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .. (٦٤)﴾ [المائدة]

فاحرص دائماً على أن تتناول من يَدِ ربِّك المددَ الذى لا ينتهى .

فهرس المجلد الأول

الحديث	الصفحة
مقدمة المعدّ	٥
١ - الحديث الأول : صلة الرحم	
«أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسمًا من اسمى »	١١
٢ - الحديث الثانى : حسن الظن بالله	
« أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى »	١٧
٣ - الحديث الثالث : أغنى الشركاء	
« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه »	٢٧
٤ - الحديث الرابع : الصلاة المقسومة	
« قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل »	٣٩
٥ - الحديث الخامس : الله ينتظرك عند المريض	
« يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ »	٥٩
٦ - الحديث السادس : نعيم الجنة لا حدود له	
« أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »	٦٩
٧ - الحديث السابع : أولياء الله	
« من عادى لى وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه »	٨٧
٨ - الحديث الثامن : أهل التقوى وأهل المغفرة	
« أنا أهل أن أتقى فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهًا فأنا أهل أن أغفر له »	١٠٥
٩ - الحديث التاسع : الجنة حرام على قاتل نفسه	
« بادرنى عبدى بنفسه حرمت عليه الجنة »	١٢٣

١٠ ـ **الحديث العاشر : الرياء محبط للعمل**
« إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها » ١٣٥

١١ ـ **الحديث الحادى عشر : الحسنة والسيئة**
« إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها » ١٥٣

١٢ ـ **الحديث الثانى عشر : خمس صلوات**
« إنى قد فرضت على أمتك خمس صلوات ، من وفاهن على وضوئهن ومواقيتهن وسجودهن فإن له عندك بهن عهداً » ١٦٧

١٣ ـ **الحديث الثالث عشر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**
« مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، من قبل أن تدعونى فلا أجيبكم .. » ١٧٧

١٤ ـ **الحديث الرابع عشر : الصبر عند الصدمة الأولى**
« ابن آدم ، إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرض ثوابًا دون الجنة » ١٨٩

١٥ ـ **الحديث الخامس عشر : غفرت له ولا أبالي**
« من علم منكم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى ما لم يشرك بى شيئًا » ٢٠٣

١٦ ـ **الحديث السادس عشر : اليوم أنساك كما نسيتنى**
« يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له : ألم أجعل لك سمعًا وبصراً وولداً ؟.. » ٢٢١

١٧ ـ **الحديث السابع عشر : الظلوم الجهول**
« يا آدم إنى عرضت الأمانة على السماوات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها ؟ » ٢٦٧

١٨ ـ **الحديث الثامن عشر : فضل التجاوز عن المدين المعسر**
« نحن أحق بذلك منه ، تجاوزوا عنه » ٣٢١

١٩ ـ الحديث التاسع عشر : أين ملوك الأرض ؟
« يقبض اللـه الأرض ويطوى السمـاء بيمينـه . ثم يقـول :أنا الملك، أين ملوك الأرض ؟ » ٣٤٣
٢٠ ـ الحديث العشرون : النظر إلى وجه الله الكريم
« إذا دخل أهل الجنة الجنة يقـول الله تبـارك وتعـالى : تريدون شيئًا أزيدكم ؟ » ٣٦٧
٢١ ـ الحديث الحادى والعشرون: أصحاب الأعراف
« قوموا ادخلوا الجنة فإنى قد غفرت لكم » ٣٨٥
٢٢ ـ الحديث الثاني والعشرون : كذبني ابن آدم
« كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وتكذيبه إياى قوله : لن يعيدنى كما بدأنى .. » ٣٩٧
٢٣ ـ الحديث الثالث والعشرون : شتمني ابن آدم
« أنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد » ٤٣٥
٢٤ ـ الحديث الرابع والعشرون : رزق الشيطان
« قـال إبليس : يا رب ليس أحد مـن خلقك إلا جعلت له رزقًا ومعيشة ، فما رزقى ؟ » ٤٦٧
٢٥ ـ الحديث الخامس والعشرون : عطاء الذاكرين
« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته فوق ما أعطى السائلين » . ٤٩١
٢٦ ـ الحديث السادس والعشرون : أمتى .. أمتى
« يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ، ولا نسوءك » ٥١٥
٢٧ ـ الحديث السابع والعشرون : إخلاص الدين لله
« الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى» ٥٣٣

فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

الأحاديث القدسية

المجلد الثانى

اعداد وتقديم

عادل أبو المعاطى

دار الروضة

للنشر والتوزيع

دار الروضة
للنشر والتوزيع
القاهرة : ص ب ٢٢٢٧

يطلب من

مركز توزيع الكتاب الإسلامي
٢ درب الأتراك خلف جامع الأزهر

ت ٥١٢٣٦١١

نافذتك على الفكر الإسلامي العربي والعالمي بما تقدم لك من روائع الكتب التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة في مختلف المجالات

يديرها ويشرف عليها سامي الطوخي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

حُرْمَةُ الظُّلم

٢٨ يقول الحق سبحانه

فى الحديث القدسى :

« يَا عِـبَـادى ، إِنِّى حَـرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِى ، وَجَـعَلْتُـهُ بَيْنَكُمْ مُحرَّمًا ، فَلاَ تَظَالَمُوا » (١)

أصْلُ الظلم هو محبة الانتفاع بجهد الغير ، فعندما تظلم واحدًا فهذا يعنى أنك تأخذ حقَّـه ، وحقُّه ما جاء به بـجهده وعرقه ، وتأخـذه أنت بدون جَهْد ولا عرق ، ويتبع هذا أن يكون الظالم قويًا .

لكن ، ماذا عن الذى يظلم إنسانًا لحساب إنسان آخر ؟

إنه لم ينتفع بظلمه ، ولكن غيره هو الذى انتفع ، وهذا شَرٌّ من الأول ، لأنه ظلم إنسانًا لِنفع عبد آخر ، ولم يأخذ هو شيئًا لنفسه .

إذن : فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جـهد غيرك من غير كَدٍّ ، وإما أن تنفع شخصًا بجهد غيره.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد في مسنده (٥/ ١٦٠)، والبيهقي في سننه الكبرى (٦/ ٩٣) والبخاري في الأدب المفرد (ص١٧٢، ٤٩٠) من حديث أبي ذر رضى الله عنه.

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة ، حركة كريمة ، فلا يدخل فى بطنك إلا ما عرفت من أجله ، ويأخذ كل إنسان حقه.

وهذا أمر دائر بين الحق والباطل.

والباطل زائل ، وهو الذى لا يدوم ، فهو ذاهب.

أما الحق فهو الثابت الذى لا يتغير.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾ [البقرة]

فلا تأكل بالباطل ، أى لا تأكل مما يملكه غيرك إلا بحق أثبته الله بحكم.

فلا تسرق ، ولا تغتصب ، ولا تخطف ، ولا ترتشِ ، ولا تكُنْ خائنًا فى الأمانة التى أنت مُوكل بها ، فكلُّ ذلك إنْ حدث تكون قد أكلتَ المال بالباطل .

وحين تأكل بالباطل فلن تستطيع أنت شخصياً أن تُعفى غيرك مما أبحْتَهُ لنفسك ، وسيأكل غيرُك بالباطل أيضاً .

وما دُمْتَ تأكلُ بالباطل ، وغيرُك يأكل بالباطل ، هنا يصير الناس جميعًا نَهْباً للناس جميعاً ، لكن حين يُحكم الإنسان بقضية الحق فأنت لا تأخذ إلا بالحقِّ ، ويجب على الغير ألاَّ يُعطيك إلا بالحقِّ.

وبذلك تخضع حركة الحياة كلِّها لقانون ينظم الحق الثابت الذى لا يتغير.

لماذا ؟

لأن الباطل قد يكون له عُلُو ، لكن ليس له استقرار .

ويضرب لنا الحق سبحانه مثل الحق والباطل ، فيقول :

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا[1] رَّابِيًا[2] وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[3] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾ [الرعد]

إنه سبحانه يعطينا من الأمور المُحَسَّة ما نستطيع أن نُميِّزَ من خلاله الأمور المعنوية .

فالحق سبحانه يُنزِل من السماء ماء فيسيل فى الأودية ، والوادى هو المكان المنحصر بين جبلين ، فإذا نزلت الأمطار على الأعالى فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل في الأودية .

وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، وباقى المياه يبحث له عن مسلك آخر ، ولو إلى باطن الأرض.

---

(١) زبد الماء: ما يعلوه عند جيشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . وزبد المعادن : خبثها ونفايتها .

(٢) ربا الشيء يربو : زاد ونما. وارتفع وعلا على وجه الماء .

(٣) جفأ الوادى غثاءه : رمى بالزبد والقذى . وكذلك جفأت القدر: رمت بزبدها عند الغليان . (لسان العرب ـ مادة : جفأ) .

ويأخذ السَّيل فى طريقه أشياء كثيرة مثل جذور النباتات ، وبقايا ما يحمله الهواء ، والحق سبحانه يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح ، لأنها غُثَاء .

وساعة يطفو الغُثَاء ، فإياك أن تفهمَ أن ذلك عُلُو ، إنه عُلُو إلى انتهاء ، كذلك فَوْرَة الباطل .

إياك أن تظن أن الزَّبَد له فائدة ، أو أن ارتفاع الريم كان عُلُواً على ما فى القِدْر .

لا ، إنه تطهير .

وعلى هذا ، فالحركة الحلال لا يكفى فيها أن تتحرك فقط ، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بألاَّ تكون فى الباطل؛ لأن الذى يسرق إنما يتحرك فى سرقته ، ولكن حركته فى غير شَرَف ، وهى حركة حرام .

إذن: كل مسروق فى الوجود نتيجة حركة باطلة ، وكذلك الغَصْب ، والتدليس[1] ، والغِش ، وعدم الأمانة فى العمل ، والخيانة فى الوديعة ، وإنكار الأمانة .

كل ذلك باطل ، وكل حركة فى غير مَا شرع الله باطل ، حتى المعونة على حركة فى غير ما شرع الله ، كل ذلك باطل .

---

(١) المدالسة: المخادعة. وقد دالس ودلَّس فى البيع وفى كل شىء إذا لم يبين عيبه. والتدليس فى البيع: كتمان عيب السلعة عن المشترى . (لسان العرب ـ مادة : دلس) .

ويقول الحق سبحانه :

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨)﴾

[آل عمران]

والحق سبحانه لا يقول إلا الحق ، فلا شيء خارج عن مُلْكه.

وهو سبحانه لا يريد الظلم على إطلاقه ، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد.

وللظلم مظاهر ، كأن تأخذ إنساناً بغير جُرْم ، أو أن تعاقب إنسانًا فوق الجرم ، أو ألاَّ تعطى إنساناً مُسْتوى إحسانه .

والظالم يريد بظلمه أن يعود الأمر بالنفع له ، فإنْ كان يريد أَخْذ إنسان بغير جُرْم فهو يفعل ذلك ليروى حِقْداً وغِلاّ فى نفسه .

وقد يُلفِّق لإنسان جُرْماً ، لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يُهدِّده فى أيِّ مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتقله مثلاً ، أو يضعه فى السجن حتى لا يفضحه .

إذن: لا يمكن أن يذهبَ إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أنْ يُحقِّقَ منفعةً أو يدفعَ عن نفسه ضَرَراً ، واللهُ لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضرراً يقع من خَلْقه عليه .

إنه مُنَزَّه عن ذلك ، فهو القاهر فوق عباده.

والحق سبحانه إذا نظرنا إليه ـ وهو قوة القوى ـ إذا أراد أن يظلم ـ وحاشا لله أنْ يظلم ـ فماذا يكون شكل ظُلْمه؟

إن الظلم يتناسب مع قـوة الظالم ، فقوة القُـوَى عندما تظلم فَظُلْمـها لا يُطاق .

ثم ، لماذا يظلم ؟

وماذا يريد أن يأخذ ، وهو مَنْ وَهَب ؟

إنه سبحانه مُسْتغنٍ ، ولن يأخذ من هذا ليعطى ذاك ، فكلهم بالنسبة له سواء ، لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، كلهم متساوون .

فلماذا يظلم؟

إن الظلم بالنسبة لله مُحَالٌ عقلياً ، ومُحَالٌ منطقياً .

إن الحق سبحانه ينفى عن نفسه الظلم فى قوله :

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

ولم يَقُلْ: وما ربُّك بظالم للعبيد .

قـالوا: لأن الله لو أباح لنفسه الظلم فلن يكون ظالمـاً فقط ، وسـيكون ظلاَّماً ؛ لأن الظلم سيتناسب مع قدرته وقوته .

ونحن قلنا: إن هناك أشياء تسمى مبالغات مثل قولك: فلان آكل . فكلنا آكلـون. لكـن إذا قلـتَ : فلان أكُـول أو فـلان أكَّال ، فـمـعناها أنه يبـالغ فى الأكل ، إما بزيادة الكمية التى يأكلها من الطعام ، فيبالغ فى الحدث فى ذاته ، وإما أنْ يأكل خمسَ مرات فى اليوم مثلاً.

إذن : المبالغة فى الوصف ، إما أن تكون بتضخيم الحدث أو بتكراره.
فأنت تقول مثلاً: فلان نَاجِر. أى: أمسك قطعة من الخشب وقَدُومًا وأخذ يَنْجر فيها ، ولكنه ليس نجَّاراً ؛ لأنه لا يعمل إلا أشياء بسيطة جداً ، وليست عنده خبرة النجارة ، لكن النجار حِرْفته النجارة .

إذن : المبالغة فى الحدث تنشأ من أمرين:

من تضخيم الحدث فى ذاته ، أو من تكراره .

وحين يقول الله تعالى:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]

فهو لم يَقُل : بظلام للعبد ، ولكن للعبيد ، فلو أنه سبحانه ظلم هذا العبد ، وذاك ، وغيره .. الخ .

فهذا التكرار فى الظلم يتناسب معه كلمة ظَلاَّم ، وليس كلمة ظالم .. وحاشَا لله أن يظلم .

والله سبحانه لم يمتنع عن الظلم لأنه لا يستطيع أن يظلم ، ولكن لأنه لا ينبغى له أن يكون ظالماً ، لأن الظالم يأخذ حق غيره لنفسه ، والله يملك كل شىء فى الوجود ، فلا يمكن أن يظلم ولا ينبغى له .

إذن: عدم ظلمه سبحانه ليس عن ضعفه عن الظلم ، ولكن لتنزهه عنه .

ولذلك يقول الحق تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

وكلمة «ما كان» تختلف عن كلمة «ما ينبغى» ، فساعةَ تسمع «ما ينبغى لك أن تفعل ذلك» فهذا يعنى أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن تفعل ، ولكن حين يُقَال «ما كان لك أن تفعل» ، أى: أنك غير مُؤهَّل لِفعْل هذا مُطْلقاً .

ومثال ذلك: أن يقال لفقير جداً «ما كان لك أن تشترى فيديو» ؛ لأنه بحكم فَقْره غير مُؤهَّل لشراء مثل هذا الجهاز.

لكن حين يُقال لآخر: «ما ينبغى لك أن تشترى فيديو». أى: عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقر هو الذى يجب أن يمنع الشراء.

إذن : فهناك فَرْق بين نفى الإمكان ، ونفى الانبغاء .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة ، إذن : فهو ليس بظلام للعبيد ؛ لأنه لو ظلم كلّ عَبْد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد ، ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه ؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد .

ورسول الله ﷺ يقول :

«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها »(١) .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٠٨) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ .

والظالم من البشر جاهل:

والظالم من البشر جاهل ، لماذا؟

لأنه قوّى الذى ظلمه ولم يُضْعِفه ، فالظالم يظلم لِيُضعِف المظلوم أمامه ، فنقول له: أنت غبىّ ، قليل الذكاء ، لأنك قوّيته على نفسك ، وفعلتَ عكس ما تريد .

ولنوضح ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن جميعاً عيال الله ، فالواحد منَّا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه ، فقَلْب الوالد يكون مع المظلوم ، ويحاول الوالد أن يترضى ابنه المظلوم .

إذن : فالولد الظالم ضَرَّ أخاه ضرراً يناسب طفولته ، ولكنه أعطاه نفعاً يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

وما دُمْنا جميعاً عيال الله ، فماذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحداً من خَلْقه يظلم آخر من خَلْقه ؟

لا بُدَّ أن الحق سبحانه سيشمل المظلوم برعايته ، وهكذا يُقوِّى الظالمُ المظلومَ ، والظالم بذلك يعلن عن غبائه ، فلو كان ذكياً لما ظلم ، ولَضَنَّ على عدوه أنْ يظلمه ، ولَقالَ : إنه لا يستأهل أن أظلمه ، لأنه عن طريق ظلمى له سيعطيه الله مكافأة كبرى ، وهى أن يجعله فى كَنَفه[1] ورعايته مباشرة .

---

(١) كنف الله : حفظه ورحمته وبره . والمكانفة : المعاونة . وكنفتُ الرجل: حُطته وصُنْته . (لسان العرب ـ مادة : كنف) .

وقد نجد واحداً يظلم من أجل نَفْع عاجل ، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرد أبداً ممن خلقه .

ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرد من خلقك ، ولكنك شردت من المخلوق وداريتَ نفسك ، وحاولتَ أنْ تحقق النفْع العاجل لنفسك .

لكن الخالق قَيُّوم ، لا تأخذه سِنَةٌ[1] ولا نوم .

وكأنَّ الحق سبحانه يُطمئننا بأنْ ننام مِلْءَ جُفوننا ، لأنه سبحانه لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم .

والحق سبحانه يقول:

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (108)﴾ [آل عمران]

لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حَقٍّ ، أو إرادة الضرر بغير جُرْم ، والله غنيٌّ عن ذلك .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118)﴾ [النحل]

ويقول أيضاً :

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)﴾ [آل عمران]

---

(1) السِّنَة : النعاس من غير نوم . والوسن : أول النوم . والوسنان : النائم الذى ليس بمستغرق فى نومه . (لسان العرب ـ مادة : وسن) .

فنحن الذين نظلم أنفسنا ، بأن نُورِدها موارد التهلُكة والعذاب الذى لا مَنْجاة منه ، دون أن نعطيها شيئاً .

فالدنيا ـ كما قلنا ـ عالم أغيار ، والنعمة التى أنت فيها زائلة عنك ، إما أنْ تتركها بالموت ، أو تتركك هى وتزول عنك ، وتخرج من الدنيا تحمل أعمالك فقط ، كلُّ شىء زال وبقيتْ ذنوبك تحملها إلى الآخرة .

ولذلك ، فإن كلّ مَنْ عصى الله وتمرّد على دينه قد ظلم نفسه ؛ لأنه قادها إلى العذاب الأبدىّ طمعاً فى نفوذ أو مال زال بعد فترة قصيرة ، ولم يَدُمْ .

فكأنه ظلمها بأن حَرَمها من نعيم أبدىّ ، وأعطاها شهوة قصيرة عاجلة ، لكن الذى يظلم نفسه ظُلماً شديداً وبيِّناً هو الذى يرتكب إثماً دون أن يأخذَ متعة فى الدنيا .

فلا هو أخذ متعةَ دنيا ، ولا أخذ متعة آخرة . مثل الذى يتطوع لشهادة الزور ، فهو يأخذ عذاباً فى الآخرة ، ولم يأخذ متعة فى الدنيا .

وقد حَرَّم الحق سبحانه البغى ، وهو تجاوزُ الحدِّ فى الظلم ، وهو إفساد ، لأن الإنسان إذا ما أخرج أىَّ شىء عن صلاحه يُقَال : «بغى عليه». فإنْ حفرتَ طريقاً مُمهَّداً ، فهذا إفساد ، وإن ألقيتَ بنُفاية[1] فى بئر يشرب منه الناس ، فهذا إفساد وبَغْى .

(١) نفاية الشىء : بقيته وأردؤه . والنفاية بالضم : ما نَفَيْته من الشىء لرداءته . (اللسان ـ مادة : نفى).

وأيُّ شيء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته وتطرأ عليه بما يفسده ، فهذا بَغْى .

والبَغْى : أعلى مراتب الظلم .

• ويقول تعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ[1] مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ.. (٣٣)﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه يُحرِّم أن يبغى أحدٌ على أحدٍ ، لا فى عِرْضه ، ولا فى نفسه ، ولا فى ماله[2] ، ويجب أن نصونَ العِرْض من الفواحش ؛ لأن كل فاحشة قد تأتى بأولاد من حرام ، وإنْ لم تَأتِ فهى تُهدِر العِرْض ، والمطلوب صيانته.

وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل[3] .

---

(١) الفحش والفحشاء والفاحشة: القبيح من القول والفعل ، وجمعها الفواحش. وهى كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصى . قال ابن الأثير : وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا . (لسان العرب ـ مادة : فحش)

(٢) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «المسلم أخو المسلم، لايخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه وماله ودمه ، التقوى ها هنا، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم». أخرجه بهذا اللفظ الترمذي في سننه (١٩٢٧) وقال : هذا حديث حسن غريب.

(٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «لن يزال المؤمن فى فُسْحة من دينه ، ما لم يُصب دماً حراماً» . أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٩٤) ، والبخاري في صحيحه (٦٨٦٢).

والحق سبحانه يصون المال فيمنع عنه البغى ، فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عُدْواناً وظلماً[1] .

مظاهر البغى :

ومظاهر البغى كثيرة .

فمن البغى أن تأخذ سُلْطة قَسْراً بغير حَقٍّ ، ولكن هناك مَنْ يأخذ سلطة قَسْراً وقَهْراً بحقٍّ .

فإنْ كنتَ - على سبيل المثال - تركب سفينة ، ثم قامت الرياح والزوابع وأنت أمهر فى قيادتها من ربانها ، أتترك الربّان يقودها ، وربما غرقتْ بمَنْ فيها ، أم تضرب على يده وتُمسك بالدفة وتديرها لتنقذها ومَنْ فيها ؟

إنك فى هذه الحالة تكون قد أخذتَ القيادة بحقٍّ صيانة أرواح الناس ، وهذا بغى بحق ، وهو يختلف عن البغى بغير الحقٍّ .

وحتى نُفرِّق بين البغى بحقٍّ والبغى بغير حَقٍّ ، نقول :

إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفيه[2] منه للحفاظ عليه وصيانته وتثميره له ، فنكون قد أخذنا حَقّاً من صاحبه رعايةً لهذا الحق ، فهو وإنْ كان فى ظاهره بَغْياً على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام .

---

(١) عن خولة بنت عامر الأنصارية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجالاً يتخوضون فى مال الله بغير حق ، فلهم النار يوم القيامة ». أخرجه البخاري في صحيحه (٣١١٨)، وبنحوه أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٣٦٤ ، ٣٧٨ ، ٤١٠).

(٢) السفيه : الخفيف العقل ، الجاهل ، الأحمق ، الذى لا يحسن سياسة وإدارة ماله وغيره=

فهذا بغى بحقٍّ ، أو أنه سُمِّى بَغْياً ، لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظُلْماً .

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البَغْى الممثَلة فى الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ :

«أسرعُ الخير ثواباً : البرُّ وصِلَةَ الرحم . وأسرعُ الشرِّ عقوبة : البَغْى وقطيعة الرحم »[1].

فالباغى إنما يصنع خَلَلاً فى توازن المجتمع ، والذى يبغى إنما يأخذ حَقَّ الغير ، ليستمتع بناتج من غير كَدِّه وعمله ، ويتحول إلى إنسان يحترف فَرض الإتاوات على الناس ، ويكسل عن أىِّ عمل غير ذلك .

وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعضٌ مِمَّنْ يغترون بقوتهم الجسدية ، وقد تحوَّلوا إلى فتوات يستأجرهم البعض لإيذاء

= من شئونه . (راجع: لسان العرب ـ مادة : سفه) ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ⑤ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ⑥ ﴾ [النساء]

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢١٢) من حديث عائشة ﵂. قال البوصيرى فى الزوائد : «فى إسناده صالح بن موسى ، وهو ضعيف» .

الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جَهْد فى عمل شريف .

وقد ضرب الحق سبحانه المثل بقارون فى البغى ، فقال تعالى :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[1] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾

[القصص]

فضرب الحق سبحانه به المثل ، لأنه كان كثير المال بصورة لم يعهدها الناس ، فهو فتوة الأغنياء وأصحاب المال والجاه .

وقارون كان عنده المال الكثير الذى يستطيع بسطوته أن يظلم الناس ويبغى عليهم ، والبغى إما أن يكون بالاستيلاء على حقوق الناس ، وإما بالاحتقار والازدراء[2] ، وإما بالبطر[3] عليهم .

ويُعطينا الحق سبحانه نوحاً عليه السلام مع قومه ، مثالاً على أن الازدراء نوعٌ من الظلم ، فقال تعالى :

(١) ناء بحمْله ينوء: نهض بجهد ومشقة. وناء الحمل بالدابة : أجهدها وثَقُل عليها وأمالها . (اللسان ـ مادة : نوأ) .

(٢) الازدراء: الاحتقار والانتقاص والعيب. (اللسان ـ مادة: زري) ومنه قوله تعالى عن نوح مع قومه: ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾[هود]

(٣) البطر : الطغيان فى النعمة. والبطر : شدة المرح . وبطر الحق : أن لا يراه حقاً ويتكبر عن قبوله. (لسان العرب ـ مادة : بطر)

﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾ [هود]

فنوح ـ عليه السلام ـ لن يطرد مَنْ آمن من الضعاف الذين تزدريهم وتحتقرهم وتتهكَّم عليهم عيون هذا الملأ الكافر ؛ لأن نوحاً ـ عليه السلام ـ يخشى سؤال الله ـ عز وجل ـ له إنْ سَدَّ فى وجوه الضعاف أبواب الإيمان .

فأوضح نوح ـ عليه السلام ـ أنه لو طرد مَنْ يقال عنهم «أراذل» لَكانَ معنى ذلك أنه يعلم النوايا ، ونوح ـ عليه السلام ـ يعلم يقيناً أن الله هو الأعلم بما فى النفوس ، لذلك لا يضع نوح نفسه فى موضع الظلم لا لنفسه ولا لغيره .

فالبغى ـ إذن ـ هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن مَنْ يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر .

وإذا مَا زهد الناس فى الكَدِّ والعمل الشريف تعطلتْ حركة الحياة ، وتعطلتْ مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٣)﴾ [يونس]

وهنا يُبيِّن الحق سبحانه وكأنه يخاطب الباغى :

يا مَنْ تريد أن تأخذ حقَّ غيرك ، اعلم أن قصارى ما يعطيك أَخْذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تُجازَى من بعد ذلك بنار أبدية .

وأنت إنْ قارنتَ زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغى بزمن العقاب عليها لوجدتَ أن المتعة رخيصة هيِّنة بالنسبة إلى العقاب الذى سوف تناله عليها ، ولا تأخذ عمرك فى الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أنْ يجعلَ عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود .

فاربأوا (١) بأنفسكم ، وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إنْ كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ؛ لأن مُقْتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم فى الدنيا .

وحياتكم فيها محدودة ، ولا يظنُّ الواحد منكم أن عمره هو عمر البشرية فى الدنيا ، ولكن ليقسْ كلُّ واحد منكم عمره فى الدنيا ، وهو محدود .

وهنا يؤكِّد الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وقد يتمثَّل جزاء البَغْي فى أنْ يشاءَ الحقُّ سبحانه ألاَّ يموتَ الظالمُ إلا بعد أنْ يرى مظلومه فى خَيرْ مِمَّا أُخِذ منه .

---

(١) اربأوا : ارتفعوا واحذروا واتقوا . (اللسان ـ مادة : ربأ)

ولذلك أقول دائماً : لو عَلِم الظالم ما ادَّخره الله للمظلوم من الخير ، لَضنَّ عليه بالظلم .

وعلى فَرْض أن الظالم يتمتَّع بظُلْمه وهو من متاع الدنيا القليل ، نَجِد الحق سبحانه يقول :

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظُلْمَ أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم ، فكل منكم سوف يَلْقى ما يُنبِّئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً ، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل مُقَابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن في ذكر النبأ مُقدَّماً تقريعًا لمن يظلمون أنفسهم بالبغي .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ومِصْداق هذا قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]

أي : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جَحْد الحق ، وهذا هو الظُّلْم الأعْلى ، ومن الظلم أن يُعطِي الإنسان نفسه شهوة عاجلة ، ليذوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يَحرِم نفسه من النعيم المقيم .

وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عُمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، فما دام الشيء له نهاية فهو قصير .

ومن الظلم أيضاً أن يستكثرَ الظالم نعمةً عند المظلوم ، فيريد أنْ يأخذها منه .

ومثال هذا ما قصَّه الحق سبحانه فى قرآنه :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ[1] وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي[2] فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ .. (٢٤)﴾ [ص]

والخلطاء هم الشركاء ، فكثير منهم يبغى بعضهم على بعض ، ويظلم بعضهم بعضاً ، مع أنهم أقبلوا على الشركة لِحُبٍّ بينهم .

ولذلك فإن رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) الشطط : مجاوزة القدر فى كل شيء . والشطط: الجور فى الحكم. وشطَّ فى سِلْعته وفى حكمه: جاوز القدر وتباعد عن الحق ، وجار فى قضيته (اللسان ـ مادة : شطط) .

(٢) عَزَّ : غلب وقهر . وقال السيوطى فى «الدر المنثور » (٧/ ١٦٢): «أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رحمه الله فى قوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)﴾ [ص] قال: إذا تكلم كان أبلغ منى ، وإذا دعا كان أكثر »

«إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، فَلعلَّ بعضكم أنْ يكونَ ألحنَ[1] بحجته من بعض، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها»[2].

إن الرسول ﷺ يُعلِّمنا أنه بشر ، أى: أنه لا يملك علم الغيب ومداخل المسائل ، وعندما يرفع المسلمون إليه قضاياهم فقد يكون أحدهم أكثر قدرة على الفصاحة وذلاقة اللسان ، ويستطيع أن يقلب الباطل حقاً ، والآخر قليل الحيلة ، فيحكم النبى بمقتضى البينة القضائية ، ولكن الأمر الواقع يتنافى مع تسلسل الحق .

لذلك يعلمنا أنه بَشَرٌ ، وأننا حين نختصم إليه يجب ألاَّ يستخدم واحد منا ذَلاَقة[3] اللسان فى أخْذ ما ليس له ، لأنه حتى لو أخذ شيئاً ليس له ، بحكم من الرسول ﷺ ، فليعلم أنه يأخذ قطعة من الجحيم .

لذلك أقول : على كل واحد أن يُغربِلَ إيمانه ، وينظر هل حياته فى أعواض الأموال وأعواض التجارة ، وأعواض المبادلات مستوية أو غير مستوية ؟

(١) لَحن الرجل فهو لَحنٌ إذا فهم وفطن لما لا يفطن له غيره . ومعنى ألحن بحجته : أى أفطن لها وأجدل . وأراد أن بعضكم يكون أعرف بالحجة وأفطن لها من غيره . (اللسان ـ مادة : لحن)

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٨٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضى الله عنها.

(٣) الذليق : الفصيح اللسان البليغ . (لسان العرب ـ مادة : ذلق) .

فإن لم تكُنْ مستوية ، فعليه أنْ يُفكِّر فيها قليلاً حتى يُعطى كل ذى حَقٍّ حَقَّه .

واعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى ، وأن الله خبير لا تَخْفى عليه خافية ، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إنْ أخفيتُم شيئاً عن عيون الخَلْق قد يخفى على الله أبداً ، فلن يخفى شىء عن عيون الخالق ؛ لأنكم إنْ عمَّيتم على قضاء الأرض ، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء.

يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾ [التوبة]

فعِلْم الله تعالى ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم ، بل يعلم الله سرَّهم ونجواهم ، لأن صفته القيُّومية ، وأنه علاَّم الغيوب ، يعلم غيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا .

وما هو السِّر ؟ وما هى النَّجْوى ؟

السر : هو ما تكتمه فى نفسك ولا تُطلِع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسِرُّ به للغير ؛ لأن هذه هى النجوى ، وأَصْلُ النجوى البُعْد .

وحين يرغب إنسان أنْ يُكلِّم أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما ، فهو يستأذنه فى الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد ، أو يُخفِض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذى يريد أن يهمس له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر .

ولذلك سَمَّوها «المناجاة» ، وهى كلام لا يسمعه القريب ، لأنك خفضْتَ صوتك خَفْضًا يخْفى على القريب ، فكأنه صار بعيداً .

إذن : فالسر هو ما احتفظتَ به فى نفسك . والنجوى : هو ما أسررْتَ به للغير بحيث لا يعلمه مَنْ يجالسك .

يقول تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾ [المجادلة]

ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نِعَم عباده ؛ لأنه مُنَزَّه عن ذلك ، فضلاً عن أن خَلْقه ليس عندهم نعَم يريدها هو ، فهو الذى أعطاها لهم ، ولذلك لا يأتى منه سبحانه أىُّ ظلم ، وإنْ جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

وقد عدَّد لنا الحق سبحانه أوجهاً كثيرة للظلم البيِّن ، الذى هو أعظم الظُّلْم ، فقال سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ[1] وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾ [البقرة]

---

(١) الخزى : الفضيحة والهوان . وقد يكون الخزى بمعنى الهلاك والوقوع فى بلية . (لسان العرب ـ مادة : خزى) .

فعُمّار المساجد وزُوّارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يَروْنَ نور الله ، فكأن المساجد وهى بيوت الله هى أماكن تلقِّى النور المعنوى من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذى يعطينا ارتقاء الروح.

فالمساجد هى مطالع أنوار الله تعالى ، وهى التى يتنزَّل فيها النور على النور الذى يُصلح الحياة الدنيا ويرتقى بها ، لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن ، وتدخل النفوس فتجعلها تحِسُّ بالرضا والأمن .

فنحن فى المساجد إنما نعيش فى حضرة الحق تبارك وتعالى ، نتلقّى منه التجليّات والفُيوضات التى تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم .

وأنت فى بيت الله تكون فى ضيافة الله ، وأنت تعلم أنه إن جاءك أحدٌ فى بيتك على غير دعوة فأنت تُكرمه ، فإذا كان المجيء على موعد فكرمُك يكون كبيراً ، فما بالُنَا بكرم مَنْ خلقنا جميعًا ؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فَيْض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته ، فأنت فى صلاة منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعداداً للصلاة فى المسجد ، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يُطيل عليك نعمة أنْ تكونَ فى حَضْرته[1] .

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من تطهر فى بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ، ليقضى فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة ، والأخرى ترفع درجة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٦٦) .

فبيتُه مفتوحٌ دائماً حين يدعوك للصلوات الخمس ، فهذا أمر ضرورى ، ولكن بين الصلوات الخمس إنْ أردتَ لقاء الله فسبحانه يَلْقاكَ فى أىّ وقت ، وتدعوه بما تشاء ، وتُطيل فى حَضْرته كما تريد ، ولا يقول لك أحد : إن الزيارة قد انتهتْ .

فإذا أتى قوم يجترئون على مساجد الله ، ويمنعون أن يُذكرَ اسمُ الله فيها ، فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاءُ الإيمان ، ضعفاءُ الدين ، تجرَّأ عليهم أعداؤهم .

لأنهم لو كانوا أقوياءَ ما كان يجرؤ عدوُّهم على أنْ يمنع ذكر اسم الله فى مساجد الله ، أو أنْ يسعى إلى خرابها ، فتُهدم ولا تُقام فيها صلاة .

ولكن ساعةَ يوجد مَنْ يخرب بيتاً من بيوت الله يهبُّ الناس لمنعه والضَّرْب على يده يكون الإيمان قوياً ، فإنْ تركوه فقد هانَ المؤمنون على عدوهم .. لماذا ؟

لأن الظالم الذى يريد أنْ يُطفئ مكان إشعاع نور الله لخلْقه ، يعيش فى حركة الشرِّ فى الوجود التى تَقْوى وتشتدّ كلما استطاع غير المؤمنين أنْ يمنعوا ذِكْر اسم الله فى بيته وأنْ يخربوه .

فلا يوجد أظلم ممَّنْ يمنع مساجد الله أنْ يُذكَر فيها اسمه ، أى: أن هذا هو الظلم العظيم .

وفى الوقت نفسه ، فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتخاذلوا عن نُصْرة دين الله والدفاع عن بيوت الله ، سيكون لهم أيضاً عذابٌ أليم .

إننى أُحذِّر كل مؤمن أنْ يتخاذلَ أو يضعُفَ أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذِكْر الله فى مساجده ، لأنه فى هذه الحالة يكون مُرْتكباً لذنبهم نفسه ، وربما أكثر ، ولا يتركه الله يوم القيامة ، بل يسوقه إلى النار .

ويقول الحق سبحانه عن وَجْه آخر من أوجه الظُّلْم :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)﴾ [الأنعام]

فقوله تعالى: ﴿مَنْ أَظْلَمُ ... (٢١)﴾ [الأنعام]

يأتى على صيغة السؤال الذى لن تكون إجابته إلا الإقرار، ولا أحدَ أظلم ممَّنْ افترى على الله الكذبَ ؛ لأنه أولاً ظَلَم نفسه ، وظَلَم أمته .

وأوَّلُ ظُلْم النفس أنْ يرتضى حياة زائلة ، وأنْ يترك حياة أبدية . وأما ظُلْمه للناس فلأنه سيأخذ أوزارَ ما يفعلون ، لأنه قد افترى على الله كَذِباً .

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ... (٢١)﴾ [الأنعام]

أى : قولَ الله ما لم يَقُله ، أو كذّب مَا قاله الله ، وكِلاَ الأمرين مُسَاوٍ للآخر .

وكيف يفترى إنسانٌ الكذبَ على الله ؟

كأن يُبلِّغ الناس ويدَّعى ويقول : أنا نبىٌّ وهو ليس كذلك . هنا تكون الفِرْية على الله ، وإياك أنْ تظنَّ أنه يكذِب على الناس ، لا ، إنه يكذب على الله ، لأنه أبلغ أن الله قد بعثَه وهو لم يبعثه .

والافتراء : كَذِب متُعمّد مقصود ، وينطبق ذلك على النبوات التى ادعيتْ ، من مثل مُسَيْلمة الكذاب ، سَجَاح ، طُلَيْحة الأسدى ، الأسود العَنْسى .

كُلُّ هؤلاء ادَّعَوْا النبوة ، ومع ذلك لم يسألهم أحد عن المعجزة الدَّالة على نُبوّتهم ؛ لأن كُلَّ واحد منهم عندما أعلن نبوته جاء بما يُخفِّف عن الناس أحكام الدين .

فواحدٌ قال : أنا أُخفِّفُ الصلاة ، والزكاة لا دَاعِيَ لها . لذلك تبعهم كل مَنْ أراد أنْ يتخفَّف من أوامر الدين ونَواهِيه ، مُوهِماً نفسه بأنه مُتدِّين ، دون أنْ يلتزمَ بالتزاماتِ التديُّن .

وهذا هو السبب فى أن أصحاب النُّبوات الكاذبة ، والادعاءات الباطلة يجدون لهم أنصاراً من المنافقين ، فالواحد من هؤلاء الأتباع قد يكون مُثقَّفاً ثم يُصدِّق دَجَّالاً يدَّعِى النبوة .

وتسأل التابع للدجال وتقول له : أسألتَ مُدَّعى النبوة هذا ، ما معجزتك؟ وهذا أوَّل شَرْط فى النبوة ، ولم نجد أحداً سأل هذا السؤال قط ، لماذا ؟

لأن التديُّن فطرة فى النفس ، ولكن الذى يُصعِّب التدين هو الالتزامات التى يفرضها التدين ، وعندما يرى التابعُ الضعيف النفس أن هناك مَنْ يُريحه من الالتزامات الدينية ، ويُفهمه أنه على دين ، ويُقلِّل الالتزامات عليه ، لذلك يتبعه ضعاف النفوس ، وتصبح المسألة فوضى .

لذلك يقول سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ[1] الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ[2] بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)﴾ [الأنعام]

وإنكم تتعمَّدون الكذب على الله لإضلال الناس ، والحق سبحانه لا يهدى مَنْ يظلم نفسه ، ويظلم الناس .

ويقول تعالى :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى[3] لِّلْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ [الزمر]

---

(١) الغمرات : جمع غَمْرة ، وهى الشدة . وغمرات الموت والحرب : شدائدها. (لسان العرب ـ مادة : غمر) .

(٢) عذاب الهون : الهوان الدائم الشديد . قاله ابن عباس . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٣٢٢) .

(٣) المثوى : الموضع الذى يُقام به . ثوى المكان ، وثوى به : حَلَّ به ، وأقام فيه ، واستقر به . (القاموس القويم ١/ ١١٣) .

فـلا أظلمَ مِمّنْ يُكذِّب بالصـدق ، لأن تكذيب الصـدق ينقل القضـايا إلى نقيضها ، وقد يحدث أنْ تكذِب على النـاس لأنهم لا يعرفون الحقيقة ، ولكن أنْ تكذبَ على الله الذى يعـرف الحقـيقـة سِرَّها وعـلانيتهـا ، فهـذا هو الظلم لنفسك بعيْنه .

والظالـم على أنواع .. ظالـم فى شيء أعلى أى فى الـقـمـة ، وظـالـم فى مطلوب القمة ، والظالم فى القمة هو الذى يجعل لله شريكاً .

ولذلك قال الله تعالى :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ... (١٣)﴾ [لقمان]

وعلاقة الشرك بالظلم أنـك جئتَ بمنْ لم يخلق ومَنْ لم يرزق شريكاً لمن خلق ورزق ، لذلك كان هذا ظلم القمة ، والظلم الآخر هو الظلم فيما شَرَّعْت القمة ، بأنْ أخذتُم حقوق الناس واستبحْتُموها .

فى كِلتَـا الحـالتين لا يقع الـظلم على الله سـبحـانه وتعـالى ، ولكن على نفسك.. لماذا ؟

لأنك آمنتَ بالله أو لـم تـؤمن ، سيظل هو الـله القوى القـادر العـزيز ، لن يُنقص إيمانُك أو عـدم إيمانِك من مُلْكه شيئـاً ، ثم تأتى يوم القيامة فـيُعذِّبك ، فكأنَّ الظلمَ وقع عليك .

وإذا أخذتَ حقوقَ الناس فقد تتمتَّع بها أياماً أو أسابيع أو سنوات ، ثم تموت وتتركها وتأخذ العذاب ، فكأنك ظلمتَ نفسك ولم تأخذ شيئاً .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة]

فَظُلْم الناس يعود على أنفسهم ، لأنه لا أحدَ من خَلْق الله يستطيع أنْ يظلمَ الله سبحانه وتعالى .

وأعلَى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ، ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر ، ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر ، فهل هناك إنسان يقدر على أنْ يأخذَ من الله شيئاً ؟

لا ، فالإنسان لا يستطيع أنْ يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك ، وهذا ظُلم خائب للنفس ، والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسَار ، وذلك هو كُلُّ الخيبة .

لأن الظلم حينما يُحقِّق للظالم نَفْعاً فهو ظلم هيِّن، ولكن الظلم العظيم هو أنْ يشرك إنسانٌ بالله ، ولا يأخذ إلا العقاب الصارم ، فإذا كان المشرك يتأبّى على منهج الله فى الأشياء ، فهل يجرؤ على أنْ يتأبّى على قَدريات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلاً ؟

والحق سبحانه يأمر الإنسانَ بالإيمان ، ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحدانيته وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر ويأمره بالإسلام، ومتعلقات الإسلام وأركانه من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصَوْم رمضان ، وحج البيت مَن استطاع إليه سبيلاً .

والمشرك يتأبّى على الإيمان والتكاليف ، فهل يجرؤ على التأبّى على المرض أو الموت ؟

لا ، لذلك فهو يظلم نفسه ظُلْماً خائباً ، والحقُّ سبحانه لا يهديه ؛ لأن معنى الهداية هو أن يجد الإنسانُ مَنْ يدلُّه على الطريق الموصِّل للغاية ، فَهَداه أى دَلَّه على الطريق الموصِّل للغاية .

ولا يتجنَّى سبحانه على خَلْقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم.

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك يتنزَّل إلى الظلم فى الكبائر، ثم فى الصغائر.

فالحقوق تختلف فى مكانتها ، فهناك حَقٌّ أعلى ، وحَقٌّ أوسط ، وحَقٌّ أَدْنى ، فإذا جئتَ للحق الأَدْنى فى أن تنقلَ الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى ، فهذا قِمَّة الظُّلم .

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ... ⑬﴾ [لقمان]

لأن فى هذا نَقْلَ الألوهيـة من الله سبحـانه إلى غيـره ، ويا ليت غيـره كان صاحبَ دعوة إلى نفســه ، بل إن الظالم تطوَّع من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكًا لله ، وفي هذا تطوُّع بالظلم بغير مُدَّع .

وهَبْ أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فإمّا أن القضية صحيحة ، وإما أنها غَيْرُ ذلك ، فإنِ افترض أحدٌ ـ معاذ الله ـ عدم صِحتها ، فالإله الثانى كان يجب أنْ يعلن عن نفســه ، ولا يترك غيـره يسمع له ويُعلن عنه ، وإلا كـان إلهاً أصمَّ غافلاً .

ولكن أحـداً لم يعلن ألوهيتـه غيـر الله سـبحـانه ؛ لذلك تثبت الألوهيـة الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقـد بيَّن لنا الحق سـبحـانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخـالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دَعْوى بأنه صاحبُ تلك الأعمال .

إذن : فقد صحَّتْ الدعوى فى أنه لا إله إلا الله .

ومـا دُمْنا قد تحـدثنا عن الظلم والظالمـين ، وأن الله حَرَّمـه على نفســه ، وجعله بيننا مُحرَّماً ، فلابُدَّ أن نتحدث عن العَدْل الذى أمر به الحق سبحانه .

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾ [النحل]

لأن مجتمعاً ينفذ هذا هو مجتمع يصل صاحب الحقِّ فيه إلى حَقِّه، ويتنازل صاحب الفَضْل عن حقّه، وتستطرق النعمة إلى رحم كل إنسان، وإن مجتمعاً فيه هذا لمجتمعٌ سعيد، يسود فيه الحب والإيمان والإحسان.

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ(١) شَنَآنُ(٢) قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾

[المائدة]

وحين يكون الواحد منّا قوّاماً لله يكون قد استغلَّ حركة وجوده لخير خَلْق الله، وهذا العمل مطلوبَ منك، ولا يكفى أن تكون حركتك مَحْصُورة فى ذلك، بل يجب أن تمتدَّ أيضاً حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل، وكذلك تُوجّه للعدل مَنْ تُحدِّثه نفسه أنْ ينحرف.

وحين تكون قوَّاماً لله فهذا أمر حَسَن، وعليك أن تحاول إقناعَ غيرك بأن يكون قيامه لله، بأن تكون شاهداً بالقِسْط والعدل.

(١) لا يجرمنكم: لا يحملنكم بُغْض قوم أن تعتدوا. وقيل: لا يدخلنكم فى الجرم. [لسان العرب ـ مادة: جرم].

(٢) الشناءة: البُغْض. شنئ الشيء وشنأه أيضًا: أبغضه.وتشانئوا: تباغضوا. والشانئ: المبغِض. [لسان العرب ـ مادة: شنأ].

وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمادى ظالم فى ظُلْمه ، فالذى يجعل الظالم يشتد ، ويستشرى ظلمه ، ويتفاقم شره هو أنه يجد من يُدلِّسُون على العدالة ، ويسترون ويُخْفون العيوب ، ويخادعون الناس .

لكن لو وُجد الإنسان الذى ينير الطريق أمام العدالة لما وُجد ظلم ، لكن الظالم يحب مَنْ يُدلِّس عليه ، فيقول لنفسه: إن فلانًا ارتكب جريمة مثل جريمتى ونال البراءة.

وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات[(١)] ، ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هى شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كل فرد فى المجتمع إذا هَمَّ بظلم يرتدع قبل أنْ يفعلَ الظلم ، ولكانَ الظالم ينال عقابه ، ويصير مثالاً لارتداع غيره.

والمؤمن مُطَالبٌ أولاً بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومُطَالب ثانيًا أن يشهد بالقِسْط والعدل لإصلاح غيره.

وإياكم أن تُدخِلوا الهوى فى مقاييس العدل. وهَبْ أن المسألة تتعلّق بعدوّكم أو بخُصومكم ، فالعدْل هنا أكثر أهميةً وأكثر وجوبًا.

---

(١) عن أبى بكْرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئًا فجلس، فقال: «ألا وقول الزور» فما زال يُكرِّرها حتى قلنا : ليته سكت» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٦٥٤ ، ٥٩٧٦ ، ٦٢٧٣) .

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. ⑧ ﴾ [المائدة]

أى : لا يحملنكم بُغْض قوم على ألاَّ تعدلوا ، فتعتدوا عليهم ، فمَنْ له حَقٌّ يجب أنْ يأخذه ، وإلاَّ سيكون البُغْضُ لصالح عدوكم ، لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخلَ الهوى والبُغْض فى إقامة الميزان العادل ، فتحكيم البُغْض والعداء والهَوى يكون لصالح الخصوم.

ويضيف الحق سبحانه:

﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. ⑧ ﴾ [المائدة]

والعدالة حين تُطلب مع الخَصْم هى تقريعٌ لذلك الخَصْم ؛ لأنه خالف الإيمان ، ومن المؤكد أن الخَصْم يقول لنفسه : إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أنْ يقولَ الحق ، ولابُدَّ أن عقيدته تجعل منه إنسانًا قويًا ، وأن دينه الذى أمره بذلك هو نِعْم الدين.

إذن: ساعة تحكُم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تُقرِّعه لأنه ليس مؤمنًا ، لكن لو رأى خَصْمك أنك قد جُرتَ ولم تذهب إلى الحق ، فأنت بذلك تُشجِّعه على أن يبقى كافرًا ، لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى.

أما إذا رآك وأنت تقف موقفًا يُرضِى الله مع أنه خَصْم لك ، فهو يستدلّ من ذلك على أن العقيدة التى آمنتَ بها هى الحقّ ، وأنك تقيم الحقَّ حتى فى أعدائك.

فإنْ كرهتَ إنسانًا فلا يصحّ أنْ تظلمه ، والحق سبحانه لم يُحرِّم البُغْض؛ لأنه مسألة عاطفية ، ولكن التحريم ينحصر فى الإقدام على عمل يُخلّ بميزان العدل مع مَنْ تكره ، ويجب أن يؤمنَ الإنسانُ إيمانًا جازمًا بأن مَنْ ظلمه بمعصية ، فلا يجازيه الإنسان إلا بطاعة الله .

إذن : فالله سبحانه وتعالى لم يَنهَ عن الحب أو الكُرْه ، ولكنه نهانا عن أن نظلم مَنْ نكره ، أو نجامل مَنْ نحب على حساب الحق والعدل.

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ صورة حيَّة لهذا ، فقد قتل أبو مريم الحنفى[1] زيدَ بن الخطاب[2] شقيق سيدنا عمر فى معركة اليمامة ، ثم دخل فى الإسلام ، فكان كلما مرَّ أمام سيدنا عمر قال له: اصرف وجهك بعيداً عنى ، فإنى لا أحبك .

فقال له أبو مريم الحنفى: أو عدم حُبِّك لى يمنعنى حَقّاً من حقوقى ؟ قال : لا . فقال الرجل : إنما يبكى على الحبِّ النساء .

إذن : أحبب مَنْ شئْتَ ، وأبغض مَنْ شئْتَ ، ولكن إياك أنْ تظلمَ الناس لمن أحببتَ ، أو تظلم مَنْ أبغضتَ .

---

(١) هو: إياس بن صبيح بن عبد عمرو الحنفى، يُكنى أبا مريم. قال ابن سعد: كان من أصحاب مسيلمة ثم تاب وحسن إسلامه وولى قضاء البصرة فى زمن عمر . وذكر عمر بن شبة أن فتح رامهرمز كان على يديه . (الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة ١/ ١٢٠ ـ ٧/ ١٨٦).

(٢) هو أخو عمر بن الخطاب ، أمه أسماء بنت وهب ، من بنى أسد، وكان أسنَّ من عمر وأسلم قبله وشهد بدراً والمشاهد واستشهد باليمامة، وكانت راية المسلمين معه سنة اثنتى عشرة فى خلافة أبى بكر ، وحزن عليه عمر حزناً شديداً . (الإصابة ٣/ ٢٧) .

ولذلك يقول تعالى :

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ... (١٥٢)﴾ [الأنعام]

إذا ما تعودتَ العدل فى قَوْلك أَلِفْتَه وأَنِسْتَ به ، وأحببتَه حتى فى أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، فإن أقررتَ على شىء فى نفسك فَقُلْه بالعدل والحق .

والشهادة ، قُلْها بالحق . والحكم ، قُلْه بالحق . والوصية ، قُلْها بالحق . والفتوى ، قُلْها بالحق .

إذن : فالحق فى القول أمر دائر فى كثير من التصرُّفات ؛ لأنك إذا قلتَ بالحق أمكنك أنْ تعدل ميزان حركة الحياة ، فميزان حركة الحياة لا يختلُّ إلا إنْ رجح باطل على حقٍّ .

لأنك إذا حكمتَ لواحد بشىء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك فى الحياة يزهد فى الحركة ، لكن إذا ما حافظتَ على حركة كل مُتحرِّك ، وأخذ كل واحد حظَّه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنتْ كل الأمور ، ولم يَعُدْ هناك قوم يعيشون على جَهْد غيرهم وعَرَق سواهم .

إذن: فقولُ العدل هو مَنَاط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرشيدة .

والذى يُؤثر فى العدل هو الهوى ، وحين يُوجَد الهوى فهو يحاول أن يُميلك إلى ناحية ليس فيها الحقّ .

وأُولى النواحى أنْ يكون الأمر مُتعلّقاً بك أو بقرابة لك ، وقد تريد إنْ حكمتَ ـ والعياذ بالله ـ باطلاً ، أنْ تُسعِد ذا قُرْباك ، وأنت بذلك لم تُؤدِّ حقَّ القرابة ؛ لأن حقَّ القرابة كان يقتضى أن تمنع عنه كل شىء محرّم وتحمى عِرْضه ، وتحمى دِينه قبل أن تحمى مصلحته فى النفعية الزائلة .

ولذلك يأمرك الحق سبحانه بأن تقولَ الكلمة بالعَدْل ، ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قُرْبى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت فى الواقع حكمتَ عليه لا له .

ويقول تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾ [النساء]

وما دام المؤمن قد بدأ إيمانه بقمة القِسْط ، وهو الإيمان ، فليجعل القسطَ سائداً فى كل تصرُّفاته ، وإياك أنْ تجعل القِسْط أمراً أو حَدَثاً يقع مرة وينتهى ، بل افعل القِسْط فى كُلِّ أمور حياتك .

ولا يكفى أن يكونَ المؤمن قائماً بالقِسْط فقط ، بل لابُدَّ أن تكون الشهادةُ لله . لماذا ؟

هَبْ أن رجلاً كافراً بالله ـ والعياذ بالله ـ ويقيم العدل بين الناس، لكنه لا يدخل بذلك العَدْل فى حيثية الإيمان ، فالذى يدخل فى حيثية الإيمان يكون قائماً بالقِسْط وفى باله الله .

وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعة ولا لغاية ولا لِهوىً ولا لغرضٍ ، وإنما ليستقيم كَوْنُ اللهِ كما أراد الله ، وإلا لو حكَم أحدٌ بهوىً لَفسَدت الأرض .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ (٧١)﴾

[المؤمنون]

والذى يُفسِد ويُشوِّش على العدل هو الهوى .

والمثل العربى يقول : «آفة الرأى هو الهوى»

وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى، حتى لا تَفْسد قدرتكم على العدل ، وتجنحوا بعيداً عنه .

* * *

نُصرةُ المظلوم

[٢٩] يقول ربُّ العزَّة سُبْحانه في الحديث القُدْسيّ :

« وَعِزَّتِي وجَلالِي لأَنتقمَنَّ من الظَّالمِ في عاجلِه وآجلِه، ولأَنتقمنَّ ممَّنْ رأَى مظْلوماً فقدرَ أنْ ينصرَه فلمْ ينصرْه» (١)

يقول الحق سبحانه عن أول ظلم وقع على الأرض بين ابنين من أبناء آدم :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ(٢) بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [المائدة]

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٠٦٥٢) من حديث ابن عباس ، وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٦٧) وقال : «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه من لم أعرفهم ».

(٢) باء بذنبه وبإثمه: احتمله . وقيل : اعترف به . وقال ثعلب في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ.. (٢٩)﴾[المائدة] معناه: إن عزمت على قتلي كان الإثم بك لا بي. (لسان العرب ـ مادة: بوأ)

فهذا أول تمرُّد على منهج الله وعلى أمره ؛ لذلك قال هابيل: لا تَلُمْنى فأنا لا دَخْلَ لى فى القربان المتقبَّل ، لأن هذا من عند الله ، والله لم يظلمك ، لأن ربنا يتقبَّل من المتقين ، وأنت لَسْتَ بمتقٍ ؛ لأنك لم تَرْضَ بالحكم الأول فى أن تبتعد البطون(١) .

إذن : فأنت عندك إثْمان :

الإثم الأول : هو رَفْضُك وعدم قبولك حُكْم الله ومنهجه ، وهو الذى من أجله لم يقبل الله قُرْبانك .

والإثم الثانى: هو قَتْلى ، وأنا لا دَخْلَ لى فى هذه المسألة ؛ لأن الظالم لابُدَّ أن يأخذ جزاءه .

وجزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سُعارات(٢) الظلم من الظالمين ، لأن الحق سبحانه لو تركها للآخرة لاستشرى الظلم ، ولأصبح الذى لا يؤمن بالآخرة مُحْترِفاً للظلم .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤١): «قال السدى فيما ذكر عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد ومعه جارية ، فكان يزوّج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له ابنان يقال لهما هابيل وقابيل، وكان قابيل صاحب زرع ، وكان هابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما ، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه وقال: هى أختى ولدت معى وهى أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى».

(٢) السُّعْر : شهوة مع جوع. والسُّعْر والسُّعُر : الجنون . وسُعار العطش : التهابه . والسُّعار : حر النار . (لسان العرب ـ مادة : سعر) والمقصود استشراء شهوة الظلم عند الظالمين .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مَثَل ذلك فى «سورة الكهف» ، حينما ذكر لنا قصة ذى القرنين[1] ، الذى آتاه الله من كل شيء سبباً ، فأتبع سبباً .

وبعد ذلك بيَّن لنا مهمة مَنْ أُوتِى الأسبابَ واتبع الأسباب ، وجعل قضيته فى الأرض لعمارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع .

قال تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ[2] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف]

إذن : فقد خيَّره : إمَّا أنْ تعمل هذا ، وإمَّا أنْ تعمل ذاك .

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ... (٨٧)﴾ [الكهف]

ذلك هو القانون الذى يجب أن يسير فى المجتمع ، حتى لا أترك لمن لا يؤمن بإله ، ولا يؤمن بآخرة أن يستشرى فى الظلم ، فليأخذ عقابه فى الدنيا.

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٠٠) أنه كان فى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأنه طاف بالبيت معه أول ما بناه ، وقرب إلى الله قرباناً . وقال على بن أبى طالب عن ذى القرنين : كان عبداً ناصحاً لله فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين.

(٢) أي: رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه . (ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/ ١٠٢) وهناك قراءتان (حمئة ، حامية). قال ابن جرير الطبرى : «الصواب أنهما قراءتان مشهورتان ، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب» قال ابن كثير : «ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، وحمئة فى ماء وطين أسود » .

يقول تعالى :

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ(١) ذَٰلِكَ ... ﴿٤٧﴾﴾ [الطور]

أى : قبل الآخرة لهم عذاب ؛ ولذلك حين يرى الناس مصرع الظالم ، أو ترى الخيبة التى حدثتْ له فَهُمْ يأخذون من ذلك العظَة ، وجيلنا نحن عاصر ظالمين كثيرين نكَّل بعضهم ببعض ، ولو مُكِّن الظالمون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض .

فهؤلاء الظالمون لهم عذابٌ أقربُ من عذاب الآخرة ، لأنه لو أُجِّلتْ المسألة كلُّها للآخرة لاستشرى بغْى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة .

أما مَنْ يؤمن بالآخرة ، فهو مَنْ يحيا بأدب الإيمان فى الكون ، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج ، عكس مَنْ يُعربِد فى الكون ، لذلك لابُدَّ أن يأتىَ العقاب لمن يُعربِّد فى الكون أثناء الحياة الدنيا .

وأراد الحق سبحانه أن يجرى عذابهم أمامنا لتتضح المسألة .

ولقد رفض «ذو القرنين» أن يأخذ مقابلاً لبناء الرَّدْم(٢) ؛ لأن مهمة الأقوياء فى الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية أن يمنعوا الظلم بلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة ؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما يدفعه للقوى .

---

(١) دون هنا بمعنى (قبل) ، كقولك : دون النهر قتال . ودون قتل الأسد أهوال . أى : قبل أن تصل إلى ذلك . (اللسان ـ مادة : دون).

(٢) الردم : السد . والردم : ما يسقط من الجدار إذا انهدم . وكل ما لُفِق بعضه ببعض فقد رُدِم . (اللسان ـ مادة : ردم) قال ابن عباس : أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير (ما مكنى فيه ربى خير) أى: إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين خير لى من الذى تجمعونه .(تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤)

ولو أن كُلَّ قـوى أراد ثَمنًا لِنُصْـرة الضعـيف لاختـلَّ ميـزان الكون وطغَى الناس ، ولكنّ الأقـوياء فى عالمنا يريدون أنْ يظلمـوا بقوتهم ، لذلك يـختلّ ميزان الكون الذى نعيش فيه .

ولننظر إلى تفـويض الله لـ «ذى القرنين» ، وكـيف أحسن «ذو القـرنين» الحكْم بين الناس ، وأقام العَدْل فيهم ، وكيف ترصَّد الظالمين .

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا[1] (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ (٨٨)﴾ [الكهف]

هكذا أقـام «ذو القـرنين» العَـدْل ، بتـعذيـب الظالم ، وتكريم المـؤمن صاحب العمل الصالح .

فأوّل مـا يجب أنْ يهتم به كل مُـمكَّن فى الأرض ، بعد توليـد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده .

وفى هذا إصلاح لحركة الحيـاة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيثون[2] فساداً وظُلْمـاً فى الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة ، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة .

---

(١) نَكُر الشيء فهو نُكْر : اشتد وصَعُبَ ، أو قَبُح واستوحشت منه النفوس .

(٢) العَيْث : الإسراع فى الفساد . عاث الذئب فى الغنم : أفسد . عاث فى ماله : أسرع إنفاقه . (اللسان ـ مادة : عيث) .

ولو تركناهم ولم نضرب علـى أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً ، والفـسادُ فى المجتمع لا يصيب المفسدَ فقط ، ولكن يكتوى به المجتمع كله .

إذن : فـلا بُدَّ أن نُعجِّل لهم بالـعقـوبة فى الدنيا ، لِنـحمِىَ المـجتـمع من الفـسـاد ، ثم يُعـذِّبهم الله فى الآخـرة ، وهم لم يؤمنوا بـه سبـحـانه ، ولم يحسبوا حسابَ لقائه يوم القيامة .

وإنْ لم يُحصَّن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولىّ ومُسلَّط ، سنجـد كـل إنسان وهو يضِنُّ بجـهده فى الـحيـاة يكتفى بأنْ يصنعَ على قَـدْر حاجته ، بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شـيئاً ، فلا يتحرك فى الحياة إلا حركة محدودة ، ولا يعمل إلا بقدْر ما يكفيه فقط .

فـإذا ما حـدث ذلك فلن يجـد الضـعـاف الذين لا يقدرون علـى الحركـة الإنتاجية أىَّ فائض ليعيشوا به ، وهذا يُحدِث الفساد والخلَل فى حركة الحياة.

والحق سبحانه يأخذ الظالمين درجةً درجةً ، فهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويعطيهم نعمه ، ثم يرهقهم بمـا وصلوا إليه ، فإنه سبحانه يُملى للظالم ويُعليه ، ثم يُلقيه من علٍ .

يقول تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[١] (٤٤)﴾

[الأنعام]

(١) أبلس : حـزن ويئس وتحيَّـر وسكت غمّـاً وهَمّاً ، أو سكت لانقطاع حـجتـه ، وكلها مـعان متقـاربة. والإبلاس: الانكسـار والحزن . والإبـلاس: القنوط وقطع الرجـاء من رحمـة الله تعالى. (لسان العرب ـ مادة : بلس) .

أي: لم نُعجِّل بعقاب الظالمين ، بل تركناهم فتمادوا فى المعصية ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد ، فسبحانه يمدُّ ويُملى لهم ليأخذوا وليبنُوا وليترفوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شىء .

فالحق سبحانه يرفع الظالم إلى درجات عالية ، ثم يخسف به الأرض .

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق سبحانه ينتقم منهم انتقاماً يناسب جُرْمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية .

لذلك يُوسِّع عليهم فى كل شىء ، حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضَّربة قوية قاصمة ، ويصيبهم اليأس والحسرة .

وربنا سبحانه يعطى الظالمين الكثير ، ويمدُّهم فى طغيانهم ، ثم يأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر ، وقد دَلَّتْ وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبَّار فى الأرض والحق يُملى له فى العُلو ويمدُّ له فى هذه الأسباب ، ثم يأخذه أَخْذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

يقول تعالى :

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا[1] فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود]

(١) الترف : التنعُّم . والمترَفُ : المتنعِّم المتوسِّع فى ملاذِّ الدنيا وشهواتها . (لسان العرب ـ مادة: ترف) . أى: أن الذين ظلموا جروا وراء شهواتهم وتمادوا فى الترف فأبطرهم وأطغاهم .

فالترف الذى عاشوا فيه جاء من الظلم ، وأخْذ حقوق الناس ، وامتصاص دماء الكادحين ، حتى أطغتْهم النعمة ، وأنستهم المنعم سبحانه ، وقد مدَّ الله لهم فى النعمة .

ويقول تعالى :

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي[١] مَتِينٌ (١٨٣)﴾

[الأعراف]

والإملاء هو الإمهال ، وهو التأخير ، أى : أنه لا يأخذهم مرة واحدة ، فساعة يقوم الظالم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع ، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات .

ونسمع دائماً مَنْ يقول : لو لم يكُنْ هناك إيمان لأكل الناس بعضهم بعضاً ، فالإيمان يعطى الأُسْوة واليقين .

والإملاء للظالم ليس إهمالاً له من الموْلَى تعالى ، بل هو إمْهال فقط ، ثم يأخذه الله أَخْذ عزيز مُقْتدر .

والحق سبحانه يُوضِّح : إذا كنتُ سأستدرج وسأُملِى ، فاعلم أن كيدى متين .

---

(١) الكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكائدين ومعاقبتهم على ما دبَّروه من كيد .

والكَيْـد هو المكْر ، والمكر هو أَخْـذهم من حَـيْثُ لا يشعـرون ، وهى عملية خفـيّة تسوء الممكورَ به ، وهو تدبير خـفيّ حتى لا يملك الممكور به مَلكَات الدَّفْع .

وإذا كان البشر يمكرون ويُدبِّرون تدبيراً يَخْفى على بعضهم ، فماذا حين يُدبِّر الله للظالمين مكيدة أو مَكْراً ؟

أيستطيع واحد أنْ يكشفَ من ذلك شيئاً ؟

طبعًا ، لن يستطيع أحدٌ ذلك .

وهكذا أراد الله سـبحانه الإمـهال والإمـلاء ليكون لهما مـعنى واضح فى الحياة ، والإملاء للظالم لتزداد مظالمه زيادةً تجعل الأمة التى يعيش فيها تكره ظُلْمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحدٌ .

ولذلك نجد الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُعذِّب أحداً يقول :

﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ[1] مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور]

(١) قال ابن عبـاس : الطائفة الرجل فما فوقه . وقـد ذكر ابن كثير فى تفسـيره (٣/ ٢٦٢) أقوالاً كثيرة فى تحديد عدد من يشهدون إقامـة الحد . وقد قال قتادة : أى نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً .

وذلك لِيتمَّ التعذيب أمام المجتمع الذى شَقِى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعتدى على عِرْضه ويرى عذاب المعتدى فهو يُشْفى .

إن عَدْلَ الرحمن هو الذى فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها ، وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا .

إن الذى يجترئ على حقوق الناس يجترئ أيضاً على حقوق الله ؛ ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس .

وفى إنزال العقاب بالمعتدى خضوعٌ لمنهج الله ، وفى رؤية هذا العقاب من قِبَل الآخرين هو نَشْرٌ لفكرة أن المعتدى ينال عقاباً ، ولذلك شرَع الحق سبحانه العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن فى النفس البشرية .

والحق سبحانه مُنزَّه عن أنْ يُهلكهم بمجاوزة حَدٍّ ، لكن له أنْ يُهلكهم بعدْلٍ ؛ لأن العدلَ ميزانٌ ، فإن كان الوزْنُ ناقصاً كان الخسران ، ومن العدل العقاب ، وإنْ كان الوزن مستوفياً كان الثواب .

وفى مجالنا البشرى ، لحظة أنْ نأخذَ الظالم بالعقوبة فنحن نتعبه فعلاً ، لكننا نُريح كُلَّ المظلومين ، وهذه هى العدالة فعلاً .

ومن خطأ التقنينات الوضعية البشرية هو ذلك التراخى فى إنفاذ الحقوق فى التقاضى ، فقد تحدثُ الجريمة اليوم ، ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم

إلا بعد عَشْر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ، وهذا يُضعِف الإحساس ببشاعة الجريمة .

ولذلك حرصَ المشرِّع الإسلامى على ألاَّ تطولَ المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة ، فعقاب المجرم فى حُمُوَّة وجود الأثر النفسى عند المجتمع ، يجعل المجتمع راضياً بعقاب المجرم ، ويُذكِّر الجميع ببشاعة ما ارتكب ، ويُوازِن بين الجريمة وعقوبتها .

لذلك ترى أن الناسَ إذا رَأَوا الظالم ثم لم يضربوا على يده ، فإن الله يَعُمَّهم بغضب من عنده ؛ لأن الظالم يتمادَى فى ظُلْمه وطُغْيانه ويُعربد فى الآخرين ، فيستشرى الظلم فى المجتمع ويحقّ على الجميع عقاب الله(١) .

ولذلك نجد أبا بكر رضي الله عنه يبين لنا ذلك، فيقول :

أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .. (١٠٥)﴾

[المائدة]

(١) عن أبى بكر رضي الله عنه قال: إنَّا سمعنا النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » أخرجه أبو داود فى سننه (٤٣٢٨) ، والترمذى فى سننه (٢١٦٨، ٣٠٥٧) ، وأحمد فى مسنده (١/ ٧).

وإنكم تضعونها على غَيْر موضعها ، وإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه ، يوشك الله ـ عز وجل ـ أنْ يعمَّهم بعقابه»[١] .

ويُبيِّن لنا رسول الله ﷺ هذا بمثال واضح يتفق عليه الكل ، فيقول ﷺ :

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا[٢] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم ، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنَا خُرْقاً فى نصيبنا ولم نُؤْذِ مَنْ فوقنا ، فإنْ يتركوهم وما أرادوا هلكُوا جميعاً ، وإنْ أخذُوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعاً»[٣] .

فالرسول ﷺ يضرب لنا المثَلَ بقوم ركبوا سفينة ، وأجْرَوْا فيما بينهم القرعة لينقسموا إلي جماعتين ، جماعة تجلس فى النصف الأعلى من السفينة أىْ على سطحها ، وجماعة تسكُن فى بطن السفينة ، حَسْب ما تأتى به قسمة القُرْعة ، وهى ما يُسمَّى بالاستهام .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢، ٥، ٩)، وابن ماجه فى سننه (٤٠٠٥) من حديث أبى بكر رضي الله عنه .

(٢) استهموا : اقترعوا . أى : أجروا بينهم قرعة .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٩)، والبخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

وهذا يدلُّنا على أنهم أُنَاسٌ طيِّبون ، ولا تُوجد فيهم جماعة قوية تفرض شيئاً على جماعة ضعيفة ، وكان الذين يسكنون أسفل السفينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى لينزلوا الأوانى من فوق سطح السفينة إلى النهر .

ولو تُرِك الذين فى أسفل السفينة لتنفيذ رغبتهم فى خَرْق السفينة ليأخذوا الماء فى النهر لَغَرقتْ السفينةُ ، لكن إنْ ضرب الذين يعيشون فوق السفينة على يَدِ مَنْ يريدون خَرْقها لَنَجْوا جميعاً .

إن ما يجعل الناس تتهاون فى التعاون على البِرِّ ، ويجترئون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رَادِعاً ، ولو وجدوا الرَّدْع من المجتمع لَحَمى المجتمعُ أفراده من الإثم .

وإنْ صار للمجتمع وَعْىٌ إيمانىٌّ لَقاطعَ المخالفين وأشعرهم بأنهم منبوذون ، وساعة يرى أمثالُ هؤلاء الناس أنهم منبوذون من المجتمع الإيمانى فهُمْ يرجعون إلى المنهج الحق .

فما يُغرى الناس على الجرائم الكبيرة إلا تهاونُ المجتمع فى الجرائم الصغيرة ، ولذلك يلفتنا الحقُّ سبحانه أنه لن يترك الأمر كما تركه بعضٌ من خَلْقه ؛ لأن الخَلْق قد يُجامِلون ، وقد لا يقفون أمام ما يفعله بعضهم من آثام ، لكن الله شديد العقابِ .

سيأتي عقاب الله في وقت ليس للفرد فيه جاهٌ من مال أو حَسَب أو نَسَب يحميه من الله ، فإنْ أطمعك ضَعْف المجتمع في أن تظلم وأن تتعاونَ على الإثم ولا تنصر المظلوم ، فعليك أنْ تخافَ الله ، لأن عقابه شديد .

وكيف يأتي عقابُ الله إلى المذنب ؟

لا نعرف ، لأننا لسنا آلهة ، ونجد العقابَ يتسلَّل إلى المذنب في نفسه كمرض مؤلم لا يصرف الظالم والآثم فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج مَنْ يحب .

وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة ، بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أنْ يعرفها ، وهذه هي شدة العقاب .

وهكذا يكون فَهْمُنا لِقَوْل الحقِّ تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾ [الأنفال]

ولسائل أنْ يسألَ ويقول : إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم ، والظالم هو الذي يستحق العقاب على ما وقع منه من ظُلْم ، ولكن ما ذَنْب المظلوم ؟

والجواب : أن المظلوم قد كان في مُكْنته أنْ يردَّ الظلم ، لكنه سكت عن ذلك ، فاستحق أنْ يشمله العقاب .

وإنْ لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الظلم والظالمين ، أنزل الله بها العقاب ، وعقاب الحقِّ تبارك وتعالى أشدُّ من عقاب الخلق .

يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال]

أى: أن الله أقْوى من كل ما تصنعون فى كَوْنه ، وعقابُه تعالى شديد وأليم ، بسبب ذنوبهم ، وما دام الحق ـ تبارك وتعالى ـ قد توعَّدهم بعقاب شديد ، فهذا دليلٌ على شِدَّة ظُلْمهم .

ويقول تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

[هود]

والأَخْذ هنا عقابٌ على العمل ، بدليل أنه أنْجى شُعَيْباً عليه السلام ، وأخذ قومه بسبب ظُلْمهم ، فالذات الإنسانية بريئة ، ولكن الفعل هو الذى يستحقّ العقاب .

فَأَخْذُ الله لهم كان بسبب ما ارتكبوه من ظُلْم وإفساد فى الأرض ، والإنسانُ حين يجد سُوءاً يُحيط به ، وعذاباً أليماً يأتيه فهو يُحاول أنْ يفرَّ منه .

ولكن الحق سبحانه يقول :

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر]

أي : أن قدرة الله تعالى تُمسِك الظالم مسْكة مُحْكمة ، فلا يستطيع فِراراً أو هروباً .

وكلمة «مُقْتدِر» تناسب شدة الأَخْذ .

وكلمة «عـزيز» تعنى أنه آمن من أنه لن يأتى أحدٌ يغلبه ، فالله حين يأخذ أحداً يأخذه أَخْذ عزيز لا يُغْلَب .

وهذا الأَخْذ من الله ليس بَطْشاً أو جبروتاً ، ولكنه أخذهم بذنوبهم ، لأنه سبحانه عادلٌ ومُنَزَّهٌ عن الظلم .

ولذلك يقول تعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ونعلم أن العقاب لا يعُمُّ الناس إلا بِقَدْر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكن لِكُلٍّ جزاؤه على قَدْر ذنبه .

وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ؛ لأن العقاب من الله إنما يحدث بقدرات الله .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥)﴾ [البقرة]

والأَخْذ دائماً يتناسب مع قوة الآخذ ، فلو جذبكَ طفل فلن يُؤثِّر فيك ، لكن لو جذبكَ شابٌ قويٌ سيُوقِعك على الأرض ، فما بالُكَ بأَخْذ الله القوى العزيز ؟

إنه أَخْذ عزيزٍ مُقْتدِر .

ويقول الحق سبحانه :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ[1] وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾ [الحج]

فالمؤمنون أُخرِجوا من ديارهم بغير ذنب أو جريمة ارتكبوها ، وكان ذنبهم هو قولهم «ربنا الله» ، فكأن هذا ذنبٌ يستحقون عليه الإخراج من الدِّيارِ والتشْريد .

وهذه ليستْ أولَ سابقة فى التاريخ يتعرَّض لها أتباعُ الحق ، بل سبقهم أقوام كثيرون مثل أصحاب الأخدود[2] الذين قال القرآن عنهم :

(١) الصوامع : المعابد الصغار للرهبان . قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

البيع : هى أوسع من الصوامع وأكثر عابدين فيها وهى للنصارى أيضاً .

الصلوات : كنائس اليهود . وفى قول أنها كنائس النصارى . وفى قول آخر أنها معابد للصابئين . (راجع : تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٦) .

(٢) الأخدود : الشق المستطيل فى الأرض . وأصحاب الأخدود : هم قوم شقوا أخدوداً فى الأرض وأضرموا فيه النار وألقوا المؤمنين فيه وأحرقوهم ؛ لأنهم لم يقبلوا الرجوع عن إيمانهم بالله تعالى .

﴿وَمَا نَقَمُوا[1] مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج]

ومثل آل لوط الذين أخرجهم قومهم من قريتهم لأنهم كانوا مؤمنين طاهرين، وهم أنجاس مناكيد[2] كافرون معاندون .

قال تعالى :

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل]

فهم نَقَموا من شيء كان يجب أنْ يمدحُوه ، لأن الإيمانَ يُسوِّى حركة المجتمع ، فلا يجعل أحداً يسرق من أحد ، أو يعتدى على أحد ، أو يظلم أحداً ، أو يعتدى على ماله أو عِرْضه ، أو حتى يذكُره بسُوء .

فهذا شيءٌ كان يجب أنْ يُحِبّوه ويُشجِّعوه ، ولكنهم فَسدتْ طباعهم ، فجعلوا المحبوب مكروهاً ، وانصرفوا عمَّا كان يجب أنْ يُقبلوا عليه .

وذلك لأنهم كانوا ممَّنْ لا يؤمنون بيوم القيامة ، وأن هناك بَعْثاً وحساباً وثواباً وعقاباً ؛ لذلك تجدهم يُعربِدُون فى الكون ويُفسِدون فيه .

والوَيْل للناس مِمَّنْ لا يؤمن بيوم القيامة ، لأنه سيستشرى فساده ويُسرف على نفسه فى المعاصى والمظالم ، فالذى لا يؤمن بالآخرة لن يأتىَ منه خَيْر ، وسيظلّ يُفسِد فى الأرض ، ويُعربِد فى المجتمع .

(١) انتقم الشيء ونقم الشيء : أنكره . والنَّقمة : الإنكار . (لسان العرب ـ مادة : نقم) .

(٢) النَّكَد : الشؤم واللؤم . وكل شيء جَرَّ على صاحبه شراً فهو نكَد . والنُّكْد والنَّكْد: قلة العطاء. (لسان العرب ـ مادة : نكد) .

فجعل الله لهم عقاباً فى الدنيا قبل الآخرة حتى يحمى الله المجتمعَ من شُرورهم ، فالذى لا يؤمن ولا يخشى عذابَ الله فى الآخرة يخاف مِمَّا قد يناله من عقاب الدنيا .

ولذلك يقولون : لا يموتُ ظالم فى الدنيا حتى ينتقمَ الله منه ، ومن تمام انتقام الله من الظالم أنْ يرى هذا الانتقام مَنْ ظلمهم هذا الظالم حتى يَشْفِى نفسه منه .

ولذلك لما قيل : إن بالشام ظالماً مات ولم ينتقم الله منه ، قال مَنْ سمع هذا الكلام قال : أنا لا أكذبها ، ولكن غير معقول أنْ يموتَ ظَلُوم قبل أن ينتقم الله منه ، فلابُدَّ أنه انتقم منه ، ولكن الناس لم يعرفوا هذا الانتقام .

وهذا يدلُّنا على أن وراء هذه الدار داراً ، يُعاقَبُ فيها المسىء بإساءته ، وإلاَّ فلا يمكن أنْ يترك اللهُ الظالمَ دون عقابٍ .

وقد مدح اللّه تعالى المخبتين ، وقال :

﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾ [الحج]

والمخبت هو المتواضع المنكسر الخاشع لكُلِّ أمر من أوامر اللّه ، لأن الذى لا يكون مُخْبِتًا يكون مُتمرِّدًا مُتفرعِنًا كأنه لم يشهد خالقه .

فالإنسان يتمرَّد ويتعالى حينما يجد نفسه أكبر من الذين حوله ، فلو أنه استحضر جلال ربِّه لَخشع وتواضع ، ولكنه غافلٌ عن العظمة الإلهية ، فلا يرى إلا نفسه .

ولذلك يقولون : الإخباتُ نوعان :

ـ إخباتٌ للّه من خشوع وخضوع وطاعة لأوامر اللّه .

ـ وإخبات لِخَلْق اللّه ، بحيث إذا ظلمه أحدٌ لا ينتقم منه ، لأنه يعلم أنه إذا ظُلِم من مخلوق تعصَّب له الخالق .

انظر إلى أبنائك ، إذا ظلم أحدهم الآخر ، قلبُك سيكون مع المظلوم ، فتُقرِّبه منك وتُراضيه ، وتأخذ له حَقَّه وتعطيه ما يطلبه وتسترضيه ، حتى أن أخاه يغارُ منه ويتمنَّى أنْ يكونَ هو الذى حدثَ له ذلك حتى يُقرِّبه أبوه ويعطف عليه .

كذلك الخَلْق كلهم عيالُ اللّه ، وأحبُّهم إليه أرحمهم بعباده .

فالمخبِتُ حين يظلمه أحد يُفوِّض أمره إلى اللّه وهو مُطَّلِع على كل شيء ، كما أن العبد إذا رَدَّ على الظلم سيردُّ بقوته الضعيفة ، لكن لو تركها لقوة اللّه سيكون الردُّ مُنَاسِبًا لقوته سبحانه .

وأحيانا يقع الظلم على إنسان ، ويكون هو قد ظلم غيره من قبل .

ورب العزة سبحانه يقولُ فى الحديث القدسى :

« يابْنَ آدم دعوتَ على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإنْ شئتَ أجبْنَاك وأجبْنَا عليك ، وإنْ شئت أخَّرْتكُما إلى الآخرة فيسعُكُما عَفوى » (١) .

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٣/ ١٨٣) من قول يزيد بن ميسرة أنه قال: إن ظللت تدعو على من ظلمك، فإن الله تعالى يقول: إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

فالمخبت لا يصدر منه ظُلْم لأحد ، وإن ظلمه أحدٌ يتركه للّه ، لأنه يعلم أن اللّه سيكون معه .

ولذلك قُلْنا سابقًا : لو علم الظالم مَا أعدَّه اللّه للمظلوم من الكرامة لَضَن عليه بالظُّلْم .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ**[1] **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** (١٩٩) ﴾ [الأعراف]

اعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هيِّنًا ليِّنًا مع إخوانه من المؤمنين ، فإنْ عَزَّ عليه أخوه المؤمن فَلْيَهن له ، فإنْ تعالى أو تعالَم أخٌ مسلمٌ عليك ، فلاَ تَتعالَ عليه أو تتعالم حتى لا تقوم معركةٌ بينكما ، بل تواضع أنت ، ليزيدك اللّه رِفْعة وعِزَّة .

وكأن اللّه سبحانه وتعالى يؤكد لك : إنك حين تعطى العفو تأخذ الخير من خلاله ، فالظالم بظلمه يجعل اللّه فى جانب المظلوم ، ولذلك يحتاج الظالم إلى أنْ نُحسن إليه حيثُ كان سببًا فى رعاية اللّه لنا ، فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصرى[2] عندما قيل له:

---

(١) العرف : المعروف الذى تعارف الناس عليه وعرفوا أنه حسن .

(٢) هو: الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد ، تابعى كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة فى زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء والشجعان النساك ، ولد بالمدينة ٢١ هـ، وشب فى كنف على بن أبى طالب ﷺ، سكن البصرة ، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، توفى بالبصرة عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً .

إنَّ فلانا اغتابك بالأمس .

ونادى سيدنا حسن البصرى الخادم وقال له : جاءنا طبق من باكورة الرطب . اذهب به إلى فلان ـ وحدَّد للخادم اسم مَنْ اغتابه ـ وتعجَّب الخادم : كيف تبعث بالرطب إليه ، وهو قد اغتابك ؟

فقال: أفلا أُحسِن إلى مَنْ جعل الله بجانبى . قُلْ له : يقول لك سيدى بَلَغَهُ أنك قد اغتبْته ، فأهديْتَ إليه حسناتك ، وهو أهداكَ رُطَبه (١) .

وهذه درجة راقية من العمليات والانفعالات الشعورية ، فالعمليات الشعورية التى تنتابُ الإنسان فى التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد فى النفس تدفع إلى النزوع .

والعملية النزوعية هى رَدُّ الفعل لما تُدرِكه ، فإنْ آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك ، فأنت تبذل جهدًا لتكظم الغيظ ، أى : أن تحبس الغيظ على شدة ، فالغيظ يكون موجودًا ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط .

وعلى المغتاظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقى الغيظ فى القلب .

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٣/ ١٥٤) أن رجلاً قال للحسن: إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ،فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

هذه مرحلة أولى ، تتبعها مرحلة ثانية ، هى :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ.. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

فإذا كان المطلوب فى المرحلة الأولى منْع العمل النُّزوعى ، فالأرْقى من ذلك أنْ تعفو ، والعفو هو أن تُخرِجَ المسألة التى تغيظك من قلبك ، وإنْ كنتَ تطلب مرحلة أَرْقى من كَظْم الغيظ والعفو فأحسن إليه ، لأن مَنْ يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانيًا.

إنه يحتاج منَّا إلى كَظْم الغيظ ، أو العفو كدرجة أَرْقى ، أو الإحسان إليه كمرحلة أكثر عُلُواً فى الارتقاء.

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى يبيح أن تردَّ الاعتداء بالمثل ، ثم يُفسِح المجال لكظْم الغيظ فلا نعتدى ، ولكن يظل السبب فى القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى العفو ، وأن نُخرجَ المسألة من قلوبنا ، ثم يرتقى ارتقاءً آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ومَنْ فينا لا يرغب فى حُبِّ الله له؟

وقد يتساءل إنسان : كيف تطلب منِّى أن أُحسن إلى مَنْ أساء إلىّ ؟

والرد: أنت وهو لَسْتما بمعزل عن القيوم سبحانه ، فهو قيوم ولا تأخذه سِنَة ولا نوم ، وكل شىء مرئى له سبحانه ، وكلاكما صنعة الله ، وعندما يرى

الله واحداً من صنعته يعتدى عليك أو ليسىء إليك ، فسبحانه يكون معك ويُجيرك ، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدى عليه.

إذن : فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه فى جانبك ، وتكون تلك الإساءة فى جوهرها هدية لك.

وعندما نتأمل المسألة نجد أن الذى عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم وثأر لنفسه ؛ لأنه إن انْتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، أما حين يعفو فإنه يجعل المسألة لله ، وقدرته سبحانه غير محدودة إنْ أراد أنْ يردَّ عليه.

وقد يردّ الحق سبحانه بأن يُرضى المعتَدى عليه بعطاء غير محدود.

هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافى المحسن، وهو السميع العليم بكل شىء .

* * *

لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب

٣٠ يقول رَبُّ العِزّة سبحانه فى الحديث القُدْسى :

« إنَّا أَنْزَلْنَا المالَ لإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَـاءِ الزَّكَـاةِ، وَلَوْ كـانَ لابْنِ آدَم وَادٍ لأَحَبَّ أنْ يكونَ إليـه ثَانٍ، ولَوْ كانَ لَهُ وَادِيَانِ لأَحبَّ أنْ يكُونَ إليهما ثَالِثٌ، ولاَ يملأُ جَـوْفَ ابْنِ آدَم إلاَّ التُّـرابُ، ثُمَّ يَتُوب اللهُ علَى مَنْ تَابَ» [(١)]

ما هو المال؟

إن المال هو كـل ما يتمـول ، إلا أننا نصرفـه إلى شىء يمكن أن يأتى بكل مُتمول ، وأسميناه بالنقد ، وأصـبحتْ له الغلبة ، لأننا نشترى بالنقد كل شىء ، لكن المعنى الأصلى للمال هو كل ما يتمول.

(١) أخرجـه أحمـد فى مسنده (٥/ ٢١٨) وأورده الهـيثمى فى مجمع الـزوائد (٧/ ١٤٠) وعزاه لأحمد والطبـرانى . وقال الهيثمى: رجال أحـمد رجال الصحيح. ونسبـه العراقى فى تخريج الإحياء (٣/ ٢٣٢) لأحمد والبيهقى فى شعب الإيمان وصحح سنده .

وكيف يجيء المال لك ، أو لِى ، أو لأى إنسان؟

أخرجَ أحدٌ منّا من بطن أمه وهو يملك شيئًا؟

لا .. إن مَا يملكه الإنسان يأتى إما من متحرك فى الحياة قبلك ، إنْ كان والدك أو جدّك ، وإما من حركتك أنت.

والمتمول هو الذى يتحرك فى الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه ، وإنْ اتسعت أكثر فستكون لأحفاده.

والحق سبحانه يُفرِّق بين مال يكتسبه الإنسان بجهده وكَدِّه وتَعبِه ، ومال آخر يرثه الإنسان.

يقول تعالى :

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ (١) وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا (٢) وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة]

---

(١) العشيرة : جماعة الرجل الذين يعتز بهم ، قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء] أى : قومك. [القاموس القويم ٢ / ٢٢].

(٢) كسدت السلعة كساداً : بارت ولم ترُج لقلة الرغبة فيها. قال تعالى : ﴿تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا .. (٢٤)﴾ [التوبة]

فاقتراف المال هو أَخْذها بجهد ومشقة وتعب، وهو غير المال الموروث الذى لم يتعب فيه صاحبه ، وإنما ورثه عن غيره ، وفى هذه الحالة يكون أمره هَيِّناً على صاحبه.

أما المال الذى كسبه الإنسان بعرق جبينه وكَدِّه ، فصاحبه أكثر حِرْصاً عليه من المال الموروث.

والحق سبحانه يقول :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف]

فهذه الأشياء زينةُ الحياة الدنيا.

ومعنى الزينة: الحُسْن غير الذاتى ، فهناك حُسْن ذاتىّ فى الجوهر ، مثل المرأة الجميلة بطبيعتها بدون مساحيق أو أصباغ أو حُلىّ ، لأن حُسْنها ذاتىّ.

ولذلك تُسمَّى المرأة الجميلة غانية ، لأنها استغنتْ بجمالها الذاتى فى جوهرها عن أنْ تتزينَ بأىّ شىء .

يقول تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ[1] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾ [آل عمران]

(١) الخيل المسومة المرسلة وعليها ركبانها. وهى أيضًا التى عليها السُّومة ، وهى العلامة. [لسان العرب ـ مادة : سوم].

فهو سبحانه يقول للناس : خذوا الحياة على قَدْرها.

وزُيِّن يعنى حسن. فمن الذى حَسَّنها؟ لقد حسَّنها الله عز وجل ، فكيف تنسى الذى حسَّنها لك ، وجعلها جميلة وجعلها تحت تصرُّفك؟

كان يجب أنْ تأخذها وسيلةً للإيمان بـمن رزقك إياها، وكلما ترى شيئًا جميلاً فى الوجود تقول «سبحان الله » وتزداد إيمانًا بالله ، أما أن تأخذ المسألة وتعزلها عمَّنْ خلَقها ، فذلك هو المقياس النازل.

أو : أن الله سـبحـانه وتعـالى هو الذى زيَّنها بأنْ جـعل فى الناس غـرائز تميل إلى مـا تعطيه فى هذه الحياة الدنيـا ، ونقول : هل أعطى سبحـانه الغرائز ولم يُعْطِ منهجًا لتعلية هذه الغرائز؟

لا ، لقد أعطى الغـرائز ، وأعطى المنهج لتعليـة الغرائز ، فـلا تأخذ هذه وتترك تلك.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾ [الكهف]

وعندما نتأمل الآية فـى مجموعها نـجد أن مفاتيح كل شخـصية تريد أنْ تنحرفَ عن منهـج الله تجذب الإنسانَ لينحـرفَ عن مُرادِ الله فى منهـجه ، إنه سبحانه يطلب من عبده المؤمن أنْ يبنى حـركة حياته على مراد الله ، فما الذى يجعل المؤمن يترك مراد الله من حكم لينصرف إلى حُكْم يناقضه؟

لا شكَّ أنه الهوى ، والهوى هو الذى يُميل ويُزيغ القلوب ، ولكل هوى مفتاحه ، ولكل شخصية من المكلفين بمنهج الله مفتاح لهواه ، فواحد مفتاحه النساء ، وواحد مفتاحه البنون ، يحب أن يرعاهم رعاية تفوق دَخْله من عمل أو صناعة مثلاً ، فقد يسرق أو يرتشى ليسعد هؤلاء.

وأناس مفاتيحهم الشخصية فى المال ، أو فى زينة الخيل ، والعُدَّة والعتاد ، فلكل شخصية مفتاح هوى.

والذين يدخلون على الناس لِيُزيِّنوا لهم غير منهج الله يأتون لهم بالمفتاح الذى يفتح شخصياتهم ، فربما كان هناك إنسان لا تُغريه نظرة المرأة أو ملايين الذهب، إنما يتملكه حُبُّه لأولاده ، وهو الهوى الغَلاَّب.

وهناك مَنْ يمتلكه حُبُّ المال ، حتى إنه إذا كان يملك منه قنطاراً فإنه يطمع فى الزيادة ، مثلما يطمع مَنْ يملك ألف جنيه فى أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه.

لذلك قال سبحانه :

﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. (١٤) ﴾ [آل عمران]

فالقناطير المقنطرة تعنى الرغبةَ فى المبالغة فى الغِنَى.

ورسول الله ﷺ يقول :

«لو أن ابن آدم أُعطِى وادياً مـلآن من ذهب أحبَّ إليه ثانـيًا، ولو أعطى ثانيًا أحبّ إليه ثالثاً » (١)

أى : أن الإنسان الذى امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هما، ويطمع فى امتلاك الوادى الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار وادٍ واحد.

فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ، لماذا؟ لأن كثيرًا من الناس ينسوْنَ الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء.

ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أنْ يحتاطَ لنفسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أنْ يحتاطَ لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أنْ يحتاطَ لأحفاده.

ولكن المؤمن الحق هو مَنْ يعرف أن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصيرة تنتهى ، فلا يهتم بهذا اللون من الاحتياط ، ولكن الذى يحرص على عملية الاحتياط هذه هو مَنْ يظن أن الحياة الدنيا هى الغاية من الخَلْق ، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجد أولئك الذين يسرفون على أنفسهم ويتبعون شهواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شىء يمكن أنْ تُعطيه لهم حلالاً أو حرامًا ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٤٨) كتاب الزكاة من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب».

أما المؤمن فهو كالطالب الذى يجدُّ فى دروسه ، ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظل ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من مُتع كثيرة ، لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمانٌ مُؤقّت.

وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق والدَّخْل المرتفع إلى آخر ما يمكن أنْ يُعطيه له المستقبل.

أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ، ويقضى وقته فى اللعب والاستمتاع ، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوةً عاجلة لِيظلَّ فى مُعاناة بقية حياته.

إذنْ : فكُلٌّ من الطالبيْنِ أعطى نفسه ما تريد.

الأول : أعطى نفسه مُستقبلاً مريحاً مُمْتداً ، وصار قمةً من قِمَم المجتمع.

والثانى : أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة صُعْلوكاً فى المجتمع لا يساوى شيئاً.

إذنْ : فإياك أنْ تنظرَ تحت أقدامك فقط ، لأن العالم لا ينتهى عند موقع وقوف قدميْك هاتينِ ، ولكنه مُمتدٌّ إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق فلا يليقُ بك أنْ تختارَ متعة وَقْتية قليلة.

ولننظر إلى قول الله سبحانه عن الأشياء المزيَّنة :

﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٤) ﴾ [آل عمران]

أى : أن الذى ينظر إلى هذه الأشياء المزيَّنة نظرة تقليدية سطحية سيجدها مجردَ متاعٍ ، وما عمر هذا المتاع؟

إنه مَوْقوتٌ بالدنيا الفانية ، ولنُسلِّم جدلاً أن شيئاً لن يسلبك هذه الأشياء وأنت حىّ ، وأنها ستظلُّ معك طِيلَة دُنْياك ، فما قيمة الدنيا وهى مُقَاسَةٌ بآلافِ السنين ، والإنسان لا يعيش فيها إلا قَدْراً مُحدَّداً من الأعوام يُقرِّره الحقُّ سبحانه وتعالى.

إذنْ : فالدنيا تُقَاسُ بعمر الإنسان فيها ، لا بعمر ذات الدنيا لغيره ، لأن عُمْر الدنيا لغيرك لا يخصُّك.

إن الدنيا محدودة ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يستديمَ الدنيا ، لذلك فلن يستطيعَ أحدٌ أنْ يستديمَ الخير ؛ لأن عمره فى الدنيا محدود.

والإنسان قد يبحث فى عُمْر الدنيا ويقول : إنها تستمر عشرة ملايين من السنين ، أو مائة مليون سنة ، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوتٌ فى هذه الدنيا.

إذنْ : فالدنيا بالنسبة لك هى مقدار عُمرك فيها ، لا مقدار عمرها الحقيقى إلى أنْ تقوم الساعة ، وماذا تستفيد منها وهى تطول لغيرك ؟

إن عُمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار مُكْث الإنسان فيها ، وهو مظنونٌ وغيرُ مُتيقن ، وقد يموت وهو فى بطن أمه ، أو يموت وهو ابنُ شهر ، أو ابنُ سنة ، أو بعد أنْ يبلغَ المائة.

فالذى يرضى بغير المتقين قصيرُ النظر.

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول :

﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾ [التوبة]

وحتى إنْ قِسْتَ عمر الدنيا من بَدْء الخلق إلى أنْ تقوم الساعة فهى إلى فناء ، وما دامتْ إلى فناء فهى متاع قليل ، ومَنْ يطمئن إلى هذا المتاع القليل فهو غافل.

وعلى الإنسان أنْ يعلم أنَّ الحق سبحانه لم يترك الإنسان على الأرض دون أنْ يُوفِّر له وسائل استمرار حياته ، فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هى كل مَا علاكَ فأظلّك ، فينبت به الزرع والثمر ، وهذا رِزْق لنَا.

والناس تختلف فى مسألة الرزق ، والرزق هو ما يُنتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه ، فقد تربح مالاً وافراً ، ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه ، فلا يكون هذا رزقك ، ولكنه رِزْق غيرك ، وأنت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى توصله إلى صاحبه.

والرزق فى نظر معظم الناس هو المال.

قال ﷺ : «يقـول ابن آدم: مالى مـالى .. وهل لك يا بنَ آدم من مـالك إلا مـا أكلتَ فـأفنيتَ ، ولـبستَ فـأبليتَ ، أو تصـدَّقْتَ فأمضيتَ» [(١)] .

هذا هو رِزْق المـال ، وهو جزء من الرزق ، ولكن هناك رزق الصـحة ، ورِزقْ الولد ، ورِزْق فى الطعام ، ورزق فى البركة .

وكل نعمة من الـله سبحانه وتعالى هى رِزْق ، ولـيس المال وحده ، وإنْ كان الإنسـان يحتـاج إلى المال ليحصل على ضروريـات الحياة وكـماليـاتها فيطمئن إلى حاضره ومستقبله.

لكن لنفرض أن المال دامَ لك طُولَ العمر ، وأنت تعـرف أن العمر مهما طالَ قصير ، ولا بُدَّ أنْ يأتى يوم تفارق فيه هذا المال بالموت.

فى هذه اللحظـة يكون مـا كنزتَ من المـال قـد صـار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقـتَ فى سبيل الله. أى : أن ما أنفقْتَ هو ما يبقى لك فى عالم الخلود ، لا يفارقك ولا تفارقه.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) من حديث عبدالله بن الشخير. وتمامه « أنه أتى النبى ﷺ وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ » الحديث.

إذنْ : فالذى يُحبّ ماله عليه أنْ يصحبَ معه هذا المال لمدة أطول ، وأنْ يتعدّى بـه مجرد الوجود فى الدنيـا ، وأنْ يصل به إلى دار الخلود ، ومَنْ يعشق المال ـ إذا أراد أنْ يُبقيه ـ فلينفقه فى الصدقة.

ولنَا الأُسْوة الحسنة فى رسول الله ﷺ حين جاءتْه شاة كهدية، فقال للسيدة عائشة رضي الله عنها : «تصدَّقى بلحمها».

وكانت السيدة عائشة ـ رضوان الله عليها ـ تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف ، فتصدقتْ بلحم الشاة كلها ، وأبقتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله ﷺ . وعندما عاد رسول الله ﷺ سألها: ماذا فعلت بلحم الشاة ؟ قالت: تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها. فقال : «**بل قولى أبقيتها كلها إلا كتفها**» (١)

وذلك لأن مَا تصدقتْ به السيدة عائشة رضي الله عنها هو الباقى ، وما أبقته لهما هو الذى سيفنى ، وهكذا سَمَّى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مُسمَّياتها.

فالذى يحب صُحْبة ماله فى الدنيا والآخرة عليه أنْ يُقدِّم بعضاً منه صدقةً للفقير والمحتاج ، ليُبارك الله له فى الدنيا ، ويجزيه خَيْرَ الثواب فى الآخرة.

وقد سأل رجلٌ الإمامَ علياً رضي الله عنه : أريد أنْ أعرفَ : هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

---

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد فى مسنده (٦ / ٥٠) والترمذى (٢٤٧٠) وقال : هذا حديث صحيح. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥ / ٢٣) عن عائشة رضي الله عنها .

قال الإمام عليٌّ كرَّم الله وجهه :

الجـواب عـندك أنت ، لا عنـدى ، انظر إذا دخل علـيك مَنْ يعـطيك ، ودخل عليك مَنْ يطلب منك ، أيهما تُرحِّب به وتقابله ببشاشة ، أيهما تحب؟

إنْ كنتَ تحبُّ مَنْ يأخـذ منك فـأنت من أهل الآخـرة ، وإنْ كنتَ تحب مَنْ يعطيك فـأنت من أهـل الدنيـا ، لأن مَنْ يأخـذ منك يحـمل حـسناتك إلى الآخرة ، وأما مَنْ يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئاً.

ونقول للذى يحب المـال : اجعل حُبَّك للمـال يُبقيه لك فـترة أطول من عمر الدنيا ، فالدنيـا ليست هى المقياس ، ودنياك قَدْر عمرك فـيها ، أما الآخرة فأنت خالدٌ فيها ، فتصدَّق ببعض مالك يكُنْ لك خيراً فى الآخرة.

ويلفـتنا القـرآن الكريم إلى المنـظور ، وإلى المـدخور ، فـيقـول الحق سبحانه :

﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** (٤٦) ﴾ **[الكهف]**

ويقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا** (٧٦) ﴾ **[مريم]**

إذن: لا بُدَّ أن تنظر إلى الباقيات فى الأشيـاء ؛ لأنها هى التى يُعوَّل عليها ، ويلفتنا الحق سبـحانه إلى هذا فى أكثر من موضع من القرآن الكـريم ، فيقول تعالى :

﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . . ﴿٦٠﴾﴾ [القصص]

إذن : فإياك أن تنظر إلى الذاهب ، ولكن انظر إلى الباقى.

وقد قال الحق سبحانه :

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا . . ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة]

وسبحانه وتعالى هو واهب المال ، وهو يحترم هِبَته لصاحب المال .

وقد لاحظ العلماء أن المال حين يُضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك فى الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شىء يتموله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التى ينتفع بها الغير ، وإنْ لم يقصد .

والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتى بالمال ، بالأسباب التى جعلها للبشر فى حركة الحياة ، وأَمَّنهم على عَرَقهم . وأَمَّنهم على ما يملكون ، حتى لا يزهدَ أحدٌ فى الحركة ، فلو أخذ كل واحد من حركته على قَدْر نفسه ، ولم يتملك المال ، لَضنَّ الناس بالحركة .

وإذا ضَنَّ الناس بالحركة فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أنْ يجعلَ ما يزيد على حاجات الناس مِلْكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك .

والتملُّك أمـر غريزىّ فى النفس ، بدليل أن الله سبـحانه هو الذى طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفهـا له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُتمى فيه غريزة التملك .

وقول الحق سبحانه :

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ..(١٠٣)﴾ [التوبة]

السطحيـون فى الفهم يقولون : إنهـا تُطهِّر مَنْ تأخـذ منه المال ، وتُزكِّى المال الذى نأخذ منه ، لكن مَنْ يملك عُمْقاً فى الفهم يقول : ما دامت هناك فى هذه الآية عناصـر ، فضرورىّ أن يعـود التطهيـر والتزكـية عليـها ، وأنها تُـطهِّر وتُزكِّى المأخـوذ منه صاحب المـال ، وكذلك تطهـر وتزكى المال المـأخوذ ، وأيضـاً تطهـر وتـزكى المـأخـوذ له وهو الفـقـيـر ، لأن التطـهـيـر مـعناه إزالة قذر، والتزكية نماء .

وهكذا تُطهر الصدقة وتُزكِّى عناصرَ الفعل كلها ، والتطهير لمن يعطى ، له معنى عام ، والزكاة لها معنى معه ، لأنك إنْ أخذتَ منه المال ، فقد يكون قد غفل وأدخل فى ماله شيئاً فيه شبهة ، فالصدقة والزكاة تُطهِّران هذا المال .

أما كيف تنمِّى صاحب المال ؟

أنت إنْ أخـذتَ منه وهو قـادر ، معنى ذلـك أنك تُطمئنـه أنه إذا احتـاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش فى المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أنْ يضيعَ

منه المال ، واطمأن لحظة أنْ أخذتَ منه المـال وهو قادر كى تُعطى المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له : أنت لو احتـجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمِّى تواجده ، وثِقَتـه ، وطُهـرته أيضاً من أن يكون فـى ماله شـبهـة ، هذا من ناحـية صـاحب المـال .

أما من ناحية المال نفسه ، فالصـدقة تُطهِّر المال ، لأن المال قد يزيد فيه شىء فيه شبهة فالزكاة تُطهِّره .

وقد يُخيَّل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذى يزيد المال ، فالرِّبا مثـلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعـشرة مثلاً ، أما المزكِّى فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً .

والسَّطحىّ يـرى أن الزكـاة أنقـصتْ المـال وأن الربا يـزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بـمقاييس مَنْ يملك الأشياء ، فالزكاة التى تعتـبرونها نقصاً تُنمِّى ، والربا الذى تعتبرونه يُنمّى إنما يُنقِص .

والحق سبحانه يقول :

﴿يَمْحَقُ[1] اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي[2] الصَّدَقَاتِ .. (٢٧٦)﴾ [البقرة]

وسبحانه يقول :

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم]

(١) المحق: النقصان وذهاب البركة. ومحقه الله: أي ذهب خيره وبركته . (لسان العرب ـ مادة: محق).

(٢) ربا الشيء يربو : زاد ونما . وأربيته : نمَّيته . (لسان العرب ـ مادة : ربا).

وكـيف تكون الصدقـة تطهـيراً للآخـذ ، وهو لم يذنب ذنبـاً يحتـاج إلى تطهير ، بل هو مُعطَىً له لأنه محتاج ؟

ونقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكَسْب فهو يتطهَّر مـن الحقد على ذى النعـمة ، لأنه وصله بعضٌ من الـمال الذى عند ذى النعمة ، فـلا يحقد عليه ولا يحـسده ، فهو إنْ رأى عنده خيـراً دعا له بالزيادة ، لأن بعضاً من الخير يعود عليه .

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟

إن الفقـير سـاعةَ يرى نفـسه فـقيـراً ، ويرى أن المجـتمع الإيمانـى يقوم برعـايتـه ولا يتركـه وحـيداً ، ويـتسـابق أهل الخـيـر لنجدتـه ، فنفسـه تنـمـو بالاطـمئنان ، لأنه فى مجتمع إيمانى .

والزكاة تُنقِّى المجتـمع من مفاسد كثيرة ، فـهى تمنع الحقد بين الناس ، لأن الفقير إذا وجد مَنْ يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء ، فلا يسخط الفقير على الغنىّ .

والغنىّ والفقير متساويان فى الانتـفاع ؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقـير ، ولكنه يُحِسّ بالعطاء حوله ، والغـنى حين يعطى يُحِسّ أن هذا أمان له ، لأنه إنْ ذهبتْ عنه النعمة فسوف يجد مَنْ يعطيه .

وهكذا يحدث توازن فى المجتمع بين الناس ، المجتمع الذى مكَّن الله للمؤمنين فيه ، مِصْداقاً لقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ(١) فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ(٢) وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج]

إن المجتمع الذى يجد فيه غير القادر حاجته ، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر ، ونحن نعلم أننا نعيش فى دنيا أغيار، ولا يوجد مَنْ يدوم غِنَاه ، أو مَنْ يدوم فَقْره ، لأن دوامَ الحالِ من المحَال .

إنْ عاش الغنىّ فى مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن ؛ لأنه وهو الآن يعطى الفقير ، إنْ أصبح فقيراً فسوف يجد مُقوِّمات حياته ، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء ، فيُبادر ليُعين الفقراء كنوعٍ من رَدِّ الجميل .

وبذلك يعيش المجتمع كله حياةً آمنةً ، كما أن الحياة فى مثل هذا

---

(١) مكّن له فى الشىء : جعل له عليه سلطانًا وقدرة .

(٢) قال سيد قطب فى تفسير « الظلال » (٤/ ٢٤٢٧): «« الذين إن مكناهم فى الأرض » فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر « أقاموا الصلاة » فعبدوا الله، ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين « وآتوا الزكاة » فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج "وأمروا بالمعروف» فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس « ونهوا عن المنكر » فقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التى لا تبقى على منكر وهى قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهى قادرة على تحقيقه ».

المجتمع إنما تُهيء الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم ، ذلك أن الأعمار بيد الله .

وعندما يُحِسُّ الإنسان بأنه إنْ مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفَّل المجتمع بهم ، عندئذ يُحِسُّ بالأمان فى حياته ، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع فيه حَقُّ اليتيم ، فالأب يعيش غَيْرَ مطمئن على أولاده الصغار .

ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم[1] ، ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَوْنَه ، فيُحِسُّ الأب بالأمان ، وتُحِسّ الأم بالأمان، ويُحِسّ الصغار بالأمان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً[2] (٩)﴾ [النساء]

فتقوى الله تكون ضماناً فى أن يكفل المجتمعُ اليتيمَ ، فيدخل الأمن فى قلب كل أب يخشى أنْ يموتَ وأولاده صغار .

---

(١) وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ وأمنه وهو الذى عاش يتيماً: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩)** ﴾ [الضحى]، بل إن الله اعتبر من يَدع اليتيم أى يدفعه ويقهره ، اعتبره مكذباً بالدين ، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢)﴾ [الماعون] .

(٢) السداد : الصواب وموافقة الحق والعدل والشرع لا خطأ فيه .

إذن : فالاقتصاد الإسلامى مَبْنِىّ على وجود حركة فى الكون ، ولابد أن تكون هذه الحركة على قَدْر طاقة المتحركين ، وليس على قدر حاجاتهم ، حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر .

والله سبحانه يريد أنْ تُوجد الحركة فى الكون ؛ لأنه إنْ وُجدَت الحركة فى الكون انتفعَ الناس ، وإنْ لم يقصد التحرُّك ، وبعد ذلك فأيْن يذهب الذى يأخذه الله منك؟

إنه يعطيه لأخ لك ولغيره ، فما دام سبحانه يعطى أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك ، ففى هذا اطمئنانٌ وأمانٌ لك ، لأن الغير سيعطيك لو صِرْت عاجزاً غير قادر على الكسب ، وفى هذا اطمئنان لأغيار الله فيه .

فإن جاءت لك الأغيار فستجد أناساً يساعدونك ، وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعى فى أرْقى معانيه.

أليس التأمين أن تُعطِى وأنت واَجِد ، وأنْ تأخذَ وأنت فَاقِد؟ إذن: فهذا كُلُّه من فَضْل الله .

وقَوْل ربِّ العِزَّة سبحانه فى الحديث القدسى: «إنَّا أنزلنا» .

فساعة نسمع قوله «أنزلنا» نرى أن هناك مكانة عَلِية ينْزِل منها شىء لمكانة أدْنى ، ومثل ذلك أمر معروف فى الحِسّيات ، وهو معروف أيضاً فى المعنويات.

وقد يكون هذا الشيء غير موجود في السماء لينزل ، ولكنه في الأرض ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد]

وهو إنزال ؛ لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإن كان في الأرض.

والحق سبحانه لم يَقُلْ «أنزلنا» على الذهب أو الماس أو الفضة ، أو أيّ معدن من المعادن النفيسة ، ولكنه خَصَّ الحديد بهذه الصفة ، لأن الحديد أداةٌ من أدوات نَصْر الدعوة إلى الله تعالى .

فالإنزال معناه إرادةُ الكون ، وإرادةُ الكون في كل كائن تكون من السماء ، ولذلك فالشيءُ الذي لا ينزل من السماء ربُّنا قال عنه: إنه ينزل من السماء .

☐☐☐

رغم أنف إبليس !!

[٣١] عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال : قال إبليسُ : أىْ ربِّ ، لاَ أزالُ أُغْوِى بنِى آدمَ ، مَا دَامتْ أرْوَاحُهُم فى أجْسَادِهم.

فقال الربُّ عزَّ وَجلَّ :

«فَبِعِزَّتِي وَجَلالى لاَ أزالُ أغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرونى» (١)

يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ(٢) ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾ [الأعراف]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩، ٤١، ٧٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٨/ ٣٣٢) ، والحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٤/ ٢٦١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبى فى تلخيصه. وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٧) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والطبرانى فى الأوسط ، وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح ، وكذلك أحد إسنادى أبى يعلى» .

(٢) صَوَّره: جعل له صورة مُجسَّمة. وتصوَّر: تكوّنت له صورة وشكل. (المعجم الوجيز ـ مادة: صور).

هذه هى قصة إبليس مع آدم ، ذكرها الحق سبحانه فى مواضع كثيرة من كتابه ، ولكنها فى كُلِّ موضع تأخذ لَفْتةً جديدة ولَقْطة جديدة ، وقد جاءتْ قصة خَلْق آدم بكُلِّ جوانبها فى القرآن سبْع مراتٍ ؛ لأنها قصة بَدْء الخلق ، وهى التى تجيب عن السؤال الذى يبحث عن إجابته الإنسان.

فالإنسان تلفَّتَ ليجد نفسه فى كون مُعَدٍّ له على أحسن ما يكون ، ولم يجئ الكون من بعد الإنسان ، بل طرأ الإنسانُ على الكون ، وظلَّ السؤال وارداً عن كيفية الخَلْق .

ولكن الحق سبحانه قد حسم هذا فقال:

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

فالإنسان لا يدرى كيف تَمَّ الخَلْق ، ولا ما هى مراحله ، إلا أن يخبرنا الله سبحانه وتعالى بها ، فما دَامُوا لم يشهدوا خَلْق السماوات والأرض ولا خَلْق أنفسهم ، فلابُدَّ أن نأخذ ذلك عن الله ، فما يُنبئنا به الله هو الحقيقة ، وما يأتينا عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزَيْف .

وقصة العَداء بين آدم وإبليس هى من هذا القبيل الذى يجب أن نأخذه عن الله ، فالحقُّ سبحانه أصدر أمره للملائكة ليسجدوا لآدم ، ولابُدَّ أن نعرفَ أن السجودَ لآدم هو إطاعةٌ لأمر الله ، وليستْ عبادةً لآدم .

(١) العضد: المعاون والمساعد والمعين. اعتضد به: استعان به وتقوّى. (المعجم الوجيز ـ مادة: عضد).

فالله سبحانه هو الذى أمر الملائكة بالسجود ، ولم يأمرهم بذلك آدم ، ولا يحقُّ له أنْ يأمرهم ، فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه .

مَنْ أطاعه كان عابداً ، ومَنْ لم يُطِعْه كان عاصياً ، ومَنْ رَدَّ الأمر على الآمر كان كافراً .

والأمر بالسجود لآدم لم يشمل الملائكة كلهم ، بل خُصَّ به الملائكة الذين لهم مُهِمة مع آدم ، هذه المهمة قد أوضحها الحق سبحانه فى قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾

[الانفطار]

وقوله سبحانه : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ[1] أَمْرًا (٥)﴾ [النازعات]

إذن: هناك من الملائكة مَنْ سيُسجِّل على الإنسان أعماله ، وكل قَوْل يقوله ، وكل فِعْل يفعله ، بل ويكتبون هذه الأفعال ، ومنهم مَنْ يحفظه من الشياطين ، ومنهم مَنْ يُنفِّذ أقدار الله فى الأرض.

هؤلاء جميعاً لهم مُهمة مع الإنسان ، ولكن الأمر بالسجود لم يشمل

---

(١) قال على بن أبى طالب: المدبرات أمراً : الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره. وعن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل ، وملك الموت، وإسرافيل. فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود. وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات. وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح. وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر. (ذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور ٨/ ٤٠٥).

أولئك الملائكة العَالين من حملة العرش وحُرّاس السماء وغيرهم ممَّنْ ليستْ لهم مُهِمة مع الإنسان .

ولذلك عندما رفض إبليسُ السجودَ قال له الله تعالى :

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

والمقصود بالعالين: الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته ، والذين يقول فيهم الحق سبحانه:

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (١١)﴾ [الرعد]

والملائكة لا يعصُونَ الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمرون.

وإنْ تساءل أحدٌ : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضِمْن الحديث عن الملائكة ؟

نقول: هَبْ أن فرداً مُخْتاراً من الإنس أو الجنّ التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يَعْصِ. أليستْ منزلته تكون مثل المَلكِ ، بل

(١) أي: ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله. قال ابن كثير في تفسيره (٢/٥٠٣): «أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه ، وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً ، حافظان وكاتبان».

أكثر من المَلَكِ ، لأنه يملك الاختيار ؟

ولذلك كانوا يُسمُّون إبليس «طاووس الملائكة» أى : الذى يزهُو فى مَحْضَر الملائكة ، لأنه ألزمَ نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مراداتِ الله فنفَّذها ، فصارَ لا يَعْصى الله ما أمره ، ويفعل ما يُؤْمر .

وصار إبليسُ يزهُو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأنْ يُطيعَ ، وصالحاً ـ أيضاً ـ لأنْ يَعْصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزةً من بين الملائكة ، وبلغ من تميّزه أنه يحضر حُضُور الملائكة .

فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغُ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة :

﴿اسْجُدُوا لآدَمَ .. (١١)﴾ [الأعراف]

وكان أوْلَى به أنْ يُسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف[1] ذلك. وَهَبْ أنه دون الملائكة ، وما دام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكُنْ من الأجْدر به ـ وهو الأدْنى ـ أن يلتزمَ بالأمر؟ لكنه لم يفعل ، ولأنه من الجن فقد غلبتْ عليه طبيعة الاختيار.

فسبحانه قد أمر الملائكة ، وكان موجوداً معهم إما بطريق العُلُوِّ ؛ لأنه فَاقَ الملائكة وأطاع الله وهو مُخْتار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدُّنُوِّ ؛ لأن الملائكة أرْفَع من إبليس بأصل الخِلْقة والجبلّة ، وعلى أىِّ وَضْع من العُلُوِّ

(١) استنكف من الشيء وعنه: أنف وامتنع. (المعجم الوجيز ـ مادة: نكف) .

والـدُّنُـوُّ كان على إبليس أنْ يسجدَ .

ولكن إبليسَ قال في الردِّ على ربِّه :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

وقال أيضاً: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]

فمـعصيـةُ إبليسَ كانت في القـمة ، لأنه رَدَّ الأمر على الآمـر، وقال : لن أُطيعَ ، ولن أَسْـجُـدَ لآدم لأنِّي خَيْـر منه ، هو من طيـن ، وأنا من نار ، فكأنه لم يَرْضَ بحُكْم الله سبـحانه وتعـالى ، وأراد أن يُعدِّله ، وهذه معـصية في القـمة ، جعلت الله ـ تبارك وتعالى ـ يطرد إبليسَ من رحمته ، ويَصفه بأنه رجيم (١) .

فإبليس قد تأبَّى على مَنْ حكَم بالحُكْم ، ولذلك طرده الحق سبحانه من الجنة ، وصار مَلْعوناً .

وإبليسُ ساعة رفضه تنفيذَ أمر السجود كان يمتلئ بالكبر والغرور ، ففى لحظة الكبر نـسى إبليس كل شىء ، واندفع فى معصـيته يـملؤه الزَّهْو ، وأصرَّ على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب.

والحقُّ سبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله ـ وهو يعلم أزَلاً أن إبليسَ قد امتنع باقتناع لا بقَهْر ، ولذلك قال إبليس:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]

(١) رجمـه : لعنه أو طرده بالرمى بالحجـارة ، ومنه الرجيم ، فعيل بمعنى مفـعول ، أى : ملعون بالقـول أو مطرود مرمىّ بالحجارة. (القاموس القويم ١/ ٢٥٨) .

فكأنَّ المسألة دارتْ فى ذهنه لِيُوجِدَ حيثيةً لعدم السجود ، ولا يصحّ فى عُرْفه الإبليسى أنْ يسجدَ الأعلى للأدْنَى ، فما دام إبليسُ يعتقد أنه خَيْر من آدم ، ويظنّ أنه أعلى منه ، فلا يصحّ أنْ يسجدَ له ، وهو أعْلَى منه ، لماذا ؟

فهو اعتقد مُخْطِئاً أن النارَ لها عُلُوٌّ على الطين ، وهذا خطأ ؛ لأن الأجناسَ حين تختلف ، فذلك لأن لكل جنس دَوْرَه ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، فالنارُ لها مُهِمة ، والطين له مُهِمة ، فالنار لا تستطيع أن تُؤدِّى مُهِمة الطين ، فلا يمكن أنْ نزرعَ فى النار .

إذنْ: فالخيريةُ تتأتَّى فى الأمرين معاً ، ما دام كل منهما يُؤدِّى مُهِمته ، ولذلك لا تَقُلْ : إن هذا خَيْر من هذا ، إنما قُلْ : عَمَلُ هذا أحسنُ من عَمَل هذا ، فكلُّ شىء فى الوجود حين يُوضَع فى منزلته المرادة منه يكون خَيْراً .

ولذلك أقول: لا تَقُلْ عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وتقول عن الخطَّاف : إن هذا عُود أعوج ؛ لأن مهمة الخُطَّاف تقتضى أن يكونَ أعوج ، وعِوَجه هو الذى جعله يُؤدِّى مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأتى فى مُتَسَاوى المهمة .

ولكن إبليس قال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ .. (١٢)﴾ [الأعراف]

قالها للمعاندة ، للكبر ، للكفر ، حين أعرض عن أمر الله ، وأراد أنْ يُعدِّل مراد الله فى أمره ، وكأنه يُخطِّئ الحقَّ سبحانه فى أمره ، ويردّ الأمر على الآمر .

إذن: فالحقُّ سبحانه يُوضِّح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا

أن تميّزكم بعناصركم ، إننى أقدر بطلاقة قدرتى أن أجعلَ الأَدْنى يتحكَّم فى الأعلى ، لأنها إرادة مَنْ عنصرَ العناصر .

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)﴾ [الأعراف]

وكلمة (فاهبط) تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى : أنك لَسْتَ أهلاً لهذه المنزلة ، ولا لتلك المكانة . هذا ما تدلُّ عليه كلمة (فاهبط) ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغار هو الذُّل والهوان ؛ لأنه قابلَ الأمرَ باستكبار ، فلابُدَّ أن يُجازى بالصَّغار. خرج إبليس من الجنة ، وفقد منزلته ومكانته التى كانت له بين الملائكة ، ولُعِن وطُرِد من رحمة الله إلى يوم الدين ، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)﴾ [ص]

وكان ذلك بسبب عدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم ، فصارت عداوة بينه وبين آدم ؛ لذلك : طلب إمهاله وإنظاره إلى يوم الدين ، فقال:

﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف]

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكى يَشْفى غليله من بنى آدم وآدم ؛ لأنه جاء له بالصَّغار والذلة والطَّرْد والهبوط ؛ ولذلك أصرَّ على أنْ يجتهدَ فى أنْ يُغوِى أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً .

ولذلك قال إبليس :

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]

والإغواء : إغراء بالمعصية. فكأن الشيطانَ يريد أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يُغْوِ ، لأن الحق سبحانه وتعالى لا يُغوِى وإنما يهدى ، لأن الله لو خلقه مُرْغماً مَقْهوراً ما أعطاه فرصة أنْ يختارَ كذا أو يختارَ كذا ، فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» واختار هو ألاّ يفعل إلا المعصية.

وقد بدأ إبليس بِغُواية آدم عليه السلام ، فآدم عاش فى جنة تعطيه مُقوِّمات حياته بلا تعب وبلا عمل ، وكان فى الجنة ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات ، وهى حلال لآدم وحواء يأكلان منها ما يشاءان ، ما عدا شجرة واحدة(١) حرَّمها الله عليهما .

---

(١) اختلف العلماء فى هذه الشجرة على عدة أقوال ذكرها ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٩) :
- الكرم (العنب). قاله ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة.
- السنبلة . قاله ابن عباس أيضاً .
- البر (حب القمح) قاله ابن عباس أيضاً .
- النخلة . قاله أبو مالك .
- التينة. قاله مجاهد .
- الحنطة (القمح). زعمته اليهود .

قال ابن كثير: «فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة. قال الإمام ابن جرير الطبرى رحمه الله: والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده =

وكـانت هذه الشجـرة هى بداية الخطيئـة ، بدأ إبليس يُغرِى آدم وحـواء على المعصية.. كيف ؟

حاول إقناعهـما بأن عدمَ الأكل من هذه الشجرة.. سيحرمهمـا من خير كبير .. قال تعالى :

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا[1] وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)﴾

[الأعراف]

لقد همس الشـيطان ، وأوحَى لهما بأن الحق سبحـانه أراد ألاَّ تقربَا هذه الشـجرة ؛ لأن مَنْ يأكل منهـا يصـير مَلَكاً أو خـالداً ، ولم يُمـحِّص أى منهمـا كلمات الشيطان ليعرفَ أن كَيْده كان ضعـيفاً واهياً وغبياً ؛ لأنه ما دام قد عرف أن مَنْ يأكل من هذه الشـجـرة يصيـر مَلَكًا أو يبـقى من الخـالدين ، فلمـاذا لم يخطف منها ما يجعله مَلَكًا أو خالداً ؟

وفى هذا دَرْسٌ يُبيِّن لنا أن مَـنْ يُزيّن له ويتصدَّى له أحـد بالإغواء يجب عليه أنْ يُمحِّص إلى أىِّ غواية يسير، وأنْ يُدقِّق فى نتائج ما سوف يفعل .

= دليلاً على ذلـك فى القرآن ولا من السنة الصـحيحـة، وقد قيـل: كانت شجـرة البر، وقـيل: كانت شجرة الـعنب، وقيل: كانت شجـرة التين. وجائز أن تكون واحدة مـنها ، وذلك علم إذا عُلم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم» .

(١) السـوءة: ما يقبـح إظهاره ، وينبـغى سـتـره. وجمـعها سـوءات. وهى العورات. (الـقاموس القـويم ١/ ٣٣٤).

وفى إغواء آخر لآدم :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ[١] (١٢٠)﴾ [طه]

وهكذا نعرف أن إبليس يأتى للإنسان من أكثر من زاوية ؛ لذلك كانت الزاوية الأولى هى أن هذه الشجرة ، مَنْ يأكل منها يكون مَلَكًا ، أو يكون خالداً.

وكان الإغواء الثانى أن هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود مُلْكًا لا ينتهى .

إذن: فإبليس يُصَوِّر للإنسان أن ما منعه الله عنه هو الخير ، وأنه لو عصى فسيحصل على المال والنفوذ ، لقد أكل آدم وحواء من الشجرة ، فلم يخلدا ولم يَأْتِ لهما مُلْك لا ينتهى ، بل ظهرت عوراتهما وعرفا أن إبليس كان كاذباً ، وأن الله سبحانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه إنما كان يريد لهما الخير.

ولكن الشيطان يأتى ويُزيِّن للإنسان طريق الباطل ، ولو أن آدم كان قد حَكَّم عقله لعرفَ كذبَ وَسْوسة إبليس ، فإبليس كما يَدَّعى كان يدلُّ آدمَ على شجرة الخُلْد ، ولو أن هذه الشجرة كانت تعطى الخُلْد فعلاً ، لما طلبَ إبليسُ

(١) بلى الثوب: رثَّ. وبليت الدار: فنيت. (المعجم الوجيز ـ مادة : بلى). وبلى الملك : زال .

من الله تبارك وتعالى أن يُبقى على حياتـه إلى يوم القيامة ، بل لأكلَ من الشجرة ونال الخُلْد .

ولكن إبليسَ دخل من ناحـيـة الغفلـة فى النفس البشـرية لِيُـوقِـع آدمَ فى المعـصـيـة ، وهو يدخل إلى أبناء آدم من ناحيـة الغفلة أيضـاً ، ولو أن أبناء آدم حَكَّمـوا عقولهـم وهم يعرفون أن هـناك عداوة مُسْبقـة بين آدم وإبليس ، وأن إبليس طلب من الله سـبحـانه وتعالى أنْ يُبـقِيَـه إلى يوم القيـامة لينتـقمَ من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية .

لو تنبَّهنا إلى ذلك لأخذنا حِذْرنا ، وعندما تنكشف وسوسة الشيطان فإنه يهرب .

وقد دخل إبليس ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله ، وأن الله عزيز لا يحتاج لخلْقه ، ولا يضـرُّه سبحانه وتعـالى مَنْ كفر، ولا يزيد شيـئاً فى مُلْكه مَنْ آمن ، اسـتغلَّ إبليـسُ عِزَّة الله فى اسـتـغنائه عن خَلْقـه ، فقـال كمـا يروى لنا القـرآن الكريـم:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص]

فإبليس دخل إلى غواية بنى آدم بعِزَّة الله سـبحانه وتعالى عن خَلْقه ، فلو أن الله أراد خَلْقه جميعاً مهديِّين ما استطاع إبليس أنْ يتقدَّم ناحية واحد منهم.

فالله سـبحانه وتـعالى هو الذى أعطى للإنسان حَـقَّ الاختيـار ، ولو شاء

لجعله مَقْهوراً على الطاعة كباقي الخَلْق من نقطة الاختيار هذه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ[1] (٢٩)﴾ [الكهف]

إذنْ: فالله سبحانه وتعالى بيَّن لنا طريقَ الهدى وطريقَ المعصية ، ثم ترك لَنا أنْ نختارَ طاعةَ الله ورحمته ، أو معصية اللهِ وعذابَه .

ولكى نتقى الشيطانَ فى حياتِنَا شرحَ لنا القرآنُ الكريم كيف سيُغوى إبليس بنى آدم :

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ[2] لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٤١٢٣): «قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس، من ربكم الحق ، فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال ، يهدى من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر ، ليس إلىّ من ذلك شيء ، فالله يؤتى الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً ، ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنياً ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ، فإن شئتم فآمنوا ، وإن شئتم فاكفروا ، وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر ، وإنما هو وعيد وتهديد. أى : إن كفرتم فقد أعد لكم النار ، وإن آمنتم فلكم الجنة».

(٢) عن سبرة بن أبى الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك. قال: فعصاه وأسلم. قال: وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد ، وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال. قال: فعصاه وجاهد». أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٨٣) والنسائى فى سننه (٦/ ٢١) وابن حبان (١٦٠١ ـ موارد الظمآن) من حديث سبرة بن أبى الفاكه .

أي : أن إبليس لا يجتهد فى إغواء مَنْ باع نفسه للمعصية ، وانطلق يخالف كُلّ ما أمر به الله ، فالنفس الأمّارة بالسُّوء لها شيطانها ، وهى ليستْ محتاجة إلى إغواء ؛ لأنها تأمر صاحبها بالسوء.

ولذلك ، فإن إبليس لا يذهب إلى الخمارات وبيوت الدعارة ، ويبذل جَهْداً فى إغواء مَنْ يجلسون فيها ؛ لأن كل مَنْ ذهب إلى هذه الأماكن هو من شياطين الإنس .

ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة وأماكن العبادة ، هؤلاء يبذل معهم كل جَهْده وكل حِيَله ليصرفَهم عن عبادة الله ، ولذلك لا بُدّ أن نتنبه إلى أن إبليسَ لم يقُلْ : لأقعدنّ لهم على الطريق المعْوَج ، فالطريق المعْوَج بطبيعته يتبع الشيطان .

فإبليس يريد أهل الطاعة ، يُزيِّن لهم المعصية ، ويُغرِيهم بالمال الحرام ، وما دام الشيطان سيُغوى وسيُضل الغير فسيختار للغواية مَنْ يكون فى طريق الهداية ، أما مَنْ غوى باختياره وضَلّ بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده .

وتلك ظاهرة تحدثُ للناس حينما يجدُّون ويجتهدون فى الطاعة، فالشابّ الطائع الملتزم يحاول الشيطانُ أنْ يُخَايلَه ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطانَ يتلصَّصُ على دين الإنسان ، فهو كاللصِّ ، واللصُّ لا يحوم حول بيتٍ خَرِب ، إنما يحوم اللصُّ حول بيتٍ عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة فى كل الناس حينما يأتون للصلاة ، فيقول الواحد منهم : حينما أُصلِّى يأتى لى الوسواس ، ويُشكِّكنى فى الصلاة ، نقول

له : نعم ، هذا صحيح[١] .

وحين يأتى لك هذا الوسـواس فاعتـبره ظاهرة صحيـة فى الإيمان ، لأن هذا معناه أن الشيطان يعـلم أن عملك مقبولٌ ؛ ولذلك يحـاول أنْ يُفسدَ عليك الطاعـة ، لأنك لو كُنْتَ فاسـدًا من البـداية ، ووقفتَ للصـلاة دون وضوء لمـا جاءك الوسواس ، ولكن الشيطانَ يريد أن يُفسِد عليك الطاعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ[٢] مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾

(الأعراف)

فمعنى (استعذ) أى : فالتجىء منه إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أنْ يتغلغلَ فيك ، وفى دمك[٣] ، وفى خواطرك ، وهو القادر على مَنْعه .

---

(١) «عليك رحمك الله أن تحضر قـلبك فى صلاتك جهد استطاعتك ومبلغ طـاقتك ، وألا تصرفه هاهنا ولا هاهنا ، وألا تمر به هكذا ولا هكذا ، وأن تدفع عنه الخواطر المائلة به ، والأحاديث الشاغلة له ، وأن تسمع ما تقرأ ، وتعقل ما تفعل ، فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت ، ولا يكتب لك منها إلا ما فـيه حضـرت» قاله أبو محـمد عبـد الحق بن الخراط الإشبـيلى فى كتـابه «الصلاة والتهـجد» من تحقيقى (عادل أبو المعاطى) ـ طبعة دار الوفاء ـ المنصورة ١٩٩٢ م

(٢) نزغ الشيطان : وساوسه ونَخْسُه فى القلب بما يُسـوِّل للإنسان من المعاصى . قال الزجاج : معناه إن نالك من الشيطان أدنى نزغ ووسوسة وتحريك يصرفك عن الاحتـمال ، فاستعذ بالله من شرِّه وامْضِ على حكمك . (لسان العرب ـ مادة : نزغ) .

(٣) أخرجـه مسلم فى صحيـحه (٢١٧٤) من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قـال : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم » .

قال الـنووى فى شرحـه : « قال القـاضى وغيـره : قيل هو على ظاهره ، وأن الله تعـالى جعل لـه قوة وقدرة على الجـرى فى باطن الإنسـان مـجارى دمـه . وقـيل : هو على الاسـتـعارة ، لكثـرة إغـوائه ووسوسـته ، فكأنه لا يفارق الإنسان كمـا لا يفارق دمه . وقيل : يلقى وسـوسته فى مسام لـطيفة من البدن فتصل الوسوسة إلى القلب . والله أعلم » .

وحين تقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » بفزع والتجاء إليه ـ سبحانه ـ فإنه جَلَّ شأنهُ ينقذك منه ، وإنْ كنتَ تقرأ القرآن ، ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقُلْ « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فإذا قُلْتَ هذا فكأنك نبَّهتَه إلى أنك أدركتَ من أين جاءتْ هذه النَّزْغة : مرة و اثنتين و ثلاثة.

حينئذ يقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حَاذِق فَطِن وحَذِر ، لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة ، وقد شُهِر عنه الفُتْيا ، وذهب إليه سائل يقول :

ضاع مِنِّى مال فى أرضٍ كنتُ قد دفنتهُ فيها ، ولا أعرف الآن مكانه ، دُلَّنى عليه أيُّها الشيخ ؟

وبطبيعة الحال ، كان هذا السؤال فى غير العِلْم ، فقال أبو حنيفة : يابُنىّ ليس فى ذلك شيء من العلم ، ولكنِّى أحتال لك ، إذا جاء الليل فَقُمْ بين يدىْ ربِّك مُصلِّياً هذه الليلة ، لعلَّ الله سبحانه وتعالى يبعث لك جُنْدًا من جُنوده يقول لك عن مكان مالك.

وبينما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يُقبل ضاحكًا مُبْتسمًا قائلاً : يا إمام لقد وجدتُ المال . فضحك أبو حنيفة وقال : والله لقد علمتُ أن الشيطان لا يدعك تُتِمّ ليلتك مع ربِّك ، وسيأتى ليُخبرك ، فهلاَّ أتممتَها شُكْرًا

لله ، هيا قُمْ إلى الصلاة .

إذن : فقد عرف الشيطان كيف يقعد ، وكيف يُقسِم ، فقد استطاع أنْ يأتى بالقسم الذى يُعينه على مهمته ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (ص)

واستدرك على نفسه أيضًا ، فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (ص)

لأن الذى يُريده الله مَهْدِيًا لا يستطيع الشيطان أن يُغوِيه ، لأنه لا يناهض ربّنا ولا يُقاومه ، إنما يناهض خَلْق الله ، ولا يدخل مع ربِّنا فى معركة ، إنما يدخل مع خَلْقه فى معركة ، ليس له فيها حُجَّة ولا قوة ؛ لأن الذى يغلب فى المعارك إما أنْ يُرغِمك على الفِعْل ، وإما أن يُقنعك لتفعلَ أنت بدون إرغام .

وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟

لا ، ولذلك سيأتى فى الآخرة يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴿٢٢﴾ ﴾ (إبراهيم)

والشيطانُ لا يترك سبيلاً إلا سلكه لإغواء بنى آدم ، لذلك يقول : « أىْ رَبِّ ، لا أزال أُغْوِى بنى آدمَ ، ما دامتْ أرواحُهم فى أجسادهم » .

والقرآن الكريم يحكى لنا قوله :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأعراف)

فإبليس يأتى لبنى آدم من الأمام ، ومن الخلف ، ومن اليمين ، ومن اليسار .. أربع جهات يأتى الشيطان لابن آدم منها :

* والشىء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعًا هو « الدار الآخرة » وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يُشكّكهم فى حكاية الآخرة ، ويُشكّكهم فى البَعْث ، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مُقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكّون فى وجود دارٍ أُخرى ، سيُجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

ولذلك يعرض الحق سبحانه وتعالى قضية البعث عَرْضًا لا يجعل للشيطان مَنْفذًا فيها ، فيُوضّح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خَلْقنا أوّلاً ، لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم(١).

إنه سبحانه عندما يُبين للناس أن الإعادة أهونُ من البداية ، فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله ـ جَلَّ شأنه ـ تستوى لدى طلاقة قدرته كُلُّ الأعمال ، فليس لديه شىء سهل وهيِّن ، وآخر صَعْب وشاقّ .

(١) قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الروم)، ويقول تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ (طه) ، قال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هينة . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٣٠).

* والشيطان يأتى - أيضًا - من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضَيْعتهم ، فيُوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء .

وفساد أُناسٍ كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس مَنْصبًا كبيرًا ، وقد كَبِرت سنّه ، ويقبل على الله بشرٍّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن ، إنْ كنتَ تخاف عليهم حقًا فأمِّن عليهم فى يَدِ ربِّهم ، ولا تُؤمِّن حياتهم فى جهة ثانية .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٩) ﴾ (النساء)

* ويأتى الشيطان من اليمين لِيُزهِّد الناس ، ويَصْرِفهم عن العمل الحسن والطاعة ، واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين .

* ويأتى الشيطان عن شمائلهم ، لِيُغْرِيهم بشهوات المعصية .

ولماذا لم يَأتِ الشيطانُ للإنسان من فوق ومن تحت ؛ لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مُسْتغيثًا ومُسْتجيرًا بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة ، فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد(١) ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه .

---

(١) عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾ (يوسف)

ويقول أيضًا :

﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (الأنعام)

وما دام الشيطان عدو لك ، فلابد أيها الإنسان أن تتنبه ، فالله عمل لك حادثة الامتناع عن السجود لآدم حتى يُربّى فيك مناعة من الشيطان ، فتتذكر عداوته ، ولا تتبع خطواته أبدًا ، بدليل أنه تربَّصَ ببنى آدم .

قال تعالى :

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ(١) ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾ ﴾ (الإسراء)

وكلمة (لأحتنكن) الاحتناك له مَعْنَيان :

الأول : الاستئصال . ومنه قولهم: احتنكَ الجرادُ الزَّرْع أى استأصله .

الثانى : وهو القَهْر على التصرف ، وهو مأخوذ من معنى اللجام الذى يُوضع فى حنَك الفرس أو الحمار ، ويتحكم فيه ، وعن طريقه يتم توجيهه يمينًا أو شمالاً ، أو توقيفه عن السَّيْر.

---

(١) احتنك فلانًا : استولى عليه واستماله إليه . وقول الشيطان فيما رواه رب العزة فى قرآنه : ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ (الإسراء) أى : لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . (القاموس القويم ١/ ١٧٥).

فالاحتناك إما أن يكون استئصالاً للذات ، أو قَهْرًا لحركتها ، ولكن لأن إبليس يعلم حَجْمه وقَدْره ، فكما أقسم بعزة الله تذكَّر قدرته سبحانه ، وأنه إذا أراد إخلاص عبدٍ لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذه ، فقال :

﴿ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ (الإسراء)

وهذا القليل هم الذين أخلصهم الله لعبادته وطاعته ، فلا يستطيع الشيطان أنْ يقربَهم ، وقد أقرَّ الشيطانُ بذلك .

وقال له الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) ﴾ (الإسراء)

اذهب ، أى : مطرودًا مُبْعداً ، فالذين ستأخذهُم وتحتنكُهم وتتصرف فى حركتهم فإن جهنم جزاؤكم ، أى هم والشيطان لأنه معهم ، لكن إبليس كان يظنُ أن الله سيقول له : فإن جهنم جزاؤهم ، وهو ليس معهم ، لماذا ؟

قال : لأننى أُنفِّذ أوامر الله ، لأنه قال لى :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ(١) عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ(٢) وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾(الإسراء)

---

(١) أجلب عليهم : اجمع عليهم وتوعَّدهم بالشر . (لسان العرب ـ مادة : جلب).

(٢) رجل يرجل : مشى على رجليه ولم يكن له ما يركبه . والمقصود ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾.(٦٤) [الإسراء] أى : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . (القاموس القويم ١/ ٢٥٧).

حتى لا يظن إبليس أنه مأمور من الله بالإغواء قال الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الإسراء)

أى : أن إبليس سيدخلُ النارَ معهم ؛ لأن مَا يقوم به من إغواءٍ لم يأمره به أحد ؛ لأن الأمر كما قُلْنا طلب أعلى من أدنى ليوقع فعلاً أو يُنفذه ، فلا يظنّ إبليس أنه ينفذ أوامر الله بإغواء عباده ، بل يجب أن يعلم أن هذه ليست أوامر ، ولكنها تهديد من الله له بأن يفعل ما فى وُسْعه ، فلن يكون فى مُلْك الله إلا ما أراد .

فيقول له الحق سبحانه :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . . ﴿٦٤﴾ ﴾ (الإسراء)

أى : استخفّهم واخْدَعْهم ووَسْوِس لهم بصوتك ، أو بكُلِّ صوت شرير ، سواء كان من جنودك أو من شياطين الإِنْس .

ومعنى (أجلب) : أى صِحْ بهم . والجلبة هى الصوت الشديد ، هذا الصوت يأخذ شيئًا من انتباه الخَصْم ، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ، فتستطيع أن تنقضَّ عليه .

فمعنى (أجلب عليهم بخيلك) أى : اركبْ خيلك ، وأطلقْ صوتك ، حتى تُفزعهم ، والإفزاع يأخذ جزءًا من الإدراك ، فيعطل الخصم عن الإدراك فتغلبه .

فالحق سبحانه هدَّدَ إبليس بأن يستفزَّ الناس بصوته ، وأن يجلبِ عليهم بخَيْله ورَجْله ، أى سلاح الفرسان ، وسلاح المشاة . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ **وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ ...** (٦٤) ﴾ (الإسراء)

ومعنى مشاركة الشيطان لهم فى الأموال هى أنْ يُزيّن لهم المال الحرام ، فيكسبوه من حرام ويَصْرفوه فى الحرام .

وكذلك مشاركته لهم فى الأولاد تكون بتزيين الفاحشة ، فالولد المفهوم فيه طهارة النسب يأتى الشيطان لأبيه ويُزيّن له الحرام ، فيجعله يرتكب الفاحشة .

وحتى إن كان ابنه من صُلْبه ومن حلال ، ومولود على الفطرة يُزيّن له الشيطان أنْ يُهوِّده أو يُنصِّره ، أو يجعلهم يقتلون أولادهم ، خشية الفقر أو العار .

وليعلم بنو آدم أن إبليس سيقف فى يوم المحاجّة يوم القيامة أمام الذين أغواهم واستفزَّهم بصوته ، وأجلب عليهم بخيله ورَجْله وشاركهم فى الأموال والأولاد ووعدهم ، يأتى يوم القيامة ويقول لهم ما رواه القرآن الكريم فى قول الله تعالى :

﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي**

وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(١) **وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾** [إبراهيم]

فالشيطان يحاول أن يُبرِّىء نفسه رغم علمه أنه قد وعد ، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به ، لذلك يحاول أنْ يُلصِق التهمة بمَنِ اتبعوه .

فهم قد أشركوه مع الله فى الطاعة ، حين استسلموا لغوايته ، ولم يكونوا من عباد الله المخلصين الذين أقسم بعزة الله ألاَّ يُغويَهم ، وكُلٌّ من هؤلاء نفَّذ ما أغواهم به ، فناداهم واستجابوا ، وناداهم الله فَعَصَوا أو كفروا ، وصاروا مثله ، فقد سبق أن أمره الله وعصاه .

لذلك كان قول الحق سبحانه :

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا(٢) **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ**(٣) **مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾** [الأعراف]

وهذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يُخرجنا من جنة التكليف ، كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة .

---

(١) الصارخ والصريخ : المستغيث . الاستصراخ : الاستغاثة والإغاثة . والصريخ : المغيث والمستغيث . (لسان العرب ـ مادة : صرخ).

(٢) السوءة: ما يقبح إظهاره وينبغى ستره . أى : يغطى عوراتكم ويسترها . (القاموس القويم ١/ ٣٣٤).

(٣) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون وكلها تناسب قوله تعالى : **﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢)﴾** (الإسراء) ، معك ليؤيدوك . (القاموس القويم ٢/ ٩٨) .

توبة الله على آدم :

ولكن الله عز وجل الرحيم بعباده أعدَّ للمذنبين منهم مغفرة لذنوبهم ، وشَرَعَ التوبة للعُصَاة ، وكان أول مَنْ تاب عليه هو آدم عليه السلام ، فقال تعالى:

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ[١] رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه]

إن بعض الناس يقول : إن آدم قد عصى وتابَ الله عليه . وإبليس قد عصى فجعله الله خالداً في النار .

نقول : إنكم لم تفهموا ماذا فعل آدم ؟

إنه أكل من الشجرة المحرَّمة ، وعندما علم أنه أخطأ وعصى لم يُصِرّ على المعصية ، ولم يَرُدَّ الأمر على الآمر ، ولكنه قال : يا رب أمرك ومنهجك حق ، ولكنني لم أقدر على نفسي فسامحني .

اعترف آدم بذنبه ، واعترف بضعفه ، واعترف بأن المنهج حَقٌّ ، وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى ، ولكن إبليس رَدَّ الأمر على الآمر ، قال :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦)﴾ [ص]

وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف]

وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾

[ص]

---

(١) اجتباه: اختاره واصطفاه . (لسان العرب ـ مادة : جبى) .

وقال : ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]

فإبليس هنا رَدَّ الأمْر على الآمِر ، لم يعترف بذنبه .

فإيَّاك أنْ تردَّ الأمر على الله سبحانه وتعالى .

فإذا كنتَ لا تصلى ، فلا تَقُلْ : وما فائدة الصلاة ؟

وإذا لم تكُنْ تزكِّى .. فلا تَقُلْ : تشريع الزكاة ظلم للقادرين .

وإذا كنتَ لا تطبق شرع الله .. فلا تَقُلْ : إن هذه الشريعة لم تَعُدْ تناسب العصر الحديث .

فإنك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله ، ولكن قُلْ : يا ربى إن فَرْضَ الصلاة حَقٌّ ، وفَرْض الزكاة حَقٌّ ، وتطبيق الشريعة حَقٌّ ، ولكننى لا أقدر على نفسى ، فارحم ضَعْفى يا ربَّ العالمين .

إنْ فعلتَ ذلك تكُنْ عاصياً فقط .

وقد يقول قائل : ما دام الحق سبحانه شرع التوبة ، فلأفعلْ ما أريد من المعاصى ، وبعد ذلك أتوب .

نقول له : إنك لم تلتفتْ إلى الحكمة فى إبهام ساعة الموت ، فما الذى أوحى لك أنك ستحيا إلى أنْ تتوبَ ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية .

وعليك أنْ تلتفتَ إلى دِقّة النصِّ القرآنى :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ[1] ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧)﴾ [النساء]

فهناك مَنْ يفعل المعصية ، ويُخطِّط لها ، ويفرح بها ، ويُزْهَى بما ارتكب ، ويفخر بزمن المعصية .

وهناك مَنْ تقع عليه المعصية ، وبمجرد أن تنتهي يظل نادماً ، ويضرب نفسه ويُعذِّبها ويتساءل : لماذا فعلت ذلك ؟

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين ، نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس ، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة مَنْ عاشوا في عاصمة فرنسا ، ويحاول أنْ يحصلَ على عناوين أماكن اللهو والخلاعة ، وما إنْ يذهب إلى باريس حتى ينغمسَ في اللهو ، وعندما يعود يظلّ يُفاخر بما فعل من المعاصي .

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة ، وبينما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين. إذن : هو إنسان وقعتْ عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أنْ هدأتْ شِرّة[2] الشهوة غرق في الندم ، وبعد أن عاد استترَ من زمن المعصية .

هكذا نرى الفارقَ بين المخطِّط للمعصية ، وبين مَنْ وقعت عليه المعصية .

---

(١) قال مجاهد وغير واحد : كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . (تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٣) .

(٢) الشرة : النشاط والرغبة. وشرة الشباب : حرصه ونشاطه . (لسان العرب ـ مادة : شرر) .

والله سبحانه حين قَدَّر أمر التوبة على خَلْقه رحم الخَلْق جميعاً بتقنين هذه التوبة ، وإلاَّ لَغرق العالمُ فى شرور لا نهايةَ لها ، بدايةً من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحرافَ عملاً له .

والمهم فى التائب أنْ يكونَ قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب .

والرسول ﷺ حين حدد معنى «من قريب» قال :

«إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[1]»[2] .

والحوار الذى دار بين الحق وبين إبليس :

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر]

إن إبليس قال ذلك وظَنَّ أنه سيُهلك البشر جميعاً ، ويُوقِعهم فى المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلَصهم له ، لكن الله سبحانه خيَّب ظَنَّه وشرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد .

فإذا ما قدَّم العبد التوبة لحظة الغرغرة ، فماذا يستفيد المجتمع ؟

---

(١) الغرغرة : تردد الروح فى الحلق . (اللسان ـ مادة : غرر) وهو قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤)﴾ [الواقعة] وذلك حين الاحتضار .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) وقال : حديث حسن غريب . والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبى ، وابن حبان (٢٤٤٩ ـ موارد الظمآن) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة ، لأنه تاب وقت ألاَّ شَرَّ له ، لذلك فعلى العبد أنْ يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصى.

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٧﴾﴾ [النساء]

تأمل كلمة (إنما التوبة على الله) تجدها فى منتهى العطاء ، فإذا كان الواحد فقيراً أو مَديناً ، وأحال دائنه إلى غنىّ من العباد فإن الدائنَ يفرح لأن الغنى سيقوم بسداد الدَّيْن وأدائه إلى الدَّائن ، فما بالنا بالتوبة التى أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله ؟ إنه قد أحالَ التوبة على نفسه لا على خَلْقه ، وهو سبحانه أوجبَ التوبة على نفسه ، ولا يملك واحد أنْ يرجعَ فيها .

ثم قال : ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. ﴿١٧﴾﴾ [النساء]

أى : أن العبدَ يرجو التوبة من الله .

والحق سبحانه يُعلِن للناس فى قرآنه :

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر]

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورتُه وعظمتُه ، ولا يُقال (نبئ) فى خبرٍ بسيط ، وسبق أنْ قال الحق سبحانه :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ]

وقال :

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص]

وهو الإخبار بنبأ الآخرة ، وما سوف يحدثُ فيها ، وهنا يأتى سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذى يختصُّ به عباده المخلصين المتقين الذين يدخلون الجنة ، ويتمتعون بخيْراتها خالدين فيها .

والحقُّ سبحانه خلقنا ويعلم أن للنفس هواجس ، ولا يمكن أنْ تسلمَ النفسُ من بعض الأخطاء والذنوب والوَسْوسة ، بدليل أنه سبحانه قد حرَّم الكثير من الأفعال على المسلم ، حمايةً للفرد ، وحمايةً للمجتمع أيضاً ؛ ليعيش المجتمع فى الاستقرار الآمِن .

فقد حَرَّم الحق سبحانه على المسلم السرقةَ والزِّنا وشُرْب الخمر وغيرها من الموبقات(١) والخطايا والهواجس التى تقوده إلى الإفساد فى الأرض.

وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعنى أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحرِّمًا ومُجرِّماً لمَنْ يفعل ذلك ، كما يُلزم كُلَّ المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا .

وهنا يُوضِّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، ألاَّ يُؤرِّق نفسه بتلك الغفلات ، فسبحانه رءوف رحيم .

---

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . وبق الرجل : هلك . قال الفراء : أوبقت فلانًا ذنوبه أى أهلكته . (لسان العرب ـ مادة : وبق). وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يا رسول الله وما هن ؟ . قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٩) كتاب الإيمان .

والحق سبحانه لا يُغلق باب التوبة أمام العاصى ، فلو لم تُشرع التوبة والعفو والمغفرة من الله لَزَادَ الناس فى معاصيهم وغرقوا فيها وتمادَوْا فى الشَّرِّ .

إن الله تبارك وتعالى حين يفتحُ باب التوبة يريد لحركة العالم أنْ تسيرَ ، هَبْ أنَّ نفسًا غفلتْ مرة ، أو قادتْها شهوتُها مرة إلى معصية ، أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء .

لو لم تكُنْ هناك توبة ومغفرة لانقلبَ كل هؤلاء إلى شياطين ، ولكن الحق سبحانه يُطمئن المؤمن على أغيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستجيب مرَّة لنزغات الشيطان ، فهذه لا تُخرِجه من حظيرة التقوى ؛ لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين .

فقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾ (آل عمران)

فالفاحشة التى تكون من نَزْغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تُخرِجهم أبدًا عن وَصْفهم بأنهم مُتقون ؛ لأن الحق سبحانه هو الغفور :

﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ... (١٣٥) ﴾ (آل عمران)

فالحق سبحانه وتعالى يعلم أن بنى آدم لا يمكن لهم أن يُراعُوا حقوقه

كما يجب أنْ تُراعى ، فـلابُدَّ أن تُفلتَ منهم أشياء ، وهو سبـحانه وتعالى يعلم ذلك ؛ لأنه خـالقه ، فـأمرهـم ـ جَلَّتْ حكمتـه ـ أنْ يستـغـفروه ، لِيُكفِّـروا عن سيئاتهم .

□□□

رؤية الله فى : الدنيا .. والآخرة

[٣٢] قال الله تعالى فى الحديث القدسى:

« يَا مُوسَى ، لَنْ تَرَانِى ، إِنَّهُ
لَنْ يَرَانِى حَىٌّ إلا مَاتَ ، وَلا
يَابِسٌ إلا تَدَهْدَهَ[١] ، ولا رَطْب
إلا تفرَّق . إنما يَرَانِى أَهْلُ
الجنَّةِ الذين لا تَمُوتُ أَعْيُنُهم ،
ولا تَبلَى أَجْسَادُهُم » [٢]

---

(١) يتدهده : يتدحرج . والدهدهة : قذفك الحجارة من أعلى إلى أسفل ، دحرجة . دهدهه : قلب بعضه على بعض . (لسان العرب ـ مادة : دهده).

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٣٥) ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥٤٤) وعزاه للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن ابن عباس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ..** (١٤٣)﴾ (الأعراف) .وأورد السيوطى أثرًا آخر فى الدر المنثور (٣/ ٥٤٦) وعزاه لابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس : « إن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه ، فسأله فقال : ﴿**لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ..** (١٤٣)﴾ (الأعراف) قال : فحف حول الجبل بالملائكة ، وحف حول الملائكة بنار ، وحف حول النار بملائكة ، وحف حولهم بنار ، ثم تجلى ربك للجبل تجلى منه مثل الخنصر ، فجعل الجبل دكًا وخر موسى صعقًا ، فلم يزل صعقًا ما شاء الله، ثم إنه أفاق فقال : ﴿ **سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** (١٤٣)﴾ (الأعراف) يعنى : أول المؤمنين من بنى إسرائيل» .

يقصُّ علينا رَبُّ العِزَّة سبحانه هذا الموقف مع موسى كليم الله فى قرآنه فيقول :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾

(الأعراف)

لا بُدَّ أنْ نعرف أن قضية رؤية الله فى الدنيا محسومة ، وأنه لا سبيلَ إلى ذلك والإنسان فى جسده البشرى ، لأن هذا الجسد له قوانينُ فى إدراكاته ، ولكن يوم القيامة نكون خَلْقًا بقوانين تختلف .

ففى الدنيا لا بُدَّ أن تخرج مُخلّفات الطعام من أجسادنا ، وفى الآخرة لا مُخلَّفات ، وفى الدنيا يحكمنا الزمن ، وفى الآخرة لا زمن ، إذْ يظلُّ الإنسان شبابًا دائمًا . إذن : فهناك تغيير .

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة ، ففى الدنيا بإعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى الله ، وفى الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى ، وهذا قمة النعيم فى الآخرة .

أنت الآن تعيش فى آثار قدرة الله ، وفى الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى .

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى ـ عليه السلام ـ بأن أراه العجز البشرى ؛ لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكًا .

وكأن الله يريد أن يُفهِم موسى أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته تعالى رحمة منه ، لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل ، فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى ؟

وإذا كان موسى قد صُعِق برؤية المتجلَّى عليه ، فكيف لو رأى المتجلِّى ؟

والمانع لرؤية الله هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية بالله . فنحن نعلم أن كُلَّ تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء ، وضربنا لذلك مثلاً من دُنْيانا العملية ، ولله المثَلُ الأعلى دائمًا ، وهو مُنزَّه عن كل مثال .

نجد الإنسان مِنّا عندما يُدخِل الكهرباء إلى بيته لرغبته فى الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول وبفوائد الكهرباء المتعددة ، ولكنه عندما يريد أنْ ينامَ فهو يطلب الانتفاع بقانون الظُّلْمة ، فيطفىء المصابيح ، ويضع مصباحًا صغيراً لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوى .

لذلك يأتى الإنسان بمُحوِّل للطاقة ، فيستقبل المحوِّل طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويُخفِّضها بصورة تناسب المصباح الصغير ، وهكذا نحتفظ بضوء ضعيف فى الليل لنستفيد من قانون الظلمة لننام .

لذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه :

﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** (١٠٣) ﴾ (الأنعام)

ولماذا لا تدركه الأبصار ؟ لأن البصَرَ آلةُ إدراك لها قانونها بأن ينعكس

الشعاع من المرئىّ إلى الرائى ويحدده ، فلو أن الأبصار تدركه لحددته، وأصبح مَنْ يراه قادرًا عليه ، ولصار مقدورًا لكم ، لأنه دخل فى إدراككم .

فلو أنك أدركت الله لكان الله مقدورًا لبصرك ، والقادر لا ينقلب مقدورًا أبدًا ، إذن: فمن عظمته أنه لا يُدْرك : أنت قد ترى الشمس ولكن أتدَّعى أنك أدركتَها ؟ لا ، لأن الإدراك معناه الإحاطة .

فإذا أحاطت الأبصار بالله انقلب البصر قادرًا ، وصار الله مقدورًا عليه ، والقادر بذاته ـ كما قلنا ـ لا ينقلب مقدورًا لخَلْقه أبدًا .

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا :

هل الإنسان يرى ربه أو لا يراه ، سواء فى الدنيا أم فى الآخرة ؟

بعضهم قال : لا أحد يرى الله بنصِّ الآية : ﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** ﴾ .

ونقول : لكن هناك آيات فى القرآن تقول :

﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** ﴾ (القيامة)

و « ناظرة » تضمن الرؤية وتُفيدها ، وأيضًا فالله يعاقب منْ كفر به ، بأن يحتجب عنه ، لأنه سبحانه القائل :

﴿ **كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)** ﴾ (المطففين)

فالكافرون محجوبون[1] عن رؤية الله عقابًا لهم ، ولو اشتركنا معهم

---

(١) الحجاب : الستر الحاجز . والمحجوب : الممنوع من الوصول . وقال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٨٥) : « قال الإمام الشافعى : فى هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه ـ عز وجل ـ يومئذ . وهذا الذى قاله الإمام الشافعى رحمه الله فى غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما =

وحُجِبنا كما حُجِبوا ، فما مَيْزتنا كمؤمنين ؟

وحين يَحتجُّ عالم منهم بأن رؤية الله غير مُمكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى :

﴿ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴿١٤٣﴾ ﴾

(الأعراف)

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ(١) مُوسَىٰ صَعِقًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأعراف)

إذن : فالله يتجلى لبعض خَلْقه . أما أن يراه الخلق فى الدنيا فلا ، لأن تكويننا غير مُؤهَّل لأنْ يرى الحق سبحانه ، بدليل أن الأصلب والأقوى منَّا وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندكَّ .

فلما اندكَّ الجبل خَرَّ موسى صَعِقًا ، فإذا كان موسى قد خرَّ صَعِقًا(٢) لرؤية المتجلَّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه ؟ إذن : فهو غير مُعَدّ له .

وموسى قد واعده ربه ليأتيه ، فقال تعالى :

= دل عليه منطوق قوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القيامة) وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم عز وجل ـ فى الدار الآخرة رؤية بالأبصار فى عرصات القيامة وفى روضات الجنات » .

(١) خر يخر : سقط من علو إلى سفل بصوت . (القاموس القويم ١/ ١٩٠) .

(٢) الصعق : أن يُغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه وربما مات منه ، ثم استعمل فى الموت كثيراً . (لسان العرب ـ مادة : صعق).

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . (١٤٢) ﴾ (الأعراف)

وقيل : كان موسى ـ عليه السلام ـ قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابُدَّ أن يكون الإعداد بطُهْر وبتطهير وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يومًا ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكًا وتسوك به ليذهب رائحة فمه .

فأوضح الحق سبحانه له : أما علمتَ يا موسى أن خلوف(١) فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل عليّ بريح المسك فزد عشرة أيام ، حتى تأتى كذلك(٢) .

وعندما جاء موسى للميقات كَلَّمه ربُّه ، وتكليم الله لموسى هو نقطة تميُّز لموسى ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي (١٤٤) ﴾ (الأعراف)

وحينما خَصَّ الله موسى بميزة أنْ تكلَّم إليه ، حصل من موسى استشراق اصطفائى ، وكأنه قال لنفسه : ما دام قد كلمنى ربى فقد أقدر أن أراه ، لأن

(١) الخلوف : تغيُّر ريح الفم لتأخر الطعام . (لسان العرب ـ مادة : خلف) .

(٢) أخرجه الديلمى فى الفردوس بمأثور الخطاب (٥٣٠٩) عن ابن عباس رفعه : « لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يومًا وقد صام ليلهن ونهارهن ، فكره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه : لم أفطرت ـ وهو أعلم بالذى كان ـ قال : أى رب كرهت أن أكلمك إلا وفيّ طيب الريح . قال : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك ، ارجع فصم عشرة أيام ثم إيتنى ، ففعل موسى الذى أمره ربه ، فلما كلم الله موسى قال له ما قال » . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥٣٥) وعزاه للديلمى .

استطابة الأُنْس تمدُّ للنفس سُبُل الأمل فى الامتداد فى الأشياء ، مثلما قال موسى من قبل رَدّاً على سؤال الله :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ⑰ ﴾ (طه)

كان الجواب يكفى أن يقول « عصا » لكنه قال :

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ⑱﴾ (طه)

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ماذا تفعل بها ؟

وأراد بالكلام أن يُطيلَ الأُنس بربه ، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة ، رَدّاً على سؤال .

ولله المثَل الأعلى ، نجد الإنسان مِنّا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويُطيل الكلام معه إيناسًا له ، وحين وجد موسى أن الله يُكلّمه استشرفت نفسه أنْ يراه .

وموسى لم يَقُلْ : أَرِنى ذاتك ، بل قال : ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إنْ أراه الله فهذا أمرٌ بمشيئة الحق ، وقدَّم موسى الطلب مُعلَّقًا بمشيئة الله وإرادته ، لأنه يعلم أنه غير مُعَدٍّ لاستقبال رؤية الله ، لأن تكوينه لا يقْوى على ذلك .

(١) هش الشجر يهشه : ضربه بعصًا ليسقط ورقه لتأكله الماشية . قال تعالى عن موسى: ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي⑱ ﴾ (طه) أى : أسقط بعصاى أوراق الأشجار على غنمى لتأكلها . (القاموس القويم ٢/٣٠٣) .

وحتى فى الوحى والكلام لم يُكلِّم ربُّنا الناس مباشرة ، بل لا بُدَّ أن يصطفى من الملائكة رُسُلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أنْ يصطفى من البشر رُسُلاً ، ويُبلِّغ الرسلُ الناس كلامَ الله ، لأن الصفات الكمالية العالية الخالقة لا يمكن أنْ يستوعِبها المخلوق .

وسبحانه هنا يُعلّل لموسى بعملية واقعية فأوضح :

لن ترانى ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تُمكِّنك من رؤيتى انظرْ إلى الجبل ، والجبل مفروضٌ فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك ، فإن استقرَّ مكانه يمكنك أن ترانى .

إن الجبل بحُكْم الواقع وبحُكْم العقل ، وبحُكْم المنطق أقوى من الإنسان وأصلب منه وأشدّ ، ولما تجلَّى ربُّه للجبل اندكَّ ، والدَّكُّ هو الضغط على شيء من أعلى لِيُسوِّى بشيء أسفل منه .

فطبيعة موسى لا تَقْوى على تجلِّى الله ، بدليل أن الأقوى منه لم يَقْوَ .

والحق سبحانه لم يقُلْ : « أنا لا أُرَى » بل قال « لن ترانى » .

فهناك فرق بين العبارتين . أنا أُرى ، لكن أنت بتكوينك الحالى الدُّنْيوى لن ترانى ، إنما قد تُغيِّر حالتك إلى أنْ ترانى ، وإذا كان البشر يستطيعون أن يجعلوا لمن لم يَرَ شيئًا أن يرى ، فيظل يُقوِّى من بصره إلى أن يرى .

وبعد ذلك أراد الله أنْ يلفتنا لَفْتة تصاعدية ، ويُبيِّن لنا أن موسى قد صُعِق لرؤية المتجلَّى عليه ، فكيف لو رأى المتجلّى ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأعراف)

ويُقال : خَرَّ الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل . وصَعْقة موسى تُعبِّر عن الإغماءة الطويلة ، فهي صعقة ليست مميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصَّعْقة ، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله .

لقد انصعق ؛ لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

(الأعراف)

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليّات المخالفة لنواميس الكون ، وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلَّمه الله ، فلماذا يُصعّد المسألة ويطلب الرؤية ؟

ولماذا لم يترك الأمور للفُيوضات التي يعطيها الله له ، ويتنعَّم بفيض جود لا ببذْل مجهود ؟

ويُقرّر موسى ويقول : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأعراف)

أي : بأن ذاتَك ـ سبحانك ـ لا يقدر مخلوقٌ أنْ يراها ويُدركها ، لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر ، لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته ، وقال :

﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ (الأعراف)

ويُذكِّر الحق سبحانه بنى إسرائيل بما قالوه ، فقال :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥)﴾ (البقرة)

فبعد أن تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم العجل عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديّتهم ، فَهُمْ كانوا يريدون إلهًا ماديًا ، إلهاً يرونه ، ولكن الإله من عظمته أنه غَيْب لا تُدركه الأبصار .

فكونُ الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر ، هذا من عظمته جَلَّ جلالُه ، ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادى المحسّ ، لا تتسع عقولهم ولا قلوبهم إلى أن الله سبحانه وتعالى فوق المادة وفوق الأبصار .

فهم طلبوا الرؤية مَجْهورة واضحة يُدرِكُونها بحواسِّهم ، وهذا دليل على أنهم مُتمسِّكون بالمادية التى هى قِوَام حياتهم .

نقول لهؤلاء : إن سؤالكم يتسِمُ بالغباء ، فهم لم يلتفتوا إلى أن بعضًا من كمال وجلال الله غَيْب ، لأنه لو كان مشهودًا مُحساً لَحُدِّد وحُيِّز ، وما دام قد حُدِّد وحُيِّز فى تصوُّرهم ، فذلك يعنى أنه سبحانه قد يوجد فى مكان ، ولا يوجد في مكان آخر.

والحق سبحانه مُنزَّه عن مِثْل ذلك ؛ لأنه موجود فى كُلِّ الوجود ، ولا نراه بالعين ، لكن نرى آثار أعمال وجميل صُنْعه فى كُلِّ الكون.

إذن : فكَوْنُ الله غَيْباً هو من تمام الجلال والكمال فيه ، لكن اليهود قد

صَوَّروا الأشياء كُلَّها على أنها حِسِّيَة ، حتى أمور اقتيات حياتهم وهى الطعام ، لقد أرادها الله لهم غَيْباً حتى يُريحهم فى التيه ، فأرسل عليهم المنَّ والسَّلْوى[١] كرزق من الغيب الذى يأتى إليهم ، لم يستنبتوه ، ولم يستوردوه ، ولم يعرفوا كُنْهه ، ولم يجتهدوا فى استخراجه.

إنه رِزْق من الغيب[٢] ، ومع ذلك تمرَّدوا على هذا الرزق القادم لهم من الغيب ، وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[٣] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا[٤] بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾ (البقرة)

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما أَلِفُوا ، وأنْ يَرَوْا هذا الطعام كأمر مادىّ من أمور الحياة ، لذلك تشكَّكُوا فى رِزْق الغَيْب ، وهو المنّ والسَّلْوى وقالوا : « مَنْ يُدرِينا أنَّ المنَّ قد لا يأتى ، وأنَّ السَّلْوى قد لا تنزل علينا ».

(١) المن : ندى يشبه العسل كان الله ينزله على الأشجار غذاء طيبًا لبنى إسرائيل. والسلوى : السمانى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا في الشتاء إلى البلاد الدافئة لمصر والسودان ويعود ما سلم منه فى أوائل الصيف إلى موطنه فى أوربا ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده. (القاموس القويم ١ / ٢٤٠ ، ٢ / ٣٢٦)

(٢) قال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾ (البقرة).

(٣) البقل : نبات عشبىّ يؤكل أو تؤكل بذوره ، أو كل ما اخضرت به الأرض. والفوم : الثوم. وقيل فيه أقوال أخرى : الحنطة ، الحمص. (القاموس القويم ٢ / ٩٢).

(٤) باءوا : رجعوا بإثم استحقوا به النار. (لسان العرب - مادة بوأ)

فلم تكُنْ لهم ثِقَة فى رزق وُهب لهم من الغيب ، لأنهم تناولوا كل أمورهم بمادية صِرْفة ، وما دامت كل أمورهم مادية فهم فى حاجة إلى هِزّة عنيفة تهزُّ أوصال ماديتهم هذه ، لِتُخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب.

فرغْم أنهم رَأَوا المعجزات ، وشَقَّ الله البحر لَهُم ، وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة فلم تكُنْ خافية عنهم ، بل كانت ظاهرة لهم واضحة ، دالّة دلالة دامغة على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى عظيم قدراته.

ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرة ، أى لم تكْفِهم هذه المعجزات ، وكأنما كانوا بماديتهم يريدون أنْ يروا فى حياتهم الدنيوية مَنْ لا تدركه الأبصار.

أما فى الآخرة فسيكون الإنسان قد تَمَّ إعداده إعداداً آخر ليرى الله ، نحن الآن فى هذه الدنيا بالطريقة التى أعدَّنَا بها الله لِنحيا فى هذا العالم لا نستطيع أنْ نرى الله.

ومسألة إعداد شىء ليمارس مهمةً ليس مُؤهّلاً ولا مُهيَّأ لها الآن ، أمر موجود فى دُنْيانا ، فنحن نعرف أن إنساناً أعمى يَتم إجراء جراحة له ، أو يَتم صناعة نظارة طبية له فيرى ، ومَنْ لا يسمع أو ثقيل السمع نصنع له سماعة فيسمع بها.

فإذا كان البشر قد استطاعوا أنْ يعدُّوا بمقدوراتهم فى الكون أشياءَ لِتُؤهّلهم إلى استعادة حاسَّة ما ، فما بالُنا بالخالق الأكرم الإله المربّى ، ألاَ

يستطيع أنْ يُعيد خَلْقنا فى الآخرة بطريقة تتيح لنا أنْ نرى ذاته ووجهه ؟

إنه القادر على كُلِّ شيء.

إن آيات القرآن صريحةٌ فى أن رُؤْية الحق سبحانه وتعالى من نِعَم الله على المؤمنين ، وهى زيادةٌ فى الحُسْنى عليهم.

قال تعالى :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ[1] وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾ (يونس)

فالزيادة عطاء زائد فى الحسنات ، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ، ويصل إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فبواحدة ، وهذا الكادر لا يُحدِّد فضل الله ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء.

فمراتب الجزاء تتعدد : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمائة ضعف ، والحُسْنى ، والزيادة عن الحُسْنى.

وقد قال رسول الله ﷺ فى ذلك :

«إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ قال : يقول الله تبارك وتعالى : تُريدون شيئاً أزيدكم ؟

فيقولون : ألم تُبيِّض وُجُوهنا؟ ألم تُدخِلْنا الجنة ، وتُنجِّنَا من النار ؟

قال : فيكشف الحجاب فَما أُعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم

---

(١) القترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان. (لسان العرب - مادة : قتر).

عز وجل»(١).

إنه نعيم على قَدْر إمكانات الله سبحانه ، ولا مُقارنَة بين إمكاناتِ الله وإمكانات خَلْقه ، وفوق ذلك فهو نعيمٌ دائم لا يتركك فيزول عنك ، ولا تتركه لأنك فى الجنة خالدٌ لا تموت.

يقول تعالى :

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾

(التوبة)

فَمَنْ عبدَ الله ليدخلَ الجنةَ أعطاها له ، ومَنْ عبده سبحانه لأنه يستحق أنْ يُعبد فسوف يرتقى فى الجنة ليرَى وجه الله فى كُلِّ وقت ، وأما الآخرون الذين أطاعوا رجاءَ ثواب الجنة فسيروْنَه لمحاتٍ ، ولذلك يكون الجزاءُ فى الآخرة على قَدْر العُمْق الإيمانىّ للعبد.

وجَنَّةُ الآخرة ليس فيها مُنغِّصَات الدنيا ، بل هى صفاء واستمتاع ، يعطى فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده مَا تشتهيه نفسه ويُبعد عنه جميع المنغِّصات ، وهو نعيمٌ مُقيمٌ دائم لا ينتهى.

❑❑❑

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨١) ، والإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومى ، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى فى هذا الكتاب (١/ ٣٦٧ - ٣٨٤)

سهــــام إبلــــيـــس

٣٣ قال رب العزة فى الحديث القدسى:

«النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمومٌ مِنْ سِهَامِ إبْليسَ، مَنْ تركَها مِنْ مَخَافَتي أَبْدلْتُه إيمَاناً يَجِد حَلاَوَتَهُ فِى قَلْبِه» (١)

لقد رَأفَ الحقُّ سبحانه بالرجل والمرأة أنْ أمرهما بغضِّ البصر، لأن الإنسان لن يستطيعَ مُطْلقاً أنْ يفصِلَ بين الإدراك والوُجْدان والنُّزوع ، فكُلٌّ من الإدراك والوُجْدان يصنعان تفاعلاً فى التركيب الكيمائى لكُلٍّ من الرجل والمرأة.

فإمَّا أنّ يعفَّ الإنسانُ نفسَه ويكبِت أحاسيسه ، وإمَّا ألاَّ يعف فَيَلُغ(٢) فى أعراض الناس ؛ لذلك خاطب الحقُّ سبحانه رسولَه ليُوجّه الرجال ، فقال:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) أورده المنذرى في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٧) وعزاه لعبد الله بن مسعود. وكذا العجلونى في كشف الخفاء (٢/ ٤٥٥) ، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد(٨/ ٦٣) عزوه كلهم إلى الطبرانى وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى وهو ضعيف. وقد أورده الحاكم فى مستدركه (٤/ ٣١٤) من حديث حذيفة غير مروى عن رب العزة ، قال الذهبى : « فيه واه وضعيف ».

(٢) الولغ : شرب السباع بألسنتها ، وولغ الكلب في الإناء : شرب فيه بأطراف لسانه . (لسان العرب - مادة : ولغ) والمقصود به الخوض في أعراض الناس.

﴿ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (النور)

وكذلك النساء ، فقال :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴿٣١﴾ ﴾ (النور)

فالآيتان تأمران الرجل والمرأة بغضِّ الأبصار وحِفْظ الفروج.

والإنسان له إدراكات متعددة ، وكُلُّ جهاز إدراك له مَنَاط ، فالأذن تسمع الأصوات ، والأنفُ تشمُّ الرائحة ، واللسان يتذوَّق المطعومات والمشروبات ، ويتكلم بما يُراد ، والعين ترى المرئيات.

وأفتَنُ شيء يصيب الإنسان من ناحية الجنس يأتي عن طريق العين، فالعين تُبصِر ما حولها ، فهناك مُبْصِر (بكسر الصاد) وهو العين ، وهناك مُبْصَر (بفتح الصاد) وهو مصدر الفتنة التي ستراها العين.

فلا بُدَّ أن يضع الحقُّ مناعة في كِلاَ الطرفين ، فأمرنا بغضِّ البصر ، وبعد ذلك ستأتي الآيات التي تأمر المبْصَر (بفتح الصاد) بعدم إبداء زينته.

فبالنسبة للعين أمرنا بغضِّ البصَر وأمر المؤمنات بالحِشْمة وعدم إبداء الزينة ، وبذلك يمنع المسألة من الناحيتين ، فحين تغضُّ بصرك عن محارم الله لا يَهُمك إنْ كانَ هناك زينةٌ أم لا.

- فإنْ غَضَّ الرجلُ بصره ولم يكُنْ للمرأة زينة ، فالمسألة سليمة تماماً.
- وإن غضَّ بصره وكانت المرأة مُبْديةً زينتها ، فالمسألة سليمة أيضاً ،

لأنه لن يرى منها شيئاً يفتنه طالما غَضَّ بصره.

- وإن نظر إليها وهى غير مُبْدية لزينتها فلن يحدثَ شيء.
- ولكن الخطورة فى الحالة الرابعة، وهى أنْ ينظرَ الرجل إلى المرأة وهى مُبدية لزينتها، فهنا مَكْمَن الخطر.

فالمؤمن يغضُّ بصره، والمؤمنة لا تُبدى زينتها، وتغضُّ بصرها أيضاً، حتى لا تُفتنَ برجل وَسِيم قد يكون أحسنَ من زوجها.

كُلُّ هذه المسائل مَنْع للشيء البشع الذى قال فيه الحق سبحانه:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الإسراء)

والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يتكلَّم عن أوامره ونواهيه، فنجده مرة يقول: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴿٢٢٩﴾ ﴾ (البقرة)

ومرة أخرى يقول: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴿١٨٧﴾ ﴾ (البقرة)

وهناك فارق بين الاثنين، فقوله تعالى (لاتعتدوها) يعنى: هذا حَدُّكَ فلا تتعدَّه، فأنت وصلتَ إلى الحدِّ ولكن لا تتعدَّه.

ولكن حين يقول سبحانه (فلا تقربوها) فأنت لم تصل إلى الحدِّ ولكنك بعيدٌ عنه، والملاحظ أن الحق سبحانه بعد كل الأوامر يقول (لا تعتدوها)، وعند النواهى يقول (لا تقربوها).

فالأمر المنهيّ عنه لا يتركك حتى تصِلَ إليه، ولكن يأمرك بالابتعاد عنه حتَّى لا يُغريك الشيطانُ بالوقوع فيه.

إذنْ : هناك فَرْق بين الفعل وبين أنْ تقربَ الفعل ، ومع أن المحرَّم هو الفعل ، فقد نهاك عن الاقتراب منه ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يرحمَ عواطفك فى هذه المسألة بالذات ، وهى مسألة الغريزة الجنسية ، لأنك إنْ حُمْتَ حول الحِمَى تُوشِك أنْ تُواقِعه(١) ، فحين تبتعد عنه يكون خيراً لك.

وقد قَسَّم العلماء مظاهر الشعور إلى ثلاث مراحل :

مرحلة الإدراك   مرحلة الوُجْدان   مرحلة النُّزُوع

وضربْنا مثلاً لذلك فَقُلْنا : أنت تسير فتجد بستاناً فيه وردة جميلة ، ساعةَ ترى هذه الوردة الجميلة يُقال : إنك أدركت جمال هذه الوردة ، فهذا إدراك ، فلم يمنعْكَ أحدٌ أن تنظرَ إلى الوردة وترى جمالها.

فإذا ما أعجبتْكَ وراقتْكَ واستقرّ فى نفسك حُبُّ الوردة ، يُقال : هذا وجدان. فانتقلت من مرحلة الإدراك إلى مرحلة الوُجْدان.

فإذا مددْتَ يدكَ لتقطِفها فهذه مرحلة النُّزوع.

الشرع هنا لا يمنعك من أنْ ترى وردةً فى بُسْتان ، ولم يمنعك أن تُعجبَ بها ، ولكنه يمنعك أنْ تمُدَّ يدكَ لتقْطِفها.

---

(١) عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بين وإن الحرام بَيّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » أخرجه مسلم في صحيحه (١٥٩٩) كتاب المساقاة ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٢ ، ٢٠٥١).

فالتـشريع يتكلم عن مرحلة النُّزوع إلاَّ فى مـسألة واحدة ، هذه المـسألة هى التى لا يمكن فيها فَـصْل النزوع عن الوُجْدان ، ولا الوُجْدان عن الإدراك ، لأنها مراحلُ مُتـداخِلة فى بعضها ، حيث لا تَقْوى النفس البـشرية على الفَصْل بينها.

فمـثلاَ ، إذا رأى إنسانٌ فتـاة جميلة فَـعَشِقـها وأُعجِب بها ، فـهذا إدراك ووجدانٌ ، ثم أراد الاقتراب منها نقول له : هذه ليست لك.

فهذه المـراحل لا يسهل فَصْلُها عن بعضـها ، لأن الإدراك وَلَّد وجداناً ، والوُجْدان أحدث فى النفس البـشرية عملية غريزية عنيفـة لا نستطيع أنْ نفصلَ النُّزوع عنها ، فإمَّا أنْ تنزع وتذهب إليها ، وإمَّا أنْ تعفَّ.

فإنْ نزعتَ وذهبت إليها أصبحتْ المسألة فوضى ، وإنْ لم تفعل تتضايق وتتألم ، وتظلّ عالقة بذهنكَ ويُتعِبك التفكير والتعلُّق بها.

فـربُّنا من رحـمـته قـال لك : يا عـبـدى أنا أعلم بك ، فـافْـصِل الإدراك والوُجْـدان عن النُّزوع فى المرأة بصـفة خـاصة ، لأنك لا تسـتطيع إنْ أدركتَ جمالاً ألاَّ تجدَ فى نفسك عِشْقاً وحُباً ، وأنت مُحرَّم عليك النُّزوع.

فإنْ أقبلْت هتكْتَ أعراض الناس ، وعَمَّتْ الفوضى ، وإنْ عففْت أتعبتَ نفسك وظللْتَ فى هَمٍّ وغَمٍّ ونكدٍ وألم نفسىّ ، فمـن الأفضل لك ألاَّ ترى شيئاً من ذلك ، وألاَّ تجد حتى لا تنزع.

ولذلك حَـرَّم الله علينا أنْ ننظرَ إلى أعـراض غيـرنا ، حتى يُريح الإنسـانُ نفسَه من أول الأمر.

فقال تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... ﴿٣٠﴾ ﴾ (النور)

فـــهناك غَضُّ النظـر إلى مـحــارم الله ، لأنك لو نـظرتَ لأدركتَ ، ولو أدركتَ لَوجدْتَ ، ولو وجدْتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدت الحـيـاة واعـتديْـتَ على الأعـراض ، وإنْ كـتـمْتَ فى نفـسك تعـبْتَ وتألمتَ وعانيتَ ، وعشْتَ حياةً تعيسة.

فالحقُّ سبحــانه اختصر الطريق لنا ، وأمرنا بغضِّ البصـر من البداية حتى لا نقع فى هذه المشكلة ونمنع حدوثهـا ، وحتى نحمى أعراض الناس ونرحم نفوس الشباب من أنْ تكتمَ وتكبتَ وتمرض وتتألم.

بعض المتحـايلين على أوامر الله يدَّعُون أن النظرةَ لا تُحدِث شـيئاً ، وأن كل واحد فى حاله ، ونحن نقـول لهم : هذا كلام الله الذى خلقنا ويعلم دخائل نفوسنا وطبيعتنا ، وهو الذى أمرنا بذلك.

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الإسراء)

لـم يَقُل لا تزنوا ... ولكن أمـرنا بعـدم الاقتـراب منه ، والاقتـراب يكون بالنظر وبالمخالطة والمـعاشرة والحديث بحجة أن هذا ابنُ خـالتها ، وهذا ابن عمتها ، وهذا ابن عمها ، وهذا تربَّى معها ، وهذا زميلها.

وهذا كله فـساد فـى فسـاد ، لأنه طالمـا يحل له أنْ يتزوَّجـهـا فلا عُـذْرَ

لاختلاطه بها ، وعليه أنْ يبتعدَ ما دام ليس مُحرّماً عليها ، وكفى المجتمعات مشاكل ومتاعب.

فامنعوا المسائل من أوَّل مراحلها.

لذلك أمر الحق سبحانه النساء بإخفاء الزينة ، فقال تعالى :

﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا(١) وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ(٢) عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ(٣) ... (٣١) ﴾ (النور)

الزينة هي الأمر الزائد عن الخِلْقة الفِطْرية ، ولذلك يقولون عن المرأة الجميلة بطَبْعها أنها ليست بحاجة إلى الزينة ، فكانوا يُسَمُّونها غانية(٤) ، أي : غَنِيَتْ بجمالها أنْ تتزيَّنَ.

والمرأة تُحِبّ دائماً أن تتزيَّنَ وتُبرِز جمالها ومفاتنها ، خاصة إذا كانت غير مُتديِّنة ، وذلك حتى تجذب أنظار الرجال إليها ، حتى أنك أحياناً ترى سيدة مُسِنَّة ، ومع ذلك تضع الأصباغ والمساحيق على وجهها ، وهذا شيءٌ غير لائق بها.

---

(١) أي : لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال عبد الله بن مسعود : الزينة زينتان ، فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، وزينة يراها الأجانب ، وهي الظاهر من الثياب. (تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٣)

(٢) الخمر : جمع خمار. وخمار المرأة : ما تغطي به رأسها ، وقد أمر الله النساء بإسداله على صدورهن. والخمار : خمر الشيء ستره ، وهو كل ما ستر وغطَّى. (القاموس القويم ١/ ٢١٠).

(٣) الجيب : جيب القميص والدرع. وهو ما يفتح منه على الصدر. ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ (٣١) ﴾ (النور) أي : يغطين أعلى صدورهن مع وجوههن. (القاموس القويم ١/ ١٣٨).

(٤) الغانية التي غنيت بحسنها وجمالها عن الحَلْي. (لسان العرب - مادة : غنى).

فالحقُّ سبحانه أمرَ المسلمات بغضِّ أبصارهِنّ ، وعدم إبْداء زينتهِنَّ ، ومع ذلك رَحِم الله ضَعْف الأنوثة ، فقال:

﴿ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا .. ﴿٣١﴾ ﴾ (النور)

مثل عينيها التى ترى بهما فى الطريق ، وقد يكون فيهما كُحْل ، وكذلك يدها قد يكون فيها خاتم أو حُلِىّ ، أو حنّاء ، فهذا مُبَاحٌ لها ، لكن زينة الصدر أو زينة الأُذن لا بُدَّ أنْ تُداريها بالحجاب أو الخِمار ، وكذلك الأَسْورة والخُلْخال.

ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴿٣١﴾ ﴾ (النور)

ومن العجيب أنك تجد الكثير من الفتيات والسيدات فى زماننا هذا لا تكتفى الواحدة منهُنّ بوضْع المساحيق على وجهها ، بل تكشف شعرها وصَدْرها ، وبعد ذلك تُعلِّق فى عنقها قلادةً ذهبية فيها مصحف.

وهذا شىءٌ عجيبٌ ومفارقات غريبة تدلُّ على عدم الوَعْى أو الفهم.

ويَقُصُّ لنا الحق سبحانه فى قرآنه مثالاً عملياً من قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، فيوسف بدأت متاعبه فى القَصْر عندما بلغ مرحلة الفُتُوة ، ففى طفولته نظرتْ إليه امرأة العزيز كطفل جميل ، فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها.

أما بعد البلوغ فنجد حالها قد تغيَّر ، فقد بدأتْ تُدرك مفاتنه ، وأخذ

خيالها يسرحُ فيما هو أكثر من الإدراك ، وهو التهاب الوُجْدان بالعاطفة المشبوبة[1]، ولو كانت محجوبة عنه لَمَا حدثتْ الغوَاية بالإدراك والوُجْدان.

وهذا يعطينا عِلَّة غَضٍّ البصر عن المثيرات الجنسية ، فكانت نظرتها إلى يوسف عليه السلام وهو فى فُتوته ، بعد أنْ بلغ أَشُدَّه نظرة مختلفة ، يُوضِّحها الله تعالى فى قوله :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ[2] ... (٢٣) ﴾ (يوسف)

والمراودة مطالبةٌ برفْقٍ ولِينٍ بستْر ما تريده ممَّنْ تُريده ، فإنْ كانَ الأمر مُسهّلاً فالمراودة تنتهى إلى شيءٍ ما ، وإنْ تأبّى الطرَفُ الثانى بعد أنْ عرفَ المرادَ فلن تنتهى المراودة إلى الشيء الذى كنت تصبْو إليه.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن أَثَر النظَر فى النسوة اللاتى أرسلت إليهن امرأة العزيز بعد أن شاعَ أمر حُبِّها وهُيَامها بفتاها :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ[3] لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ .. (٣٢) ﴾(يوسف)

---

(١) شب النار والحرب : أوقدها. شَبّة النار : اشتعالها. (لسان العرب - مادة : شبب) والعاطفة المشبوبة : المشتعلة المتقدة.

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : معناه أنها تدعوه إلى نفسها. أي : هلم لك. قيل : هي قبطية وقيل : حورانية (تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٣)وانظر أيضاً (الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١١٨) وقال في (٢/ ٢٥٤) : «هيت : اسم فعل بمعنى : أسرع وبادر».

(٣) يقال : حاش لله ، تنزيهاً له. قال مجاهد وغير واحد : معاذ الله. (تفسير ابن كثير ٢/ ٤٧٧).

فَهُنَّ حين آذِنَّ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه ، تخيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسْن ، لكنهن حين رأيْنَه فاقَتْ حقيقته المرئية كُلَّ صورة تخيَّلْنها عنه ، فحدثَ لهن انبهار.

وأوَّلُ مراحل الانبهار هى الذُّهول الذى يجعل الشىء الذى طرأ عليك يذهلك عَمَّا تكون بِصَدده ، فإنْ كان فى يَدِك شىء قد يقع منك ، وقد قطعتْ كُلٌّ منهُنَّ يدها بالسِّكين التى أعطتها لها امرأةُ العزيز لتقطيعِ الفاكهة ، أو الطعام المقدَّم لَهُنَّ.

□□□

النفس والأجل

٣٤ قال الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى للنفس:

«اخْرُجِى. قالتْ: لا أَخْرجُ إلاَّ كَارِهةً. قَالَ: اخْرُجِى وإنْ كَرِهْتِ» (١)

يقول الحق سبحانه:

﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً ..** (١٤٥) ﴾ (آل عمران)

فالله سبحانه هو الذى يُطلق الإذن، والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة، ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مَرَّةً هذه العملية للحق سبحانه، فيقولُ سبحانه:

﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٤٢) ﴾ (الزمر)

---

(١) أخرجه البزار (١/ ٣٧١ - كشف الأستار) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٢٥): «رجال ثقات».

ومرَّة أخرى يسند القرآن هذه العملية لملَك واحد هو مَلَكُ الموت ، فيقول :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ (السجدة)

ومرَّة يسندها الحق سبحانه إلى رُسُل من المعاونين لملَك الموت:

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً[1] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ (الأنعام)

فقبضُ الروح والإماتة له آمرٌ أعلى ، وهو الحق سبحانه ، ومن بعد ذلك هناك مُوكَّلٌ عامٌّ هو « عزرائيل » مَلَك الموت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة .

وهذه ثلاثة أساليب يَصِفُ بها الحق سبحانه عملية الوفاة وقَبْض روح العبد ، وليس فى هذا تناقضٌ أو تضاربٌ أو اختلاف ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التى صنعها الله ، فهو سبحانه الآمر الأعلى ، يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزْرائيل يُطلِق الأمر لجنوده .

فهذه الأساليب الثلاثة كلها صحيحة ، لأنها تتعلَّق بمدارج الأمر .

فالحق سبحانه وتعالى صادق فى كُلِّ بلاغ عنه ، لأن كُلَّ أمر يُحدِّد الأجل ليس بمراد الموكّل بإنهاء الأجَل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذى

(١) الحفظة : جمع حافظ . أي : ملائكة رقباء . (القاموس القويم ١/ ١٦٣) والحفظة : الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بنى آدم من الملائكة ، وهم الحافظون . (لسان العرب ـ مادة : حفظ).

يُحدّد ذلك ، وما دام كُلُّ أمرٍ قَدْ صدرَ منه فهو سبحانه الذى يتوفَّى الأنفس، وبعد ذلك فالمَلكُ الذى يتوفَّى الأنفسَ - عزرائيل- له أعوان.

فملَكُ الموت عندما يتلقَّى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشرَ كُلُّ واحد مُهِمته[1].

إذن : فصَيْرورة الأمر بالموت نهائياً إلى الله ، وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذْن ، والإذْنُ يقتضى مأذوناً ، والمأذون هم ملائكةُ الموت الذين أذن لهم مَلَكُ الموت بذلك ، وملَكُ الموت تلقَّى الإذن من الله سبحانه وتعالى[2].

إذن : فأمْرُ الموت مرهونٌ بمشيئة الله وطلاقة قُدرته وتحديده لكل أجَلٍ بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر.

---

(١) قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد ، فجلس رسول الله وجلسنا حوله ، فجعل يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى الأرض ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول : اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوانه فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا ، وإن كنتم ترون غير ذلك ، وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوطها ، فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين » أورده القرطبي في التذكرة (ص١٢٩) وعزاه لأبي داود الطيالسي وأحمد بن حنبل.

(٢) نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ : « ارفق بصاحبي فإنه مؤمن ، فقال ملك الموت عليه السلام : يا محمد ، طب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر ، إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم لأنفسهم ، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها ». أورده القرطبي في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص ٧٦) ط. دار التراث القاهرة.

لقد أبهمَ الله زمانه ، وأبهمَ مكانه ، وأبهمَ سببه ، وأبهمَ قَدْره. وهذا الإبهام هو أشدُّ أنواع البيان ؛ لأنه ما دام قد أبهمه فى كُلِّ هذه الأمور يجب أنْ نستعدّ للقائه فى كُلِّ زمانٍ ، وفى كُلِّ مكانٍ ، وبأيِّ سبب.

وإياك أن تتعجَّب لأنه يحدث فى أيِّ سِنٍّ ، فإبهام الحق له هو أكبر بيان ؛ لأنه سبحانه لو حَدَّده زماناً أو مكاناً أو سِنّاً أو سبباً ، لكَانَ على الإنسان أنْ ينتظرَ الموت.

لكن الحق سبحانه شاء هذا الإبهامَ ، وهو أَقْوى أنواع البيان ، لِيلْفِتك ويحثَّك على أن تنتظره فى أيِّ زمان ، وفى أيِّ مكان ، وبأيّ سبب ، وفى أيِّ سِنٍّ.

وبهذا يكون الموتُ واضحاً أمامنا جميعاً ، ولذلك تخشى ارتكاب أيّ ذنب حتى لا تُقبض رُوحك وأنت على الذنب ، لأنك لا تحب أنْ تلقى الله وأنت عَاصٍ.

إنك لا تضمن من عُمرك أنْ تعيشَ إلى آخر الوقت ، ولذلك عندما نقول : إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أنْ نُصدِّق ذلك ، لأن البعض يقول : ولماذا لم يُبيِّن الله لنا ذلك ؟

ودائماً أقول : لقد أوضح الله ما أبهم ، فإن الإبهامَ هو أَقْوى بيان ، أَلَمْ نَرَ إنساناً ذهب لطبيب ليعالجه فى مسألة ، فكان الطبيب سببَ موته ؟ لقد رأينا ذلك ، لقد أخذ هذا الإنسانُ بالأسباب ، ولم يمنع ذلك أن قَدرَ الله قد نفذَ فيه ، فقد يُخطىء الطبيبُ مثلاً فى إعطاءِ حُقْنةٍ فتنتهى الحياة.

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ .. (٣٤) ﴾ (الأعراف)

ولنعرفْ جميعاً أن كُلَّ أجلٍ - وإنْ طالَ - فهو معدود ، وكُلّ معدود قليلٌ مهما بَدا كثيراً.

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً .. (١٤٥) ﴾ (آل عمران)

هذا القَوْل قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموت أَمْر اختيارىّ ؟

لا ، ولكن قَوْل الحق سبحانه هنا له إيحاءٌ ، لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أنْ يفعلَ كذا ، فهذا معناه أن لفلان أنْ يختارَ أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفى قدرة فلان أنْ يفعلَ أو لا يفعل ، أما عن قدرة الله فلا يمكن أنْ يقولَ أحدٌ ذلك.

إننا نفهمه على فَرْض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموتَ إلا أنْ يأذنَ الله ، فإذا كانت النفس هى التى تدفع نفسها إلى موارد التهلُكة ، مع ذلك لا تملك أنْ تموتَ ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلُكة ؟

إذن : فالموت إنْ أرادتْهُ النفس فلن يأتىَ إلا أنْ يكونَ الله قد أَذن بذلك ، وإننا نجد فى واقع الحياة صَوراً شتّى من هذه الصُّور.

نجد مَنْ يضيق ذرعاً بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسعُ للبلاء

والكَدِّ فى الدنيا فينتحر ، إنه يريد أنْ يفرَّ ممَّا لا يقدر على دفع أسبابه.

أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرَّحْبة ، فأىُّ شقاء أو بلاء يُقابله يقول : إن لى رباً ، ومَا أجراه علىَّ ربِّى فهو المربِّى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعلَّ هذا البلاء كفَّارة لى عن ذنب.

وهذا عكس مَنْ يفرُّ ممّا لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتلَ نفسه[1] ، وكُلٌّ منّا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك ، لكن يتم إنقاذهم ويُدركهم مَنْ ينفذ مشيئةَ الله فى إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصاً سامة ، أو إطفاء حريق مَنْ أشعل فى نفسه النار.

فالمنتحر يريد لنفسه الموت ، ولكن الله إذا لم يأذن فلا يُبلغه الله هذا ، فقد تجد مُنْتحراً يريد أنْ يُطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد مُنْتحراً آخر يريد أنْ يشنقَ نفسه بحبل مُعلّق فى السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟

لأنه لا يقبض الحياةَ إلا مَنْ وهبَ الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذى يقتله إنسانٌ آخر . وهنا يَرِدُ المَثلُ الشعبىّ : لو صبر القاتل على المقتول لماتَ بمفرده .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (١٣٦٤ ، ٣٤٦٣) من حديث جندب بن عبد الله البجلى أن رسول الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكيناً فحزَّ بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات . قال الله تعالى في حديثه القدسي : « بادرنى عبدى بنفسه ، حرمت عليه الجنة » انظر شرح هذا الحديث (١ ١٢٣ - ١٣٤) (الحديث التاسع).

إن اللحظة التى تُفارق الروحُ مادة الجسد موقوتةٌ بأجل محدود ، فمرّة تأتى اللحظةُ بدون سبب ، فيموت الإنسانُ حَتْف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل ، إنهم ينسوْنَ أنه مات لأنه يموت بكتاب مُؤجّل .

ولذلك نجد إنساناً يسعى إلى عافية الحياة ، فيذهب لإجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت.

إن الكتابَ إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقى الإنسانُ بأسد ، فيستوى الموت بالنَّاب ، كالموتُ بظُفْر الأسد ، فإنْ نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قُرْص دواء أو جَرْعة ماء.

والحق سبحانه يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (٣٥) ﴾ (الأنبياء)

وما دامتْ كُلُّ نفس ذائقةَ الموت ، فهذه قضية كونية عامة ، فإنْ كان الموتى من الأخيار ، فالموت تعجيلٌ بهم إلى لقاء الله ، وإن كانوا أشراراً فالموت يُريح الدنيا منهم ، فالموْت خَيْرٌ فى كِلاَ الحاليْن(١).

ولكن كيف يُذاق الموت ؟

وإذا كان الذَّوق هو إحساسُ الإنسان بألم الموت ، فكيف يذوق الإنسان ألمَ الموت بعد أنْ يموتَ ويفقد الإحساس ؟

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٥١٢) عن أبى قتادة بن ربعى الأنصارى أنه كان يُحدِّث أن رسول الله ﷺ مرَّ عليه بجنازة فقال : مستريحٌ ومستراحٌ منه. قالوا : يا رسول الله ، ما المستريح والمستراح منه. قال : « العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله عز وجل ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ».

قالوا : إن المقصودَ كلُّ نفسٍ ستذوق مُقدِّمات الموت ، فيأتى على الإنسان وَقْتٌ - مهما كان صحيحاً - يدرك أنه لاَ محالةَ ميِّت ، فيذوق مُقدّمات الموت التى يعرف بها أنه سيموت.

وإذا استعرضنا كُلَّ ما فى الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلاَّ الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف ، إذن : فلا بُدَّ أنْ نلتفتَ فى حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أنْ نعُدّ العُدَّة لذلك ، وكلُّنا سائرون إلى هذه النهاية.

ولكن استقبالَ الموت فى لحظات السَّكَرات[1] يختلف بين المؤمن والكافر.

فعابد الدنيا عمل من أجلها فقط ، ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتى له الموت يجد أنه لم يُقدِّم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أنْ يتركَ نعيم الدنيا لِيُلاقى عذابَ الآخرة.

أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتى له الموت فهو يستبشر ، لأن الذى ينتظره خير يفوق كُلَّ الذى سيتركه ، كمثَلِ إنسان يعيش فى كوخ صغير ، ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألاَ يكون سعيداً ؟

وكذلك المؤمنُ عندما يأتيه الموت يصبح كالذى ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر ، أما صاحب الدنيا فمثَل الذى يُؤخذ من قصر إلى نار مُحرِقة ،

(١) السكرات : جمع سكرة وهو شدته وغَشْيته التى تدل الإنسان على أنه ميت . (لسان العرب - مادة : سكر).

ولذلك فهو يكره ساعة الموت [1].

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعِم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن فى الدنيا لا بُدَّ أنْ نأخذَ بالأسباب لنصنع ما نريد.

والمثال : أنك إنْ أردتَ أنْ تأكلَ فلا بُدَّ من أنْ تطهوَ الطعام أو أنْ يُعده لك غيرك ، وإنْ أردت أنْ تلبس فلا بُدَّ لك ممنْ يصنع لك القماش ويَحيك الثوب.

ووراء كل نتيجة تُوجد سلسلة طويلة من الأسباب ، فهناك الذى يزرع ، والذى يحصد ، والذى ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذى يطحن الدقيق أو ينسج القماش.

أما فى الآخرة فلا تُوجَد أسباب ، بل بمجرد أنْ يخطر الشيء على بالك تجدْه أمامك ، أليستْ هذه حياة نعيم ؟

إذنْ : فالذى تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن[2] ، والذى ينقبض وجهه ويتشنَّج عندما يأتيه ملَكُ الموت هو الكافر والعاصى ، لأنه سينتقل من

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. فقلت : يا نبي الله أكراهية الموت فكلنا نكره الموت. فقال : ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بُشّر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله ، وكره الله لقاءه» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٤) والترمذي في سننه (١٠٦٧). وقال : حسن صحيح.

(٢) قال الحسن البصري : لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه (انظر : إحياء علوم الدين ٤/ ٤٦٥).

نعيم حتى ولو كان نسبياً إلى عذاب رهيب.

ويُقال : إن فلاناً أحسنَ الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظةَ الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سَمْحة مُسْتريحة.

نقول : إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذبُ الإنسان فيها على نفسه ، ونحن نعلم أن الإنسانَ حين يشتدُّ عليه المرض فهو يتشبَّث بالأمل فى أنْ ينالَ الشفاء على يَدِ طبيب بارع ، لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموتَ يتخلَّله ، وأنه ميِّت لا محالة ، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (الواقعة)

حينئذ يستعرض أعماله ، فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره ، فيُقبض على هذا الوضع.

أما مَنِ امتلأت حياته بالسوء والمعاصى فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقْبض على هذا الوضع.

وهذا مَا نُسمّيه الخاتمة ، فلحظةُ الاحتضارِ فيها يقينٌ بالموت ، ففى ساعة الاحتضار يخلو الذِّهْن من أىِّ شىء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى بُؤْرة شعوره.

وقد أبهم الحق سبحانه مكان موت أحدنا ، فقال تعالى :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ[1] مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النساء)

فالحق سبحانه هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان ، فالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت - مكاناً - عليه أن يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك.

فلطافة تغلغل الموت تخترق أيَّ مكان[2] وزمان ، ما دام الحق سبحانه قد قضى به ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يحتاطَ منه أبداً ، فإذا كان الله قد جعل للإنسان رُوحاً يهبه بها الحياة ، فلماذا لا نتصوَّر أن للموت حقيقة.

فإذا مَا تسلَّل الموتُ للإنسان فإنه يسلُب الروح منه ، وبذلك نستطيع أن نفهم قَوْل الحق سبحانه وتعالى فى سورة الملْك :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (الملك)

إذن : فالموتُ ليس عمليةً سلبيةً كما يتوهّم بعضُ الناس ، بل عملية إيجابية وهو مخلوق بسِرٍّ دقيق للغاية يناسب دِقّة الصانع ، ووصف الحق سبحانه أمرَ الموتِ والحياة فى سورة الملْك ، وقدَّم لنا الموتَ على الحياة ، مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ، ثم يأتى الموت.

(١) البروج : جمع برج ، وهو الركن المرتفع أو الحصن العالى ، والبيت يُبْنى فوق السور أو في أعلى الحصن . والبناء المشيد : الذي أحكم بناؤه وطلى ورفع عالياً. (القاموس القويم ١/ ٦١، ٢/ ٣٦٣).

(٢) أورد القرطبي في التذكرة (ص ٧٥) من قول ابن عباس : « كان إبراهيم عليه السلام رجلاً غيوراً ، وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم ، فإذا هو برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك داري؟ فقال : أدخلنيها ربها. قال إبراهيم : أنا ربها ، قال : أدخلنيها من هو أملك بها منك ، قال : فمن أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ».

لا ، إن المـوتَ يكون أولاً ، ومِنْ بعـده تكون الحـيـاة ، فالحـيـاة تعطى للإنسان ذاتية ليـستقبل بها الأسـبابَ المخلوقة ، فيحـرثُ الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ، ويُمتّع به السمع والبصر ، فيظنُّ أن الحياة هى المخلوقة أولاً.

وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ (النساء)

أى : أَيْنمـا تُوجَـدون يُدرككم المـوت ، وهـذا دليـل على أن الإنسـان عندما تدبُّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح ، إلى أنْ يُدركها فى الزمن الذى قدَّره الله.

وكلمـة « يدرك » تُوضِّح لنا أن المـوتَ يلاحق الروح حـتى إذا أدركهـا سلبها ، وكما قال الأثر الصالح عن ملاحـقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جَرَتْ ، فلا أحدَ منكم إلا هو مُدْرَك ».

ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق :

« الموت سهم أُرسِل إليك ، وإنما عمرك هو بقدْر سفره إليك ».

وهكذا نعـرف أن قـوله الحق : (يدرككـم) يدل على أن المـوت يلاحق حياة الإنسان ، ويجرى وراء روحه حتى يُدركها.

والحق سبحانه يوضح أنه أَتَى بالموت ليؤدى أمرين :

الأمر الأول : أن مَنْ يؤمن عليه أنْ يستحـضرَ الموت لأن جزاءه لا يكون

له منفذ إلا أنْ يموتَ ويَلْقى ربه ، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساعةَ يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ، لأنه ذاهب إلى الجزاء.

والأمر الثاني : أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعدّ له ويخاف أنْ يُلاقِي ربه.

إذن : فكلمة « الموت » تعطى الرغَب والرهَب ، فصاحب الإيمان ساعةَ يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاعبَ الدنيا لن تدوم ، أريد أنْ ألقى ربى.

ولذلك يجب أنْ يستحضرَ المؤمنون بالله تلك القضية ، وحين يستحضرون هذه القضية يهونُ عليهم كُلُّ مُصَاب فى عزيز ، فالإنسان ما دام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذى راح منه إما مؤمن وإما غير مؤمن.

فإنْ كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذى افتقده ؛ لأن الله عَجَّل به ليرى خَيْره ، فإنْ حزنتَ لفقد قريب مؤمن فأنت تحزنُ على نفسك ، وإنْ كان الذى ذهب إلى ربه غَيْر مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شرِّه (١).

إذن : الموت راحة ، والذى عمل صالحاً يستشرف إليه ، وهذا رغب ، أما الكافر فهو خائف ، وهذا رَهب.

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه ، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم ». أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩٤٤) كتاب الجنائز.

ولذلك فمن الحُمْق أنْ يحزنَ الإنسان على ميِّت ، وعليه أنْ يلتفتَ إلى قول الحق سبحانه :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ (النساء)

فقدَرُ الله لا يمكن أنْ يمنعه مانع مهما كان ، ولا يمكن أنْ يحمى الإنسانُ نفسَه مما قَدَّره الله له.

ولذلك يردُّ الحق سبحانه على الذين قالوا :

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا .. ﴿١٥٤﴾ ﴾ (آل عمران)

فكأنهم أرادوا أنْ يُعلِّلوا القتلِ أو الموت بأسباب ، ومَنِ الذى قال : إن القتلَ أو الموتَ يتعلّق بأسباب ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ... ﴿١٥٤﴾ ﴾ (آل عمران)

إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ، ومجهولة الزمان ، ومجهولة المكان ، ومجهولة العمر.

إذن : فما دامت المسألة مجهولة ، فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس فى موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتِل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا فى مواقع قتال وحرب لكانَ لكم أنْ تقولوا هذا ، وإنما القتلِ والموت قضية عامة لها واقع فى حياتكم.

هذا الواقع لم يرتبط بـأرض ، ولم يرتبط بزمـان ، ولـم يرتبط بسِنٍّ ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتي لأنك تموت ، انتهت المسألة.

إذن : فَهُمْ عندمـا ربطوا القتل والموت بالموقـعة ، فهم قد خـرجوا عن القـضـية الإيـمانـيـة ، ولذلك يـأتي الـردُّ من الحـق سـبـحـانـه بأمـر واضح للـرسول ﷺ :

﴿ قُل لَّوْ كُنتُـمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَـرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْـهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ... (١٥٤) ﴾ (آل عمران)

فكأنك أيُّهـا المـيِّـت قد تـكون أحـرصَ على لقـاء المـوت من حـرْص الموت عليك ، بدليل أننا قُلْنا : إن الإنسان يكون مـريضاً ويُلِحّ على أن تُجْرى له عملية جراحية فيعتذر الطبـيب قائلاً : عندى عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فـيأتى له المريض بوساطة لكى يقبلَ الطبيبُ إجراءَ العملية الجـراحية ويُلح عليه ، ويُعْلى أجْر الطبيب وقد يموت المريض.

إذن : فهو يُلحّ على الموت ويحرص عليه.

ولا بُدَّ أنْ يُقـابل المؤمنُ مَـوْتَ عزيز عليـه بالصبـر والتسليم لِـقدَرِ الله ، وهؤلاء وصفهم الحق سبحانه بقوله :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ (البقرة)

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قَدْر إيلامها يكون الثوابُ عليها.

وأيُّ أمر يصيب الإنسان ، إمَّا أنْ يكونَ له دَخْل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن يجــزع لأنه هو الذى جــاء بالأمر المؤلم لنفـسه ، وإمّـا أنْ تكــونَ مصيبة لا دَخْلَ له بهـا ، وحدثتْ له من غـيره مـثلاً ، وعــند ذلك عليه أن يبـحث عن سببها : أعَدْلاً أم ظُلْـمًا ؟ إنْ كانت عَدْلاً فـهى قد جبـرت الذنبَ ، وإنْ كانت ظُلْمًا فـسوف يقتصُّ الله له ممَّنْ ظلمـه ، وعلى هذا فالمؤمن فى كِلْتَا الحـالتين رابح.

إذن : فالمؤمن يسـتقبل كُلَّ مصيبـة متوقعاً أن يأتى له منهـا خير ، وعلى كل مؤمن أنْ يُقيِّم نفســه تقييماً حقيـقياً : « هل لى على الله حق ؟ أنا مملوك لله وليس لى حَقٌّ عنده ، فما يُجريه علىّ فهو يُجريه فى مُلْكه هو »

ومنْ لا يعجبه ذلك فليتأبَّ على أىِّ مصيبة ، ويقول لها : لا تصيبينى.

ولن تسـتطيع دَرْء أىِّ مـصـيبـة ، ومـا دُمْنا لا نـسـتـطيع أن نمنع وقـوع المصائب والأحـداث ، فَلْنقبلْها - كمؤمنين - لأن الحقَّ سبـحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أنْ يُعزنا ويُكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾

إننا بهـذا الـقـول ننسب ملكيـتـنا إلى الله ونقـبل مـا حـدث لـنا ، فنحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه.

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ (البقرة)

فكُلُّنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ،

ويأخذ أسـباب حـياته برحـمة الله ، والنعم والخـيرات التى يعـيش عليهـا تأتيه بسبب رحـمة الله ، والمؤمن يأخذ نِعَم الـدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبـركة والاطمئنان.

والاطمئنان نعمة كبرى ، فَمَنْ يعِشْ فى هذه الحياة وهو مُطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان.

فالصلاةُ من الله عطاءُ الرحمة والبركة.

والصلاةُ من الملائكة استغفارٌ.

والصلاة من المؤمنين دُعاءٌ.

❑❑❑

٣٥ يقولُ ربُّ العِزَّة فى الحديث القدسى :

«أنَا مَعَ عَبْدى إذَا هُوَ ذَكَرنِى ، وَتحركَتْ بِى شَفَتَاهُ»(١)

الله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذِّكْر ، فكُلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرَهم وزَادَهم ، هـذه هى رغبـة الكريم فى أنْ يُعطى بشـرط أنْ نكون أهْلاً للعطاء ، لأنه يريد أنْ يُعطيك أكثرَ وأكثرَ.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ (البقرة)

اذكروا الله فى كُلِّ شيء : فى نِعـمه ، فى عطائه ، فى سِتْره ، فى رحـمته، فى تَوْبتـه . فاذكـرونى بالطاعة أذكـرْكُم بالخيـر والتجليّـات ، فالذِّكْـر يُورِث

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٥٤٠) ، وأخرجه البخاري في صحيحه معلقًا مجزوماً به (كتاب التوحيد - باب ٤٣) وعزاه ابن حجر العسقلاني فى الفتح (١٣/ ٥٠٠) لأحمد والبخاري في خلق أفعال العباد والطبراني من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال ابن حجر : « قال ابن بطال : معنى الحديث : أنا مع عبدى زمان ذكره لى ، أى أنا معه بالحفظ والكلاءة لا أنه معه بذاته ، حيث حل العبد. ومعنى قوله « تحركت بي شفتاه » أي : تحركت باسمى لا أن شفتيه ولسانه تتحرك بذاته تعالى لاستحالة ذلك. انتهى »

اطمئنان القَلب.

يقول تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** (٢٨) ﴾ (الرعد)

ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقرارُه وأُنْسُه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل لِيُناقِشها من جديد ، فالقلب يطمئنُّ بذكر الله ، فما أنْ يَذكرَ الله حتى يجد الاطمئنان ، ويتثبت قلبه.

ولكن الحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** (٢) ﴾ (الأنفال)

والوَجَلُ هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة واضطراب فى القلب ، وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ، ألاَ يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** (٢٨) ﴾ (الرعد)

فى الحقيقة ، لا يوجد تعارضٌ بين القولين ، لأن ذِكْر الله تعالى يأتى بأحوال مُتعدِّدة ، فإنْ كان الإنسانُ مُسْرِفًا على نفسه ، فهو يرجفُ حين يذكر الله الذى خالف منهجه ، وإنْ كان الإنسان يُراعى حَقَّ الله فى كل عمل قَدْر الاستطاعة فلا بُدَّ أن يطمئن قلبُه لحظة ذِكْر الله ، لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إذن: فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مهابة وسَطْوة صفات الجلال، والاطمئنانُ إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال.

ولذلك تجمعهما آيةٌ واحدة هى قَوْل الحقّ تبارك وتعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ... (٢٣)** ﴾ (الزمر)

فالجلود تقشعر خوفًا ووَجَلاً ومَهَابة من الله عز وجل، ثم تلين اطمئنانًا وطَمَعًا فى حنان المنَّانِ سبحانه وتعالى.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**(١) **وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)** ﴾ (الأعراف)

والذِّكْر مرور الشيء، إنْ كان بالبال فهو ذِكْر فى النفس، وإنْ كان باللسان ولا يُسمع الغير ويُسمعك أنت، فهذا ذِكْر السر، وإنْ كان جَهْرًا، فالمطلوب منك أنْ يكونَ دون الجَهْر، فلا ترفع صوتك بالذِّكْر لدرجة الإزعاج.

والحق سبحانه يقول مرة: ﴿ **اذْكُرُوا اللَّهَ ... (٤١)** ﴾ (الأحزاب)

ومرة يقول: ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ ... (٢٠٥)** ﴾ (الأعراف)

فقوله « اذكر الله » يُشعِر سماعها التكاليف؛ لأن الله هو المعبود، والمعبود هو المطاع فى الأوامر والنواهى.

أما قوله « اذكر ربك » فهو تذكير لك بما حباكَ به من أفضال، خلقك

---

(١) الأصيل: الوقت حين تصفرّ الشمس بعد العصر إلى المغرب، وقد يُراد به العشى. والجمع أُصُل. وجمع الجمع آصال. (القاموس القويم ١ / ٢١).

وربّاك ، وأعطاك من فَيْض نعمه مَا لا يُعَدُّ ولا يُحصَى ، فاذكر ربك ؛ لأنك إنْ لم تعشقْه تكليفًا فأنت قد عشقتَه لأنه مُمِدُّك بالنِّعَم ، وسبحانه يتفضّل علينا ويُوالينا جميعًا بالنعم.

وأضرب لك هذا المثل ـ ولله المثَلُ الأعلى وهو منزّه عن التشبيه ـ وأنت لك أولاد ، وتعطى لهم مصروفًا ، وحين تعطى لهم المصروف كل شهر تجدهم لا يحرصون على أنْ يروْكَ إلا كل شهر ، لكن إن كنت تعطى لهم مصروفهم يوميًا ، فأنت تلتفت لتجدهم حولك.

فإن كنت نائمًا يدخل ابنك لغرفة نومك يسير بجانبك ويتنحنح ليقول : إنه يحتاج لشيء موجود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكل وجودك عَبْدٌ لإحسان ربِّك ؟

وما دُمْتَ عَبْدَ الإحسان فاذكر مَنْ يُحسِن إليك ، اذكر ربك دائمًا . واذكره على حالين ، اذكره تضرُّعًا أى بذلّة ؛ لأنك قد تذكر واحدًا بكبرياء إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلّة عبودية لمقام الربوبية.

واذكر ربك خِيفة أى : خائفًا مُتضرِّعًا ؛ لأنك كلما ذللْتَ له يُعِزُّك ، فعبوديتك لله تعطى خَيْرَ الله لك.

والذكْر حدث ، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، والغُدوّ والآصال زمنان يستوعبان النهار ، فالغدوُّ هو أول النهار ، والآصال هو من العصر للمغرب .

هذه الأزمنة التى يُطلب فيها الذكر ، فقبل أن تخرج للعمل فى أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة ، وفى نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليُزيح عنك متاعب هذا اليوم.

لذلك ، إياك أنْ تشغلك الحياة عن واهب الحياة ، ولك أن تذكرَ ربّك وأنت تعيش مع كل عمل تؤدّيه وتقوم به ، وأنْ تقابل كُلَّ نتيجة للعمل بكلمة «الحمد لله»[1] وعندما ترى أى جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أنْ تقول « ما شاء الله »[2] وعندما ترى أىّ شيء يعجبك تقول «سبحان الله».

ولذلك ، حينما دعا الله خَلْقه المؤمنين به إلى صلاة الجمعة قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨ ﴾ (الجمعة)

ونعرف أن الصلاة إنما هى ذِكْر لربنا ، فماذا بعدها؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑩ ﴾ (الجمعة)

أى : إياك أن يشغلك انتشارك فى الأرض وابتغاؤك من فضل الله ،

---

(١) ورد ذكر «الحمد لله» فى القرآن ٢٤ مرة ، وكلها تأتى بعد نعمة يتمها الله على خلقه مثل : خلق السماوات والأرض ـ الهداية إلى الحق ـ وهب البنين لإبراهيم ـ نزول الكتاب ـ النجاة من الظالمين ـ إذهاب الحزن .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ... ㊴ ﴾ (الكهف)

والأخْذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله ، بل عليك أنْ تذكرَه سبحانه وتعالى .

فالحق سبحانه يطلب من المؤمنين به ـ وهو العليم ـ أن يداوموا الولاء له سبحانه كل يوم خَمْس مرات ، ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى ، وينبهنا أن نداوم على ذكره ، فكأنه يقول :

إياكم أن تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله(١)، أو تعتقدوا أن ذكر الله فى المسجد أو وقت الصلاة فقط ، بل داوموا على ذِكْر الله فى كل أحداث الحياة ، فإنْ فعلتُم ذلك وذكرتم الله كثيرًا فستكونون من المفلحين.

وذِكْر الله كثيرًا معناه أنك تشعر فى كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك، فتخشاه وتحمده ، وتستعين به ، وهكذا تكون الصِّلة دائمةً بينك وبين الله عز وجل فى كل وقت.

إن رسول الله ﷺ وهو معصوم ومُوحىً إليه وله من الصحابة ما يطمح أيُّ عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضًا من وصفه فى حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه وأبيه سيدنا على كرم الله وجهه.

قال الحسين : يا أبى ، قُلْ لى عن مجلس رسول الله ﷺ .

(١) يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ (المنافقون)

قال على كرَّم الله وجهه : كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذِكْر(١) .

وفى الحديث : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذِّكر »(٢) .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمَنْ كان قائمًا فقعد فقد أدَّى حركة هى القعود ، ومَنْ كان جالسًا فقام فقد أدَّى حركة هى القيام.

فكان رسول الله ﷺ يذكر الله فى كل حركة ، شاكرًا نعمة الخالق عز وجل ، وهو يُوجِّه الإنسان إلى ذكر خالقه عندكل قيام أو قعود ، ورسولنا ﷺ يُعلِّمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أنْ نذكرَ الذى خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وقد قال ﷺ : « إذا استيقظ أحدكم فليقل : الحمد لله الذى ردّ علىَّ روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لى بذكره »(٣).

فعلينا أنْ نُحسن الأدب مع الله بأنْ نذكره فى كل حركة ، فكل شىء فى

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/٢٧٣) عن الحسن بن على قال : سألت خالى هند بن أبى هالة التميمى ، وقال : «رواه الطبرانى وفيه مَنْ لم يسم» وقد أخرجه أيضًا البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه النسائى فى سننه (٣/ ١٠٩) والحاكم فى مستدركه (٢/ ٦١٤) من حديث عبد الله بن أبى أوفى وتمامه : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ، ويقل اللغو ، ويطيل الصلاة ، ويقصر الخطبة ، ولا يستنكف أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى له الحاجة ». قال الحاكم : «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٣) أخرجه النسائى فى «عمل اليوم والليلة» (حديث٨٧٢) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

هذا الكون باسم الله ، يتم باسم الله وبإذن من الله ، وحين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذى سخَّرْتَ ما فى الكون ليخدُمَك وينفعل لك .

وحين لا تبدأ العمل باسم الله ، فليس لك عليه جزاء فى الآخرة ، فتكون قد أخذت عطاءه فى الدنيا ، وبترْتَ أو قطعْتَ عطاءه فى الآخرة ، فإذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة فأقْبِلْ على كل عمل باسم الله .

قبل أنْ تأكلَ قُلْ باسم الله ؛ لأنه هو الذى خلق لك هذا الطعام ورزقك به، عندما تدخل الامتحان قُلْ باسم الله فيُعينك على النجاح، عندما تدخل إلى بيتك قُلْ باسم الله ؛ لأنه هو الذى يسَّر لك هذا البيت ، عندما تتزوَّج قُلْ باسم الله ؛ لأنه هو الذى خلق هذه الزوجة وأباحها لك .

فى كل عمل تفعله ابدأه باسم الله ؛ لأنها تمنعك من أىِّ عمل يُغضِب الله سبحانه وتعالى ، فأنت لا تستطيع أنْ تبدأ عملاً يُغضِب الله باسم الله ، إذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر ، أو أنْ تفعل عملاً يُغضِب الله ، وتذكرْتَ باسم الله ، فإنك ستمتنع عنه ، ستستحى أنْ تبدأ عملاً باسم الله يُغضِب الله ، وهكذا ستكون أعمالك كلُّها فيما أباحه الله .

والحق سبحانه يقول:

﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ ... (٢٠٥)** ﴾ (الأعراف)

والحق سبحانه يقول ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... (١١٠)** ﴾ (الإسراء)

فـاختـار هذا الاسم بالذات (الله) العَلَم على واجب الوجـود ، وهو اسمُ ذات لا يدلُّ على صفـة معينة ، لكنه يحمل فى طيـاته كُلَّ صفات الكمـال فيه، فإن كـان للأسماء الأخـرى مجال، فـالقادر فى القدرة، والحكـيم فى الحكمة ، والقابـض فى القَبْض ، والعـزيز في العزة ، فـإن لكل اسم مجـالاً وسيـالاً، فإن (الله) هو الاسم الجامع لكل الصفات.

﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... ﴿١١٠﴾ ﴾ (الإسراء)

فأيُّ اسم تدعو به ، لأن أسماءه كلها حسنى ، لكن لِيكُنْ عندك ذكاء فى الدعاء ، فـتدعو بما يناسب حاجـتك ، فإنْ أردت عِلْمًا فـقُلْ : يا عالم علِّمنى ، وإنْ كنتَ ضعـيفًا فقُلْ : يا قـوىُّ قوِّنى ، وإنْ أردتَ العزة فقُلْ : يا عـزيز أعِزَّنى وهكذا ... فإنْ أردت فقُلْ : يا الله تكفِكَ كل شىء .

والتسبيح من ذِكْر الله عَزَّ وجَلَّ ، قال تعالى :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (الحجر)

فهكذا يمكن أن تُذهِبَ عنك أىَّ ضيق ، أن تُسبِّح الله، فإذا ما جافاك البشر أو ضايقك الخَـلْق، فاعلم أنك قادر علـى الأُنس بالله عن طريق التسـبيح ، ولن تجِدَ أرحم منه سـبحـانه ، وأنت حين تُسبِّح ربَّك فـأنت تُـنزِّهه عن كلِّ شىء وتحمده، لتعيش فى كَنَفِ رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (الصافات)

ولذلك إذا ضاق صدرُكَ فى الأسباب فاذهب إلى المُسبب.

ونحن دائمًا نقرنُ التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص فى الذات، أو فى الصفات ، أو فى الأفعال ، وسبحانه كامل فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فذاتُه لا تشبه أىَّ ذات ، وصفاته أزلية مطلقة .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ (الروم)

فكل من المساء والصباح آية منه سبحانه ، فحين تغيب الشمس ، فهذا إذْنٌ بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذنٌ بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذى لا يشارك اللهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبدًا .

فكأنَّ سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزع إلى ربه من قسوة الخَلْق ؛ ليجد الراحة النفسية ؛ لأنه يأوى إلى رُكْن شديد .

ولهذا ، فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزه عن أن يكون مثلك ، والحمد لله واجب فى كل الأوقات ، فسبحانه الذى خلق المواهب كلها لتخدمك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها ، وتحمد الله سبحانه أنه قد وهبه تلك الموهبة ، فَخَيْر تلك النعمة يصل إليك .

وحين تُسبّح بحمد الله ، فسبحانه لا يخلف وعده لك بكل الخير ، فكلُّنا قد نُخلف الوعد رغمًا عنا ، لأننا أغيار ، أما الحق سبحانه فلا يخلف وعده أبدًا، ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْت الله وحمدته .

والحق سبحانه يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ (الأحزاب)

ويقول تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الإسراء)

وتسبيح الله وتنزيهه ثابت لله تعالى قبل أنْ يخلقَ منْ يُنزِّهه ، وثابت لله من جميع مخلوقاته فى السماوات والأرض ، فلا تكُنْ أيها الإنسان نَشَازًا فى منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكونىّ.

فالتسبيح لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ، إلا منْ أطلعه الله عليه ، فجميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شىء ، فهى تسجد وتسبّح بالإجماع ، وأحْرى بالإنسان أنْ يكون مُنْسجمًا مع الكون فلا يشذ عنه فى تسبيحه لله وذِكرْه سبحانه .

□□□

٣٦ الأمة الوسط

عن أبى سعيد رضى الله عنه قال(١) قال رسول الله ﷺ : « يَجِيءُ النبيُّ ومَعَهُ الرجُلاَنِ ، ويَجِيءُ النبيُّ ومَعَهُ الثَّلاثَةُ وأكثَرُ من ذَلكَ وأقلّ ، فيُقالُ له : هَلْ بلَّغْتَ قوْمكَ ؟ فيقول : نَعَمْ . فيُدْعى قَومُه ، فيُقَالُ : هل بلَّغكم؟ فيقولون : لا . فيُقالُ : مَن شَهِد لك ؟ فيقول: محمد وأمتُه ، فتُدْعى أمةُ محمد فيُقالُ: هل بلَّغ هذَا؟ فيقولون : نَعَمْ. فيقول : ومَا علْمكم بذلك؟ فيقولُونَ : أَخْبَرنَا نبيُّنَا بذلكَ أنَّ الرُّسُلَ قَدْ بلَّغُوا فَصدَّقْناهُ . قال : فذلكم قولُه تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ (البقرة)

فالأمة التى تتبع منهج الإسلام ـ وهو منهج الاعتدال ـ هى الأمة المهتدية التى تسير إلى العمل الصالح الصحيح ، وتعمل بـه وتُطبِّقه ؛ لأنه المنهج الذى ينسخ ما قبله ويُصحِّحه.

والرسول ﷺ هو المهيمن على كُلِّ منْ سبقه من الرسل ، وحياته وما جاء فيها من سلوك هو سُنة إيمانية تهدى المؤمنين إلى الطريق المستقيم .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٨٤) من حديث أبى سعيد الخدرى. وقد أخرجه أيضًا البخارى فى صحيحه (٤٤٨٧) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٢) من حديث الخدرى أيضًا.

والحق سبحانه يريدنا أن نتنبه إلى نعمته فى أنه جعلنا أمةً وسَطًا ، فكُلُّ ما يُشرِّعه الله يدخل فى باب النعم على المؤمنين ، وإذا كان الاتجاه إلى الكعبة هو اختبارٌ لليقين الإيمانى فى نفوس المسلمين ، فإنه سبحانه جعلنا أمة وَسَطًا نعمة منه سبحانه.

وما دُمْنا وَسَطًا فلابُدَّ أن هناك أطرافًا حتى يتحدَّد الوسط ، هذا طرف ، ثم الوسط ، ثم طرف آخر ، ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين .

ولكن ما معنى « أمة وسطًا» ؟ وسط في الإيمان والعقيدة ، فهناك مَنْ أنكروا وجود الإله الحق، وهناك مَنْ أسرفوا فعدَّدوا الآلهة ، هذا الطرف مخطىء، وهذا الطرف مخطىء.. أما نحن المسلمين فقلنا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واحد أحد.

وهذه بدهية من بَدَهيات هذا الكون؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ خلق الكون وخلق كل ما فيه ، وقال سبحانه: إنه خلق .. ولم يأتِ، ولن يأتى مَنْ يدَّعى الخَلق.

إذن : فالدَّعْوى خالصة لله ـ تبارك وتعالى ـ ولو كان فى هذا الكون آلهة متعددة لادَّعى كل واحد منهم الخَلقْ ؛ ولذلك فإن الله جَلَّ جلاله يقول :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٩١﴾﴾ (المؤمنون)

أى: لَتنازعَ الخلق ولاضطربَ الكون ، فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدُّد الآلهة ، على أن هناك أُناساً يُسرفون فى المادية ويُهملون القِيم الروحية، وأُناساً يهملون المادة ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها.

واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين ؛ لأن عندهم المال والقوة، الإسلام جاء وسطًا ، فيه المادة والروح ، وإياك أن تقول: الروح أحسن من المادة، أو المادة أحسن من الروح ، فالمادة وحدها والروح وحدها مُسخَّرة وعابدة ومُسبِّحة لله تعالى، لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس، والنفس هى التى لها اختيار ، تطيع أو تعصى، تعبد أو تكفر، والعياذ بالله.

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء ، وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ، ولا المادة وحدها ، وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء ، فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وَسَطاً تجمع خَيْرَ الطرفين ، نعرف أن الدين جاء لِيعصمَ البشر من أهواء البشر.

والحق سبحانه يقول: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.. (١٤٣)﴾ (البقرة)

أى : أن الحجة ستكونُ لكم في المستقبل ، وسيضطر العالم إلى الرجوع إلى مَا يُقنِّنه دينكم.

والله تبارك وتعالى قال: ﴿ أُمَّةً وَسَطًا(١٤٣)﴾(البقرة) ولم يقل«الوِسط» بكسر الواو - أى : المنتصف - حتى لا يُقال: إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماماً. ولكن بعضهم سيميل قليلاً إلى هذه الناحية أو تلك ، بحيث يتم اللقاء.

ولذلك عندما يقولون : نأخذ أموال الأغنياء ونُوزِّعها على الفقراء نقول لهم: وعندما يأتى فقير فى المستقبل .. من أين تعطيه بعد أنْ قضيتَ على الأغنياء؟

وقد سمعتُ من شخص له تجربة فى السياسة والحكم قال: إن الذى كان يعمل معى وأضاع ماله كله على الخمر والقمار والنساء كان أحسنَ منِّى ؛ لأننى احتفظت بأموالى ونمَّيْتها فقالوا : إنك إقطاعى وصادروها.. بينما ذلك الذى أسرف لم يفعلوا به شيئاً.

قلت : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منك أنْ تُنمِّىَ مالك؛ لأنك إنْ لم تُنَمِّه ودفعتَ عنه زكاةً (٥ , ٢٪)، فالمال يَفْنى خلال أربعين سنة، ولكن إذا نميتَ مالك وجاءوا إلى ناتج عملك وأخذوه بدعوى أنك إقطاعىٌّ، فإنهم يقضون على العمل في المجتمع ؛ لأنه إذا كان سيأخذ ناتج عمله بدون حَقٍّ، فلماذا يعمل؟

إن الإسلام جاء ليزيد مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك، ليأخذ من ماله زكاة ، ويُعين غير القادر حتى لا يحقد على المجتمع ، هذا وَسَط.

ولأن منهج الإسلام هو المنهج الوسط ، فكانت الأمة المكلَّفة بتبليغ هذا المنهج هى خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، فقال الحق سبحانه :﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** (١١٠)﴾ (آل عمران)

فالحق سبحانه وضع عناصر الخيرية فى أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، وائتمن الله تبارك وتعالى أمة محمد ﷺ على المنهج ؛ لذلك لم يأتِ نبىٌّ بعد سيدنا رسول الله ﷺ .

فالمصافى الاجتماعية ستظل موجودة فى أمة محمد ﷺ ، أما الأمم

السابقة، فبمرور الزمان يتخفَّف أتباع الرسالات السابقة من التكاليف ، حتى اندثرتْ وذهبتْ ، ومن رحمة الله تعالى بخَلْقه يُجدِّد سبحانه وتعالى الرسالة ببعْثِ رسول جديد.

والرسالة الجديدة تُعطِي ما كان موجوداً أوّلاً، فيما يتعلق بالعقائد والأخبار ، والأشياء التى لا تتغير ، وتأتى الرسالة الجديدة بالأحكام المناسبة لزمن الرسالة ، فإذا أمكن للبشر أنْ يُعدِّلوا من سياسة البشر يظل الأمر كما هو، فإنِ ارتكب واحد مُنكراً وضرب قومه على يده استقام أمْرُ الرسالة ، وبقيت هذه الأمة على الخير.

لماذا؟ لأن مَصَافى اليقين في النفس الإنسانية موجودة ، ونحن نراها ونلمسُها ، إن هناك واحداً تجد مصافي اليقين فى ذاته ، وقد لا يقدر على نفسه فيرتكب المعصية وتلومه نفسه ، فيرجع عن المعصية.

وتجد إنساناً آخر لا يجد فى نفسه مصافى اليقين ، ولكنها موجودة فى غيره ، فنجد مَنْ يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فإذا امتنعتْ المصافى الذاتية للإيمان ، وكذلك امتنعتْ المصافى الإيمانية فى المجتمع ، فلا أملَ هنالك، لذلك يجب أنْ يأتىَ رسول جديد ، ويُنبِّه الناس بمعجزة ما.

لذلك قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)** ﴾ (آل عمران)

فأمة محمد أفضل أمة أُخرِجَتْ للناس لا حَسَباً ولا نَسَباً ، ولكن اتباعاً لمنهج ، ومَن يتَّبع المنهج بـ«افعل» و«لا تفعل» فهو الذى يُطبِّق عملية الإيمان

بالله ، ومن أهل الكتاب مَنْ يؤمن بالله فيصير مسلماً ، ولكن الكثير منهم يخرج عن حدود الإيمان.

فموكب الرسالات سائر من لَدُنْ آدم ، وكلما طرأتْ الغفلة على البشر أرسل الله رسولاً يُنبِّههم ، ويُوقِظ القيم والمناعة الدينية التى توجد في الذات، بحيث إذا مالتْ الذات إلى شىء انحرافى تتنبه الذاتُ نفسها وتقول : لماذا فعلتُ هكذا؟ وهذه هى النفس اللوّامة ، فإذا ما سكتتْ النفس اللوامة واستمرأ الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أمّارة بالسوء طوال الوقت ، فالمجتمع الذى حوله يُعدِّله.

أما إذا فسد المجتمع ولم يجد العاصى مَنْ يوصيه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فإن الله يتدخّل بإرسال رسول جديد، ومعجزة جديدة ، ومنهج جديد، لكن الله ائتمن أمة محمد ﷺ على هذا الأمر، فلم يجىء رسول بعده ؛ لأننا خَيْر أمة أُخرِجَتْ للناس.

والخيرية تتجلى فى أننا نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر، فالتواصى باقٍ إلى أنْ تقومَ الساعة ، وهذه خاصية لن تنتهى أبداً ، فإنْ رأيت منكراً فلا بُدَّ من خلية خَيْر تنكره. وتقول : لا.

وإذا كان الحق قد جعل محمداً ﷺ خاتم الرسُل، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتى رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ .

فخيرية هذه الأمة ناشئة من حَمْل رسالة الدعوة ، وقد كرَّم الله أمة محمد بأنْ جعل كل مَنْ آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة ، لقد بلَّغ الرسول مَنْ عاصروه من أمته ، وعلى أمته أنْ تبلّغ مَنْ بعده ؛ لذلك يشهد علينا رسول الله، ونشهد نحن على الناس.

وفي الحديث الشريف : «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع» (١).

وهكذا تظل فى الأمة هذه الخيرية ، وتحمل دعوة رسولها، حيث لا رسولَ من بعده إلى يوم القيامة، ولأهمية هذا الدور الذى يقوم به المسلمون فى كل زمان ومكان يُنبِّهنا رسول الله ﷺ إلى مسألة هامة فى مجال حَمْل الدعوة ونَشْرها ، فيقول: «كل منكم يقف على ثُغْرة من ثغرات هذا الدين، فإياكم أنْ يُؤتَى الدين من ثُغْرة أحدكم».

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه ، فالعيون تتطلع إليه وترصُد تصرُّفاته فى مجتمعه ، فهو صورة للدين وسفير له ، وعليه أنْ يُراعى هذه المسئولية ، ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جَذْب ، وليكون وَجْهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

(النساء)

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٧)، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧،٢٦٥٨)، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/ ٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود.

والشهيد هو: الذى يشهد ليُقرِّر حقيقة. ونحن نعلم أن الحق سبحانه أخبرنا: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ (فاطر)

وهذا النذير شهيدٌ على تلك الأمة أنه بلَّغها المنهج، ورسول الله ﷺ شهيد على أمته أنه بلَّغَ، فيقول: أنا أبلغتهم الموقف، ولا عُذْرَ لهم لأننى أعلمتُهم به.

والله قد جاء بكتابه المعجزة، وفيه ما يثبت أن الرسل قد بلَّغوا أممهم، فكأن الرسول حين سُجِّل فى كتابه المعجزة وكتابه المنهج أن الرسل قد بلَّغوا أممهم فهو سيشهد أيضاً.

والحق سبحانه وتعالى يُوضِّح أن حال هؤلاء سيكون فظيعاً حينما يأتى يوم العَرْض يوم القيامة، ويقولون: إننا بلغناكم، أو : أن الحق عرض هذه المسألة بالنسبة للرسل وأممهم، وبالنسبة لرسول الله ﷺ وأمته أو للأمم كلها، فنحن أيضاً سنكون شهداء: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ (البقرة)

فنحن بنصٍّ هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة.

وقد روى عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال له: «اقرأ علىّ القرآن. فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ قال : نعم ،إنِّى أحبُّ أنْ أسمعه من غيرى، فقرأت سورة النساء ، حتى أتيتُ إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ (النساء). فقال: «حَسْبُكَ، فإذا عَيْناه تذرفان الدموع» (١).

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٠)، والبخارى فى صحيحه (٥٠٥٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٠) من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه.

فإذا كـان الشهيـد ﷺ بكى من وَقْع الآية ، فكيف يكون حال المشـهود عليه؟ الشـهيـد الذى سيشـهد بكى من الآية ، نعم ، لأنك تعـلم أن رسول الله ﷺ مُلِيء قلبه رحمةً بأمته.

والحق سبـحانه يُنبِّهنا إلى ضـرورة أنْ نستعـدَّ لليوم الذى يجمع الله فـيه الرسل يوم الحـسـاب ، أى: أننا علينا أنْ نـراعىَ الالتـزام فى تكالـيف المكلِّف الأعلى فى كل عمـل من أعمال الحـياة ؛ لأنه سبـحانه سوف يـسأل الرسل فى ذلك اليوم.

يقول تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩)**﴾ (المائدة)

أى: أنهم سـيُـسْألون : كـيف اسـتجاب النـاس للمنهج الذى دعـوتُم إليه؟وفى هذا تقـريع لمن خالف الرسل، ولم يؤمنـوا برسالات الرسُل، ذلك أنَّ مهمة الرسل هى البلاغ عن الله.

يقول تعالى: ﴿**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥)**﴾ (النحل)

والبـلاغ هو إنهاء الأمـر إلى صاحـبـه ، وقد قـال نوح لقومـه: ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢)**﴾ (الأعراف)

أى: أُبلِّغكم كُلَّ ما جعله اللـه منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقـيمة الثابتة، مثلما قال سبحانه:

﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (١٣)**﴾ (الشورى)

وهو الأمور المستقرة الثابتة العَقَديّة والأحكام التى لا تتغير. وفى آية أخرى قال سبحانه على لسان هود عليه السلام:

﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ [1] وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) ﴾ (الأعراف)

وقال سبحانه فى حَقِّ صالح عليه السلام وقومه ثمود: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾ (الأعراف)

وكأن سيدنا صالحاً قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم، وتحنَّن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله، لكنهم لم يستمعوا للنُّصْح ، ولم يُحبُّوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما أَلِفَه من الشرِّ ، وعندما ينصحه أَحَدٌ يغضب عليه.

ويقول الله عن بلاغ عيسى عليه السلام لرسالة الله:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ (المائدة)

وهذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق سبحانه وبين عيسى ابن مريم

---

(١) وقد ردَّ هود على قومه بهذا لأن الملأ الذين كفروا من قومه قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ (٦٦: الأعراف) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٢٤): «أى : فى ضلالة ، حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده».

عليه السلام ، يوم يجمع الحقُّ سبحانه وتعالى الرسل ، وقد عرض سيدنا عيسى عليه السلام ـ من خلال قوله لربه تبارك وتعالى ـ المنهج الذى جاء به على الناس جميعاً ، وبلَّغه تمام البلاغ ، فقد أبلغ أنه : عَبْدٌ لله، وأنه رسوله.

وما دام الحق سبحانه علاّم الغيوب فهو أعلم بكُلِّ شيء حتى بما فى النفس، كأنه يُثبِتُ أيضاً أن نفسه لم تُحدِّثه بأىِّ خاطر من تلك الخواطر، ويعلن أنه لم يُبلِّغ إلا ما أمر به الله.

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه: إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون لله، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أنْ يشهدَ فقط، والله القادر وحده على أنْ يشهدَ ويُغيِّر ويمنع.

والحق سبحانه يُقرِّر فى كتابه القرآن أنه ما من أمة إلا وقد أُرْسِلَ فيها رسول يُبلِّغ رسالات الله إلى قومه ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ (٣٦)﴾ (النحل)

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ (فاطر)

ولكن ، ماذا كان موقف أقوام الرسل منهم ، يقول تعالى:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ...(٣٦)﴾ (النحل)

٣٧ أَلْوَاحُ مُوسَى

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ عَنِ النبىِّ ﷺ قَالَ :

«لَيْسَ الخَبَرُ كالمعَاينَةِ، قَالَ اللهُ لموسَى : إنَّ قوْمك صنَعُوا كَذَا وكَذَا ، فَلَمْ يُبَالِ، فَلَمَّا عَاينَ أَلْقَى الألْوَاحَ»(١)

يقول الحق سبحانه:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾

(الأعراف)

هذا الوَعْد كان لإعطاء موسى المنهج ، فحينما كلَّم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور (٢) كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من ربِّ العالمين، وأنه أرسله ليخلِّص بنى إسرائيل من طغيان فرعون وعذابه ، وأنه سيمدُّه بآيات ومعجزات ، حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٧١)، والطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٤٥١) ، والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .قال الحاكم :«حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ولفظ أحمد:«ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

(٢) الطور : جبل بسيناء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر . ويُسمَّى أيضاً «طُورِ سَيْنَاءَ» (المؤمنون :٢٠).«وَطُورِ سِينِينَ» (سورة التين :٢) .(القاموس القويم ١/ ٤٠٨)

وذلك بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه إلى فرعون ، وما حدث مع السحرة ، ثم نجاة موسى وقومه ، بأنْ شقَّ الله جَلَّ جلاله لهم البحر (١) ، هذا فى وقت لم يكُنْ المنهج قد نزل بعد ، ولذلك فبمجرد أن نجَّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى وقومه وأغرق فرعون ، كان لا بُدَّ أن يتم إبلاغ موسى بالمنهج.

وكان الوَعْد يشمل أربعين ليلة ، هذه الليالي الأربعون حُدِّدَتْ كثلاثين أولاً ، ثم أتمها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعشر أخرى.

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أنْ تحدث عملية إنجاء بنى إسرائيل أنه سبحانه سيُنـزِل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خَلْق الله لتسير حركة حياتهم عليه.

لكن ما إنْ ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل، فى مدة الثلاثين يومًا ، ولم يشأ الله أنْ يُرسِل موسى بعد الثلاثين يوماً (٢)، بل أتمها بعَشْر أُخَر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ، لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يُعنِّفُهُ ، ويشتد عليه ، ويأخذ بلحيته يجرُّه إليه ، إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل.

وفى ذلك يقول الحق على لسان هارون:

﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ (طه)

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣) (الشعراء).

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٤٣) : «الأكثرون على أن الثلاثين هى :ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة. قاله مجاهد ومسروق وابن جريج».

وقد كان موسى ـ عليه السلام ـ قد أوصى هارون بأن يخلفه فى قومه، أى : أن يكون خليفة له فيهم إلى أن يرجع ، والحق سبحانه يقول: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (الأعراف)

وهو قَوْل فيه تحنُّن، أى: أن موسى يقول لأخيه هارون: لى بك صِلَةٌ قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة ، فأنا أَخٌ لك وأنت أخٌ لى ، ومن حَقِّى عليك أن تسمع كلامى وتخلفنى، فالأُخوَّةُ مقرونة بأنك شريكٌ معى فى الرسالة.

إذن : نجد أن موسى قد قدَّم حيثية الأُخوَّة ، والمشاركة فى الرسالة . وأكَّد عليه السلام بكلمة «قومى» أنهم أعزّاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نَهياً فاعلموا أن موسى هو أوَّل مَنْ يُطبِّقه على نفسه.

وقيل : كان موسى ـ عليه السلام ـ قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولا بُدَّ أن يكون الإعداد بطُهْر وبتطهير ، وبتزكية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأخذ سواكاً وتسوك به ليُذهب رائحة فمه.

فأوضح الحق سبحانه له: أما علمتَ يا موسى أن خُلُوف (١) فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أنْ تُقبِلَ علىّ بريح المسك فزِدْ عشرة أيام حتى تأتى كذلك (٢).

---

(١) الخلوف : تغيُّر ريح الفم لتأخر الطعام . (لسان العرب ـ مادة : خلف) .

(٢) أخرج الديلمى فى «الفردوس بمأثور الخطاب» (٣/ ٤٢٧) (حديث رقم ٥٣٠٩) عن ابن عباس رفعه : «لما أتى موسى ربه ، وأراد أن يكلمه في الثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن، فكره أن يكلم ربه عزوجل ، وريح فيه ريح الصائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه حين أتى موسى: لم أفطرت ـ وهو أعلم بالذى كان ـ قال : إنى يارب كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب =

قال بعض العلماء : إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ؛ لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم العجل بعد موسى ، فكان ولابُدَّ أن تكون هناك فترة من الفترات ، حتى يميز الله الخبيث من الطيب.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾

(الأعراف)

والميقات هو الوقت الذى يُعَدُّ لعمل من الأعمال ، وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة ، وقال له **﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾** (الأعراف)

والاصطفاء هو استخلاص الصَّفْوة ، والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل، بالإضافة إلى شرف تكليم الله له.

وحينما خصَّ الله موسى بميزة أن تكلّم إليه حصل من موسى استشراق اصطفائى، وكأنه قال لنفسه: ما دام قد كلّمنى فقد أقدر أنْ أراه ؛ لأن استطابة الأُنْس تمدُّ للنفس سُبُلَ الأمل في الامتداد فى الأشياء ، فقال : **﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ(١٤٣)﴾** (الأعراف)

فقال الحق سبحانه له:

= الريح. قال : أما علمت يا موسى أن فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ، ارجع فصم عشرة أيام ففعل موسى الذى أمره ربه، فلما كلم الله موسى قال له ما قال .

﴿ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا (١٤٣) ﴾ (الأعراف)

وسبحانه هنا يُعلِّل لموسى بعملية واقعية ، فأوضح : لن تراني، ولكن حتى أُطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكِّنك من رؤيتي انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك ، فإنِ استقرَّ مكانه يمكنك أنْ تراني.

إن الجبل بحُكْم الواقع ، وبحُكْم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من الإنسان ، وأَصْلَب منه وأشدّ ، ولما تجلّى ربُّه للجبل اندكَّ.

إذن: فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خَلْقه ، ولكن المهم أَيقْوى المستقبل للتجلِّي أو لا يقوى؟

وبعد ذلك أراد الله أنْ يلفتنا لَفْتةً تصاعدية ، ويُبيِّن لنا أن موسى قد صَعِق لرؤية المتَجلَّى عليه ، فكيف لو رأى المتجلِّي؟

ويقول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً [1] وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾ (الأعراف)

(١) قد ذكر السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٥٩) آثاراً ، ذكر فيها بعض هذه المواعظ المكتوبة في التوراة. منها.

ـ اتق الله يابن آدم ، وإذا شبعث فاذكر الجائع. أخرجه أحمد في الزهد عن خالد الربعي.

ـ ابن آدم ، ارحم ترحم ، إنه من لا يَرحم لا يُرحم ، كيف ترجو أن أرحمك وأنت لا ترحم عبادي. أخرجه أحمد عن قتادة.

ـ يابن آدم ، لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكياً ، فإني أنا الله الذي اقتربت لقلبك ، وبالغيب رأيت نوري. أخرجه أحمد وأبو نعيم في الحلية عن مالك بن دينار. =

ونحن نعرف الألواح ، وكُنَّا نكتب عليها قديماً ، وللكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا يكتبون على أيِّ شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات، فمثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذى أتاح لنا معرفة تاريخهم.

وكان العرب يكتبون على اللُّحف المأخوذة من النخل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جداً لديهم ، وصار كل مكتوب عليه يُسمُّونه لَوحاً.

لقد أوضح سبحانه أنه كتب فى الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة، والموعظة تعنى ألاّ تُنشِىء حُكْماً للسامع ، بل تَعِظُه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل؛ ولذلك يُقَال : واعظ ، وهو الذى لا يُنْشىء مسائل جديدة ، بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويَعظُه بما يعلم.

والحق سبحانه يأمر موسى أن يأمر قومه أنْ يأخذوا بأحسنها ، فيقول تعالى : ﴿ **وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** (١٤٥) ﴾ (الأعراف)

فالإنسان إذا روَّض نفسه وذلَّلها وعوّدها على الأحسن يكون قد فَهِم عن الله ، فهناك حَسَن وهناك أَحْسَن ، فلتأخذوا بالأحسن منهما.

= ـ ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ قلبك غنى وأسُدّ فقرك ، وإن لا تفعل أملأ قلبك شغلاً ولا أسدّ فقرك. أخرجه أحمد وأبو نعيم عن خيثمة.

ولكن بنى إسرائيل لم يعملوا وَفقْ منهج الإيمان ، بل إنهم عـبدوا عِجْلاً صنعه لهم السامرى (١) من الذهب الذى سرقوه من أهل مصر ، فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ (الأعراف)

لقـد احتال بـنو إسرائيل على أهل مـصر، وأخـذوا منهم الحلى كسلـفة سيردونها من بعد ذلك (٢)، ثم جاء رحيلهم فأخـذوا الحلى معهم ، وغرق قوم فرعـون وبقيتْ الحلىّ مـع قوم موسى، وصنع مـوسى السامـرى من ذهب هذه الحلىّ عِجْلاً.

وقد صنعـه السامرىّ من الذهب ، وكـأنه يريد أنْ يتميـز عن الآلهة التى كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً ، فصنعه من الحلىّ المسروقة، وصنعـه بطريقة تجـعل هذا العجل الجسد إذا مـا استقبل من دُبره هَبَّـة الهواء صنعتْ وأحدثتْ فى جـوفه صوتـاً يشبه صَـوْت وخُوار البقـر الذى يخرج من فمه.

---

(١) السامرى : رجل مـن منافقى بنى إسرائيل، أغواهم بعـبادة عجل صنعه كـعجل أبيس من الحلىّ أثناء غياب مـوسى ـ عليه السلام ـ لمناجاة ربه. (القامـوس القويم ١/ ٣٢٧) . والسامرة : قبـيلة من قبائل بنى إسرائيل قـوم من اليهود يخـالفونهم فى بعض دينهم، إليهم نسب الـسامرى الذى عبـد العجل. (لسان العرب ـ مادة : سمر).

(٢) قال قتادة فى قوله ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾(١٤٨: الأعراف) استعاروا حلياً من آل فرعون، فجمـعه السامرى فصـاغ منه عجلاً فجعله الله جـسداً لحماً ودماً له خـوار . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٥٦٣).

وقد اختار السامرى العجل ؛ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأَوْا قدماء المصريين وهم يعبـدون العجل لمزية فيه ، فقـد كانوا يروْنَ فيه مظهر قـوة ، كما عبـد الآخرون الشمس حين رأوا فـيها مظـهر قوة ، وكـذلك مَنْ عبدوا القـمر والنجوم ، وقدماء المصريين عبدوا العجل ؛ لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل حين يريدون حَرْثَ الأرض.

وكان العجل أيِّداً ، أى : قوياً شديداً فى حَرْث الأرض ، وهذا مظهر من مظاهر القوة ، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عِجْلاً يعبدونه بعد أن أتمَّ عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله؟

وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز ببـنى إسرائيل البحر ، ومـروا على قوم (١) يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى عليه السلام:

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (الأعراف)

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لا بُدَّ أن يتلقَّى من المعبـود أوامر، وأن يكون عند المعبـود منهج يريد من العبـد أن يُنفِّذه ، وأن يأتى المنهج بواسطة رسل يُبلِّغون رسالات الله وكلام الله للبشر.

أما الذين يعـبدون الشمس ـ مثـلاً ـ فنسألهم: لماذا تعبدونهـا؟ وما المنهج الذى أرسلتْه الشمس لكم؟ وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضى أمراً ونَهْياً فى «افعل» و «لا تفعل»

---

(١) قال قـتادة :هم قوم لخم. وقـال أبو عمران الجـونى: هم لخم وجذام. (الدر المنثـور ٣/ ٥٣٣) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٢٤٢) : «قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين. وقيل : كانوا من لخم».

واتخاذ العجل فى ذاته ليس معصية إذا اتخذته لـلحرْث أو للذبح لتأكل لحمه ، ولكن المعصـية هى اتخاذ العجل معبوداً ، ولم تعبـدوه سراً بل عبدتموه جَهْراً ، ولذلك فهو أمر ليس محـتاجاً إلى شهود ولا إلى شهادة ؛ لأنه حَدَث عَلَناً وأمام الناس كلهم.

وقد جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفى لتمـلأ قلوبكم بالإيمان ، وتجعـلكم لا تعبدون إلا الـله ، فلقد شَقَّ لكم البـحر ومررتُم فيه وأنتم تنظرون وترون.

أى : أن المعجـزة لم تكُنْ غَيْـباً عنكم ، بل حـدثتْ أمامكم ورأيتـموها ، ولكنكم بمجرد أن تجـاوزتم البحر وذهـب موسى للقاء الله ، بمجـرد أن حدث ذلك اتخذتم العـجل إلهاً من دون الله وعبدتموه ، فـكيف تدَّعُون أنكم آمنتم بما أُنزِل إليكم ، لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهاً.

وبعد أن ذكّـرهم الحق ـ سبحانه وتعـالى ـ بكُفْرهم بعبـادتهم للعجل ، وكـان هذا نوعاً من التـأنيب الشديد والـتذكـير بالكفـر ، أراد أنْ يُؤنِّبهـم مـرة أخرى ، وأنْ يُذكِّرهم أنهم آمنوا خَوْفـاً من وقوع جبل الطور عليهم ، ولم يكُنْ الجبل سيقع عليهم ، لأن الله لا يقهر أحداً على الإيمان ، ولكنهم بمجرد أنْ رَأَوْا جبل الطور فوقهم آمنوا.

ولا بُدَّ أنْ نؤمن أن رفع جبل الطور فوق اليهـود لم يكُنْ لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حـتى لا يُقال : إنهم أُجبروا على ذلك ، ولكن اليهـود قوم ماديون

لا يؤمنون إلا بالمادة ، والله تبارك وتعالى أراد أن يُريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله.

ولقد قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا**[١] **فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)**﴾ (البقرة)

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يُصوِّر لنا ماديتهم ، فالحب أمر معنوى، وليس أمراً مادياً ؛ لأنه غير محسوس ، وسبحانه يريد أنْ يعطينا الصورة الواضحة الكاملة فى أنهم أُشْرِبوا العجل ذاته ، أى : دخل العجلُ إلى قلوبهم.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يلفتنا إلى الشيوع فى كل شيء بكلمة (أُشْرِبُوا) ؛ لأنها وصف لِشُرْب الماء ، والماء يتغلغل في كل الجسم ، والصورة تُعرِب عن تغلغل المادية فى قلوب بنى إسرائيل ، حتى كأن العجل دخل فى قلوبهم ، وتغلغل ، كما يدخل الماء فى الجسم ، مع أن القلب لا تدخله الماديات.

ويقول سبحانه عنهم:

﴿**وَلَمَّا سُقِطَ**[٢] **فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)**﴾ (الأعراف)

---

(١) أُشرِب فى قلبه الشيء أو أُشرب حُبَّه : أى خالط حبّه قلبه كأنه شربه. قال تعالى ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ** . .﴾ (٩٣: البقرة) أى: حب العجل (القاموس القويم ١/ ٣٤٤).

(٢) قال الفارسى : ضربوا بأكفهم على أكفهم من الندم. وقال الفراء : يُقال سقط فى يده وأُسقط من الندامة. وسُقط أكثر وأجود.(لسان العرب ـ مادة : سقط) وقال الإمام أبو يحى زكريا الأنصارى =

وهذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور. لكن الناس الذين امتلكوا قَدْراً من البصيرة أو بقية إيمان قالوا: هذه الحكاية سخيفة، وما كان لنا أنْ نفعلها وندموا على ما كان.

(سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) أي: جاءت أنيابهم على أيديهم، كأن الندم بلغ أشده، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم، ورأوا أن ذلك باطل وخُسْرَان، أي: قالوا: لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكوننّ من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عزوجل.

ثم رجع موسى بعد أنْ تلقَّى وَحْيَ الله، وأخذ الألواح، وبها من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء.

قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ..** (١٥٠) ﴾ (الأعراف)

وكونُ موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسفاً، يدلُّنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل، والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسمَّوْها «المواجيد النفسية» أي: الشيء الذي يجده الإنسان في نفسه، وقد يُعبَّر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية، ولذلك تجد فارقاً بين مَنْ يحزن ويكبت في نفسه، وبين مَنْ يغضب.

= في كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» (ص ١٥١): «إن قلت: كيف عبَّر عن الندم بالسقوط في اليد؟ قلت: لأن عادة من اشتد ندمه على فائت، أن يعضَّ يده غماً، كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾ (٢٧: الفرقان) فتصير يده مسقوطاً فيها، لأن فاه قد وقع فيها».

فمَنْ يغضب تنتفخ أوداجه ، ويحمر وجهه ، ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر ، وتندفع يداه ، وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين ، وقدَّم الغضب لأنه رسول له منهجه . ولا يكفى في مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لا بُدَّ أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح.

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج ، بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، فالحزن قد اشتد عليه وتمكّن منه ، فقال لهم:

﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ (١٥٠)﴾ (الأعراف)

فقوله سبحانه : ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ... (١٥٠)﴾ (الأعراف)

أى : استبطأتمونى. وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتممها بعشر. فتساءل موسى : هل ظننتم أننى لن آتى؟ أو أننى أبطأت عليكم ؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلى ، أو من أجل إله قادر؟

فهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتمونى ، أو خفتم أن أكون قد متّ ، فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا؟ ثم : ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ..(١٥٠)﴾ (الأعراف).

وهنا فى هذا الحديث القدسى: «فلما عاين ألقى الألواح».

ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقال عنها الحق سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ (١٤٥)﴾ (الأعراف)

وقد فصَّل الحق سبحانه ما فى الألواح فى قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ (١) بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (المائدة)

فالتوراة فيها نور وهدى ، ويحكم بها النبيون والربانيون والأحبار بالوسيلة التى طلب الله منهم أن يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة.

وقد كتب الحق على اليهود في التوراة التى وصفها من قبل بأنها هدى ونور ، كتب وأوجب عليهم أن النفس بالنفس.

هذه الألواح بما فيها من وصايا وأحكام ألقى بها موسى ، ثم ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ... ﴿١٥٠﴾﴾ (الأعراف)

وهذا نزوع غضبيٌّ جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأُخوَّة هنا لا نفعَ لها، فماذا كان ردّ الأخ هارون؟

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ (الأعراف)

ونلحظ أن هارون قال لأخيه ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ (الأعراف) ولم يقل «ابن أب» ،

---

(١) الحَبْر: العالم ، وجمعه أحبار .(القاموس القويم ١/ ١٤٠). وهو العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه .(اللسان ـ مادة : حبر).

لأن أبا موسى وهارون طُوى اسمه فى تاريخ النبوات ، ولم يظهر عنه أىّ خبر ، والعلم جاءنا عن أمه ؛ لأنها هى التى قابلت المشقات في أمر حياته ؛ لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز فى حياتهما.

وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما ـ موسى وهارون ـ وهو أخوة الأم، وله وجود مستحضر فى تاريخهم ، أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التى جاءت عن موسى متعلقة بأمه ؛ لذلك نجد أخاه هارون يُكلِّمه بالأسلوب الذى يُحنِّنه:

﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴿١٥٠﴾ ﴾ (الأعراف)

وما دام قد قال: ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴿١٥٠﴾ ﴾ (الأعراف) فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذى أدَّى ما عليه ، لدرجة أنهم فكروا فى قتله.

ويتابع الحق سبحانه بلسان هارون: ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (الأعراف)

والشماتة هى إظهار الفرح بمصيبة تقع بخَصْم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيُفرحهم.

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون ؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أنْ يُسمعنا ويُسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يُقصِّر .

قال : إن القوم استضعفونى لأنى وحدى ، وكادوا يقتلوننى ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة فى الحياة ، حتى أنهم كادوا يقتلونه.

إذن: فهو لم يوافقهم على شىء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية؛ لذلك يُذيّل الحق الآية بقوله سبحانه:

﴿وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)﴾ (الأعراف)

وكأنه يقول لموسى : إنك إنْ آخذتنى هذه المؤاخذة فى حالة غضبك ربما ظُنَّ بى أننى كنتُ معهم ، أو سلكتُ مسلكهم في اتخاذ العجل وعبادته.

وفى آية أخرى قال تعالى إن هارون قال لموسى : ﴿يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾(طه)

موسى عاد من ميقات الله وهو فى قمة الغضب ، وأمسك بأخيه هارون يجُرُّه من رأسه ولحيته ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين:

الأمر الأول : كيف يُلقِى الألواح وفيها المنهج؟

والأمر الثانى : كيف يأخذ أخاه هذه الأَخْذة قبل أنْ يتبيَّن وجه الحق منه؟

ولذلك قال موسى : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾ (الأعراف)

قال : يا ربِّ اغفر لى ، إنْ كان قد بدرَ مِنّى شىء يخالف منطق الصواب والحق ، واغفر لأخى هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أنْ يأخذَ

فى قتال مَنْ عبدوا العجل حتى يمنعهم ، أو ينالوا منه ولو ما دون القتل جُرْحاً أو خَدْشاً ، ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة.

ثم يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾ (الأعراف)

وهل للغضب سكوت؟ وهل للغضب مشاعر حتى يسكت؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجانُ النفس لتعمل عملاً نزوعياً أمام مَنْ أذنب، فكأن الغضب يُلح عليه ، ويقول للغاضب: اضرب ، اشتم ، اقتل. فشبّه اللهُ الغضب بصورة إنسان يُلِحُّ على موسى فى أنْ يفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه.

وأوَّلُ عمل قام به موسى ساعةَ أنْ كان غضبان أَسِفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه ، وزايله أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقيٌّ ، فالغضب جعله يُلقِي الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره ، وطلب من الله أنْ يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب ، وكانت الألواح مُلْقاةً فأخذها ثانية.

ووصف الحق سبحانه الألواح ، فقال :

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾ (الأعراف)

وقد وصف الحق سبحانه توراة موسى ، فقال:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ (٤٤) ﴾(المائدة)

فالهدى هو الطريق أو الدَّرْب الموصّل للغاية ، وهو ما يدل على الغايات؛ لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء فى أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التى يجب أنْ تسودَ ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ، فشرّع وأرسل لكل زمان رسولاً جديداً ، وهَدْياً جديداً ليذكرنا.

وقد تعالى فى آية أخرى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) ﴾ (الأنعام)

والتمام هو استيعاب صفات الخير؛ ولذلك يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (٣) ﴾ (المائدة)

«أكملتُ» فلا نقصان. و«أتممتُ» فلا استدراكَ. فالإكمال هو أنْ يأتىَ الشىء على كماله ، وكمالُ الشىء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه. وقد أتمَّ الله استمرار النعمة بتمام المنهج.

ولكن ، لماذا جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى عليه السلام؟

جاء ذلك ؛ لأن الذين تصدَّوْا للجاج والجدل معه ﷺ هم اليهود. وحينما جاء موسى - عليه السلام - بالتوراة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما فى التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا.

أما الذين استمرت حياتهم إلى أنْ جاء رسول الله ، فكان المطلوب منهم أن يؤمنوا به ، لأن الحق أوضح لهم فى التوراة أن هناك رسولاً قادماً ، ولا بُدَّ أنْ تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ؛ لأنكم وإنْ كنتم مؤمنين بموسى وعاملين بمنهجه فلا بُدَّ من الإيمان بمحمد ﷺ .

والسابقون لكم أَحْسَنُوا فى زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة ، فإنْ أردتُمْ أن يُتِمّ الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلا بُدَّ أنْ تعلنوا الإيمان بمحمد ﷺ ، منكم مَنْ أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتمَّ لهم الحُسْن.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴿١٥٤﴾﴾ (الأنعام)

أى: أنه مناسب لزمنه أي: القيم التى تناسب الوقت الذى يعيشونه ، فإذا ما جئْنا بتفصيل جديد فى القرآن فهو مناسب لوقته.

ولقائل أنْ يقولَ : هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفَرْق بين تفصيل وتفصيل؟ نقول: إن كُلَّ تفصيل مناسبٌ لزمنه ، وآيات القرآن مُفَصّلة جاهزة ، ومُعدَّة لكل زمن وللناس جميعاً ، إلى أنْ تقومَ الساعة.

وفى موضع آخر قال تعالى:

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (البقرة)

فالكتاب هو التوراة ... والفرقان هو الأشياء التى يُفرِّق الله فيها بين الحق والباطل ، فكأن «الفرقان» يُطْلَق مرة على التوراة ؛ لأنها تُفرِّق بين الحق والباطل، ويُطْلَق أيضاً على كل ما يُفَرِّق بين الحق والباطل .

ولذلك سُمِّيَ يوم بدر «يوم الفرقان» ؛ لأنه فرَّق بين الحق والباطل ، فكأن منهجَ الله وكتابه يُبيِّن لنا أيْنَ الحق ، وأين الباطل ، ويُفرِّق بينهما.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة)

ولا يقول موسى لقومه ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة) إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التى أنعم الله بها عليهم ، فكأن قوم موسى قد أرهقوه وتحمَّل منهم الكثير ؛ لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزَّجر ما قد يجعلهم يفيقون وينتبهون ويفطنون إلى ذِكْر نعمة الله عليهم.

ومعنى ذِكْر النعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهى.

فذِكْر النعمة يؤدى إلى شكر المنعم ، ويؤدى أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصى مَنْ أنعم ، ويجعلنا نستحى أنْ نأخذَ نعمته لتكونَ مُعيناً لنا على معصيته.

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة)

وهى نعَم كثيرة تمتَّعوا بها ، إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتُبيِّن القدرة مجالات تصرُّفها ، فقد ضرب موسى البحر فصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، وكأن الماء صار صخراً ، وضرب موسى الصخر فتفجرت المياه.

إنها عـجائب القـدرة ، ألم يُظلِّلكم بالغمـام؟ ألم يُنزِل عليكم فى التّيه المنّ والسّلْوى؟

كُلُّ هذه النعم ، ألاَ تستحق الذكـر لله والشكر لله والاستحيـاء من أنْ تعصوه ، أو أنْ تُرهِقوا الرسول الذى جاء لهدايتكم؟

إن كُلَّ هذه النعم تستـحق الشكر ، والشكر ذِكْـر ، وأكـثر من هذا فـإن الحق سبـحانه أرسل إليـهم كثيـراً من الرسل ، فكلما أدركـتْهُم غـفلة فإن الحق يُرسِل لهم نبياً ، فكلما عَصَوْا الله واستعصتْ داءاتهم أرسلَ لهم رسولاً.

وكان عليهم أنْ يعلموا أنَّ داءاتهم قد كثُرَتْ ، وصار مرضهم مُسْتعصياً ؛ لأنه لو لم يكُنْ المرض مُسْتعصيـاً لمَاَ كانوا فى حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء ، ومع ذلك رحمهم الله ، وكلما زَادَ داؤهم أرسل لهم نبياً.

ولم يَكْتَفِ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بأنْ جعل فيهم أنبياء ، بل قال:

﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴿٢٠﴾﴾ (المائدة)

ولكن ، هل قابل بنو إسرائيل نعم الله الكثيرة بالشكر والامتثال للمنهج؟ هل التزموا بما جاء في هذه الألواح؟

قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾ (النساء)

فالكلام المنزَّل من الله وُضِع أولاً وَضْعـه الحقيـقى ، ثم أزالوه وبدَّلوه ،

ووضعوا مكانه كلاماً غيره ، فقوله تعالى ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ** ﴿٤١﴾﴾ (المائدة) ، فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدَّس من موضعه الحق ، ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حَسْب أهوائهم بما اقتضتْه شهواتهم ، فكأنه كانت له مواضع ، وهو جدير بها.

وقال تعالى: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾ (١٣ : المائدة)

فَهُمْ على قدر كبير من السوء ، بدرجة أنستهم الشيء الذى يأتى لهم بالحظِّ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات بمحمد ﷺ وكتمانها ، ولو كانوا قد آمنوا بها لكان حظُّهم كبيراً ، ذلك أنهم نسُوا أمراً كان يعطيهم جزاءً حَسَناً.

والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكُنْ على بالهم ، فلو كانت كتب المنهج على بالهم لظلُّوا على ذِكْر منه ، كما أنهم كتموا ما لم ينسُوه ، والذى لم ينسوه ولم يكتموه حرّفوه ولووْا ألسنتهم به.

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولكنهم جاءوا بأشياء وأقاويل ، وقالوا إنها من عند الله ، وهى ليست من عند الله.

يقول الحق سبحانه :

﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة)

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد هنا أنْ يُبيِّن لنا مدى تعمُّد هؤلاء للإثم ، فهم لا يكتفونَ مثلاً بأن يقولوا لغيرهم : اكتبوا ، ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا أن الأمر قد تَمَّ كما يريدون تماماً ، فليست المسألة نزوة عابرة ، ولكنها مع سَبْق الإصرار والترصُّد، وهم يريدون بذلك أنْ يشتروا ثمناً قليلاً ، هو المال أو ما يُسمَّى بالسُّلْطة الزمنية ، يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان.

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك ؛ نَسُوا حظاً مما ذُكِّرُوا به ، وكتموا بعضاً من الكتب المنزَّلة إليهم ، وحَرَّفوا الآيات المنزَّلة إليهم ، وجاءوا بأقوال من عندهم ونسبوها إلى الله.

٣٨ بَاب التَّوْبة وَالرحْمَة

عَن ابْنِ عبَّاسٍ قال : قالتْ قُريْشٌ للنبى ﷺ : ادْعُ لنَا رَبَّكَ أنْ يجعلَ لنَا الصَّفَا ذَهباً ونؤمن بك ، قال : وتفعلُونَ؟ قَالُوا : نعَمْ . قال : فَدعَا فَأتَاهُ جِبْريلُ فَقالَ : «إنَّ ربَّكَ - عَزَّ وجلَّ - يقرأ عليْكَ السَّلاَم . ويَقُولُ : إنْ شئْتَ أَصْبحَ لَهُم الصَّفَا ذَهباً ، فمَنْ كفَر بعْدَ ذلكَ منهم عذَّبْتُهُ عذَاباً لا أُعذِّبُه أَحَداً منَ العَالمينَ ، وإنْ شئْتَ فتحْتُ لهم بَابَ التَّوْبة والرَّحْمةِ. قَالَ : بَلْ بَاب التَّوبة والرَّحْمةِ»(١).

يقول الحق سبحانه عن مُشْركى قريش:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا(٢) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

والمتأمِّل فى كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البعد

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٤٢) ، والحاكم فى مستدركه (١/ ٥٣ -٢/ ٣١٤ - ٤/ ٢٤٠) وقال : «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٦) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما وقال : «رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح».

(٢) كِسَف السحاب : قِطعه. فكل شىء كسفته فقد قطعته. (لسان العرب - مادة : كسف).

عن مجال المعجزة التى يُراد بها فى المقام الأول تثبيت الرسول ، وبيان صِدْق رسالته وتبليغه عن الله.

وهذه لا تكون إلا فى أمر نبغَ فيه قومه ولهُمْ به إلمام ، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة ، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض ؟ وهل إسقاط السماء عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صِدْق الرسول ؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق.

فظهر من هذا القول سوء النية المبيَّتة منهم ، فالرسول لن يأتى بالآيات ، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلَّف به ؛ لأن الرسول لا يختار ما يُؤْتى به من آيات ، ولكن الحق سبحانه هو الذى يُرسِل الآيات المناسبة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)﴾ (المائدة)

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يرسل هذه الآيات رحمةً بِمَنْ سألوا الرسول ﷺ عنها ، فقد سأل قوم (١) عن ناقة وعقروها فأبادهم الله ، وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة ونزلت عليهم ، وتوعَّدهم الحق بعدها إنْ لم يؤمنوا ، وكانت سنة الله مع خَلْقه إن اقترحوا هم آية ولم يُصدِّقوها ، فإن الحق يُهلِكهم أو يُعذِّبهم.

(١) يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾ (الأعراف) ثم قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ (٧٧)﴾ (الأعراف)

وحين يطلب أتباع الرسول آيات معينة ، إنما يحمل هذا الطلب فى طياته التفلّت والتحلّل من الالتزام بمنهج الله ، كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول على الرغم من طلبهم الآية.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء)

فليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شىء ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ قادر أن يُنزِل عليهم ما اقترحوه من الآيات ، فهو سبحانه لا يُعجزه شىء ، ولايتعاظمه شىء ، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات.

يقول تعالى : ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴿٥٩﴾﴾ (الإسراء)

فقوم ثمود طلبوا معجزة بعينها [١] ، فأجابهم الله وأنزلها لهم ، فَمَا كان منهم إلا أنِ استكبروا عن الإيمان ، وكفروا بالآية التى طلبوها ، بل وأكثر من ذلك ظلموا بها. أى : جاروا على الناقة نفسها ، وتجرّأوا عليها فعقروها.

هذه السابقة مع ثمود هى التى منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات ، وليس عَجْزاً مِنَّا عن الإتيان بها.

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٨) :«كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيَّنوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عزوجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها».

فالمسألة ليست مسألة الإتيان بالآيات والمعجزات ، فالله سبحانه قادر قدرةً مطلقة لا يُعجزه شيء ، فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم فى الاتجاه إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)﴾ (الرعد)

فالكافرون تساءلوا ـ كذباً ـ عن مجىء آية ، وكان تساؤلهم بعد مجىء القرآن ، وهذا كذب واقع يناقضون به أنفسهم ، فقد قالوا: **﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾** (الزخرف)

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حَدَّ الإعجاز وتمنَّوْا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين«مكة أو الطائف».

وهم من قالوا أيضاً : **﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)﴾** (الحجر)

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغُوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب والبيان ، والفصاحة ، ويقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم فى البلاغة و القصائد ، فهم أمة تطرب فيها الأذن لما ينطقه اللسان.

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتى نزلتْ على الرسل السابقين عليهم

السلام ، ونسوا أن الآية الكونية عمرها مقصور على وقت حدوثها ، ومَنْ رآها هو مَنْ يُصَدِّقها ، أو يُصدِّقها مَنْ يخبره بها مصدر موثوق به.

والحق سبحانه يُبيِّن لنا أنهم غارقون فى العناد ولن يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هى مجرد حجج يتلكئون بها حتى لايؤمنوا ، فتعنتوا ، ولم يكتفوا بالقرآن معجزة وآياتٍ تدلهم إلى سواء السبيل ، بل اقترحوا هم الآية حَسْب أهوائهم ، ولذلك نجدهم قد ضلُّوا.

ويقول الحق سبحانه عن اقتراح من اقتراحاتهم: ﴿**قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا** (٢١)﴾ (الفرقان)

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله ﷺ يجده تعجيزاً بعيداً كل البُعْد عن الواقع ، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية ، بل قصدوا الجدل والعناد.

لذلك يقول الحق سبحانه ردّاً على لجَج هؤلاء وتعنُّتهم :

﴿**وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** (١١١)﴾ (الأنعام)

وقد قالوا أيضاً : ﴿**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ**[1] **أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً** (٩٣)﴾ (الإسراء)

---

(١) الزخرف : الذهب ، ثم استعمل فى الزينة وفى أثاث البيت الجميل. وقوله تعالى : ﴿**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ** (٩٣)﴾ (الإسراء) أى : من ذهب أو كله زينة وأثاث جميل . (القاموس القويم ١/ ٢٨٥).

ويظهر أنهم تسرَّعوا في هذا القول ، ورأَوْا إمكانية ذلك ، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوي عليه نفوسهم من عناد: ﴿**وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ** (٩٣)﴾ (الإسراء)

وكأنهم يُبيِّتون العناد لرسول الله ، فهم كاذبون في الأولى ، وكاذبون في الثانية ، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذى أرادوا ما آمنوا.

وقد ردَّ عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ**[1] **فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** (٧)﴾ (الأنعام)

فقد طالب المكذِّبون الرسول ﷺ أن يُنزِّل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط من ضمن شروط أخرى ، فبعد أنْ وضَّح لهم إعجاز القرآن حاولوا زوراً ، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا ، كأن يُفجّر لهم الرسول ﷺ يَنْبُوعاً في أرض مكة لاينقطع ماؤه ، أو يكون رسول الله ﷺ بمكة بستان من نخيل وعنب ، تتخلله الأنهار ، أو أن يدعوَ لرسول الله ﷺ أن تُنزل عليهم السماء قِطعاً كعذاب شديد.

أو أنْ يتجسَّدَ لهم الله والملائكة ليَروْهم رأْيَ العيْن ، أو أن يكون لرسول الله بيت من ذهب مزخرف ، أو أنْ يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله يقرر صدق رسالته ، ولكن الله برحمته واتساع حنانه يُنزِّه ذاته أن يتحكم فيه أحد ، أو يشاركه في قدرته ، فيعلن لهم على لسان رسوله ﷺ قوله سبحانه وتعالى :

(١) القرطاس: الصحيفة يكتب فيه من ورق أو نحوه .(القاموس القويم ٢/ ١١٣)

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

لأن الذي يبعث الآيات هو رَبُّ العالمين ، ولا أحدَ يجرؤ أن يفرض على الله آياته ، ورسول الله ﷺ هو مستقبل لآيات الله لا مقترحٌ للآيات ، ذلك أنه ﷺ يعلم أن مَنْ يقترح على الله آية ثم تأتى ، فيكذب بها يصيبه وينالُه الهلاك ، هذه سنة الله.

وانظر إلى رَدِّ القرآن على كُلِّ هذا التعنُّت السابق : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي... ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)

ولأن الأمور التى طلبوها أمور بلغتْ من العجب حَداً ، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله ؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتى لا تُطلق لغير الله ، وكأنه أرجع الأمور كلها لله ، ولقد كان لهم غِنىً عن ذلك فى كتاب الله الذى نزل إليهم.

﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ (العنكبوت)

وقد قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام:

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ (المائدة)

كأن عيسى قال لهم : عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية ؛ لأنكم ما دُمْتُمْ قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صِدْق رسوله ،

وحَسْبكم ما أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى ، وعليكم أنْ تُلزِموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم أنكم مؤمنون به.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ (المائدة)

وكأنهم أرادوا أنْ يتشبَّهوا بسيدنا إبراهيم الخليل عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه ، لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عَيْن اليقين ؛ لذلك سألوا عن المائدة التى صارت بعد ذلك حقيقة واضحة.

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين أنْ يؤمن الإنسان بذاته ، وأنْ يشهد بالإيمان عند غيره ، فالذى يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق.

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام ، وهو يختلف عن قولهم فى هذه المائدة ـ قال سبحانه:

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة)

والمقارنة بين قَوْل الحواريين وقَوْل عيسى ـ عليه السلام ـ تدلُّنا على الفارق بين إيمان المبلّغ عن الله ، وإيمان الذين تلقَّوْا البلاغ عن عيسى ، إيمان عيسى هو الإيمان القوىّ الناضج ، أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص.

لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقّى عن الله مباشرة ، أما الحواريون فليسوا كذلك ، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ عن الله ، وتَمَّ

ذلك بواسطة رسول ؛ ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغه فى سُلَّم الإيمان درجة أعلى ، إنه يتلقى عن الله ؛ ولهذا صَحَّح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه.

لقد قال عيسى داعياً الله: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴿١١٤﴾﴾

(المائدة)

وألزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ، ملتزماً بالتكليف القادم منه ، ثم جاء بنداء الربوبية ، فيا مَنْ أنزلتَ علينا التكليف ، ويا مَنْ تتولّى تربيتنا نحن ندعوك أن تُنزِل علينا مائدة من السماء.

وأخذ نداؤه زاوية القيم ، ثم زاوية المادية وهى الرزق ، لكن الحواريين قدَّموا بشريتهم ، فطلبوا من المائدة الأكل والطعام ، فقالوا : ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ (المائدة)

أما عيسى ابن مريم عليه السلام فقد أخَّر الطعام عن القيم بصفائية اختياره رسولاً ، فقال : ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة)

ويجيب الحق سبحانه على دعاء عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ (المائدة)

وقد اختلف العلماء (١) : أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة ، أم لم

---

(١) اختلف العلماء على قولين: =

ينزلهـا؟ إن هـناك مَنْ تمسَّكوا بقـول الحق سـبحـانه : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ..﴾ (١١٥) (المائدة) . وهناك مَنْ قالوا: إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة ، وهو إنزال العذاب بهم إن لم يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزالها.

وكان محمد ﷺ رحيماً بآله وعشيرته ؛ لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التى أنزلها الله عليه.

والرسول ﷺ كان يُحزِنه أنْ يسارعَ البعض فى الكفر ، فقد كان ﷺ يحرص على أنّ يؤمن الناس جميعاً ليذوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذى يدفع الحزن إلى قلبه ، فهو ﷺ رءوف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ (الأنبياء)

ودليل ذلك أن جاءه التخيير ، فقد نادى جبريل رسول الله ﷺ ، وقال : «إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك

= **الأول:** أنها لم تنزل . قال مجاهد: هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء وكذا قال الحسن البصرى. وقال مجاهد أيضاً : مائدة عليها طعام أبوْها. قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ١١٩) : «هذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو فى كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد ، والله أعلم».

الثانى: أنها نزلت. قال ابن كثير فى تفسيره :«الذى عليه الجمهور أنها نزلت ، وهو الذى اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها ووعد الله ووعيده حق وصدق ، وهذا القول هو الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم».

ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال : فناداني ملك الجبال وسَلَّم عليّ ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك ، فما شئتَ؟ إنْ شِئْتَ أُطبِق عليهم الأخشبين [1]؟ فقال النبي ﷺ : «بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً» [2].

فالرسول ﷺ لا يُبْقى على هؤلاء فقط ، ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة ، وقد كان ، وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء.

فكان رسول الله ـ كما أخبر الله فى آيات القرآن ـ يحزن عندما لايذوق أحد حلاوة الإيمان ، يقول الحق سبحانه: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ⟨٦⟩﴾ (الكهف)

ولذلك حين عَلِم الحق ـ علْم وقوع ـ أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أنْ يشملها الله بمغفرته ورحمته ، وألا يسوؤه فيها ، أخبره المولى ـ عزوجل ـ بأنه سوف يُرضيه فى أمته.

وقد ورد فى الحديث ما يؤيد ذلك ، فقد روى عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قولَ الله عزوجل فى إبراهيم ﷺ ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ⟨٣٦⟩﴾ (إبراهيم) وقول عيسى عليه السلام ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ⟨١١٨⟩﴾ (المائدة).

---

(١) الأخشبان : هما جبلا مكة ، أبو قبيس والجبل الذى يقابله ، قال ابن حجر فى الفتح (٦/ ٣١٦): «سميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما».

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.

فرفع ﷺ يديه فقال: أمتي أمتي وبكى ، فقال الله عزوجل: يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فَسَلْهُ: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد ، فقل: إنَّا سنُرضيك فى أمتك ولا نسوؤك» (١).

فمن رأفته ﷺ صَعُب على نفسه أنْ ينال قومه مشقة ، فالرحمة والرأفة مصدرهما ما وهبه الله إياه من فَهْمٍ لقيمة نعمة الإيمان.

ولقد امتنّ الله على أمة العرب التى استقبلتْ دعوة الله على لسان رسوله ﷺ بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسَبه ونسبه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان ﷺ محباً لقومه حريصاً على هدايتهم.

قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ (التوبة)

أى : تعز عليه مشقتكم ويؤلمه عنتكم وتعبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص الضَّنُّ بالشيء ، فكأنه ﷺ يضِنُّ بقومه.

وقد أوضح رسول الله ﷺ هذا المعنى في الحديث الشريف:

«إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم(٢) وأنتم تقحمون فيه»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢) كتاب الإيمان من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى هذا الحديث فى (المجلد ١/ ص ٥١٥ ـ ٥٣٢) .

(٢) حُجْزة الإنسان: معقد السراويل والإزار . واحتجز بالإزار إذا شدَّه على وسطه. فاستعاره للالتجاء والاعتصام والتمسُّك بالشيء والتعلق به. (لسان العرب ـ مادة : حجز).

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) كتاب الفضائل ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

لذلك حَزِن رسول الله ﷺ على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنك إذا أحببتَ إنساناً أحببت له ما تراه من الخير ، كمَنْ ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدلّ عليها مَنْ يحب من أهله ومعارفه.

كذلك لما ذاق رسول الله ﷺ حلاوة الإيمان أحب أن يشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية ، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُسلِّي رسوله ، ويُخفِّف عنه ما صُدِم في قومه ، فيقول له:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)﴾ (النحل)

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ (الأنعام)

فالمسألة ليست مسألتك أنت ، إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً ، فالحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ هنا للتسلية ، ويعطيه الأُسْوة التى تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذّبون به ، فيقول:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾ (آل عمران)

فالحق سبحانه يُوضح لرسوله ﷺ : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ، فلا تبتئس ولا تحزن ، فهذا التكذيب ظاهرة عانى منها كل الرُّسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بُدَّ أنْ يُكذِّبوا.

والرسـول ﷺ لم يكُنْ رحمـة لمن أُرسِل إليـهم فـقط ، ولكنه رحمـة للعـالمين جميـعهم ، والعـالم هو كل ما سـوى الله ، فالملائكة عـالم ، والجن عـالَم، والحيـوان عالَم ، والنبـات عـالَم ، فالرسـول ﷺ رحمـة لكل هذه العوالم.

وانظر إلى رحمة رسول الله ﷺ بالحـيوان في قوله الشريف:«دخلت امرأة النار في هِرَّة حـبستـها ، لا هى أطعمتـها ، ولا سقـتها ، ولا تركتـها ، تأكل من خشاش [1] الأرض»[2].

كما يـخبرنا حديث آخـر أن الله غفر لرجل سَقى كلبـاً ، كان يلهث من شدة العطش ، فنـزل البئر ومـلأ خُفَّه مـاء وسقى الكلب فغـفر الله له. فـحتى الكلب نالته الرحمة [3].

فكُلُّ مـا جـاء به النبى ﷺ داخل فى عناصـر الرحـمة ، فـالله تعـالى أرسل رسوله رحـمةً للعـالمين ، وحتى ينال الناس هذه الرحـمة لابُدَّ أن يؤمنوا بالله ويتبعوا منهجه ، فإنْ أعرضوا وتولَّوْا فلا عُذْرَ لهم ولا حجة.

---

(١) من خشاش الأرض : يعنى من هوامِّ الأرض وحشراتها ودوابها ومـا أشبهها . (لسان العرب ـ مادة : خشش).

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣١٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٤٢) من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٣)عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشـرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مـثل الذى كان بـلغ بى ، فنزل البئـر فمـلأ خُفَّه ثـم أمسكه بفـيه فسـقى الكلب، فشكر الله له فغـفر له . قالوا : يارسول الله ، وإن لنا فى البهائـم أجراً؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر» أخرجـه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ، وكذا مسلم فى صـحيحه (٢٢٤٤) كتاب السلام.

٣٩ قَدْ فَعَلْتُ

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ قَالَ : لما نزلَتْ هذِهِ الآيةُ ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ (البقرة) قَالَ : دَخَلَ قُلُوبَهُمْ منها شَيْءٌ لَمْ يدخُلْ قُلُوبَهُم مِنْ شَيء ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ : «قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وسَلَّمنا . قال : فألقَى اللهُ الإيمانَ فى قُلوبِهم ، فأنزلَ اللهُ تَعالَى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ . (البقرة ٢٨٦)

قَالَ : قَدْ فعلْتُ .

﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا(١) كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)

قَالَ : قَدْ فعلْتُ .

﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)

قَالَ : قَدْ فعلْتُ (٢) .

---

(١) الإصر: القيد والثقل والعهد المؤكد ، وسميت التكاليف الشاقة إصراً لأنها تشق على المكلف وتثقل عليه. (القاموس القويم ١/ ٢١)

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢٦) ، والترمذى فى سننه (٢٩٩٢) ، وأحمد فى مسنده(١/ ٢٣٣) . قال الترمذى : هذا حديث حسن.

إن حسابَ الحق دقيق عادل ، فالذين ثقُلَتْ كِفَّة أعمالهم الحسنة هم الذين يفوزون بالفردوس ، والذين باعوا أنفسهم للشيطان وهوى النفس تثقل كِفَّة أعمالهم السيئة ، فصاروا من أصحاب النار.

والحق سبحانه يطلب مِنَّا أن نكون دائماً على ذِكْر من قضية واضحة، هى: أن الكون كله لله ، والبشر جميعاً بذواتهم ونفوسهم وما ظهر منها وما بطن لا يخْفى على الله ؛ لذلك قال تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ..(٢٨٤)﴾ (البقرة)

فلن يخرج كائن مَنْ كان عن مُلْكه سبحانه ، وما دام كل شيء فى الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراده سبحانه ، فكل شيء فى الوجود هو مِلْكٌ لله ، وهو يتصرّف بقدرته فيما يملك.

فإياكم أنْ تظنُّوا أن هناك مَهْرباً أو مَحصياً أو مَعْزلاً أو مفراً ، فلله ما فى السموات وما فى الأرض ، فلا السماوات تُؤوِى هارباً منه ، ولا مَنْ فى السماوات يعاون هارباً منه ، فسبحانه المحيط عِلْماً بكل شيء ، والقادر على كل شيء.

والحق سبحانه وتعالى يصفُ نفسه ، فيقول: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)﴾ (الأنعام)

إنه إله واحد يعلم السِّرَّ والجهر ، ويترتب على هذا أساسُ الثواب والعقاب ، فلا تظن أيها الإنسان أنكَ تُفلت من حساب ربك ، وإنْ كان سبحانه يعلم السر فمن باب أَوْلَى أن يعلم الجهر.

إنه سبحــانه وتعالى يعلم السر من قبل أن يكون سـراً ، وكل أمر قبل أنْ يصبح جهراً يكون سِراً ، وقبل أنْ يكونَ سِراً هو أخفى من السر.

والحق سبـحانه لا يحاسبنـا على مقتضى مـا علم فحسب ، بل يحـاسبنا على ما تَمَّ تسجيله علينا ، إن كل إنسان يقرأ كتابه بنفسه ، فسبحانه يقول:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ (الإسراء)

والحساب معناه أن للإنسان رصيداً ، وعليه أيضاً رصيد ، يقول تعالى : **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)﴾** (الأعراف)

إذن : نحن أمـام نوعيْن من البـشر ، هـؤلاء الذين ثقُلَتْ كِفَّـة الخيـر فى مـيزان الحـسـاب ، وهؤلاء الذين ثقلت كـفـة السيـئـات والشـرور فى ميـزان الحساب، فماذا عن الذين تساوت الكِفَّـتـان في أعمالهم ، فاستوت حسناتهم مع سيئاتهم؟

إنهم أصـحاب الأعراف الذين يـنالون المغفرة مـن الله ؛ لأن مغفـرة الله وهو الرحمن الرحيم قد سبقتْ غـضبه جَلَّ وَعلاَ ، ولو لم يجىء أمر أصحاب الأعراف فى القـرآن لقال واحد: لقـد قال الله لنا خبر الـذين ثقلت موازينهم ، وأخبـار الذين خفَّتْ مـوازين الخير عنـدهم ، ولم يَقُلْ لنا خبـر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم.

لكن الحليم الخـبير قـد أوضح لنا خبـر كل أمر ، وأوضح لنا أن المغـفرة

تسبق الغضب عنده ؛ لذلك فالحساب لا يكتفى الحقُّ فيه بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق ؛ لذلك يُطمئننا الحق سبحانه فيقول:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ (الفرقان)

إن الحق سبحانه يطمئننا على أن ما نصنعه من خير نجده في كِفَّة الميزان ، ويطمئننا أيضاً على أنه سبحانه سيجازينا على ما أصابنا من شر الأشرار ، وأننا سنأخذ من حسناتهم ، لِتُضاف إلى ميزاننا.

إذن: فالطمأنينة جاءت من طرفيْن: طمأننا الحق على ما فعلناه من خير ، فلا يُنسى أنه يدخل في حسابنا ، وطمأننا أيضاً على ما أصابنا من شَرِّ الأشرار ، وسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا.

إن هذه المسألة تحتاج إلى دِقَّة بالغة ؛ لأننا وجدنا بعضاً من صحابة رسول الله ﷺ قد وقفوا فيها موقفاً أبكى بعضهم.

فهذا عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ حين سمع هذه الآية قال: لئن آخذنا الله على ما أخفيْنا فى نفوسنا لنهلكن ، وبكى حتى سُمع نشيجه بالبكاء[(١)].

وبلغ ذلك الأمر ابن عباس فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن ، لقد وجد إخوانُه المسلمون مثلما وجد من هذه الآية [(٢)] .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٣٨) أثر عبدالله بن عمر.

(٢) قال ابن مرجانة : فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس : يغفر الله لأبي عبدالرحمن، لعمري لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبدالله بن عمر. ذكره ابن كثير في تفسير الآية (١/ ٣٣٨).

فأنزل الله بعدها قوله : ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** (٢٨٦)﴾ (البقرة)

فالحق سبحانه لم يُكلّفكم إلا ما هو فى الوُسْع ؛ لأن الأحداث بالنسبة لعزم النفس البشرية ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو ما لا قدرةَ لنا عليه ، وهذا بعيد عن التكليف.

القسم الثانى: لنا قدرة عليه ، لكن بمشقة ، أى : يجهد طاقتنا قليلاً.

القسم الثالث: التكليف بالوُسْع.

إذن: فالحقُّ سبحانه لا يُكلِّف النفس إلا بتكليف تكون فيه طاقتها أوسع من التكليف ، كلَّف الحقُّ كلَّ مسلم بالصلاة خمسة فروض كُلَّ يوم ، وتملأ أوقاتها بالصلاة ، وكان من الممكن أن تكون عشرة ، بدليل أن هناك أناساً تتطوع ، وهو سبحانه كلَّف كل مسلم بالصوم شهراً ، ألاَ يوجد مَنْ يصوم ثلاثة أشهر؟ ومثل هذا فى الزكاة ، فهناك مَنْ كان يخرج عن ماله كله لله ، ولا يقتصر على ما يجب عليه من زكاة.

إذن : فهذا فى الوُسْع ، ومن الممكن أن تزيد ، فكل التكاليف التى كلَّفنا الله بها فى وُسْعنا ، وأقل من وُسْعنا ، بدليل أن المشرِّع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليف ليس فى الوُسْع.

ومثال هذا قوله تعالى عن الصيام : ﴿**وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** (١٨٥)﴾ (البقرة)

فعليك أن تتقى الله ما استطعت بما كان في استطاعتك من الوُسْع ،

وساعة تكون غير مستطيع فهو سبحانه الذى يُخفِّف ، إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجاً عن استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجاً عن استطاعتِك ، فالله هو الذى يُخفِّف عنك.

ولذلك ، فعلى الإنسان ألاَّ يستخدم القول الحق: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**(٢٨٦)﴾ (البقرة) ، فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يُقدِّر الوُسْع ، ثم يبنى التكليف على الوُسْع ، بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس، وهو الذى أنزل التكليف لوُسْع النفس ، وما دام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوُسْع النفس حينما قرر لها المنهج.

إن الله قد كلفك فهو عليمٌ بأن ذلك فى وُسْعك؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وُسْعها ، ونحن نسمع الآن صيحات تقول : إن العصر لم يَعُدْ يحتمل ، وأن ظرف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هى تبرير أنه ليس فى وُسْعنا أنْ نُؤدِّى بعض التكاليف.. ربما كان هذا التكليف في الوُسْع في الماضى عندما كانت الحياة بسيطة ، وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة.

نقول لمن يردد هذا الكلام : إن الذى كلَّفك قديماً هو الله سبحانه وتعالى، إنه يعلم أن في وُسْعك أن تؤدى التكليف وقت نزوله ، وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة ، والدليل على ذلك أن هناك مَنْ يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل فى باب الإحسان.

فهناك مَنْ يصلى الفروض وهى التكليف ، وهناك مَنْ يزيد عليها السنن، وهناك مَنْ يقوم الليل فيظل يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض.

وهناك مَنْ يصوم رمضان ، ومَنْ يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية ، أو كل اثنين وخميس على مدار العام أو فى شهرَىْ رجب وشعبان .

وهناك مَنْ يحج مرة ، ومَنْ يحج مرات... وهناك مَنْ يلتزم بحدود الزكاة ، ومن يتصدق بأكثر منها.

إذن : كل التكاليف التى كلفنا الله بها فى وُسْعنا وأقل من وُسْعنا ، ولا يقال : إن العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكاليف ، ونزيد عليها دون أيِّ مشقة.

وعندما يطرأ على الإنسان ما يجعل الحكم فى غير الوُسْع ، فإن الله يُخفِّف التكليف ، فالمسافر تقول له الشريعة: أنت تخرج عن حياتك الرتيبة ، وتذهب إلى أماكن ليس لك بها مُسْتقر ؛ لذلك يُخفِّف الحق عليك التكليف ، فَلَكَ أن تفطر في نهار رمضان ، ولك أنْ تقصُرَ الصلاة.

والحق سبحانه يعلم أن الوُسْع قد يضيق ؛ لذلك فإنه جَلَّ شأنه يخفف حكم التكليف ، ويمنح الرخص عند ضيق الوُسْع ، ومثال ذلك قول الحق تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ

يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾ (الأنفال)

فكان المقاتل المسلم مطالباً بأن يقاتل عشرة من الكافرين ، فكانت النسبة واحداً إلى عشرة ، ولكن الحق - سبحانه وتعالى - خفف هذا الحكم ، فقال تعالى:

﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾ (الأنفال)

ونحن نعلم أن هناك شروطاً للمقاتل ، أولها : أن يكون المقاتل قوىَّ البدن وقوىَّ الإيمان ، وعلى دراية بحيل الحرب وفنونها ، بحيث يستطيع أن يناور ، ويُغيِّر مكانه في المعركة ، ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا تحسمها معركة واحدة ، بل لابُدَّ من كرّ وفرّ ، وإقبال وإدبار ، وخداع للقتال ومناورات ، مثلما فعل خالد بن الوليد فى كثير من المعارك.

إذن : فلكَيْ تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين ، لا بُدَّ أن يتحقق فى هؤلاء جميعاً قوة بدن وصبر وجَلَد ، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجَلَد ضعيفاً ، وقد تأتى للإنسان فترات ضعف ، وتأتيه أيضاً فترات قوة.

ومن رحمته - سبحانه وتعالى - بالمؤمنين أنه خفَّف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات ضعف تصيب الإنسان ؛ لذلك جعل النسبة واحدا إلى اثنين.

والحق سبحانه يقول على لسان عباده المؤمنين:

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ..(٢٨٦)﴾ (البقرة)

ولقائل أن يقول : إن الرسول ﷺ طمأننا ، فقال : «رُفِع عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وما استُكرِهوا عليه»[1]. فكيف يأتى القرآن بشىء مرفوع عن الأمة الإسلامية ليدعو به الناسُ ربهم ليرفعه عنهم؟

على مثل هذا القائل نردُّ : هل قال أحد : إن رَفْع الخطأ والنسيان والاستكراه كان من أول الأمر ؟ لعل الرفع حدث بعد أنْ دعا الرسول والسابقون من المؤمنين ، فما دام قد رُفِع فمعنى ذلك أنه كان موجوداً. إذن: فلا يقولَنَّ أحد: كيف تدعو بشىء غير موجود؟

أو : أن ذلك يدل على منتهى الصفاء الإيمانى ، أى : الله يحب ألآيعصَى إلا خَطأ أو نسياناً ، وأن الله لا يصحّ ولا يستقيم أن يُعصى قصداً ؛ لأن الذى يعرف قَدْر الله حقاً لايليق منه أن يعصى الله إلا نسياناً أو خطأ ؛ لأن الخالق هو المنعم بكل النعم ، وبعد ذلك كلفنا ، وكان يجب ألاَّ نقصد المعصية .

ولذلك ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد سمَّى ما حدث من آدم معصية ، مع أنه يقول : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (طه).

وسمَّى الله النسيان فى قصة آدم معصية ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴿١٢١﴾﴾ (طه) ، فكان النسيان أولاً معصية ، ولكن الله أكرم أمة محمد ، فرفع عنها النسيان ، وفى مسألة آدم : هناك ملحظ يجب على المؤمن أن يتنبه إليه ، فآدم

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه (٢٠٤٥) والدارقطني فى سننه (٤/ ١٧٠)والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمتى: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

خُلِق بيد الله ، ونحن مخلوقون بقانون التكاثر ، وآدم تلقَّى التكليف من الله مباشرة وليس بواسطة رسول ، وكُلِّف بأمر واحد ، وهو ألاَّ يأكل من الشجرة.

فإذا كان آدم مخلوقاً من الله مباشرة ، ومكلفاً من الله مباشرة ، ولم يُكلَّف إلا بأمر واحد ، وهو ألاَّ يقربَ هذه الشجرة ، ولم تكن هناك تكاليف كثيرة ، فماذا نسى؟ وماذا تذكَّر؟ إنها معصية إذن.

لقد كان النسيان بالنسبة لآدم معصية ، لأنه مخلوق بيد الله ؛ لذلك لم يكُنْ من المناسب أن ينسى هذا التكليف الواحد ، وما كان يصح له أنْ ينسى ، ولعل سيدنا آدم نُسِّي لحكمة يعلمها الله ، ربما تكون ليعمر الأرض التى جعله الله خليفة فيها.

أما بالنسبة لأمة محمد ، فحينما نقول: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** (٢٨٦)﴾(البقرة) فكأننا يا رب نقدرُك حق قَدْرك ، ولا نجترىء على عصيانك عمداً ، وإنْ عصينا فإنما يكون العصيان نسياناً أو خطأً ، وهذه معرفة لقدر الحق سبحانه وتعالى.

ولكن ، ما النسيان؟ وما الخطأ ؟

فالخطأ كأن يقصد الإنسان شيئاً ويحدث غيره ، أما النسيان فهو ألاَّ يجيء الحكم على بال الإنسان.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك.

﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**(٢٨٦)﴾(البقرة)

والإِصْر: هو الشيء الثقيل الذى يثقُل على الإنسان. ومن ذلك الإصر

الذى نزل على اليهود : إنْ أردتم التوبةَ فاقتلوا أنفسكم ، أو تصدَّقوا ، أو زكُّوا بربع أموالكم.

وقد قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴿٥٤﴾﴾ (البقرة)

وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى هذا ، جعل موسى بنى إسرائيل يقفون صفوفاً ، وقال لهم : إن الذى لم يعبد العجل يقتل مَنْ عبده ، ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشقُّ عليه التنفيذ ، فرحمهم الله بأن بعث ضباباً يسترهم حتى لا يجدوا مشقة فى تنفيذ القتل. وقيل : إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفاً [1].

والحق يوضح أن الإسلام لم يأتِ بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التى كانت التوبة فيها تقتضى قتل النفس ، تلك الشرائع التى رأت أن النفس تغوى صاحبها بمخالفة المنهج فلا بُدَّ أن يضيعها.

ومن لُطْف الله أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم ، ولذلك فسيدنا عبدالله بن مسعود ، وسيدنا عمار بن ياسر وثابت بن قيس ، كل هؤلاء قالوا : والله لو أُمِرْنا بهذا لفعلنا.

وقال سيدنا عمر: والله لو أُمِرْنا بهذا لفعلنا ، والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك. إذن: فهذا لُطْف ، إنه بيَّن لهم: لوكتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى ، ماذا كانوا يفعلون؟

(١) انظر الروايات التى وردت فى هذا فى تفسير ابن كثير (١/ ٩٢ ، ٩٣).

لكن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ استجاب لدعائهم:

﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (٢٨٦)﴾ (البقرة)

لقد استجاب الحق سبحانه لهم، ولم يعاملنا كما عامل الأمم السابقة علينا.

وعندما نقول: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فنحن نُصدّق أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: نعم». ومعنى «قال الله: نعم» أنه سبحانه وتعالى أجاب الدعاء برفع المشقة عن الأمة.

أي: أن الله لن يُحمّلنا ما لا طاقة لنا به.

وعندما نقول: ﴿وَاعْفُ عَنَّا (٢٨٦)﴾ (البقرة)

فنحن نتوجه إلى الله ضارعين: أنت يا حقُّ تعلم أننا مهما أُوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى فلن نستطيع أنْ نُؤدِّى حقّك كاملاً؛ ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أنْ تعفو عنا.

ومعنى العَفْو مَحْو الأثر، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة، وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر، كأن هناك ذنباً والذنب له أثر، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب.

ولنتعلم ما علّمه رسول الله ﷺ لعائشة أم المؤمنين، لقد سألت رسول الله إذا صادفتْ ليلة القدر فقالت: إنْ أدركتنى هذه الليلة بماذا أدعو؟

انظروا إلى رسـول الله ﷺ ، لقـد علَّم أم المؤمنين عـائشة أن تدعـو بمقـاييس الخيـر الواسع ، فقـال لها: «قـولى : اللهم إنك تحب العـفو فـاعف عنى»(١).

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولايوجد خَيْر أحسن من العفو.

وعندما تقول : «واغـفر لنا» فأنت تعرف أن من مظاهر التـكوين البشرى النية التى تريد أنْ تُحولّ الـعزم إلى حيِّز السلوك والانفعـال النزوعى ، فالمسألة تحتـاج منك إلى تدريب ، ومثـال ذلك : عندما يذنب واحد فـى حقِّك فَلَكَ أنْ تردَّ عليـه الذنب بالذنب ، ولك أنْ تكظـم الغيظ ، لكـن يظلّ الغيـظ موجـوداً وأنت تحبسه. ولكَ أنْ تعفو.

ويقول الحق تبـارك وتعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ (آل عمران)

فإنْ أساء أخـوك إليك سيئة ، فإمـا أنْ تردَّ بالمثل ، أو تكظم الغيظ ، أو ترقىَ إلى العـفـو ، وبذلك تكون مـن المحسـنين ، لأنك إذا كنت قـد ارتكبتَ سيئة ، وعلمتَ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يغفرها لك ، ألاَ تشعر بالسرور.

إذن : فما دُمْتَ تريد أنْ يغفر الله تعالى لك السيئة عنده ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك فى حـقك؟ وقد جعل الحق سبحانه عفو العبد عن سـيئة العبد بحسنة ، فلعفو العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى،

(١) أخرجـه أحمـد فى المسند (٦/ ١٨٣ ، ٢٥٨) ، والترمـذى فى سننه (٣٥١٣) وكذا ابن مـاجه في سننه (٣٨٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المسيء والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة.

ولو اقتصصتَ أنت مِمَّنْ أساء إليك ، فقصاصك على قَدْر قوتك ، أما إنْ تركته إلى قدرة الله تعالى ، فهذا أصعب وأشقّ ؛ لأنك تركته إلى قوة القوى ، وهكذا ينال العافى عن المسيء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله سبحانه وتعالى فى جانبه.

لكن ، ماذا عن مِثْل هذا الأمر بالنسبة للخالق الذى له كمال القدرة؟ إن الله قد لا يُعذِّب العبد المذنب ، ولكنه قد يظلّ غاضباً عليه ، ومَنْ مِنّا قادر على أنْ يتحمَّل غضب الرب؟

لذلك نطلب المغفرة ونقول «واغفر لنا وارحمنا» فنحن ندعوه سبحانه ألاَّ يدُخِلنا في الذنب الذى يُؤدِّى إلى غضبه ـ والعياذ بالله ـ علينا. فالعفو هو أن نرتكب ذنباً ، ونطلب من الله المغفرة ، ولكن الرحمة هى الدعاء بألاَّ يُدخِلناَ فى الذنب أَصْلاً.

وعندما يقول الحق سبحانه: ﴿**أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**(٢٨٦)﴾ (البقرة). فهذا اعتراف بعبوديتنا له ، وأنه الحق خالقنا ومُتولِّى أمورنا وناصرنا ، وما دام الحق هو ناصرنا فهو ناصرنا على القوم الكافرين .

يقول تعالى : ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...**(٢٥٧)﴾ (البقرة)

فهو يريد من الذين آمنوا أنْ يجعلوا إيمانهم شيئاً واحداً ، وليسوا متعددين ، أو أن ولاية الله لكل فرد على حِدَةٍ تكون ولاية لجميع المؤمنين ، وما داموا مؤمنين فلا تضاربَ في الولايات ؛ لأنهم كلهم صادرون وفاعلون عنْ إيمان واحد ، ومنهج واحد ، وعن قول واحد ، وعن فعل واحد ، وحركة واحدة.

إنه وليُّهم أى : ناصرهم ومُحبّهم ومُجيبهم ومُعِينهم ، هو وليهم بما أوضح لهم من الأدلة على الإيمان ، هل هناك حُبٌّ أكثر من هذا ، هل تركنا لنبحث عن الأدلة ، أو أنه لفتنا إلى الأدلة ؟

وتلك هى ولاية من ولايات الله ، فقبل أن نؤمن أوجد لنا الأدلة ، وعندما آمنا والانا بالمعونة ، وإنْ حاربنا خصومنا يكُنْ معنا ، وبعد ذلك تستمر الولاية إلى أن يعطينا الجزء الأَوْفَى فى الآخرة.

إذن: فهو ولىٌّ فى كل المراحل ، بالأدلة قبل الإيمان ولىّ ، ومع الإيمان استصحاباً يكون ناصرنا على خصومنا وخصومه ، وفى الآخرة هو ولينا بالمحبة والعطاء ، ويعطينا عطاء غير محدود. إذن : فولايته لا تنتهى.

٤٠ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِى؟

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْه ـ أنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

«يَتَعَاقَبُونَ فيكُمْ مَلائكَةٌ بالليْلِ ومَلائكَةٌ بالنَّهارِ ، وَيَجْتمعُونَ فِى صَلاةِ العَصْرِ وصَلاة الفَجْرِ (١) ثُمَّ يعرجُ الذِينَ بَاتُوا فِيكم فيسألُهم وهُوَ أعلمُ بهِم : كَيْفَ تركتُم عِبَادِى؟ فَيقولُونَ : تركْنَاهُم وهُمْ يُصلُّونَ ، وَأتيْناهُمْ وهُمْ يُصلُّونَ» (٢).

للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحفْظه ، ليلاً ونهاراً من الأشياء التى لا يمكن الاحتراز منها ، ومثال هذا هو تلك الإحصاءات التى خرجتْ عن البشر الذين تلدغهُم الثعابين ، فقد ثبت أنها لا تلدغُهم وهم نائمون ، بل في أثناء صَحْوتهم. أى: ساعة يكونون فى ستْر النوم ، فهناك ما يحفظهم ، أما في اليقظة فقد يتصرّف الإنسان بطيْش وغفلة فتلدغه الأفعى.

ونحن نقول فى أمثالنا الشعبية «العَيْنُ عليها حارس» ، ونلحظ كثيراً من الأحداث التى تبدو لنا غريبة ، كأن يسقط طفل من نافذة دَوْر علوى فلا

(١) قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (المجلد ٣/ ص١٣٩) طبعه دار القلم ـ بيروت ١٩٨٧: «أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير».

(٢) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٥) ، ومسلم فى صحيحه (٦٣٢) وأحمد فى مسنده (٢/ ٨٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

يُصاب بسوء ؛ لأن الحق سبحانه شاء أنْ تحفظَه الملائكة المعقّبات من السوء ؛ لأن مهمة الحفظة أن يحفظوا الإنسان من كل سوء.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكون قبل أنْ يخلقَه ليستخلفه فيه ، أعدَّ السماوات ، وأعدَّ الأرض ، وسخَّر الشمس والقمر ، وأخرج الثمرات ، وجعل الليل يُغشِي النهار.

كُلُّ ذلك أعدَّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة ، وهو سبحانه قيُّوم على هذا الخليفة ، فيصونه أيضاً بعد الخَلْق، ولا يدعه لمقوِّمات نفسه ليدافع عنها ، فيما لايستطيع الدفاع عنها، ويُكلِّف الله الملائكة المعقبات بذلك.

يقول الحق سبحانه: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** .(١١) ﴾ (الرعد)

وقد ينصرف معنى المعقِّبات إلى الملائكة الذين يتعقَّبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته ، وكتابة سيئاته ، ويمكن أنْ يقوما بالعملية معاً ، حِفْظه وكتابة أعماله ، فإنْ كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه.

ولقائل أنْ يقولَ : ولكنهم سيكتبون السيئات ، وهذه على الإنسان وليستْ له. وأقول : لا ، ويحسُن أنْ نفهم جيداً عن المشرِّع الأعلى ، ونعلم أن الإنسانَ إذا ما عرف أن السيئة ستُحسب عليه وتُحصَى ، وتُكتب ، يمسك كتابه ليقرأه ، فلسوف يبتعد عن فِعْل السيئات.

فكتابة الحسنات والسيئات هى مسألة لصالح الإنسان ، وحين يتعاقبون على الإنسان فكأنهم يصنعون دوريات لحماية الفرد.

فالإنسان مخدوم من كُلٍّ أجناس الكون حتى من الملائكة ، فالكون كلُّه يدور من أجلك وفى خدمتك ، يعطيك عطاء دائماً لا ينقطع دون سَعْى منك.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⦗١٠⦘ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⦗١١⦘ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⦗١٢⦘﴾ (الانفطار)

فهناك من الملائكة مَنْ سيُسجِّل على الإنسان أعماله، وكل قَوْل يقوله، وكلّ فِعْل يفعله، بل ويكتبون هذه الأفعال.

ويقول تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⦗١٨⦘﴾ (ق)

فكل لفظ له رقيب عتيد، أى: ملائكة يحفظون ويحصون أعمالكم ويُسجِّلونها، وهم الكرام الكاتبون، وكلما تقدم العلم أعطانا فَهْماً للمعانى الغيبية، وإنْ كانت المعانى الغيبية التى نستقبلها عن الله دليلنا فيها السماع، ففيه رقيب وعتيد يكتبان فقط، هكذا قال ربنا، فآمنا بما قال وانتهتْ المسألة، وهذا هو المطلوب.

ولذلك قال الحق: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ⦗٣⦘﴾ (البقرة)

لأن الإيمان لو كان بالمشهد، فما الفرْق ـ إذن ـ بين الناس؟ إن الإيمان فى كماله وقمّته هو الإيمان بالغيب، فإذا قال الحق سبحانه ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ⦗١٨⦘﴾ (ق)

فهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ويكتبون السيئات، وحين ننظر إلى البشر نجدهم يتفاوتون، ويرتفع بعض منهم على بعض فى صفات وقدرات، وكلّما تقدم الزمن عرف الإنسان سراً من أسرار الله يترقى به.

وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً، ثم تقدم العلم حتى صَغُر حجم المسجّل. إذن: كلما تقدمت الصنعة صغُرَتْ الآلة، لدرجة أنهم صنعوا مُسجِّلاً فى حجم الساعة، ثم صنعوا آخر فى حجم «فَصِّ الخاتم»، وصنعوا مُسجِّلاً يشبه الحبوب، وينثرونها فى أىِّ مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس.

إذن : كلما قويَتْ قدرة الصانع دقَّتْ الصنعة ، فإذا نسبتها لله ، فأين دِقَّة الذى صنعتَه أنت بجانب دِقَّة صنعة الله ؟

فإذا كان واحدٌ من البشر قد استطاع أنْ يأتىَ بمُسجِّلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة ، وحكمته فى الصنعة محدودة ، فإذا قال ربُّك : إن هناك ملائكة لن تراهم ، وستُحصِي عليك أعمالك وهم غَيْب فَقُلْ : على العين والرأس.

ورسول الله ﷺ يقول هنا: « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ».

فحديثه ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمنىّ للحركة الإنسانية ، فكل حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى العصر ، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك، ثم ينام.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾

(الإسراء)

أى : أن ملائكة الليل يشهدون ، ومعهم ملائكة النهار [1]

وحديث رسول الله ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمنى للحركة الإنسانية، فكل حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى العصر، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك ، ثم ينام.

والمعقبات يكُنَّ من بين يدى الإنسان ومن خلفه، ومن بين يديه من أجل الرصد، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أثناء الهجرة النبوية

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٤) والترمذي في سننه (٣١٣٥)، وابن ماجه في سننه (٦٧٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى هذه الآية: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ (الإسراء) « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار».

كان يسير بعض الوقت أمام النبى ﷺ، وكان يسير البعض الآخر خلف النبى ﷺ.

كان أبو بكر - رضى الله عنه - يتقدم ليرقب: هل هناك من يرصد الرسول أم لا؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب: أهناك من يتبعهما؟

وهكذا حرص أبو بكر على أنه يحمي الرسول ﷺ من الرَّصد أوالتربُّص؟[1] ويقول الحق سبحانه : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (١١: الرعد)

والسطحى يقول : إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله .

ونقول : إن الله لم يُنزل الملائكة ليعارضوا قدره ، وهذا الحفظ لايكون من ذات الإنسان لنفسه ، أو من الملائكة ضد قدر الله، والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (فصلت)

والاستقامة هى أخْذ الشيء على قوامه دون اعوجاج ، والاستقامة تتطلب سيراً ؛ لأنه سيسميه الصراط المستقيم ، والطريق قد يكون واسعاً مثل

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٤٧٦) أن عمر بن الخطاب قال : والله لليلة من أبى بكر خير من آل عمر، وليوم من أبى بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضى الله عنه، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر مالك تمشى ساعة بين يدى وساعة خلفي؟فقال : يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك».

(الأوتوستراد) ولكنه ليس صراطاً، فيريد الله منك أن تجعل الوسيلة إلى الغاية من عمل التكليف مستقيمة مثل الصراط، لايميل شعرة إلى اليمين ولا إلى الشمال، لأن الله يريد أن يقرب عليك المسافة التى ستوصلك إلى الغاية فقوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا ۝٣٠﴾ (فصلت)

أى: ساروا فى الاتجاه المستقيم، دون أن يلتفتوا يميناً ولا شمالاً ولم يربعوا في الطريق الواسع، بل ساروا فى وسطه دون ميل أو انحراف ، فالخط المستقيم هو أقصر بُعْد بين نقطتين.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يطلب منا ذلك يريد أن يُثَمِّر حركتنا، ولا يتعبنا فى الحركات الطويلة التى لاتجدى، ولكن يجعلها حركة قريبة وموصلة للغاية.

والحق سبحانه يلفتنا هنا إلى أهم ركن من أركان الاستقامة ، وهى الصلاة، وهى لاتسقط عن المؤمن أبداً ، حتى لوصلَّى بخطور أفعال الصلاة على قلبه ،أو يصلى بحركة رموش عينيه ، فهى لاتسقط عن المسلم ما دام له وعى .. لماذا؟

لأن الصلاة حضور فى معيّة الله، فالزكاة تكون عندجمع المحصول ، والصوم مرة فى العام فى شهر رمضان ، والحج مرة فى العمر ، أما الصلاة فكل يوم خمس مرات ، فالعبد صنعه ربه، والذى صنعه يريده أن يذهب إليه كل يوم خمس مرات.

ولذلك، خذ آلة من آلات البشر، واجعل مهندساً يتابع حركتها وصيانتها كل يوم خمس مرات، هل يصيبها عطب؟ لايمكن ، كذلك أنت حين تذهب إلى ربك كل يوم خمس مرات.

لا يمكن أن يصيب حياتك عطب ، ولأن المهندس يصلح الآلة بإمكاناته هو فى الدنيا ، فقد يحدث العطب وغماً عنه.

أما الحق سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ فيصلحه بشيء ؟؟ لاتدركه ، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا جاء ميعاد الصلاة يقول: «أرحنا بها يا بلال» ولم يقل : أرحنا منها.

فالصلاة التى هى أم الاستقامة لا تسقط عن المكلف أبداً ، فقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم ، وقد لا يكون عنده دخل فلا يزكى ، وليس عنده قدرة مالية أو بدنية فلا يحج.

إذن: قد تسقط عنه هذه الأركان ، إلا أن الصلاة لا تسقط وشهادة أن لا إله إلا الله التى هى القمة ، لو قالها الإنسان مرة واحدة دخل الإسلام ، أما الصلاة فكل يوم خمس مرات.

وقد أخذت الصلاة قيمتها من أنها جاءت فرضيتها بالمباشرة لا بالوحى وذلك فى ليلة الإسراء والمعراج ، فهى قد أخذت قيمتها بالتكليف المباشر من الله عزوجل.

وهى مع كل هذا تجمع كل الأركان التى بنى عليها الإسلام ؛ لأن أركان الإسلام وأولها شهادة التوحيد نقولها فى الصلاة ، والصوم يتمثل فى أن المصلى يصوم فى صلاته عما هو أكثر مما يصوم عنه فى رمضان.

ففى رمضان يصوم المسلم عن الطعام والشراب والجماع (أى: يصوم عن شهوتى البطن والفرج) أما فى الصلاة فهو يصوم عما هوأكثرمن هذا ، فهو يمسك أيضاً عن الحركة وعن الكلام ، وعن النوم.إذن: فى الصلاة صيام أبلغ وأشمل.

وفى الصلاة زكاة أيضاً ؛ لأنك تقتطع من وقتك جزءاً للصلاة ، فهذا زكاة عن وقتك ، كما أن فيها حجاً لأنك لا تصلى إلا إذا تحريت التوجه إلى بيت الله الحرام ، وتستحضر توجهك إليه ، وتضعه أمام عينيك كل يوم خمس مرات.

إذن : الصلاة وإن كانت لا تسقط عن المكلف ، فقد شملت كل ألوان العبادة ، ولذلك قالوا : إن الفارق بين المؤمن والكافر هى الصلاة.

والصلاة فيها التنزلات كلها ؛ ولذلك تجد العظمة فى أن الله حين يدعوك هو الذى يقول لك تعال ، وإن لم تأت فأنت عَاصٍ ، مع أنك أنت المحتاج إليه.

ونحن فى الدنيا حين يحب الإنسان أنْ يقابلَ مسئولاً كبيراً يكتب له طلباً بالمقابلة ، وقد يقبل الطلب أو يرفضه ، فإنْ قبله لا بُدَّ أن يعرف سبب المقابلة ، ثم يُحدِّد موعد المقابلة ومكانها ، وبعد ذلك هو الذى يُنهى المقابلة.

هذا فى البشر ، لكن الله لا يصنع ذلك مع خَلْقه ، بل إن أردْتَ أنْ تُكلِّم ربك قِفْ فى أىِّ مكان وادخل فى الصلاة ، ستصبح فى معيته ، ولن يسأل عن سبب المقابلة ، وماذا تريد؟

وهو سبحانه لا يريد منك إلا أنْ تؤمنَ به ، ثم تسلك زمام القُرْب ، فلا تطلب منه أنْ تذهب إليه ، ولكنه يفرض عليك أنْ تأتيه فهو عزيز ، ولكنك تلقاه فى أىِّ وقت تشاء ، وفى أىِّ مكان تحب.

فإذا أردتَ أنْ يذكرَك الله فاذْكُرْه ، وإنْ ذكرتَهُ فى نفسك ذكرك فى نفسه، وإنْ ذكرته فى ملأ يُطيع ويعصى ، ذكرك فى ملأ من الملائكة لا يعصون الله أبداً.

فانظر إلى هذه العبودية لله ، كم تعطيك من العِزَّة والكرامة.

ورَبُّ العزة ـ سبحانه ـ هنا يسأل ملائكته ـ وهو أعلم بما يسأل عنه : كيف تركتُم عبادي؟ فيقولون: «تركناهم وهم يُصَلُّون ، وأتيناهم وهم يصلون».

إنهم عباد لله ، يحافظون على صلواتهم وقُربهم من الله عز وجل ، وهؤلاء يقول عنهم الحق سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)** ﴾ [الأنعام]

فالصلاة عماد الدين ، مَنْ أقامها فقد أقام الدين ، وحين نُحلِّل الأمر تحليلاً طبيعياً نجد أن الناس تنفر من الطاعات ؛ لأنها تأخذ زمناً يحبون أنْ يقضُوه في اللعب.

وحين نقول لواحد مثلاً: اترك عملك وصَلِّ ، قد يرد: لا ، لأنني حين أترك عملي يضيع عليَّ كذا. ولو كان طبيباً لذكر عدداً من المرضى سيكشف عليهم ، ولو كان عاملاً لَقَال : إنَّ توقُّف الآلة في أثناء الصلاة يجعلني أخسر كثيراً.

وهنا نقول : يا أخي تعالَ إلى الطاعة ، والبركة تُعوِّض لك ما تظن أنك تخسره.

وإذا نظرت إلى أركان الإسلام تجدها بالنسبة لانشغال الزمن بها لا تأخذ الكثير من الوقت ، فشهادة أنْ «لا إله إلا الله محمد رسول الله» لا تحتاج منك إلا أنْ تقولها مرة واحدة ، وهذا رُكْن لم يستغرق زمناً طويلاً بالنسبة لأدائه ، والزكاة لا تأخذ منك إلا ما تعطيه يوم الحصاد بالنسبة لزكاة الزروع ، وهذا يستغرق وقتاً قليلاً ، وكذلك زكاة المال آخر العام ، والصوم شهر في السنة ،

وإذا كان زَمَنُ الصوم أوسع قليلاً ؛ إلا أنه وَقْتٌ لا يأتى إلا شهراً فى كل عام ، والحج مرة فى العمر إنْ كنت مستطيعاً.

إذنْ : أنت تجد التكاليف الركْنية فى الإسلام بالنسبة للأزمان وقتها يسير وقليل لَمَنْ يحرص عليها ، لكن الصلاة تُؤدَّى فى كل يوم خمس مرات ، ورُقْعتها بالنسبة للزمن أوسع ، وأداؤها يحتاج إلى طهارة مِنْ حدث أو جنابة ، وكذلك طهارة المكان ؛ لذلك جاءت الصلاة رُكْناً أصيلاً فى الإسلام ، وأنت لا تعرف الإنسان إنْ كان مسلماً إلا إذا سمع الأذان وقام يُصلِّى ؛ لذلك فالصلاة هى الفارقة بين المسلم وغير المسلم.

ثم إن الحق سبحانه يُذيب بالصلاة الفوارق الاجتماعية التى تقتضيها أعمالنا ، فتلتفت ساعة يقول المؤذن (الله أكبر) تجد أن الكُلَّ قد جاء ، الغنىّ قبل الفقير ، والخفير مع الأمير ، فيخلع الجميع أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساوَوْا فى الصلاة ، ومَنْ له رئيس يتكَّبر عليه يراه وهو ساجِد مثْله لله ، فتريحه لحظة استطراق العبودية.

ولنفرضِ أن كُلاً منا سيُصلِّى بمفرده فى الصلاة اليومية ، لكن عندما يُؤذِّن المؤذِّن لصلاة الجمعة يأمرنا الحق أنْ نذرَ ونترك كل شىء لنُؤدِّى صلاة الجمعة معاً ، ويرى الضعيف عظيماً يتضرع مثْله إلى الله ، ويرى القوى نفسه وبجانبه الضعيف ، وحين يعود كُلٌّ مِنَّا إلى عمله تسقط أقنعة القوة والزَّهْو؛ لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد ، وكلنا سواء.

إن هذا هو الاستطراق الاجتماعى؛ لأننا حين نرقب بعضنا فى أثناء الصلاة نجد أنفسنا فى حَضْرة الرب الذى أعدَّ لنا الكون ، وسخَّره لنا ، وأعطانا الطاقات ، وأعطانا المواهب.

والصلاة تهَبُ المؤمنين الاطمئنان ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه [1] أمر قام إلى الصلاة [2]

وليجرب هذا كُلٌّ واحد منّا عندما يصعبُ عليه شيء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقُمْ ويتوضأ وضوءاً جديداً ويبدأه بالنية حتى ولو كان مُتوضِّئاً ، وليقف بين يدى الله ، ولْيقُلْ: إنه أمر يا ربّ عزَّ علىَّ فى أسبابك ، وليُصلِّ بخشوع.

وأنا أجزم بأن الإنسان ما إنْ يُسلِّم من هذه الصلاة إلا ويكون الفرج قد جاء ، ألم نتلقَّ عن رسول الله هذا السلوك البديع؟ إنه كلما حَزَبه أمْر قام إلى الصلاة ؟

وما دامت الصلاة تريح القلب فلأذهبْ إليها وألْقى ربى ، فحين يقف المؤمن بين يدَىْ الله ويُصلِّى ، يمتلىء بالرضا والتوازن النفسى ، فالمؤمن يذهب إلى الخالق سبحانه ليسأله أنْ يُخفِّف عنه الهَمَّ والحزن.

وأفضل مكان نلتجىء فيه إلى الله تعالى هو بيته ، فتردُّد المسلم على بيت الله ليكون فى حَضْرة ربه دائماً هو إصلاحٌ لما فى النفس ، فبيوت الله هى أماكن تلقِّى النور المعنوىّ من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذى يُعطينا ارتقاء الروح.

فالمساجد لها مهمة العيادة للطبيب الخالق [3] الذى خلق هذه النفس ،

---

(١) حزبه أمر. أى : أصابه. أى : إذا نزل به مهم أو أصابه غَمٌّ . وحزبه الأمر يحزبه : نابه واشتد عليه. وحوازب الخطوب ، وهو جمع حازب ، وهو الأمر الشديد. [لسان العرب ـ مادة : حزب].

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

(٣) تعبير «الطبيب الخالق» الذى استخدمه فضيلة الشيخ الشعراوى هنا هو تعبير استخدمه رسول الله ﷺ ، وذلك فى حديث أبى رمثة رضي الله عنه قال : انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ ، فإذا هو ذو وفرة بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب قال : «الله الطبيب ، بل أنت رفيق ، طبيبها الذى خلقها» أخرجه أحمد فى مسنده (٤ / ١٦٣) ، وأبو داود فى سننه [٤٢٠٦ ، ٤٢٠٧].

ويعرف كيف يداويها ، وليس للطبيب الدارس في كلية الطب الذي يعرف أشياء ، وتغيب عنه أشياء.

ونحن في المساجد إنما نعيش في حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقّى منه التجليّات والفُيوضات التي تعالج نفوسنا ، أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم.

فأنت في بيت الله تكون في ضيافة الله ، وأنت تعلم أنه إنْ جاءك أحد في بيتك على غير دعوة فأنت تُكرِمه ، فإذا كان المجيء على موعد فكرمُك يكون كبيراً ، فما بالنا بكرم مَنْ خلقنا جميعاً ؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فَيْض كرمه ، من ساعة أن تنوى زيارته في بيته ، فأنت في صلاة منذ أنْ تبدأ في الوضوء في بيتك ، استعداداً للصلاة في المسجد ؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أنْ يطيل عليك نعمةَ أنْ تكونَ في حَضْرته.

وربُّ العزة سبحانه حين يدعونا إلى بيته بالأذان ، فلك أنْ تعلم أنك إنْ خالفتَ هذه الدعوة تُعاقب ، ولكن ليس معنى هذا أن الله يُيسِّر لك بيته لتزوره في أيِّ وقت.

فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تُمثِّل الحرص من الله سبحانه على أنْ يلقاك ليُعطيك من فيوضاته ما تستعين به على مُكدِّرات الحياة ، ولكن إنْ أحببتَ أنْ تجلسَ في المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل ، تعالَ في أيِّ وقت ، وصَلِّ كما تشاء.

فإذا قلتَ «الله أكبر» تكون في حَضْرة الله ، وإنْ لم تستطع فصلواتك الخمس في اليوم الواحد هي القِسْط الضروري لصيانة نفسك المؤمنة ؛ لأنك تُقابل ربك أثناء الصلاة وتُعلن الولاء له سبحانه .

فالصلاة ـ إذن ـ خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة ، وأراد سبحانه بها أنْ تُفيقَ إلى منهجه الذى يُصلح بالك ، ويُصلح الدنيا لك وبك ، فلا تأخذك الأسباب ، بل تأخذ أنت بالأسباب.

وحين تسمع «الله أكبر» ينادى بها المؤذِّن لصلاة الظهر ـ مثلاً ـ فعليك أنْ تتركَ أسباب الدنيا ، وتذهب لتقف بين يدى الله عز وجل ، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر ، ثم أذان المغرب، ثم أذان العشاء.

كلٌّ هذا تذكيرٌ لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا ، فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه ، وأطول فترة بين العشاء والفجر نكون فيها نائمين ، فلا يأخذنا متاع الدنيا.

إذن : فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منا الولاء دائماً ، فإذا كنتَ تعتزُّ بالله فأنت تُديم الولاء له باستمرار الصلاة ، وأنت حين تسجد لله وتتذلَّل له ، فإنه سبحانه يزيدك عِزَّة ، ويكون معك دائماً ، ويقيك ذُلَّ الدنيا.

وقد جعل الحق سبحانه الذين يحافظون على صلواتهم من ورثة الفردوس ، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون]

أى : أنهم يُؤدُّونها فى أوقاتها لايُؤخِّرونها عنها ، فبعض الناس يقولون: وقت الصلاة ممدود إلى ما قبل دخول وقت الصلاة التى بعدها ، مع أن هذا من رحمة الله بنا وتخفيفه علينا ، وهذا يكون للمضطر فقط ؛ لأنك لا تضمن أنْ تعيشَ من العشاء إلى الفجر.

ويقول الحق سبحانه في آية أخرى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ(١) وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨)﴾ [البقرة]

فما دُمْتُم قد ذُقْتم حلاوة الصلاة في القرب من معية ربكم ، وذلك أجدر وأَوْلَى أنْ تتمسَّكوا بها أكثر ، وذلك القولُ يسري على الصلوات الخمس التي نعرفها.

وقد أخفى الله ذكر الصلاة الوسطى ، ليكون هذا أَدْعَى للمحافظة على الصلوات جميعاً.

فلو حاولنا تحديد الصلاة الوسطى باعتبارات مختلفة فسنجد أن الله أبهمها ، لتتحقق ديمومة طاعة الله ولزوم الخشوع والخضوع (٢).

فإذا كان الاعتبار بفرضية الصلاة ، فإنَّ أولَ صلاة فرضها الله عز و جل هي صلاة الظهر ، هذا أول فَرْض ، وبعده العصر ، فالمغرب ، فالعشاء ، فالفجر ، فإنْ أخذت الوسطى بالتشريع فهي صلاة المغرب ، وهذا رأيٌ يقول به كثير من العلماء.

وإنْ أخذنا الوُسْطى بحسب عدد ركعات الصلاة فستجد أن هناك صلاة

---

(١) قال أبو بكر الجصاص في «أحكام القرآن» (١/ ٥٣٦) :«أكّد الصلاة الوسطى بإفرادها بالذكر مع ذكره سائر الصلوات ، وذلك يدل على معنيين.
- إما أن تكون أفضل الصلوات وأَوْلاها بالمحافظة عليها فلذلك أفردها بالذكر عن الجملة.
- وإما أن تكون المحافظة عليها أشد من المحافظة على غيرها».

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٩٠) الاختلاف الكثير في تحديد الصلاة الوسطى ، فساق الأقوال كلها بأدلتها (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩٤) : أنها صلاة : الصبح ، الظهر ، العصر ، المغرب ، العشاء. وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس وخطأ هذا القول. وقيل : بل هي صلاة الجماعة. وقيل : صلاة الجمعة. وقيل : صلاة الخوف . وقيل : صلاة عيد الفطر . وقيل : صلاة الأضحى. وقيل : الوتر. وقيل : الضحى. ثم قال :« وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ولم يقع الإجماع على قول واحد ، بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة وإلى الآن».

قوامها ركعتان هى صلاة الفجر ، وصلاة من أربع ركعات هى صلاة الظهر والعصر والعشاء ، وصلاة من ثلاث ركعات هى صلاة المغرب ، والوسط فيها هى الصلاة الثلاثية ، وهى وسط بين الزوجية والرباعية ، فتكون هى صلاة المغرب أيضاً.

وإنْ أخذناها بالنسبة للنهار فالصبح أول النهار ، والظهر بعده ، ثم العصر والمغرب والعشاء ، فالوُسْطى هى العصر.

وإنْ أخذناها على أنها الوَسَط بين الجَهْرية والسرية ، فيحتمل أن تكون هى صلاة الصبح أو صلاة المغرب ؛ لأن الصلوات السرية هى الظهر والعصر ، والجهرية هى المغرب والعشاء والفجر ، وبين العشاء والظهر تأتى صلاة الصبح ، أو صلاة المغرب باعتبار أنها تأتى بين الظهر والعصر من ناحية ، والعشاء والصبح من ناحية أخرى.

وإنْ أخذناها لأن الملائكة تجتمع فيها ، فهى فى طرفى النهار والليل فذلك يعنى صلاة العصر أو صلاة الصبح ، إذن : فالوسط يأتى من الاعتبار الذى تُحسب به إن كان عدداً أو تشريعاً ، أو عدد ركعات ، أو سرية أو جهرية، أو بحسب نزول ملائكة النهار والليل ، وكل اعتبار من هؤلاء له حكم.

٤١ ائتيا طوعاً أو كرهاً

عَن ابْنِ عبّاسٍ في قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴿١١﴾﴾ [فصلت] .

قَال للسماء : أَخْرِجي شَمْسَكِ وقَمرَكِ ونُجومَكِ.

وقالَ للأرضِ: شَقِّقي أَنْهارَكِ وأَخْرِجي ثِمارَك.

فَقَالَتَا : أتيْنَا طَائِعِينَ (١) .

إن كل شيء فى السماوات وفى الأرض قد أسلم لله طَوْعاً أو كَرْهاً ، وهى طاعة التسخير ، فكلُّ مَا لا تكليفَ له جاء طائعاً مُسَخَّراً ، فأجناسُ الملائكة والجماد والنبات والحيوان ، كُلٌّ منهم يؤدى مهمته بخضوع ، ولا يعترض أحدٌ منهم، ولا يملك أحدهم قدرةً على العصيان.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾

[الحج : ١٨]

فالأجناس كلها ساجدة مُطيعة لربها ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر والنبات

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١/ ٢٧) وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وتفسير الصحابى عندهما مسند» وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٣١٦) وقال : «أخرجه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس».

ساجد لله ، والحيوان والدوابّ ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود ، لكن فى مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثيرغير ساجد ؛ لذلك حَقَّ عليه العذاب.

فأصْل سجود هذه الأجناس كلها هو الخضوع والطاعة لله تعالى.

فكُلُّ الكائنات تسجد لله سبحانه ، ما عدا كل أفراد الإنسان ، فكثير منه يسجد لله ، وكثير منه يحِقُّ عليه العذاب ؛ لأنه لا يطيع الحق ، ومَنْ يَعْصِ منهج الله غيْرَ مؤمن به يطرده الله من رحمته ، ومَنْ يُهِنْه الله بذلك فليس له تكريم أبداً.

وقد أجمع الكون على السجود لله ، إلا الإنسان ، فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله ، ويفرح به الكون ، ومنهم مَنْ يغضب منه الكون لأنه يعصى الله.

فالكون ـ على سبيل المثال ـ قد فرح بميلاد رسول الله ﷺ ، فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرح بمقدم الرسول الكريم ، لأن كل هذه الكائنات مُسخَّرة للإنسان ، وهى مُسبِّحة لله وطائعة بطبيعتها ، مثلما يأتى البشير ليهدى الإنسان إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً ، فهى تفرح بمقدمِ هذا البشير .

ونعرف أن المكان الذى يوجد به الإنسان ، هذا المكان يفرح إنْ كان الإنسان فيه طائعاً ، وهذا المكان نفسه يحزن إنْ كان الإنسان عاصياً ، ويضجّ المكان ـ أى مكان ـ بوجود أىّ عاصٍ فيه.

ونرى ذلك واضحاً فى قَوْل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن قوم فرعون:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان]

فالأرض التى كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر ، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التى ينعَمُ بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس وهى تغضب وتسخط وتضجّ بوجود الكافرين بنعمة الله فيها.

ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخسف والتنكيل بهؤلاء العُصَاة الكافرين المشركين ، بينما تبكى السماء والأرض إنْ فارقها مؤمن.

ولنا فى قول الإمام على ـ كَرَّم الله وجهه ـ إيضاح لهذا ، فقد قال : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان: موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض. أما موضعه فى السماء فهو مصعد عمله الطيب ، وأما موضعه فى الأرض فهو موضع مُصلاَّه (١) .

إذن : فموضع صعود عمل الإنسان فى السماء يحزن ؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمرُّ فيه ، وموضع صلاة الإنسان يفقد سجودَ إنسان خشوعاً لله.

ولكل الكائنات المخلوقة لله مشاعر، وكل شيء فى الكون يؤدى مهمته بقانون التسيير والتسخير، لا قانون التخيير، إلا الإنسان ، فهو فقط الذى يحيا بقانون التخيير فى بعض أحواله ؛ لأنه قادر على الطاعة ، وقادر على المعصية.

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبدالله قال: سأل رجل علياً ؓ : هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له : لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصلَّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء ، ثم قرأ على ؓ : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان]

وقد شاءتْ قدرة الحق سبحانه أنْ يخلق السماء على هيئة دخان فَوُجدت ، وخلقه للسماوات والأرض على وفق إرادته ، وهو هيِّن عليه بمنزلة ما يُقال للشيء: احضر راضياً أو كارهاً ، فيسمع الأمر ويطيعه.

وهذه أمور تسخيرية من الخالق الأكرم ، وليس للمخلوق من سماوات وأرض وما بينهما إلا الامتثال للأمر التسخيرى من الخالق عَزَّ وجَلَّ.

وقد يتساءل بعض الناس: هل تتكلم الأرض والسماء وغيرهما من المخلوقات فى عالم الجماد والنبات والحيوان؟

نقول : نعم ، إن لها لغةً لا نعرفها نحن ، وإنما يعرفها خالقها ، فلله سبحانه مع خَلْقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذى خلق الكون والمخلوقات ، وله سبحانه خطاب بألفاظ ، وخطاب بإشارات ، وخطاب بإلهام ، وخطاب بوحى.

فالله ـ عز وجل ـ يخاطب جميع خَلْقه ، ويجيبه جميع خَلْقه ، والأمثلة على هذا كثيرة فى القرآن الكريم.

فالحق سبحانه خاطب ذرية آدم ، وهى فى ظَهْره فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهنا قد يقول قائل: أكان لهذه الذرية القدرة على النطق ، إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر ؛ لتتحد مثلاً بـ«البويضة» فى رحم الأم؟

فنردُّ عليه ونقول : لماذا تظن أن مخاطبة ربنا لهم أمر صَعْب؟ إن الواحد من البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ يستطيع أنْ يتكلّم عشر لغات ، ويتزوج من أربع سيدات ، كل سيدة ينجب منها ذرية ، ويقعد يوماً عند سيدة وذريتها ويُعلِّمها اللغة الإنجليزية مثلاً ، ويجلس مع الأخرى ويُعلِّمها اللغة الألمانية ، ويُعلِّم

الثالثة وأولادها اللغة العربية ، وهكذا ، بل يستطيع أن يتفاهم حتى بالإشارة مع مَنْ لا يعرف لغته.

وإذا كان الإنسان يستطيع أن يُعـدِّد وسائل الأداء ، ألاَ يقدر أنْ يُعدِّد ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ وسائل الأداء لمخلوقاته؟

إنه قـادر عـلى أنْ يُعـدِّد ويخـاطـب ، ألم يَقُلْ الحق ـ تبـارك وتـعـالى ـ للجبال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ ۝١٠﴾ [سبأ]

كـيف ـ إذن ـ لا يتـسع أفق الإنسـان لأنْ يدرك أن الله قـادر على أنْ يخـاطب أيّاً من مـخلوقـاته؟ إنه قـادر عـلى أنْ يخـاطب كُلَّ مـخلوق له بلغـة لايفهمها الآخر.

والحق سبحانه قد خاطب السماء والأرض ، فقال:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي[2] ۝٤٤﴾ [هود]

وذلك في قصة نوح عـليه السلام والطوفان ، وساعـة أن يأتى في القرآن أمر من الله تعالى مثل ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ [هود: ٤٤] فافهم أن القائل هو مَنْ تنصاع له الأرض.

فالحق سبحانه لم يَقُل : «قال الله يا أرض ابلعي ماءك» ؛ لأن هناك أصْلاً مُتـعيناً وإنْ لم يَقُلْه ، والحق سـبحانه يـريد أنْ يُنمِّي فينا غريزة وفـطْنة الإيمان ، لأن أحداً غير الله تعالى ليس بقادر على أنْ يأمرَ الأرض بأنْ تبلع الماء.

ويكون أمره سبحانه للسماء ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ۝٤٤﴾ [هود]

---

(١) أي :ردِّدي الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام. (القاموس القويم ١/ ٤٢) .

(٢) أقلع عن الشيء : كف عنه. وأقلعت السماء: كـفَّتْ عن المطر. كـقوله : ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ۝٤٤﴾ [هود] كُفِّي عن المطر . (القاموس القويم ٢/ ١٣١).

أى: أنْ تُوقف المطر ، وهكذا يُنهى الحق سبحانه الطوفان الذى أغرق الدنيا بأنْ أوقفَ المصبَّ ، وأعطى الأمر للمصرف أن يسحب الماء .

والحق سبحانه إذا كان قد خاطب السماء والأرض بأنْ يأتيا طَوْعاً أو كَرْهاً ، فبماذا أمرهما رَبُّ العزة ؟

«قال للسماء: أخرجى شمسك ، وقمرك ، ونجومك».

«وقال للأرض: شقِّقى أنهارك ، وأَخْرِجى ثمارك».

وهنا يجب أنْ نقفَ وَقْفة ، فهذا الأمر الإلهى للسماء والأرض هو فى حقيقة الأمر فى صالح الإنسان لخدمته ، فهو قد أتى إلى كون قد هُيِّىء وأُعِدَّ له ، لتستقيم حياته على هذه الأرض ، وليكونَ له وجودٌ تحت هذه السماء.

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد لخَلْقه أنْ يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، فالحق سبحانه أوضح لنا فى منهجه : أنتم مُسْتخلفون فى الكون ، وأنتم أيها الخلفاء فى الأرض سادةُ هذا الكون ، سادةٌ يخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدونها فى خدمتكم.

إذن: فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان ، فكُلُّ هذه الأجناس التى سبقتْ الإنسان مُسخّرة لخدمته ؛ لأن كل هذا الوجود مُسخَّر لخدمة الإنسان.

فالنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والجماد يخدم الجميع ، والعناصر التى نأخذها نحن البشر من الجماد يستفيد منها أيضاً النبات والحيوان.

إذن : فكُلُّ جنس فى الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التى تعلوه ، وقد كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به

ارتبـاطاً يناسب سيـادتك على الأجناس الأخرى ، كـان لا بُدَّ أن تبحث عَـمَّنْ أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى.

هل أنت أيها الإنسـان قد سخَّرْتَ هذه الأجناس بقـدرتك وقوتك؟ لا . فلستَ تملك قـدرةً ذاتية تتيح لك ذلـك؟ أمَا كان يجب عليك أنْ تـفكر ما هى القوة التى سـخَّرتْ لك مَا لا تقدر عليـه ، فخدمتْكَ حين لا تـوجد لك قدرة ، وخدمتْكَ وأنت نائم تغطُّ فى نوم عميق؟

وأنت لست وحــدك فى هذا الكـون ، بل هناك أجناس أخـرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه ، وله مـهمته ، للحيـوان مهمة ، وللنبات مـهمة ، وللجماد مهمة ، فهل وجدتَ جنساً من الأجناس تمرَّد على مهمته؟ لا .

إن الحصان مثلاً ، نـستخدمه كمطيّة عليهـا وسادة من حرير وجلد ، ولها لجام من فـضة لتـركبه ، وتجـد هذه المطية فى يوم آخـر تحمل سـماد الأرض من رَوَث الحيوان وما تأبَّتْ ، لقد أدَّتْ الخدمة لك راكباً ، وأدَّت الخدمة لك ناقلاً ، وما تمرَّدَتْ عليك أبداً.

كل الأجناس ـ إذن ـ تُوَدِّى مهمتها كما ينبغى ، فاستقام الأمر فيها ، وما دام الأمر قد استقام، فبأىٍّ شىء اسـتقام ؟ إن الله هو الذى خلقها وذلَّلَها ، قال لها: « كونى فى خدمة الإنسان ، مؤمناً كان أو كافراً».

وفى هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخّر أو تشذّ عن حركتها فى خدمة الإنسان.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)** ﴾ [يس]

وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها ، وليس بقدرتنا ، يأتى الله سبحانه وتعالى إلى أرض ينزل عليها المطر بغزارة ، والعلماء يقولون: إن هذا يحدث بقوانين الكون ، فيلفتنا الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى خطأ هذا الكلام ؛ بأنْ تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة ؛ لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ، ولكن بإرادة خالق الكون.

فإذا كانت القوانين تعمل وحدها ، فَمَنْ الذى عطَّلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين ، إنْ شاءت جعلتها تعمل ، وإنْ شاءت جعلتها لا تعمل.

إذن : فكُلُّ شىء فى الكون باسم الله ، هو الذى سَخَّر وأعطى ، وهو الذى يمنح ويمنع.

أرأى أحدكم الشمس مرة قالت : لم يَعُدْ الخَلْق يعجبوننى ، ولن أشرق عليهم وسأحتجب اليوم ؟ أتمرَّدَ الهواء وقال: لا ، إن الخَلْق لم يعودوا يستحقون تنفُّس الهواء ؛ لذلك لن أُمكِّنهم من الانتفاع بى.

أرأينا المطر امتنع ؟ هل استنبتَ الإنسان أرضاً صالحة للزراعة واستعصتْ عليه ؟ لا ، فكُلُّ شىء فى الوجود يُؤدِّى مهمته تسخيراً وتذليلاً.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُطلق بعضاً من الحيوان فلا يُذلَّل ، ولا يُستأنس ، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل مثلاً بقدرتك، فإنْ كانت لك قدرة مُطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم ، أو استأنس الأسد.

وأنت أيها الإنسان ترى فى هذا الكون بعضاً من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة بغير استئناس ؛ ليدلنا الحق على أن

هذا الذى يخدمك لو لـم يُذلِّله الله لك لَمَا استطعتَ أنت بقدرتك أنْ تُذلِّله، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات، منحه الله تعالى لك أيها الإنسان تفضُّلاً منه ـ سبحانه ـ مع عَجْزك وضَعْفك.

ولم نجد شيئاً نافعاً قد عصى الإنسان فى الكون؛ لأن كل الخَلْق مُسخَّر من الله لخدمة الإنسان كافراً كان أو مؤمناً، وهذا هو عطاء الربوبية؛ لأن عطاء الربوبية يشمل الخَلْق جميعاً، فالخالق الأكرم هو رَبُّ الناس كلهم، ويتولَّى تربيتهم جميعاً؛ ولذلك تستجيب الأجناس من غير الإنسان للإنسان، سواء أكان مؤمناً أم كافراً.

فإنْ أحسن الكافر استخدام الأسباب فإنَّ الأسباب تعطيه ولا تعطى المؤمن الذى لا يستخدم الأسباب، أو لا يُحسن استخدامها، فهذا هو عطاء الربوبية، والربوبية للجميع، أما عطاء الألوهية فهو «افعل ولا تفعل» وهو عطاء للمؤمنين فقط.

وربُّ العزة سبحانه خاطب السماء فقال لها: «أخرجى شمسك، وقمرك، ونجومك» وخاطب الأرض فقال: «شَقِّقى أنهارك، وأخرجى ثمارك».

وكأن الحق ـ سبحانه ـ يُحدِّثنا عن مُقوِّمات الحياة فى الكون الذى أُهبط عليه الإنسان ضَيْفاً عليه، لم يصنع فيه شيئاً، بل جاء فوجد كل شيء مُهيَّأً له مُعَداً.

والحق سبحانه يقول فى قرآنه: ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (٥) ﴾ [يونس]

فالحق سبحانه جاء لنا بِنِعَمٍ من آياته التى خلقها لنا ، والتى جعلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ سبباً لقوام الحياة ، فالشمس هى التى تُنضج لنا كل شىء فى الوجود ، وتُعطى لكل كائن الإشعاع الخاص به ، كما أن الشمس تُبَخِّر المياه لينزل الماء بعد ذلك عَذْباً فراتاً ، يرتوى منه الإنسان ، وتشرب منه الأنعام ، ونروى به الزرع.

والشمس هى الأم لمجموعة من الكواكب التى تدور حولها ، فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ، ودورة الأرض حول نفسها تمثل اليوم.

وقد عرفنا أن هناك مطالعَ متعددةً للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ، لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا فى بعض المعابد طاقات وفتحات فى البناء ، فتطلع الشمس كل يوم من أحد هذه الطاقات ، فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمىً أى يومياً.

ونُسمِّى نحن تلك المنازل «البروج» كبرج الحَمَل والجدى والثور والأسد والحوت ، ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة وبرودة ومطر وغير ذلك ، ذلك أن كل برج له زمن ، ويمكن تعرُّف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة.

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل]

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان ، والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً مُتعلِّقون بفعل واحد وهو «سَخَّر» ، وهم نَسَق واحد ، والتسخير يعنى قهر مخلوق لمخلوق ليؤدى كُلٌّ مهمته ، وتسخير الليل

والنهار والشمس والقمر ، كُلٌّ له مهمة ، فالليل مهمته الراحة ، والنهار له مهمة أن تكدح في الأرض لتبتغي رزقاً من الله وفضلاً.

والشمس جعلها الحق سبحانه مصدراً للطاقة والدفء ، وهي تعطيك دون أن تسأل ، ولا تستطيع هي أيضاً أن تمتنع عن عطاء قدَّره الله ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

والدؤوب هو مرور الشيء في عمل رتيب ونظام دقيق ، ولكل من الشمس والقمر فَلَك خاصٌّ ، وحركة محسوبة بدقّة فلا يصطدمان ، وقد سخَّر لنا الحق سبحانه الليل والنهار ، وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر ، وكُلٌّ من الشمس والقمر دائبان ، يمشي كل منهما في حركته مَشْياً لا تنقطع فيه رتابة العادة ، ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدِّد - على سبيل المثال - أوائل الفصول ، ومواسم الزراعة ، ومواقيت الصلاة.

ثم إنَّ تعاقُبَ ظهور الشمس والقمر يُسبِّب تعاقب مجيء الليل والنهار، ولا يعني ظهور الشمس وسطوعها أن القمر غير موجود ، فهو موجود ولكن ضَوْءَ الشمس المبهر يمنعك من أنْ تراه ، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً.

أما النجوم ، فقد قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام]

والنجوم هي الأجرام اللامعة التي نراها في السماء لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خَلْقه ستضطرهم حركة الحياة إلى الضرب في الأرض ، والسير ليلاً في الأرض أو البحر مثل مَنْ

يحرسون ويشيعون الأمْن فى الدنيا ، ولا يمكن أن يناموا بالليل ، بل لا بُدَّ أنْ يسهروا لحراستنا ، كُلٌّ ذلك أراده الله بتقدير عزيز حكيم عليم .

ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدى بها هؤلاء الذين يسهرون ، أو يضربون(١) فى الأرض ، أو يمشون فى البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضَوْءٍ قليل ليهديهم ؛ ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم .

يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلانى أمام عينيك ، وسِرْ نحو الجهة الفلانية . إذن : لو طمَّتْ الظلمة لمنعت الحركة بالليل ، وهى حركة قد يُضطرُّ إليها الكائن الحى ، فجعل الحق سبحانه النجومَ هدايةً لمن تجبرهم الحياة على الحركة فى الليل.

وعلى ذلك ، فالنجوم ليست فقط للاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ؛ لأنه لو كان القصد منها أنْ نهتدىَ بها فى ظُلمات البرِّ والبحر ، لكانت كلها متساوية فى الأحجام ، لكنَّا نرى نجماً كبيراً وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر فى الواقع من النجم الكبير ، لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر .

وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها فى حركة الإنسان بَرّاً وبَحْراً ، فليستْ هذه هى كل الحكمة ؛ لذلك يأتى الحق فى أمر النجوم بقول كريم آخر ، يقول سبحانه : ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾**﴾ [الواقعة]

وكل يوم يتقدم العلم يُبيِّن لنا الحق أشياء كثيرة ، فها هو ذا المُذَنَّب الذى يقولون عنه الكثير ، وها هى ذى نجوم جديدة تُكتشف تأكيداً لقول الحق:

---

(١) يقول تعالى : ﴿ **وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴿٢٠﴾** ﴾ [المزمل] والضرب فى الأرض: الذهاب فيها والتنقل فى البلاد ، ويُكْنى به عن السعى فى طلب الرزق [القاموس القويم ٣٩١/١].

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (١) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات]

أى : أنه سبحانه قد خلق عالماً كبيراً ، وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قَدْر إدراكاتك وامتداداتك فى النظر الطبيعى الذى لا تستخدم فيه آلة إبصار.

والحق سبحانه يُوضح : إننى خلقتُ لكم الأشياء مما قَدَرتُكم بعقولكم أنْ تصلوا إلى شىء من الحكمة فيها ، ولكن لا تقولوا : هذه مُنتهى الحكمة ، بل وراءها حِكَم أعلى ، فسبحانه هو الحكيم القادر ، إنك قد تدرك جانباً يسيراً من حِكَم الله ، ولكن عليك أنْ تعلم أنَّ كمال الله غير مُتناه ، ولا يزال فى مُلْك الله ما لا نستطيع إدراك حكمته ، إلى أن يُنهِى الله الأرض ومَنْ عليها.

فللنجوم تأثيرها فى الجو ، وهى علامات نهتدى بها ، فَضْلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات ، وهى فوق كل ذلك تؤدى مهمة جمالية كبيرة ، وهى أنْ تكون زينةً لكل مَنْ ينظر إليها.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر]

وقال تعالى : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت]

فالمصابيح فى السماء كالشمس والقمر والنجوم والكواكب ، هذه المصابيح تنير وتضىء ، فنور الشمس يُسمَّى «ضياء» ، والضياء نور مع

---

(١) بأييد: أى بقوة وقدرة . وهو ذو أيد . أى : صاحب قوة. آد العزم وآد الرجل : قوى واشتد فهو أيِّد أى قوى . [القاموس القويم ١/ ٤٥].

حرارة، والنور نور فقط ، والقمر نور ؛ ولذلك سَمَّوْه «النور الحليم» ، أما ضوء الشمس فيُسمَّى ضياء ، وتُسمَّى الشمس أيضاً سِراجاً.

والسراج ينير ، وفيه حرارة كالشمس ؛ لأن الحرارة يحتاجها الكون للحياة والأحياء الموجودة فيه ؛ والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) ﴾ {الفرقان}

أما الأنهار والثمار التى أمر رَبُّ العزة الأرض أنْ تخرجها ، فقد قال الحق سبحانه :﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٣) ﴾ {الرعد}

والنهر يُطلقُ على ما يحمل المياه العَذْبة ، أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضت أنهار الدنيا كلها ستجد أن مجاريها تصبُّ فى البحار ، وهذا دليلٌ على أن منسوبَ النهر أعلى دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس لَطغى ماء البحر على مياه النهر ، ولَمَا استطعنا أنْ نشربَ أو نزرع.

ولذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يجعل الماء العذب هو الأعلى ؛ لأن له مهمة يؤديها قبل أنْ يصبَّ فى البحر ، أقول ذلك حتى نعلم الحكمة فى قَوْل الحق سبحانه : ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ {الرحمن}

ومن العجيب أن البرزخ الذى يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر فى مياه البحر بما يحقق سهولة فى هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إنْ حفرتَ عند شاطىء البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك ، حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم «شاطىء النخيل» ونحن

نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل في هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العذب من هذا المكان الذي يوجد على البحر ، وقد تكون له جداول عَذْبة.

فسبحانه القائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر]

ونحن في الريف نجد منْ يحفر بئراً ويكون ماؤه عَذْباً ، وآخر يحفر بئراً ، ويكون ماؤه مالحاً ، وهذا دليل على أن الماء في بطن الأرض غير مختلط ، بل لكُلٍّ مسارب تختلف باختلاف نوعية المياه.

ويُرتِّب الحق سبحانه في نفس الآية مجيء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت ـ الجبال ـ كمصدر للغرْين وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التي تحمل الماء اللازم للريِّ ، وهكذا يكون مجيء الثمرات أمراً طبيعياً .

والثمرة ـ كما نعلم ـ هي الغاية من أيِّ زرع ، والثمرات هي نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها ، وقد لا تأكل البعض الآخر ، فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكنَّا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ، ولكنَّا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال.

وقد قال تعالى :﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ (١) يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾ [الرعد]

وهو قَوْلٌ يدل على الإعجاز ، فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً

(١) الصنو : المثل، إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد. قيل لكل واحد منهما صنو. والجمع صنوان . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

منها تناسب الطقس الذى توجد فيه ، فزراعة الذرة تحتاج مناخاً معيناً ، وكذلك زراعة الموز.

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، بل هى تربة مناسبة للجو الذى توجد به ، فهناك قطعة سَبْخة لا تنبت وأخرى خِصْبة تنبت.

بل ، وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر ، ومن قطعة إلى أخرى ، فثمرة الجوافة من شجرة معينة فى منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة فى منطقة أخرى ، والقمح فى منطقة معينة يختلف عن القمح فى منطقة أخرى ، ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسْقى بماء واحد .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك ستنقى من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيْرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقى من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروق لك ، وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة.

وأنت لا تجد فى الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً فى الطعم من نوع إلى نوع ، كذلك تجد اختلافاً فى طريقة تناولها ، فلا أحدَ منَّا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أنْ نُخرج منها النواة ، ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونُخرج ما فى قلب حبة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المشمشة من بعد ذلك.

فكُلُّ ثمرة لها نظام خاص : فهناك اختلاف ، وهذا الاختلاف يمتدُّ إلى أدقِّ التفاصيل ، لدرجة أنك حين تتناول قِطفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبَّات العنب عن غيرها.

والحق سبحانه وزَّع الفضل فى الأطعمة والفواكه والثمار، وانظر إلى نفسك لحظة أنْ تُقدَّم لك أصناف متعددة من الفاكهة ، فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح ، فساعة طلبتْ نفسك ثمرة الجميز صارتْ فى تقدير الموازين والتبادل هى الأفضل ، وكلٌّ إنسان يمكن أنْ يجد ذلك فيما يخصُّه أو يُحبه.

وقد كان إنسان مُسْرِف على نفسه ، ثم انصبَّتْ عليه الهداية مرة واحدة ، ورآه كل مَنْ حوله وهو مُقبِل على الله ، فسألوه عن سبب الهداية ، فقال :

كنت أجلس فى بستان ، ثم رَاقَ لى عنقود من العنب ، فقطفتُ العنقود ، وأخذت أتأمل فيه فوجدت غشاءً رقيقاً شفافاً ـ وهو قشرة حبة العنب ، يشِفُّ عمَّا تحته من لحم العنب الممتلىء بالعصير .

وحين وضعتُ حبة العنب فى فمى صارت ماءً رَطْباً ، وأخذنى العجب من احتفاظ حبة العنب ببرودتها ورطوبتها رغم حرارة جو شهر بؤونة ، ثم وجدت بذرة الحبة ولها طَعْم المسْك ، فلمَّا غمرنى السرور من طَعْم وجمال العنب سمعت هاتفاً يهتف بى : « كيف تكفر بالله وهو خالق النِّعَم؟ ».

فهتفتُ : آنَ يارِبِّ أنْ أؤمنَ بك.

٤٢ يَعْجَبُ الربُّ مِنْ عَبْده

عن على بن ربيعة قال :

رأيتُ علياً أُتِيَ بدابة ليركبَها ، فلما وضع رِجْلَه في الرِّكَابِ قال :« بسْم اللهِ . فلَما استوى عليها قال : الحمدُ لله ، سُبْحان الذي سَخَّر لنَا هذَا ومَا كُنَّا له مُقرنين ، وإنَّا إلي ربِّنا لمنقلبُونَ . ثُمَّ حَمد اللهَ ثَلاثاً وَكبَّرَ ثَلاثاً . ثُمَّ قالَ : سُبْحانكَ، لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ ، قَدْ ظلمتُ نفسي فاغْفِرْ لى.

ثم ضحك فقُلْتُ : ضحكتَ يا أميرَ المؤمنين ؟

قال : رأيتُ رسولَ الله ﷺ فعل مثْلَ ما فعلتُ ثم ضحك ، فقلتُ : مِمَّ ضحكْتَ يَا رسُولَ اللهِ ؟

قال : يَعْجَبُ الربُّ من عبْدِهِ إذَا قَال : ربِّ اغفر لِي وَيقُولُ : « علِمَ عبْدي أنَّه لاَ يغفِرُ الذنُوبَ غيْري»(١).

يقول الحق سبحانه تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾ [النحل]

فهذه أنعام نستخدمها للتنقُّل أو للزينة ، ولا نأكل لحومها ، فهى للركوب

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٠٢) ، والترمذى فى سننه (٣٤٤٦) ، وأحمد فى مسنده (١/ ٩٧) ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح.

والمنفعة مع الزينة ، ذلك أن الناس تتزيَّن بما تركب ، تماماً كما يفخر أبناء عصرنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة.

ونَسَق الآية يدلُّ على تفاوت الناس فى المراتب ، فكُلٌّ مرتبة من الناس لها مَا يناسبها لتركبه ، فالخيل للسادة والفرسان والأغنياء ، ومَنْ هم أقلّ ما يركبون البغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفى لشراء الحصان أو البغل ، فيمكنه أن يشترى لنفسه حماراً.

وقد يملك إنسان الثلاثة ركائب ، وقد يملك آخر اثنتين منها ، وقد يملك ثالثٌ ركوبةً واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكنه أنْ يستأجر ، ولو ركوبة من أىٍّ نوع .

وقد جعل الحق سبحانه البغال فى الوسط ؛ لأنها ليست جنساً ، بل تأتى من جنسين مختلفين ، وينبهنا الحق سبحانه فى آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المطاف ، بل هناك ما هو أكثر ، فقال تبارك وتعالى : ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ⑧﴾ [النحل]

وقد جعل الحق سبحانه البُرَاق خادماً لسيدنا رسول الله ﷺ ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المعجزات قد حدثتْ لأنبياء فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثيرَ من عربات تجرُّها الجياد إلى سيارات وقطارات وطائرات.

وما زال العلم يُطورٍّ من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتنى الخيل ويُربِّيها ويُروِّضها ويُجريها لجمال منظرها ، وإذا كانت تلك الوسائل من

المواصلات التى كانت تحمل عنّا الأثقال ، وتلك المخترعات التى هدانا الله إياها ، فما بالنا بالمواصلات فى الآخرة ؟

لا بُدَّ أن هناك وسائلَ تناسب فى رفاهيتها ما فى الآخرة من متاع غير موجود فى الدنيا.

فلو أن القرآن ذكر الخيل والبغال والحمير فقط من وسائل المواصلات ولم يَقُلْ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⟨٨⟩﴾[النحل] ثم ظهرت وسائل مواصلات غير الخيْل والبغال والحمير مثل العربة الحنطور ، ثم السيارة ، ثم الطائرة والصاروخ ..إلخ.

لو لم يَقُلْ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⟨٨⟩﴾[النحل] لتشكَّكَ الناس عند ظهور وسائل مواصلات جديدة لم تكُنْ معروفة عند نزول القرآن الكريم ، ولكن الحق سبحانه الذى يعلم ما سيحدث فى الكون حتى قيام الساعة ذكر ذلك فى كتابه قبل أنْ توجد أيٌّ من هذه الأشياء.

وقال الحق سبحانه : ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ⟨١٢⟩ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ⟨١٣⟩ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ⟨١٤⟩﴾ [الزخرف]

والفُلْك هى السفن والمراكب فى البحار والأنهار ، والأنعام التى نركبها كالخيل والحمير والجمال ، كلها نركبها وتحمل أثقالنا إلى مكان لا يمكن أنْ نصله إلا بِشقِّ الأنفس.

قال الحق سبحانه و تعالى :﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ⟨٧⟩﴾ [النحل]

ويقول فى آية آخرى: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۝١٤٢﴾ [الأنعام]

والحَمُولة هى التى تحمل ، والذى تحمله فوق ظهرها يسمى «حُمُولة» ؛ ولذلك نقول عن السيارة التى تنقل «حمولة كذا طن» والإبل نحمل عليها الرحال وكل متطلباتنا.

فهى تعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنًا هذه المشقات ، وتُبلغنا غاياتنا بدون تعب ، فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية ، وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل.

وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ، فصارت عندنا السيارات الكبيرة التى تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تُحدِثه من عوادم تُسبِّب فساد الهواء ، وتُلوِّثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التى تفيد فى خصوبة الأرض.

إذن : فصناعة السيارات إنْ لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما، فهى اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حَمْل البضائع ونتخلّص مما تُسبِّبه من ضرر ، وهكذا نعرف أن الحكمة هى : وَضْع الشىء فى موضعه المفيد فائدةً دائمة لا يأتى من بعدها ضرر.

ومن نعمة الله سبحانه أنْ خلق لك هذه الأنعام لتركبها فى سفرك بعد أنْ كنت تمشى على رِجْلَيْك وتحمل الأثقال ، أصبحت هذه الأنعام تحملك وتحمل أثقالك ، فكان يجب أن تشكر الله على هذه النعمة.

والأنعام خلق الله لها أربعة قوائم ، حتى تكون ثابتة ، وكذلك السفن

تحتاج إلى أربعة أشياء: السفينة نفسها ، والبحر ، والهواء الذى يسيرها ، والطاقة التى تُحركها.

فأنت ترى هذه النعم كلها عندما تركب السفينة ، فكان عليك أنْ تذكر نعمة الله وتشكره عليها ، وحين نذكر نعمة الله علينا نُجيبه بقولنا : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [الزخرف]

النبى ﷺ علَّمنا أن نقول هذا عندما نركب أيَّة دابة تسير على الأرض ، أو سفينة تسير فى البحر ، كما علَّمنا الحق سبحانه أنْ نذكره عند مباشرة أيِّ عمل جديد.

ولذلك ؛ علَّمنا شيئاً آخر بالنسبة لركوب السفن ، وهو أن نقول :﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا (٤١)﴾ [هود]

فجريانها إنما يتم بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها باسمه سبحانه ، ولذلك يُقال «كل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر(١) »(٢)؛ لأنك حين تُقبل على فعل شيء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإنْ كان الفعل عضلياً فهو يحتاج لقوة ، وإنْ كان الفعل عقلياً فهو يحتاج لفكر ورَوِيّة وأَنَاة ، وإنْ كان فِعْلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإنْ كان من أَجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم.

إذن : فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على

(١) البتر : استئصال الشيء قطعاً . وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر . والبتر أصله القطع الحسى والقطع المعنوى من الخير [لسان العرب ـ مادة : بتر، القاموس القويم ١/ ٥٤].

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه : «كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عزوجل فهو أبتر ـ أو قال: ـ أقطع».

القوة ، فقد تقول «باسم الله القوى القادر» ولكى تحصل على عِلْم تقول «باسم العليم» ، وتريد الغِنى فتقول «باسم الغنىّ».

وحين تحتاج إلى الحِلْم تقول «باسم الحليم» ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة تقول «باسم القهار».

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذى يُغْنى عن كل ذلك أنْ تنادى ربك وتتبَرّك باسم واجد الوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كُلُّ صفات الكمال والجلال.

وإياك أنْ تتهيَّب أو تستحى ، بل ادخل على كُلِّ أمر باسم الله ، حتى لو كنتَ عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم.

وهناك فَرْق بين «بسم الله» الذى نستعين به على ما لا قدرةَ لنا عليه ؛ لأن الله هو الذى سخَّر كُلَّ ما فى هذا الكون وجعله يخدمنا ، وبين «الحمد لله» فإنَّ لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا.

والتسبيح والتحميد والتكبير عند الركوب هو أمر وجَّهنا رسول الله ﷺ له ؛ لنقوم لله سبحانه بحقِّ الشُّكْر والثناء عليه سبحانه ، فلا نكفر نعمته علينا ، ولا نجحد فضله أنْ سخَّر لنا هذه الأنعام والدواب ، ومَا لا نعلمه من وسائل انتقال يمُنُّ الله علينا بها بتقدُّم العلم وحركة الابتكار والاختراع.

فنقول «الحمد لله ، سبحان الذى سخر لنا هذا».

«سبحان الله» تنزيه لذاته سبحانه أنْ يكون له شريك ، لا فى الذات ، ولا فى الأفعال ، ولا فى الصفات ، والحمد لله كذلك ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقُلْنا : الحمد لله ، فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شُكر على العطاء.

والحَمْد يشترك معه فى المعنى العام : الثناء والشكر والمدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربتْ فى المعنى العام ، فلكُلٍّ منها معناه الخاص ، وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنْعَم عليه بنعمة خاصة به ، كأنْ يُسدى لك إنسانٌ جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه.

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فرُقعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح مَا لا يعطيك شيئاً ، كأنْ تمدح مثلاً الشىء الجميل لمجرد أنه أعجبك.

فقول «الحمد لله» بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكلٍّ شىء ، حتى إن حمدك لأىّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو ـ إذا سَلْسَلْتَه ـ حَمْدٌ لله تعالى الذى أعان هذا الإنسان على أنْ يُحسن إليك.

فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التى أمدَّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سلسلْتَ الحمد لأىٍّ إنسان فى الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة «الحمد لله» هذه هى الصيغة التى علّمنا الله أنْ نحمده بها، وإلاَّ فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلفَ الخَلْق فى الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء ، وحَسْب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العيىٌ والأمىّ ، فتحمّل الله عنّا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكلٌ يقولها «الحمد لله» ، البليغ يقولها ، والعَيىٌ يقولها ، والأمىّ يقولها.

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ويُثنى عليه «سبحانك ، لا نُحصِى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

فإنْ أردنا أنْ نُحصى الثناء عليك فلن نستطيع ؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أنْ نقول ما علَّمتنا من حمدك : الحمد لله.

إذن : فاستواءُ الناس جميعاً فى «الحمد لله» نعمة كبرى فى ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما علَّمنا من الحمد لله بالحمد لله ، وهكذا ، لو تتبعتَ الحمد لوجدته سلسلةً لا تنتهى ، حَمْد على حمد على حمد على حمد ، فيظلّ الله محموداً دائماً ، ويظلّ العبد حامداً إلى مَا لا نهاية.

وتسبيح الله تنزيهه تنزيهاً مُطْلقاً ، أنْ يكونَ له شبيه أو مثيل فيما خلق، فلا ذاتٌ كذاته ، ولا صفاتٌ كصفاته ، ولا فى أفعاله ، فليس فى أفعال خَلْقه ما يُشبه أفعاله تعالى.

فإنْ قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزّه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك عن عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس عن عدم ، وهو ذاتىٌّ فيه سبحانه.

فكلمة «سبحان» تنزيه وتعجُّب من قدرة الله.

ولو تأملنا كلمة «سبحان» نجدها فى الأشياء التى ضاقت فيها العقول ، وتحيَّرتْ فى إدراكها ، وفى الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى :

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٦/ ٥٨ ، ١٢٠) ، ومسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : «اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك».

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس]

فالأزواج أى : الزوجين الذكر والأنثى ، ومنهما يتم التكاثر فى النبات، وفى الإنسان ، وقد فسَّر لنا العلم الحديث قوله ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس] بما توصّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما السالب والموجب الذى يساوى الذكر والأنثى.

ومنها قوله :﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الروم]

فمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ، ويرى كيف يحلُّ الظلام محلَّ الضياء ، أو الضياء محلّ الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أنْ يقولَ : سبحان الله.

ومنها قولنا :«سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» عند ركوب الدابة.

فهذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وحتى لا يغترّ الإنسان بالإمكانات التى أعطاها الله له عند ركوب هذه الأشياء المسخَّرة له ، ذكَّره الله بالرجوع ، فعلَّمه أن يقول فى تكملة الدعاء:

«وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون»

أىّ : لا تغترّ بأن أشياء حملتْك وأراحتْك ، واشكر الذى سخّرها لك ، واعلم أن عودتك ومرجعك إليه ، فربما غرقت السفينة ، أو مرضت الأنعام ، وعجزت عن السير .

وكلُّ شىء من وسائل الانتقال هذه جعل الله له آفة ، ففى السفن قال

تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ﴾ [يونس]

فلم يحمدوا الله على هذه النعمة ، ولكن فرحوا واغتروا ، فجاءها الريح العاصف ، وعند الخطر يتذكّر الإنسان ربّه.

وربنا هو الذى علَّم الإنسان صناعة السفن، فسيدنا نوح عندما أخذ يصنع السفينة كان الناس يسخرون منه ، وعلَّمه الله كيف يصنعها ، قال سبحانه و تعالى :﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا (٣٧)﴾ [هود]

فالفكرة الأولى لصناعة السفن منه سبحانه ، والأنعام من مخلوقاته ، والأنعام أقوى من الإنسان ، فالحمار أقوى ، والفرس أقوى ، والجمل أقوى ومع ذلك ذلَّلها الله لنا وسخَّرها.

ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى :﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ(٧٢)﴾ [يس]

فلو أن الله لم يُذللها لنا ما استطعنا أنْ نقربها أو نستفيد منها ، ولذلك نقول : إن الولد الصغير كان يقود الجمل الضخم ، ويُمسك بزمامه ، والجمل يسير وراءه طائعاً مستسلماً ، وكذلك باقى الأنعام ، وهذا موجود فى الريف حتى اليوم.

بينما تجد أضعف شيء وهو البرغوث يُقلق منامك ويحرمك من الراحة ، ولا تستطيع أنْ تُمسكه ولا أنْ تنتقمَ منه ؛ لأنه غير مُسخَّر لك ، كذلك أصغر ثعبان يمكن أنْ يثير الفزع بين الناس ؛ لأنه غير مُسخَّر للإنسان .

فلا بُدَّ أنْ يتذكر الإنسان نعمة الله عليه فى أنه لا يقدر على الشيء ،

ولكن الله ذلَّله له وسخَّره لخدمته ، وإذا أردْنَا أنْ نُدرِّب هذه الحيوانات ونُروِّضها لأداء أغراض معينة تستجيب وتتعلّم.

ومعنى « وما كنا له مقرنين» أى : مُطيقين . أى : أننا لا نقدر عليه.

وإذا كنتَ قد قُلْت «باسم الله» قبل الركوب ، ثم حمدْتَ الله بعد أن استويتَ على ظهر الدابة راكباً ، ثم سبَّحْتَ الله تنزيهاً له وتعجباً من قدرة الحق سبحانه أنْ سخَّر لك هذا وهيَّأه لك ، فعليك أنْ تُكبِّر الله فتقول «الله أكبر».

فلا بُدَّ أن تكبِّر الله وتجعله أكبر مما دونه من الأغيار ، فإنْ ناداك وأنت فى أىّ عمل فقُلْ : الله أكبر من عملى ، وإنْ ناداك وأنت فى حضرة عظيم ، فقُلْ الله أكبر من أىِّ عظيم ، كبِّر تكبيراً بأنْ تقدم أوامره ونواهيه على كُلِّ أمر ، وعلى كُلِّ نَهْى.

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أىِّ شىء ، فاجعل أمره ونَهْيه فوق كل شىء ، وكأن الحق سبحانه يُوجِّهنا أنْ نجعل توجهنا لله من بداية ما نضع أقدامنا على وسيلة انتقالنا ، بالبسملة والحمد والتسبيح والتكبير ، ثم توحيده والاعتراف والإقرار بأننا قد ظلمنا أنفسنا ، فلنطلب المغفرة من الله ؛ لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله.

ولذلك يقول تعالى :﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)﴾ [النساء]

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق جعلهم أهل أغيار ؛ لذلك لم يشأ أن يُخرج مذنباً بذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه سبحانه شرع التوبة للمذنب حمايةً للمجتمع من استشراء شرِّه ، فلو خرج كُلُّ مَنْ ارتكب ذنباً من

رحمة الله فسوف يعانى المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمةً مُستطيرة الشر على المجتمع.

إذن: فالتوبة من الله ، مشروعيةً وقبولاً ، إنما هى حماية للبشر من شراسة مَنْ يصنع أول ذنب ، وهكذا جاءت التوبة لتحمى الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة.

ولذلك يعجَب ربُّ العزة سبحانه من عبده هذا الذى يعلم أن الله وحده هو الذى يغفر الذنوب ، ومع ذلك يُذنب ؛ ولذلك يقول ربُّ العزة فى حديثه القدسى:

«علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى».

فمَنْ يظلم نفسه بالذنوب هو مَنْ نسى الله ، فالمذنب الذى يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه لا يكون اللهُ على باله ، لأنه لم يرَ الله ، ولم يرَ جزاءه وعقابه فى الآخرة ماثلاً أمامه ، ولو تصوَّر هذا لامتنع عن فِعْل الذنب.

فلا يجوز للإنسان أنْ يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة ؛ لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [النساء]

هذه الآية هى إحدى ثمانى آيات قال عنها ابن عباس :«فى سورة النساء ثمانى آيات خير لهذه الأمة مما طلعتْ عليه الشمس أو غربت»(١).

وهى خَيْر مِمَّا طلعتْ عليه الشمس ؛ لأنها تحمى من حُمْق الاختيار الذى

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٤٤٨) وعزاه لابن جرير من طريق صالح المرى عن قتادة عن ابن عباس قال :«ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت».

وُجِد فى الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنســان كان مُسيَّراً ومُكْرهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار.

فهذه الآيات طمأنتْ الإنسان على أنه إنْ حَـمُق اختياره فى شىء ، فالله يريد أنْ يُبـصِّره ، والله يريد أنْ يتـوب عليه ، والله يريد أنْ يُخـفِّف عنه ، والله يريد إنِ اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويُكفِّرها.

ولكن بشـرط أنْ لا يكونَ عندنا إصـرار على الصغـائر ، لماذا ؟ لأنك إنْ قدَّرْت ذلك فقدِّر أنك لا تقدر على استبقاء حياتك إلى أن تستغفر ، فلا تقُلْ : سأفعل الذنب ثم أستغفر، هذه لا تضمنها ، وأيضاً تكون كالمستهزىء بربِّه.

٤٣ بَيْتُ الحَمْدِ

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «إذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لملائكتهِ : قَبضتُم وَلَدَ عَبدِي؟ فيَقُولُونَ : نعم

فيقولُ ربُّ العِزَّةِ : قبضتُم ثمرةَ فُؤادي؟

فَيَقُولونَ : نَعم.

فَيقُولُ : مَاذَا قَالَ عَبْدِي ؟

فَيقولُونَ : حَمِدَكَ وَاسْتَرجَعَ.

فَيقُولُ اللهُ : ابْنُوا لِعبْدِي بَيْتاً في الجنةِ ، وسَمُّوه بيْتَ الحَمْدِ» (١) .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت]

إن الحق سبحانه يختبر مدى صدْق الإنسان حين يُعلن الإيمان ، إنه سبحانه يختبرهم بالمحن والنِّعم ، ويُميِّز أهل الصِّدْق فى الإيمان عن الكاذبين فى الإيمان.

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٢١) ، وابن حبان (موارد الظمآن ـ ٧٢٦) من حديث أبى موسى رضى الله عنه ، قال الترمذى : «حديث حسن غريب» . وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٤١٥) عنه أيضاً بلفظ «قال الله تعالى : يا ملك الموت ، قبضت ولد عبدى ؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال : نعم . قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع، قال : ابنوا له بيتاً فى الجنة ، وسموه بيت الحمد».

فَمَنْ صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صِدْقه ويقينه ، ومَنْ لم يصبر فقد دَلَّ بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حَرْف ، فإنْ أصابه خير اطمأنَّ به و رضى ، وإنْ أصابه شَرٌّ وفتنة انقلب على وجهه ونكصَ على عَقِبَيْه فخسر الدنيا والآخرة.

وذلك مِصْداقاً لقوله تعالى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج]

فالابتلاءات لها حكمة ومَغْزى ما دامت جاءت من ربٍّ حكيم ، ولم تأتِ من بشر ، فهى قَدَر جرى عليك ، ولم تجرّه أنت على نفسك ، فلا بُدَّ له من حكمة ، فالذى يعبد الله لا بُدَّ أنْ يعبده على أساس أنه إله حكيم يُبتلى بالخير ، ويُبتلَى بالشرِّ ، وما دام عَلِم هذا فسيظلّ إيمانه قوياً.

وهناك مَنْ يعبد الله على حَرْف ، والحَرْف هو طرف الشيء ، كمثل واحد يدخل على جماعة من الناس ، ويجد المكان ممتلئاً بالحاضرين فيجلس على الحَرْف ، والحرْف عادةً لا يكون فيه تمكُّن ، فالذى يجلس عليه لا يأخذ راحته فى الجلوس.

فكذلك الذى يعبد الله على حَرْف يكون غير مُتمكِّن من إيمانه ، فإذا أصابه خير يفرح ويسعد ، ويقول : هذا الإيمان جميل وحُلو وفيه بركة.

وإنْ حدث له ابتلاء أو فتنة تجده يسبُّ ويسخط ، فهذا عبادته غير مُتمكِّنة باليقين الذى يصدر عن الإنسان المؤمن بإله حكيم يجرى على عبده الخير له.

أما الآخر فيعبد الله على حَرْف ، فإنْ أتاه خير فرح واطمأن ، ومضى في إيمانه ، وإنْ حدث له ابتلاء أو شَرٌّ انقلب على وجهه ، فمَنْ لم يصبر وانقلب وضعه وتغيَّرتْ أحواله إلى الأسوأ يكون قد خسر الدنيا والآخرة ؛ لأن عبادته لم تَعُدْ تنفعه.

بل إنه يخسر خُسْراناً مبيناً ، وهو الخُسْران الذى لا يُعوَّض ، فالذى يخسر الدنيا قد يكسب الآخرة بالصبر والرضا ، ولكن الذى يخسر الدنيا والآخرة فهذا هو الخُسْران المبين الذى يُطوِّق صاحبه ، ولا يمكن تعويضه.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ :«عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، إنْ أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له ، وليس هذا إلا للمؤمن» (١) .

فكُلُّ ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً ، وإمّا ثواباً ، وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير ، ويعلم المؤمن أن كل مصيبة فى الدنيا إنما يجزيه الله عليها حُسْن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاءَ الله تعالى بنفسٍ راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه ، وهناك بعض المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء.

إذن: فالمؤمن كلُّ أمره خَيْر ، وإياك أن تنظر إلى مَنْ أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مُصَابٌ حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو مَنْ حُرِم من الثواب .

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين : صبرٍ على ما يؤلم ، وشكرٍ على ما يُرضى ، وحين تجتمع هاتان الصفتان فى مؤمن يكون مكتمل الإيمان.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩) ، والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) من حديث صهيب الرومى .
وأخرج أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال ﷺ :«عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئاً إلا كان خيراً له».

هنا يُقبل المؤمن على تحمُّل مشاقِّ الإيمان ؛ لأنه يثق فى أن الحق سبحانه لا يُضيع أجْرَ مؤمن ؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن ، ويشكر على النِّعَم.

إذن : عليك أن تدخل على الإيمان وأنت مؤمن بحكمة ربك فى كل ما يُجريه ، سواء كان نعيماً أو بُؤْساً ، فإنْ كان نعيماً فأنت سعيد به شاكر لربك عليه ، وإنْ كان بُؤْساً علمت أن لله حكمة فيه.

فصِدْق إيمانك متُوقِّف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك ، فإنْ آمنت وأسلمتَ وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك ، نقول : أنت غير صادق ، ولكن إذا وُجدَتْ صفات الإيمان فى إنسان نقول له : لقد صدقْتَ فى إيمانك ؛ لأن حركة حياتك انسجمتْ مع واقعك الإيمانى ، وما أكثرَ الناس الذين يقولون ولا يفعلون وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر]

هناك أُنَاسٌ كثيرون عندما يعطيهم الله نعمة يقولون «ربنا أكرمنا» وعندما يسلبهم النعمة يقولون «ربنا أهاننا».

فأنت مخطىء يا مَنْ اعتبرتَ النعمة إكراماً من الله ، وأنت مخطىء أيضاً يا مَنْ اعتبرتَ سَلْب النعمة إهانة من الله ، إن النعمة لا تكون إكراماً من الله إلا إذا وفَّقكَ الله فى حُسْن التَّصرُّف فى هذه النعمة ، ولا تكون النعمة إهانة إلا إذا لم يوفقك الله فى أداء حَقِّ النعمة ، وحَقُّ النعمة فى كل حال يكون بشُكْر المنعم ، وعدم الانشغال بها عَمَّنْ رزقك إياها.

إذن : مجىء النعمة فى ذاتها ليس إلا اختباراً ، وكذلك إن ابتلاك الله بسلب النعمة ليس هذا للإهانة ، ولكنه للاختبار أيضاً.

فالخير بلاء ، كما أن الشر بلاء ، وحين تستخدم الخير فى خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به ، وحين تصبر على الشر ، ولا تتمرد على قَدَر الله ، فهذا كلُّه اختبار من الله عز وجل.

يقول الحق سبحانه : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء]

وكلامُ الله حَقٌّ ، يقول سبحانه فى قرآنه:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة]

فتكون لنا البُشْرى ؛ لأننا صبرنا على كُلِّ هذه المنغِّصات : صبر على الخوف ، وصبر على الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقْص الأنفس ، وصبر على نقْص الثمرات.

فالمهم أن ينجح المؤمن فى كُلِّ هذه الابتلاءات حتى يواجه الحياة صَلْباً ، ويواجه الحياة قوياً ، ويعلم أن الحياة مَعْبَر ولا يشغله المعبر عن الغاية ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة]

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قَدْر إيلامها يكون الثواب عليها ، وأى أمر يصيب الإنسان إمَّا أنْ يكون له دَخْلٌ فيه ، وعند ذلك لا يصحّ أنْ يجزع ؛ لأنه هو الذى جاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإمّا أنْ تكون مصيبة لا دَخْل له بها وحدثتْ له من غيره مثلاً ، وعند ذلك عليه أنْ يبحث عن سببها : أعَدْلاً أم ظُلْماً ؟

إنْ كانت عَدْلاً فهى قد جبرتْ الذنب ، وإن كانت ظُلْماً فسوف يقتصُّ الله له ممَّنْ ظلمه ، وعلى هذا فالمؤمن فى كِلْتَا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كُلَّ مصيبة متوقعاً أنْ يأتى له منها خَيْر ، وعلى كل مؤمن أنْ يُقيِّم نفسه تقييماً حقيقياً.

هل لى على الله حق؟ أنا مملوك لله وليس لى حق عنده ، فما يُجرِيه علىَّ فهو يُجريه فى مُلْكه هو .

ومَنْ لا يُعجبه ذلك فليتأبَّ على أىِّ مصيبة ، ويقول لها «لا تصيبينى» ولن تستطيع دَرْء أىِّ مصيبة ـ وما دُمْنا لا نستطيع أنْ نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلنقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد بنسبتنا إليه أنْ يُعِزَّنا ويُكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول : «إنا لله وإنا إليه راجعون».

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا ، فنحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إنْ كان فى مصائب الدنيا ظُلْم لنا وقع علينا من إنسان فسوف نأخذ ثوابَ مَا ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله .

إذن : فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية فى المرجع ، وهو سبحانه ملك القوسيْن ، الابتداء والانتهاء ؛ ولذلك علَّمنا رسول الله ﷺ عند أىِّ مصيبة تصيب الإنسان أنْ يسترجع ، أىْ أن يقول :«إنَّا لله وإنا إليه راجعون»

وزادنا أيضاً أن نقول :«اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها» إنك إذا ما قلتها عند أىِّ مصيبة تصيبك فلا بُدَّ أن تجد فيما يأتى بعدها خيراً منها ، وحتى إنْ نسى الإنسان أنْ يقول ذلك عند وقوع المصيبة ، ثم تذكَّرها وقالها فَلَهُ جزاؤها ، كأنه قالها ساعة المصيبة .

وهناك قصة عن أم سلمة رضى الله عنها ، حين مات أبو سلمة زوجها - وكان ملء السمع والبصر - وجزعتْ عليه أم سلمة ، فقيل لها قولى : ما علَّمنا رسول الله ﷺ ، قالت : وما علّمكم؟ قالوا : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجُرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها» فقالت ما قيل لها ، فإذا بها بعد انقضاء عِدَّتها يذهب إليها النبى خاطباً ، فقيل لها :« أوُجِد خير من أبى سلمة أم لم يوجد ؟ قالت : ما كنت لأتسامى - أى أتوقع - مثل هذا الموقف» (١).

إذنْ : كُلُّ مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها :« إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها ».

وما هذا إلا لليقين فى قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة]

وهكذا تردّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره ، فقد يحدث لى شىء أكرهه ، ولكنه فى حقيقة الأمر يكون لصالحى ، فهناك أحداث تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه ، فالإنسان لا يُربِّى إلا مَنْ يحب ، أما مَنْ لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بُحبِّ الخالق لنا ؟

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم»(٢).

ويقول ﷺ أيضاً :«أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢١) من حديث أم سلمة رضى الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد ولفظه : «إن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع» وأخرجه الترمذى (٢٣٩٦) ، وابن ماجة فى سننه (٤٠٣١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، ولفظه :«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط».

الأمثل فالأمثل من الناس ، يُبتلَى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة »[1] .

فالمصائب تأتى للمؤمن لإفادته ، لأن المؤمن حين يُصاب إما أن يُكفِّر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة به.

يقول ﷺ :«ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة»[2].

ولذلك يقال : إن المصاب ليس مَنْ أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو مَنْ حُرِم الثواب.

فإنِ استقبل المؤمنُ المصيبةَ بالرضا ، وعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإنْ لم يعلمه ، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف ، أما غير المؤمن فهو يتمرَّد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحرم من الثواب .

وفى حديث آخر يقول رسول الله ﷺ :«المصاب مَنْ حُرِم الثواب».

فالذى يُحْرم من ثواب الله هو المصاب فعلاً ، أما الإنسان الذى تحدث له مصيبة ويصبر عليها وينال على صبره ثواب الله ، فهذا ليس مصاباً.

والمصيبة قد تكون بسبب مرض أو وفاة شخص عزيز ، أو أى شىء يحدث لك دون تدخُّل من أحد ، فى هذه الحالة يكون الصبر عليها أسهل من

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٧٢) ، والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) ، وابن ماجة فى سننه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وقال :«حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٢) ومسلم فى صحيحه (٢٥٧٢) ، والترمذى فى سننه (٩٦٥) من حديث عائشة رضى الله عنها ، قال الترمذى :« حديث حسن صحيح».

الصبر على مصيبة حدثتْ بسبب غريم لك ، ضرب ابنك أو أصابك بمكروه ، أو تسبّب فى إيقاع الضرر بك.

فى هذه الحالة يتأجّج فى النفس سُعَار الانتقام ، ويكون الصبر صَعْباً ، ويحتاج إلى عزيمة قوية وإيمان راسخ.

والولد من النعم التى يُنعِم الله بها على الإنسان ، فكلٌّ إنسان يرجو من الله أنْ يكونَ له أبناء ذكوراً وإناثاً ، فيشعر بالسرور والسعادة.

فالإنسان يحب الولَد ويسعى إليه ؛ لأنه ابْنُ دنياه ، وهو يعلم أنه ميت ميت ، فيحب أنْ يكونَ له امتداد فى الدنيا وذكر من بعده ، فالإنسان يتمسّح فى الدنيا حتى بعد موته ، وهو لا يدرى أنَّ ذِكْر الإنسان لا يأتى بعده ، بل ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح.

والإنسان تجده يحب البنين من الأولاد أكثر ؛ ولذلك قال الحق سبحانه:
﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ (١) وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾ [آل عمران]

فنجد الحق سبحانه يضيف «البنين» إلى مجال الشهوات ، ويقصد بها الذُّكْران ، ولم يقُلْ البنات ، لماذا ؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائماً للعِزْوة كما يقولون ، ولا يأتى منهم العار ، وكان العرب يئدون البنات ويخافون العار ، والمحبوب لدى الرجل فى الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين ، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة ويُنادون بها ، سواء كان رجلاً أو امرأة إنْ لم يرزقه الله بولد ذكر ، فإنه ـ أو إنها ـ تريد ولداً ذكراً.

(١) الخيل المسوّمة : أى المرسلة للرعى أو المعلّمة بعلامات [القاموس القويم ١ / ٣٣٧].

والمال والبنون هما الشغل الشاغل لكل الناس ، فكل واحد يريد أن يكون غنياً وعنده أولاد ، وتجده مشغولاً ومهموماً بسبب ذلك ، ولذلك يقول تعالى: ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..** (٤٦) ﴾ [الكهف]

فالمال والبنون من زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، أي ليسا من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف ؛ لأن المؤمن الراضي بما قُسم له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسان قد يشقى بماله ، أو يشقى بولده ؛ لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزق هذا المال أو هذا الولد.

والمال والبنون ليس كلاهما شراً للإنسان ، بل قد يكونان خيراً له ، فالمال إذا جمعتَه من حلال و أنفقتَهُ في الخير يكون مَقْرُبة لك عند الله.

وكذلك الأولاد إذا ربَّيْتَهُم تربية حسنة ونشَّأتَهم على طاعة الله والعمل الصالح في المجتمع ، فهذا خير لك في الدنيا والآخرة.

ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له»(١).

فهذا الإنسان يُعطى عمره عُمْقاً وامتداداً ، حتى بعد موته ، فبدلاً من أن يعمل لمجرّد حياته وينتهي عمره مهما كانت رُقعته واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ، ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته .

ولذلك طلب زكريا ـ عليه السلام ـ الولد ، فقال تعالى: ﴿ **هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ** (٣٨) ﴾ [آل عمران]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٧٢) ، ومسلم في صحيحه (١٦٣١) ، والترمذي في سننه (١٣٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

إنه هنا يطلب الولد ، ولكن لا بُدَّ لنا أنْ نلاحظَ ما يلى:

هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو عِزْوة ، أو ذكْراً ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم]

والمراد بالميراث هنا : ميراث العلم والنبوة والمُلْك ، وحَمْل منهج الله إلى الناس ، فزكريا ـ عليه السلام ـ طلب الابن لتثبيت منهج الله فى الأرض ، لقد طلبه لمهام كبيرة .

إنه يضع كلَّ أمله فى الله ، وكأنه يقول : إنك يا ربِّ من فور أنْ تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يا رب تعلم صدْق نيتى فى أننى أريد الغلام. لا لشىء من أمور كقرة العين ، والذِّكْر والعِزِّ وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثاً لى فى حَمْل منهجك فى الأرض .

وجاءته البُشْرى وهو يقف بين يدى الله مُصلّياً ، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران]

لقد نادته الملائكة فى أورع لقاءاته مع ربه.

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ أيضاً دعا ربه فقال :﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠﴾ [الصافات]

فقد عزَّ عليه أن عمره لا يتسع حتى يكون جندياً من جنود بَعْث منهج الله فى الأرض ، فقال : يا ربٍّ نحن سنموت ، فأدعوك أنْ تقرَّ عينى بغلام يأتى بعدى ليقوم بهذا العمل ، فحين يتمنى رسل الله من الله خِلْفة ، إياكم أنْ تظنُّوا أنها مثلما نتمنى نحن ، فنحن نريدها ذكرى وعِزْوة ، أما النبى

فيريد من ابنه أن يكون نموذجاً إيمانياً ، يرثه فى حَمْل الفضائل وتطبيق منهج الله.

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ [الصافات]

والحليم هو الذى لا يستفزه غضب ، ويتحمّل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاق نفسه ؛ لأنه يعلم أنه إنْ كان فى لجاج مع الغير ، عليه ألاّ يزيد فيه ؛ لأن مَنِ امتنع عن اللجاج فى الباطل بنى الله له بيتاً فى الجنة ، فالحليم يقدر على نفسه ؛ لأنه يعتقد أنه خالقه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ (١) قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج للصبر على قضاء الله ، فالله لا يرفع قضاء فى الخلق إلا أنْ يرضى خَلْق الله بما أنزل الله ، أما الذى لا يقبل المصائب فهو مَنْ تستمر معه المصائب ، أما الذى يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء.

فها هو ذا سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتلقى الأمر بذَبح ابنه الوحيد ، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديدَ القسوة ، فقد كان على إبراهيم أنْ يذبَح ابنه بنفسه ، وهذا ارتقاء فى الابتلاء .

ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عُذْراً ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم

(١) أى : كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه. وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم، بمعنى : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل [قاله ابن كثير فى تفسيره ٤/ ١٤]

يَقُلْ : إنها مجرد رؤيا ، وليست وَحْياً ولكنها حَقٌّ ، وقد جاءه الأمر بأهوَنِ تكليف وهو الرؤيا ، وبأشقٍّ تكليف وهو ذَبْح الابن .

ونرى عظمة النبوة فى استقبال أوامر الحق ، ويُلهمه الله أنْ يُشرِكَ ابنَه إسماعيل فى استقبال الثواب بالرضا بالقضاء.

لقد بلغ إسماعيل سِنَّ السعى فى مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر فى المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه ، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ، ولم ينشغل بالحقد على أبيه ، ولم يقاوم ، ولم يدخل فى معركة ، بل قال :

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات]

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبول ورضا ؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ (١) لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات]

لقد اشترك الاثنان فى قبول قضاء الله ، وأسلم كُلٌّ منهما للآمر ، أسلم إبراهيمُ كفاعل ، وأسلم إسماعيل كمنفعل ، وعَلِم الله صِدْقهما فى استقبال أمر الله.

وهذا الابتلاء جاء إبراهيم فى آخر حياته ، فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه ، إنه ابتلاء شديد قاسٍ ، لكن إبراهيم يعلم أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يطلب من خَلْقه إلا أنْ يستسلموا لقضائه.

ولذلك ، إذا رأيتَ إنساناً طال عليه قضاء ربه فى أيٍّ شىء ، فى مرض ، فى مصيبة ، فى مال ، أو غير ذلك ، فاعلم أنه لم يرْضَ بما وقع

---

(١) تلّه : ألقاه على وجهه على الأرض. وقوله ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات]. أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض .[القاموس القويم ١ / ١٠١].

له ، ولو أنه رَضِى لانتهى القضاء ، فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به ، ولايستطيع أحد أن يلوى يد خالقه ، إذن : فالناس هم الذين يُطيلون أَمَدَ القضاء و البلاء على أنفسهم.

إن طريق الخلاص من أى نائبة من النوائب أنْ يرضى المؤمن بها ، فتنتهى ومَنْ تحدث له مصيبة بأنْ يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت ، وتبكى الأم كلما رأتْ مَنْ فى مثل سِنّه فسيظل باب الحزن مفتوحاً ، وإنْ أرادوا أن يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا.

وليعلم كل مؤمن أن مَا أُخِذ منه هو مُعوَّض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفّاه مُعوّض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا.

ولذلك يُقال : المصاب ليس مَنْ وقعتْ عليه مصيبة وفارقه الأحباب ، بل المصاب مَنْ حُرِم الثواب ، فكأنه باع نكبته بثمن بَخْس.

قصة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام تُعلِّمك أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله ، إياك أنْ تجزع ، إياك أنْ تسخط ، إياك أنْ تغضب ، إياك أنْ تتمرد ، بل احمد الله سبحانه ، واسترجع أى : قُلْ : إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ولذلك نقول فى الدعاء: أحمدك على كل قضائك وجميع قدرك ، حَمْد الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك.

أى : لك حكمة يا ربِّ فيما أجريتَ علىَّ من أحداث ، ولكنى لا أراها.

فإنْ أردتَ رَفْع القضاء ، فارْض به أولاً ، وإذا لم يُرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضا من نفسك لم يكُنْ مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضجراً .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم تَرْضَ ، وحين تُسلِّم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبيِّن لك وَجْه الخير فيه .

إذن : عليك أنْ تحترم القدر وترضى به ؛ لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يرفع قضاء الله عن الخَلْق حتى يرضُوا به ، وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله ، خاصة عند موت الطفل الصغير ، فنراهم يُكثِرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه.

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أيّ شباب ؟ وأيّة متعة هذه؟ وقد فارق في صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية ومتعة دائمة؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

إنه في نعيم ، لو عرفتَه لتمنيتَ أنْ تكونَ مكانه ، ويكفي أن هؤلاء الأطفال لا يُسألون ولا يُحاسبون ، وليس لهم مسكن خاص في الجنة ؛ لأنهم طلقاء فيها ، يمرحون كما يشاؤون ، لذلك يُسمَّوْن «دعاميص[1] الجنة[2]».

لذلك ، كان من الغباء إذا مات لدينَا طفل أو غلام صغير يشتد الحزن عليه ، وننعى طفولته التي ضاعت ، وشبابه الذي لم يتمتع به ، ونحن لا ندري ما أُعِدَّ له من النعيم ، لا ندري أن مَنْ أُخِذ من أولادنا قبل البلوغ لا

(١) الدعاميص : جمع دعموص، وهو الدخّال في الأمور . أي : أنهم سياحون في الجنة دخّالون في منازلهم ، لا يُمنعون من موضع .[لسان العرب ـ مادة : دعمص] .

(٢) عن أبي حسان قال : قلت لأبي هريرة : إنه قد مات لي ابنان ، فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تُطَيِّب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم، صغارهم دعاميص الجنة ، يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يدخله الله وأباه الجنة» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٥) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٥١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يُحدَّد له مسكن فى الجنة ، لأنها جميعاً له ، يجرى فيها كما يشاء ، ويجلس أيْن يحب ، يجلس عند الأنبياء ، وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد .

لذلك ، نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التى فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإن كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطمْنا الخدود وشققنا الجيوب واعترضنا على قدر الله فيه ، فقد خسرنا به الدنيا والآخرة.

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين فى نفس المؤمن ، وهى بداية وعتبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ حسب قوة الإيمان.

ويصف الحق سبحانه هذا الابتلاء لإبراهيم عليه السلام أنه البلاء المبين ، فيقول:

﴿ إن هذا لهو البلؤا آلمبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧) ﴾ [الصافات]

فبعد أنْ رضى كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل ، وسلَّما أمرهما لله تعالى ، وامتثلا للأمر بالقضاء ، رفع الله برحمته هذا القضاء ؛ لذلك يصف الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذا البلاء وتكرُّمه بالفداء.

وهكذا لم يكُنْ جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط ، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى ـ عز وجل ـ البُشْرى بمزيد من العطاء ، فيقول :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ [الصافات]

أي: أنه لم يرزقه بولد ثَانٍ فـقط ، بل بولد يكون نبياً وصـالحاً ، وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليـه السلام ، فيـقول سبـحانه وتعالى :﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾ [الأنبياء]

هكذا يتجلَّى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلا يعطيه الولـد الذى يحفظ ذِكْره فقط ، بل يعطيه الولـد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكلٌّ ذلك نافلة من الله .

أى : عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبى الأنبياء.

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

[البقرة]

فكلنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ويأخذ أسبـاب حياته برحمة الـله ، والنِّعَم والخيرات التى يعيش عليـها تأتيه بسبب رحمـة الله ، والمؤمن يأخذ نِعَم الدنيا برحـمة الله ، ويزيد الله له بالبركـة والاطمئنان ، والاطمئنان نعمـة كبرى ، فَمَن يعشْ فى هـذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان.

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة.

والصلاة من الملائكة استغفار.

والصلاة من المؤمنين دعاء

٤٤ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليكَ

قَالَ رَبُّ العزة سبحانه:

أَنفِقْ أُنفِق عليك.

وقَالَ : يَدُ اللهِ مَلأى ، لاَ تَغِيضُهَا (١) نفقَةٌ ، سَحاء(٢) الليلِ والنهارِ .

وقَالَ : أرأيتم مَا أنفقَ منذُ خلَقَ السماءَ والأرضَ ، فإنَّه لَمْ يَغِضْ مَا في يَده ، وكانَ عرشُه على الماءِ ، وَبِيدهِ الميزانُ يخفِضُ ويرْفَعُ (٣).

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ (٤) وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) لا تغيضها : لا تنقصها . وغاض الماء : نقص. وأعطاه غيضاً من فيض : أى: قليلاً من كثير . وغاض ثمن السلعة : نقص . [لسان العرب ـ مادة : غيض].

(٢) قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (٧/ ٨٤) :«السح : الصب الدائم» . وقال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : سحح] : «أى دائمة الصب والهطل بالعطاء ، وقال فى شرح هذا الحديث «يمين الله سحاء» واليمين هنا كناية عن محل عطائه ووصفها بالامتلاء لكثرة منافعها ، فجعلها كالعين الثرة لا يغيضها الاستقاء ولاينقصها الامتياح ، وخص اليمين لأنها فى الأكثر مظنة للعطاء على طريق المجاز والاتساع ، والليل والنهار منصوبان على الظرف».

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨١ ، ٧٤١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٩٩٣) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤٢ ، ٣١٣ ، ٥٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) الخلة : الصداقة الخالصة المتينة التى تخللت القلب. [القاموس القويم ١/ ٢٠٨].

يخاطب الحق - تبارك وتعالى - الذين آمنوا وانفعلوا بالإيمان ، فالله يُكلِّف مَنْ آمن به ، لا مَنْ كفر ، يخاطب الذين أصبحوا أهْلاً لمخاطبة الله لهم ، فالإيمان بالله هو حيثية كُلِّ حُكْم ، سواء فهمتَ الحكمة منه أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمر أمرك الله به ؛ وأنت لا تفهم له حكمة أشدّ في الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته.

إن الحق يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

أى: أنا لا أطلب منكم أنْ تُنفقوا عليَّ ، ولكن أَنْفقوا من رزقى عليكم.

فالرزق يأتى من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقة تتحرك فى شيء أو مادة ، هذه الحركة تأتى على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتبه من خَلَقه ، والجوارح التى تنفعل ، واليد التى تتحرك ، والرِّجْل التى تمشى خلقها الله ، والمادة التى تفعل بها مخلوقة لله . فأىُّ شيء للإنسان إذن ؟

ومع ذلك ، إن حصل للإنسان خير من هذا كله فهو سبحانه لا يقول: إنه لى. بل أمنحه لك أيها الإنسان ، ولكن أَعْطِنى حقى فيه ، وحقى لن آخذه لى ، ولكن هو لأخيك المسكين.

يقول الحق تبارك و تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) ﴾ [الذاريات]

وإياك أن تقول : وما دَخْلى أنا بالمسكين؟ عليك أنْ تعلم أنَّ المسكنة عَرَض ، والعَرَض من الممكن أنْ يلحق بك أنت ، فلا تُقدِّر أنك مُعْطٍ دائماً ، ولكن قدِّر أنك ربما حدث لك ما يجعلك تأخذ لا أنْ تعطى.

الحق يقول لك: أَعْطِ المسكين وأنت غنيٌّ ؛ لأنه سبحانه سيقول للناس

أنْ يعطوك وأنت فقير ، فقدِّر حكم الله ساعةَ يُطلَب منك ، ليحميك ساعة أن يُطلب لك ، وبذلك تتوازن المسألة .

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)﴾ [البقرة]

فإياكم أنْ تظنُّوا أننى أطلب منكم أنْ تُعطوا غيركم ، لقد طلبتُ منكم أنْ تُنفقوا لأزيدكم أنا فى النفقة والعطاء.

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)﴾ [إبراهيم]

فهو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين فى انتظار هذا الأمر لينفذوه فوراً ، ذلك أن المؤمن يجب أنْ يُنفِّذ كُلَّ أمر يأتيه من الله.

والحق سبحانه يأمرنا فى هذه الآية الكريمة بأن ننفق سِراً وعلانية ، وهكذا يُشيع الحق الإنفاق فى أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق سِراً كى لا يقع الإنسانُ فريسةَ المباهاة ، والإنفاق علَناً كى يعطى غيره من القادرين أُسْوة حسنة ، ولكى تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء الله عليك من خير.

ولذلك أقول : اجعل الصدقة التطوعية سِراً ، واجعلها كما قال النبى ﷺ : «لا تعلم شمالك ما أنفقتْ يمينك» (١) .

واجعل الزكاة علانية حتى يعلم الناس أنك تؤدى ما عليك من حقوق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٣٩) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٣١) ، والبخارى فى صحيحه (٢/ ١٤٣ ـ ١٢ / ١١٢ ـ فتح البارى) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وقد وقع فى لفظ مسلم مخالفاً لكل روايات الحديث « حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ».

الله ، وتكون بالنسبة لهم أُسْوة فعليـة ، وعِظَة عملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عِظَة سلوكية .

ولكن لا بُدَّ أنْ ننفق مما نحب ، ومن أفـضل ما عندنا ، لا من الخـبيث منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ(1) مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾ [البقرة]

إن الإنفاق يجب أن يكون من الكَسْب الطيب الحلال ، فـلا تأتى بمال من مصـدر غـير حـلال لتنفق منه على أوجه الخـير ، فالله طـيب لا يقبل إلا طيباً ، فالحق سبحانه يحذرنا من أن نختار الخبيث وغير الصالح من نتاج عملنا لننفق منه لقـوله تعـالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا (1) الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)﴾ [البقرة]

أى: لا يصح ولا يليق أنْ نأخذ لأنفسنا طـيبات الكسب ، ونعطى الله ردىء الكسب وخبيثه ؛ لأن الواحد منا لا يرضى لنفسـه أنْ يأخذ لطعـامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لينفق منه أو ليأكله.

﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ.. (٢٦٧)﴾ [البقرة]

أى: أنك أيها العبد المؤمن لن ترضـى لنفسك أنْ تأكلَ من الخبيث إلا إذا أغمضتَ عينيك ، أو تَمَّ تنزيل سعره لك ، فمثل هذا لو أُعْطِى لك لَماَ قبلتهُ

(1) لا تيمموا: لا تقصدوا خبيث المال ورديئه لتنفقوا منه فى سبيل الله. (القاموس القويم ٢/ ٣٧٢).

إلا أنْ تُغمض عينيك ، وتتسامح فى أَخْذه ، وكأنك لا تبصر عَيْبه لتأخذه ، فما لم تقبله لنفسك فلا يصح أنْ تقبله لسواك.

ويعطينا الحق سبحانه لقطة أخرى فى أدب الإنفاق ، فيقول تعالى : **﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾** [البقرة]

فمن الأدب الإيمانى فى الإنسان أن ينسى أنه أهدى ، وينسى أنه أنفق ، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير ، أو تصدّقه عليه ، وخاصة الصِّغار الذين لا يفهمون حكمة الله فى الأشياء.

فعندما يعرف ابنى أننى أعطى لجارى كذا ، ربما دَلَّ ابنى ومَنَّ على ابن جارى ، ربما أخذه غروره فعيَّره هو .

فإياك أنْ تُتبع النفقة مَنّاً أو أذىً ؛ لأنك إن أتبعتها بالمنِّ ، فسيكرهها المعْطَى الذى تصدقتَ بها عليه ويتولد عنده حقْد وبُغْض؛ ولذلك حينما قالوا «اتقِّ شرَّ مَنْ أحسنتَ إليه» شرحوا ذلك بأن اتقاءَ شَرِّ ذلك الإنسان بألاَّ تُذكِّره بالإحسان ، لأن ذلك يُولِّد عنده حِقْداً.

والحق سبحانه سيأتى بنتيجة النفقة بدون مَنٍّ أو أذى بما يفرح له قلب المؤمن ، إما بالبركة فى الرزق ، وإما بسَلْب المصارف عنه ، فهم تصدَّقوا. وسيأتيهم الحق سبحانه بما يُفرحهم ويشرح صدورهم ويبهج قلوبهم ، إما بسرعة الخُلْف عليهم ، أو برضى النفس ، أو برزق السَّلْب .

فآفة الناس أنهم ينظرون إلى رزق الإيجاب دائماً أى : أن يقيس البشرُ الرزقَ بما يدخل لهم من مال ، ولا يقيسون الأمر برزق السلب ، ورزق السلب هو محطُّ البركة.

هَبْ أن إنساناً راتبه خمسون جنيهاً ، وبعد ذلك يسلب الله منه

مصارف تطلب منه مائة جنيه ، كأنْ يدخل فيجد ولده متعباً وحرارته مرتفعة ، فيرزق الله قلب الرجل الاطمئنـان ، ويطلب من الأم أنْ تُعدّ كوباً من الشاى للابن ، ويعطيه قُرْصاً من الأسبرين ، وتذهب الوعكة وتنتهى المسألة.

ورجل آخر يجد ولده متُعباً وحرارته مرتفعة ، وتستمر الحرارة لأكثر من يوم ، فيقذف الله فى قلبه الرُّعْب ، وتأتى الخيالات والأوهام عن المرض فى ذهْن الرجل ، فيذهب بابنه إلى الطبيب فينفق خمسين أو مائة من الجنيهات.

الرجل الأول أبرأ الله ابنه بقرش ، والثانى أبرأ الله ابنه بجنيهات كثيرة ، إن رزق الرجل الأول هو رزْق السَّلْب ، فكما يرزق الله بالإيجاب فالله يرزق بالسلب . أى : يسلب المصرف ، ويدفع البلاء.

والله فَضْله واسع ، وعطاؤه لا حدودَ له ، ولذلك يقول رب العزة سبحانه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

فالإنفاق فى سبيل الله يردُّه الله مضاعفاً ، وما دام الله يضاعفه فهو يزيد ، لذلك لا تحزن ولا تخَفْ على مالك ؛ لأنك أعطيتَه لمقتدر قادر واسع عليم.

إنه الحق الذى يقدر على إعطاء كل واحد حَسْب ما يريد هو سبحانه ، إنه يعطى على قَدْر نية العبد وقَدْر إنفاقه.

وهذه الآية تعالج قضية الشُّح فى النفس الإنسانية ، فقد يكون عند الإنسان شىء زائد ، وتشحُّ به نفسه ويبخل ، فيخاف أنْ ينفق منه فينقص هذا الشىء.

وهنا تقول لك قضية الإيمان: أنفق ، لأنه سبحانه سيزيدك ، والحق

سيعطيك مثلما يعطيك من الأرض التي تزرعها ، أنت تضع الحبة الواحدة ، فهل تعطيك حبة واحدة ؟ لا ، إن حبة القمح تعطي كمية من العيدان ، وكل عود فيه سنبلة ، وهي مشتملة على حبوب كثيرة ، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تضاعف لك ما تعطيه ، أفَلا يضاعف العطاء لك الذى خلقها ؟

وإذا كان بعض من خَلْق الله يضاعف لك ، فما بالك بالله جَلَّ وعلا؟

إن الأرض الصَّماء بعناصرها تعطيك ، أئذا ما أخذتَ كيلة القمح من مخزنك لتبذرها في الأرض أيُقال : إنك أنقصتَ مخزنك بمقدار كيلة القمح ؟ لا ؛ لأنك ستزرع بها ، وأنت تنتظر كم ستأتى من حبوب ، وهذه أرض صَمَّاء مخلوقة لله ، فإذا كان المخلوق لله قد استطاع أنْ يعطيك بالحبة سبعمائة ، ألاَ يعطيك الذي خلق هذه الأرض أضعافَ ذلك ؟

إنه كثير العطاء ، وعطاؤه سبحانه غير مقطوع ولا ممنوع ، فالمنفقون أجرهم عند الله أضعاف مضاعفة ، وهو أجر ليس بقدرات البشر ، ولكنه بقدرة الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة]

فالحق سبحانه عنده من السَّعَة ما يعطى الكل ، وسبحانه واسع عليم، والحديث القدسى يقول : يا عبادى ، لو أنَّ أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخِل البحر. يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أُوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن

وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه [1] .

إذن : فخزائن الله مَلأى ، لا تنفد ، وسعة الحق مطلقة ، وهو سبحانه يرزق بغير حساب ؛ لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق ؟

يرزق بغير حساب ؛ لأنه لا يحكمه قانون ، وإنما يعطى بطلاقة القدرة ، فخزائنه لا تنفد .

إن قدرته - جل وعلا - تتسع لعطائنا جميعاً دون أن ينقص شيء من عنده ، فهو عطاء مَنْ لا ينفد ما عنده ، فهو يعطيك ويعطى الآخرين ، ولا ينقص مما عنده شيء.

والمؤمن يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أنْ يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخيط إذا غُمِس في البحر .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٧٧ ، ١٥٤) ، والترمذي في سننه (٢٤٩٥) ، وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧) من حديث أبي ذر ﷺ .

٤٥ أَذِّنْ وَعَلَىَّ البَلاَغُ

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال (١) :

«لَمَّـا فَـرَغَ إبْراهيمُ مِنْ بنَـاءِ البَـيْتِ قَـالَ : رَبِّ قَـدْ فرغْتُ . فـقـال : أَذِّنْ فى النَّاسِ بالحجِّ . قـال : رَبِّ ومَا يبلُغ صوْتى ؟

قال : أَذِّنْ وعلىَّ البلاَغُ.

قال : رَبِّ كيفَ أقُولُ؟

قـال : يَأَيُّهـا النَّاسُ ، كُـتِبَ عليكُم الحجُّ . حَجُّ البيْتِ العتِيق.

فَـسَـمِـعَـه مِنْ بين السَّمـاء والأرْض، ألاَ ترَى أنهُمْ يجِيئُونَ مِنْ أَقْصَى الأرْضِ يُلَبُّونَ؟

يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام :

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

[آل عمران]

فإبراهـيم عليه السـلام هو أول الأنبياء صِـلَةً بالبيت الحـرام ، وكان رَفْع قواعد البيت الحـرام على يده ، بعد أنْ طُمِر وسُتِر بالطوفان فـى عهد نوح عليه

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٨٨) ، وقال :«هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبي في تلخيصه .

السلام ، فحين يأتي الكلام في رسالة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلا بُدَّ أن تأتي أكبر حادثة في تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهي حادثة بناء البيت الحرام.

فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة ؛ لذلك كان من اللازم حين تأتي كلمة «ناس» أن يكون هناك «بيت» و«آدم» من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضِع له.

وحين يُقَال : إن البيت قد تَمَّ بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ۝٩٦﴾ [آل عمران]

فلماذا نحرم آدم من أنْ يكون له بيت عند الله ؟ إذن : فالبيت موجود من قبل آدم.

وبعض الناس تظنونُّ أن إبراهيم هو الذي بني البيت ، ولأصحاب هذا الظنِّ نقول: لنفهم القرآن معاً، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ۝٩٦﴾ [آل عمران] ، وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قَبْله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجيء إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهم الحقوق نفسها عند الله التي وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلا بُدَّ أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآنى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ۝٩٦﴾ [آل عمران] يؤكد ذلك ، وما دام قد جاء الفعل مبنياً للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ «وُضِعِ» هو فعل مبني على ما لم يُسَمَّ فاعله ، فمَنِ الذى وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك ، وهو أنْ يكون الملائكة قد تلقَّوْا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل

عمران} وهذا يعنى أن البيت هُدىً للملائكة ؛ لأنهم عَالَم ، وهذا يعني أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك.

إن أحداً لا يقدر أن يجعل الكون على قَدْر العقل البشري ، إن على العقل البشري أن يكون في رِكَاب الكون ، وإياك أن تجعل الكون فى ركاب عقلك .

فالحق سبحانه لم يترك الخَلْق من آدم إلي إبراهيم دون بيت يحجُّون إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أنْ تقوم الساعة.

أما مسألة أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد بنى الكعبة أولاً ، فهذا عدم فَهْم للنص القرآنى القائل :﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)** ﴾ {البقرة}

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البُعْد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض موجودان . إذن : فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاعَ البيت ، وهكذا نستنتج أن الذي كان مطموساً هو القاعدة والارتفاع ، ومع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان . أما البناء فهو الذي يُحدِّد «المكين» وعندما انهدم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه .

ونحن عندما نصلي في الدور الثالث فى الحرام ، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو حفرنا نفقاً تحت الأرض بألف متر ، وأردنا أن نصلي فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جَوَّ الكعبة كعبة .

إذن : فعمل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان في إيجاد المكين لا المكان ، ولنقرأ بالفَهْم الإيماني ما حدث لإبراهيم عليه السلام ، لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بهما ليضعهما في هذا المكان . و«هاجر» تعرف أن مُكوِّنات الحياة هى المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه.

لذلك ، قالت هاجر سائلةً إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ كيف تتركنا هنا ؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله . لذلك قالت : «والله لا يُضيِّعنا أبداً »(١).

لم تقلق هاجر ؛ لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان في قمته ، ولو لم يكُن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأىّ قلب لأم تترك أبَ الطفل يذهب بعيداً عنها ، وتعيش مع ابنها في هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء ، فهي لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم .

وعندما تقرأ القرآن الكريم نجد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ [إبراهيم]

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت ، وأن هذا البيت مُحرَّم ، وعندما نقرأ عن رَفْع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده ، بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

---

(١) ذلك أن هاجر قالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لايضيعنا . ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٣٧٠٧).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ [البقرة]

هكذا نعلم أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن فى إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلُّنا على أن إسماعيل نشأ طفلاً فى هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقَّن أن البيت المحرَّم كان موجوداً من قَبْل إبراهيم عليه السلام .

ومعنى رَفْع القواعد أي : إيجاد البُعْد الثالث ، وهو الارتفاع ؛ لأن البيت الحرام له طول ، وهذا هو البُعْد الأول ، وله عرض وهو البُعْد الثاني ، وبهما تتحدَّد المساحة . أما الارتفاع فبضربه في البُعْدين الآخرين يعطينا الحجم ، وقد أقام سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ البُعْد الثالث الذي يبرز الحجم.

ولكن ، هل يرفع إبراهيمُ القواعد من البيت الآن ؟ أم أنه رُفِع وانتهى ؟ طبعاً هو رُفِع وانتهى ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت .

والله يريد من المؤمنين أنْ يتصوَّروا عملية الرفْع ، فلم يكُنْ إبراهيم يملك سُلَّماً حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكُنْ يملك «سقالة» ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أنْ يتحايل ويأتي بالحجر.

إن الله يريد منّا ألاَّ ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولا بُدَّ أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أنْ يحملاه إلى مكان البناء ، ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار

الأخرى التى سيتم بها رَفْع القواعد من البيت ، ورغم المشقة التي يتحملها الاثنان فهما سعيدان.

وكلُّ ما يطلبانه من الله هو أن يتقبَّل منهما ، وهما لا يريدان إلا الثواب.

إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بمجرد أنْ فرغَا من رَفْع القواعد من البيت قالا : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾ [البقرة]

وكأنهما يقولان : يا ربّ ، أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت ، وقد فعلْنا ما أمرتنا به ، وليس معنى ذلك أننا اكتفيْنا بتكليفك لنا ؛ لأننا نريد أن نذوقَ حلاوة التكليف منك مرات ومرات ، فاجعلنا نُسلّم كل أمورنا إليك.

إن الإنسان لا يمكن أنْ ينتهي من تكليف ليطلب تكليفاً غيره ، إلا إذا كان قد عشق حلاوة التكليف ، ووجد فيه استمتاعاً ، ولا يجد الإنسان استمتاعاً في التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه ، كلما عمل شيئاً استحضر النعيم الذي ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد.

ولم يكتفياً بذلك ، بل أراد امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما ، فيقولان : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ (١٢٨)﴾ [البقرة] ليتصل أمدُ منهج الله في الأرض ، ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة.

ثم يقولان : ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا (١٢٨)﴾ [البقرة] أي : بيِّن لنا يا رب ما تريده منّا ، بيِّن كيف نعبدك ؟ وكيف نتقرَّب إليك ؟ والمناسك هي الأمور التى يريد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ نعبده بها.

وقوله ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة] يُرينا أن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكليف على نفسه ؛ لأنه لا يرى في كل تكليف إلا تطهيراً للنفس ، وخَيْراً للذرية ، ونعيماً في الآخرة .

﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة]

لقد طلبَا من الله ـ تبارك وتعالى ـ التوبة والرحمة لذريتهما ، والله يحب التوبة من عباده ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضلَّه في فلاة[1] ، ومن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة]

دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ اللهَ ـ سبحانه وتعالى ـ ليُتِمَّ نعمته على ذريته ، ويزيد رحمته على عباده ، بأنْ يرسلَ لهم رسولاً يُبلِّغهم مَنهج السماء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ، ويعبد الناس فيها الأصنام كما حدث قبل إبراهيم.

والحق سبحانه يقول :

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾

[البقرة]

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان علي راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتي شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح».

سُمِّيَتْ الكعبةُ بيتاً ؛ لأنها المكان الذي يستريح إليه كل خَلْق الله ، وهو مثابة للناس ؛ لأن العبد يذوق حلاوة وجوده في بيت ربه ، فلا يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته ، فلو نظرت إلى الكعبة سيذهب كل ما في صدرك من ضيق وهم وحزن ، ولا تتذكر أولادك ولاشئون دنياك ، ولو ظلَّتْ جاذبية بيت الله في قلوب الناس مستمرة لتركوا كُلَّ شئون دنياهم ليبقوا بجوار البيت.

ومن رحمة الحق سبحانه أن الدنيا تختفي من عقل الحاجِّ وقلبه ؛ لأن الحجيج في بيت ربهم كلما كَرَبَهم شيء ، أو هَمَّهُمْ أمر توجهوا إلى ربهم وهم في بيته ، فيذهب عنهم الهَمُّ والكرب .

وهذه دعوة إبراهيم عليه السلام حينما قال :

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]

فذكر الأفئدة ولم يذكر الأجسام ، وتهوي . أي : يُلْقون أنفسهم إلى البيت ، ومن الخير أنْ تتركَ الناس يثُوبُون إلى بيت الله ؛ ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة.

فعلاقة الفؤاد والأفئدة بالحجيج علاقة قوية ؛ لأن الهُوِيَّ في الحجيج هُوِيُّ قلوب ، لا جيوب ، وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أنْ يحظى بأداء تلك الفريضة .

وكلمة «تهوي» بكسر الواو ، تدلُّ على السقوط من حالق ، أي : من مكان مرتفع شاهق ، وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها ؛ ولذلك نجد الكَلِف بالحج - المحب له والمتعلِّق به - تشتاق روحه إلى الحج.

وعلينا أنْ نُفَرِّق بين «يَهْوَى» أي : يحب الذهاب ، «ويهوي» بكسر

الواو ، أي : يذهب بالاندفاع ، فالإنسان إنْ سقط من مكان عَال لا يستطيع أن يقول : سأتوقف عند نقطة ما في منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذي يقع من مكان لا يقدر على أنْ يُمسك نفسه.

وهذا دليل على أن الهُويَّ ليس من صَنْعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأفئدة ، والأفئدة بيد الله سبحانه ، هو الذي جعلها تهوي.

ومن هنا كان الأمر لإبراهيم ـ عليه السلام ـ برَفْع القواعد من البيت الحرام ، وتطهير البيت وإعداده للطائفين به والقائمين والركَّع والسُّجود ، قال تعالي : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾ [الحج]

والمراد : طَهِّر البيت من كل ما يُشعِر بالشرك ، فهذه هى البداية الصحيحة لإقامة بيت الله ، فالتطهير يعنى الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وطهارة حِسِّية مما أصابه بمرور الزمن وحدوث الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً.

ولذلك يقول تعالي : ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ (١٢٥)﴾ [البقرة] دليل على أن البيت زالتْ معالمه تماماً ، وأصبح مثل سائر الأرض فذُبحت فيه الذبائح وأُلقِيتْ المخلَّفات ، فأمر الله ـ سبحانه وتعالي ـ أن يُطهر إبراهيم وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ، ويجعله مكاناً لثلاث طوائف :

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ والطائف هو الذي يطوف ، وهي مأخوذة من الطواف ، وهو الدوران حول الشيء.

﴿ وَالْعَاكِفِينَ﴾ هم : المقيمون .

﴿ الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ هم : المصلُّون.

فتطهير البيت للطواف به ، والإقامة ، والصلاة فيه ، وهو مُطهَّر أيضاً لأنه سيكون قِبْلة للمسلمين ، لكل راكع أو ساجد في الأرض حتى قيام الساعة.

من هنا جاء الأمر لإبراهيم ـ عليه السلام ـ بالتأذين في الناس بالحج ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج]

أمر الله نبيه إبراهيم بعد أن رفع القواعد من البيت وطهَّره للطائفين والقائمين والركَّع السُّجود أنْ يُؤذِّن فى الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخَلْق جميعاً خَلْق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على مَنْ قُدِّر له أنْ يمر به ، أو يعيش إلى جواره ؟

أراد الحق سبحانه أنْ يشيع هذه المِيْزة بين خَلْقه جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإن كانت المساجد كلها بيوتاً لله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ، لذلك جعله قِبْلة لبيوته التي اختارها الخلق.

ومعنى ﴿وَأَذِّن (٢٧)﴾ [الحج] الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأذن ، ومن الأذن أُخِذ الأذان ، أى : الإعلام .

وحينما أمر الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالأذان لم يكن حول البيت غير إبراهيم وولده إسماعيل وزوجته هاجر ، فلمن يُؤذِّن ؟ ومَنْ سيستمع في صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون ؟

فناداه ربه : يا إبراهيم ، عليك الأذان وعلينا البلاغ ، فمهمتك أن ترفع

صوتك بالأذان ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس في كل الزمان وفي كل المكان ، وسيسمعه البشر جميعاً وهم في عالم الذرِّ ، وفي أصلاب آبائهم بقدرة الله تعالى .

يعني :أدِّ ما عليك ، واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك. فأذَّن إبراهيم في الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أنْ تقوم الساعة.

والحق سبحانه يعطي لنا مثال هذا في قوله تعالى لرسوله محمد ﷺ :

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]

وكان ذلك في غزوة بدر ، حيث استنجد رسول الله ﷺ بربه واستغاث ودعا الله ورفع يديه ، فقال : «يا ربِّ ، إنْ تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً ، فقال له جبريل : خُذْ قبضة من التراب فارْمِ بها في وجوههم ، فأخذ ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم ، فَما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومَنْخريْه وفمه تراب من تلك القبضة فولّوا من مدبرين»(1).

ومعلوم أنه ساعة تأتي ذرة تراب في عيني الإنسان يشتغل بعينيه عن كل شيء . فقولُ الحق تبارك وتعالى :﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]

أي : أنك يا رسول الله ، ما أرسلت بالرَّمْية الواحدة ـ حفنة التراب ـ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٦٣) كتاب الجهاد ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض ».
ولم يذكر رمي التراب في وجوه المشركين ، ولكن قد أورد ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٩٥) هذا الأثر عن ابن عباس. باللفظ الذي ذكره الشيخ الشعراوي رحمه الله هنا.

إلى عيون كل الأعداء ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها أحد ، ولكنك «إذ رميت» أي : أدَّيتَ نصيحة جبريل لك ، أما الإيصال إلى عيون العدو ، فهذا من فِعْل الله القوي القادر .

فما عليك يا إبراهيم إلا أن تؤدِّي ما عليك ، فتؤذِّن في الناس بالحج، وعلينا نحن إيصال هذا النداء إلى كل نَسْمة خلقها الله.

ثم يقول تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج]

ورجالاً هنا ليست جمعاً لرجل كما يظنُّ البعض ـ إنما جَمْعاً لراجل ، وهو الذي يسير على رِجْلَيْه ، والأرجل مخلوقة لتحمل بنى الإنسان : الواقف منهم ، وتقوم بتحريك المتحرِّك منهم . فإنْ كان الإنسان واقفاً حملته رِجْلاه ، وإنْ كان ماشياً فإن رِجْلَيْه تتحركان .

والضامر : الفرَس أو البعير المهزول من طول السفر.

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهي ﴿ يَأْتُوكَ (٢٧) ﴾ [الحج] فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً ، يأتون جميعاً رجالاً أو ركباناً من كل طريق بعيد.

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ [آل عمران]

علينا أن ننتبه إلى أن الله قال في كل تكليف : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة] ولكنه سبحانه جاء في فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله «على الناس» ، وليس لمن أسلموا فقط.

ورسـول الله ﷺ قـد دعـا أهل الكتـاب الذين كـانوا يتـمـحكون في إبراهيم عليـه السلام أنْ يحجُّـوا البيت الحرام ، فـامتنعـوا عن الحج ، ولو كان الحج للمـسلمين المؤمنين برسالة مـحمـد ﷺ لما عرض رسـول الله ﷺ على اليهود والنصارى أنْ يحجُّوا ليكـون ذلك جَمْعاً لهم على أنْ يتجه الخَلْق جـميـعـاً إلي بيت الله ، ويعـبدوا إلهـاً واحـداً ، هو ربُّ هذا البـيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج.

لذلك يقـول رسول الله ﷺ فيـمن لم يحجّ بدون مـرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فـقر وعوز [1] : «مَنْ ملك زاداً وراحلة تبلغـه إلى بيت الله ولم يحج ، فلا عليـه أنْ يموتَ ، إنْ شاء يهودياً ، وإنْ شاء نصـرانياً ، وذلك أن الله تعالي يقول :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران]

ولذلك نجد التكليف بالحـج قد اتبع مباشـرة بقول الحق :﴿وَمَن كَفَرَ .. ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] ، فهل يقع مَنْ لا يحج بدون مانع قاهر في الكفر ؟

هنا يقف العلماء وقـفةً . العلماء يقـولون : نعم ، إنه يدخل في الكفر ، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان : كفر بالله ، أو كفر بنعمة الله.

ومثـال ذلك قوله جَلَّ شـأنه : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

أو : هو الكفر ، كأنْ يموت الإنسانُ يهودياً أو نصرانياً.

---

(١) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب (٢/ ١٣٤) من حديث على ـ رضى الله عنه ـ وقال:« رواه الترمذى والبيهقى من رواية الحارث عن على ، وقال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» .

وهنا نقول : انتبه ، لا تأخذ الحكم من زاوية ، وتترك الزاوية الأخرى .

إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] ، فهل تعارضون في هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ، ولكن لا تُنفِّذونه؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هي ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران] فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ «نعم» ، ولكن الموقف يختلف من مؤمن إلى آخر ، فنحن نجد مؤمناً يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ونجد مؤمناً آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصياً.

ونجد في هذا الموقف أن الكفر نوعان:

- هناك مَنْ يكفر بحكم الحج ، أي : مَنْ كفر في الاعتقاد بأن لله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقاً.

- وهناك نوع آخر ، وهو الذي يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أَمْن طريق ، ومن قدرة علي زاد يكفي مَنْ يعولهم إلى أنْ يعود.

وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أنْ يسعى إلى الحج ، لذلك قال بعض العارفين : لو أن أحدهم أُخْبِر بأن له ميراثاً بمكة لَذهبَ إليه حَبْواً.

ولننظر إلى دقَّة الأداء القرآني حين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]

إن الله غني عن كل مخلوقاته ، وإياك أن تفهم أن الذي لم يكفر وآمن ، وأدَّى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ، إن الله غني عن الذي أدَّى ، وعن الذي لم يُؤدِّ ، إياك أنْ تظنَّ أن مَنْ أدَّى قد صنع لله معروفاً ، أو قدَّم لله يداً.

والحج هو رحلة فرضها الله مرة واحدة فى العمر ، يخرج إليها المسلم الذى يحيا فى كل مكان مع نعمة المنعم ، وعندما يخرج المسلم إلى الحج فهو يتحلل من كُلِّ النعم التى تصنع له التميز ليستوى مع كل خَلْق الله .

وأوَّل سِمَة مُميزة للإنسان هى الملابس ؛ لذلك يخلع المسلمون ملابسهم ، ويرتدون لباساً مُوحّداً يتساوون فيه ، وحين يترك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى المُنعِم.

فالكل سواء فى ملابس تكاد تكون واحدة ، وكلهم شُعْث[1] غُبْر ، وكلهم يقولون «لبيك اللهم لبيك» هكذا تتم تصفية التفاوت فى الإنسان بالإحرام ، وتصبح العبودية مستطرقة فى الجميع .

وتزول فى الحج كل الألقاب والمقادير المتباينة من فور اتجاههم إلى الحج ، وحول الكعبة يرى الخفير الوزير وهو يبكى ، ويشعر الجميع أن الكل سواء.

والحق سبحانه يقول : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ (١٩٦)﴾ [البقرة]

والحج هو القصد إلى مُعظَّم ، وهو «حج البيت» . أما العمرة فهى الحج الكبير ، وزمانها شائع فى كل السنة ، والقاصدون للبيت يتوزعون على العالم كله.

والحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده ، وهو يعلم أن بعض الناس سيقبلون على العبادات إقبالاً شكلياً ، وقد يقبلون على العبادة لأغراض أخرى غير العبادة ، فكان لابد أن يبين القصد من الحج والعمرة ، وأن

(١) تشعث : تلبَّد شعره واغبرَّ. واغبرَّ الشيء: علاه الغبار . والغُبْرة : لون الغبار . (لسان العرب ـ مادتا : شعث ، غبر).

المطلوب هو إتمامهما ، ولا بد أن يكون القصد لله لا لشيء آخر ، لا ليقال «الحاج فلان» ، أو ليشترى سلعاً رخيصة ويبيعها بأغلى من ثمنها بعد عودته.

والحق سبحانه وتعالى يقول : **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ (١) أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم (٢) مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ (٣) الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ..(١٩٨)﴾** [البقرة]

فلا إثم عليكم ولا حرج أن تتكسبوا فى الحج ، وهو نسك عبادى ، فلا مانع أن تذهب لتحج وتتاجر ؛ لأنك ستُيسِّر أمراً ، لأننا إن منعناه ، فمن الذى يقوم بأمر الحجيج ؟

وكل ابتغاء الرزق وابتغاء الفضل لا يصح أن يغيب عن ذهن مبتغى الرزق والفضل ، فكله من عند الله ، إياك أن تقول : قوة أسباب . وإياك أن تقول : ذكاء أو احتياط ، فلا شيء من ذلك كله ، لأن الرزق كله من الله ، هو فضل من الله .

ولا ضرر عليك أن تبتغى الفضل من الرب سبحانه ؛ لأنه هو الخالق وهو المربِّى ونحن مربوبون له ، فلا غضاضة أن تطلب الفضل من الله .

وقد وصف رب العزة سبحانه بيته بأنه البيت العتيق ، فقال تعالى : **﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾** [الحج]

---

(١) الجناح : الإثم والذنب . أى : ليس عليكم إثم فى أن تتكسبوا فى الحج.

(٢) أفاض الحجاج من عرفات : انصرفوا إلى منىً بعد انقضاء الموقف كأنهم سيْل ينحدر ويسيل فى سهولة ويُسر . (القاموس القويم ٢/ ٩٣).

(٣) المشعر : المعلَم الظاهر من أماكن الحج . (القاموس القويم ١/ ٣٥٠) .
قال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها . وفى رواية : هذا الجبل وما حوله .[ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/ ٢٤٢].

وكلمة عتيق استعملت في اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وضِع للناس فهو إذن قديم ، والقِدَم هنا صفة مدح ؛ لأنها تعنى الشيء الثمين الذى يُحافظ عليه ، ويُهتم به.

كما نرى عند بعض أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها ويتوارثونها يسمونها «العاديات» مثل : التحف وغيرها ، وكلما مر عليها الزمن زادت قيمتها وغلا ثمنها.

والعتيق : الشيء الجميل الحسن . والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق؟

وَصْف البيت بالقِدَم يشمل كل هذه المعانى ، فهو قديم لأنه أول بيت وُضِع للناس ، وهو غالٍ ونفيس ونادر ، حيث نرى فيه ما لا نراه فى غيره من آيات ، ويكفى أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذى لا مثيل له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألا ترى قصة الفيل وما فعله الله بأبرهة حين أراد هدمه ؟ حتى الفيل الذى كان يتقدم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداء على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجه أيَّ وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة.

ويُقال : إن رجلاً [1] تقدم إلى الفيل وقال فى أذنه : ابْرُك محمود ـ اسم الفيل ـ وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام.

وقد عبّر الشاعر [2] عن هذا الموقف ، فقال :

(١) هو : نفيل بن حبيب الخثعمى ، فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٥٢) .
(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى .

حُبِسَ الفيلُ بالمغمَّس [1] حتى ظَلَّ يَعْوِى كأنه مَعْقُورُ [2]

ثم أنزل الله عليهم الطير الأبابيل التى ترميهم بالحجارة حتى الموت.

والحق سبحانه يحدثنا عن هذا البيت ، فيقول :

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ (٩٧)﴾ [المائدة]

فالله جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كَدْحهم ، لأنه بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت لله ، ولكن باختيار خلق الله ، أما الكعبة فهى بيت الله باختيار الله ، وهى قبلة لبيوت الله التى قامت باختيار خلق الله.

وقد أراد سبحانه أن تكون الكعبة هى البيت الحرام ليحفظ على الناس قِوَام حياتهم بالطعام والشراب واستيفاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين ؛ ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر.

وتبدأ الحياة بوجود الروح فى المادة ، فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المصادر ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته فى الآخرة ، فلا تنتهى منه الحياة أبداً.

لقد جعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ، أى : قواماً لحياتهم ، سواء الحياة الدنيا أو حياة الآخرة.

---

(١) المغمَّس : موضع قريب من مكة.

(٢) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٦٠) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبى الصلت.

والحق سبحانه يقول :

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ {قريش}

فقد كانت قريش تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذى يحج إليه كل عربى ، يوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو لقبيلته .

إذن : فالبيت الحرام هو الذى أوجد لهم تلك المهابة ، وإبراهيم عليه السلام كان يعيش فى عقائد هؤلاء القوم ؛ لأن كل أمور إبراهيم النُّسكية كانت فى هذا المكان ، فمثلاً همّه بذبح ابنه وفداء السماء لابنه كانا فى هذا المكان ، ورفعه الكعبة كان فى هذا المكان ، والكعبة هى مركز السيادة لقريش، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل.

لقد أراد الحق سبحانه أن يوضح لقريش أن السيادة التى أخذتموها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت ، فلو لم يوجد هذا البيت وهذه الكعبة لكنتم قبيلة من القبائل . لا مهابة لكم ولا سلطان ولا جاه.

٤٦ القَرْض الحسَنُ

قَالَ رَبُّ العِزَّةِ سُبْحانَهُ في الحديث القُدْسي :

«استَقْرَضْتُ عبْدِي ، فَلَم يُقْرِضْنى»(١)

يقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

الله هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعى إلى الوجود ، فهو سبحانه مكلف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذى استدعاه الله للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله .

وإذا كان هو سبحانه الذى أعطى المال ، فكيف يقول : أقرضنى ؟

نعم ، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال ، إن المال الذى لك هو هبة من الله ، ولكن إن احتاجه أخ مسلم فهو لا يقول لك «أعطه من عندك أو أقرضه من عندك».

إنما يقول لك :«أقرضنى أنا ، لأنى أنا الذى أوجدته فى الكون ورزقه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٠٠،٥٠٦) ، والحاكم فى مستدركه (١/ ٤١٨) ، (٢/ ٤٥٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وتمامه :«يقول الله عز وجل : استقرضت عبدى فلم يقرضني، وشتمني عبدى وهو لايدرى يقول : وادهراه وادهراه وأنا الدهر» قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

مطلوب منى » ، فكأنك حين تعطيه تقرض الله ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (٢٤٥)﴾ [البقرة]

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ متفضل بالنعمة ، ثم يسألك أن تقرضه هو .

و لنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا ـ وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى ـ هب أنك محتاج وفى ضائقة مالية ، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم :

أقرضونى ما معكم من مال ، وسأرده لكم عندما تمر الضائقة ، كأنك لم ترجع فى هبتك وما أعطيته لهم من مال ، إنما اقترضته منهم ، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى ، ولله المثل الأعلى.

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ عندما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فرآها ممسكة بدرهم ، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه ، فسألها أبوها : ما تصنعين يا فاطمة ؟ قالت : أجلو درهماً . قال : لماذا؟ قالت : لأنى نويت أن أتصدق به قال : وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه ؟ قالت : لأنى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد المحتاج .

فساعة تسمع «يقرض الله» فذلك أمر عظيم ؛ لأنك عندما تقرض إنساناً فكأنك تقرض الله ، ولكن المسألة لا تكون واضحة ، لماذا ؟ لأن ذلك الإنسان سيستفيد استفادة مباشرة ، لكن عندما تنفق فى سبيل الله فليس هناك إنسان بعينه تعطيه ، وإنما أنت تعطى المعنى العام فى قضية التديُّن ، وتعاملك فيها يكون مع الله ، كأنك تقرض الله حين تنفق من مالك لتعد نفسك للحرب.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب

منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية ، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس.

والقرض فى اللغة معناه : قَضْم الشىء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هى مسألة صعبة ، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله «يقرض» ، إنه المقدِّر لصعوبتها ، ويُقدِّر الجزاء على قدر الصعوبة .

وما هو القرض الحسن ؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد الله لا يكون القرض حسناً ؟

أولاً إذا أقرضت عبداً من عباد الله فكأنك أقرضت الله ، صحيح أنت تعطى الإنسان ما ييسر له الفرج فى موقف متأزم ، وصحيح أيضاً أنك فى عملية الجهاد لا تعطى إنساناً بعينه وإنما تعطى الله مباشرة.

وهو سبحانه يبلغنا أن من يقرض عبادى فكأنه أقرضنى ، كيف ؟ لأن الله هو الذى استدعى كل عبد له للوجود ، فإذا احتاج العبد فإن حاجته مطلوبة لرزقه فى الدنيا ، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يقرض الله المتكفل برزق ذلك المحتاج.

وقوله تعالى ﴿**يُقْرِضُ اللَّهَ** ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة] تدلنا على أن القرض لا يضيع؛ لأن القرض شىء تخرجه من مالك على أمل أن تستعيده ، وهو سبحانه وتعالى يطمئنك على أنه هو الذى سيقترض منك ، وأنه سيرد ما اقترضه ، لكن ليس فى صورة ما قدمت ، وإنما فى صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة .

إن الأصل محفوظ ومستثمر ؛ ولذلك يقول : ﴿ **مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ**

﴿قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (٢٤٥)﴾ [البقرة] إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله ـ عز وجل ـ لا بمقاييسنا كبشر .

وهناك ملمح فى هذه الآية :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا(٢٤٥)﴾ [البقرة]

فالمؤمنون فى عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ، وقد أغنانا الله بالعبودية له عن أن نذل لأناس آخرين ، وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يُذلَّ نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا(١٣٩)﴾ [النساء]

فساعة يقول الحق سبحانه :﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾ [النساء]

فمعناها : إن أردتَ أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى الله ؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه.

وعلى سبيل المثال ، نجد أن الحق سبحانه لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة ، العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء: إنك تسأل الناس ، ألا تعف ولا تسأل ؟ فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى : أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به .

وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له فهو يعتز بقوة هذا الكائن ، وهى قوة ممنوحة له من الله ، وقد يستردها سبحانه منه ، فما بالنا بالقوة

اللانهائية لله ، وكل قوة فى الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عزة هى لله .

ولقد قرن الحق سبحانه بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل ونُصْرتهم ، وبين إقراض الله قرضاً حسناً .

فقال: ﴿**لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ**(١) **وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)**﴾ [المائدة]

والزكاة هى إخراج المال على نحو مخصوص ، أما الصدقة فهى غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة ، وهناك القرض ، وهو المال الذى تتعلق به النفس ؛ لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده ؛ ولذلك قيل: إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما الذى تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة .

وأيضاً ؛ لأن نفس المتصدق تخرج من الشىء المتصدّق به ولا تتعلق به ، أما الذى يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض ، وكلما صبر عليه نال حسنة ، وكلما قدم نظرة إلى ميسرة ، فهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

ويصف الحق سبحانه القرض بأنه حسن ، حتى لا يكون فيه مَنٌّ أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار فى القرض ربا ، ولنا الأسوة الحسنة فى أبى حنيفة ، عندما كان يجلس فى ظل بيت صاحب له ، واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال ، وجاء اليوم التالى للقرض ، وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو

(١) عزره : أعانه ونصره ووقّره مثل عزَّره . قال تعالى : ﴿**وَعَزَّرْتُمُوهُمْ**﴾[المائدة:١٢] أى : نصرتموهم وحميتموهم . [القاموس القويم ٢/ ١٨] .

حنيفة: خفت أن يكون ذلك لوناً من الربا . فقال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضني . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل عليَّ بظل بيتك ، فأخاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بالمال.

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذى أو منفعة .

ولأن القرض دَيْن وضع الحق سبحانه له القواعد ، فقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ** (٢٨٢)﴾ {البقرة}

فالحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدَّيْن مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسد هذا الدَّيْن ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

وعندما يكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحَاثٌّ عليه ، لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض ، ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة ؛ ولذلك يقال فى الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله ، ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿**وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ ..** (٢٨٢)﴾ {البقرة }

وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال : ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ** ... (٢٨٣)﴾ {البقرة}

وهكذا ، يحمى الله الحركة الاقتصادية ، ونجد رسول الله ﷺ وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دَيْن ، فقال للصحابة : صَلُّوا على أخيكم لكنه لم يُصَلِّ على الميت(١).

(١) عن أبى قتادة أن النبى ﷺ أُتِيَ برجل ليصلى عليه ، فقال النبى ﷺ «صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً» قال أبو قتادة : هو عليَّ . فقال رسول الله ﷺ : بالوفاء ؟ قال: بالوفاء . فصلّى =

وتساءل الناس : لماذا لم يُصَلِّ رسول الله ﷺ على هذا الميت ؟ وما ذنبه ؟ كأن رسول الله ﷺ أراد أن يُعلِم المؤمنين عن دَيْن المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حفزاً للناس ودفعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دَيْن.

وقد قال رسول الله ﷺ :«من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله» (١).

فما دام قد مات وهو مدين ، وليس عنده ما يسد الدين ، فربما كان لا ينوى رد الدين ، وأن نفسه قد حدَّثته بألا يرد الدين .

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يحرجه.

ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض ؛ لأن المقترض يريد أن يسدد القرض ، أما إن تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدَّيْن ، فليفهم أن عند الذى اقترض بعض ما يسدد به الدين . أى : أن

=عليه. قال الترمذي : حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذي فى سننه (١٠٦٩) .
وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يُؤتى بالرجل المتوفى عليه الدَّيْن فيقول: هل ترك لدينه من قضاء ؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلى عليه، وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم. فلما فتح الله عليه الفتوح قام فقال : أنا أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن تُوفِّي من المسلمين فترك ديناً على قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته» أخرجه الترمذي فى سننه (١٠٧٠) وقال: حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٦١، ٤١٧) والبخاري في صحيحه (٢٣٨٧) عن أبي هريرة ، وأخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٤١١) بلفظ:«من أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله».

المدين عنده القـدرة على الوفاء بـالدَّيْن أو ببعـضه ، ذلك أن الله لا يحـرج من يجدّ ويجتهد فى السعى لسداد دينه .

والقرض من المال الذى لديْك يجعل المال يتناقص ؛ لذلك فالله يعطيك أضعـافاً مضـاعفة نـتيجـة هذا القرض ، وذلك منا سب لقـوله تعالى : ﴿**يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ**..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

فسـاعة تذهب إليـه ويأخذ كل منا حـقه بالحـساب . أى: أن المال الذى تقرض منه ينقص فى ظاهر الأمر ، ولكن الله سبحـانه يزيده ويبسطه أضعافاً مضاعفة ، وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلاً.

والحق سبحانه يقول : ﴿**وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** (٢١٢)﴾ [البقرة]

إنه رِزْق بغير حساب من الله ، فقد يرزقك الله على قَدْر سَعْيك ، وربما أكثـر ، وهو يرزق بغير حـساب ؛ لأنه لا توجد سلطة أعـلى منه تقول له : لماذا أعطيتَ فلاناً أكثر مما يستحق.

وهو سبـحانه يرزق بغـير حـساب ؛ لأن خزائـنه لا تنفد. ويرزق بغـير حسـاب ؛ لأنه لا يحكمه قـانون، وإنما يعطى بطلاقة القـدرة ، إنه ـ جَلَّ وعلا ـ يعطى للكافر حتى تتعجب أنت وتقول : يعطى الكافر ولا يعطى المؤمن ، لماذا؟

إذا اسـتطاع أحد أنْ يحـاسـبه فلـيسـأله : لماذا يفـعل ذلك؟ إنه يعطى مقابـلاً للحسنة سبعـمائة ضِعْف بغيـر حساب ، إن الحـسـاب إنما يأتى عندما تأخـذ مـعدوداً ، فـإذا أخـذتَ مثـلاً مـائة من ألف فأتـت طرحتَ معـدوداً من مـعدود ، فـلا بُدَّ أن ينقص ، وعندما تراه يـنقص فأنت تخـاف من العطاء ، لكن الله بخلاف ذلك ، إنه يعطى معدوداً من غير معدود .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا مثلاً حَياً على رزقه الواسع الذى لا تحدُّه حدود فى قصة مريم وزكريا عليهما السلام ، فيقول تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

فزكريا ـ عليه السلام ـ كان يكفل مريم ، ويأتيها بكل ما تحتاج إليه، ودخل عليها ليجد عندها ما لم يحضره لها ، وسألها وهى القديسة العابدة الملازمة لمحرابها.

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعطينا هذه الصورة ، مع أن مريم بسلوكها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات ، ولكن لنعرف أن الذى يفسد الكون هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التى تتناسب مع قدرات مَنْ يحصل عليها.

الأم ترى الأب ينفق ما لايتناسب مع مُرتبه ، وترى الابنة ترتدى ما هو أكبر كثيراً من مرتبها أو مصروفها .. ولو سألت الأم الأب أو الابنة : من أين لك هذا لما فسد المجتمع ، ولكن الفساد يأتى من أننا نغمض أعيننا عن المال الحرام.

بماذا ردَّت مريم عليها السلام ؟

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[آل عمران]

إذن : فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون.. والحق سبحانه غير محكوم بالأسباب ، وسبحانه يعطي بلا حساب ، فالسيدة مريم أجابت الإجابة الإيمانية ، وأوضحت لسيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ : أنت تتكلم بحسابك ؛ ولكنِّى أتكلم بحساب الله تعالى ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب، أنطقها الحق ذلك لأن هذا القول سوف يخدم قضايا عقدية متعددة فى الكون.

وشاءت إرادة الله أن تنطق مريم بهذه المقولة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران] لأنها ستنبه زكريا إلى شيء ، وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد ، حينما تشعر بالحمل من غير زوج ، فلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاء من الله.

وكذلك نبهت هذه الآية زكريا ـ عليه السلام ـ إلى فَضْل الله وسِعَة رحمته ، وهذا أمر لا يغيب عن نبي الله ، ولكن هناك قضايا في النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ...(٣٨)﴾ [آل عمران] فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدي ، وطالما أن الرزق بغير حساب ، فلن يمنعه كِبر السِّنِّ أو العُقْم أو خلافه.

فجاءته البُشْرى واستجيب دعاؤه ، قال تعالى :

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا[1] وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾ [آل عمران]

(١) الحصور : الذي يمنع نفسه من الشهوات . [القاموس القويم ١ / ١٥٧] .

٤٧ الفَوْزُ العَظِيم

قَالَ رَبُّ العِزَّةِ سُبْحَانَهُ في الحديثِ القُدْسِيِّ:

«أيّما عَبْدٍ مِنْ عِبَادي خرجَ مُجاهداً في سَبِيلي، ابْتغاءَ مَرْضَاتِي، ضَمنْتُ له أَنْ أُرجِعَهُ بما أصابَ مِنْ أَجْرٍ وغنيمةٍ، وإنْ قَبَضْتُه أنْ أغفر له، وأرْحمه، وأُدْخِلَه الجنَّة» (١).

يقول الحق سبحانه:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة]

إن الله ـ عز وجل ـ يقول للذين آمنوا: اعلموا أنكم مُقْبلون على مشقَّات وعلى متاعب، وعلى أنْ تتركوا أموالكم، وعلى أنْ تتركوا لذّتكم وتمتعكم، لذلك نجد كبار السَّاسة الذين برعوا في السياسة ونجحوا في قيادة مجتمعاتهم كانوا لا يحبون لشعوبهم أن تخوض المعارك إلا مضطرين، فإذا ما اضطروا فَهُم يُوضِّحون لجندهم أنهم يدرأون بالقتال ما هو أكثر شراً من القتال، ومعنى ذلك أنهم يُعبِّئون النفس الإنسانية حتى تواجه الموقف بجماع قُوَاها، وبجميع ملَكاتها، وكُل إرادتها.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ**

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١١٧)، والنسائي في سننه (٦/ ١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

لَكُمْ... ﴿٢١٦﴾ [البقرة]، إنه سبحانه يقول لنا ، أعلم أن القتال كُرْه لكم ، ولكن أردتُ أن أشيع فيكم قضية ، هذه القضية هي ألاَّ تحكموا فى القضايا الكبيرة فى حدود علِمكم ؛ لأن علمكم دائماً ناقصٌ ، بل خُذُوا القضايا من خلال علمى أنا ؛ لأننى قد أُشرِّع مكروهاً ، ولكن يأتى منه الخير ، وقد ترونَ حُبّاً فى شىء ، ويأتى منه الشر.

وفى ذِكْر أمر الكُرْه إنصافٌ لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه ؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله.

والحق سبحانه يقول لنبيه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ..** ﴿٦٥﴾ [الأنفال]

وساعةَ تسمع أن فلاناً يُحرِّض فلاناً ، فهذا يعنى أنه يحثُّه ، ويثير حماسه ، ويُغريه على أن يفعل ، أى: حُثَّهم وحُضَّهم وحَمِّسهم.

أى: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب من رسوله ﷺ تحريض المؤمنين على الجهاد ، وكأنه يقول له : ادْع قومك إلى أن يبعدوا الدنو من الهلاك عن أنفسهم ؛ لأنهم إنْ لم يجاهدوا تغلب عليهم أهل الكفر، فأهل الكفر يعيشون فى الأرض بمنهج السيطرة والغَلَبة والجبروت .

وحين يجاهدهم المؤمنون إنما ليوقفوهم عند حدهم ؛ ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ** ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال]

فكأنهم إنْ لم يحاربوا أهل الكفر فسوف يحيط بهم الهلاك فى الدنيا وفى الآخرة ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد لهم الحياة الآمنة الكريمة فى الدنيا، والجنة فى الآخرة.

والقتال لابُدَّ أن يكون فى سبيل الله، قال تعالى :

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ {البقرة}

فعندما نتأمل قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ {البقرة}

فإننا نجد أن الحق سبحانه يؤكد على كلمة «فى سبيل الله» لأنه يريد أن يضع حَداً لجبروت البشر، ولا بُدَّ أن تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أنْ يكون القتال بنيّة الاستعلاء والجبروت والطغيان.

فلا قتالَ من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ، ونُصْرة دين الله ، هذا هو غرض القتال فى الإسلام.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ {النساء}

فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ومنزلة الشهداء.

فالقتال إنما جاء حتى تُسيطر مناهج السماء ، وسبحانه حينما يقول: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (٧٤)﴾{النساء} فهذا يدلُّنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأنْ يقاتل الرجل حميّة ، أو ليُعلم مكانه من الشجاعة ، فقتال الرجل دائماً حَسْب نيته.

ولذلك، تساءل بعض الناس : مَنِ الشهيد؟ قال العلماء: هو من قاتل

لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيداً . إذن : فالقتال يكون مرة فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان.

فكلمة «الجهاد فى سبيل الله» تُخصِّص لوناً من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حَمِيّةً أو دفاعاً عن جنسيته ، أو أى انتماء آخر ، كل هذه الانتماءات فى عُرْف الدين لا قيمةَ لها ، إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج الله ، لتكون كلمة الله هى العليا.

وعندما سُئل رسول الله ﷺ عن أفضل القتال ، فيما جاء عن أبى موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكْر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمَنْ فى سبيل الله ؟

قال: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[1].

ولذلك يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)** ﴾ [التوبة]

فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة فى مجتمعك كمقاتل، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك بالخُلُق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هى العليا.

وهنا تكون معية الله لك ، فالحق سبحانه هو خالق النفس البشرية ، وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها ، وكيف تعانى النفس من كَرْب عظيم ، خصوصاً إذا كان ذلك فى ميدان القتال؟

ولذلك طلب من المؤمنين أنْ يتذكّروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم فى

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨١٠)، وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه .

المعركة ، وأنه سبحانه وتعالى معهم ، فليذكروا هذا كثيراً ليوالى نصرهم على عدوهم ، لأنهم إذا ما داوموا على ذِكْر الله تعالى فسيقوى هذا الذكْر إيمانهم ، ويجعل فى قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر .

وذِكْر الحق سبحانه كلمة (كثيراً) هنا يعنى أن الإنسان قد يذكر الله عند اليأسِ فقط ، فإنْ جاءت الحياة بعد ذلك بالرخاء فقد ينسى ذِكْر الله .

لذلك يؤكد ـ سبحانه وتعالى ـ هنا أن يكون ذِكْر الله كثيراً ، ليوالى الله نَصْر المؤمن على عدوه، ومثال ذلك : أننا نجده ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يستحضر الخَلْق المؤمنين للصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

يطلب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك من المؤمنين ، وهو العليم بأنهم يداومون الولاء له سبحانه كل يوم خمس مرات ، ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى ، ويُنبهنا أن نداوم على ذكْره ، فكأنه يقول : إياكم أنْ تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذِكْر الله ، أو تعتقدوا أن ذِكْر الله فى المسجد أو وقت الصلاة فقط ، بل داوموا على ذِكْر الله فى كل أحداث الحياة ، فإنْ فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً ، فستكونون من المفلحين.

وذِكْر الله كثيراً معناه أنك تشعر فى كل لحظة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ معك ، فتخشاه وتحمده وتستعين به ، وهكذا تكون الصِّلَةُ دائمة بينك وبين الله عَزَّ وجَلَّ فى كل وقت.

والحق سبحانه يعقد صفقة مع المؤمنين المجاهدين ، فيقول تعالى :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (١١١) ﴾ [التوبة]

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق سبحانه مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرَّف به على الصفقات المربحة ، فكلٌّ منّا فى حياته يحب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه.

ولذلك يقول فى آية أخرى:

﴿ **يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ** (٢٩) ﴾ [فاطر]

هنا أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أنْ تقارن الشىء الذى تعطيه بالشىء الذى تأخذه ، ثم افرق بينهما، ما الذى يجب أنْ يضحى به فى سبيل الآخر؟

والحق سبحانه وتعالى قد وصف الحياة بأنها «الدنيا» ولايوجد وَصْف أدنى من هذا، فأوضح المسألة : إنك ستعطى الدنيا وتأخذ الآخرة ، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة ـ إذن ـ رابحة ، فالدنيا مهما طالتْ فإلى نهاية ، ولا تقُلْ كم عمر الدنيا، لأنه لايعنيك أن يكون عمر الدنيا ألفَ قرن، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد: هو مقدار حياته فيها ، وإلا فإنْ دامت لغيرى فما نفعى أنا ؟

إذن: فقيمة الدنيا هى مقدار عمرك فيها ، ومقدار عمرك فيها مظنون ، فعمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو مقدار حياته فيها ، فلا تقارنها بوجودها

معك أنت ، وهَبْ أنه متيقن ، ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال، ستجد أن تنعُّمك خلالها مهما كَبُر وعَظُم فهو محدود.

فإنْ قارنتَ المحدود بغير المحدود ستجد الغَلَبة للآخرة ؛ لأنها مُتيقنة والنعيم فيها على قَدْر سعة فَضْل الله وقدرته ، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة ، فتكون هذه هى الصفقة الرابحة التى لا تبور .

ولماذا يُدخِل الله العبدَ فى عملية البيع هذه ؟ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قبل أنْ يعرض عليك الصفقة لتدخل فى عملية البيع التى تجهدك إنْ لم تقتل أو تُقتل فى سبيل الله ، لابُدَّ أنْ يوضح لك كيفية الغاية التى تأخذ بها الفوز فى الآخرة ، ولن نأخذ هذا الفوز بالكلام فقط.

ولكن انظر إلى المنهج الذى ستقاتل من أجله ، إنه تأسيس المجتمع الذى يؤدى كل امرىء فيه الأمانة ، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا مَنْ يريد أن يأخذ عرق الناس ويبنى جسمه من كَدِّهم وتعبهم ، وهات مجتمعاً لا يؤمن بالله وقُلْ: يأيها الناس نريد أن يؤدى كل واحد منكم الأمانة التى عنده ، نريد أن نحكم بالعدل ، فسيفرح أهل هذا المجتمع.

إذن : فلكى نحمى المجتمع لا بُدَّ أن نؤدى الأمانة، وأن نقيم العدالة، ومن قبل ذلك أُمرنا أن نعبد إلهاً واحداً فلا نتشتت ، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين.

قُلْ لى بالله عليك ، لو لم يكن هذا ديناً من السماء ، وكان تشريعاً من أهل الأرض ، أهناك أعدَلُ من هذا؟

إن مِثْل هذا المنهج الذى يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان

عن تطبيقه ، وقبل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه : هذا هو المجتمع الذى ستقاتلون من أجله.

واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال ، أقصى ما فيها أن تُقتل ، فستأخذ صفقة الآخرة ، وقصرت مسافة غاياتك ؛ لأن كل شىء إنما يُقاس بزمن الغاية له ، فإنْ قُتلْت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية ، فتصل إلى الجنة.

والحُمْق هو الذى يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون فى الحزن ، نقول لهم : ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية ، فلماذا الغرق فى الحزن إذن؟

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يكافىء مَنْ يُقتل فى سبيل الله بحياة فى عالم الغيب ، وفيها رزق أيضاً.

يقول تعالى : ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة]

فالله ـ تبارك وتعالى ـ أراد أن يفهم المؤمنون أن الذى يُقتل فى سبيل الله لا يموت ، وإنما يعطيه الله لَوْناً جديداً من الحياة ، فيه من النعم ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى ، فهو حَيٌّ عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة ، ولا يكتب عليه الموت فى حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيداً ؛ ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها ، لأنها من حياة الآخرة ، وهى غيب عنا قال تبارك وتعالى :

﴿**وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة]

وما دُمْنَا لا نشعر بها فلا بُدَّ أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية.

فالحق - جَلَّ جلاله - يعطى الشهداء حياةً دائمة خالدة ؛ لأنهم ماتوا فى سبيله ، ومادام قال تعالى :﴿**لاَّ تَشْعُرُونَ** (١٥٤)﴾ [البقرة] فلا تحاول أنْ تدركها بشعورك وحسِّك ؛ لأنك لن تدركها ، على أن الشهيد لا بُدَّ أنْ يُقتل فى سبيل الله ، وليس لأىِّ غرض دنيوى ، وإنما لتكون كلمة الله هى العليا.

وفى آية أخرى يقول سبحانه:

﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** (١٦٩)﴾ [آل عمران]

فأنتم تخافون الموت، ولكن هؤلاء الذين قُتلوا فى سبيل الله ليسوا بميتين ؛ لأن حياتهم حياة موصولة: إن هناك فارقاً كبيراً بين الموت والشهادة ، فالذى يُقْتَل شهيداً تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم أىْ بقانونه سبحانه ، فلا تُحكِّم قانونك أنت ، فأنت - كما قلت - لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القَتْلَى مجرد أشلاء ، هم عندك أشلاءٌ وأموات فى قانونك أنت ، لكنهم أحياء عند ربهم يُرزقون.

فالحياة تختلف عن الموت فى ماذا ؟

إن الإنسان إذا زهقتْ روحه وفارقتْ جسده انقطعتْ حياته ، فى ظاهر الأمر انتهى ولم يَعُد ينتفع برزق ولا بأكل ؛ لأن الرزق جُعِل لاستبقاء الحياة ، وما دام الرزق قد صُنِع لاستبقاء الحياة وليس فيه حياة إذن: فلا رِزْقِ ، لكن الله سبحانه يريد أنْ يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حَىٌّ.

ومن ضروريات الحياة أنه يُرزق ، أى : ينتفع باستبقاء الحياة ، وعلينا أن نفهم أن العِنْدية عندك غير العِنْدية عند الله ، فالشهيد حَىٌّ عند ربه ويُرزق عند ربه رِزْقاً يناسب الحياة التى أرادها له ربه.

ونعلم أن الرزق هو الخاصية التي تُوجَد للأحياء.

وعندما نقرأ قول الله :﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

قد يقـول قائل: من الجائز أنك تـأخذ إنساناً وتُبـقيه حَـياً وتعطيه طعـاماً وشراباً ، لكن ، أهـو فَرِح بموقعـه؟ لا ، لذلك يجب أنْ ندرك ونعرف أن حـياة الشهيد ليست فى قبره ولكنها عند ربه ، وهو فرِح بموقعه لذلك.

ولذلك يُقـال: احرص على الموت تُوهَب لك الحياة ؛ لذلك كـان الفرار يوم الزحف كبيـرة من الكبائر ؛ لأن الفرار يصنع خللاً فى المجـتمع الإيمانى ، لأن معنى الزحف أن أعـداء الإسلام أغاروا علينا ، وما داموا قـد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثُغْـرة من ثغور الإسلام ، حتى لا يمـكّن أعداء الإسلام من ديار الإسلام ، ولتـظل كلمة الله هى العليـا ، ففرار المسلـم يعطى أُسْوة على ضَعْف الإيمان فى النفس.

لذلك ؛ لا تغترُّوا بأن هذا صار مؤمناً ، وذاك صار مؤمناً ، فلو كان مؤمناً حقاً ووثق بـالغاية فهو لا يهـاب القتال ، لأنه إنْ قُتِل صـار شهيداً ومُـبشَّراً من الله بكذا وكذا.

لذلك ، فالفرار فى يوم الزحف يعطى أُسْوة سـيئة ليس فى الحرب فقط، بل سيعطى شيوع خلخلة إيمانية فى النفس البشرية.

والحق ـ سبحانه وتعـالى ـ أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب فى أحد أمرين كلاهما حَسَن : النصر أو الشهادة ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ (٥٢) ﴾ [التوبة]

فالذى يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين : إما أنْ يُقتل من الأعداء، وإما أنْ ينتصـر، وهذه هى القضية الجـدلية التى تنشأ بيـن معسكر الإيمان ومـعسكر

الكفر ، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر : أنا أقاتل لإحدى الحسنيين:

ـ إما أن أُقتل فأصبح شهيداً آخذ حياةً أفضل من هذه الحياة.

ـ وإما أنْ أنتصر عليك.

فماذا تتربّصون بنا أيها الكفار ؟

إن المؤمن يثق أنه فائز بكل شيء ، فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم ، وإما أن ينتصر ، والحالتان على سواء من الخير.

وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين، فماذا سيحدث لكم من جنود الكفر؟ إما أن تستشهدوا فتدخلوا الجنة، وإما أن تنتصروا.

ولذلك قال تعالى : ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ...(١٣)﴾ [التوبة]

هذا استفهام استنكارى معناه: ما كان يصح أبداً أن تخشوهم وتخافوهم ؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلّبوا عليكم فُزْتم بالشهادة ، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فُزْتم بالنصر.

وكلاهما أمر جميل مُحبَّب لنفوس المؤمنين بالله يُحدِث تثبيتاً لقلوبهم وأقدامهم فى مواقف القتال والنِّزَال.

ثم يأتى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بالحكم النهائى، فيقول:

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [التوبة]

أى : راجعوا إيمانكم، فإنْ كنتم مؤمنين بالله فأنتم راغبون فى الشهادة ، وإنْ كنتم مؤمنين بالله القادر القوى القهار فأنتم تعرفون الله وقدرته وقوته، وهى لا تُقارن بالقوة البشرية ، فإما أنْ تنتصروا عليهم ، فتكون لكم فرحة النصر ، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنة ، وكلتا النتيجتين خير.

[illegible]

٤٨ فِيمَا ضَيَّعْتَ حُقُوقَ النَّاس

قال رسول الله ﷺ فى الحديث القدسى فيما يرويه عن رب العزة سبحانه:

«يَدْعُو اللهُ بِصَاحِبِ الدَّيْنِ يَوْمَ القِيامَةِ ، حتَّى يُوقَفَ بيْنَ يدَيْه ، فيُقَالُ:

يا ابْنَ آدمَ فِيمَا أخَذْتَ هَذَا الدينَ؟ وفيما ضَيَّعْتَ حُقُوقَ النَّاس؟

فيقول : يَاربِّ ، إنكَ تعلَمُ أنِّي أَخَذتُه فَلَمْ آكُلْ ، ولم أَشْرَبْ ، ولم أَلْبَسْ ، ولم أُضيِّع ، ولكنْ أتَى على يَدِي إمَّا حرق ، وإمَّا سَرَق ، وإما وَضِيعةَ.

فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: صدَقَ عَبْدِي ، أنَا أحقُّ منْ قَضَى عنْكَ اليَوْمَ ، فيدعُو اللهُ بشيءٍ ، فيضعُه في كِفَّةِ ميزانِه ، فَتَرْجُحُ حَسَنَاتُه عَلَى سيئاته ، فيدخلُ الجنةَ بفضْلِ رَحْمتِه»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/ ١٩٨) من حديث عبدالرحمن بن أبى بكر رضي الله عنهما . وكذا أخرجه (١/ ١٩٧) ولكن بلفظ: «إن الله عزوجل ليدعو بصاحب الدين يوم القيامة فيقيمه بين يديه فيقول : أى عبدى ، فيم أذهبتَ مال الناس فيقول : أى رب قد علمت أنى لم أفسده ، إنما ذهب فى غرق أو حرق أو سرقة أو وضيعة فيدعو الله عزوجل بشىء فيضعه فى ميزانه فترجح حسناته».

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُقَدِّر حركة الإنسان وعرقه ، مادام قد ضرب في الأرض وسَعَى فيها ، فالمال مال الإنسان ، ولكن أخا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ، ويعتبر سبحانه هذا قَرْضاً من الإنسان لله.

ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبنائه : بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعْط أخاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضاً عندى ، صحيح أن العائل هو الذى أعطى المال لكل مَنْ يعول : فما بالنا بالذى أوجدنا جميعاً ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟

لقد وهب كلاً منَّا ثمرة عمله ، واعتبر تلك الثمرة مِلْكاً لصاحبها ، ويعتبر فوق ذلك إقراضَ المحتاج إقراضاً له.

والحق سبحانه يحمى المقترض من نفسه ، فيقول تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا(٢٨٢)﴾ [البقرة]

فالله ـ تبارك وتعالى ـ يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا عَلِم أن الدَّيْن مكتوب يحاول جاهداً أنْ يتحرك فى الحياة ليسدَّ هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً.

فعندما يُكتب القرض فهذا أمر دافع للسداد وحَاثٌّ عليه ، لكن إنْ لم يُكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض ، ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتدَّ له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أىِّ أزمة ، فيريد الحق أنْ يُديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة.

ولذلك يقال فى الأمثال العامية : مَنْ يأخذ ويعطى يصير المال ماله ، ويكون مال الدنيا كلها معه.

إنه يقترض ويُسدِّد ؛ لذلك يثق فيه كل الناس ، ويرونَه أميناً ، ويرونه مُجداً ، ويرونَه مخلصاً ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى ، فكل المال يصبح ماله.

إنه تشريع سماوى ، فلا تأخذ أحداً الأريحيةُ ، فيقول لصاحبه : نحن أصحاب أو أصدقاء ، فقد يموت واحد منكما ، فإنْ لم تكتب الدَّيْن حرجاً ، فماذا يفعل الأبناء ، أو الأرامل ، أو الورثة ؟

إذن : فإلزام الحق بكتابة الديْن هو تنفيذ لأمر من الله يحقق رَفْع الحرج بين الأحبّاء ، ويظن كثير من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن. لا ، إن المقصود بذلك هو حماية المدين ؛ لأن المدين إنْ علم أن الدَّيْن عليه مُوثَّق حرص أن يعمل ليؤدى دَيْنه.

أما إذا كان الدَّيْن غير مُوثَّق ، فمن الجائز أنْ يكسل عن العمل وعن سداد الدين ، وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضنّ المجتمع الغنى على المجتمع الفقير فلا يُقْرضه ، ويأخذون عجزَ ذلك الإنسان عن السداد ذريعةً لذلك ، ويقع هذا الإنسان الذى لم يُؤدِّ دَيْنه فى دائرة تحمُّل الوِزْر المضاعف ؛ لأنه ضيَّق باب القرض الحسن.

إن الله يريد أنْ يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند مَنْ لا يملك ؛ لأن مَنْ يملك يستطيع أن يُسيّر حياته ، أما مَنْ لا يملك فهو المحتاج.

لذلك أخذتْ قضية الدين اهتمام الإسلام ليحمى الدائن والمدين معاً ، كى لا تقف حركة التعامل بين الناس ، ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أنْ تسلك طريقها فى عالم الوُدِّ والإخاء المؤمن ، فإنْ كان لك قريب أو إنسان لك به صِلَة ، وأنت تأمنه على ما اقترض منك.

يقول لك الحق سبحانه: ﴿ **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ...** (٢٨٣) ﴾ {البقرة}

وبهذا القول يُشْعِر مَنْ يحمل أمانةً من الغير بالخجل ، فيعمل على ردِّها وقد يكون الإنسان مسافراً واضطر إلى أنْ يستدين ، ولا يوجد كاتب ولا شهيد ، فماذا يكون الموقف ؟

ها هو ذا الحق يوضح لك ﴿ **وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ...** (٢٨٣) ﴾ {البقرة} إذن: فلم يترك الله مسألة الدَّيْن حتى فى السفر فلم يشرع فقط للإقامة ، ولكن الحق قد شرع أيضاً للسفر.

والشهادة فى الإقامة والرهان المقبوضة فى السفر هدفها حماية الإنسان أمام ظروف ضغط المجتمع.

ولكن ، هل يمنع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ طموحية الإيثار ؟ هل يمنع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ رجولية التعامل ؟ هل يمنع الحق سبحانه وتعالى المروءات من أنْ تتغلغل فى الناس؟

لا ، إن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ..** (٢٨٣) ﴾ {البقرة}

إنه الطموح الإيمانى ، لم يسدّ الله مسألة المروءة والإيثار فى التعامل.

وحين نرتقى إلى هذا المستوى فى التعامل فإن وازع الإنسان ليس فى التوثيق الخارج عن ذات النفس ، ولكنه التوثيق الإيمانى بالنفس ، ولكن أنضمن أن يوجد التوثيق الإيمانى عند كل الناس؟

أنضمن الظروف؟ نحن لا نضمن الظروف ، فقد توجد الأمانة الإيمانية

وقت التحمل والأخذ ، ولا نضمن أن توجد الأمانة الإيمانية وقت الأداء ، فقد يأتى واحد ويقول لك : إن عندى مائة جنيه فخذها أمانة عندك.

ومعنى «أمانة» أنه لا يوجد صَكٌّ ولا شهود ، وتكون الذمة هى الحكم ، فإنْ شئتَ أقررتَ بهذه الجنيهات المائة ، وإنْ شئت أنكرتها ، إن الرجل الذى يفعل معك ذلك إنما يطلب منك توثيق المائة جنيه فى الذمة الإيمانية.

ومن الجائز أن تقول له لحظة أن يفعل معك ذلك: نعم سأحتفظ لك بالمائة جنيه بمنتهى الأمانة ، وتكون نيتك أن تُؤدّيها له ساعة أنْ يطلبها ، ولكنك لا تضمن ظروف الحياة بالنسبة لك ، وأنت كإنسان من الأغيار ، ومن الجائز أن تضغط عليك الحياة ضغطاً يجعلك تماطل معه فى أداء الأمانة ، أو يجعلك تنكرها.

والأمانة هى القضية العامة فى الكون ، وقد عرضها الحق سبحانه بعمومها على الكون كله ، فقال سبحانه :

﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** (٧٢)﴾ {الأحزاب}

إن الكون كله أشفق على نفسه من تحمُّل الأمانة ، وهذا يعنى أن الأمانة سوف تكون عُرْضة للتصرّف والاختيار ، ولا كائن فى الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء.

لقد أعلنت الكائنات قولها فأبيْنَ تحمُّلها الأمانة وكأنها قالت: إنّا يا ربنا نريد أن نكون مُسخَّرين مقهورين لا اختيارَ لنا ؛ ولذلك نجد الكون كله يؤدى مهمته كما أرادها الله ما عدا الإنسان . أى : أنه الذى قَبل بما له من عقل وتفكير أن يتحمَّل أمانة الاختيار . وبلسان حاله أو بلسان مقاله قال: إننى قادر على تحمُّل الأمانة ؛ لأنى أستطيع الاختيار بين البدائل.

وهنا نُذكِّر الإنسان : إنك قد تكون قوياً لحظة التحمُّل ، ولكن ماذا عن

حـالك وقت الأداء؟ لذلك قـال الله عن الإنسـان: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

لقد ظلم الإنسـان نفسـه حيث حمل الأمـانة ولم يَفِ بها ؛ فلذلك فـهو ظلوم ، وهو جـهـول لأنه قـدَّر وقت التـحـمُّل ، ولـم يُقـدِّر وقت الأداء ، أو ضمنها ثم خاس وخالف ما عاهد نفسه على أدائها.

ومعنى الأمانة هو: ما يكون لغيرك عندك من حقوق ، وأنت أمين عليها. إنْ شئت فـعلتهـا ، وإنْ شئت لم تفـعلها ، أنت تقول : أنت أودعـتَ عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة ؛ لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة.

فالأمانة أن تُودِع عنده شـيئاً ، وضمـيـره هو الحكم ، إنْ شاء أقرَّ بما عنده لك حـين تطلبـه ، وإنْ شـاء لم يُقـر به ، وقـد يقع التـلاعب أو الإنكار ، لأن الأمانة لا تثبت إلا بذمة الآخذ الذى قـد يضعف عن الأداء ، وتلجئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار ، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال.

ولذلك نجد رسول الله ﷺ وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وهو عليه دين ، فقال للصحابة: صلوا على أخيكم أما هو فلم يُصَلِّ على الميت ، وتيسـاءل الناس: لماذا لـم يُصَلِّ رسـول الله على هذا الميت؟ ومـا ذنبه؟

كـأن رسول الله ﷺ أراد أن يُعلم المؤمنيـن عن دَيْن المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنـه لـم يُصَلِّ عليه حَفْـزاً للناس ودَفْعـاً لهم إلى أنْ يبرئوا ذمـتهم بسداد وأداء ما عليهم من دَيْن.

فـقال رسـول الله ﷺ : «مَنْ أخـذ أمـوال الناس يريد أداءها أدى الله

عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»(١).

فمـا دام قد مـات وهو مدين ، وليس عنده مـا يسدّ الدَّيْن ، فـربما كان لا ينوى رَدّ الدَّيْن ، وأن نفسه قد حدَّثته بألاَّ يردّ الدَّيْن.

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أنْ يتـجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهْن الذى أقـرض أن فلاناً مدين ، بل وقـد تبلغ الحسـاسـية بالذى قـدَّم القرض ألاّ يمـرّ على المقـترض حـتى لا يحرجه.

ونثق أن الله قد قـذف هذا الخاطر فى نفس المقرض لأن المقـترض يريد أن يسـدد القـرض ، أمـا إنْ تحـرك قلب الدائن على المدين ، وجـلس يفكر فى قيـمة الدين ، فليُفـهم أن عند الذى اقترض بعض مـا يُسدِّد به الدَّيْن ، أى: أن المدين عنده القـدرة على الوفاء بـالدَّيْن أو ببعـضه ، ذلك أن الله لا يحـرج مَنْ يجدّ ويجتهد فى السعى لسداد دَيْنه.

وهناك مَنْ هو مـعذور بحق ومـعذور ببـاطل ، فالمعـذور بحق هو الذى يحاول جـاهداً أنْ يُسدِّد دينْه ، ولكن الظروف تقف أمامـه وتحول دون ذلك ، أما المعـذور بباطل فيـجد عنده ما يسـدُّ دَيْنه ، ولكنه يماطل فى السـداد ويبقى المال ينتفع به وهو بهذا ظالم.

ولذلك جـرِّب نفسك ، سـتجـد أن كل دَيْن يشـتغل به قلبك فـاعلم أن صاحبه قادر على السداد ولم يسدد ، وكل دَين كان بَرْداً وسلاماً على قلبك ، فاعلم أن صاحبه معذور بحق ولا يقدر أنْ يُسدِّد ، وربما استحييت أنت أنْ تمرَّ

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤١٧،٣٦١) والبخارى فى صحيحه(٢٣٨٧) وكذا ابن ماجه فى سننه (١/ ٢٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

عليه مخافة أنْ تحرجه بمجرد رؤيتك.

وهؤلاء لا يطول بهم الدَّين طويلاً ؛ لأن الرسول ﷺ حكم فى هذه القضية حكماً ، فقال ﷺ : «مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله».

فما دام ساعة أخذها فى نيته أن يؤدى فإن الله ييسر له سبيل الأداء ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها ، فالله لا ييسر له أنْ يُسدِّد ؛ لأنه لا يقدر على ترك المال يسدد به دينه.

ونحن نرى فى حياتنا الذين يأخذون أموال الناس بغير حق ؛ نرى مصارف هذه الأشياء قد ذهبت وأنفقت فى مهالك ومصائب ، إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام ، ومالتْ وجارت على ما كسبوه من حلال.

وأريد من المسرفين على أنفسهم أنْ يضعوا لأنفسهم كشف حساب فيكتبوا فى ناحية القرش الذى كسبوه من حرام ، ويكتبوا من ناحية أخرى كل قرش كسبوه من حلال ، وليشاهد كل مسرف على نفسه فى أكْل حقوق الناس المصائب التى سيبتليه الله بها ، وسيجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضاً من الحلال.

ولذلك قيل :«من أصاب مالاً من مهاوش،(١) أذهبه الله فى نهابر(٢)»(٣)

وكذلك فى المقابل : مَنْ صدق الناس ووفّى لهم فى بيعه وشرائه

(١) المهاوش: مكاسب السوء، فهو كل مال يُصاب من غير حلِّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك. [لسان العرب ـ مادة: هوش].

(٢) النهابر: المهالك. أي: أذهبه الله فى مهالك وأمور متبددة [اللسان ـ مادة ـ نهبر].

(٣) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٢/ ٣١٣) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له. قال التقى السبكي: لا يصح.

وتعاملاته يسَّر الله له مَنْ يُوفِّى له ويصدق معه.

وقد نهى الحق سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل ، فقال تعالى :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...(٢٩)﴾ [النساء]

فالحق سبحانه يتكلم عن المال ، وهو الذى يقيم الحياة ، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتموّل يعتبر مالاً ، ومن حَظِّ المجتمع أن نصون حركة الحياة ، ونُؤمِّن كل متحرك فى الحياة على ماله ، فلا بُدَّ أن نرعى حركة المتحرك ونُنميها ؛ لأن المجتمع ينتفع منها.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يأتى لمسائل المال ويُوضِّحها توضيحاً تاماً ليحمى حركة الحياة ، ويُغرى الناس بالحركة ، وبذلك يتعدّد المتحركون وتتعدد الحركات ، ويستفيد المجتمع.

وهذا أمر لجماعة المؤمنين كلهم ، فالأوامر من الحق ليست مُوجَّهة لطائفة دون غيرها ، فليست هناك طائفة خُلقت على أن تكون آكلة ، وطائفة خُلقت على أن تكون مأكولة ، بل كل واحد عُرْضة فى مرة أن يكون آكلاً لمال غيره ، ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً.

فأنا إذا أكلتُ مال غيرى فسوف يأكل غيرى مالى ، فأكون قد جسدت له أسوة يقتدى بها ، فيأكل مالى أيضاً ، فكأنه سبحانه عندما يقول لك: لا تأكل مال غيرك ، إنما ليحمى لك مالك.

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يصنع من المجتمع الإيمانى مجتمعاً واحداً ، ويقول : إن المال الذى عند كل واحد هو للكل ، وأنك إنْ حافظت على مال غيرك حافظ غيرك على مالك ، وأنت إنِ اجترأتَ على مال غيرك فسيجترىء المجموع على مالك ، وأنت ساعةَ تأكل مال واحد تُجرِّىء آلاف

الناس على أن يأكلوا مالك ، وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك.

وكيف يتأتَّى أكْل أموال الناس بالباطل؟ هذا هو الآخذ بالربا ، أو الآخذ بالسرقة ، أو بالاختلاس ، أو بالرشوة ، أو بالغش فى السلع ، كل ذلك هو أكْل مال بالباطل ، وساعة تريد أن تأكل مالاً بالباطل ، كأنك تريد أن تتمتع بثمرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعوَّد على التمتع بثمرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ، ويصير أخْذك من غيرك ، أخْذاً لماله كرهاً وبغير وجه حق.

وبذلك تتعطّل حركة مُتحرِّك فى الحياة ، وهو ذلك العاطل «البلطجى» ، ويخاف المتحرك فى الحياة وهو مَنْ تُفْرض عليه الإتاوة فيقلّ ويضعف نشاطه فى الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع؟ إن المجتمع فى هذه الحالة سيعانى من كرب وصعوبات فى الحياة.

فقوله سبحانه : ﴿ **لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...** (٢٩) ﴾ [النساء]

هو أمر لكل مسلم: لا تُرَابِ ، ولا تسرق ، ولا تغشّ ، ولا تُدلِّس ، ولا تلعب مَيْسِراً ، ولا تختلس ، ولا ترتشِ؛ لأن كل هذه الأمور هى أكْل أموالٍ بالباطل.

الحق قال لك: لا تأخذ مال غيرك لكى لايأخذ غيرك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، فحين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة ، فهو أمر للناس جميعاً كى يكفُّوا عن سرقة هذا الإنسان ؟ لذلك فحين تستقبل أىَّ حكم عن الله لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين.

إن الله يريد أن تكون حركة حياتنا نظيفة شريفة ، حركة كريمة فلا

يدخل في بطنك إلا ما عرقت من أجله ، ويأخذ كل إنسان حقه ، وقبل أن يفكر الإنسان في أن يأكل عليه أن يتحرك ليأكل ، لا أنْ ينتظر ثمرة حركة الآخرين ؟ لماذا.

إن الحق يريد للإنسان أنْ يتحرك ليُشبِع حاجته من طعام وشراب ومأوى ، وبذلك تستمر دورة الحياة ، إنه سبحانه يريد أن يضمن لنا شرف الحركة في الحياة ، بمعنى أن تكون لك حركة في كل شيء تنتفع به ؛ لأن حركتك لن يقتصر نفعُها عليك ، ولكنها سلسلة متدافعة من الحركات المختلفة.

وحين تشيع أنت شرف الحركة ، فالكل سيتحرك نحو هذا الشرف ، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك ، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تشيع الفوضى في الكون.

وعلى هذا ، فالحركة الحلال لا يكفي فيها أن تتحرك فقط ، ولكن يجب أن تنظر إلى شرف الحركة بألا تكون في الباطل ؛ لأن الذي يسرق إنما يتحرك في سرقته ، ولكن حركته في غير شرف وهي حركة حرام.

إذن : كل مسروق في الوجود نتيجة حركة باطلة ، وكذلك الغصب ، والتدليس ، والغشّ ، وعدم الأمانة في العمل ، والخيانة في الوديعة، وإنكار الأمانة ، كل ذلك باطل ، وكل حركة في غير ما شرع الله باطلة ، حتى المعونة على حركة في غير ما شرع الله ، كُلُّ ذلك باطل.

إذن: فقولُ الله ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...** (١٨٨)﴾[البقرة] تنبيه للناس ألاّ يُدخلوا في بطونهم وبطون مَنْ يعولون إلا مالاً من حَقٍّ ، ومالاً بحركة شريفة ، نظيفة ، وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** (٢) **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** (٣) ﴾ [الطلاق]

ولنا أن نعرف أن مَنْ أكل بباطل جاع بحقٍّ . أي : أن الله يبتليه بمرض

يجعله لا يأكل من الحلال الطيب ، فتجد إنساناً يمتلك أموالاً ، ويستطيع أنْ يأكل من كل ما فى الكون من مَطْعم ومَشْرب ، ولكن الأطباء يُحرّمون عليه الأكل من أطعمة متعددة ؛ لأن أَكْلها وبال وخطر على صحته ، وتكون النعمة أمامه ومِلْك يديه ، ولكنه لايستطيع أن يأكل منها .

وفى الوقت نفسه ، يتمتّع بالنعمة أولاده وخدمه وحاشيته وكل مَنْ يعولهم ، مثل هذا الإنسان نقول له: لا بُدَّ أنك أخذتَ شيئاً بالباطل ، فحرمك الله من الحق.

ومن هنا نقول : «مَنْ أكل بباطل جاع بحق» ، وكذلك نقول «مَن استغلّ وسيلة فى باطل أراه الله قبحها بحق» ، فالذى ظلم الناس بقوته وبعضلاته المفتولة لابُدَّ أن يأتى عليه يوم يصبح ضعيفاً.

والمرأة التى تهزّ وسطها برشاقة لابُدَّ أن يأتى عليها يوم يتيبس وسطها ، فلا تصبح قادرة على الحركة ، والتى تخايل الناس بجمال عيونها فى اليمين والشمال لابُدَّ أن يأتيها يوم وتعمى فلا ترى أحداً ، وينفر الناس من دمامتها.

وقد وصف الحق سبحانه أكل الحرام أنه سُحْت ، وهو كل شى تأخذه من غير طريق الحلال ، كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف ، وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سُحْت .

قال تعالى عن بنى إسرائيل أنهم : ﴿**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ...** (٤٢)﴾ [المائدة]

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها:

﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا**

اكْتَسَبَتْ...﴿٢٨٦﴾ [البقرة] ، فالحق سبحانه لم يكلفنا إلا بما هو فى وُسْعنا وطاقتنا.

أى: أن الله لن يُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به ، وعندما نقول : «واعف عنا» فنحن نتوجه إلى الله ضارعين : أنت يا حق تعلم أننا مهما أوتينا من اليقظة الإيمانية والحرص الورعى فلن نستطيع أن نؤدى حقك كاملاً ؛ ولذلك لا ندخل عليك إلا من باب أن تعفو عنا.

ومعنى العفو محو الأثر ، كالسائر فى الصحراء تترك قدماه علامة وتأتى الريح لتزيل هذا الأثر ، كأن هناك ذنباً والذنب له أثر ، وأنت تطلب من الله أن يمحو الذنب.

٤٩ يَا عَبْدِي .. تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ

عن جابر بن عبد الله قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال: يا جابر ، مَا لِي أَراكَ مُنكَسِرًا ؟

قُلْتُ : يا رسُولَ اللهِ ، استُشْهِدَ أَبِي ، قُتِل يوْم أُحُدٍ، وترَكَ عِيَالاً ودَيْناً.

قال : أَفَلا أُبشِّرُكَ بما لَقِيَ اللهُ بِهِ أَباكَ؟ قُلْتُ: بلَى يا رسُولَ اللهِ .

قال: ما كلَّم اللهُ أَحداً قطُّ ، إلاّ منْ وراءِ حِجَابٍ ، وأحيَا أبَاكَ ، فكلَّمه كِفاحاً (١) ، فقَالَ :

يَا عبْدِي ، تمَنَّ علَيَّ أُعطِكَ .

قال : يا ربِّ ، تُحْيِينى ، فأُقْتَلُ فِيكَ ثَانيةً.

قَالَ الربُّ عزَّ وجَلَّ : إنَّه قَدْ سَبَقَ مِنِّي أنهم لاَ يَرجِعُونَ.

قال : وأُنزلتْ هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ

---

(١) كفاحاً : أي مواجهة ، ليس بينهما حجاب ولا رسول . [لسان العرب ـ مادة: كفح]

اللَّهُ مِن فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾ {آل عمران}(١).

الشهادة فى سبيل الله هى أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أنْ يصلَ إليها فى الدنيا ، رغم أن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان ، فأنت تُصاب فى مالك ، أو فى ولدك ، أو فى رزقك ، أو فى صحتك ، أما أنْ تصاب فى نفسك فتُقتل ، فهذه هى المصيبة الكبرى.

وقد سَمَّى الحق سبحانه الموت مصيبة ، فقال تعالى :

﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ... (١٠٦)﴾ {المائدة}

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذى يُقتَل فى سبيل الله لا يموت ، وإنما يعطيه الله لَوْناً جديداً من الحياة ، فيه من النعم مَا لا يُعَدُّ ولا يُحْصى.

يقول جل جلاله: **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾** {البقرة}

ما هو مظهر الحياة التى يعيشونها؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذى قُتل فى سبيل الله ، ما هى حركته؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة ؛ لأنه سيذهب إلى حياة أسعد ، والموت ينقله إلى خير مما هو فيه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٣٦١) ، وابن ماجه فى سننه (١٩٠ ، ٢٨٠٠) والحاكم فى مستدركه (٢/ ١٢٠) (٣/ ٢٠٧) ، وابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١/ ٢٦٧) والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٢٩٨) ، وأورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/ ٣٢٨) .

فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئاً وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها ، أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمى لهم منهج الله ليصل إليهم ، إلى أنْ تقوم الساعة.

إن كل المعارك التى يستشهد فيها المؤمنون إنما هى سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان فى الوجود ، وعظمة الحياة ليست فى أنْ أتحرك أنا ، ولكن أنْ أجعل مَنْ بعدى يتحرك.

والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره فى الوجود لكل حركة من متحرك بعده ، فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيمانى دافعاً لتقاتل وتستشهد ، فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة.

أما الكافر فإن الحياة تنتهى عنده بالموت ، ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث اللهُ الناسَ جميعاً ، ثم يأتى بالموت فيموت ، وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا مَوْت ، إما فى الجنة وإما فى النار.

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريدنا أن نعلم أن مَنْ يُقتل فى سبيل الله هو حَىٌّ عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة ، ولا يُكتب عليه الموت فى حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل مَنْ يموت ميتة طبيعية ، ولا يموت شهيداً ؛ ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنّا تفاصيلها ؛ لأنها من حياة الآخرة ، وهى غَيْبٌ عنا.

قال تبارك وتعالى : ﴿وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤)﴾ [البقرة]

وما دُمْنَا لا نشعر بها ، فلا بُدَّ أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية ، والذى استُشهد فى عُرْف الناس سلب نفسه الحياة ، ولكنه فى عُرْف الله أخذ حياة جديدة ، ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو ، فنقول : إنه ميت أمامنا.

لا بُدَّ أن تتنبه أنك لحظةَ فتحتَ عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، والله سبحانه قال : ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ...(١٦٩)﴾[آل عمران].

ولم يقل : أحياء فى عالم الشهادة ، فهو حَىٌّ ما دام فى عالم الغيب ، ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسداً ميتاً فى قبره وليس حياً ، لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

أما كيف ؟ قُلْنَا: إن الغيب ليس فيه كيف ؛ لذلك لن تعرف ، وليس مطلوباً منك أن تعرف.

إننا حين نُجرى عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكى يفقده الوعى والحسّ ، ولكن لا يعطيه له ليموت ، ثم يبدأ يُجرى العملية فلا يشعر المريض بشىء من الألم ، فالمادة لا تحسّ لأنها هى التى أجريت عليها العملية ، والجسد لا زال فيه الحياة من نبض وتنفس ، ولكنه لا يحس ، ولكن النفس الواعية التى غابتْ هى التى تحسُّ بالألم.

أنت عندما يكون هناك ألم فى جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم ، فكأن الألمَ ليس مسألة عضوية ، ولكنه مرتبط بالوعى ، فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة ، والعلماء فحصوا مُخَّ الإنسان وهو نائم ، فوجدوا أنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوانٍ يرى فيها رُؤْيَا يظل يحكيها ساعات.

فإذا قال الحق ـ تبارك وتعالى:

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ...(١٦٩)﴾ [آل عمران]

فلا بُدَّ أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده.

والله عز وجل أراد أنْ يُقرِّب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم ،

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ...** (٤٢) ﴾ [الزمر]

فكأن الحق جل جلاله يعطى الشهداء حياةً دائمة خالدة لأنهم ماتوا فى سبيله ، وما دام الحق سبحانه قال : ﴿ **وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ** (١٥٤) ﴾ [البقرة] فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسِّك ؛ لأنك لن تدركها ، على أن الشهيد لا بُدَّ أنْ يُقتَل فى سبيل الله وليس لأىِّ غرض دنيوى ، وإنما لتكون كلمة الله هى العليا.

ويقول الحق سبحانه عن أولئك الذين قُتلوا فى سبيل الله ، فيقول تعالى : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** (١٦٩) ﴾ [آل عمران]

فهؤلاء الذين قُتلُوا فى سبيل الله ليسوا بميِّتين ؛ لأن حياتهم حياة موصولة ، إن هناك فارقاً كبيراً بين الموت والشهادة ، فالذى يُقتَل شهيداً تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم ، أى: بقانونه سبحانه ، فلا تُحكِّم قانونك أنت ، فأنت ـ كما قلت ـ لو فتحتَ القبر ستجد هؤلاء القَتْلى مجرد أشلاء ، هم عندك أشلاء وأموات فى قانونك أنت ، لكنهم أحياء عند ربهم يُرزَقُون.

فالحياة تختلف عن الموت فى ماذا؟

إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته ، فهو فى ظاهر الأمر انتهى ولم يَعُدْ ينتفع برزق ولا بأكل ؛ لأن الرزق جُعِل لاستبقاء الحياة ، وما دام الرزق قد صُنِع لاستبقاء الحياة ، وليس فيه حياة. إذن : فلا رزقَ ، لكن الله سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حَىٌّ.

ومن ضروريات الحياة أنه يُرزَق ، أى: ينتفع باستبقاء الحياة ، وعلينا أن نفهم أن العِنْدية عندك غير العِنْدية عند الله ، فالشهيد حيٌّ عند ربه ، ويُرزق عند ربه رزقاً يناسب الحياة التى أرادها له ربه ، ونعلم أن الرزق هو الخاصية التى توجد للأحياء.

وعندما نقرأ قول الله : ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾ [آل عمران]

قد يقول قائل: من الجائز أنك تأخذ إنساناً وتُبقيه حياً ، وتعطيه طعاماً وشراباً ، لكن أهو فَرِحٌ بموقعه؟ لا . لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست فى قبره ، ولكنها عند ربه وهو فرِح بموقعه.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)﴾ [آل عمران]

والعدل يتحقق بين البشر بأن كُلاً منهم يموت ، ولكن الفضل أن يُعجِّل الله انقضاء الحياة فى الدنيا لمن يحبهم بالاستشهاد ، وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (١٧٠)﴾ [آل عمران]

وليس هذا فقط ، بل إننا نجد الأُخوَّة الإيمانية قد بقيتْ فيهم وليست كخاصية الأحياء ، بل أنْقى وأبْقى من خاصية الأحياء ، فالخاصية الإيمانية تقتضى أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه.

والشهداء فى حياتهم عند ربهم كذلك ، مما يدلّ على أن الحياة التى يحياها الشهداء هى حياة نامية ، فيها رزق ومواجيد وفرح ، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضلٌ من الله قد فَضَّله به.

ولذلك ، فالشهيد يستبشر بالذى لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ، ويقول : ياليتهم يأتون ليروا ما نراه.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم...﴾ (١٧٠) [آل عمران]

فالشهداء يقولون: إنهم سيأتون لنا ، وما داموا سيأتون لنا فنحن نَحِنُّ أن يكونوا معنا فى النعيم والخير الذى نحيا فيه ، وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه ؛ لأنه يعلم قول الرسول ﷺ : «لايكملُ إيمانُ أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبه لنفسه» (١) .

وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ :«لما أصيب إخوانكم يوم أُحُد جعل الله أرواحهم فى أجواف طَيْر خُضْر ، تَرِدُ أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش .

فلما وجدوا طِيب مأكلهم ومَشْربهم وحُسْن فضلهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنَا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا يَنكُلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أُبلغهم عنكم (٢) فأنزل الله هذه الآيات : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) [آل عمران]

والحق سبحانه يقول :

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤) [النساء]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) كتاب الإيمان من حديث أنس رضى الله عنه بلفظ:«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٦٦) وأبو داود فى سننه (٢٥٢٠) ، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٨٨، ٢٩٧) والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٣٠٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما

لقد رأى رسول الله ﷺ الذين يقاتلون فى سبيل الله وعُرِض عليه منظرهم وهو فى ليلة الإسراء والمعراج ، رأى ﷺ جماعة يزرعون ويحصدون بعد البَذْر مباشرة ؛ لأن الذى قُتِل فى سبيل الله إنما فعل ذلك إعلاءً لكلمة الله ، فلا ينتهى قطفه أبداً للخير الذى بذله ، وحياة مستمرة فى حياة الملايين.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (١١١)﴾ [التوبة]

وكلمة (اشْتَرَى) تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع ، وإذا كان هذا ملْكاً لله ، فالله هو المشترى ، والله هو البائع.

وما الثمن؟ يأتى التحديد من الحق ﴿**بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**... (١١١)﴾ [التوبة].

هذا هو الثمن الذى لا يَفْنى ولا يَبْلَى ، ونعيمك فيها على قَدْر إمكانيات الله التى لا نهاية لها ، أما نعيمك فى حياتك فهو على قَدْر إمكانياتك أنت فى أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً.

وما دام سبحانه هو الذى اشترى فلا بُدَّ أن الثمن كبير ؛ لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها.

وحينما جاء الأنصار فى بيعة العقبة لرسول الله ﷺ قال له عبدالله ابن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . قال :«أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا: فما لَنَا إذا فعلنا ذلك؟

ماذا قال رسول الله ؟ أقال لهم : ستفتحون قصور بُصرى[1] والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

لم يقل ﷺ شيئاً من هذا ، بل قال «الجنة» ؛ لأن كل شيء في الدنيا تافه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا : «ربح البيع ، لا نقيلُ ولا نستقيل»[2] .

وبمجرد عَقْد الصفقة العَهدية بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار[3] كان من الممكن أنْ يموتَ واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أنْ يبلغ الإسلام حظّه وذِرْوته ، وقد يُقال : فلان مات ولم يأخذ شيئاً من ماديات الحياة ، لكنه ﷺ حين قال :«الجنة» فمن مات يدخلها.

﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ . . .﴿١١١﴾﴾[التوبة] هذا هو الثمن ، وهو وَعْد يأتى بشيء يأتى من بعد ، ولكنه وَعْد ممَّنْ يملك إنفاذه ؛ لأن الذى يقدح فى وعود الناس للناس ، أنك قد تَعِدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفي به ، أو أنْ تقلّ إمكاناتك عن التنفيذ.

ونحن نعرف قصة الصحابى الذى قال لرسول الله ﷺ : أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ ألْقَى هؤلاء فيقتلونى؟ قال له : نعم ، فأخرج الصحابى تمرة كانت فى فمه ، ودخل إلى القتال ، وكأنه يستعجل الجنة[4] .

وما دام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألاَّ تُهمه

---

(١) بُصْرى : قرية بالشام. (لسان العرب ـ مادة : بصر).

(٢) حينئذ نزلت هذه الآية ، وقد أورد سبب نزول هذه الآية السيوطى في أسباب النزول (ص ١٠١) طبعة دار الشعب ، وعزاه لابن جرير الطبري من مرسل محمد بن كعب القرظي ، وكذا أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩١) والقرطبى فى تفسيره (٤/ ٣١٩٣).

(٣) كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الأوس والخزرج منهم: سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة وأبو مسعود الأنصارى والبراء بن معرور وسعد بن عبادة ، والمرأتان هما: نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو.

(٤)وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أُحد فقال له: أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال : فى الجنة. فألقى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البخاري فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم فى صحيحه (١٨٩٩) من حديث جابر بن عبدالله.

نفسه ، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهمَّته نفسه يبدأ بالقلق والبلبلة والاضطراب وتوهُّم الأشياء.

والحق سبحانه ساعة يقول : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى...** (١١١)﴾[التوبة] تجد بشرة المؤمن تطفح بالسُّرور والبِشْر ، ويحدث له تهلُّل وإشراق مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة.

إذن : قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار؛ ولذلك يقول الحق: ﴿**فَاسْتَبْشِرُوا...** (١١١)﴾ [التوبة] أى : فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً.

﴿**فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ...** (١١١)﴾[التوبة] وهل يستبشر الإنسان بالبيع؟ نعم؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغنى عنه عادة ، ويشترى ما يحتاج إليه ، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن هنا يبيع فانياً بباقٍ.

﴿**وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (١١١)﴾[التوبة] والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة فى عُرْف العقل الواعى ، فهناك «فوز» ، وهناك «فوز عظيم» والفوز فى الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال. وهناك فوز أعظم من هذا ، أن تضمن أن النعمة التى تفوز بها لا تفارقك ، ولا أنت تفارقها ، فيكون هذا هو الفوز الذى لا فَوْزَ أعظم منه.

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** (٢٠)﴾ [التوبة]

فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى ، وهم المؤمنون المهاجرون والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، وما دام هؤلاء هم الفائزون فالفوز إنما يكون فى مضمارين اثنين ، فالذين يصنعون أموراً خاصة

بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم ، ولكن نعيمهم على قَدْر إمكاناتهم ، وهو نعيم غير دائم ؛ لأنه إما أنْ يزول عنهم بذهاب النعمة ، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت. إذن : فهو نعيم ناقص.

أما الذى يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته ، فسوف يفوز بنعيم لا على قَدْر إمكاناته ، ولكن على قَدْر إمكانات الله ، ولا مقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خَلْقه ، وفوق ذلك فهو نعيم دائم لا يتركك فيزول عنك ، ولا تتركه ؛ لأنك فى الجنة خالد لا تموت.

ويقول تعالى أيضاً :

﴿ **لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** (٩٥) ﴾

{النساء}

فالحق سبحانه يُرغِّب المؤمنين فى أن يكونوا مجاهدين ، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هى العليا ، فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصَّفِّ الإيمانى؛ لأنه ما دام قد نفع نفسه بالإيمان فلمَ لا ينضم إلى ركب مَنْ ينفع سواه بالإيمان؟

ويريد الله أنْ يُعبىء كل مَنْ مسَّ الإيمانُ قلبَهُ ، وحتى ولو كان موجوداً فى مكان يسيطر عليه الكفار ، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله ، وليخرج منضماً إلى إخوته المؤمنين ، وليشيع الإيمان لسواه ، ويُعبِّر عملياً عن حبه للناس مما أحبه لنفسه.

٥٠ هَؤُلاءِ يُحبهم اللَّهُ

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

«إنَّ اللهَ تبَارَكَ وتَعَالَى إذَا أحبَّ عَبْداً نَادَى جبْريل: إنَّ اللهَ قَدْ أَحبَّ فُلاَناً فَأحِبَّه. فَيُحبه جِبْريلُ ، ثُمَّ يُنادِي جِبْريلُ فى السَّماءِ:

إنَّ اللهَ قَدْ أَحبَّ فُلاَناً فأحبُّوهُ. فيُحبُّه أَهْلُ السَّماءِ وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِى أَهْلِ الأَرْضِ» (١).

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) ﴾[مريم]

أى : سيجعل لهم مودة ومحبة تقوم على الإيمان ، وتقود إلى شدة التعلُّق ، وقد جعل الحق سبحانه فى كَوْنه أسباباً لهذه المحبة والمودة ، كأنْ ترى إنساناً يُحبك ويتودّد إليك ، فساعةَ تراه مُقْبلاً عليك تقوم له وتبشُّ فى وجهه ، وتفسح له فى المجلس ، ثم تسأل عنه إنْ غاب ، وتعودُه إنْ مرض ، وتشاركه الأفراح ، وتواسيه فى الأحزان ، وتؤازره عند الشدائد ، فهذه المودة ناشئة عن حُبٍّ ومودة سابقة.

وقد تنشأ المودة بسبب القرابة أو المصالح المتبادلة أو الصداقة ، فهذه أسباب المودة فى الدنيا بين الخَلْق جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم.

أما هنا : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) ﴾ [مريم]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٥١٤) والبخارى فى صحيحه (٣٢٠٩ ، ٦٠٤٠، ٧٤٨٥) ومسلم فى صحيحه (٢٦٣٧) والترمذى فى سننه (٥/ ٣١٦١) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

أى : بدون سبب من أسباب المودة هذه ، مودة بدون قرابة ، وبدون مصالح مشتركة أو صداقة ، وهذه المودة بين الذين آمنوا ، كأن ترى شخصاً لأول مرة فتشعر نحوه بارتياح كأنك تعرفه ، وتقول له: إنِّى أحبك لله.

هذه محبة جعلها الله بين المؤمنين ، فَضْلاً منه سبحانه وتكرُّماً ، لا بسبب من أسباب المودة المعروفة.

لذلك قال هرم بن حيان (١) : إن الحق تبارك وتعالى حين يرى عبده المؤمن قد أقبل عليه بقلبه وأسكنه فيه ، وأبعد عن قلبه الأغيار ، وسلَّم قلبه وهو أسمى ما يملك من مستودعات العقائد وينبوع الصالحات وقدَّمه لربه فتح له قلوب المؤمنين جميعاً (٢).

كما جاء فى الحديث القدسى:«ما أقبل علىّ عبد بقلبه إلا أقبلتُ عليه بقلوب المؤمنين جميعاً»(٣) أى : بالمودة والرحمة دون أسباب.

وكذلك الحديث الذى معنا «إن الله إذا أحبَّ عبداً نادى فى السماء: إننى أحببتُ فلاناً فأحِبُّوه ، وينادى جبريلُ فى الأرض: إن الله أحبَّ فلاناً فأحبوه ، ويُوضَع له القبول فى الأرض».

فيحبه كل مَنْ رآه عطيةً من الله وفَضْلاً ، دون سبب من أسباب المودة ،

(١) هو : هرم بن حيان العبدى ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات فى يوم شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه.

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٣٣٣) :«كان هرم بن حيان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم».

(٣) أورد الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٧) عن أبى الدرداء ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه .. وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع» رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه محمد بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب.

وإنْ كنتَ قد تبرعتَ لله تعالى بما تملك وهو قلبك مستودع العقائد وينبوع الصالحات كلها ، فإنه تعالى وهبَ لك ما يملك من قلوب الناس جميعاً ، فهي في يده تعالى يُوجِّهها كيف يشاء.

والحق تبارك وتعالى من أسمائه «الودود».

قال تعالى : ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود]

والودُّ هو الحبُّ ، والحبُّ يقتضى العطف على قَدْر حاجة المعطوف عليه.

ولله المثَل الأعلى: نرى الأم ولها ولدان: أولهما قادر ثرى يأتي لها بما تريد ، وثانيهما ضعيف فقير ، فنجد قلب الأم - دائماً - مع هذا الضعيف الفقير ، وتُحنِّن قلب القوى القادر على الفقير الضعيف.

ونجد المرأة العربية القديمة تجيب على مَنْ سألها: أيّ أبنائك أحبّ إليك؟ فتقول : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى

إذن: فالحبُّ يقتضى العطف على قَدْر الحاجة.

ويقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

«يا بْنَ آدمَ ، لا تخافَنَّ من ذِي سُلْطان ، ما دام سُلْطانى باقياً ، وسلطانى لا ينفد أبداً.

يا بْنَ آدمَ ، لا تخْشَ من ضيق رِزْقٍ ، وخزائنى ملآنة ، وخزائنى لا تنفدُ أبداً.

يا بْنَ آدمَ ، خلقتُكَ للعبادة ، فلا تلعبْ ، وضمنتُ لك رزقكَ فلا تتعبْ ، فوعزتى وجلالى إنْ رضيتَ بما قسمتُه لك أرَحْتُ قلبك وبدنك ، وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تَرْضَ بما قسمتُه لك ، فوعزَّتى وجلالى لأُسلِّطن

عليك الدنيا ، تركض فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمتُه لك.

يا بْنَ آدمَ ، خلقْتُ السماواتِ والأرضَ ولم أعْىَ بخَلْقِهن ، أيُعيينى رغيفُ عَيْشٍ أسوقُه لك؟

يا بْنَ آدمَ ، لا تسألنى رِزْقَ غَدٍ كما لم أطلُبْ منك عَمَلَ غَدٍ.

يا بْنَ آدمَ ، أنَا لكَ مُحِبٌّ فَبِحقِّى عليك كُنْ لِى مُحباً».

والحب هو مَيْل قلب المحب إلى المحبوب ، وذلك الأمر يكون بالنسبة للبشر ، لكن بالنسبة للحق سبحانه هو تودُّد الخالق بالرحمة والكرامة على المخلوق.

فحبُّ الله لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته سبحانه فى التكليف ، أن الله يحب العبد الذى يعرف قيمة النعمة فى التكليف.

ودليل صدْق الحب هو قيام العبد بالتكليف ، وما دُمْتَ أنت قد عبَّرت عن صدْق عواطفك بحبك لله ، فلا بُدَّ أنْ يحبك الله ، وكُلٌّ مِنَّا يعرف أن حُبَّه لله لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، لكن حُبَّ الله لك يُقدِّم ويُؤخِّر.

إنك قد تحب الله ، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله ، وأنْ يحبك الله ، إن التكليف قد يبدو شاقاً عليك فتهمل التكليف ؛ لذلك نقول لك: لا يكفى أن تحب الله لنعمة إيجاده وإمداده ؛ لأنك بذلك تكون أهملتَ نعمة تكليفه التى تعود عليك بالخير.

إن نعمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان فلا تهملها.

وقد فصَّل لنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أصناف المؤمنين الذين يحبهم الله.

الله يحب المحسنين:

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يحب من عباده أن يكونوا على خُلقه ، فكما أن الله أحسن كل شيء خَلَقه يريد من عباده وقد تفضلَّ عليهم بالعقل المفكر فيخطط ، وبالطاقات فتبرز التفكير إلى عمل ، يريد الحق منَّا أن يكون رائدنا فى كل عمل أنْ نحسنه ، حتى نكون مُتخلِّقين بأخلاق الله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)** ﴾ [البقرة]

والإحسان كما علَّمنا رسول الله ﷺ :«أن تعبد الله ـ أى تطيع أوامره ـ كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإن يراك» (١) .

مشكلة الناس هذه الأيام أنهم يتشبهون بـ «فإنه يراك» فعملوا الدوائر التليفزيونية المغلقة فى المحلات الكبرى حتى تتم مراقبة سير العمل فى أرجاء المحل ، هذا فعل البشر ، لكن انظر إلى تسامى الإيمان ، إنه يأمرك أنت أن ترى الله ، فلا تؤد العمل أداء شكلياً يرفع عنك العتب ، بل عليك أن تؤدى العمل بقصد الإحسان فى العمل (٢).

والإحسان فى كل شيء هو إتقانه إتقاناً ، بحيث يصنع الإنسان لغيره

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضي الله عنه وهو حديث جبريل الذى قال عنه ﷺ فى هذا الحديث :«هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم».

(٢) قال النووى : هذا القدر من الحديث أصل عظيم من أصول الدين وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين وبغية السالكين وكنز العارفين ودأب الصالحين ، وهو من جوامع الكلم التى أوتيها ﷺ ، وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من التلبس بشيء من النقائص احتراماً لهم واستحياء منهم ، فكيف بمن لا يزال الله مطلعاً عليه فى سره وعلانيته؟ نقله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١/ ١٢٠) .

ما يحب أن يصنعه غيره له ، ولو تعامل الناسُ على هذا الأساس لامتازتْ كل الصناعات ، لكن إذا ساد الغشّ فأنت تغشُّ غيرك ، وغيرك يغشُّك ، وبعد ذلك كلنا نجأر بالشكوى.

علينا إذن أنْ نُحسِن في كل شيء ، مثلاً نُحسِن في الإنفاق ، ولن نحسن في الإنفاق إلا إذا أحسنَّا في الكَدْح الذي يأتي بثمرة ما ننفق؛ لأن الكدح ثمرته مال ، ولا إنفاقَ إلا بمال ، فتخرج من عائد كدْحك لتصرفَه في المناسب من الأمور.

ودائرة الإحسان لا تقتصر على الإنفاق فقط ، فالأمر هنا عام ، ولا تعتقد أنه أمر في زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم جزئية من جزئيات الحياة ، إنما كل زاوية من زوايا الدين جاءت لتخدم كل جزئيات الحياة ، فالإحسان إذا كان بالمال فهذا يقتضي أنْ يُحسن الإنسان الحركة في الأرض ، ويعمل عملاً يكفيه ويكفي مَنْ يعول ، ثم يفيض لديه ما يُحسِن به.

فوجوه الإحسان في الأشياء كثيرة ، وكلها تخدم قضية الإيمان ، وعندما يرى الكافر المؤمنين ، وكل واحد منهم يُحسِن عمله ، فإن ذلك يُغريه بالإيمان.

وإذا سألنا: ما الذي زَهَّد دنيانا المعاصرة في ديننا؟

فسوف نجد أن العالم ينظر إلى دين الله من خلال حركة المسلمين ، وهي حركة غير إسلامية في غالبيتها ، صحيح أن بعضاً من عقلاء الغرب وفلاسفته لا يأخذون الدين من حركة المسلمين ، وهذا منتهى العدالة منهم؛ لأنه ربما كان بعض المسلمين غَيْرَ ملتزم بدينه ، فلا يأخذ أحدٌ الإسلام منه لمجرد أنه مسلم.

وأتباع الديانات الأخرى يعرفون أن هناك أفعالاً جرَّمها دينهم ، ومادام هناك أفعال جرَّمها الدين وسَنَّ لها عقوبة ، فذلك دليل على أنها قد تقع ، فأنت عندما ترى شخصاً ينتسب إلى الإسلام ويسرق ، هل تقول: إن المسلمين لصوص. لا ، إن عليك أن تنظر إلى تشريعات الإسلام ، هل جرَّمت السارق أو لم تجرمه ؟

فلا يقولن أحد: انظر إلى حال المسلمين ، ولكن لننظر إلى قوانين الإسلام؛ لأن الله قدَّر على البشر أن يقوموا بالأفعال حَسنها وسيئها ؛ ولذلك أثاب على العمل الصالح وعاقب على العمل السيء.

والعقلاء والمفكرون يأخذون الدين من مبادىء الدين نفسه ، ولا يأخذونه من سلوك الناس ، فقد يجوز أن تقع عَيْن المراقب على مُخالف فى مسألة يُحرِّمها الدين ، فلا تأخذ الفعلَ الخاطىء على أنه الإسلام ، وإنما خُذْه على أنه خارج على الإسلام.

وساعةَ يرانا العالم محسنين فى كل شيء فنحن نعطيهم الأسوة التى كان عليها أجدادنا ، وجعلتْ الإسلام يمتدّ ذلك المدّ الخرافى الأسطورى حتى وصل فى نصف قرن إلى آخر الدنيا فى الشرق ، وإلى آخرها فى الغرب ، وبعد ذلك ينحسر سياسياً عن الأرض ، ولكن يظل كدين ، وبقى من الإسلام هذا النظام الذى يجذب له الناس.

إن الإسلام له مناعة فى خميرته الذاتية ، إنه يحمل مقومات بقائه وصلاحيته ، وهو الذى يجذب غير المسلمين له فيؤمنون به ، وليس المسلمون هم الذين يجذبون الناس للإسلام.

ولذلك أقول: لو أن التمثيل السياسى للأمم الإسلامية فى البلاد غير الإسلامية المتحضرة قد أخذ بمبادىء الإسلام لكان أُسْوة حسنة.

إذن: الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام.

ولو علم الذين لا يُحسنون أعمالهم، بماذا يحرمون الوجود لتحسَّروا على أنفسهم، ولَيْتَهم يحرمون الوجود من كلمة «الله»، ولكنهم يجعلون مكان «الله» كلمة خبيثة، فيشيعون القُبْح في الوجود، وحين يشيع القبح في الوجود يكون الإنسانُ في عمومه هو الخاسر.

ويعطينا الحق سبحانه جانباً آخر من الإحسان، فيقول:

﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

فالحق - سبحانه وتعالى - يبيح أن ترد الاعتداء بالمثل، ثم يُفسِح المجال لنكظم الغيظ فلا نعتدى، ولكن يظل السبب فى القلب، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نُخرج المسألة من قلوبنا، ثم يترقى ارتقاءً آخر، فيقول سبحانه: ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ومَنْ فينا غير راغب فى حب الله؟

وعملية الإحسان مع المسيء أو المعتدى: أهى عملية منطقية مع النفس الإنسانية؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية، ولكنك أيها الإنسان لا تُشرِّع لنفسك، إنما الذى يُشَرِّع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية.

والخالق يقول: لو علمتَ ما قدمه لك مَنْ أساء إليك لأحسنتَ إليه؛ لأنك إنْ أسأتَ إلى خَلْق من خَلْق الله، فالذى يثأر، ويأخذ الحق لمن أُسِيء إليه هو ربُّ هذا المخلوق، ويأتى الله فى صَفِّ الذى تحمَّل الإساءة.

إذن: فإساءةُ العدو لك جعلَت اللهَ فى صَفِّك وفى جانبك، ألاَ يستحق ذلك المسيء أنْ تشكره؟ ألاَ تقول لنفسك القول المأثور: ألاَ تُحسِن إلى مَنْ جعل الله فى جانبك.

والإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما افترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ، والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان هو مَنْ يعبد الله كأنه يراه ، فإنْ لم يكن يراه فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يرى كل خَلْقه.

ونحن نعرف قَوْل الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

ما الذى جاء بالإحسان هنا؟

وتكون الإجابة :﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧)﴾ [الذاريات]

وهل يُكلِّف الله خَلْقه ألاَّ يهجعوا إلا قليلاً من الليل ؟ لا ، فقد كلَّف الله المسلمَ بالصلاة ، وأعلمه بأنه حُرٌّ بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإنْ سَمِع أذان الفجر فليقُمْ إلى صلاة الفجر ، لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه ، فيزيد من صلواته فى الليل.

ويضيف الحق سبحانه مُذكِّراً لنا بصفات المحسنين:

﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات]

أكلَّف الله الخَلْق بأنْ يستغفروا بالأسحار؟ لا ، بل إن الرسول يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ، ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة ، فقال الرجل : والله لا أزيدُ على هذا ولا أنقص ، فقال الرسول ﷺ :«أفلح إن صدق»[2].

(١) الهجوع: النوم ليلاً . (القاموس القويم ٢/ ٢٩٨) .

(٢) عن طلحة بن عبيد الله قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات فى اليوم والليلة. فقال : هل علىَّ غيرهن؟ قال: لا ، إلا أن تطوع وصيام =

ويضيف الحق سبحانه فى استكمال صفات المحسنين :

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ١٩﴾ [الذاريات]

ونلحظ أن الحق هنا لم يَقُلْ «حَقٌّ معلوم» إنما قال: «حَقٌّ للسائل والمحروم» فالحقُّ المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم فى ماله حَقٌّ غَيْر معلوم ، وذلك ليُفْسِح سبحانه المجال للطموحات الإيمانية ، فمَنْ يزدِ فى العطاء فله رصيد عند الله.

فالإحسان كما نعلم له وجهان:

الوجه الأول: أن يعبد المؤمن اللهَ كأنه يراه ، وكلما جاء تكليف يُحسِن المؤمن فى أدائه ، كأنه يرى الله ، وإنْ لم يكن يراه فإنه يُحِسُّ أنه سبحانه يراه ، وإذا ما استوعب المسلم كُلَّ أحكام الله التى استوعبتْ بدورها كُلَّ أقضية الحياة ، فهو يُحسن أداء هذه الأحكام.

الوجه الثانى: أن يزيد المؤمن فى أداء هذه التكاليف فوق ما فرض الله ، وهى النوافل ، وبذلك لا يكتفى المؤمن بتصديق الأحكام التى نزلت ، بل يزيد من جنسها.

إذن : فالمحسن هو من عشق التكليف من الله وعرف منزلة القرب من الله ، فوجد أن الله قد كلَّفه دون ما يستحق سبحانه منّا ، فزاد من العمل الذى يزيده قُرْباً من الله.

= شهر رمضان ، فقال : هل عليّ غيره؟ فقال : لا إلا أن تطوع وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال :لا إلا أن تطوع . قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق . أخرجه مسلم فى صحيحه (١١) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٤٦ ، ١٨٩١)

الله يحب التوابين:

الله يحب التـوبة من عباده ، وهو سـبحانه أفـرَحُ بتوبة عـبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره ، وقد أضلَّه فى فلاة ؛ لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منهج الله لتـعطيـه نَفْعـاً عاجـلاً ، فـإن حلاوة الإيمـان ـ إنْ كان مـؤمناً ـ ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيداً عن المعاصى.

إن الإنسـان حين يُذنب ذنبـاً ينفلت من قـضيـة الإيمان ، ولو لم تشـرع التوبة والعـفو من الله لَزادَ الناس فى معاصـيهم وغَرقوا فيـها ؛ لأنه إذا لم تكُنْ هناك توبة ، وكـان الذنب الواحد يُؤدِّى إلـى النار ، والعقـاب سينال الإنسـانَ فإنه يتمادى فى المعصية ، وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعباده.

وفى حديث رسول الله ﷺ :

«لله أفرح بتوبة عـبده من أحدكم سقط على بعـيره وقد أضله فى أرض فلاة» (١) .

معنى حـديث رسول الله ﷺ : رجل مـعه بعـير يحـمل ماله وطعـامه شرابه وكل ما يملكه ، هذا البعير ضَلَّ فى صحراء جرداء ، بحث عنه صاحبه فلم يجده ، لقـد فقده وفقـد معه كل مُـقوِّمات حيـاته ، ثم ينظر فيراه أمـامه ، كيف تكون فـرحتـه؟ طبعاً سـتكون فرحتـه بلا حدود . هكذا تكون فَـرْحة الله تعالى بتوبة عبده المؤمن ، بل أشدّ من ذلك.

وقد قال الحق سبحانه فى الحديث القدسى:

«يَا بْنَ آدمَ ، إنك ما دعوْتَنى ورجَوْتَنى غـفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالى.

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) عن عبدالله بن مسعود ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) عن أنس بن مالك.

يَا بْن آدمَ ، لَوْ بلغَتْ ذُنُوبُك عَنانَ السَّمـاءِ ثُمّ اسْتغْفـرتَنى غَفرتُ لَكَ ولاَ أُبَالِى.

يا بْنَ آدمَ ، إنك لو أتيتَنـى بقُراب الأرض خَطَايا ثم لَقِيـتَنى لا تُشرك بى شيئاً لأتيتُكَ بقُرابها مَغْفرةً» (١).

والتوبة رحمة من الخالق سبحانه ينعم بها على مَنْ يشاء من عباده ، هذه الرحمة قريبة من المحسنين ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]

ولكن ، مَن الذى يُحدِّد قُرْب الرحمة منه؟

إنه الإنسـان ، فإذا أحسن قـرُبَتْ منه الرحـمة ، والزمام فى يـد الإنسان ؛ لأن الله لا يفتئتُ ولا يسـتبدّ بأحد ، فإنْ كنتَ تريد أن تقـرب منك رحمة الله فعليكَ بالإحسان.

ولذلك قُلْنَا: إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: «لا أملّ حتى تملوا» .

وأنت تدخل بيوت الله تصلى فى أى وقت ، وتقف فى أى مكان لتؤدى الصلاة. إذن :فاستحضارك أمام ربك فى يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقـية الأوقات كلها فى يدك ، وتسـتطيع أن تقف بين يدى الله فى أى لحظة وتتوب إليه وتستغفره.

وسبحانه يقول:«ومَنْ جاءنى يمشى أتيته هَرْولة»

وهو جَلَّ وعلا يوضح لك: اسـترح أنت وسآتى لك أنا ؛ لأن الجـرى قد يُتـعبك ، لكنى لا يـعـترينى تَعَبٌ ولا عِيٌّ ولا عـجز ، وكـأن الحق لايطلب من العبد إلا أنْ يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه.

إذن: فالمسألة كلها فى يدك.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤) والترمذى فى سننه (٣٥٤٠) والدارمى فى سننه (٢/ ٣٢٢) من حديث أبى ذر الغفارى ﷺ.

الله يحب المتقين:

يقول الحق سبحانه:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)﴾ [آل عمران]

قد يفهم البعض هذا القول بأن مَنْ أوفى بعهده الإيمانى واتقى الله فى أنْ يجعل كُلَّ حركاته مطابقة لـ «افعل» و«لا تفعل» فإن الله يحبه ، هذا هو المعنى الذى قد يُفهم للوَهْلة الأولى ، لكن الله لم يقُلْ ذلك. إن الحب لا يرجع إلى الذات ، بل يرجع إلى العمل.

لقد قال الحق سبحانه: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾ [آل عمران]

إن الإنسان قد يخطىء ويقول: «لقد أحبنى الله ، وسأفعل من بعد ذلك ، ما يحلُو لى» ونحن نُذكِّر صاحب هذا القول بأن الله يحب العمل الصالح الذى يؤديه العبد بِنيّة خالصة لله ، وليس للذات أىُّ قيمة.

لذلك قال:

﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾ [آل عمران]

إن الذين أوفى بعهده واتقى سيحب الله فيه التقوى ، وإياك أنْ تفهمَ أن الحب من الله للعبد سيصبح حُباً ذاتياً ، لكنه حُبٌّ لوجود الوصف فيه ، فاحرص على أن يكون الوصف لك دائماً ، لتظل فى محبوبية الله.

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أىِّ شىء يُغضب الله وقايةً ، وإن تعجَّب بعض الناس من قوْل الحق سبحانه وتعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ (١٩٤)﴾ (البقرة) وقوله ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ (٢٤)﴾ (البقرة) فإننا نقول : إن معنى «اتقوا الله» أى : اجعلوا بينكم وبين صفات الجبروت لله وقاية ، اتقوا صفات الجبروت فى الله حتى لا يصيبكم عذابه ، فلله صفاتُ جلال منها: المنتقم والجبار. والقهّار ، وله صفات جمال مثل: الرحيم والوهّاب والرزّاق والفتّاح.

إذن: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقايةً لكم ، وحمايةً من أنْ تتعرَّضوا لغضب الله تعالى ، والإنسان يتقى صفات الجلال فى الله بأن يتبع منهجه ويُطيعه فى كل ما أمر به ؛ لينال من فَيْض صفات الجمال.

وقوْل الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا النَّارَ** (٢٤) ﴾ (البقرة) أى: اجعلوا بينكم وبين النار وقاية حتى لا تمسّكم النار.

والمتقى هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ، ويجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية.

الله يحب الصابرين:

الصبر هو مَنْع النفس من الجزع من أىِّ شىء يحدث وهو يأخذ ألواناً شتى حَسْب تسامى الناس فى العبادة ، فمثلاً سُئِلَ الإمام على - رضي الله عنه - عن حَقِّ الجار؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه؟ قالوا: نعم قال: وأن تصبر على أذاه.. فكأنه ليس مطلوباً منك فقط ألاَّ تؤذى جارك ، بل وتصبر على أذاه.. والصبر هو الذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ، ولا تفعل ما نهاك الله عنه.

إن الله منعك من أشياء هى من شهوات النفس ، وأمرك بأشياء فيها مشقة ، وهذه محتاجة إلى الصبر ، وأنت إنْ أخذتَ منهج الله تعبُّداً ستأخذه فيما بعد عادة.

يقول أحد الصالحين فى دعائه: اللهم إنى أسألك ألاَّ تكلنى إلى نفسى ، فإنى أخشى يارب ألاَّ تثيبنى على الطاعة ؛ لأننى أصبحت أشتهيها.

فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا.. انظر إلى الطاعة من كثرة حُبِّ الله أصبحت مرغوبة مُحبَّبة إلى النفس.

والحق سبحانه يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** (١٥٣) ﴾ [البقرة]

أي: أنه يطلب منك أن تواجه الحياة في معية الله ، فأنت لو واجهتَ المشكلات في معيّة مَنْ تثق في قوته تواجه الأمور بشجاعة ، فما بالك إذا كنت في معية الله ، وكل شيء في الوجود خاضع لله ، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك وأنت مع الله؟

إن الأحداث لا تملأ الخَلْق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم ، وأما مَنْ يعيش في حضانة ربه فلا يجرؤ عليه الشيطان ، فالشيطان خنَّاس ، فإذا سهوْتَ عن الله اجترأ عليك ، وإذا ذكرتَ الله خنسَ وضَعُفَ ، فهو لا قوةَ له ، وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى في معركة ، وإنما يدخل مع خَلْق الله الذين ينسَونَ الله ويبتعدون عنه.

وما دام الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع الصابرين فلا بُدَّ أن نعشق الصبر ، وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا؟

يقول الحق ـ جَلَّ جلاله ـ في الحديث القدسي :

«يا بْنَ آدم ، مرضتَ فلم تَعُدْني. قال: ياربّ وكيف أعودك وأنت رَبُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ؟ أما علمتَ أنه لو عُدْتَهُ لوجدتني عنده» (١).

يقول بعض الصالحين: اللهم إني أستحي أنْ أسألك الشفاء والعافية حتى لا يكون ذلك زُهْداً في معيتي لك. إذن : لا بُدَّ أنْ نعشق الصبر؛ لأنه يجعلنا دائماً في معية الله.

ويقول الحق سبحانه :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)** ﴾ [آل عمران]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وما دام سبحانه يقول: اصبروا ، فلا بُدَّ أن يكون هذا إيذاناً بأن فيه مشقةً ، فالإيمان يؤدى إلى الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ، لذلك لا بُدّ أنْ تكون فيه مشقات.

وإذا نظرت إلى تلك المشقات تجدها فى ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة ، وتجدها فى ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى ، أما فى ذات النفس مفصولةً عن المجتمع فإن الصبر يقتضى أنْ تصبر على تنفيذ أمر الله فى فِعْل الطاعات ، وعلى تحمُّل الألم منه فى تَرْك المعاصى ، وإنْ كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها ، فإنك تصبر عن تلك الشهوة التى تُلِحّ عليك.

فمجاهدة المؤمن أنْ يصبر عن الشهوات التى نهى الله عنها ، والأشياء التى تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة فى النفس يصبر عليها ، والأشياء التى يصبر عنها من النواهى هى الشهوات والمتع التى يُحرِّمها الله.

وكأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : إننى خلقتُك ، وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة ؛ لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التى فى الطاعة إنْ فعلتها ستُورِثك مشقةً فى ذاتك ، اصبر عليها.

إذن: ففى الأوامر صَبْر على تنفيذها ، وفى المناهى صَبْر عن إيقاعها ، هذه كلها فى الذات ، أما إذا تعدَّتْ المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجى فالحق سبحانه يقول: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (١٧٧) ﴾ [البقرة]

الله يحب المتوكلين:

إياك أن تظن أن التوكل يعنى أن تترك الجوارح بلا عمل ، فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكُّل الكاذب ، والدليل على كذب مَنْ يقول ذلك أنه يحب أنْ يتوكّل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يُتوكّل فيه.

ونقول للرجل الذى يدَّعى أنه يتوكّل ولا يعمل: أنت لستَ مُتوكّلاً ، ولو كنتَ صادقاً فى التوكل إياك أنْ تمدَّ يدك إلى لُقْمة وتضعها فى فمك ، كُنْ مُتوكّلاً كما تدعى ، ودَعِ التوكلَ يضع لك اللقمة فى فمك ، واترك التوكل ليمضغها لك.

وطبعاً لن يفعل ذلك ، ولهذا نقول له أيضاً: إن ادعاءك التوكل هو بلادةُ حِسٍّ إيمانى ، وليس توكلاً.

والتوكل يقتضى إظهار عجز ، فمعنى أنى أتوكل على الله أننى استنفدت أسبابى ؛ ولذلك أرجع إلى مَنْ عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق.

فالتوكل معناه: تسليمك زمام أمورك إلى الحق ، ثقةً بحُسْن تدبيره ، ومن تدبيره أنْ أعطاك الأسباب فلا تردّ يد الله الممدودة بالأسباب ، والذى لا يتوكل على الله عليه أنْ يراجع إيمانه.

والحق سبحانه يقول﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)** ﴾ [الأنفال]

أى: أنهم يَكلُون أمورهم على مَنْ ائتمنوه على مصالحهم ، وهو الحق ـ سبحانه وتعالى ـ القادر العظيم الذى خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدى إلى مُسبِّبات الأسباب مقدمة ، والمسببات هى النتيجة ، وبعد ذلك ترك أموراً ليس فيها أسباب ، إلا أن نلحظ دائماً المسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعزّ عليك فى أسبابه ، إياك أن تيأس من أنه لا يحدث.

بل قُلْ: تلك هى قضية الأسباب ، أما أنا فلى رَبٌّ خلق الأسباب ، وهو القادر فوق كل الأسباب.

الله يحب المقسطين:

إن الله يحب الذين يزيلون الجورْ ، ومادام الحكم بالعدل يأتى ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جَوْراً مقنناً. إذن: فأقسط أى أزال جَوْراً مُقنّناً ، وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون ، والكون كله يسير بميزان ، الأرض تدور ، والشمس تؤدى مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر.

﴿ **وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (٤٠)﴾ [يس]

فإنْ أردتُمْ أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التى حولكم ، فإنْ كانت بنظام وميزان واعتدلتْ الأمور. اعدلوا - إذن - فى إدارة شئونكم حتى تنسجموا كما انسجم الكون.

ولذلك نقرأ قوله تعالى: ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** (٥) **وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ** (٦) **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** (٧) **أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ**(٨)﴾ [الرحمن]

أمامكم الموازين العُليا فى الكون ولا تستطيعون إفسادها ؛ لأنها تسير بنظام لا دَخْلَ لكم به ؛ لذلك عليكم أنْ تتعلّموا منها ، وأن تدبروا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية.

﴿**وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** (٩)﴾ [الرحمن]

فإنْ رأيتَ حولك كَوْناً غير مضطرب وغير متصادم ، ويؤدى حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزاناً فى الأمور الاختيارية والمرجحات الاختيارية هى أحكام التكليف من الله ، فإنْ أردتَ أنْ تستقيم لك الأمور الاختيارية فسِرْ بها على الميزان الذى وضعه الله.

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) ﴾(المائدة)

أى: أن الله يحب الذين إنْ رأوْا ظُلْماً أزالوه ، وأحلُّوا محلَّه العدل. والحق سبحانه يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)﴾ [النساء]

وهذه ليست خاصة للحاكم فقط ، بل إن كل إنسان مطالب بالعدل ، فلو كنتَ مُحكّماً من طرف قوم ورضُوا بك أن تحكم ، فاحكُمْ بالعدل حتى ولو كان الحكم فى الأمور التى يتعلق بها التكريم والشرف والموهبة ، فليس ضرورياً أنْ يكونَ الحكم بالعدل فى أمر له قيمة مادية.

فسيدنا على ـ رضوان الله عليه وكرَّمَ الله وجهه ـ يرى غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن ، ليحكم بينهما: أى الخطين أجمل من الآخر؟

وهذه مسألة قد ينظر لها الناس على أنها مسألة تافهة ، لكنها مادامتْ شغلتْ الطفلين ، وأراد كل واحد منهما أن يكون خطُّه أجمل ، فلابُدَّ أن يكون الحكم بالعدل ، فقال الإمام على لابنه الحسن :يا بنى ، انظر كيف تقضى ، فإن هذا حُكْم ، والله سائلك عنه يوم القيامة.

إن هذا يعطينا صورة فى دقة العدل ، حتى ولو كان الأمر صغيراً.

قال العلماء: إذا عَلم المجتمع أن عَدْلاً يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يُجرِّىء ذلك ظالماً على أنْ يظلم بعد ذلك ، فيقول الظالم: فلان ظلم ولم يُحاكم ، فيغرى ذلك الظالم أن يزيد فى ظُلْمه ، لكن ساعة يرى الناس أحداً يأخذ حَقَّ غيره ، ثم جاء الحاكم فَرَدَعَهُ ، وردَّ الحق لصاحبه فلن يظلم أحدٌ أحداً.

فقولُ الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ (٥٨)﴾ [النساء]

لا بُدَّ أن نأخذه على أنه مطلب تكليفى من الله للمسلمين حتى يشيع فى كلِّ الناس ، ولا يخصّ المؤمنين ، يتعاملون به فيـما بينهم ، وإنما يشمل أيضاً ما بين المؤمنين والكافرين ، وما بين الكافـرين بعضهم مع بعض إنِ ارتضَوْا حُكْمَ رسول الله.

●●●

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الحديث ٢٨: حرمة الظلم	
«ياعبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»	٣
الحديث ٢٩: نصرة المظلوم	
«وعزتى وجلالى ، لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله ، ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم ينصره»	٤١
الحديث ٣٠: لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب	
«إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالثٌ ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ثم يتوب الله على من تاب»	٦٥
الحديث ٣١: رغم أنف إبليس	
«قال إبليس : أي رب لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الرب عزوجل : فبعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى»	٨٥
الحديث ٣٢: رؤية الله فى الدنيا والآخرة	
«يا موسى لن ترانى إنه لن يرانى حى إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده ، ولا رطب إلا تفرق ، إنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم»	١١٧
الحديث ٣٣: سهام إبليس	
«النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه»	١٣١
الحديث ٣٤: النفس والأجل	
«قال تعالى للنفس : أخرجى . قالت : لا أخرج إلا كارهة. قال : أخرجى وإن كرهت»	١٤١
الحديث ٣٥: الذكر والذاكرون	
«أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه»	١٥٩
الحديث ٣٦: الأمة الوسط	
«يجىء النبى ومعه الرجلان ، ويجىء النبى ومعه الثلاثة .. من شهد لك ،	

محمد وأمته ، فتدعى أمة محمد ، هل بلغ هذا فيقولون : نعم ، وما علمك بذلك ، فيقولون : أخبرنا نبينا بذلك» ١٧١

الحديث ٣٧ : ألواح موسى

«ليس الخبر كالمعاينة ، قال الله لموسى : إن قومك صنعوا كذا وكذا فلم يُبال، فلما عاين ألقى الألواح» ١٨٣

الحديث ٣٨ : باب التوبة والرحمة

«إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة قال : بل باب التوبة والرحمة» ٢٠٥

الحديث ٣٩ : قد فعلت

«قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا قال: فألقى الله الإيمان فى قلوبهم فأنزل الله (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) قال: قد فعلت» ٢١٩

الحديث ٤٠ : كيف تركتم عبادى؟

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادى؟» ٢٣٥

الحديث ٤١ : ائتيا طوعاً أو كرهاً

«قال للسماء : أَخْرِجى شَمْسَك وقَمرك ونُجومك. وقالَ للأرضِ: شَقِّقى أنهارَك وأَخْرِجى ثمَارك. فَقَالَتَا : أَتيْنَا طَائِعين». ٢٥٠

الحديث ٤٢ : يَعْجَبُ الربُ منْ عَبْدِه

قال ﷺ : يَعْجَبُ الربُ من عَبْده إذَا قَال : ربِّ اغفرْ لِى وَيَقُولُ : «عَلِمَ عَبْدِى أنَّه لاَ يغفرُ الذُنُوبَ غَيْرِى». ٢٦٧

الحديث ٤٣ : بَيْتَ الحَمْد

قَالَ رسُولُ الله ﷺ :«إذَا ماتَ وَلَدُ العَبْد قالَ اللهُ لملائكته : قَبضتُم وَلَدَ عَبدِى؟ فَيَقُولُونَ : نَعم فيقولُ ربُّ العزَّة : قَبضتُم ثمرةَ فُؤَادَى؟فَيقُولونَ : نَعمَ.فَيقُولُ : ماذَا قَالَ عَبْدى ؟ فَيقولُونَ : حَمدَكَ وَاسْترجع. فَيقُولُ اللهُ : ابْنُوا لعبْدى بَيْتاً فى الجنة ، وسَمُّوه بيْتَ الحَمْدَ» ٢٨١

الحديث ٤٤ : أنفقْ أُنفقْ عليك

قَالَ رَبُّ العزة سبحانه: أَنْفِقْ أُنْفِق عليك. وقَالَ : يَدُ الله مَلأى ، لاَ تَغيضُها نفقَةٌ ، سَحاء الليلَ والنهارَ. وقَالَ : أرأيتم مَا أنفقَ منذُ خَلَقَ السَماءَ والأرضَ ، فإنَّه لَمْ يَغِضْ مَا فى يَده ، وكانَ عرشُه على الماء ، وَبيده الميزانُ يَخفضُ ويرفَعُ. ٢٩٩

الحديث ٤٥: أذن وعلىَ البلاغ

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لَمَّا فَرَغَ إبْراهيمُ منْ بنَاء البَيْت قَالَ: رَبِّ قَدْ فرغْتُ. فقال: أذِّنْ في النَّاس بالحَجِّ. قَالَ: رَبِّ ومَا يبلُغ صَوْتِي؟ قال: أذِّنْ وعليَّ البَلاَغُ. قال: رَبِّ كيْفَ أقُولُ؟ قال: يَأَيُّهَا النَّاس، كُتبَ عليكُم الحج. حج البيْت العَتيق. فَسَمِعَه منْ بين السَّماء والأرْض، ألاَ تَري أنهُمْ يجيئُونَ منْ أقْصَى الأرْض يُلَبُّونَ؟ ٣٠٧

الحديث ٤٦: القرض الحسن

«اسْتقْرَضْتُ عَبْدي، فَلَم يُقْرِضْني» ٣٢٧

الحديث ٤٧: الفوز العظيم

«أيّما عَبْد منْ عبَادى خرجَ مُجاهداً فى سَبيلى، ابْتغاءَ مَرْضَاتى، ضَمنْتُ له أنْ أُرجعَهُ بمَا أصابَ منْ أجْر وغنيمة، وإنْ قَبَضْتُه أنْ أغفر له، وأرْحمه، وأُدْخلَه الجنَّة» ٣٣٧

الحديث ٤٨: فيما ضيعتَ حقوق الناس

«يَدْعُو اللهُ بصَاحب الدَّيْن يَوْمَ القيامَة، حتَّي يُوقَفَ بيْن يَدَيْه، فيُقَال: يا ابْنَ آدمَ فيمَا أخَذْتَ هذَا الديْنَ؟ وفيما ضَيعْتَ حُقُوقَ النَّاس؟ ٣٤٩

الحديث ٤٩: يا عبدى.. تمنّ علىَ أعطك

قال: ما كَلَّم الله أحداً قَطُّ، إلاَّ مَنْ وراَء حجَاب، وأحْياَ أبَاكَ، فكلَّمه كفاحاً، فقَالَ: يَا عبْدى، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطكَ. ٣٦٣

الحديث ٥٠: هؤلاء يحبهم الله

«إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه» ٣٧٥

تمت بحمد الله